

تحفة السالكين
من «إحياء علوم الدين»
وترياق المقبلين
من أقوال العارفين
تأليف
عبد الرحمن الشعار
مروان الكاتب
وهو عبارة عن زبدة «إحياء علوم الدين»
مع مزج بكلام السادة العارفين
بحيث يستغني به المريد السالك والمرشد المسلك
دار الإحسان
للنشر والتوزيع

تحفة السالكين

من إحياء علوم الدين،

وترياق المقبلين

من أقوال العارفين

موبايل: ٠١١٢١٠٧٧١٧٤
Email: darelehsan@gmail.com

الكتاب: تحفة السالكين من إحياء علوم الدين وترياق المقبلين من أقوال العارفين

تأليف: عبد الرحمن الشعار ومروان الكاتب

الناشر: دار الإحسان

سنة الطباعة: 2021

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 11652/ 2020

الترقيم الدولي: 978-977-6816-07-7







تأليف

عبد الرحمن الشعار | مروان الكاتب

وهو عبارة عن زبدة «إحياء علوم الدين»
مع مزج بكلام السادة العارفين
بحيث يستغني به المريد السالك والمرشد المسلك

دار الإحسان
للنشر والتوزيع



مُقدِّمةُ المُختصَر

الحمد لله الذي زيَّن قلوبَ المريدين بنور معرفتِه، وملأها مِن جلال هيبته، وأتحفهم بميادينِ مؤانستِه، وطيَّب أسرارَهم برياحين مِنَّته، حتى عرفوه به لا بدلائله، وعبدوه لأجلِ محبَّتِه لا لنعيمِ جنَّتِه، وتقرَّبوا إليه لوصلِهِ لا لميرته[١]، فقلوبُهم مِن حُبِّه والِهة، وأبدانُهم مِن خوفِ هجرانِهِ ناحلة، وأرواحُهم في روضات قُدْسِهِ راتعة.

والصلاة والسلام على سيِّدِ رسلِه وأنبيائه، وقدوةِ أصفيائه وأوليائه، وعلى آله وأصحابه وأحبّائه.

وبعد، فإن هذا المختصرَ المُسمَّى بـ «**تحفة السالكين من إحياء علوم الدين وترياق المقبلين من أقوال العارفين**» لا يستغني عنه شيخٌ ولا طالبُ علم، وذلك لِما احتوى عليه مِن نفائسِ العلوم ودقائقِ الفهم، ولما اشتمل عليه مِن مُهِمّاتِ القواعدِ في رياضات النُّفوسِ، وأمَّهاتِ الآدابِ للدخول إلى حضرة القُدُّوس.

ولا شك أنَّ علمَ التَّصوُّفِ أنفعُ العلوم، لكونِهِ سبيلاً إلى تخليةِ النَّفسِ عن آفاتِها وكدوراتها، وتحليتِها بالحقائق والمعارف، وتزكيتِها بالدَّقائقِ واللطائف، فهو العلمُ النافعُ الذي يثمرُ في القلبِ خشيةَ الله تعالى.

---

(١) الميرة: ما يجمعه الإنسانُ أو يدَّخره مِنْ طعامٍ ونحوِهِ، والمقصود بذلك أنهم لا يبتغون مِنَ التَّقرُّبِ إلى مولاهم حَظّاً من الحظوظ سوى مرضاة ربهم.

فالتصوُّفُ الحقُّ هو الذي يُوضّحُ المنهاجَ التربويَّ والسلوكيّ والأخلاقيّ ومِنْ ثَمّ الرُّوحيّ والمعرفي، لأنه عبارةٌ عن مقاماتٍ ثلاث، وهي التخلي والتحلي والتجلي.

فالتخلّي أن يتخلّى المرءُ عن الأخلاقِ الدَّنيّة والصّفاتِ الذَّميمة، والتحلّي أن يتحلّى بالأخلاقِ السَّنية والشمائل المحمدية، والتَّجلّي أن يتحقَّقَ بالمعارِف والأنوارِ الوهبية، ولا يَتِمُّ له ذلك إلا بكمالِ التقوى، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: نورًا تُفرّقونَ به بين الحق والباطل.

وقد وفَّقَ الله تعالى الإمامَ الغزاليَّ رضي الله تعالى لوضعِ كتابه المتين «إحياء علوم الدين»، وذلك لبيان التصوف الصحيح السليم، المستمد من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأحوال الأولياء العارفين، حتى قال العلماء فيه: «مَنْ لم يَقرأ الإحياء فليس مِنَ الأحياء»، وكانَ الشَّيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول: «نظرت فِي كتب التصوف فَمَا رَأَيْت مثل الإحياء للغزالي». ولقد كانت له فيه خلوات كثيرة[1].

وقد أسَّسَهُ على أربعةِ أرباع، وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، وجَعَلَ في كل ربعٍ عشرةَ أبواب، فجاء أربعين باباً على النحو الآتي:

ربع العبادات:

١. كتاب العلم.

---

(١) ينظر: (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) (٢/ ٢١٠).

٢. كتاب قواعد العقائد.
٣. كتاب أسرار الطهارة.
٤. كتاب أسرار الصلاة.
٥. كتاب أسرار الزكاة.
٦. كتاب أسرار الصيام.
٧. كتاب أسرار الحج.
٨. كتاب آداب تلاوة القرآن.
٩. كتاب الأذكار والدعوات.
١٠. كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

ربع العادات:

١. كتاب آداب الأكل.
٢. كتاب آداب النكاح.
٣. كتاب أحكام الكسب.
٤. كتاب الحلال والحرام.
٥. كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق.
٦. كتاب العزلة.
٧. كتاب آداب السفر.
٨. كتاب السماع والوجد.
٩. كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
١٠. كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

ربع المهلكات:

١. كتاب شرح عجائب القلب.

٢. كتاب رياضة النفس.

٣. كتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج.

٤. كتاب آفات اللسان.

٥. كتاب آفات الغضب والحقد والحسد.

٦. كتاب ذم الدنيا.

٧. كتاب ذم المال والبخل.

٨. كتاب ذم الجاه والرياء.

٩. كتاب ذم الكبر والعجب.

١٠. كتاب ذم الغرور.

ربع المنجيات:

١. كتاب التوبة.

٢. كتاب الصبر والشكر.

٣. كتاب الخوف والرجاء.

٤. كتاب الفقر والزهد.

٥. كتاب التوحيد والتوكل.

٦. كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

٧. كتاب النية والصدق والإخلاص.

٨. كتاب المراقبة والمحاسبة.

٩. كتاب التفكر.

١٠. كتاب ذكر الموت.

فَذَكَرَ في ربع العباداتِ خفايا آدابِها، ودقائقَ سُنَنِها، وأسرارَ معانيها مما يضطرُ العالِمُ العامِلُ إليها، بل لا يكونُ مِن علماءِ الآخرةِ إلا إن اطلعَ عليها.

وذَكَرَ في ربعِ العاداتِ أسرارَ المعاملاتِ الجاريةِ بين الخلقِ، وبيَّنَ أغوارَها، ودقائقَ سنَنِها، وخفايا الورعِ في مجاريها، وهي مما لا يستغني متديِّنٌ عنها.

وذَكَرَ في ربعِ المهلكاتِ كلَّ خُلُقٍ مذمومٍ أَمَرَ القرآنُ بإماطتِهِ وتزكيةِ النفسِ عنه، وتطهيرِ القلبِ منه، وذَكَرَ حَدَّ كلِّ خُلُقٍ وحقيقتَهُ، ثمَّ ذَكَرَ سببَهُ الذي منه يتولَّدُ، ثم الآفاتِ التي عليها تترتب، ثم العلاماتِ التي بها تتعرَّف، ثم طرقَ المعالجةِ التي بها منها يُتخلَّص، كلُّ ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وذَكَرَ في ربعِ المنجياتِ كلَّ خُلُقٍ محمودٍ وصفٍ مرغوبٍ فيه مِنْ أوصافِ المقرَّبين والصِّديقين التي بها يتقرَّبُ العبدُ مِنْ ربِّ العالمين، وذَكَرَ حَدَّ كلِّ خَصلةٍ وحقيقتَها وسببَها الذي به تُجتَلَب، وثمرتَها التي منها تُستفاد، وعلامتَها التي بها تتعرَّف، وفضيلتَها التي لأجلِها فيها يُرغَبُ، مع ما وَرَدَ فيها مِنْ شواهد الشرع والعقل.

وذَكَرَ في مقدِّمتِهِ خمسةَ أمورٍ مما يُميِّزُ كتابَهُ عن غيره مِنَ الكتب، فقال:

الأول: حَلُّ ما عقَّدوهُ، وكشفُ ما أجملوه.

الثاني: ترتيبُ ما بدَّدوه، ونظمُ ما فرَّقوه.

الثالث: إيجازُ ما طوَّلوه، وضبطُ ما قرَّروه.

الرابع: حذفُ ما كرَّروه، وإثباتُ ما حرَّروه.

الخامس: تحقيقُ أمورٍ غامضةٍ اعتاصَتْ على الأفهام لم يُتعرَّضْ لها في الكتب أصلاً؛ إذ الكلُّ وإنْ تواردوا على منهجٍ واحدٍ فلا مستنكرٌ أن ينفرد كلُّ واحدٍ مِنَ السالكين بالتنبيهِ لأمرٍ يخصُّهُ ويغفلُ عنه رفقاؤه، أو لا يغفل عن التنبيه ولكنْ يسهو عن إيرادِهِ في الكتب، أو لا يسهو ولكنْ يَصْرِفُهُ عن كشفِ الغطاءِ عنه صارفٌ، فهذه خواصُّ هذا الكتاب، مع كونِهِ حاوياً لمجامعِ هذه العلومِ.

ومِنْ أهمِّ مقاصدِ الإمامِ الغزاليِّ رضي الله عنه بيانُ أنَّ الشَّريعةَ هي بابُ الحقيقةِ، حيث إنَّ الشريعةَ التزامُ آدابِ العبادةِ والعبودية، والحقيقةَ مشاهدةُ أنوارِ الرُّبوبية، فكلُّ شريعةٍ لا تُؤيِّدُها الحقيقةُ فهي عاطلة، وكلُّ حقيقةٍ غير مقيَّدةٍ بالشريعة فهي باطلةٌ، قال الشيخ عليٌّ الخوّاصُ رضي الله عنه: (لكلّ مأمورٍ شرعيٍّ مِنْ فرضٍ أو مندوبٍ مجالسةٌ مع الحقّ تعالى، ولكلّ منهيٍّ عنه مِنْ حرامٍ أو مكروهٍ حجابٌ عن الله تعالى، ومَنْ شَهِدَ كشفاً أنَّ المُشرِّعَ هو رسولُ الله ﷺ في الأمرِ والنهيِ كان على وِزانِ ذلك، فيكون حجابُهُ عن رسولِ الله ﷺ وحضورُهُ معه على حسبِ فعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيه).

وقد أجمعَ أهلُ الله تعالى على أنَّه لا يَصِحُّ دخولُ حضرةِ الله تعالى في صلاةٍ وغيرِها إلا لِمَنْ تَطَهَّرَ مِنْ سائرِ الصِّفاتِ المذمومةِ ظاهراً وباطناً، بدليلِ عدمِ صِحّةِ الصَّلاةِ لِمَنْ صلَّى وفي ثوبه أو بدنه نجاسةٌ غيرُ معفوٍّ عنها، أو ترَكَ لُمْعةً مِنْ أعضائه بغير طهارة، ومَنْ لم يتطهَّرْ كذلك فصلاتُهُ صوريّةٌ لا حقيقيّةٌ، كما أنَّ مَنِ احتجبَ عن شهودِ الحق تعالى بقلبِهِ في لحظةٍ مِنْ صلاتِهِ بَطَلَتْ

صلاتُهُ عند القومِ كذلك، وقد نبَّه الشارعُ ﷺ باشتراطِ الطهارةِ الظاهرةِ مع الطهارةِ الباطنةِ، فأراد أهلُ الله تعالى مِنَ المريدِ أن يُطابِقَ في الطهارةِ بين باطنِهِ وظاهرِهِ؛ ليخرج مِنْ صفةِ النِّفاقِ؛ فـ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والحاصل: أنَّ طريقَ العملِ بالكتابِ والسُّنّةِ قد توعَّرتْ في هذا الزمان وعَزَّ سالكوها؛ لأمورٍ عَرَضَتْ في الطريقِ يطولُ شرحُها حتى صارَ الإنسانُ يرى الأخلاقَ المحمديّةَ فلا يقدرُ على الوصولِ إلى التخلُّقِ بشيءٍ منها، ولذا يحتاج مَنْ يعملُ بها إلى شيخٍ يسلكُ به الطريق، ويزيلُ مِنْ طريقِهِ الموانع التي تمنعُهُ عن الوصولِ إلى التخلُّقِ بها.

واعلم أنه لا يلزمُ مِنْ معرفةِ الفقيهِ بالأحكام الوصولُ إلى العملِ بها، بل يحتاجُ مع ذلك إلى شيخٍ يُريه معالِمَ الطريق، كما وَقَعَ للإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيرهما.

فوالله لقد فاز مَنْ كان له شيخٌ كاملٌ، وخَسِرَ مَنْ لم يتخذْ له شيخاً أو اتَّخذَهُ ولم يَسْمَعْ لِنُصْحِهِ، كما عليه غالبُ المريدِينَ في هذا الزمان.

وقد أجمعَ أهلُ الطريقِ على وجوبِ اتِّخاذِ الإنسانِ له شيخاً يُرشِدُهُ إلى زوالِ تلك الصِّفاتِ التي تمنعُهُ مِنْ دخولِ حضرةِ الله تعالى بقلبِهِ؛ لتصحَّ عباداتُهُ مِنْ باب: «ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب»، ولا شكَّ أنَّ علاجَ الأمراضِ الباطنيّةِ كلِّها واجبٌ، مِنْ حُبِّ الدُّنيا والكبرِ والعجبِ والرِّياءِ والحسدِ والحقدِ والغِلِّ والنِّفاقِ ونحوِها، كما تشهدُ الأحاديثُ الواردةُ في تحريم هذه الأمور والتوعُّدِ عليها بالعقاب.

فعُلِمَ أنَّ كلَّ مَنْ لم يتخذ له شيخاً يُرشِدُهُ إلى الخروجِ مِنْ هذه الصّفاتِ فهو عاصٍ لله تعالى وللرسولِ ﷺ؛ لأنَّه لا يهتدي لطريقِ العلاجِ بغيرِ شيخٍ ولَوْ حَفِظَ ألفَ كتابٍ في العلم، فهو كَمَنْ يحفظُ كتاباً في الطّبِّ ولا يَعْرِفُ يُنزِلُ الدَّواءَ على الداء، فكلُّ مَنْ سَمِعَهُ وهو يُدرِّسُ في الكتاب يقولُ: إنَّه طبيبٌ عظيمٌ، ومَنْ رآه حينَ يُسألُ عن اسمِ المرضِ وكيفيّةِ إزالتِهِ قال: إنَّه جاهلٌ.

ولذلك كان الشيخ إبراهيمُ المتبوليُّ ـ رحمه الله ـ يقول: إذا قرأتم العلمَ فاقرؤوه على العلماء العاملين، وإياكم أن تقرؤوه على أحدٍ مِنَ المجادلين الذين لا يُعوِّلون على العمل بما عَلِمُوه، فإنَّكم تخسرون بركةَ علمِكم، فإنَّ إبليسَ لهؤلاء بالمرصاد؛ لكونهم حملةَ الشريعةِ، وبقاؤها ببقائهم، فإذا أتلفَ حالَهُم تَلِفَ حالُ الشريعة؛ لعدمِ الأعمالِ التي يفعلونها حتَّى يقتدي الناسُ بهم فيها، فكأنَّ الشريعةَ لم تكن موجودةً؛ لأنَّه لا وجودَ لعينِها إلا بالعملِ بها.

وأسرعُ الطرقِ للوصول إلى الله تعالى:

ـ كثرةُ الذِّكرِ حتَّى يجذبَكَ الاسمُ إلى المسمَّى، وحينئذ يبقى مَنْ لم يزل ويفنى مَنْ لم يكن.

ـ وكثرةُ الصَّلاةِ على النبيِّ ﷺ، بل لا وصولَ إلى الله تعالى إلا مِنْ خلالِها.

ـ وصحبةُ العارفِ بالله الذي يأخذُ بيدِ المريدِ حتى يُوصِلَهُ إلى الحضرةِ المحمديّةِ، وحينئذٍ يتولّاه الحبيبُ ﷺ فيُهذِّبهُ ويُؤهِّلهُ للدُّخول إلى حضرة الله الخاصة.

ـ وقراءةُ كتب العارفين فإنها ـ كما قال الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس

سره ـ وُضِعَتْ لتقريبِ المسافةِ البعيدةِ على المريدين، وقد ينالُ المريدُ بمسألةٍ مِنْ مسائلِ علمِنا هذا ما لا يناله بمجاهدةِ خمسينَ سنة، وذلك لأنَّ السالكَ إنَّما ينالُ ثمرةَ سلوكِهِ وعلمِهِ، والعلومُ التي وَصَفَها الكُمَّلُ مِنْ أهلِ الله تعالى هي ثمرةُ سلوكِهم وأعمالِهم الخالصة، فكم بين ثمرةِ عملٍ معلولٍ إلى ثمرةِ عملٍ مخلص، بل علومُهم مِنْ وراء ثمراتِ الأعمال؛ لأنَّها بالفيضِ الإلهيِّ الواردِ عليهم على قدرِ وُسْعِ قوابلهم، فكم بين قابليّةِ الكاملِ مِنْ أهل الله وبين قابلية المريدِ الطالب، فإذا فَهِمَ المريدُ الطالبُ ما قُصِدَ مِنْ وضعِ المسألةِ في الكتابِ وعَلِمَهُ استوى هو ومُصنِّفُهُ في معرفةِ تلك المسألة، فنال بها ما نال المصنِّفُ، وصارت له مِلكاً مثلَ ما كانت للمصنِّف.

وما وَرَدَ عن بعضِ أهلِ الله مِنْ منعِ بعضِ التلامذةِ عن مطالعةِ كتبِ الحقيقة؛ لأنَّ قاصرَ الفهمِ لا يخلو إما أن يتناولَ كلامَهم على خلافِ ما أرادوه فيستعمله فيهلك، أو يضيِّعَ العمرَ في تصفُّحِ الكتبِ بلا فائدة، فنهي الشيخِ لِمثلِ هذا عن مطالعةِ هذهِ الكتبِ واجبٌ؛ ليشتغلَ بغيرها مما فيه نفعُهُ، وأما مَنْ كان ذا عقلٍ ذكيٍّ وفهمٍ عليٍّ، وإيمانٍ قويٍّ، فإنَّه يأخذُ مِنْ كتبِنا كلَّ ما يأخذُهُ وينالُ منها كلَّ مقصدِهِ، ولقد رأيتُ في زماننا هذا طائفةً كثيرةً مِنْ كلِّ جنسٍ مِنْ أجناس العربِ والفرسِ والهندِ والتركِ، وغير ذلك من الأجناسِ كلهم بلغوا بمطالعةِ كتبِ الحقيقةِ مبالغَ الرجال، ونالوا منها مقاصدَ الآمال، فَمَنْ أضافَ بعد ذلك إلى علمِهِ وفضلِهِ سلوكاً واجتهاداً صار مِنَ الكُمَّل، ومَنْ وَقَفَ بعدَ علمِهِ كان مِنَ العارفين.

وسببُ ذلك أنَّ المسائلَ الموضوعةَ في كتبِ أهلِ الحقيقةِ إنَّما تُفيدُكَ

بالوضعِ علمَ التَّوحيدِ تصريحاً، وبالعبارةِ والإشارةِ عينَ التوحيدِ كنايةً وتلويحاً، وبضربِ الأمثالِ حقَّ التَّوحيدِ رمزاً وتسنحياً، فقد يكون بعضُ الكتبِ مسبوكاً على هذه الهيئاتِ كلِّها، فيدخل بك إلى علم اليقين، فإن عملتَ بمقتضاه ولازمتَ مطالعةَ ذلك الكتاب على حكمِ ذلك العلم فإنه ينتقلُ بك إلى عين اليقين، ثم يُرقِّيك إلى حقِّ اليقين إن أعطيتَ نفسَكَ لذلك العينِ على حكمِ ما ذكره المؤلِّف.

وإني قد رأيتُ صبياناً مِنْ أهلِ الطريقِ مِنْ إخواني بلغوا بمطالعةِ هذه الكتبِ في الأيامِ القليلةِ ما لم يبلغْهُ رجالٌ باجتهادِ أربعين وخمسين سنةً، على أنهم قد كانوا سبباً لدخولِ أولئك الصبيان إلى الطريق، ولكنَّهم لمَّا وقفوا مع سلوكهم وسار أولئك الصِّبيانُ في مطالعة كتبِ الحقيقةِ وفهمِها، وتأخَّروا عن مداهم صار الصِّبيانُ شيوخاً في الحقيقة، والشيوخُ لهم صبياناً حتى أنشدَ منشدٌ، فقال:

وقــد تبنَّيــتُ آبائي علــى ثقةٍ ولا محالــةَ أنِّي وجــهُ كلِّ أب

وهذا البيتُ لرجلٍ مِنْ تلامذةِ شيخٍ لم نعلم له شيئاً مِنْ أعمالِ الطريقِ سوى مطالعةِ كتبِ الحقيقة حتى بَلَغَ مِنْ هذا العلمِ ما سَبَقَ به كثيراً مِنَ السابقين.

وإنما أوردتُ لك هذه الحكاياتِ كلَّها حتَّى أُفْهِمَكَ قدرَ هذا العلمِ وعلوّ شأنه؛ لترغبَ في تحصيل هذا العلمِ الشريفِ بمطالعة هذه الكتبِ وممارستِها ومذاكرتها مع أهلها حيث كانوا، فإنَّ الرجلَ منهم قد يُفيدُك بكلمةٍ ما لا يفيدك الكتب كلها في العمر كله؛ لأنك تأخذ مِن الكتابِ بفهمك، والرجل العالم بالله إذا أرادك لفهمِ مسألةٍ على ما هي عليه أعطاك فهمَهُ فيها، وكم بين فهمِكَ وفهمِهِ.

ولقد كانت مطالعةُ كتبِ الحقيقةِ عند المحققين أفضلَ مِنْ أعمالِ السالكين، ومجالسةُ أهلِ الله مع التأدُّبِ معهم أفضلَ مِنْ مطالعةِ الكتبِ كلِّها، فعليك ثُمَّ عليك بملازمةِ المطالعةِ في كتب الحقائق، والعملِ بمقتضى علومِها، فإنك تحصلُ بذلك إلى مقصودك، وتقع به على معرفتكَ بمعبودِكَ إن شاء الله تعالى[1].

ومِنْ أهمِّ كتبِ أولئك العارفين كتبُ الإمامِ الغزالي وعلى رأسِها كتابُ «إحياء علوم الدين»، ولكنْ لما كان مُطوَّلاً آثرنا اختصارَهُ وتهذيبَهُ حتى يسهلَ تناولهُ فتكون ثمارُهُ وقطوفُهُ دانيةً ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، و﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ثم أضفنا إليه كلامَ أئمةِ القومِ كالشيخ الأكبر والشيخ عبد الكريم الجيلي والشيخ أبي الحسن الشاذلي والشيخ ابن عطاء الله السكندري والإمام الشعراني والشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ ابن عجيبة والأمير عبد القادر الجزائري وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، فجاء الكتابُ بحقٍّ كما أسميناه «تحفة السالكين من إحياء علوم الدين وترياق المقبلين من أقوال العارفين»، وجاءت أبوابُهُ ـ بفضل الله تعالى ـ على غايةٍ مِنَ الدِّقّةِ والإحكامِ والتَّحريرِ والإتقان، ونسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

---

(١) ينظر: (مراتب الوجود وحقيقية كل موجود) (٤٠).

منهج العمل في الكتاب

ـ اختصرنا كتاب الإحياء بذكر زبدته مع المحافظة ـ قدر الإمكان ـ على عبارة الأصل.

ـ صدَّرنا كلَّ ربع مِن أرباع هذا الكتابِ بل كلَّ بابٍ منه بآيةٍ أو حديثٍ أو حكمةٍ تكونُ كالمفتاحِ والفذلكةِ والخلاصة للباب كلِّه.

ـ لما كان الغالب على كلام الإمام الغزالي قدس سره علم المعاملة دون المكاشفة أضفنا إلى كل باب من كتب الحقائق ما يناسبه حتى يأخذ القارئ حاجته من مصدر واحد تقريبا للفائدة وتكثيرا للعائدة.

ـ قيَّدنا العباراتِ المطلقة وفصَّلنا العبارات المجملة تسهيلاً للفائدة العملية المباشرة، بحيث يجدُ القارئ به بُغيتَه.

ـ نوَّعنا في أساليب الطرح ما بين نثرٍ ونظمٍ ترويحاً للنفوس.

ـ جمعنا بين مشارب الطرق المختلفة في الإضافات، وكذلك بين كلام المتقدمين والمتأخرين من أعلام الصوفية الثقات لتكتمل الصورة للناظرين، ويصلح الكتاب لجميع مناهل الواردين.

ـ خرَّجنا الأحاديث والآثار الواردة في الأصل والإضافات.

الرموز المستعملة في الكتاب

(ز): من شرح العلامة مرتضى الزبيدي على الإحياء.

(ش): من إضافات وشروحات عبد الرحمن الشعار على مختصرنا على الإحياء.

(م): من إضافات وشروحات مروان الكاتب على مختصرنا على الإحياء.

[اُخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعُبُودِيَّتِكَ؛ لِتَكُونَ لِنِداءِ الحَقِّ مُجِيباً، ومِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً][1].

(١) الحكمة (٣٤) من الحكم العطائية.



الربع الأول

ربع العبادات








(١)

ربع العبادات

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

وفيه عشرة كتب:

١ . كتاب العلم

٢ . كتاب قواعد العقائد

٣. كتاب أسرار الطهارة

٤ . كتاب أسرار الصلاة

٥ . كتاب أسرار الزكاة

٦ . كتاب أسرار الصوم

٧. كتاب أسرار الحج

٨. كتاب آداب تلاوة القرآن

٩ . كتاب الأذكار والدعوات

١٠ . كتاب ترتيب الأوراد

الكتاب الأول من ربع العبادات
في العلم

قال الشيخ أبو مدين: (أنفعُ العلومِ العلمُ بأحكام العبيد، وأرفعُ العلومِ علمُ التوحيد)[١].

الفصل الأول
في فضل العلم والتَّعلُّم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

(ش: قال الأمير عبد القادر الجزائري ـ قدس سره ـ أثناءَ الكلامِ على هذه الآية: أي: العلماء بالله، لا مطلق العلماء؛ إذ ما كُلُّ عالِمٍ يخشى، ولا كُلُّ علمٍ يُورِثُ الخشيةَ.

وكلُّ شيءٍ يمنحُهُ الله تعالى أولياءه يجوزُ أن يكونَ باطنُهُ شَرّاً واستدراجاً ومكراً، كالأحوالِ والمقاماتِ والمكاشفاتِ وخوارقِ العاداتِ إلا العلم؛ فإنَّه أفضلُ ما مَنَحَ الله به أولياءَهُ؛ إذ لا يُمكِنُ أن يكونَ حبالةً للمكرِ والاستدراج، أعني: علمَ العلماءِ بالله تعالى؛ لأنَّه يُشهِدُكَ إمكانَكَ وافتقارَكَ في كلِّ نفسٍ إلى الله تعالى، وذلك عبوديَّتُكَ، ولو غفلتَ أو نسيتَ أو نمتَ رَجَعْتَ في ذلك إلى

---

(١) مِن حكم الشيخ أبي مدين الغوث قدس الله سره.

أصلٍ صحيحٍ لا يُمكِنُ أن يتبدَّلَ أو يتغيَّرَ أو ينتقلَ؛ فإنَّ انقلابَ العلمِ جهلاً محالٌ)[١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (للعلماء درجاتٌ فوقَ المؤمنين بسبعِ مئةِ درجةٍ، ما بينَ الدَّرجتَينِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ)[٢].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يُفقِّهْهُ في الدِّينِ ويُلْهِمْهُ رُشْدَهُ»[٣].

وقال ﷺ: «العُلَماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ»[٤]، ومعلومٌ أنَّه لا رتبةَ فوقَ النُّبوَّةِ، ولا شرفَ فوقَ شرفِ الوراثةِ لتلك النُّبوَّة.

وقال ﷺ: «يَشْفَعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: الأنبياءُ، ثمَّ العلماءُ، ثمَّ الشُّهداءُ»[٥]

وقال ﷺ: «إذا أتى عَلَيَّ يومٌ لا أزدادُ فيه عِلمًا يُقرِّبُني إلى الله فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ»[٦].

وقال ﷺ: «لَمَوْتُ قبيلةٍ أيسرُ عندَ الله مِنْ موتِ عالِمٍ»[٧].

---

(١) ينظر: (المواقف الروحية) (١/ ٤٠١).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٧١)، وأحمد (٢٧٩٠).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٤١).

(٥) رواه ابن ماجه (٤٣١٣).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣١٨).

(٧) رواه البيهقي في الشعب (١٥٧٦).

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: (خُيِّرَ سليمانُ بنُ داودَ عليهما السلامُ بينَ العلمِ والمالِ والمُلكِ فاختارَ العلمَ، فأُعطِيَ المالَ والمُلكَ معه) [١].

وقال بعضُ الحكماءِ: (أيُّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاتَهُ العلمُ، وأيُّ شيءٍ فاتَهُ مَن أدركَ العلمَ) [٢].

وقال الشيخ فتحٌ المَوْصِليُّ رحمه الله: (أليسَ المريضُ إذا مُنِعَ الطَّعامَ أو الشَّرابَ أو الدَّواءَ يموتُ؟ قالوا: بلى، قال كذلك القلبُ إذا مُنِعَ عن الحكمةِ والعلمِ ثلاثةَ أيامٍ يموتُ) [٣].

وقال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]: (إنَّ الحسنةَ في الدنيا هي العلمُ والعبادةُ، وفي الآخرة هي الجنّةُ) [٤].

وقال ﷺ لِعَليٍّ رضي الله عنه: «فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[٥].

وقال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[٦].

---

(١) ينظر: (تاريخ دمشق) (٢٢/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: (مفتاح دار السعادة) (١/ ١٧٥).

(٣) ينظر: (مفتاح دار السعادة) (١/ ١٧٥).

(٤) رواه الترمذي (٣٤٨٨).

(٥) رواه البخاري (٣٧٠١).

(٦) رواه أبو داود (٣٦٥٨).

الفصل الثاني
في بيان العلم المحمود والمذموم
وأقسامهما وأحكامهما

اعلم أنّ طلبَ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وهو نوعان: فرضُ عينٍ، وفرضُ كفايةٍ.

واختلف الناسُ في العلمِ الذي هو فرضٌ على كلِّ مسلمٍ:

فقال المتكلِّمون: هو علمُ الكلام؛ إذ به يُدرَكُ التَّوحيدُ، وتُعلَمُ ذاتُ الله تعالى وصفاتُهُ.

(ش: ولذا قيل:

أيُّها المُغْتَـدِي لِتَطْلُـبَ عِلْما ... كُلُّ عِلْـمٍ عَبْـدٌ لِعِلْـمِ الكلامِ
تَطْلُبُ الفِقْهَ كَيْ تُصَحِّحَ حُكْما ... ثُـمَّ أَغْفَلْتَ مُنْـزِلَ الأحكامِ)

وقال الفقهاء: هو علمُ الفقهِ؛ إذ به تُعرَفُ العباداتُ، وبه يُعلَمُ الحلالُ والحرامُ، وعَنَوا به ما يحتاجُ إليه الآحادُ، دونَ الوقائعِ النادرة.

(ش: ولذا قال ابن الوردي رحمه الله تعالى:

والعُمْرُ عـن تحصيلِ كُلِّ علمِ ... يَقْصُـرُ فَابْـدَأْ مِنْـهُ بالأهـمِّ
وذلــك الفقــهُ فــإنَّ منــهُ ... مـا لا غِنًى في كلِّ حـالٍ عنهُ)

وقال المفسِّرون والمحدِّثون: هو علمُ الكتابِ والسُّنةِ؛ إذ بهما يُتوصَّلُ إلى العلوم كلِّها.

(ش: وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

كُلُّ العُلومِ سِوى القُرآنِ مَشغَلَةٌ ... إلّا الحَديثَ وَعِلمَ الفِقهِ في الدِّينِ

العِلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حَدَّثَنا ... وَما سِوى ذاكَ وَسْواسُ الشَّياطينِ)

وقال المتصوفة: المرادُ به هذا العلم، أي: علم التصوف.

فقال بعضهم: هو علمُ العبدِ بحاله ومقامِه مِن الله تعالى.

وقال بعضهم: هو العلمُ بالإخلاص وآفاتِ النُّفوس، وتمييزُ لَمّةِ المَلَكِ مِن لَمّةِ الشَّيطان [١].

وقال بعضُهم: هو العلمُ الباطن، وذلك يجبُ على أقوامٍ مخصوصين هم أهلُ ذلك.

(ش: قال الشيخ الصقلي رضي الله عنه في كتابه المسمّى بـ«**أنوار القلوب في العلم الموهوب**»: وما مِنْ علمٍ إلا وقد يُستغنى عنه في وقتٍ ما إلا علم التصوف، فلا يستغني عنه أحدٌ في وقتٍ مِن الأوقات).

وقال أبو طالب المكي رحمه الله: (هو العلمُ بما يتضمَّنه الحديثُ الذي فيه مباني الإسلام)، وهو قولُهُ ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ» [٢]، فيجبُ العلمُ بكيفيّة العملِ فيها، وبكيفية الوجوب.

---

(١) اللَّمَّةُ: الخَطْرةُ في القلب.

(٢) رواه البخاري (٨).

فالعلمُ الواجبُ على كلّ أحدٍ: أن يعلمَ كلَّ ما وَجَبَ عليه اعتقادُهُ أو فعلُهُ أو تركُهُ على حسب ما وَجَبَ عليه، فلا يجبُ على المُفْلِسِ علمُ الزكاة، ولا يجبُ على الأعمى والأصمّ والأبكمِ علمُ ما يحرمُ مِن النَّظرِ والسّماعِ والكلام.

فَتَبَيَّنَ أنَّ النبي ﷺ أراد بالعلمِ المُعرَّفِ بالألف واللام في قوله: «طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ»[1] علمَ العملِ الذي هو مشهورُ الوجوبِ على المسلمين لا غير.

وأما فرضُ الكفايةِ: فهو كلُّ علمٍ لا يُستغنى عنه في قِوام أمورِ الدّنيا، كالطّبّ فإنّه سببٌ في بقاء الأجسام، وكالحسابِ إذ هو ضروريٌّ في المعاملاتِ وقسمةِ الوصايا والمواريثِ وغيرها.

وهذه هي العلومُ التي لو خلا البلدُ عمَّن يقومُ بها أَثِمَ أهلُ البلدِ، وإذا قام بها واحدٌ كفى وسقطَ الفرضُ عن الآخرين.

ولا يُتعجَّبُ مِن قولنا: إنَّ الطِّبَّ والحسابَ مِن فروض الكفايات؛ لأنَّ علمَ أصولِ الحِرَفِ مِن فروض الكفاية، كالفلاحة والحياكة والسِّياسةِ، بل الحجامة؛ فإنَّه لو خلا البلدُ مِن الحَجّامِ لَتسارَعَ الهلاكُ إليهم، وأَثِموا بتعريض أنفسِهم للهلاك؛ فإنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدَّواءَ وأرشدَ إلى استعماله، وأعدَّ الأسبابَ لتعاطيه، فلا يجوزُ التَّعرُّضُ للهلاك بإهماله.

وأمَّا ما يُعَدُّ فضيلةً لا فريضةً فالتَّعَمُّقُ في دقائقِ الحسابِ وحقائقِ الطِّبِّ، وغير ذلك ممّا يُستغنى عنه، ولكنَّه يفيدُ زيادةَ قوّةٍ في القَدْرِ المحتاجِ إليه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤).

وأما المذمومُ منه: فعلمُ السِّحرِ والطِّلَسْمات[١]، وعلمُ الشَّعبذةِ[٢] والتَّلبيساتِ.

وأما المباح منه: فالعلمُ بالأشعارِ التي لا سَخْفَ فيها، وتواريخِ الماضيين، وما يجري مَجراهُ.

وأما العلومُ الشَّرعيّةُ ـ وهي المقصودةُ بالبيان: فهي محمودةٌ كلُّها، ولكنْ قد يَلْتَبِسُ بها ما يُظَنُّ أنّها شرعيّةٌ وتكونُ مذمومةً باعتبار ما يترتَّبُ عليها، فلذا اندرسَ علمُ الدِّينِ بتلبيس علماءِ السُّوء.

❊ ❊

(١) الطِّلَسْمُ ـ في علمِ السِّحْرِ: خطوطٌ وأعدادٌ يَزْعُمُ كاتبُها أنّه يربطُ بها روحانيّات الكواكب العُلْوية بالطبائِع السفلية لجَلب مَحْبُوب أو دفع أذًى، وهو لفظٌ يونانيٌّ لكلّ ما هو غامضٌ مُبهَمٌ.

(٢) شَعْبَذَ: مَهَرَ في الاحتيال، وأرى الشَّيءَ على غير حقيقته، مُعتمِدًا على خداع الحواس.

الفصل الثالث
في علم أحوال القلوب

(م: ورد في الأثر: «العِلْمُ عِلْمانِ: عِلْمٌ على اللِّسانِ فَذَاكَ حُجَّةُ الله على ابنِ آدَمَ، وعِلْمٌ في القلبِ فذلكَ العِلْمُ النَّافِعُ»[1]).

واعلم أنَّ علمَ المعاملةِ هو علمُ أحوالِ القلب:

أمَّا ما يُحمَدُ مِن أحوالِ القلبِ: فكالصبرِ، والشكرِ، والخوفِ، والرجاءِ، والرضا، والزهدِ، والتقوى، والقناعةِ، والتَّوكُّلِ، والسَّخاوةِ، ومعرفةِ المِنّةِ لله تعالى في جميع الأحوال، والإحسانِ، وحسنِ الظنِّ، وحسنِ الخُلُقِ، وحسنِ المعاشرة، والصدقِ، والإخلاصِ.

فمعرفةُ حقائقِ هذه الأحوال وحدودِها وأسبابِها التي بها تُكتسبُ، وثمراتِها وعلاماتِها، ومعالجةِ ما ضعفَ منها حتَّى يقوى، وما زال حتَّى يعودَ، مِن علم الآخرة.

وأمَّا ما يُذَمُّ: فخوفُ الفقر، وسخطُ المقدور، والغِلُّ، والحقدُ، والحسدُ، والغِشُّ، وطلبُ العلوِّ، وحبُّ الثناء، وحبُّ طولِ البقاءِ في الدُّنيا للتَّمتُّعِ، والكبرُ، والرياءُ، والغضبُ، والبغضاءُ، والطمعُ، والبخلُ، والرغبةُ،

(١) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥/ ١٠٧. ١٠٨) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١١٥١).

والبَذَخُ[١]، والأشرُ والبَطَرُ[٢]، وتعظيمُ الأغنياء، والاستهانةُ بالفقراء، والفخرُ، والخيلاءُ، والتنافسُ والمباهاتُ، والاستكبارُ عن الحقِّ، والخوضُ فيما لا يعني، وحبُّ كثرةِ الكلام، والصَّلَفُ[٣]، والتَّزيُّنُ للخلق، والعجبُ، والاشتغالُ بعيوب الناسِ عن عيوب النفس، وزوالُ الحزنِ مِن القلب، وخروجُ الخشيةِ منه، وضعفُ الاستنصارِ للحقِّ، واتِّخاذُ إخوانِ العلانيةِ على عداوةِ السِّرِّ، والأمنُ مِنْ مكرِ الله في سلبِ ما أعطى، والاتِّكالُ على الطاعةِ، والمكرُ، والخيانةُ، والمخادعةُ، وطولُ الأملِ، والقسوةُ، والفظاظةُ، والفرحُ بالدنيا، والأسفُ على فواتها، والأنسُ بالمخلوقين والوَحْشةُ لفراقهم، والجفاءُ، والعَجَلةُ، وقلةُ الحياء، وقلّةُ الرحمةِ.

فهذه وأمثالُها مِن صفات القلب مغارسُ الفواحِشِ، ومنابتُ الأعمالِ المحظورة، وأضدادُها ـ وهي الأخلاقُ المحمودةُ ـ منابعُ الطاعات والقربات.

فالعلمُ بحدودِ هذه الأمورِ وحقائقِها وأسبابِها وثمراتِها وعلاجِها هو علمُ الآخرة، وهو فرضُ عينٍ في فتوى علماء الآخرة، فالمعرِضُ عنها هالكٌ بسطوةِ مَلِكِ الملوكِ في الآخرة، كما أنَّ المُعرِض عن الأعمال الظاهرةِ هالكٌ بسيف سلاطينِ الدنيا بحكمِ فتوى فقهاءِ الدُّنيا.

فَنَظَرُ الفقهاءِ في فروضِ العينِ بالإضافة إلى صلاحِ الدنيا، وهذا بالإضافةِ إلى صلاح الآخرة.

---

(١) البَذَخُ: تَطاوُلُ الرَّجلِ بِكَلامِهِ، وافتِخارُهُ وتعاليه.

(٢) الأَشَرُ والبَطَرُ بمعنًى واحدٍ، يقال: بَطِرَ الرَّجُلُ: وَقَعَ فِي الكِبْرِيَاءِ، أو غَلَا في المَرَحِ وَالزَّهْوِ.

(٣) الصَّلَفُ: الادعاءُ بما فوق قَدْرِ المرءِ عُجْبًا وتكبُّراً.

ولو سُئِلَ فقيهٌ عن معنىً مِن هذه المعاني حتَّى عن الإخلاصِ مثلاً، أو عن التَّوكُّلِ، أو عن وجه الاحتراز مِن الرِّياءِ لَتَوَقَّفَ فيه مع أنَّه فرضُ عينِهِ الذي في إهمالِهِ هلاكُهُ في الآخرة.

ولو سألتَهُ عن اللِّعانِ والظِّهار، أو السَّبقِ والرَّمي لَسَرَدَ عليك مجلَّداتٍ مِن التفريعاتِ الدَّقيقةِ التي تنقضي الدُّهورُ ولا يُحتاجُ إلى شيء منها، وإن احتيجَ لم يخلُ البلدُ عمَّن يقومُ بها ويكفيه مؤنةَ التَّعبِ فيها، فلا يزالُ يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً في حفظِهِ ودرسِهِ ويغفلُ عمّا هو مُهِمٌّ نفسِهِ في الدِّين.

(تتمة): رُوِيَ مسندًا: «لا يُفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ: أميرٌ أو مأمورٌ أو مُتَكَلِّفٌ»[١].

فالأميرُ هو الإمامُ، فقد كانوا هم المفتين، والمأمورُ نائبُهُ، والمتكلِّفُ غيرُهما، وهو الذي يتقلَّدُ تلك العهدةَ مِن غير حاجة.

وقد كان الصحابةُ ﷺ يحترزون مِن الفتوى، حتى كان كلُّ واحدٍ منهم يُحيلُ على صاحبه، وما كانوا يحترزون إذا سُئِلُوا عن علمِ القرآن أو بيانِ طريقِ الآخرة.

ومَن يتقلَّدُ خطرَ الفتوى، وهو غيرُ متعيِّنٍ للحاجة، لا يَقصِدُ به إلا طلبَ الجاه والمال.

وقد كان سفيان الثوري ﵀ ـ وهو إمام في علمِ الظاهر ـ يقول: (إنَّ طلبَ هذا ليس مِن زاد الآخرة)[٢]، كيف وقد اتَّفقوا على أنَّ الشَّرفَ في العلم ليُعمَلَ

---

(١) كذا في (قوت القلوب) (١/ ١٣١)، ورواه أحمد بنحوه (٦/ ٢٢) والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٦).
(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٣٥)، وذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٩٥٦).

به، فكيف يُظَنُّ أنَّه عِلْمُ اللِّعانِ والظِّهارِ والسَّلَمِ والإجارةِ والصَّرْفِ؟

ومَنْ تَعَلَّمَ هذه الأمورَ ليتقرَّبَ بتعاطيها إلى الله تعالى فهو مجنونٌ، وإنَّما العملُ بالقلبِ والجوارحِ معاً في سائر الطاعات، والشَّرفُ هو علمُ تلك الأعمال.

* * *

الفصل الرابع
في علم المكاشفة

(م: قال ابن عطاء الله السكندري ﵁: لو أشرقَ لكَ نورُ اليقينِ لَرأيت الآخرةَ أقربَ إليك مِنْ أن ترحلَ إليها، ولَرأيتَ محاسنَ الدنيا قد ظَهَرَتْ كِسفةُ الفناءِ عليها)[١].

قال بعضُ العارفين: (مَنْ لم يكن له نصيبٌ مِن هذا العلم أخافُ عليه سوءَ الخاتمة، وأدنى نصيبٍ منه التَّصديقُ به وتسليمُهُ لأهلِهِ)[٢].

(ش: قال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﵁: مَنْ لم يتغلغل في علمِنا هذا ماتَ مُصِرّاً على الكبائر وهو لا يشعر)[٣].

قال آخر: (مَنْ كان فيه خصلتان لم يُفتَح له شيءٌ مِن هذا العلم: بدعةٌ أو كِبْرٌ)[٤].

وقيل: (مَنْ كان مُحِبّاً للدُّنيا أو مُصِرًّا على هوى لم يتحقَّق به، وقد يتحقَّقُ بسائرِ العلوم، وأقلُّ عقوبةِ مَنْ يُنكِرُهُ أن لا يُرزَقَ منه شيئاً)[٥].

---

(١) الحكمة (١٣٦) من الحكم العطائية.

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٧٣).

(٣) ينظر: (لطائف المنن) (١٤٤).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٧٣).

(٥) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٧٣).

وعلمُ المكاشفةِ هو علمُ الصّديقين والمقرَّبين، وهو عبارةٌ عن نورٍ يظهرُ في القلب عند تطهيره وتزكيته مِن صفاته المذمومة، وينكشفُ في ذلك النّورِ أمورٌ كان يسمعُ مِنْ قبلُ أسماءَها، وتتضحُ له حتى تحصلَ له المعرفةُ الحقيقيّةُ بذات الله تعالى وبصفاتِهِ التّامّاتِ، وبأفعالِهِ وحكمتِهِ في خلقِ الدنيا والآخرة، ووجهِ ترتيبِهِ للآخرةِ على الدنيا، والمعرفةُ بمعنى النُّبوّةِ والنَّبيّ، ومعنى الوحيِ، ومعنى لفظِ الملائكة والشياطين، وكيفيّةُ معاداةِ الشيطان للإنسان، وكيفيّةُ ظهورِ المَلَكِ للأنبياء، وكيفيّةُ وصولِ الوحي إليهم، والمعرفةُ بملكوت السماوات والأرض، ومعرفةُ القلب، وكيفيةُ تصادمِ جنودِ الملائكة والشياطين فيه، ومعرفةُ الفَرْقِ بين لَمّةِ المَلَكِ ولَمّةِ الشيطان، ومعرفةُ الآخرة، والجنةِ والنارِ، وعذابِ القبر، والصراطِ، والميزانِ، والحسابِ، ومعنى لقاءِ الله تعالى والنظرِ إلى وجهه الكريم، ومعنى القربِ منه إلى غير ذلك مما يطولُ تفصيلُهُ. إذ للناس في معاني هذه الأمور بعدَ التَّصديقِ بأصولها مقاماتٌ:

فبعضهم يرى أنَّ جميعَ ذلك أمثلةٌ، وأنَّ الذي أعدَّهُ الله لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، وأنّه ليس مع الخلق مِن الجنّةِ إلا الصِّفاتُ والأسماء.

وبعضهم يرى أنَّ بعضَها أمثلةٌ وبعضَها يُوافِقُ حقائقَها المفهومةَ مِن ألفاظِها.

وكذلك يرى بعضُهم أنَّ منتهى معرفة الله تعالى الاعترافُ بالعجزِ عن معرفتِهِ.

وبعضُهم يَدَّعي أموراً عظيمةً في المعرفة بالله عزَّ وجلَّ.

الفصل الخامس
فيما بُدِّل مِن ألفاظ العلوم

اعلم أنَّ منشأَ التباسِ العلومِ المذمومةِ بالعلومِ الشَّرعيّةِ تحريفُ الأسامي المحمودةِ وتبديلُها، ونقلُها بالأغراضِ الفاسدةِ إلى معانٍ غيرِ ما أرادَهُ السَّلفُ الصالحُ والقرنُ الأوّلُ، وهي خمسةُ ألفاظ: الفقهُ، والعلمُ، والتوحيدُ، والتَّذكيرُ، والحكمةُ.

فهذه أسامٍ محمودةٌ، والمتَّصفونَ بها أربابُ المناصبِ في الدِّين، ولكنَّها نُقِلَت الآن إلى معانٍ مذمومة، فصارتِ القلوبُ تَنْفِرُ عن مذمّةِ مَنْ يَتَّصِفُ بمعانيها؛ لشيوعِ إطلاقِ هذه الأسامي عليهم.

أما الفقهُ، فقد تصرَّفوا فيه بالتخصيصِ لا بالنَّقلِ والتَّحويل؛ إذ خَصَّصُوهُ بمعرفةِ الفروعِ الغريبةِ في الفتاوى، والوقوفِ على دقائقِ عِلَلِها، واستكثارِ الكلامِ فيها، وحفظِ المقالاتِ المتعلِّقةِ بها، فَمَنْ كان أشدَّ تعمُّقاً فيها وأكثرَ اشتغالاً بها يُقال له: هو الأفقهُ.

ولقد كان اسمُ الفقهِ في العصر الأوّلِ مطلقاً على علمِ طريقِ الآخرةِ، ومعرفةِ دقائقِ آفاتِ النُّفوس، ومفسداتِ الأعمالِ، وقوّةِ الإحاطةِ بحقارةِ الدنيا، وشدّةِ التَّطلُّعِ إلى نعيمِ الآخرة، واستيلاءِ الخوفِ على القلب، ويدلُّكَ عليه قولُهُ تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وما به الإنذارُ والتخويفُ هو هذا الفقه، دونَ تعريفاتِ الطلاقِ والعتاقِ واللِّعانِ والسَّلمِ والإجارة؛ فذلك لا يحصلُ به الإنذارُ والتخويفُ، بل التَّجرُّدُ له على الدوامِ يُقسِّي القلبَ وينزعُ الخشيةَ منه، كما يُشاهَدُ مِن المتجرِّدين له.

قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]، فأحالَ قِلّةَ خوفِهم مِن الله واستعظامَهم سطوةَ الخلقِ على قلّةِ الفقهِ.

وسئل سعدُ بن إبراهيم رحمه الله: أيُّ أهلِ المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى، فكأنَّه أشار إلى ثمرة الفقه، والتقوى ثمرةُ العلمِ الباطنِ دون الفتاوى والأقضية.

وأما العلمُ، فقد كان يُطلَقُ على العلمِ بالله وبآياته وأفعالِهِ في عبادِهِ وخلقِهِ، حتَّى إنَّه لمّا مات عمرُ رضي الله عنه قال ابنُ مسعود: «مات تسعةُ أعشارِ العلم»، فعرَّفَهُ بالألف واللام، ثم فَسَّرَهُ بالعلم بالله.

(ز: وذلك لمّا قيل له: أتقولُ هذا وأصحابُ رسول الله ﷺ متوافرون؟ فقال: إنِّي لستُ أعني العلمَ الذي تذهبون إليه، إنَّما أعني العلمَ بالله عز وجل).

وقد تصرَّفوا فيه أيضاً بالتَّخصيصِ، حتَّى شَهَرُوهُ في الأكثرِ بِمَنْ يشتغلُ بالمناظرةِ مع الخصومِ في المسائل الفقهيةِ وغيرِها، فيقال: هو العالِمُ على الحقيقة، وهو الفحلُ في العلم، ومَن لا يُمارِسُ ذلك ولا يشتغلُ به يُعَدُّ مِن جملةِ الضُّعفاء، ولا يَعُدُّونَهُ في زمرةِ أهل العلم، وفي الحقيقة أنَّ ما وَرَدَ مِن فضائلِ العلمِ والعلماءِ فأكثرُهُ في العلماء بالله تعالى وبأحكامِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ.

وأما التوحيدُ، فقد جُعِلَ الآنَ عبارةً عن صناعة الكلام، ومعرفةِ طريقِ المجادلةِ، والإحاطةِ بمناقضاتِ الخصومِ، والقدرةِ على التَّشدُّقِ فيها بتكثير الأسئلة، وإثارةِ الشُّبُهات، وتأليفِ الإلزامات.

وكان التَّوحيدُ في العصر الأول عبارةً عن أمرٍ آخرَ لا يَفْهَمُهُ أكثرُ المتكلِّمين، وإن فَهِمُوهُ لم يتَّصِفُوا به، وهو أن يرى الأمورَ كلَّها مِن الله تعالى رؤيةً تَقْطَعُ التفاتَهُ إلى الأسباب والوسائط، فلا يرى الخيرَ والشَّرَّ، والنَّفعَ والضُّرَّ إلا منه سبحانه.

(م: قال الشيخ أحمد العلوي المستغانمي قدس الله سره: التَّوحيدُ كالنار، ما وَقَعَ على شيءٍ إلا أحرَقَهُ وأذهبَ خَبَثَهُ)[1].

وهذا مقامٌ شريفٌ إحدى ثمراتِهِ التَّوَكُّلُ، كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل.

ومِن ثمراتِهِ أيضاً: تركُ شكايةِ الخلقِ، وتركُ الغضبِ عليهم، والرِّضا والتَّسليمُ لحكم الله تعالى، وهذا مِن مقامات الصِّدِّيقين.

وأما توحيدُ عوامِّ المؤمنين والمتكلِّمين فهو أن يقولوا بلسانهم: «لا إله إلا الله»، ولا يكون في القلب مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهرُ القلبِ على اعتقاد ذلك والتَّصديقِ به.

وأما الذِّكرُ والتذكيرُ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وقال النبي ﷺ: «إذا مَرَرْتُمْ برياضِ الجنّة فارتعوا، قيل: وما رياضُ الجنّة؟ قال: مجالسُ الذِّكر»[2].

وقال عطاء ؓ: (مجلسُ الذِّكرِ يُكفِّرُ سبعين مجلساً مِن مجالسِ اللهو)[3].

---

(١) الحكمة (٢٠) مِن حكم الشيخ ابن عليوة قدس الله سره.

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤٩).

ونُقِلَ الآن إلى القصصِ، والأشعارِ، والشَّطحِ، والطامات، والخرافات.

وأما الحكمة، فهي التي أثنى الله عليها وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(م: وقال ﷺ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتَينِ، رجلٌ آتاه الله مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورجلٌ آتاه الله الحكمةَ فهو يقضي بها ويُعلِّمُها»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضَمَّنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَيهِ وَقَال: اللهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ»[2]).

(ز: وأما تعريفُها عند أهل الحقيقة، فإنَّها تُطلَقُ عندهم على حقائق حكم سنيّة.

الأولى: الحكمةُ المطلقة، وهي العلمُ بحقائق الأشياء على ما هي عليه من حيث هي هي.

الثانية: الحكمةُ المنطوقُ بها، وهي العلومُ الشرعيةُ.

الثالثة: الحكمةُ المسكوتُ عنها، وهي أسرارُ الحقيقةِ.

الرابعة: الحكمةُ المجرَّدةُ، وهي ما خَفِيَ علينا وجهُ الحكمةِ في إيجاده، كإيلامِ بعضِ العباد، وموتِ الأطفال، والخلودِ في النار.

الخامسة: الحكمةُ الجامعةُ، وهي معرفةُ الحقِّ والعملُ به، ومعرفةُ الباطلِ والاجتنابُ عنه).

---

(١) رواه البخاري (٧٣).

(٢) رواه البخاري (٧٥).

وقد نُقِلَ في هذا الزَّمنِ إلى الطبيبِ والشاعرِ والمُنجِّمِ، فانظر ما الذي كانت الحكمةُ عبارةً عنه، وإلى ماذا نُقِلَ؟ وقِسْ به بقيَّةَ الألفاظ، واحتَرِزْ عن الاغترارِ بتلبيساتِ علماءِ السُّوءِ؛ فإنَّ شَرَّهُمْ أعظمُ على الدِّينِ مِنْ شَرِّ الشَّيطان، ولهذا لمّا سئل رسولُ الله ﷺ عن شرِّ الخلقِ أبى، وقال: «اللهمَّ غفراً» حتَّى كُرِّرَ عليه، ثم قال: «هم علماءُ السُّوء»(١).

وقال الثوري رحمه الله: (إذا رأيتَ العالِمَ كثيرَ الأصدقاء فاعلم أنَّه مُخلِّطٌ)(٢)؛ لأنَّه إن نَطَقَ بالحقِّ أبغضوه.

---

(١) رواه الدارمي بنحوه (٣٨٢).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤٣).

الفصل السادس
في القدرِ المحمودِ مِن العلوم المحمودة

وينبغي للسالك أن يكون أحدَ الرجلين: إما مشغولاً بنفسه، أو متفرِّغاً إلى غيره بعدَ الفراغ مِن نفسه، ولا ينبغي له أن يشتغلَ بما يُصلِحُ غيرَهُ قبل إصلاحِ نفسه.

فإن كان مشغولاً بنفسه، فلا يشتغلُ إلا بالعلم الذي هو فرضُ عينٍ عليه بحسب ما يقتضيه حالُهُ، وما يتعلَّقُ بالأعمال الظاهرةِ مِنْ تَعَلُّمِ الطَّهارةِ والصَّلاةِ والصَّوم.

وإنما الأهمُّ الذي أهملَهُ الكلُّ علمُ صفاتِ القلبِ، وما يُحمَدُ منها وما يُذَمُّ؛ إذ لا يَنْفَكُّ بشرٌ عن الصفات المذمومةِ مِن الحرصِ، والحسدِ، والرياءِ، والكبرِ، والعجبِ، وأخواتِ هذه الخصال، وجميعُ ذلك مهلكاتٌ. وإهمالُها مع الاشتغالِ بالأعمال الظاهرة، يُضاهي الاشتغالَ بِطِلاءِ ظاهرِ البدنِ عند التأذِّي بالجَرَبِ والدَّماميل، والتهاونَ بإخراجِ المادةِ بالفصدِ والإسهال.

ومَن لم يفرغ مِن ذلك فلا ينبغي له أن يشتغلَ بفروضِ الكفايات، لا سيّما وفي الخلقِ مَنْ قد قام به، فإنَّ مُهلِكَ نفسِهِ في طلبِ صلاحِ غيرِهِ سفيهٌ، فما أشدَّ حماقةَ مَنْ دَخَلَتِ الأفاعي والعقاربُ داخلَ ثيابِهِ وهَمَّتْ بقتله وهو يطلبُ مِذَبَّةً[1] يدفعُ بها الذُّباب عن غيره!

---

(١) المِذبَة: أداةٌ تُستخدَمُ في طردِ الذُّباب.

فَمَنْ عليه فرضُ عينٍ واشتغلَ بفرض الكفاية، وزَعَمَ أنَّ مقصودَهُ الحقُّ فهو كذّابٌ.

(م: قال الإمامُ الحداد رحمه الله: إذا أردتَ أن تَعرِفَ النافعَ المُهِمَّ في حقِّكَ مِن العلوم والأحوال، والأنفعَ الأهمَّ، فاستحضر في نفسِكَ أنَّك تموتُ غداً، وأنَّكَ تصيرُ إلى الله تعالى وتقفُ بين يديه، فيسألكُ عن كلِّ شيءٍ مِن علومِكَ وأعمالِكَ، وجميعِ شؤونكَ وأحوالِكَ، ثم تصيرُ إلى الجنة أو النار، فالمُهِمُّ النافعُ ما تَجِدُهُ عند ذلك الاستحضار، والأجدرُ الأحقُّ أن تشتغلَ به وتُلازِمَهُ).

الفصل السابع
في وظائف المتعلِّمِ والمُعَلِّمِ وآدابِهِما

[مطلب في وظائف المُتعلِّم]

أما المتعلِّمُ فوظائفُهُ الظاهرةُ كثيرةٌ، ولكنْ نذكرُ أهمَّها على سبيل الإيجاز.

الوظيفة الأولى: الإخلاص لله تعالى، واستحضارُ النِّيّةِ الصّالحة في تعلُّمِهِ؛ فإنَّ النِّيّةَ الصالحةَ الخالصةَ هي الإكسيرُ الأكبر، وإنَّ العملَ ليكثرُ خيرُهُ ومَدَدُهُ بحسبِ كثرةِ النِّيّات.

(ش: فَمِنَ النِّيّاتِ التي ينبغي للمعلم ولطالب العلم أن يستحضرَها في درس العلم:

- الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

- امتثال أمر الحبيب ﷺ.

- سماع حديث رسول الله ﷺ وتبليغه.

- نية رفع الإثم عن نفسه وعن المسلمين بتعلم وتعليم فروض العين والكفاية.

- التعرض لنفحات الله لنيل رضاه.

ـ الذكر والتذكير

ـ حفظ الوقت

ـ إظهار شعائر الإسلام

ـ الاعتكاف إن كان الاجتماع في المسجد

ـ تجديد الإيمان

ـ التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ـ تكثير سواد أهل الخير

ـ استنزال رحمة الله بذكر الصالحين

ـ تصفية الباطن ومجاهدة النفس

ـ العمل بما يعلم).

الوظيفة الثانية: تقديمُ طهارةِ النَّفسِ عن رذائلِ الأخلاقِ ومذمومِ الأوصاف:

إذ العلمُ عبادةُ القلبِ، وصلاةُ السِّرِّ، وقربةُ الباطنِ إلى الله تعالى، وكما لا تَصِحُّ الصلاةُ التي هي وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بتطهيرِ الظاهرِ عن الأحداثِ والأخباثِ، فكذلك لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلم إلا بعد طهارتِهِ عن خبائث الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصاف.

واعلم أنَّ القلبَ المشحونَ المملوءَ بالغضبِ، والشَّرَهِ إلى الدنيا، والتَّكالُبِ عليها، والحرصِ على تمزيق أعراض الناسِ، كلبٌ في المعنى، وقلبٌ في الصورة، ونورُ البصيرةِ يلاحظُ المعاني دون الصور، والصورُ في هذا العالَمِ غالبةٌ على المعاني، والمعاني باطنةٌ فيها، وفي الآخرة تتبعُ الصُّور المعاني،

ولذلك يُحشَرُ كلُّ شخصٍ على صورته المعنوية، فيُحشَرُ المُمَزِّقُ لأعراضِ الناسِ كلباً ضارياً، والشَّرِهُ إلى أموالهم ذئباً عادياً، والمُتكبِّرُ عليهم في صورة نمرٍ، وطالبُ الرياسةِ في صورة الأسد، وقد وَرَدَتْ بذلك الأخبارُ، وشَهِدَ به الاعتبارُ عند ذوي البصائر والأبصار.

الوظيفة الثالثة: أن يُقلِّل علائقَه من الأشغالِ الدُّنيوية:

فإنَّ العلائقَ شاغلةٌ وصارفةٌ، و﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، ومهما توزَّعتِ الفكرةُ قَصُرَتْ عن دَرْكِ الحقائق، ولذلك قيل: العلمُ لا يُعطيكَ بعضَهُ حتى تُعطيَهُ كُلَّكَ، فإذا أعطيتَهُ كُلَّكَ فأنتَ مِن إعطائه إيّاكَ بعضَهُ على خطرٍ. والفكرةُ المتوزِّعةُ على أمورٍ متفرِّقةٍ كجدولٍ تَفرَّقَ ماؤُهُ فنشفت الأرضُ بعضَهُ، واختطفَ الهواءُ بعضَهُ، فلا يبقى منه ما يجتمعُ ويبلغُ المُزْدَرَعَ[1].

الوظيفة الرابعة: أن لا يتكبَّرَ على العلمِ ولا يتأمَّرَ على المعلِّم:

بل يُلقي إليه زِمامَ أمرِهِ بالكُلِّيَّة في كلِّ تفصيلٍ، ويُذْعِنُ لِنُصحِهِ إذعانَ المريضِ الجاهلِ للطبيبِ المُشفِقِ الحاذقِ.

وينبغي أن يتواضعَ لمعلِّمه ويطلبَ الثوابَ والشَّرفَ بخدمتِهِ.

(م: واعلم أنَّ الأصلَ في تلقِّي العلمِ التعظيمُ للشيخِ وللعلمِ الذي يحملُهُ، قال الشيخ البوزيدي رحمه الله مُبيِّناً لسرِّ هذا الأصل: التَّعظيمُ هو الأساسُ، والمددُ بقدرِ التعظيم، فالمريدُ إذا أُعطِيَ التعظيمَ في شيخه أُعطِيَ الفتحَ الكبيرَ مِن ربِّه؛ لأنَّ هذه الصُّورَ التي جَعَلَها الحقُّ نائبةً عنه جُمِعَ فيها سِرُّهُ كله.

(١) المُزْدَرَع: موضعُ الزِّراعة.

وكذلك إذا دام الفقيرُ على رؤيةِ التعظيم في شيخه وفُتِحَ له في سرِّه صارت عَبيدُ الله تعالى كلُّها أشياخَهُ؛ لأنه يرى ما في شيخه في سائر العباد، فَيَسْتَمِدُّ مِن كلِّ آدميٍّ، ولا يزالُ به التَّعظيمُ حتى يَستَمِدَّ مِن سائر الأشياء)[1].

(ش: فعلى قدرِ التَّبجيل يكون التَّحصيل).

الوظيفة الخامسة: ألّا يدعَ طالبُ العلمِ فنّاً مِن العلومِ المحمودةِ ولا نوعاً مِن أنواعها إلا وينظر فيه نظراً يطلعُ به على مقصدِهِ وغايتِهِ:

(ش: لأنَّ العلومَ على درجاتها إمّا سالكةٌ بالعبد إلى الله، أو مُعينةٌ على أسبابِ السُّلوك).

ثمَّ إنْ ساعدَهُ العمرُ طَلَبَ التَّبَحُّرَ فيها، وإلا اشتغلَ بالأهمِّ منها؛ فإنَّ العلومَ مرتبطٌ بعضُها بالبعض، ويستفيدُ منها في الحال الانفكاكَ عن عداوةِ ذلك العلمِ بسبب جهله؛ فإنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقال الشاعر:

ومَــنْ يَكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَرِيضٍ يَجِــدْ مُــرّاً بِــهِ المــاءَ الزُّلالا

الوظيفة السادسة: ألّا يخوضَ في فنونٍ مِن العلومِ دَفعةً، بل يراعي الترتيبَ:

فيبدأُ بالأهمِّ فالأهمِّ، ولا يخوضُ في فنٍّ حتَّى يستوفيَ الفَنَّ الذي قبلَهُ؛ فإنَّ العلومَ مرتَّبةٌ ترتيباً ضروريّاً، وبعضُها طريقٌ إلى البعض، والموفَّقُ مَنْ راعى

---

(١) ينظر: (الآداب المرضية) (١٧٧).

ذلك الترتيبَ والتَّدريجَ، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، أي: لا يُجاوِزونَ فنّاً حتى يُحكِمُوهُ عِلماً وعملاً.

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى:

وَابْدَأْ بِتَعْلِيمِ مَا قَـدْ كَانَ مُفْتَرَضًا ... مِـنَ الأُصُـولِ وَمِـنْ فِقْـهٍ بِدِينِهِمِ

وَعِلْمِ أَمْرَاضِ قَلْـبٍ مَعْ مُعَالَجَةٍ ... فَـذَاكَ حَتْمٌ عَلَى مَـنْ كَانَ ذَا حِكَمِ

وَعِلْمِ نَـحْوٍ وَتَصْرِيفٍ وَنَـحْوِهِمَا ... إِنْ قَامَ شَـخْصٌ بِهَا أَجْزَا عَنِ الأُمَمِ

فَابْـدَأْ بِمَا هُـوْ مُهِمٌّ بَـلْ أَهَمُّ وَلَا ... تُضِـعْ زَمَانًـا بِغَيْـرِ تُفْـضِ لِلنَّدَمِ)

[مطلب في وظائف المُعلِّم]

وأمّا وظائفُ المعلِّمِ المُرشدِ فكثيرةٌ، ولكنْ نذكرُ أهمَّها على سبيل الإيجاز.

الوظيفة الأولى: الشَّفقةُ على المتعلِّمين، وذلك بأن يُجريَهم مُجرى بَنِيهِ:

قال ﷺ: «إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ لولدِهِ»[1].

الوظيفة الثانية: أن يقتديَ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ:

فلا يطلبُ على إفادةِ العلمِ أجراً، ولا يقصدُ به جزاءً ولا شكراً ولا منزلةً دنيويةً.

(ش: يقول الشيخ علوان الحموي رضي الله عنه:

إنَّ الَّـذِي مَـالَ لِلدُّنْيَـا وَزِينَتِهَـا ... بِحِرْفَـةِ الْعِلْـمِ كَلْـبٌ وَالِـغٌ بِدَمِ
وَقَاطِـعٌ عَـنْ طَرِيـقِ اللهِ مُنْقَطِعٌ ... عَنْ بَابِ مَوْلَاهُ مَحْرُومٌ مِنَ الْقِسَمِ)

بل يُعلِّمُ لوجهِ الله تعالى وطلباً للتقرُّبِ إليه، ولا يرى لنفسه مِنّةً على مَنْ يُعلِّمُهُ، وإن كانت المنّةُ لازمةً عليهم، بل يرى الفضلَ لهم لكونهم سبباً في حصوله على رضوان الله تعالى بتعليمِهم.

الوظيفة الثالثة: ألّا يَدَّخِرَ مِن نصحِ المُتعلِّمِ شيئاً:

وذلك بأن يمنعَهُ مِن التَّصدِّي لرتبةٍ قبل استحقاقِها، والتشاغلِ بعلمٍ خفيٍّ

---

(١) رواه أبو داود (٨).

قبل الفراغِ مِن الجليِّ، ثم يُنبِّهُهُ على أنَّ الغرضَ بطلبِ العلومِ القربُ مِنَ الله تعالى دون الرئاسةِ والمباهاةِ والمنافسةِ.

الوظيفة الرابعةُ: أن يزجرَ المُتعلِّمَ عن سوء الأخلاقِ بطريقِ التَّعريضِ ما أمكن:

فلا يُصرِّح بخطئه، بل يُهذِّبُهُ بطريقِ الرحمةِ لا بطريقِ التوبيخ؛ فإنَّ التَّصريحَ يَهتِكُ حجابَ الهيبةِ، ويُورِثُ الجُرأةَ على الهجوم بالخلاف، ويُهيِّجُ الحرصَ على الإصرار.

الوظيفةُ الخامسةُ: أنَّ المتكفِّلَ ببعضِ العلوم ينبغي أن لا يُقبِّحَ في نفسِ المتعلِّم العلومَ التي وراءه:

كمُعلِّمِ اللُّغة؛ إذ عادتُهُ تقبيحُ علمِ الفقهِ، ومُعلِّم الفقهِ عادتُهُ تقبيحُ علمِ الحديثِ والتفسيرِ، وأنَّ ذلك نقلٌ محضٌ وسماعٌ صِرْفٌ وهو شأنُ العجائز، ولا نظرَ للعقلِ فيه، ومُعلِّم الكلامِ يُنفِّرُ عن الفقهِ ويقولُ: ذلك فرعٌ، وهو كلامٌ في حيضِ النِّسوان، فأينَ ذلكَ مِن الكلامِ في صفة الرحمن؟!

الوظيفة السادسة: أن يقتصرَ بالمتعلِّم على قدر فهمِهِ:

فلا يُلقي إليه ما لا يبلغُهُ عقلُهُ فيُنفِّرَهُ أو يخبطَ عليه عقلَهُ؛ اقتداءً في ذلك بسيِّدِ البشرِ ﷺ، حيث قال: «ما أحدٌ يُحدِّثُ قوماً بحديثٍ لا تبلغُهُ عقولُهم إلا كان فتنةً على بعضِهم»(١).

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ورواه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ١١) موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥] تنبيهٌ على أنَّ حفظَ العلمِ ممّن يُفسِدُهُ ويضرُّهُ أولى، وليس الظلمُ في إعطاء غيرِ المستحقِّ بأقلَّ مِن الظلمِ في منعِ المستحقِّ، كما قيل[1]:

أَأَنْثُرُ دُرّاً بَيْنَ سارِحَةِ النَّعَمْ ... وَأُصْبِحُ مَخْزُوناً بِراعِيَةِ الغَنَمْ

فَإِنْ لَطَفَ اللهُ اللَّطِيفُ بِلُطْفِهِ ... وَصَادَفْتُ أَهلاً لِلعُلومِ وَلِلحِكَمْ

بَثَثْتُ مُفِيداً وَاسْتَفَدْتُ وِدادَهُمْ ... وَإِلّا فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ

فَمَنْ مَنَحَ الجُهّالَ عِلْماً أَضاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

(١) الأبيات للإمام الشافعي في ديوانه (١٢٨. ١٢٩).

[مطلب في بيان أهمية الأدب]

(ش: اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ القليلَ مِنَ العلمِ يحتاج إلى قنطارٍ مِنَ الأدب، فبركةُ العلمِ إنما تكون على قدر الآداب المتخذة معه، وقد كان الإمام مالك يقول: «اجعل عِلْمَكَ مِلْحاً وأدبَكَ دقيقاً»).

فالأدبُ مفتاحُ العلوم، ومنبعُ الفهوم، فهو سببُ السعادة والنَّجاح، ومفتاحُ الخير والفلاح، ومَنْ حُرِمَ الأدبَ فقد حُرِمَ الخيرَ كُلَّه، ومَنْ تهاوَنَ بالأدبِ فقد تَعَرَّضَ للشر كلِّه.

قال ابنُ المبارك رحمه الله تعالى: (مَنْ تَهاوَنَ بالأدبِ عُوقِبَ بحرمان السُّنَنِ، ومَنْ تَهَاوَنَ بالسُّنَنِ عُوقِبَ بحرمانِ الفرائض، ومَنْ تَهَاوَنَ بالفرائضِ عُوقِبَ بحرمانِ المعرفة).

وقال ابن عباس: (اطلب الأدبَ؛ فإنّه زيادةٌ في العقل، ودليلٌ على المروءةِ، ومُؤنسٌ في الوحدةِ، وصاحبٌ في الغربة، ومالٌ عند القلة).

وقال أبو عبد الله البلخي: (أدبُ العلمِ أكثرُ مِن العلم).

وقال ابن المبارك رحمه الله تعالى: (لا يَنْبُلُ الرجلُ بنوعٍ مِن العلم ما لم يُزيِّنْ علمَهُ بالأدب).

وقال أيضًا: (نحن إلى قليلٍ مِن الأدب أحوجُ منّا إلى كثيرٍ مِن العلم).

وقال أيضًا: (طلبتُ الأدبَ ثلاثين سنة، وطلبتُ العلمَ عشرين سنة، وكانوا يطلبون الأدبَ قبل العلم).

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (كاد الأدبُ يكون ثلثي العلم).

قال الإمام الشافعي: (تعلَّمتُ العلمَ في سنتين، والأدبَ في ثماني عشرة سنة، ويا ليتها كلها كانت في الأدب).

(ش: قال ابنُ البنا السَّرقُسطيُّ رحمه الله تعالى في «المباحث الأصلية»:

والأدبُ الظاهــــرُ للعِيــان دلالــةُ الباطــنِ فــي الإنســانِ
وهــو أيضــاً للفقيــرِ سَــنَدُ وَللغنـــيِّ زينـــةٌ وسُـــؤدُدُ
وقِيلَ مَنْ يُحرَمُ سُلطانَ الأدبْ فَهُــوَ بعيدٌ مــا تَدانــا واقتربْ
وقيــل مَنْ تَحْبِسُــهُ الأنســابُ فَإِنَّمـــا تُطلِقُـــهُ الآدابُ
فالقومُ بــالآدابِ حَقّاً ســادُوا مِنْهُ اســتفادَ القومُ ما استفادوا)

[مطلب في بيان آداب المتعلِّم]

(ش: وهي كثيرةٌ جَمّةٌ لا حصرَ لها، وقد ذكر الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى بعضَها فقال:

سَافِرْ عَنِ الأَهْلِ وَالأَوْطَانِ قَاطِبَةً وَاطْلُبْ لِعِلْمٍ بِهِ تَمْتَازُ عَنْ نَعَمِ
فَلَازِمِ العِلْمَ لَا تَهْجُرْ مَجَالِسَهُ فَإِنَّهَا رَوْضُ جَنَّاتٍ بِلَا تُهَمِ
وَمَنْ مَشَى فِي طَرِيقٍ طَالِبًا لِهُدَى لَهُ طَرِيقٌ إِلَى جَنَّاتِ عَدْنِهِمِ
وَاقْصِدْ بِهِ وَجْهَ مَوْلَاكَ الْكَرِيمِ تَفُزْ وَلَا تَسَلْ فَاسِقًا كَالْقَاضِي وَالْحَكَمِ
لَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ إِلَّا عَنْ حَلِيفِ تُقًى فَاعْكِفْ بِسَاحَتِهِ الْغَرَّاءِ وَالْتَزِمِ
فَاطْلُبْ وَجِدَّ تَجِدْ وَاثْبُتْ بِلَا مَلَلٍ تَنْبُتْ أُصُولُكَ فِي فَيْحَاءِ حَيِّهِمِ
أَخْلِصْ تَخَلَّصْ مِنَ الأَغْيَارِ فَرَّ إِلَى مَوْلَاكَ بِالْقَلْبِ تُعْطَ الْقُرْبَ إِنْ تَرُمِ
وَلَا تَسَمَّعْ وَلَا تَفْخَرْ عَلَى أَحَدٍ وَلَا تَكَبَّرْ عَلَى شَخْصٍ مِنَ النَّسَمِ
إِلَّا عَلَى كَافِرٍ أَوْ ظَالِمٍ أَشِرٍ لَا تَتَّضِعْ لَهُمَا وَاحْذَرْ مِنَ الشَّمَمِ
لَا تَحْقِرَنْ أَحَدًا فِي بَاطِنٍ أَبَدًا وَلَا تَظُنَّ بِهِ سُوءًا فَتَتَّهِمِ
نَعَمْ إِذَا جَاهَرَ الْفُسَّاقُ خَالِقَهُمْ بِالْمُنْكَرَاتِ فَلَا إِثْمٌ عَلَى تُهَمِ
لِأَنَّهُمْ خَلَعُوا ثَوْبَ الْحَيَا وَأَتَوا فِعْلَ الْخَنَا جَهْرَةً مِنْ غَيْرِ مُحْتَشَمِ
وَنَزِّهِ الطَّرْفَ وَالأَعْضَاءَ مِنْ دَنَسٍ وَمِنْ حَرَامٍ وَقُمْ للهِ وَاحْتَرِمِ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ مِنْ لَغْوِ الْكَلَامِ بِهِ يَكْفِيكَ مِنْ مُوجِبَاتِ الْكَرْبِ وَالْغَمَمِ

وَهَلْ يَكُبُّ الْوَرَى فِي النَّارِ صَاحِ سِوَى حَصَائِدُ النُّطْقِ بِالأَلْفَاظِ وَالْكَلِمِ
وَاجْلِسْ عَلَى بَابِ قَلْبٍ حَارِسًا أَبَدًا وَكُنْ مَعَ النَّفْسِ كَالرَّاعِي مَعَ الْغَنَمِ
فَإِنَّهَا قُطْبُ شَرٍّ قَدْ حَوَتْ فِتَنًا مِنَ الدَّسَائِسِ تَحْكِي دَاجِيَ الظُّلَمِ
رَوَّاغَةٌ أَبَدًا لَا تَسْتَقِيمُ بَلَى تَكُبُّ صَاحِبَهَا مُرْدًى إِلَى الْعَدَمِ
فَاطْلُبْ لِعِلْمٍ شَرِيفٍ نَافِعٍ فَبِهِ تُزْفَعْ وَزَيِّنْهُ بِالتَّقْوَى فَقُمْ وَهِمِ
وَاحْرِصْ عَلَى الْعِلْمِ فَهُوَ الأَصْلُ فَابْتَغِهِ لَا سِيَّمَا بِأُصُولِ الدِّينِ فَاحْتَزِمِ
وَاعْرِفْ إِلَهَكَ قَبْلَ الْكُلِّ مُعْتَرِفًا لَهُ بِتَوْحِيدِهِ وَاعْبُدْ بِلَا سَأَمِ
وَاطْلُبْ لِعِلْمِ فُرُوضٍ قَدْ أُمِرْتَ بِهَا مِنْ أَصْلِ دِينٍ وَغُسْلٍ مَعْ وُضُوئِهِمِ
وَكَالصَّلَاةِ وَصَوْمٍ وَالزَّكَاةِ وَمَا ضَاهَاهُ فِي الْحُكْمِ مِنْ بَيْعٍ وَمِنْ سَلَمِ
وَعِلْمِ قَلْبٍ وَأَخْلَاقٍ مُعَامَلَةٍ وَاجْلِسْ لَدَى الشَّيْخِ مِثْلَ الْعَبْدِ وَالْخَدَمِ
إِنْ رُمْتَ تَخْدُمُ فَاخْدُمْ سَادَةً عَلِمُوا بِشَرْطِ الإِخْلَاصِ لَا قَصْدًا لِمَدْحِهِمِ
وَلَا رِيَاءً وَلَا فَخْرًا وَلَا لِدُنَا وَنَحْوِ ذَلِكَ وَالأَعْتَابِ فَالْتَزِمِ
وَغُضَّ طَرْفًا وَلَا تَضْحَكْ بِلَا سَبَبٍ أَحْضِرْ لِقَلْبِكَ وَافْهَمْ صَافِيَ الْحِكَمِ
وَإِنْ يُنَادِيكَ قُلْ لَبَّيْكَ أَوْ بِنَعَمْ أَجِبْ نِدَاهُ وَإِنْ يَأْمُرْكَ فَاسْتَلِمِ
حَكِّمْهُ فِي النَّفْسِ تَظْفَرْ لَا تَكُنْ حَرِجًا فِيمَا قَضَاهُ بِهِ اتْبَعْ رَمْزَ سِرِّهِمِ
شَاوِرْهُ فِي كُلِّ مَا تَبْغِيهِ مِنْ غَرَضٍ وَاسْمَعْ لَهُ وَأَطِعْ وَاصْبِرْ عَلَى الأَلَمِ
مِنْ زَجْرَةِ النَّفْسِ أَوْ تَهْذِيبِهِ فَبِهِ يُشْرِقْ ضِيَاءُ سَنَاءِ السِّرِّ مِنْ ظُلَمِ
وَإِنْ تَجِدْ حَاجَةً عَنَّتْ لَهُ فَإِذَا بَادِرْ إِلَيْهَا بِبَذْلِ الْمَالِ وَالْقَدَمِ
وَلَا تَكُنْ سَائِلًا مِنْ غَيْرِ مَشْوَرَةٍ وَلَا بِحَالِ انْحِرَافِ الشَّيْخِ مِنْ غَمَمِ
فِي الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالأَحْزَانُ مُفْرِطَةٌ وَشُغْلِ فِكْرٍ بِأَمْرٍ حَادِثٍ عَمِمِ
وَلَا بِجُوعٍ وَلَا عُزْيٍ وَلَا ظَمَأٍ وَلَا بِحَقْنٍ وَلَا حَقْبٍ وَنَحْوِهِمِ

وَلَا تَسَلْهُ بِخَوْفٍ غَالِبٍ وَإِذَا ... أُجِبْتَ أَوْ لَمْ تُجَبْ إِيَّاكَ تَتَّهِمِ
وَلَا تُلِحَّ عَلَى رَدِّ الْجَوَابِ وَلَا ... تَجُلْ بِأَرْضِ ظُنُونِ السُّوءِ وَالتُّهَمِ
فَإِنْ تَرَ الْخَيْرَ فَانْشُرْ ذِكْرَهُ فَإِذَا ... مَا خِلْتَ ضِدًّا فَلَا تَهْتِكْ لِسِتْرِهِمِ
أَوِّلْ بِمَا قَدَرَتْ نَفْسٌ عَلَيْهِ وَإِنْ ... قَدْ كَانَ لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ فَاتَّهِمِ
أَعْنِي لِنَفْسِكَ وَارْجِعْ بِالْمَلَامِ لَهَا ... وَبَعْدَ ذَلِكَ فَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِهِمِ
وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِي بَابِ الأُخُوَّةِ خُذْ ... مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بِحَبْلِ اللهِ وَاعْتَصِمِ
وَكُلُّ أَمْرِكَ لَا تَكْتِمْهُ عَنْ ثِقَةٍ ... أَخَذْتَ عَنْهُ بِصِدْقِ الْعَزْمِ وَالْهِمَمِ
وَاطْلُبْ عَلَى مُرْشِدٍ قَدْ طَابَ عُنْصُرُهُ ... وَكُنْ لَهُ خَادِمًا مِنْ جُمْلَةِ الْخَدَمِ
صَفِّ الإِرَادَةَ بِالإِخْلَاصِ مُلْتَزِمًا ... لِلذِّكْرِ دَأْبًا تَهَجَّدْ فِي الدُّجَى وَصُمِ)

❊

[مطلب في بيان آداب المُعلِّم]

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى في بيان ما ينبغي للعالم:

فَاكْتُمْ عُلُومَكَ إِلَّا عَنْ أَخِي ثِقَةٍ ... قَدْ جَاءَ يَطْلُبُهَا للهِ فَاغْتَنِمِ
تَعْلِيمَهُ سِيَّمَا إِنْ طَابَ عُنْصُرُهُ ... وَلَا تُفِدْهَا لِجَبَّارٍ وَذِي شَمَمِ
وَلَا لِمَنْ رَامَ حَظًّا عَاجِلًا كَفَتَى ... رَامَ الْقَضَاءَ وَتَدْرِيسًا لِصِيتِهِمِ
إِنَّ الَّذِي مَالَ لِلدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... بِحِرْفَةِ الْعِلْمِ كَلْبٌ وَالِغٌ بِدَمِ
وَقَاطِعٌ عَنْ طَرِيقِ اللهِ مُنْقَطِعٌ ... عَنْ بَابِ مَوْلَاهُ مَحْرُومٌ مِنَ الْقِسَمِ
فَاحْذَرْ تُعَلِّمْهُ شَيْئًا فَتُشْرِكَهُ ... فِي الإِثْمِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ وَالظُّلَمِ
وَاجْلِسْ وَقُورًا عَلَى طُهْرٍ وَكُنْ وَجِلًا ... مِنَ الرِّيَاءِ وَمِنْ عُجْبٍ وَكِبْرِهِمِ
وَابْدَأْ بِتَعْلِيمِ مَا قَدْ كَانَ مُفْتَرَضًا ... مِنَ الأُصُولِ وَمِنْ فِقْهٍ بِدِينِهِمِ
وَعِلْمِ أَمْرَاضِ قَلْبٍ مَعْ مُعَالَجَةٍ ... فَذَاكَ حَتْمٌ عَلَى مَنْ كَانَ ذَا حِكَمِ
وَعِلْمِ نَحْوٍ وَتَصْرِيفٍ وَنَحْوِهِمَا ... إِنْ قَامَ شَخْصٌ بِهَا أَجْزَا عَنِ الأُمَمِ
فَابْدَأْ بِمَا هُوْ مُهِمٌّ بَلْ أَهَمُّ وَلَا ... تُضِعْ زَمَانًا بِغَيْرٍ تُفْضِ لِلنَّدَمِ
وَكُنْ وَقُورًا لَدَى التَّقْرِيرِ مُتَّقِيًا ... لِحَظِّ نَفْسِكَ مِنْ فِعْلٍ وَمِنْ كَلِمِ
بَشِّرْ وَيَسِّرْ وَرَغِّبْ عِنْدَ مَوْعِظَةٍ ... حَذِّرْ وَذَكِّرْ وَأَنْذِرْ وَاعْفُ وَانْتَقِمِ
أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَلَا تَفْجُرْ عَلَى أَحَدٍ ... وَلَا تُكَافِي خَسِيسَ الْقَدْرِ وَالْقِيَمِ
إِيَّاكَ وَاللَّعْنَ وَاحْفَظْ كُلَّ جَارِحَةٍ ... مِنَ الحَرَامِ بِحِلٍّ كُنْتَ أَوْ حَرَمِ
أَعْرِضْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْ بِالْعُرْفِ مُحْتَسِبًا ... وَلَا تُدَاهِنْ لِذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمِ

كَلَّا وَلَا نَفْسَكَ احْذَرْ مِنْ مُدَاهَنَةٍ فَالنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ فَاعْتَصِمِ
وَلَا تُجَادِلْ لِطُلَّابِ الْجِدَالِ وَلَا تُمَارِ أَهْلَ الْمِرَا بَلْ مُرَّ وَانْهَزِمِ
وَلَا تُعَلِّمْ لِغَيْرِ اللهِ فَاخْشَ وَلَا تَمُنَّ لَا تُؤْذِ لَا تَفْخَرْ عَلَى النَّسَمِ
وَلَا تُكَلِّفْ لِقَوْمٍ قَدْ صَحِبْتَهُمُ بِخِدْمَةٍ لَا وَلَا تَطْمَعْ بِمَالِهِمِ
وَلَا تَكُنْ طَالِبًا لِلصِّيتِ مُنْتَشِرًا وَلَا تُقَطِّبْ وَبُشَّ الْوَجْهَ وَابْتَسِمِ
إِلَّا إِذَا مُنْكَرًا قَدْ خِلْتَ مِنْ أَحَدٍ فَاغْضَبْ وَقَطِّبْ لِحَقِّ اللهِ ثُمَّ قُمِ
كَانَ النَّبِيُّ رَسُولُ اللهِ سَيِّدُنَا إِذَا رَأَى مُنْكَرًا يَغْضَبْ وَيَنْتَقِمِ
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ فِي سُورَةٍ نَزَلَتْ أَعْنِي بِهَا النُّورَ لَا تَأْخُذْكُمُ افْتَهِمِ
وَلَا تُخَلِّطْ تَحِدْ عَنْ شِرْعَةٍ وَضُحَتْ فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْهُدَى الزَّهْرَاءَ كَالنُّجُمِ
وَلَا تُفِدْ لِغَرِيبِ الْعِلْمِ مُنْكِرَهُ وَخُذْ بِقَوْلِ عَلِيٍّ صَاحِبِ الْعَلَمِ
وَاطْرَحْ سُؤَالًا عَلَى قَوْمٍ لِتُخْبِرَهُمْ لَا لِلأَذَى بِامْتِحَانٍ مِنْكَ تَأْتَثِمِ
وَإِنْ سُئِلْتَ فَفَوِّضْ لِلإِلَهِ وَقُلْ اللهُ أَعْلَمُ وَالْمُخْتَارُ لِلأُمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ عَالِمًا أَوْ إِنْ عَلِمْتَ أَجِبْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُوجِبٌ لِلصَّمْتِ عَنْ كَلِمِ
وَلَا تُبَادِرْ إِلَى رَدِّ الْجَوَابِ بِلَا تَأَمُّلٍ مِنْكَ تُخْطِي مَنْهَجَ السَّلَمِ
وَإِنْ يَكُنْ ثَمَّ مَنْ قَدْ فَاقَ مَرْتَبَةً فَارْدُدْ إِلَيْهِ سُؤَالَ الْقَوْمِ وَاحْتَشِمِ
وَإِنْ كَتَبْتَ عَلَى فَتْوَى عَلِمْتَ بِهَا فَابْدَأْ بِحَمْدٍ وَمَيِّزْ قَطَّةَ الْقَلَمِ
وَاسْأَلْ مِنَ اللهِ تَوْفِيقَ الصَّوَابِ لَهَا وَصَلِّ مِنْ بَعْدِ حَمْدِ اللهِ وَاخْتَتِمِ
تَحْتَ السُّؤَالِ بِيُسْرَى رُقْعَةٍ رُسِمَتْ فَارْسُمْ جَوَابَكَ بِالإِيضَاحِ لِلتُّهَمِ
وَلَا تَكُنْ آخِذًا أَجْرًا عَلَيْهِ تَخِبْ مِنْ أَجْرِ أُخْرَاكَ فَاحْذَرْ زَلَّةَ الْقَدَمِ
وَلَا تُطَوِّلْ جَوَابًا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ نَعَمْ وَفَصِّلْ لِأَمْرٍ فِيهِ مُنْبَهِمِ
وَفِي الطَّلَاقِ تَثَبَّتْ لَا تَكُنْ عَجِلًا وَالاِحْتِيَاطَ بِهِ فَاعْمَلْ بِحِنْثِهِم)

الفصل الثامن
في آفات العلم، وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء

(ش: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: (العلومُ على القلوبِ كالدّراهمِ والدّنانيرِ في الأيدي، إن شاءَ اللهُ تعالى نَفَعَكَ بها، وإن شاءَ ضَرَّكَ معها)[1].

وقال الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى:

إِنَّ الَّــذِي مَــالَ لِلدُّنْيَــا وَزِينَتِهَــا ... بِحِرْفَــةِ الْعِلْــمِ كَلْــبٌ وَالِــغٌ بِــدَمِ
وَقَاطِــعٌ عَــنْ طَرِيــقِ اللهِ مُنْقَطِعٌ ... عَنْ بَابِ مَوْلَاهُ مَحْرُومٌ مِنَ الْقِسَــمِ

وقال رحمه الله تعالى في وصف علماء السوء:

وَالْعَالِمُونَ بِهَــذَا الْعَصْرِ قَدْ تَبِعُوا ... أَهْوَاءَهُــمْ فَهُــمُ أَعْمَــى مِــنَ النَّعَمِ
كَانُوا هُدَاةً لِمَنْ قَدْ ضَلَّ عَن سُبُلٍ ... صَــارُوا أَضَــلَّ عِبَــادِ اللهِ كُلِّهِــمِ
كِتَابَ مَوْلَاهُمُ رَبِّ السَّــمَا نَبَذُوا ... مِنْ خَلْفِ أَظْهُرِهِمْ يَا سُــوءَ مُقْتَحَمِ
ظَنُّــوا بِأَنَّ جِــدَالَ الْقَــوْمِ يَنْفَعُهُمْ ... يَــوْمَ الْمَعَــادِ وَهَــذَا فِعْــلُ مُتَّهَــمِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مِنْ هَذَا الْغُرُورِ فَلَا ... حَــوْلَ وَلَا قُــوَّةَ إِلَّا بِرَبِّهِــمِ
هُمْ مَعْشَــرٌ قَدْ شَــرَوا دُنْيَا بِآخِرَةٍ ... تَاللهِ قَــدْ خَسِــرُوا فِي عَقْــدِ بَيْعِهِمِ

---

(١) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٤٠).

فَالْعِلْمُ مَا أَوْرَثَ الْقَلْبَ الزَّكِيَّ تُقًى ... وَخَشْـيَةً عِنْـدَ أَهْـلِ اللهِ كُلِّهِـمِ
دَعُوا الْقُشُورَ مِنَ الأَلْفَاظِ وَاتَّبِعُوا ... لُـبَّ اللُّبَـابِ أَيَـا مَوْتَـى بجَهْلِهِمِ
حَتَّى مَتَى تَصِفُـونَ الْحَقَّ لِلْجُهَلا ... وَتَصْدِفُونَ عَـنِ الآيَـاتِ وَالْحِكَمِ
وَشَـأْنُكُمْ كَذُبَابٍ فِي تَنَافُسِـكُمْ ... عَلَى الْوَظَائِفِ وَالأَوْقَافِ وَالرُّسُـمِ
أَمَـا لَكُـمْ عِبْرَةٌ فِـي بَلْعَـمٍ فَلَقَدْ ... حَـوَى عُلُومًا وَقَدْ أُقْصِـي كَكَلْبِهِمِ
لِحُـبِّ دُنْيَاهُ وَالإِخْـلادِ صَارَ إِلَى ... هَذَا الْمَقَامِ الَّـذِي أَفْضَى إِلَى التُّخَمِ
قُومُوا انْظُرُوا بِقُلُوبٍ سَادَةً سَلَفُوا ... هَـلْ قُرِّبُـوا رِفْعَـةً إِلَّا بِزُهْدِهِـمِ
مِنْ ثَمَّ فَاقَ ذَوُو الْعِرْفَانِ وَارْتَفَعُوا ... قَـدْرًا عَلَى عَابِـدٍ بِالْجَهْـلِ كَالْبُهُمِ
فَوَاحِـدٌ عَالِـمٌ بِـاللهِ أَفْضَـلُ مِنْ ... تِعْـدَادِ أَلْـفٍ مِـنَ الْعُبَّـادِ لَا تَهِـمِ
فَالْعَالِمُ الْوَاحِدُ الْمَذْكُورُ مَقْصِدُنَا ... بِـهِ الْمُوَافِقُ فِي الطَّاعَـاتِ وَالْخَدَمِ
لَيْـسَ الْمُرَادُ بِـهِ ذَا الْقَـالِ لَقْلَقَةً ... فَإِنَّـهُ سَـاقِطٌ عَـنْ ذُرْوَةِ السَّـنَمِ
يَا حَسْرَتَا مَاتَ عِلْمُ الدِّينِ يَا أَسَفَا ... وَصَـارَ مَـنْ يَدَّعِيـهِ مُنْتِنُ الشِّـيَمِ
قَدْ مَالَ جَهْرًا إِلَـى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... وَحُـبِّ جَاهٍ كَذِئْبٍ ضَـارِئٍ بَكِمِ[1]
قَدْ أَخْرَسَـتْهُ عَنِ الْحَقِّ الْمُنِيرِ فَلَمْ ... يَأْمُـرْ بِعُرْفٍ وَلَـمْ يَزْجُرْ وَلَـمْ يَرُمِ
بِعِلْمِهِ وَجْـهَ مَـوْلَاهُ الْعَظِيمِ وَلَمْ ... يَسْـمَعْ زَوَاجِـرَ قُرْآنٍ مِـنَ الصَّمَمِ
أَيْنَ الْعُلُومُ وَمَـا أَثْمَرْنَ مِنْ تُحَفٍ ... مِنَ الْمَحَاسِـنِ وَالأَنْـوَارِ فِي الظُّلَمِ
الْعِلْـمُ نُـورٌ مُبِيـنٌ يُسْـتَضَاءُ بِهِ ... وَالنُّورُ يُكْسَفُ بِالظَّلْمَاءِ وَالْقَتَمِ[2]
الْعِلْـمُ مَـاءٌ طَهُـورٌ مُطْلَـقٌ أَبَدًا ... مُطَهِّرُ الْقَلْبِ مِنْ حَدْثٍ وَرِجْسِـهِمِ

---

(١) الضَّاري: المولعُ بأكل اللحم، فالمولَعُ بحب الدُّنيا وزينتها مثلُ الذئبِ في أخذ فريسته والحرص عليها.

(٢) القَتَم: كثرة الغبار الأسود.

لَكِنَّــهُ حَــلَّ فِــي أَرْضٍ مُنَجَّسَــةٍ فَغَيَّرَتْهُ فَأَضْحَى وَاكِــسَ الْقِيَمِ[١]

الْعِلْمُ ثَــوْبُ جَمَالٍ فَــاقَ مَنْظَرُهُ وَلُبْسُــهُ زِينَــةٌ لِلنَّــاسِ كُلِّهِــمِ

نَعَمْ قُلُوبُ الْوَرَى أَضْحَتْ لَهُ جَسَدًا فَغَيَّــرَتْ وَصْفَــهُ هَتْــكًا لِسِــتْرِهِمِ

الْعِلْمُ يحْيِــي قُلُوبًــا زَالَ رَوْنَقُهَا لَكِنَّهُ صَــارَ مَيْتًــا دَارِسَ الرِّمَمِ[٢]

الْعِلْــمُ يَرْفَعُ فِــي الدَّارَيْنِ صَاحِبَهُ لَكِــنَّ حَامِلَــهُ أَفْضَــى إِلَــى التُّخَمِ

بِمَيْلِــهِ لِخَسِــيسِ الْقَــدْرِ يَجْمَعُهُ مِــنَ الْحُطَامِ الَّــذِي يَفْنَى وَلَــمْ يَدُمِ

يَا مَنْ يُدِيمُ جِــدَالَ الْقَوْمِ مُفْتَخِرًا مُزَخْرِفًــا زَاعِمًــا لِلْعِلْــمِ وَالْحِكَمِ

أَمَــا عَلِمْتَ بِــأَنَّ الْعَالِمِيــنَ لَهُمْ أَشَــدُّ نَــوْعِ عَــذَابٍ بَائِــسٍ قَتِمِ

إِنْ كَانَ عَالِمُهُمْ لَا يَخْشَــى خَالِقَهُ وَيْــلٌ لَــهُ أَبَــدًا بَــلْ أَلْــفُ وَيْلِهِمِ

يُجَــاءُ بِالْعَالِمِ الْمَغْــرُورِ نَارَ لَظَى يُلْقَــى بِهَــا كَحِمَــارٍ دَارِسِ الرِّمَــمِ

هَــذَا وَقَــدْ دَلِقَــتْ أَقْتَابُــهُ فَغَدَا بِالْخِــزْيِ مُشْــتَهِرًا يَا سُــوءَ مُقْتَحَمِ

وَإِذْ يُنَــادَى فُــلَانٌ كُنْــتَ تَأْمُرُنَا أَيْضًــا وَتَزْجُرُنَــا عَنْ سَــيِّءِ الْجُرُمِ

إِلَى هُنَا صِرْتَ مَاذَا قَدْ فَعَلْتَ يَقُلْ قَدْ كُنْــتُ أُلْزِمُكُمْ مَا لَيْــسَ مُلْتَزِمِي

لَــمْ أَفْعَلِ الْخَيْرَ لَمَّــا أَنْ أَمَرْتُ بِهِ وَكُنْــتُ أَفْعَــلُ مَــا أَنْهَــى بِــلَا نَدَمِ

فَتُــبْ إِلَى اللهِ مِنْ ظُلْــمٍ وَمِنْ بِدَعٍ وَمِــنْ عِجَابِــكَ وَالإِهْمَــالِ لِلأُمَمِ

إِنْ لَمْ تَكُنْ نَاصِحًا لِلْخَلْقِ تَلْقَ غَدًا خِزْيًــا عَظِيمًــا وَتَصْلَى نَــارَ حَرِّهِمِ

فَالْجَأْ إِلَى اللهِ دَأْبًا فِي الْخَلَاصِ وَمُرْ بِالْعُرْفِ وَالْعَدْلِ وَازْجُرْهُمْ عَنِ الْجُرُمِ)

---

(١) وَاكِس الْقِيَمِ: أي ناقص القدر والقيمة بين الناس.

(٢) دَارِس الرِّمَمِ: أي عظامًا باليةً.

واعلم أنَّ علماءَ الدنيا ـ الذين هم علماءُ السُّوءِ ـ قصدُهم مِن العلمِ التَّنعمُ بالدُّنيا، والتَّوَصُّلُ إلى الجاهِ والمنزلة عند أهلها، وأنَّ الفائزين المقرَّبين هم علماءُ الآخرة، ولهم علاماتٌ:

فمنها: ألَّا يطلبَ الدُّنيا بعلمه: فإنَّ أوَّلَ درجاتِ العالِمِ أن يُدرِكَ حقارةَ الدُّنيا وخِسَّتَها، وكدورتَها وانصرامَها، وعظمَ الآخرةِ ودوامَها، وصفاءَ نعيمِها، وجلالةَ مَلِكِها، ويعلمَ أنَّهما متضادانِ، وأنَّهما كالضَّرَّتَينِ مهما أرضيتَ إحداهَما أسخطتَ الأخرى، وأنَّهما كالمشرق والمغرب مهما قربتَ مِن إحداهما بعدتَ مِن الأخرى.

ومَنْ عَلِمَ هذا ثم لم يُؤثِرِ الآخرةَ على الدنيا فهو أسيرُ الشيطان، قد أهلكتْهُ شهوتُهُ، وغلبَتْ عليه شِقوتُهُ، فكيف يُعَدُّ مِن حزبِ العلماء مَنْ هذه درجتُهُ؟

وفي أخبار داود عليه السلام حكايةً عن الله تعالى: (إنَّ أدنى ما أصنعُ بالعالِمِ إذا آثرَ شهوتَهُ على محبتي أن أَحرِمَهُ لذائذَ مناجاتي.

يا داود، لا تسألَنْ عني عالِماً قد أسكرتْهُ الدنيا، فيصدَّكَ عن طريق محبَّتي، أولئك قُطَّاعُ الطَّريق على عبادي.

يا داود، إذا رأيتَ لي طالباً فكن له خادماً.

يا داود، مَنْ رَدَّ إليَّ هارباً كتبتُهُ جِهْبِذاً[1]، ومَنْ كتبتُهُ جِهْبذاً لم أُعذِّبْهُ أبداً)[2].

وقال عيسى عليه السلام: (مثلُ علماءِ السوءِ كمثلِ صخرةٍ وَقَعَتْ على فمِ النَّهرِ، لا هي تشربُ الماء، ولا هي تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرع)[3].

---

(١) الجِهْبِذ: العَارِفُ المُتَضَلِّعُ مِنَ المَعَارِفِ.

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤١).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤١).

وقال الشاعر:

وراعي الشَّـاةِ يحمي الذِّئبَ عَنْهَا   فَكَيْـفَ إذا الرُّعـاةُ لهـا ذِئـابُ

وقال آخرُ:

يـا مَعْشَـرَ القُرّاءِ يـا مِلْـحَ البَلَدْ   مَا يُصْلِـحُ المِلْحَ إذا المِلْحُ فَسَـدْ

وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: (يا أصحابَ العلم، قصورُكُم قيصريّةٌ، وبيوتُكم كِسرويّةٌ، وأثوابكُم طاهريّةٌ[1]، وأخفافُكُم جالوتيّةٌ، ومراكبُكُم قارونيّةٌ، وأوانيكُم فرعونيّةٌ، ومآتمُكُم جاهليّةٌ، ومذاهبُكُم شيطانيّةٌ، فأينَ الشَّريعةُ المحمدية؟!)[2].

وقال عمر رضي الله عنه: (إذا رأيتم العالِمَ مُحِبّاً للدنيا فاتَّهموه على دينكم؛ فإنَّ كلَّ مُحِبٍّ يخوضُ فيما أَحَبَّ)[3].

وقال مالك بن دينار رحمه الله: (قرأتُ في بعض الكتبِ أنَّ الله عز وجل يقول: إنَّ أهونَ ما أصنعُ بالعالِمِ إذا أحبَّ الدنيا أن أُخرِجَ حلاوةَ مناجاتي مِن قلبه)[4].

ومنها: ألّا يُخالِفَ فعلُهُ قولَهُ:

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

---

(١) طاهرية: منسوبة إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير، وكان يتغالى في الثياب. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (١/ ٣٥٨).

(٢) رواه الحافظ السلفي في معجم السفر (٨٠٤).

(٣) ينظر: (جامع بيان العلم وفضله) (١١٧٤) من قول جعفر بن محمد.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٦٠).

وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالِمٌ لم يَنْفَعْهُ الله بعِلْمِهِ»(١).

وقال أسامةُ بنُ زيدٍ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُؤتَى بالعالِمِ يومَ القيامة، فيُلقَى في النار، فَتَنْدَلِقُ أقتابُهُ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ في الرَّحى، فيطيفُ به أهلُ النار فيقولون: ما لَكَ؟ فيقول: كنتُ آمُرُ بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشرِّ وآتيه»(٢).

(م: فهذا وعيدٌ شديدٌ لِمَنْ يتعلَّمُ العلومَ الشرعيّةَ بغير قصدِ العملِ بها، فمتى فَتَحَ السالكُ كتاباً مِن كتبِ العلم وليس في نيّتِهِ أن يُطبِّقَهُ كان مسلوبَ البركةَ، بعيدًا عن طرق الأولياء.

قال الإمامُ الحدّادُ رضي الله عنه: ينبغي للمؤمن الحريصِ على طلب مرضاة الله تعالى، ونيلِ القربِ منه والكرامةِ عنده والمجاورةِ له في داره سبحانه، أن لا يسمعَ بشيءٍ مِنَ الفضائلِ الدينيّةِ والخيراتِ الأخرويّة إلّا ويُشمِّرُ غايةَ التَّشميرِ في نيلِها والعملِ بها، ولا يمنعُهُ مِن ذلك إلا عدمُ التَّمَكُّنِ والاستطاعة، فمهما سمعتَ بفضيلةٍ مِن الفضائل أو عملٍ مِن أعمالِ الخير لا تستطيعُ العملَ به فينبغي لك أن تنويَ ذلك الخير، وتَعزِمَ على فعل ذلك الفضلِ مهما تَمَكَّنْتَ منه وفرغَتَ له، لتكونَ بنيَّتِكَ الصالحةِ في جملة العاملين به والمقيمين له؛ ونيّةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عملِهِ، وقد يبلغُ بها ما لا يبلغُ بالعمل).

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/ ١٨٢).

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧)، والأقتاب: الأمعاء.

ثم لا تظنَّنَّ أنَّ تركَ المالِ يكفي لِلُّحوقِ بعلماء الآخرة؛ فإنَّ الجاهَ أضرُّ مِنَ المال.

(م: فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ، وفيهم: رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ: كَذَبْتَ وَلكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1]).

قال ﷺ: «إنَّه ليأتي الرَّجُلُ العظيمُ السَّمِينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عندَ الله جناحَ بعوضةٍ»[2].

وروي عن جابر ﷺ: (لا تجلسوا عندَ كلِّ عالِمٍ إلّا عالمٍ يدعوكم مِن خمسٍ إلى خمسٍ: مِنَ الشَّكِّ إلى اليقين، ومِنَ الرياء إلى الإخلاص، ومِنَ الرغبة إلى الزهد، ومِنَ الكبر إلى التواضع، ومِنَ العداوة إلى النصيحة)[3].

وقال أبو الدرداء ﷺ: (ويلٌ لِمَنْ لا يَعْلَمُ مرَّةً، وَوَيلٌ لِمَنْ يَعْلَمْ ولا يعملُ سبعَ مرّاتٍ)[4].

ومنها: أن تكونَ عنايتُهُ بتحصيلِ العلمِ النافعِ في الآخرةِ:

ورُوِيَ عن حاتمِ الأصمِّ تلميذِ شقيقِ البلخيِّ ﷺ أنَّه قال له شقيقٌ: منذ

---

(١) رواه النسائي (٣١٣٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٧٢).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١).

كَمْ صحبتني؟ قال حاتمٌ: منذ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، قال: فما تعلَّمْتَ منِّي في هذه المدّة؟ قال: ثمانُ مسائلَ، قال شقيقٌ له: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذَهَبَ عمري معكَ ولم تتعلَّم إلا ثمانيَ مسائلَ؟ قال: يا أستاذ، لم أتعلَّم غيرَها، وإنِّي لا أحبُّ أن أكذبَ، فقال: هاتِ هذه الثمانيَ مسائلَ حتَّى أسمعَها.

قال حاتمٌ:

الأولى: نظرتُ إلى هذا الخلقِ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ يُحبُّ محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وَصَلَ إلى القبر فارقَهُ، فجعلتُ الحسناتِ محبوبي، فإذا دخلتُ القبرَ دخلَ محبوبي معي.

فقال: أحسنتَ يا حاتمُ، فما الثانية؟

فقال: نظرتُ في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]، فعلمتُ أنَّ قولَهُ سبحانه وتعالى هو الحقُّ، فأجهدتُ نفسي في دفع الهوى حتى استقرَّتْ على طاعة الله تعالى.

الثالثة: أنِّي نظرتُ إلى هذا الخلق، فرأيتُ كلَّ مَنْ معه شيءٌ له قيمةٌ ومقدارٌ رَفَعَهُ وحَفِظَهُ، ثم نظرتُ إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فكلَّما وَقَعَ معي شيءٌ له قيمةٌ ومقدارٌ وجَّهتُهُ إلى الله ليبقى لي عنده محفوظاً.

الرابعة: أنِّي نظرتُ إلى هذا الخلقِ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهم يرجعُ إلى المالِ والحسبِ والشرفِ والنَّسبِ، فنظرتُ فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرتُ إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فعملتُ في التقوى حتى أكونَ عند الله كريماً.

الخامسة: أنِّي نظرتُ إلى هذا الخلقِ وهم يطعنُ بعضُهم في بعض ويلعنُ بعضُهم بعضاً، وأصلُ هذا كلِّه الحسدُ، ثم نظرتُ إلى قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فتركتُ الحسدَ واجتنبتُ الخلقَ، وعلمتُ أنَّ القسمةَ مِن عند الله سبحانه وتعالى، فتركتُ عداوةَ الخلقِ عنِّي.

السادسة: نظرتُ إلى هذا الخلق يَبْغِي بعضُهم على بعضٍ، ويقاتلُ بعضُهم بعضاً، فرجعتُ إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فعاديتُهُ وحدَهُ، واجتهدتُ في أخذِ حذري منه؛ لأنَّ الله تعالى شَهِدَ عليه أنَّه عدوٌّ لي، فتركتُ عداوةَ الخلقِ غيرَهُ.

السابعة: نظرتُ إلى هذا الخلق، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهم يطلبُ هذه الكسرةَ مِنَ الخبز، فَيُذِلُّ فيها نفسَهُ، ويدخلُ فيما لا يَحِلُّ له، ثم نظرتُ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فعلمتُ أنِّي واحدٌ مِن هذه الدَّوابِّ التي على الله رزقُها، فاشتغلتُ بما لله تعالى عليَّ، وتركتُ ما لِيَ عندَهُ.

الثامنة: نظرتُ إلى هذا الخلق، فرأيتُهم كلَّهم متوكِّلين على مخلوقٍ، هذا على ضَيْعَتِهِ، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صِحّةِ بدنِهِ، وكلُّ مخلوقٍ متوكِّلٌ على مخلوقٍ مثلِهِ، فرجعتُ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣]، فتوكَّلتُ على الله عزَّ وجلَّ فهو حسبي.

قال شقيقٌ: يا حاتمُ، وَفَّقَكَ الله تعالى، فإنِّي نظرتُ في علومِ التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ والفرقانِ العظيمِ، فوجدتُ جميعَ أنواعِ الخيرِ والدِّيانةِ، وهي تدورُ على هذه الثمانِ مسائلَ، فَمَنِ استعملَها فقد استعملَ الكتبَ الأربعةَ[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٧٩) بنحوها.

ومنها: أن يكونَ غيرَ مائلٍ إلى التَّرَفُّهِ في المطعمِ والمَشربِ، والتَّنَعُّمِ في الملبسِ والتَّجَمُّلِ في الأثاث والمسكنِ:

بل يُؤثِرُ الاقتصادَ في جميع ذلك، ويَتَشَبَّهُ فيه بالسَّلفِ رحمهم الله تعالى، ويميلُ إلى الاكتفاءِ بالأقلِّ في جميع ذلك، وكلَّما زاد إلى طرفِ القِلّةِ ميلُهُ ازداد مِن الله قربُهُ، وارتفعَ في علماء الآخرةِ حِزبُهُ.

ومنها: أن يكونَ مُنقَبِضاً عن السلاطين:

فلا يدخلُ عليهم البتةَ ما دام يجدُ إلى الفرارِ عنهم سبيلاً، بل ينبغي أن يحترزَ مِن مخالطتهم وإنْ جاؤوا إليه؛ فإنَّ الدُّنيا حلوةٌ خَضِرةٌ، وزِمامُها بأيدي السلاطين، والمخالِطُ لهم لا يخلو عن تكلُّفٍ في طلبِ مرضاتِهم واستمالةِ قلوبِهم مع أنَّهم ظَلَمةٌ، ويجبُ على كل مُتديِّنٍ الإنكارُ عليهم، وتضييقُ صدرِهم بإظهار ظُلْمِهِم وتقبيحِ فعلِهِم.

فالداخلُ عليهم إمّا أن يلتفتَ إلى تجمُّلِهِم فيزدري نعمةَ الله عليه، أو يسكتَ عن الإنكارِ عليهم فيكونَ مُداهِناً لهم، أو يتكلَّفَ في كلامه كلاماً لمرضاتهم وتحسينِ حالِهم، وذلك هو البَهْتُ الصَّريحُ، أو أن يطمعَ في أن ينالَ مِن دنياهُم، وذلك هو السُّحتُ.

قال سعيدُ بنُ المسيّب رحمه الله: (إذا رأيتمُ العالِمَ يَغشى الأمراءَ فاحترزوا منه؛ فإنَّه لِصٌّ).

ومنها: ألّا يكونَ مُسارِعاً إلى الفتوى:

بل يكون مُتوقِّفاً ومُحترِزاً ما وَجَدَ إلى الخلاصِ سبيلاً، فإن سُئِلَ عمّا يعلمُهُ

تحقيقاً بنصِّ كتابِ الله أو بنصِّ حديثٍ أو إجماعٍ أو قياسٍ جليٍّ أفتى، وإن سُئِلَ عمَّا يشكُّ فيه قال: لا أدري، وإن سُئِلَ عمَّا يظنُّهُ باجتهادٍ وتخمينٍ احتاطَ ودَفَعَ عن نفسِهِ وأحالَ على غيره إن كان في غيره غُنيةٌ، هذا هو الحزمُ؛ لأنَّ تقلُّدَ خطرِ الاجتهادِ عظيمٌ.

قال عمر رضي الله عنه: (العلمُ ثلاثةٌ: كتابٌ ناطِقٌ، وسُنَّةٌ قائمةٌ، ولا أدري)[١].

قال الشعبيُّ: («لا أدري» نصفُ العلم)[٢].

ومَنْ سَكَتَ حيثُ لا يدري لله تعالى فليسَ بأقلَّ أجراً مِمَّنْ نَطَقَ؛ لأنَّ الاعترافَ بالجهلِ أشدُّ على النفس، وهكذا كانت عادةُ الصحابةِ والسلفِ رضي الله عنهم.

كان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما إذا سُئِلَ عن الفتوى قال: اذهبْ إلى هذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ فَضَعْها في عُنُقِهِ[٣].

وَوَصَفَ بعضُهم الأبدالَ فقال: (أكلُهُم فاقةٌ، وكلامُهُم ضرورةٌ)[٤]، أي: لا يتكلَّمون حتى يُسألوا، وإن وجدوا مَن يكفيهم سَكَتُوا، فإن اضطروا أجابوا، وكانوا يعدُّون الابتداءَ قبلَ السؤالِ مِنَ الشهوةِ الخفيّةِ للكلام.

ومنها: أن يكونَ أكثرُ اهتمامِه بعلمِ الباطنِ ومراقبةِ القلب، ومعرفةِ طريقِ الآخرةِ وسلوكِهِ:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٠٠٥) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٣٨٧).

(٢) رواه الدارمي في سننه (١٧٦).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٣١).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٥٤).

وذلك إنَّما يكونُ مِن المجاهدةِ والمراقبةِ؛ فإنَّ المجاهدةَ تُفضي إلى المشاهدة في دقائقِ علوم القلوب وتتفجَّرُ بها ينابيع الحكمةِ مِنَ القلب، وأما الكتبُ والتعليمُ فلا تَفِيَ بذلك، بل الحكمةُ الخارجةُ عن الحصرِ والعَدِّ إنَّما تَنْفَتِحُ بالمجاهدة والمراقبةِ، ومباشرةِ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ، والجلوسِ مع الله عز وجل في الخلوةِ مع حضورِ القلب بصافي الفكر، والانقطاعِ إلى الله تعالى عمَّا سواه، فذلك مفتاحُ الإلهامِ ومنبعُ الكشف.

فكم مِنْ مُتعلِّمٍ طال تعلُّمُهُ ولم يَقْدِرْ على مجاوزةِ مسموعِهِ بكلمة، وكَمْ مِنْ مقتصرٍ على المهمِّ في التَّعلُّمِ ومتوفِّرٍ على العملِ ومراقبةِ القلب فَتَحَ الله له مِنْ لطائفِ الحكمةِ ما تحارُ فيه عقولُ ذوي الألباب!

ومنها: أن يكونَ شديدَ العنايةِ بتقويةِ اليقين؛ فإنَّ اليقينَ هو رأسُ مالِ الدِّين.

ومنها: أن يكونَ حزيناً مُنكسِراً مُطرِقاً صامتاً:

يظهرُ أثرُ الخشيةِ على هيئتِهِ وكسوتِهِ، وسيرتِهِ وحركتِهِ وسكونِهِ، ونطقِهِ وسكوتِهِ، لا ينظر إليه ناظرٌ إلا وكان نظرُهُ مُذكِّراً لله تعالى.

وقال بشر بن الحارث: (مَنْ طَلَبَ الرئاسةَ بالعلم فَتَقَرَّبْ إلى الله تعالى ببغضِهِ؛ فإنَّه ممقوتٌ في السَّماءِ والأرضِ)[1].

وحكى الأوزاعيُّ رحمه الله عن بلال بن سعدٍ أنَّه كان يقول: (ينظر أحدُكُم إلى الشرطيِّ فيستعيذُ بالله منه، وينظر إلى علماءِ الدُّنيا المتصنِّعين للخلق المتشوِّفين إلى الرئاسة فلا يمقتُهُم، وهم أحقُّ بالمقتِ مِنْ ذلك الشرطيِّ)[2].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤١).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤١).

ومنها: أن يكونَ بحثُهُ عن علم الأعمالِ، وعمّا يُفسِدُها ويُشوِّشُ القلوبَ، ويُهيِّجُ الوسواسَ ويُثيرُ الشَّرَّ:

فإنَّ أصلَ الدِّينِ التَّوَقِّي مِن الشر، ولذلك قيل:

عرفتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ ... وَلَكِنْ لِتَوَقِّيهِ

وَمَنْ لا يَعْرِفُ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعْ فِيهِ

ومنها: أن يكونَ شديدَ التَّوَقِّي مِن مُحدَثاتِ الأمورِ، وإنِ اتَّفقَ عليها الجمهور:

فلا يَغُرَّنَّهُ إطباقُ الخلق على ما أُحدِثَ بعدَ الصَّحابة رضي الله عنهم، وليكنْ حريصاً على التَّفتيشِ عن أحوال الصحابةِ وسيرتِهم وأعمالِهم، وما كان فيه أكثرُ همِّهم، أكانَ في التدريسِ والتَّصنيفِ والمناظرةِ والقضاءِ والولايةِ وتولِّي الأوقافِ والوصايا ومالِ الأيتام ومخالطةِ السلاطين ومجاملتِهم في العِشْرةِ، أمْ كانَ في الخوفِ والحزنِ والتَّفكُّرِ والمجاهدةِ ومراقبةِ الظاهرِ والباطنِ واجتنابِ دقيقِ الإثمِ وجليلِهِ والحرصِ على إدراكِ خفايا شهواتِ النُّفوسِ ومكايدِ الشيطانِ، إلى غير ذلك من علوم الباطن.

ولقد صَدَقَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه حيث قال: (أنتمُ اليومَ في زمانٍ الهوى فيه تابعٌ للعلم، وسيأتي عليكم زمانٌ يكونُ العلمُ فيه تابعاً للهوى)[١].

وكان هشامُ بنُ عروةَ يقول: (لا تسألوهم اليومَ عمَّا أحدثوا؛ فإنَّهم قد أعدُّوا له جواباً، ولكنْ سَلُوهم عن السُّنّة؛ فإنَّهم لا يعرفونها)[٢].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٦٧).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٦٧).

وقال بعضُ العارفين: (إنَّما انقطعَ الأبدالُ في أطرافِ الأرض، واستتروا عن أعينِ الجمهور لأنَّهم لا يُطيقونَ النَّظَرَ إلى علماء الوقت؛ لأنَّهم عندهم جُهَّالٌ بالله تعالى، وهم عند أنفسِهم وعند الجاهلين علماءُ)(١).

قال سهلٌ التُّسْتَرِيُّ رضي الله عنه: (إنَّ مِنْ أعظمِ المعاصي الجهلَ بالجهل، والنَّظرَ إلى العامة، واستماعَ كلامِ أهلِ الغفلة)(٢).

وكلُّ عالِمٍ خاضَ في الدُّنيا فلا ينبغي أن يُصغَى إلى قوله، بل ينبغي أن يُتَّهَمَ في كلِّ ما يقول؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يخوضُ فيما أحبَّ، ويدفعُ ما لا يُوافِقُ محبوبَهُ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

والعوامُّ العُصاةُ أسعدُ حالاً مِن الجُهّالِ بطريقِ الدِّين، المعتقِدِينَ أنَّهم مِنَ العلماء؛ لأنَّ العاميَّ مُعترِفٌ بتقصيرِهِ فيستغفرُ ويتوبُ، وهذا الجاهلُ بالجهلِ الظَّانُّ أنَّه عالِمٌ، وأنَّ ما هو مُشتغِلٌ به مِنَ العلومِ ـ التي هي وسائلُهُ إلى الدُّنيا ـ مِن سلوكِ طريقِ الدِّين فلا يتوبُ ولا يستغفرُ، بل لا يزالُ مُستمرّاً عليه إلى الموت.

وإذ غَلَبَ هذا على أكثرِ الناسِ إلّا مَنْ عَصَمَهُ الله تعالى، وانقطعَ الطَّمَعُ مِن إصلاحهم، فالأسلمُ لدينِ المُحتاطِ العزلةُ والانفرادُ عنهم.

* * *

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٧٦).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٧٦).

الفصل التاسع
في انقسام العلوم إلى خفيّة وجليّة

واعلم أنَّ العلومَ بعضُها جليٌّ ظاهرٌ لكلِّ الناس يبدو أوّلًا ويتضحُ بمجرَّد التعليم والتلقين، وبعضُها خفيٌّ يتضحُ بالمجاهدةِ والرياضةِ والفكرِ الصافي والسِّرِّ الخالي عن كلِّ شيءٍ مِن أشغالِ الدنيا سوى المطلوب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(م: قال الشيخُ عبد الغنيّ النابلسيُّ رحمه الله: وطائفةُ المحقِّقين مِن أهل الله تعالى جميعُ علومِهم التي يعتمدون عليها في دينهم إلهاميّةٌ وهبيّةٌ، وأما العلومُ الاكتسابيّةُ فهي آلةٌ عندهم لتحصيل مقامِ الإلهام، كما قال الإمام مالك رحمه الله: علمُ الباطنِ لا يَعْرِفُهُ إلا مَنْ عَرَفَ علمَ الظاهر، فمتى عَلِمَ عِلْمَ الظاهر وعَمِلَ به فَتَحَ الله عليه عِلْمَ الباطن، ولا يكونُ ذلك إلا مع فتحِ قلبِهِ وتنويرِهِ.

وقال التونسيُّ رحمه الله: اجتمعَ العارفُ بالله تعالى عليٌّ وفا والإمامُ البلقينيُّ رحمهما الله تعالى فتكلَّمَ عليٌّ معه بعلوم بَهَرَتْ عقلَهُ، فقال البلقينيُّ: مِنْ أينَ لك هذا يا عليُّ؟ قال: مِنْ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢][1]).

واعلم أنَّ انقسامَ هذه العلومِ إلى خفيّةٍ وجليّةٍ لا يُنكرُها ذو بصيرةٍ، وإنَّما يُنكِرُها القاصرون الذين تلقَّنوا في أوائل الصِّبا شيئاً وجَمَدُوا عليه، فلم يكن لهم تَرَقٍّ إلى شأوِ العلا ومقاماتِ العلماءِ والأولياء.

---

(١) ينظر: (الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية) (٣٦١).

وانقسامُ العلومِ إلى الخفيِّ منها والجليّ ظاهرٌ مِن أدلّة الشرع، قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَحَدّاً وَمطلعاً»(١).

(م: فالظاهرُ لِمَنِ اعتنى بظاهرِ اللَّفظِ كالنُّحاةِ وأهلِ اللُّغةِ، والباطنُ لِمَنِ اعتنى بمعنى اللَّفظِ وما دَلَّ عليه مِنَ الأمرِ والنَّهيِ والقَصَصِ والأخبارِ والتَّوحيد، وهو نظرُ المفسرين، والحدُّ لِمَنِ اعتنى باستنباطِ الأحكامِ منه، وهم الفقهاءُ، والمطلعُ لأهلِ الحقائق؛ لأنَّهم يطلعون مِن ظاهرِ الآية إلى باطنها، ويغوصون في لُجَجِ بحرِها، فيُكشَفُ لهم عن أسرارٍ وعلومٍ وغوامضَ تتجلَّى لهم عند استعمالِ الفكرةِ فيها).

وفي هذا المعنى قال عليٌّ رضي الله عنه وأشارَ إلى صدرِهِ: (إنَّ هٰهنا علوماً جَمَّةً، لو وجدتُ لها حَمَلةً)(٢).

وقال ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»(٣).

وقال ﷺ: «مَا حَدَّثَ أَحَدٌ قَوْماً بِحَدِيثٍ لَمْ تَبْلُغْهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ»(٤).

وقال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٥) بلفظ: (أُنزِلَ القرآنُ على سبعة أحرف، لكلِّ آيةٍ منها ظهرٌ وبطنٌ).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩. ٨٠).

(٣) رواه العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٥٣٤) بلفظ: (إنا معاشر ...الخ)، وجاء معناه في حديث البخاريّ (١٢٧) الموقوف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ).

(٤) رواه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، ورواه مسلمٌ في مقدمة صحيحه (١/ ١١) موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «إِنَّ مِنَ العِلْمِ كهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ العَالِمُونَ باللهِ تَعَالَى»[١].

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]: (لو ذَكَرْتُ تفسيرَهُ لَرَجَمْتُمُوني)، وفي لفظٍ آخرَ: (لَقُلْتُمْ: إنَّه كافرٌ)[٢].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (حَفِظْتُ مِنْ رسولِ الله ﷺ وِعَاءَينِ، أمَّا أحدُهُما فَقَدْ بَثَثْتُهُ، وأمَّا الآخَرُ لو بَثَثْتُهُ لَقُطِعَ هذا الحلقومُ)[٣].

وقال ﷺ: «مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلا صَلاةٍ، وَلكِنْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ»[٤].

ولا شكَّ في أنَّ ذلك السِّرَّ كان مُتعلِّقاً بقواعد الدِّينِ غيرَ خارجٍ منها، وما كان مِن قواعدِ الدِّينِ لم يكن خافياً بظواهرِهِ على غيره مِنَ الصَّحابة رضي الله عنهم.

وقال سهلٌ التُّسْتَرِيُّ رضي الله عنه: (للعالِمِ ثلاثةُ علومٍ: علمٌ ظاهرٌ يبذلُهُ لأهلِ الظاهرِ، وعلمٌ باطنٌ لا يَسَعُهُ إظهارُهُ إلّا لأهلِهِ، وعلمٌ هو بينَهُ وبينَ الله تعالى لا يُظْهِرُهُ لأحدٍ)[٥].

---

(١) رواه صاحب القوت (١/ ١٧٥) مُعلَّقاً، وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٣٥): (رواه أبو منصور الديلمي في المسند (٨٠٢) وأبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين التي له في التصوف، وذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ٣٢٦).

(٢) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن (٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٤/ ١٨٨) بنحوه، وبلفظه في قوت القلوب (١/ ٢٥٣).

(٣) رواه البخاري (١٢٠).

(٤) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١١٨)، وأبو داود في الزهد (٣٧)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٥/ ٤١٥).

(٥) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٩٠).

وقال الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: (الحمدُ لله الذي لم يجعل سبيلاً إلى معرفتِهِ إلا العجزَ عن معرفتِهِ)[1].

* * *

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٤٩٥).

الكتاب الثاني من ربع العبادات

في قواعد العقائد

(سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[١]

(ش: «ما تعلَّمت العبيد أفضلَ مِنَ التوحيد»، «الله واجب الوجود وما سواه مفقود».

وقلتُ غفرَ الله لي:

نَـزِّهِ السِّـرَّ عَـنِ الغَيْـرِ تَفُـزْ ... بِشُـهُودِ الوَاحِدِ الحَـقِّ الأَحَدْ
فَهُــوَ المَوْجُودُ حَقًّا لا سِـوَاهُ ... قَــدْ أُمِرْنَا قُــلْ هُــوَ اللهُ أَحَدْ)

ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة

الحمدُ لله المبدئِ المعيد، الفَعَّالِ لِما يريد، ذي العرشِ المجيد، والبطشِ الشديد، الهادي صفوةَ العبيد إلى المنهج الرشيد، والمَسْلَكِ السديد، المنعمِ عليهم بعد شهادةِ التوحيد بحراسةِ عقائدهم عن ظلماتِ التشكيكِ والترديد، السائقِ لهم إلى اتِّباع رسولِهِ المصطفى ﷺ، واقتفاءِ آثارِ صحبِهِ الأكرمين المكرَّمين بالتأييدِ والتسديد، المتجلِّي لهم في ذاته وأفعالِهِ بمحاسنِ أوصافِهِ التي لا يُدرِكُها إلّا مَنْ ألقى السَّمعَ وهو شهيد.

---

(١) رواه مسلم (٧٥١).

(م: وهذا فصلٌ في بيان ما يندرجُ تحتَ أعظمِ ركنٍ مِن الأركان العقائدية والمشاعر الإسلامية ـ ألا وهو النطق بالشهادتين ـ من الحقائق الإيمانية.

يقول الإمامُ الشعرانيُّ رحمه الله في بيان بعض أسرار هذه الشهادة:

اعلم يا أخي أنَّ هذه الشهادةَ هي مفتاحُ الإسلام، لا يدخلُ أحدٌ إليه إلّا مَنْ قالَها بلسانِه، مُصدِّقاً بها قلبه، فإن لم يكن قلبُهُ مُصدِّقاً بها فهو مع المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النار.

ثم لا يخفى أنَّ الله تعالى غنيٌّ عن شهادةِ عبادِهِ له بالألوهيّةِ كما أشار إليه قولُهُ تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فأخبرنا تعالى بأنَّه المُوحِّدُ نفسَهُ بنفسِه، وعبادُهُ شاهدون على شهادتِهِ لنفسه على سبيل الاعترافِ والإذعان.

وإنما قال الله تعالى: «وأولو العلم»، ولم يقل: «وأولو الإيمان»؛ لأنَّ شهادتَهُ لنفسه بالوحدانية ما هي عن أمرٍ وخَبَرٍ فتكونَ إيماناً، ولهذا كان الشاهدُ إذا لم يكن عالِماً بما شَهِدَ له لم تَصِحَّ شهادتُهُ[١]).

معنى الكلمة الأولى وهي: لا إله إلا الله

(م: اعلم أنَّ حقيقةَ التوحيدِ المشار إليها في هذه الكلمة تنطبقُ على خمسةِ معانٍ على سبيل الإجمال، وهي التوحيد في الذات، ثم الصفات، ثم الأسماء، ثم الأفعال، ثم الأحكام.

(١) ينظر: (الفتح المبين في جملة من أسرار الدين) (٢٢. ٢٣).

يقول الشيخُ عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ رحمه الله في بيان المرادِ مِنَ الوحدانية في هذه المجالات الخمس:

النوع الأول: الوحدانيّةُ في الذات، والمرادُ بها: انتفاءُ الكثرةِ عن ذاته تعالى، بمعنى عدمِ قبولِها الانقسام، وعدمِ وجودِ ذاتٍ أخرى مماثلةٍ لذاته.

النوع الثاني: الوحدانيّةُ في الصِّفات، والمرادُ بها: انتفاءُ النَّظيرِ له تعالى والشَّبيهِ والمثيلِ في كلِّ صفةٍ مِن صفاته، وأنَّ صفاتِهِ تعالى ليست مُتعدِّدةً، فليس له صفتانِ مِن جنسٍ واحدٍ كقدرتَينِ أو إرادتَينِ، بل له قدرةٌ واحدةٌ يوجد بها ويعدم كلَّ ممكنٍ.

النوع الثالث: الوحدانيّةُ في الأسماء، والمرادُ بذلك: امتناعُ المُشابِهِ والمُماثِلِ له تعالى في كلِّ اسمٍ تسمَّى به سبحانه مِن حيث هو مسمّى به.

النوع الرابع: الوحدانيّةُ في الأفعال، وذلك وجوبُ انفرادِهِ تعالى باختراعِ جميعِ الكائنات عموماً، وامتناعُ استنادِ التأثيرِ لغيره تعالى في شيءٍ مِن الممكنات أصلاً.

النوع الخامس: الوحدانيّةُ في الأحكام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، فالأحكامُ كلُّها راجعةٌ إلى قوله الحق، فهو الذي حَكَمَ بترتيب الأسبابِ وتوجيهِها إلى المُسبَّبات وبترتيب العادة، وهو الذي حَكَمَ بالفسق على الفاسقين وبالطاعة على المطيعين، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧][1].

وأما ما ينبغي أن يَعرِفَهُ كلُّ مُوحِّدٍ مِن تفاصيل هذه المعاني فذلك ما وضَّحه الإمامُ الغزاليُّ رحمه الله تعالى بقوله):

---

(١) ينظر: (الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية) (١/ ٤٩٧- ٤٩٨).

[التوحيد]

اعلم أنَّه سبحانه وتعالى في ذاتِهِ واحدٌ لا شريكَ له، فردٌ لا مثلَ له، صمدٌ لا ضِدَّ له، مُنفرِدٌ لا نِدَّ له.

وأنَّه قديمٌ لا أوَّلَ له، أزليٌّ لا بدايةَ له، أبديٌّ لا نهايةَ له، قيُّومٌ لا انقطاعَ له، دائمٌ لا انصرامَ له.

[التنزيه]

وأنَّه ليس بجسمٍ مُصوَّر، ولا جوهرٍ محدودٍ مُقدَّر، ولا بِعَرَضٍ ولا تَحِلُّهُ الأعراضُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء، ولا هو مثلُ شيء.

وأنَّه لا يحدُّه المقدارُ، ولا تحويه الأقطارُ، ولا تحيطُ به الجهاتُ.

وأنَّه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قالَهُ، وبالمعنى الذي أرادَهُ، استواءً مُنزَّهاً عن المماسّةِ والاستقرار، والتَّمكُّنِ والحلولِ والانتقالِ، لا يحملُهُ العرشُ، بل العرشُ وحَمَلَتُهُ محمولون بلطفِ قدرتِهِ، ومقهورون في قبضتِهِ، وهو فوقَ العرشِ والسماء، وفوقَ كلِّ شيء، فوقيَّةً لا تزيدُهُ قرباً إلى العرش والسماء، كما لا تزيدُهُ بُعداً عن الأرض والثرى، بل هو رفيعُ الدرجاتِ عن العرش والسماء، كما أنَّه رفيعُ الدرجاتِ عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريبٌ مِن كلِّ موجود، وهو أقربُ إلى العبيد مِن حبلِ الوريد، وهو على كُلِّ شيءٍ شهيد؛ إذ لا يماثلُ قربُهُ قُرْبَ الأجسام، كما لا تُماثِلُ ذاتُهُ ذاتَ الأجسام.

وأنَّه لا يَحِلُّ في شيء، ولا يَحِلُّ فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، وتَقَدَّسَ عن أن يحدَّهُ زمان، بل كان قبلَ أن خَلَقَ الزَّمان والمكان، وهو الآن

على ما عليه كان، وأنَّه مُقدَّسٌ عن التغيير والانتقال، مُنزَّهٌ عن الزوال.

[الحياة والقدرة]

وأنَّه تعالى حيٌّ قادرٌ، جَبَّارٌ قاهرٌ، لا يعتريه قصورٌ ولا عجزٌ، ولا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، ولا يُعارِضُهُ فناءٌ ولا موتٌ.

وأنَّه ذو المُلْكِ والملكوت، والعِزّةِ والجبروت، له السلطانُ والقهرُ، والخلقُ والأمرُ، والخلائقُ مقهورون في قبضته.

خَلَقَ الخلقَ وأعمالَهم، وقَدَّرَ أرزاقَهم وآجالَهم.

[العلم]

وأنَّه عالِمٌ لا يَعْزُبُ عن علمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، بل يعلمُ دَبيبَ النَّملةِ السَّوداء، على الصخرة الصَّماء، في الليلة الظلماء، يُدرِكُ حركةَ الذَّرِّ في جوِّ السماء، ويعلمُ السِّرَّ وأخفى، ويطلعُ على هواجسِ الضَّمائر، وحركاتِ الخواطر، وخفيَّاتِ السرائر، بعلمٍ قديمٍ أزليٍّ، لا بعلمٍ مُتجدِّدٍ حاصلٍ في ذاته بالحلول والانتقال.

[الإرادة]

وأنَّه تعالى مريدٌ للكائنات، مُدبِّرٌ للحادثات، فلا يجري في المُلْكِ والملكوتِ قليلٌ أو كثيرٌ، خيرٌ أو شَرٌّ، نفعٌ أو ضرٌّ، إيمانٌ أو كفرٌ، طاعةٌ أو عصيانٌ إلا بقضائه وقَدَرِهِ، وحكمتِهِ ومشيئتِهِ.

فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا رادَّ لِحُكْمِهِ، ولا مُعقِّبَ لقضائه، ولا

مهربَ لعبدٍ مِنْ معصيتِهِ إلا بتوفيقِهِ ورحمتِهِ، ولا قوّةَ له على طاعتِهِ إلا بمشيئتِه وإرادتِه.

ولو اجتمعَ الإنسُ والجِنُّ والملائكةُ والشياطينُ على أن يُحرِّكُوا في العالَمِ ذَرّةً أو يُسكِّنُوها دونَ إرادتِهِ ومشيئتِهِ لَعَجَزوا عنه.

وإرادتُهُ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ، لم يزل كذلك موصوفاً بها، مريداً في أزله لوجودِ الأشياءِ في أوقاتها التي قدَّرها، فَوُجِدَتْ في أوقاتها كما أرادَهُ في أزله مِنْ غيرِ تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ، دَبَّرَ الأمورَ لا بفكرٍ ولا تَرَبُّصِ زمانٍ، فلذلك لم يَشْغَلْهُ شأنٌ عن شان.

[السمع والبصر]

وأنَّه تعالى سميعٌ بصيرٌ، لا يَعْزُبُ عن سمعِهِ مسموعٌ وإنْ خَفِيَ، ولا يغيبُ عن رؤيتِهِ مرئيٌّ وإنْ دَقَّ.

يرى مِن غير حدقةٍ وأجفان، ويسمعُ مِن غير أصمخةٍ وآذان، كما يعلمُ بغير قلبٍ، ويَبْطِشُ بغير جارحةٍ، ويخلقُ بغير آلةٍ.

[الكلام]

وأنَّه تعالى مُتكلِّمٌ، آمرٌ وناهٍ، واعدٌ مُتوعِّدٌ، بكلامٍ أزليٍّ قديمٍ قائمٍ بذاتِه، لا يُشبِهُ كلامَ الخلقِ؛ فليس بصوتٍ يحدثُ مِن انسلالِ هواءٍ واصطكاكِ أجرام، ولا بحرفٍ ينقطعُ بإطباقِ شفةٍ أو تحريكِ لسانٍ.

وأنَّ القرآنَ والتوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ كتبُهُ المنزَّلةُ على رسله عليهم السلام.

وأنَّ القرآنَ مقروءٌ بالألسنةِ، مكتوبٌ في المصاحف، محفوظٌ في القلوب،

وأنَّه مع ذلك قديمٌ قائمٌ بذاتِ الله تعالى، لا يقبلُ الانفصالَ والافتراق، بالانتقال إلى القلوبِ والأوراق.

وأنَّ موسى سَمِعَ كلامَ الله بغير صوتٍ ولا حرفٍ، كما يرى الأبرارُ ربَّهم مِن غير جوهرٍ ولا عَرَضٍ.

[الأفعال]

وأنَّ كلَّ موجودٍ سواه فهو حادثٌ بفعله، وأنَّه حكيمٌ في أفعاله، عادلٌ في أقضيتِهِ، ولا يُقاسُ عدلُهُ بعدلِ العباد؛ إذ العبدُ يُتصوَّرُ منه الظُّلمُ بتصرُّفِهِ في مِلكِ غيرِهِ، ولا يُتَصَوَّرُ الظُّلمُ مِن الله تعالى؛ لكونه متصرِّفاً في ملكه.

وأنَّه تعالى أَحدَثَ الخلقَ إظهاراً لقدرتِه، وتحقيقاً لِما سَبَقَ مِن إرادتِه، لا لافتقارِهِ إليه وحاجتِه.

وأنَّه بَعَثَ الرُّسُلَ، وأظهرَ صِدْقَهُم بالمعجزات الظاهرة، فبلَّغوا أمرَهُ ونهيَهُ، ووعدَهُ ووعيدَهُ، فَوَجَبَ على الخلقِ تصديقُهم فيما جاؤوا به.

معنى الكلمة الثانية وهي: محمد رسول الله ﷺ

وأنَّه تعالى بَعَثَ النَّبيَّ الأميَّ القرشيَّ محمّداً ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم، والجنِّ والإنسِ، فَنَسَخَ بشريعتِه الشرائعَ إلا ما قرَّره منها، وفَضَّلَهُ على سائر الأنبياءِ وجَعَلَهُ سيِّدَ البشر، ومَنَعَ كمالَ الإيمانِ بشهادةِ التوحيد وهو قولُ: «لا إله إلا الله» ما لم تقترن بها شهادةُ الرسول، وهو قولُكَ: «محمّدٌ رسولُ الله».

وألزمَ الخلقَ تصديقَهُ في جميع ما أخبر عنه مِن الدنيا والآخرة، وهو لا

يقبلُ إيمانَ عبدٍ حتى يُؤمِنَ بما أخبر عنه بعدَ الموت، وأوّلُهُ سؤالُ منكرٍ ونكيرٍ، وهما شخصانِ مهيبانِ هائلان، يُقعِدان العبدَ في قبره، فيسألانِهِ ويقولان له: مَنْ ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَنْ نبيُّك؟ وهما فتّانا القبر، وسؤالُهما أوّلُ فتنةٍ بعد الموت.

وأن يُؤمِنَ بعذاب القبر، وأنَّه حَقٌّ وحكمةٌ وعدلٌ، على الجسم والروح.

وأن يُؤمِنَ بالميزان الذي تُوزَنُ فيه الأعمالُ بقدرة الله تعالى، فتُطرَحُ صحائفُ الحسناتِ في صورةٍ حسنةٍ في كفّة النور، فيثقلُ بها الميزانُ على درجاتِها عند الله، وتُطرَحُ صحائفُ السيئاتِ في صورةٍ قبيحةٍ في كفة الظُّلمة، فيخفُّ بها الميزانُ بعدلِ الله تعالى.

وأن يُؤمِنَ بالصراط، وهو جسرٌ ممدودٌ على متنِ جهنَّم، أحدُّ مِنَ السيفِ وأدقُّ مِنَ الشعرة، تَزِلُّ عليه أقدامُ الكافرين والمنافقين فتهوي بهم في النار، وتثبتُ عليه أقدامُ المؤمنين فيُساقون إلى دار القرار.

وأن يُؤمِنَ بالحوض المورود، وهو حوضُ محمّدٍ ﷺ، يشربُ منه المؤمنون قبل دخولِ الجنة وبعدَ جوازِ الصِّراط، مَنْ شَرِبَ منه شَربةً لم يظمأ بعدَها أبداً، عرضُهُ مسيرةُ شهرٍ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِن اللبن، وأحلى مِن العسل، حولَهُ أباريقُ عددَ نجومِ السماء، فيه ميزابان يَصُبّانِ مِنَ الكوثر.

وأن يُؤمِنَ بالحسابِ وتفاوتِ الخلقِ فيه إلى مُناقَشٍ في الحسابِ وإلى مُسامَحٍ فيه، وإلى مَنْ يدخلُ الجنّةِ بغيرِ حسابٍ وهم المقرَّبون، فيسألُ الله تعالى مَنْ شاءَ مِنَ الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومَنْ شاءَ مِنَ الكفّار عن تكذيبِ المرسلين، ويسألُ المبتدعةَ عن السُّنَّة، ويسألُ المسلمين عن الأعمال.

وأن يُؤمِنَ بإخراج الموحِّدين مِن النار بعدَ الانتقام، حتَّى لا يبقى في جهنَّمَ مُوحِّدٌ بفضلِ الله تعالى.

وأن يُؤمِنَ بشفاعةِ الأنبياءِ، ثم العلماءِ، ثم الشهداءِ، ثم سائرِ المؤمنين على حَسَبِ جاهِهِ ومنزلتِهِ، ومَنْ بَقِيَ مِنَ المؤمنين ولم يكن له شفيعٌ أُخرِجَ بفضل الله تعالى، فلا يُخلَّدُ في النار مؤمنٌ، بل يخرجُ منها مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ مِنَ الإيمان.

(م: وأن يُؤمِنَ بمعجزاتِ الأنبياءِ جميعاً الحِسّيّةِ والمعنويّة، وكراماتِ الأولياءِ مِن بعدهم؛ فإن ذلك مما تواترت عليه الأدلة، وأجمعت عليه علماءُ هذه الملة المحمدية، وكلُّ ما صَحَّ أن يكونَ معجزةً لنبيٍّ فيصحُّ أن يكونَ كرامةً لوليٍّ؛ فإنَّ الفاعلَ فيهما واحدٌ وإنْ تباينت مظاهرُ التجلِّي).

وأن يعتقدَ فضلَ الصَّحابة رضي الله عنهم وترتيبَهم، وأنَّ أفضلَ الناسِ بعدَ الرسل والأنبياءِ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ رضي الله عنهم، وأن يُحسِنَ الظَّنَّ بجميعِ الصحابة، ويُثنيَ عليهم كما أثنى الله تعالى ورسولُهُ ﷺ عليهم أجمعين.

فكلُّ ذلك ممّا وَرَدَتْ به الأخبارُ وشَهِدَتْ به الآثار، فَمَنِ اعتقدَ جميعَ ذلك مُوقِناً به كان مِنْ أهل الحقِّ وعصابةِ السُّنّة، وفارقَ رهطَ الضَّلال وحزبَ البدعة.

فنسألُ الله كمالَ اليقين، وحُسْنَ الثَّباتِ في الدِّين، لنا ولكافّة المسلمين برحمتِه، إنَّه أرحمُ الراحمين.

(م: فقد انطوت جميعُ العقائد في كلمتي الشهادة، كما قال الشيخ محمّدٌ الهاشميُّ رضي الله عنه:

وكلُّ ذا مُندرِجٌ في هَيْلَلَهْ   خفيفةٍ ثقيلةٍ مُفضَّلهْ)

(ش: فكلمةُ التوحيدِ خفيفةٌ في مبناها، ثقيلةٌ في معناها ومقتضاها).

الكتاب الثالث من ربع العبادات
في أسرار الطهارة

(ش: مَنْ تَطَهَّرَ مِنَ العُيُوب حاز أسرارَ الغُيُوب)

(ش: طَهِّرْ ثيابَكَ مِنَ الدَّنَس تَحظَ بمددِ اللهِ في كلِّ نفس)

(م: اعلم أنَّ الطهارةَ شُرِعَتْ كسائر العبادات لمصالح العباد، ثم هذه المصالحُ تنقسمُ إلى دنيويّةٍ وإلى ما يظهرُ في المعاد، فأتت العباداتُ على أقسامِها وأحكامِها على وجهين ليتمَّ بذلك الإسعاد، فبظاهرِ الأحكام أرشدَ الإسلامُ إلى سبلِ السلامِ وتجنُّبِ الفساد، وبباطنِ أسرارِها بَدَتْ أنوارُها لكلِّ مريدٍ صادقٍ ومُراد، فسبحانه مِنْ مُشرِّعٍ حكيمٍ رؤوفٍ رحيمٍ وهاد.

قال القطب الرباني الشيخ حسن رضوان رحمه الله شارحاً لمراتب الطهارة، ومُبيِّناً سِرَّ ما انطوى عليه إخبارُهُ ﷺ أنَّ «الطَّهارةَ نصفُ الإيمان»:

فالطُّهْرُ نِصْفُ الأَمْرِ وَهْوَ يَشْمَلُ ... ما كانَ باطِناً وهذا أَكْمَلُ

وَاسْتَبْعَدَ الأكابِرُ انْصِرافَهُ ... إلى خُصُوصِ ظاهِرِ النَّظافَهْ

كالطُّهْرِ ظاهِراً مِنَ الأَحْداثِ ... بِالماءِ أَوْ مِنْ مانِعِ الأَخْباثِ

لأنَّ هذا الطُّهْرَ أدنى مَرتَبهْ ... مِنْ سائرِ المراتِبِ المُرَتَّبهْ

والطُّهْرُ بِالوضوءِ مِنْ أَفْرادِهِ ... لا أَنَّه نِصْفٌ على انْفِرادِهِ

والرُّتبةُ التي تَلِيها الطُّهْرُ مِنْ ... جِرائمِ الأعضا التي بها فُتِنْ

لِسانُهُ وفَرْجُـهُ ثُـمَّ البَصَـرْ وسَـمْعُهُ وبَطْنُـهُ أَصْـلُ الضَّـرَرْ
وشَـمُّهُ ولَمْسُـهُ فَطُهْرُهـا حَتْـمٌ لأَنَّـه عَظيـمٌ أَمْرُهـا
وطُهْـرُ قَلْـبٍ ثالِـثُ المَراتِـبْ مِـنْ كُلِّ وَصْـفٍ مانِـعِ المَواهِبْ
كَحِقْــدِهِ وسَــيِّئِ الأخــلاقِ وكِبْــرِهِ والعُجْــبِ والنِّفــاقِ
وغيرِهـا مِمّـا هُـوَ المذمُـومُ فــي شَــرعِنا وقبحُــهُ مَعْلُــومُ
ومِنْـهُ طُهْـرُ العَقْـلِ مِـنْ أَفْكارِهِ فـي غيـرِ مـا يَعْنِيـهِ واعتبـارِهِ
وَطُهْـرُ سِـرِّهِ مِـنَ الأغيـارِ الرُّتبـةُ العُلْيـا لَـدَى الأَخْيـارِ
لأَنَّهـا مُخْتَصَـةٌ بِالأَنْبيـا والصَّادِقِيـنَ مِـنْ كِبَـارِ الأَتْقِيـا
وَالطُّهْـرُ نِصْفُ مَـا لِـكُلِّ مَرْتَبَهْ مِـنْ حَالَتَيْها وَهْـوَ شَـرْطُ المَنْقَبَهْ
فَالطُّهْرُ فِي الأَعْضـا مِنَ الجَرائِمِ شَـطْرٌ وشَـرْطٌ حِلْيَـةُ الأَكَارِمِ
والقَلْبُ أَيْضـاً لا يَنـالُ المَعْرِفهْ إِلَّا بِطُهْـرٍ مِـنْ صِفَـاتٍ مُتْلِفَـهْ
والسِّـرُّ لا يَفُـوزُ بِالمَقْصُـودِ إِلّا بِطُهْـرٍ مِـنْ سِـوَى المَعْبُودِ[١]

فهذا مُجمَلُ أسرارِ الطَّهارةِ، وأمّا بيانُهُ على وجهِ التفصيلِ فيقولُ الإمامُ الغزاليُّ رحمه الله):

قال النبيُّ ﷺ: «الطُّهورُ نِصْفُ الإيمانِ»[٢].

وقال ﷺ: «مِفْتاحُ الصَّلاةِ الطُّهورُ»[٣].

فَتَفَطَّنَ ذَوو البصائرِ بهذه الظواهرِ أنَّ أهمَّ الأمورِ تطهيرُ السرائرِ؛ إذ يَبْعُدُ

---

(١) ينظر: (روض القلوب المستطاب) (٣٥٠-٣٥١).

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٩).

(٣) رواه الترمذي (٣).

أن يكونَ المرادُ بقولِهِ ﷺ: «الطُّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ» عمارةَ الظاهرِ بالتَّنظيفِ بإفاضةِ الماءِ وإلقائِهِ، وتخريبَ الباطنِ وإبقاءَهُ مشحوناً بالأخباثِ والأقذارِ، هيهاتَ هيهاتَ!

[مطلب في مراتب الطهارة]

واعلم أنَّ للطَّهارة أربعَ مراتبَ:

الأولى: تطهيرُ الظاهرِ عن الأحداثِ والأخباثِ.

والثانية: تطهيرُ الجوارحِ عن الجرائمِ والآثامِ.

والثالثة: تطهيرُ القلبِ عن الأخلاقِ المذمومةِ والرذائلِ الممقوتةِ.

والرابعة: تطهيرُ السِّرِّ عمّا سوى الله تعالى، وهي طهارةُ الأنبياءِ والصِّدِّيقين.

ولن ينالَ العبدُ الطبقةَ العاليةَ إلّا أن يُجاوِزَ الطبقةَ السَّافلةَ، فلا يصلُ إلى طهارةِ السِّرِّ عن الصِّفاتِ المذمومةِ وعمارتِهِ بالمحمودةِ ما لم يفرغ مِنْ طهارةِ القلبِ عن الخُلُقِ المذمومِ وعمارتِهِ بالخُلُقِ المحمودِ، ولن يَصِلَ إلى ذلك مَنْ لم يفرغ عن طهارةِ الجوارحِ عن المناهي وعمارتِها بالطاعات، وكلَّما عَزَّ المَطْلَبُ وشَرُفَ صَعُبَ مَسْلَكُهُ وطالَ طريقُهُ وكَثُرَتْ عَقَباتُهُ، فلا تظُنَّنَّ أنَّ هذا الأمرَ يُدرَكُ بالمُنى وينالُ بالهُوَيْنا.

والطهارةُ في كلِّ رتبةٍ نصفُ العملِ الذي فيها، قال النبيُّ ﷺ: «الطُّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ»، فإنَّ الغايةَ القُصوى في عملِ السِّرِّ ـ الذي هو باطنُ القلب ـ أن ينكشفَ له جلالُ الله تعالى وعظمتُهُ وكبرياؤُهُ بحيث يَغْمُرُ لُبَّهُ، فلا يرى إلّا هو، ولا يسمعُ إلّا هو.

ولن تَحِلَّ معرفةُ الله تعالى بالحقيقةِ في السّرّ ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، (ز: إشارة إلى التخلّي عن السّوى)؛ لأنّهما لا يجتمعان في قلب.

(م: قال سيّدي ابنُ عطاء الله رحمه الله: «كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرْآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاَتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟»[1] فلا مطمعَ في نيل المعالي دونَ تحقيقِ الأُسُسِ والمباني).

وأما عملُ القلبِ فالغايةُ القصوى في طهارته عمارتُهُ بالعقائد المشروعةِ والأخلاقِ المحمودةِ (ز: التي أثنى الله عليها في كتابه مِنَ الحمدِ والرِّضا والصَّبرِ والشُّكرِ والخشيةِ واليقينِ وغيرِ ذلك).

ولن يتصفَ بها ما لم يتطَّهر عن نقائضِها مِنَ العقائدِ الفاسدةِ والرذائلِ المذمومةِ، فتطهيرُ القلبِ أحدُ الشَّطرين في تمام الإيمان، وهو الشطرُ الأوَّلُ الذي هو شرطٌ في الثاني، وكذلك تطهيرُ الجوارحِ عن المناهي أحدُ الشَّطرين وعمارتُها بالطاعات الشَّطرُ الثاني.

(م: فإنَّ الإيمانَ قسمان: قسمٌ يُؤهِّلُ العبدَ للقرب مِن حضرة الله، وقسمٌ يُؤَهِّلُهُ للدُّخول).

فسيرةُ الصالحين استغراقُ هِمَمِهم في تطهير القلوبِ وتساهُلِهم في أمر الظاهر، وقد انتهتْ النَّوبةُ الآنَ إلى طائفةٍ يُسمُّونَ الرُّعونةَ نظافةً، والبَذاذةَ التي

---

(١) الحكمة (١٣) من الحكم العطائية.

هي مِن الإيمانِ قذارةً، فأكثرُ أوقاتِهم في تزيينِهم الظَّواهرِ، كفعلِ الماشطةِ بعروسِها، والباطنُ خرابٌ مشحونٌ بخبائثِ الكبرِ والعجبِ والجهلِ والرِّياءِ والنِّفاقِ، ولا يستنكرونَ ذلك ولا يتعجَّبونَ منه.

* *

فصلٌ في الآدابِ الباطنةِ في الوضوء

(م: وللصُّوفيّةِ آدابٌ في الوضوء بعدَ القيامِ بمعرفةِ الأحكامِ ذَكَرَ بعضَها السَّهْرَوَرديُّ في العوارف:

فمنها: حضورُ القلبِ في غسلِ الأعضاء؛ لأنَّه حضورَ القلبِ في الوضوء يُورِثُ الحضورَ والخشوعَ في الصلاة، وإذا دَخَلَ السهو فيه دَخَلَتِ الوسوسةُ في الصلاة.

قال النبيُّ ﷺ: «إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ فَتَمَضْمَضَ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ فِيهِ، فَإِذَا اسْتَنْثَرَ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ أَنْفِهِ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ وَجْهِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ يَدَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ، فَإِذَا مَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أُذُنَيْهِ، وَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الخَطَايا مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ ثُمَّ كَانَ مَشْيُهُ إِلَى المَسْجِدِ وَصَلاتُهُ نَافِلَةً لَهُ»[1].

قال الشعرانيُّ رحمه الله: فيجبُ على المريد أن ينويَ مع غسلِ يديه تطهيرَ يديه عن تناولِ ما أَبْعَدَهُ عن الله تعالى، وينفضَ يديه نفضَهما مِنَ الأشياءِ المُشغِلة عن ربِّه عزَّ وجلَّ.

وإذا تَمَضْمَضَ ينوي تطهيرَ الفمِ وتنظيفَهُ مِن تلويثِ اللِّسانِ بالأقوال

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٣١)، وهو كذلك عند النسائي (١/ ٧٤) وابن ماجه (٢٨٢).

الخبيثة؛ ليصلحَ أن يُجرِيَ على لسانِهِ وفمِهِ ذكرَ الله تعالى الطاهر الرفيع الجليل.

وإذا غَسَلَ وجهَهُ فلينوِ بذلك تطهيرَهُ مِنَ الأنفةِ وتركِ الانقيادِ إلى طاعة الحقِّ وإلى حضراتِ قُربِهِ.

وإذا مَرَّ على العينِ فلينوِ تطهيرَها مِنَ النظرِ إلى المكروهات، وإلى غير الله تعالى.

وإذا غَسَلَ رأسَهُ فلينوِ زوالَ التَّرَؤُّسِ والرِّياسةِ على إخوانِهِ، أو على أحدٍ مِنَ المسلمين؛ لأنَّ حُبَّ الرِّياسةِ مِنَ الكبرِ، والكبرُ لا يليقُ إلّا بالله عز وجل.

وإذا غَسَلَ قدميه فلينوِ تطهيرَهُما مِن المسارعةِ إلى المخالفاتِ واتِّباعِ الهوى، وحَلَّ قيودِ العجزِ عن المسارعةِ في ميادينِ الطاعاتِ المُبلِّغةِ إلى الفوز.

وهكذا كلُّ عضوٍ في الإنسانِ فيه معانٍ كثيرةٌ يجبُ تطهيرُها لِيَصْلُحَ الجسدُ للوقوف بين يدي الطاهرِ القُدُّوسِ جلَّ جلالُهُ[1].

ومِن أهمِّ آدابهم: استدامةُ الوضوءِ؛ فالوضوءُ سلاحُ المؤمن، والجوارحُ إذا كانت في حمايةِ الوضوءِ الذي هو أثرٌ شرعيٌّ يَقِلُّ طروقُ الشيطانِ عليها، ومَنْ داوَمَ على الطَّهارةِ فقد عَرَّضَ نفسَهُ لنفحاتِ الرحمن، ومَنْ أَهْمَلَها فيُوشِكُ أن تُخطِئَهُ؛ لعدمِ الاستعدادِ لها.

ومنها: صلاةُ ركعتَينِ بعدَ الوضوء لِمَا ثَبَتَ في السُّنّةِ الشريفةِ مِنْ علوِّ رتبةِ مَنْ داوَمَ على ذلك).

وينبغي للمتوضِّئ إذا فَرَغَ مِن وضوئه وأقبلَ على الصلاةِ أن يخطرَ ببالِهِ

(١) ينظر: (الفتح المبين في جملة من أسرار الدين) (٣٣. ٣٥).

أنَّه إنما طَهَّرَ ظاهِرَهُ وهو موضعُ نظرِ الخَلْق، فينبغي أن يستحييَ مِنْ مناجاةِ الله تعالى مِن غير تطهيرِ قلبِهِ وهو موضعُ نظرِ الرَّبِّ، سيّما وقد قال ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامِكُمْ ولا إلى صُوَرِكُمْ، ولكنْ ينظر إلى قلوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[1].

(ش: خاتمة: هذا وقد ذكر الإمام الشعراني ـ قدس سره ـ حكمة النوم على طهارة فقال: إنَّ فيها زيادةَ الوقوفِ في حضرة الله تعالى في عالم الغيب؛ فإنَّ الروحَ إذا فارقت الجسدَ بالنوم وهي على طهارةٍ أُذِنَ لها في السُّجودِ بين يدي الله حتى يستيقظ، وإذا فارقت الجسد محدِثةً وَقَفَتْ بعيدةً عن الحضرة، ففاتها العبادةُ الروحيةُ المجردة عن الجسد كالملائكة، فافهم فهذا مِنْ سرِّ النومِ على طهارةٍ[2].

فإذا تَطَهَّرَ الظَّاهرُ بالطَّهارةِ الحِسِّيّةِ، والباطنُ بالطَّهارةِ المعنويَّةِ استحقَّ الدُّخولَ إلى الحضرةِ القُدسيَّة، فأوَّلُ ما يُتحَفُ به قربُهُ إلى البابِ، ثم سماعُهُ للخطابِ، ثم التمتُّعُ بدخوله حضرة الوهاب).

---

(١) رواه مسلم (٤٦٥١).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢٠٢).

الكتاب الرابع من ربع العبادات
في أسرار الصلاة

(الصَّلاةُ مَحَلُّ المُناجاةِ ومَعْدِنُ المُصافاةِ تتّسعُ فيها ميادينُ الأسرار، وَتُشْرِقُ فيها شَوارِقُ الأنْوارِ)[١].

(الصَّلاةُ طُهْرَةٌ لِلقُلُوب مِنْ أَدْناسِ الذُّنُوب، واستفتاحٌ لِبَابِ الغُيُوب)[٢].

(لِيَكُنْ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَا وُجُودَ الصَّلاَةِ؛ فَما كُلُّ مُصَلٍّ مُقيمٌ)[٣].

(ش: اعلم أنَّ كلَّ صلاةٍ لم يصحبها الخشوعُ ولا الحضورُ فهي باطلةٌ عند العارفين، بل قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: كلُّ صلاةٍ لا يحضرُ فيها القلبُ فهي إلى العقوبةِ أسرعُ، ولذا قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه المصلُّون في موضعِ المدحِ فإنَّما جاء لِمَنْ أقامَ الصلاةَ إمَّا بلفظِ الإقامةِ أو بمعنًى يرجع إليها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الحج: ٣٥]، ولَمّا ذَكَرَ المصلِّين بالغفلةِ قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥]، ولم يقل: «فويل للمقيمين الصلاة».

---

(١) الحكمة (١٢٠) من الحكم العطائية.

(٢) الحكمة (١١٩) من الحكم العطائية.

(٣) الحكمة (١١٨) من الحكم العطائية.

قال الإمام الشعراني ـ قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نستعدَّ للصلاة قبلَ فعلِها بما يُعينُنا على الخشوعِ فيها، وذلك بالجوعِ وتركِ اللغوِ وكثرةِ الذكرِ وتلاوةِ القرآنِ والمراقبة لله تعالى؛ فإنَّ كفَّ الجوارحِ عن المفضولِ إنَّما يسهلُ على العبدِ بذلك، فَمَنْ شَبِعَ ولغا وغفَلَ عن الله تعالى شَرَدَتْ جوارحُهُ وعَسُرَ على العبد كفُّها.

فاعملْ ـ يا أخي ـ على تحصيلِ الحضورِ مع الله تعالى في العباداتِ كلِّها فإنَّهُ روحُها؛ إذ كلُّ عبادةٍ لا حضورَ فيها فهي إلى المؤاخذةِ أقربُ، ولا تَطْلُبْ حصولَ خشوعٍ مِنْ غيرِ مُقدِّماتِ السلوكِ؛ فإنَّ ذلك لا يكونُ لك أبداً)[١].

الحمدُ لله الذي غَمَرَ العبادَ بلطائفِهِ، وعَمَرَ قلوبَهم بأنوارِ الدِّينِ ووظائفِهِ، الذي التُّزولُ عن عرشِ الجلالِ إلى السَّماءِ الدنيا مِن درجاتِ الرحمةِ إحدى عواطفِهِ، فارقَ الملوكَ مع التَّفرُّدِ بالجلال والكبرياءِ بترغيبِ الخلقِ في السُّؤالِ والدُّعاءِ، فقال: «هَلْ مِنْ داعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وهَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ»[٢]، وبايَنَ السلاطِينَ بفتحِ البابِ ورفعِ الحجاب، فَرَخَّصَ للعبادِ في المناجاةِ بالصلواتِ كيفما تقلَّبَتْ بهم الحالاتُ في الجماعاتِ والخلواتِ، ولم يَقْتَصِرْ على الرُّخصةِ، بل تَلَطَّفَ بالترغيب والدَّعوة، وغيرُهُ مِنْ ضعفاءِ الملوكِ لا يسمحُ بالخلوةِ إلا بعدَ تقديمِ الهديَّةِ والرِّشوة، فسبحانه ما أعظمَ شأنَه وأقوى سلطانَه، وأتمَّ لُطفَهُ وأعمَّ إحسانَه.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ١٩٦).

(٢) رواه البخاري (١١٤٥).

بيانُ فضائل الصلاة والجماعة وغيرها

اعلم أنَّ الصلاةَ عمادُ الدِّين، وعصامُ اليقين، ورأسُ القربات، وغرّةُ الطاعات، سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال: «الصَّلاةُ لِمَواقِيتِها»[١].

وقال ﷺ: «مِفْتَاحُ الجَنَّةِ الصَّلاةُ»[٢].

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقولُ إذا حضرتِ الصَّلاة: (قُوموا إلى نارِكُمْ التي أوقدتموها فَأَطْفِئوها)[٣].

وقال ابنُ مسعودٍ وسلمانُ رضي الله عنهما: (الصلاةُ مِكيالٌ، فَمَنْ أوفى استوفى، ومَنْ طفَّفَ فقد علمتُم ما قال الله في المطفِّفين)[٤].

(م: قال الشيخُ أحمدُ العلويُّ رضي الله عنه: الصلاةُ هي أشرفُ القربات ومنتهى الدرجات، فهي منقولةٌ مِنَ الصِّلة، والصِّلةُ ما يربطُ بين الشيء والشيء، ولا شكَّ أنَّ الصلاةَ هي الصِّلةُ بين العبدِ وربِّه، وعنها يُعبِّرون بالوصول؛ فالصلاةُ هي قرةُ أعينِ النَّبيِّين ومنتهى غايةِ العارفين، ولهذا قال ﷺ: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ»[٥]؛ لأنَّها محلُّ القربةِ ومنتهى الرَّغبةِ، ظاهرُها صلاةٌ وباطنُها مواصلةٌ، ظاهرُها عبادةٌ وباطنُها مشاهدةٌ)[٦].

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥).

(٢) رواه الترمذي (٤).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٩٤٤٨) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠١)، ورواه ابن المبارك في الزهد (١١٩٢) عن سلمان رضي الله عنه.

(٥) رواه النسائي (٣٩٣٩).

(٦) ينظر: (المنح القدوسية) (٩٢).

وقال ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كمثَلِ نَهْرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا تَرَوْنَ ذلكَ يُبْقِي مِنْ درنه؟ قالوا: لا شيء، قال ﷺ: فَإِنَّ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ تُذْهِبُ الذُّنُوبَ كَمَا يُذْهِبُ المَاءُ الدَّرَنَ»[1].

وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى أَرْبَعِينَ يَوْماً فِي جَمَاعَةٍ لا تَفُوتُهُ فِيهَا تَكْبِيرَةُ الإِحْرَامِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بَرَاءَتَيْنِ: بَرَاءَةً مِنَ النِّفَاقِ وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ»[2].

وروي أنَّ السلفَ كانوا يُعَزُّونَ بعضَهم بعضاً إذا فاتت أحدَهم التَّكبيرةُ الأولى، ويُعَزُّون سبعاً إذا فاتتهُمُ الجماعة. (م: وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا لم يُواظِبِ الفقيرُ على الصَّلاةِ في الجماعةِ فلا تعبأنَّ به).

(ش: الصَّلواتُ الخمسُ حضرةُ الله الخاصّة، فَمَنْ تَجاسَرَ على الدُّخولِ إليها وَحْدَهُ مِنْ غيرِ عذرٍ شرعيٍّ ما ذاقَ شيئًا مِنْ أسرارِ الصَّلواتِ، وما صَحَّتْ له قَدَمٌ في طريقِ أهلِ الله.

قال الإمام الشعراني ـ قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن لا نتهاونَ بصلاةِ الجماعةِ ونصلِّيَ فرادى إلا لعذرٍ شرعيٍّ؛ امتثالاً لأمرِ الله عزّ وجلّ بالأصالةِ، لا طلباً للثوابِ الوارد في ذلك، فإنَّ الثوابَ مِنْ لازِمِ مَنْ يخدمُ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه تعالى لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً، وهذا الأصلُ يسري معكَ في سائر العبادات، فيقصدُ بفعلِها امتثالَ أمرِ الله عزَّ وجلَّ بذلك لا غير، واعلم أنّ مَنْ قصرَ نظَرَهُ في عبادته على الثوابِ فهو دنيءُ الهِمّةِ خارجٌ عن أدبِ العبوديّة.

---

(١) رواه مسلم (٦٦٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٤١).

وكان سيّدي محمد بن عنان إذا مَرِضَ يخرجُ للجماعةِ زحفاً ولا يتركُ صلاةَ الجماعة، وحضرتُ أنا وفاتَهُ فأحرمَ بالصلاةِ خلفَ الإمامِ وهو جالسٌ في النزعِ، وقد مات نصفُهُ الأسفل، فصلَّى بالإيماءِ مع الإمام، فلمّا سَلَّمَ أضجعناه فصارَ يُهَمْهِمُ بشفتيهِ والسُّبحةُ في يده.

وكان أخي أفضلُ الدين رحمه الله يقول: لا أستطيعُ أن أَقِفَ بين يدي الله في الصلاةِ وحدي أبداً، وقد وقفتُ بين يديه وحدي مرَّةً فكدتُ أن أموتَ مِنَ الهيبةِ، كما تحصلُ الهيبةُ لِمَنْ أدخلوه على السلطانِ وحدَهُ في مجلسِ حكمِهِ والجنودُ مصطفةٌ بين يديه، وقد عمَّتْهُم كلهم الهيبةُ وخوفُ السَّطوة، بخلاف مَنْ وَقَفَ بين يديه مِنْ جملة الناسِ الواقفين، فإنَّه يستأنسُ بالناسِ، فلو أنَّ الحقَّ تعالى شَرَعَ لنا الوقوفَ بين يديه على الانفرادِ لَذَابَ عظمُ المصلِّين مع الحضورِ ولحمُهم، فكأنَّ مشروعيَّةَ الجماعةِ إنَّما هو رحمةٌ بنا.

واعلم ـ يا أخي ـ أنَّ بعضَ الناسِ قد يُواظِبُ على الجماعةِ رياءً وسمعةً، لا امتثالاً لأمرِ الله عز وجل، فينبغي التفطُّنُ لذلك، وقد حُكِيَ أنَّ شخصاً مِنَ السَّلفِ الصالحِ واظَبَ على صلاةِ الجماعةِ في الصَّفِّ الأولِ سبعاً وعشرين سنةً فتخلَّفَ يوماً عن الصَّفِّ الأولِ، فَوَجَدَ في نفسِهِ استيحاشاً مِنْ ذلك، فأعاد الصلاةَ مدةَ السَّبعِ وعشرين سنةً.

وقد كثُرَتْ خيانةُ هذا العهدِ مِنْ جماعةٍ مِنْ طلبةِ العلمِ ويحتجُّون بالمطالعة، حتى إنِّي رأيتُ شخصاً في جامع الأزهرِ يطالعُ في علمِ المنطقِ وصلاةُ الجماعةِ في العصر قائمةٌ، فقلتُ له في ذلك، فقال: الوقتُ مُتَّسِعٌ، فقلتُ له: أَمَا تعلمُ قولَ

رسولِ الله ﷺ لَمَّا سُئِل أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال: «الصلاةُ لأوَّلِ وقتِها»[1]، ثم قلتُ له: وبتقديرِ أنَّ الوقتَ مُتَّسِعٌ، فهل تقدرُ تجمعُ لكَ جماعةً يُصلُّون معكَ قدرَ هذه الجماعة؟ فانقطعت حُجَّتُهُ وبقي على مطالعته، فمثل هؤلاء لا يفلحون؛ فإنَّ أوامرَ الله الخاصةَ بأوقاتٍ ينبغي تقديمُها على الأوامرِ العامة، بل ربما يجبُ، ولذلك كان الإنسانُ يقطعُ صلاةَ النافلةِ ويدخلُ في صلاة الجماعةِ إذا أُقيمَتْ مع أنه في النافلةِ بين يدي الله تعالى، كلُّ ذلك اهتماماً بشأن الجماعة، وفي الحديث: «يدُ الله معَ الجماعة»[2]، أي: تأييدُه ورحمتُهُ وشفقتُهُ ونعمتُهُ، ففي تركِ الجماعةِ حصولُ ضدِّ ذلك للعبد[3].

وقد استقصينا في فنِّ الفقهِ أصولَ الصلاةِ وفروعَها، ونحن الآنَ في هذا الكتاب نقتصرُ على ما لا بُدَّ للمريد منه مِن أعمالِها الظاهرةِ وأسرارِها الباطنة، وإنَّا لكاشفونَ مِنْ دقائقِ معانيها الخفيَّةِ في معاني الخشوعِ والإخلاصِ والنِّيَّةِ ما لم تجرِ العادةُ بذكره في كتبِ الفقهِ.

❊

(١) رواه البخاري (٨٥).

(٢) رواه الترمذي (٢١٦٦).

(٣) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٢٦١ـ ٢٦٣).

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أنَّ أدلةَ ذلك كثيرةٌ، فَمِنْ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وظاهرُ الأمرِ الوجوبُ، والغفلةُ تُضادُّ الذِّكرَ، فَمَنْ غفلَ في جميعِ صلاتِهِ كيف يكون مُقيماً للصلاةِ لذكرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، نهيٌ، وظاهرُهُ التَّحريمُ.

وقال ﷺ: «كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلاتِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ»[1]، وما أراد به إلا الغافلَ.

(ش: قلتُ غَفَرَ الله لي:

وأَحْسِنِ الخُشُوعَ في الصَّلاةِ ... حتَّى تَنالَ وافِرَ الصِّلاتِ

كَمْ صَائمٍ وقَائمٍ فِي تَعَبِ ... وعَابِدٍ وخَاشِعٍ فِي لَهَبِ)

والتحقيقُ: أنَّ المصلِّيَ مُناجٍ ربَّهُ عزَّ وجلَّ كما وردَ به الخبر[2]، والكلامُ مع الغفلةِ ليس بمناجاةٍ ألبتة.

ولا شكَّ أنَّ المقصودَ مِنَ القراءةِ والأذكارِ الحمدُ والثناءُ والتضرُّعُ والدُّعاءُ، والمخاطَبُ هو اللهُ عز وجل، وقلبُ الغافلِ بحجابِ الغفلة محجوبٌ عنه، فلا

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٩٠) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٣) بنحوه.

(٢) وهو قولُهُ ﷺ: (إنَّ أحدَكم إذا قام في صلاتِهِ فإنَّه يُناجي ربَّهُ) رواه البخاري (٤٠٥).

يراه ولا يُشاهِدُهُ، ولسانُهُ يتحرَّكُ بحكم العادةِ، لا بِسِرِّ العبادة، فما أبعدَ هذا عن المقصود بالصَّلاةِ التي شُرِعَتْ لتصقيلِ القلبِ، وتجديدِ ذكرِ الله تعالى، ورسوخِ عَقْدِ الإيمانِ به.

(م: قال ابنُ عطاءِ الله ﵀: مثالُ مَنْ صلَّى الصَّلاةَ بغير حضورِ قلبٍ كَمَنْ أهدى للمَلِكِ مئةَ صندوقٍ فارغةٍ، فيستحقُّ العقوبةَ مِن المَلِكِ، ومَنْ صلَّاها بحضور القلبِ كان كَمَنْ أهدى له ياقوتةً تساوي ألفَ دينار، فإنَّ المَلِكَ يشكرُهُ عليها دائماً[1].

ومِن ثَمَّ قال الشيخ زروق ﵀ في شرح حزب البحر: كلُّ تَوَجُّهٍ لا يشعرُ صاحبُهُ بعظمةِ الرُّبوبيّةِ وذلِّ العبوديةِ فهو تلاعبٌ).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ لا يُكْتَبُ لَهُ سُدُسُهَا وَلا عُشْرُهَا، وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا»[2].

وحاصلُ الكلامِ: أنَّ حضورَ القلبِ هو روحُ الصَّلاةِ، وأنَّ أقلَّ ما يبقى به رمقُ الرُّوحِ الحضورُ عند التَّكبير، فالنُّقصانُ منه هلاكٌ، وبقدرِ الزِّيادةِ عليه تنبسطُ الرُّوحُ وتَنْشَرِحُ وتستأنسُ في أجزاء الصلاة، وكم مِنْ حيٍّ لا حِراكَ به قريبٌ مِن ميتٍ، فصلاةُ الغافلِ في جميعِها إلا عندَ التكبيرِ كحيٍّ لا حِراكَ به، نسألُ الله حسنَ العونِ.

(ش: قال الإمام الشعراني ـ قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله

---

(١) ينظر: (تاج العروس) (١٧٧).

(٢) رواه أبو داود (٧٩٦) بنحوه.

ﷺ أن لا نتهاونَ بترك الحضور مع الله تعالى في صلاتِنا وجميعِ طاعاتِنا ولا بالخشوعِ فيها؛ لأنَّ روحَ كلِّ عبادةٍ هو الحضورُ والخشوعُ فيها، وما أمرَنا الله تعالى بفعلِ طاعةٍ إلا لنشهدَهُ تعالى فيها، وكلُّ عبادةٍ لا تجمعُ العبدَ بقلبه على الله تعالى فهي عادةٌ لا عبادةٌ فلا أجرَ فيها، ومَنْ قال مِنَ الفقراء: «إنَّ الخشوعَ في الصلاةِ لا يضرُّ تركُهُ» فقد أخطأَ طريقَ الكمال، وإذا كان حاملُ القرآنِ والعلمِ يترخَّصُ هذا الترخيصَ فَبِمَنْ يقتدي الناس؟!

فيحتاجُ مَنْ يريدُ العملَ بهذا العهدِ إلى السُّلوكِ على يدِ شيخٍ صادقٍ حتَّى يُزيلَ حجبَهُ وعوائقَهُ التي تُبعِدُهُ عن دخولِ حضرة الله تعالى، ويُدخِلَهُ حضراتِ القرب، ويصيرَ الخشوعُ لله تعالى مِنْ شأنِهِ لا يتكلَّفُ له، وأما مَنْ أكلَ ونام، ولغا في الكلام، وارتكبَ الآثام، وشَبِعَ حتى صار بطنُهُ كبطنِ الدُّبِّ مِنَ الحرامِ والشُّبُهاتِ فَمِنْ أينَ يأتيه الخشوعُ؛ فإنَّهم أجمعوا على أنَّ مَنْ شَبِعَ مِنَ الحلالِ قسا قلبُهُ، فكيفَ بِمَنْ شَبِعَ مِنَ الحرامِ؟ وهذا حالُ أكثرِ الناس اليوم، فيتعاطى أحدُهُم أسبابَ قسوةِ القلبِ ثم يقومُ للصلاةِ ويطلبُ أن يحضرَ مع الله ويخشعَ وجوارحُهُ كلُّ جارحةٍ في بلدٍ أو حارة، وذلك لا يصحُّ.

فاسلُكْ يا أخي على يدِ شيخٍ ليدلَّكَ على طريق الوصول إلى الحضور والخشوع، ولا تكبر نفسكَ عليه، وتقولُ: «أنا عالم» فتخسر؛ فإنَّ مِنْ شرطِ العلمِ أن يعرفَ دواءَ كلِّ علةٍ ويُنزِلَ الدواءَ على الداء، ومَنْ قال: «دواءُ الحمَّى مثلاً كذا وكذا» وهو لم يعرف الحمى كأنَّه لم يعلم شيئاً، وقد ذكرنا في عهود المشايخ أنه يجبُ على كلِّ فقيهٍ أن يتَّخِذَ له شيخاً يدلُّه على الطريق التي تُسهِّلُ عليه الوصولَ إلى درجةِ العملِ بما عَلِمَ؛ ليكمُلَ نفعُهُ لنفسِهِ وللناس، ولا يكونَ كالشمعةِ التي تضيءُ على الناسِ وتحرقُ نفسَها.

واعلم ـ يا أخي ـ أنَّ من لم يتصور له الحضور في الصلاة فهو في حضرة الخاسرين، والله لا يحب الخاسرين.

وقد قال بعضهم: إنَّ العبدَ لا يتنعَّمُ في الآخرة إلا بمقام حصَّله هنا، وإنَّ كلَّ مَنْ لم يُحصّلْ مقاماً في هذه الدار لا يُعطاهُ في الآخرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ لحجابهم عن دخول حضرته في دار الدنيا، وإنْ تفاوتَ حجابُ المؤمنِ والكافرِ.

وقد كان السلفُ الصالحُ ـ رضي الله عنهم ـ لا يُسامحون مريدهم في حضور شيءٍ مِنَ الدُّنيا على باله وهو الصلاة، بل كان الجنيدُ رضي الله عنه يقول للشبلي: يا أبا بكرٍ، إن خَطَرَ في بالِكَ مِنَ الجمعةِ إلى الجمعةِ غيرُ الله فلا تَعُدْ تأتينا؛ فإنَّه لا يجيءُ منكَ شيء.

فلا تظنَّ يا أخي أنَّ هذا المشهدَ مِنْ أعلى المقاماتِ، وإنَّما هو مِنْ أوائلِ مقاماتِ المريدين، وذلك لأنَّ أولَ قدمٍ يضعُهُ المريدُ في الطريق يشهدُ الخالقَ للذوات، ويُحجَبُ عن الوقوعِ مع اللذات، كَمَنْ وَصَلَ إلى مجالسةِ السلطان لا يلتهي عنه بمشاهدةِ غلامٍ يخدمُ خيلَ بعضِ جندِهِ.

واعلم أنَّ مَنْ لم يسلك طريقَ القومِ فهو واقفٌ مع شهودِ الخلقِ دون الحق، فلا يحصل له خشوعٌ غالباً؛ لعدم إدراكِهِ لتجلياتِ الحقِّ جل وعلا.

وسمعتُ سيِّدي علياً الخواصَ رحمه الله يقول: غايةُ حضورِ العالِمِ في الصلاةِ أن يتدبَّرَ فيما يقرؤُهُ، ويُلقي بالَهُ لمخارجِ الحروفِ واستنباطِ الأحكام، وهذه كلُّها أمورٌ مفرِّقةٌ عن الحضورِ مع الله تعالى، فإنَّ مِنَ الآياتِ ما يذهبُ به

إلى الجنةِ فيشاهِدُ ما فيها، ومنها ما يذهبُ به إلى النار فيُشاهِدُ ما فيها، ومنها ما يذهبُ به إلى قصةِ آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى عليهم الصلاة والسلام، فكيف يكون له الحضورُ التامُّ مع الله تعالى؟[1]).

* * *

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٢٧٥. ٢٧٩) بتصرُّفٍ.

بيانُ المعاني الباطنةِ التي تَتِمُّ بها حياةُ الصَّلاة

اعلم أنَّ هذه المعاني تكثرُ العباراتُ عنها، ولكنْ يجمعُها ستُّ جُمَلٍ، وهي: حضورُ القلبِ، والتفهُّمُ، والتَّعظيمُ، والهيبةُ، والرجاءُ، والحياءُ.

وأما أسبابُ هذه المعاني السِّتّةِ:

فاعلم أنَّ حضورَ القلبِ سببُهُ الهِمّةُ، فإنَّ قلبَكَ تابعٌ لِهَمّكَ، فلا يحضرُ إلا فيما يهمُّكَ، ومهما أَهَمَّكَ أمرٌ حَضَرَ القلبُ فيه شاء أم أبى، فهو مجبولٌ على ذلك ومُسخَّرٌ له، والقلبُ إذا لم يحضر في الصَّلاةِ لم يكن مُتعطِّلاً، بل جائِلاً فيما الهِمّةُ مصروفةٌ إليه مِن أمورِ الدُّنيا، فلا حيلةَ ولا علاجَ لإحضارِ القلبِ إلا بصرفِ الهِمّةِ إلى الصلاة، والهِمّةُ لا تنصرفُ إليها ما لم يَتَبَيَّنْ أنَّ الغرضَ المطلوبَ منوطٌ بها، وذلك هو الإيمانُ والتَّصديقُ بأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقى، وأنَّ الصلاةَ وسيلةٌ إليها، فإذا أُضيفَ هذا إلى حقيقةِ العلمِ بحقارةِ الدُّنيا ومهماتِها حَصَلَ مِنْ مجموعِها حضورُ القلبِ في الصلاة.

وأما التَّفهُّم: فسبَبُهُ بعدَ حضورِ القلبِ إدمانُ الفكرِ وصرفُ الذِّهنِ إلى إدراك المعنى، وعلاجُهُ هو علاجُ إحضارِ القلبِ مع الإقبالِ على الفكرِ والتشمُّرِ لدفعِ الخواطرِ الشاغلةِ.

وعلاجُ دفعِ الخواطرِ الشاغلةِ: قطعُ موادِّها، أعني: النُّزوعَ عن تلكَ الأسباب التي تنجذبُ الخواطرُ إليها، وما لم تنقطع تلك الموادُّ لا تنصرفُ عنها الخواطرُ،

فَمَنْ أحبَّ شيئاً أكثرَ ذكرَهُ، فذكرُ المحبوبِ يهجمُ على القلبِ بالضرورةِ، فلذلك نرى أنَّ مَنْ أحبَّ غيرَ الله لا تصفو له صلاةٌ عن الخواطرِ.

وأما التعظيمُ: فهو حالةٌ للقلبِ تتولَّدُ مِن معرفتين:

إحداهُما: معرفةُ جلالِ الله تعالى وعظمتِهِ، وهو مِنْ أصولِ الإيمان؛ فإنَّ مَنْ لا يُعتقدُ عظمتُهُ لا تذعنُ النَّفسُ لتعظيمِهِ.

الثانية: معرفةُ حقارةِ النَّفسِ وخِسَّتِها، وكونِها عبداً مُسخَراً مربوباً، حتَّى يتولَّدَ مِنَ المعرفتَينِ الاستكانةُ والانكسارُ والخشوعُ لله سبحانه، فيُعبَّرُ عنه بالتعظيم، وما لم تَمْتَزِجْ معرفةُ حقارةِ النَّفسِ بمعرفةِ جلالِ الله لا تنتظمُ حالةُ التَّعظيمِ والخشوعِ.

وأما الهيبةُ والخوفُ: فحالةٌ للنَّفسِ تتولَّدُ مِنَ المعرفةِ بقدرةِ الله وسطوتِهِ، ونفوذِ مشيئتِهِ فيه مع قلَّةِ المبالاةِ به، وأنَّه لو أهلكَ الأوَّلين والآخرين لم ينقص مِنْ ملكِهِ ذرَّة، هذا مع مطالعةِ ما يجري على الأنبياءِ والأولياءِ مِنَ المصائب وأنواعِ البلاء مع القدرة على الدَّفعِ، على خلافِ ما يشاهدُ مِنْ ملوكِ الأرضِ مِنْ نفادِ خزائنهم بالأعطية، وعدمِ القدرةِ على دفعِ ما نَزَلَ بهم.

وبالجملة: كلَّما زاد العلمُ بالله زادت الخشيةُ والهيبةُ.

وأما الرجاء: فسببُهُ معرفةُ لطفِ الله تعالى وكرمِهِ وعميمِ إنعامِهِ ولطائفِ صنعِهِ، ومعرفةُ صدقِهِ في وعدِهِ الجنَّةَ بالصلاة، فإذا حَصَلَ اليقينُ بوعدِهِ والمعرفةُ بلطفِهِ انبعثَ مِنْ مجموعِهِما الرجاءُ لا محالةَ.

وأما الحياء: فباستشعارِهِ التَّقصيرَ في العبادةِ، وعلمِهِ بالعجزِ عن القيامِ بعظيمِ حقِّ الله عزَّ وجلَّ، ويقوى ذلك بالمعرفةِ بعيوبِ النَّفسِ وآفاتِها، وقلَّةِ

إخلاصِها وخبثِ دُخلتِها[١]، وميلِها إلى الحظِّ العاجلِ في جميعِ أفعالِها، مع العلمِ بعظيم ما يقتضيه جلالُ الله عز وجل، والعلمِ بأنَّه مُطلِعٌ على السرائرِ وخطراتِ القلبِ وإنْ دَقَّتْ وخَفِيَتْ، وهذه المعارفُ إذا حَصَلَتْ يقيناً انبعثَ منها بالضَّرورةِ حالةٌ تُسمَّى الحياءَ.

فهذه أسبابُ هذه الصِّفات، وكلُّ ما طُلِبَ تحصيلُهُ فعلاجُهُ إحضارُ سببِهِ، ففي معرفةِ السَّببِ معرفةُ العلاج.

(م: ويجمعُ هذه الأسبابَ كلَّها قولُ ابنِ أبي الورد رحمه الله حيث قال: يحتاجُ المصلِّي إلى أربع خلال: إعظامُ المقام، وإجلالُ المقال، وتمامُ اليقين، وجمعُ الهَمّ)[٢].

ورابطةُ جميعِ هذه الأسبابِ الإيمانُ واليقينُ، وبقدر اليقينِ يخشعُ القلب.

فحظُّ كلٍّ واحدٍ مِنْ صلاتِهِ بقدر خوفِهِ وخشوعِهِ وتعظيمِهِ، فإنَّ موضعَ نظرِ الله تعالى القلوبُ دون ظاهرِ الحركات، ولذلك قال بعضُ الصحابة رضي الله عنهم: (يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على مثالِ هيئتِهم في الصَّلاةِ مِنَ الطُّمأنينةِ والهدوءِ، ومِنْ وجودِ النَّعيمِ بها واللَّذَّةِ)[٣].

ولقد صَدَقَ؛ فإنَّه يُحشَرُ كلٌّ على ما ماتَ عليه، ويموتُ على ما عاش عليه، فَمِنْ صفاتِ القلوبِ تُصاغُ الصُّوَرُ في الدار الآخرة، ولا ينجو إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم، نسألُ الله حسنَ التَّوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ.

---

(١) الدُّخلة: بطانةُ الأمر.

(٢) ينظر: (أوجز المسالك إلى موطأ مالك) (٣/ ٣٢٦).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٩٨).

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كلِّ ركنٍ وشرطٍ مِنْ أعمالِ الصلاة

فنقولُ: حقُّكَ إن كنتَ مِنَ المريدين للآخرةِ أن لا تغفلَ أوّلاً عن التَّنبيهاتِ التي في شروطِ الصَّلاةِ وأركانِها.

أما الشروطُ السَّوابقُ فهي: الأذانُ، والطَّهارةُ، وسترُ العورةِ، واستقبالُ القبلةِ، والانتصابُ قائماً، والنِّيّةُ.

أما الأذان: فإذا سمعتَ نداءَ المؤذِّنِ فأحضِرْ في قلبِكَ هولَ النِّداءِ يومَ القيامة، وتَشَمَّرْ بظاهرِكَ وباطنِكَ للإجابةِ والمسارعةِ؛ فإنَّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين يُنادَونَ باللُّطفِ يومَ العرضِ الأكبر.

فاعرضْ قلبَكَ على هذا النِّداءِ، فإن وجدتَهُ مملوءاً بالفرحِ والاستبشارِ، مشحوناً بالرغبة إلى الابتدارِ فاعلم أنَّه يأتيكَ النِّداءُ بالبشرى والفوزِ يومَ القضاء، ولذلك قال ﷺ: «أَرِحْنَا بِهَا يا بِلالُ»[1]؛ إذ كان ﷺ قرّةُ عينِهِ فيها[2].

وأما الطهارةُ: فإذا أتيتَ بها في مكانِكَ وهو ظرفُكَ الأبعدُ، ثمَّ في ثيابِكَ وهو غلافُكَ الأقربُ، ثم في بشرتِكَ وهو قِشرُكَ الأدنى، فلا تغفُلْ عن لُبِّكَ الذي

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥).

(٢) كما روى النسائي (٣٩٣٩).

هو ذاتُك وهو قلبُكَ، فاجتهدْ له تطهيراً بالتَّوبةِ والنَّدمِ على ما فَرَطَ[1] وتصميمِ العزمِ على التركِ في المستقبل، فَطَهِّرْ بها باطنَكَ؛ فإنَّه موقعُ نظرِ معبودِكَ.

وأما سترُ العورة: فاعلم أنَّ معناهُ تغطيةُ مقابِحِ بدنِكَ عن أبصارِ الخلقِ، فإنَّ ظاهرَ بدنِكَ موقعُ نظرِ الخلقِ، فما بالُكَ في عوراتِ باطنِكَ وفضائحِ سِرِّكَ التي لا يطلعُ عليها إلا ربُّكَ عزَّ وجلَّ؟

فَأَحْضِرْ تلك الفضائحَ ببالِكَ، وطالِبْ نفسَكَ بسترِها، وتحقَّقْ أنَّه لا يسترُها عن عينِ الله سبحانه ساترٌ، وإنَّما يُكفِّرُها ويغفِرُها النَّدمُ والحياءُ والخوفُ، فتستفيدُ بإحضارِها في قلبِكَ انبعاثَ جنودِ الخوفِ والحياءِ مِنْ مكامِنِها، فتذلُّ بها نفسُكَ، ويستكينُ تحتَ الخجلةِ قلبُكَ، وتقومُ بينَ يدي الله عز وجل قيامَ العبدِ المُجرِمِ المسيءِ الآبِقِ الذي نَدِمَ فرجعَ إلى مولاهُ ناكساً رأسَهُ مِنَ الحياءِ والخوفِ.

(م: وأما التَّوجُّهُ بالمشي إلى موضعِ الصلاةِ إذا دخلَ الوقتُ، فيقولُ الشعرانيُّ ﵀: اعلم أنَّ روحَ الصلاةِ بعدَ التَّطهُّرِ والنظافةِ والانتهاضِ إلى موضعِ الصلاةِ أن تنويَ بالانتهاضِ والمشيِ انتهاضَ القلبِ والباطنِ، وسيرَهُ ودخولَهُ إلى عالَمِ الملكوتِ وخروجَهُ مِنْ عالَمِ الدُّنيا، حتَّى يدخلَ إلى مُتعبَّدِ الملائكةِ في العالَمِ القدسيِّ، ويصيرُ بحيث يخلو قلبُهُ عمَّا يشغلُ عن كمالِ الصلاةِ.

ثم إذا قام إلى الصلاةِ أوَّلَ الوقتِ ينوي بذلك وقوعَ العبادةِ بها مِنْ أوَّلِ الوجودِ إلى زمنِ التَّكليفِ وقيامِ السَّاعةِ؛ ليُكتَبَ له ثوابٌ مُستمِرٌّ منذ خلَقَ الله الدُّنيا إلى قيام الساعة، فهذا أوَّلُ الوقتِ المراد بقوله ﷺ: «أفضلُ الأعمالِ

---

(١) فَرَطَ: سَبَقَ.

الصَّلاةُ لوقتِها»[١]؛ لأنَّ صاحبَ هذا المشهدِ قد قَدَّرَ أنَّه لو كان موجوداً مِن افتتاحِ الوجودِ إلى وقتِ صلاتِهِ هذه لكان عابداً لله لا يفترُ نَفَساً واحداً)[٢].

وأما الاستقبالُ: فهو صرفُ ظاهرِ وجهِكَ عن سائر الجهاتِ إلى جهةِ بيتِ الله تعالى، أفترى أنَّ صرفَ القلبِ عن سائر الأمورِ إلى الله عزَّ وجلَّ ليس مطلوباً منك؟ هيهاتَ فلا مطلوبَ سواه، وإنما هذه الظواهرُ تحريكاتٌ للبواطنِ، وضبطٌ للجوارحِ، وتسكينٌ لها بالإثباتِ في جهةٍ واحدةٍ حتى لا تَبْغِيَ على القلب؛ فإنَّها إذا بَغَتْ وظَلَمَتْ في حركاتِها والتفاتِها إلى جهاتِها استتبعتِ القلبَ، وانقلبت به عن وجهِ الله عز وجل، فليكنْ وجهُ قلبِكَ مع وجهِ بدنِكَ.

(م: وإلى هذا المعنى أشار ابنُ الفارض رضي الله عنه فقال:

أنتم فروضي ونفلي ... أنتم حديثي وشغلي
يا قِبلتي في صلاتي ... إذا وقفتُ أصلِّي
جمالُكُم نُصْبَ عيني ... إليه وجَّهتُ كُلِّي
وسرُّكم في ضميري ... والقلبُ طورُ التجلِّي

وقال الشبلي رضي الله عنه : القبلةُ ثلاثٌ: فقبلةُ العوامِّ الكعبةُ، وقبلةُ الخواصِّ العرشُ وهو قبلةُ الملائكة، وقبلةُ العارفين قلوبُهم ينظرون بنورِ قلوبِهم إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ).

وأما الاعتدالُ قائماً: فإنَّما هو مُثولٌ بالشَّخصِ والقلبِ بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فليكنْ رأسُكَ الذي هو أرفعُ أعضائِكَ مُطرِقاً مُطأطِئاً مُسْتكيناً، وليكنْ

(١) رواه البخاري (١١٤٥).
(٢) ينظر: (الفتح المبين في جملة من أسرار الدين) (٣٥).

وضعُ الرأسِ عن ارتفاعِهِ تنبيهاً على إلزام القلبِ التواضعَ والتذلُّلَ والتَّبريَ عن التَّرؤُسِ والتَّكبُّرِ، وليكنْ على ذُكرِكَ ههنا خطرُ القيامِ بينَ يدي الله تعالى في هولِ المطَّلَعِ عندَ العرضِ للسُّؤالِ.

وأما النِّيةُ فاعزمْ على إجابةِ الله عزَّ وجلَّ في امتثال أمرِهِ بالصَّلاةِ وإتمامِها، والكفِّ عن نواقضِها ومفسداتِها، وإخلاصِ جميع ذلك لوجهِ الله سبحانه؛ رجاءً لثوابِهِ، وخوفاً مِنْ عقابِهِ، وطلباً للقربةِ منه، متقلِّداً للمِنَّةِ منه بإذنِهِ إيَّاكَ في المناجاةِ مع سوءِ أدبِكَ وكثرةِ عصيانِكَ.

وعَظِّمْ في نفسِكَ قدرَ مناجاتِهِ، وانظرْ مَنْ تُناجي، وكيف تُناجي، وبماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يَعْرَقَ جبينُكَ مِنَ الخجلِ، وترتعدَ فرائصُكَ مِنَ الهيبةِ، ويصفرَّ وجهُكَ مِنَ الخوفِ.

وأما التَّكبيرُ: فإذا نَطَقَ به لسانُكَ فينبغي أن لا يُكذِّبَهُ قلبُكَ، فإن كان في قلبِكَ شيءٌ هو أكبرُ مِنَ الله تعالى فالله يشهدُ إنَّكَ لكاذبٌ.

فإن كان هواكَ أغلبَ عليك مِنْ أمرِ الله تعالى فأنتَ أطوعُ له منكَ لله تعالى فقد اتَّخذته إلهكَ وكبَّرتَهُ، وما أعظمَ الخطرَ في ذلك لولا التوبةُ والاستغفارُ وحسنُ الظَّنِّ بكرمِ الله تعالى وعفوِهِ.

وأما دعاءُ الاستفتاحِ: فأوَّلُ كلماتِهِ قولُكَ: «وَجَّهتُ وجهيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ» وليس المرادُ بالوجهِ الوجهَ الظاهرَ، فإنَّكَ إنَّما وجهتَهُ إلى جهةِ القبلةِ، والله سبحانه يتقدَّسُ عن أَنْ تَحدَّهُ الجهاتُ حتَّى تُقبِلَ بوجهِ بدنِكَ عليه، وإنَّما وجهُ القلبِ هو الذي تتوجَّهُ به إلى فاطرِ السمواتِ والأرضِ، فانظرْ

إليه أمتوجِّهٌ هو إلى أمانيه وهمِّهِ في البيتِ والسوقِ متبعٌ للشهوات، أو مقبلٌ على فاطر السموات؟

وإيَّاكَ أن تكونَ أوَّلَ مُفاتَحتِكَ للمناجاةِ بالكذبِ والاختلاقِ.

وإذا قلتَ: «أعوذُ بالله مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم» فاعلم أنَّه عدوُّكَ ومُترصِّدٌ لصرفِ قلبِكَ عن الله تعالى حسداً لكَ على مناجاتِكَ مع الله سبحانه وسجودِكَ له، مع أنَّه لُعِنَ بسببِ سجدةٍ واحدةٍ تركَها ولم يُوفَّقْ لها، وأنَّ استعاذتَكَ بالله سبحانه منه بتركِ ما يحبُّهُ، وتبديلِهِ بما يحبُّ الله عزَّ وجلَّ، لا بمجرَّدِ قولِكَ؛ فإنَّ مَنْ قصدَهُ سبعٌ أو عدوٌّ ليفترسَهُ أو يقتلَهُ فقال: «أعوذُ منكَ بذلكَ الحصنِ الحصينِ» وهو ثابتٌ على مكانه فإنَّ ذلك لا ينفعُهُ، بل لا يُعيذُهُ إلا تبديلُ المكان، فكذلك مَنْ يتبعُ الشهوات التي هي محابُّ الشيطانِ ومكروهُ الرحمنِ فلا يغنيه مجرَّدُ القول، فليقترن قولُهُ بالعزم على التعوُّذ بحصن الله عزَّ وجلَّ عن شرِّ الشيطان.

وإذا قلتَ: «بسم الله الرحمن الرحيم» فانوِ به التبرُّكَ لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أنَّ معناها أنَّ الأمورَ كلَّها بالله تعالى، وأنَّ المرادَ بالاسم ههنا هو المسمَّى.

وإذا كانت الأمورُ بالله سبحانه فلا جرمَ كانَ «الحمد لله» ومعناه: أنَّ الشكر لله؛ إذ النِّعمُ مِنَ الله، ومَنْ يرى مِنْ غيرِ الله نعمةً أو يقصدُ غيرَ الله سبحانه بشكرٍ لا مِنْ حيثُ إنَّه مُسخَّرٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ، ففي تسميتِهِ وتحميدِهِ نقصانٌ بقدرِ التفاتِهِ إلى غيرِ الله تعالى.

فإذا قلتَ: «الرحمن الرحيم» فأحضرْ قلبَكَ جميعَ أنواعِ لطفِهِ؛ لتتضحِ لكَ رحمتُهُ، فينبعثَ بذلك رجاؤُكَ.

ثُمَّ استَثِرْ مِنْ قلبِكَ التعظيمَ والخوفَ بقولِكَ: «مالكِ يومِ الدِّين» أما العظمةُ: فلأنَّه لا ملكَ إلا له، وأما الخوفُ: فلهولِ يومِ الجزاءِ والحسابِ الذي هو مالكُهُ.

ثمَّ جَدِّدِ الإخلاصَ بقولِكَ: «إيَّاكَ نعبدُ»، وجَدِّدِ العجزَ والاحتياجَ والتَّبرِّيَ مِنَ الحولِ والقوَّةِ بقولِكَ: و«إياك نستعين»، وتحقَّقْ أنَّه ما تَيَسَّرَتْ طاعتُكَ إلا بإعانتِهِ، وأنَّ له المِنَّةَ إذْ وَفَّقَكَ الله لطاعتِهِ، واستخدمَكَ لعبادتِهِ، وجَعَلَكَ أهلاً لمناجاتِهِ، ولو حَرَمَكَ التَّوفيقَ لكنتَ مِنَ المطرودين مع الشيطانِ اللَّعين.

ثُمَّ عَيِّنْ سؤالَكَ، ولا تطلبْ إلا أهمَّ حاجاتِكَ، وقل: «اهدنا الصراط المستقيم» الذي يسوقُنا إلى جوارِكَ، ويُفضِي بنا إلى مرضاتِكَ، وزِدْهُ شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاضَ عليهم نعمةَ الهدايةِ مِنَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، دون الذين غَضِبَ عليهم مِنَ الكفَّارِ والزائغين مِن اليهودِ والنَّصارى والصَّابئين، ثُمَّ التَمِسِ الإجابةَ وقُلْ: «آمين».

فإذا تلوتَ الفاتحةَ كذلك فيشبهُ أن تكونَ مِنَ الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبرَ عنه النَّبيُّ ﷺ: «قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ: نِصْفُها لِي وَنِصْفُها لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يقولُ العبد: «الحمد لله رب العالمين» فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: حَمِدَنِي عبدي وأثنى عليَّ»[1]، وهو معنى قولِهِ: «سمع الله لمن حمده» ... الحديثَ الخ، فلو لم يكن لَكَ مِنْ صلاتِكَ حظٌّ سوى ذكرِ الله لكَ في جلالِهِ وعظمتِهِ فناهيكَ بذلك غنيمةً، فكيف بما ترجوه مِنْ ثوابِهِ وفضلِهِ؟

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وكذلك ينبغي أن تفهمَ ما تقرؤُهُ مِنَ السُّوَرِ، فلا تغفُلْ عن أمرِهِ ونهيِهِ، ووعدِهِ ووعيدِهِ، ومواعظِهِ وأخبارِ أنبيائِهِ، وذكرِ مِنَنِهِ وإحسانِهِ، فلكلٍّ واحدٍ حقٌّ، فالرجاءُ حقُّ الوعدِ، والخوفُ حقُّ الوعيدِ، والعزمُ حقُّ الأمرِ والنَّهيِ، والاتِّعاظُ حقُّ الموعظةِ، والشُّكرُ حقُّ ذكرِ المِنّةِ، والاعتبارُ حقُّ إخبارِ الأنبياء.

والصَّلاةُ مفتاحُ القلوبِ، فيها تنكشفُ أسرارُ الكلماتِ، فهذا حقُّ القراءةِ، وهو حقُّ الأذكارِ والتَّسبيحاتِ أيضاً.

وأما الركوعُ والسُّجودُ فينبغي أن تُجدِّدَ عندَهما ذكرَ كبرياءِ الله سبحانه، وترفعَ يديكَ مستجيراً بعفوِ الله عزَّ وجلَّ مِنْ عقابِهِ، ومُتَّبِعاً سُنَّةَ نبيِّهِ ﷺ.

ثم تستأنفُ له ذُلاًّ وتواضعاً بركوعِكَ، وتجتهدُ في ترقيقِ قلبِكَ وتجديدِ خشوعِكَ، وتستشعرُ ذُلَّكَ وعِزَّ مولاكَ، واتِّضاعَكَ وعلوَّ ربِّكَ.

وأما التَّشهُّدُ: فإذا جلستَ له فاجلسْ متأدِّباً، وصرِّحْ بأنَّ جميعَ ما تدلي به مِنَ الصَّلواتِ والطَّيِّباتِ ـ أي: مِنَ الأخلاقِ الطَّاهرةِ ـ لله، وهو معنى «التَّحيَّات»، وأحضِرْ في قلبِكَ النَّبيَّ ﷺ وشَخْصَهُ الكريمَ، وقُلْ: «السَّلامُ عليكَ أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُهُ»، وليَصْدُقْ أَمَلُكَ في أنَّه يَبْلُغُهُ ويردُّ عليكَ ما هو أوفى منه.

ثُمَّ سَلِّمْ على نفسِكَ وعلى جميعِ عبادِ الله الصالحين، وتأمَّلْ أن يَرُدَّ الله سبحانه عليكَ سلاماً وافياً بعددِ عبادِهِ الصالحين.

ثُمَّ تَشَهَّدْ له تعالى بالوحدانيَّةِ، ولِمُحمَّدٍ ﷺ بالرسالةِ، مُجدِّداً عهدَ الله سبحانه بإعادةِ كلمتي الشهادةِ، ومُستأنِفاً للتَّحصُّنِ بها.

ثُمَّ ادْعُ في آخرِ صلاتِكَ بالدُّعاءِ المأثورِ مع التواضعِ والخشوعِ، والضراعةِ والابتهالِ، وصدقِ الرَّجاءِ بالإجابةِ، وأَشْرِكْ في دعائِكَ أَبويكَ وسائرَ المؤمنين.

واقصِدْ عندَ التَّسليمِ السَّلامَ على الملائكةِ والحاضرين، وانوِ ختمَ الصَّلاةِ به، واستشعرْ شكرَ الله سبحانه على توفيقِهِ لإتمام هذه الطاعةِ، وتَوَهَّمْ أنَّكَ مُودِّعٌ لصلاتِكَ هذه، وأنَّكَ ربَّما لا تعيشُ لِمِثْلِها.

ثُمَّ أشعرْ قلبَكَ الوَجَلَ والحياءَ مِنَ التَّقصيرِ في الصلاة، وخَفْ أن لا تُقبَلَ صلاتُكَ، وأن تكونَ ممقوتاً بذنبٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، فتردَّ صلاتُكَ في وجهِكَ، وترجو مع ذلك أن يقبلَها الله تعالى بفضلِهِ وكرمِهِ.

واعلم أنَّ تخليصَ الصلاةِ عن الآفاتِ، وإخلاصَها لوجهِ الله عزَّ وجلَّ، وأداءَها بالشروطِ الباطنةِ التي ذكرناها مِنَ الخشوعِ والتَّعظيمِ والحياءِ سببٌ لحصولِ أنوارٍ في القلبِ تكونُ تلكَ الأنوارُ مفاتيحَ علومِ المكاشفةِ، فأولياءُ الله المكاشَفون بملكوتِ السمواتِ والأرضِ وأسرارِ الرُّبوبيَّةِ إنَّما يُكاشَفون في الصَّلاةِ، لا سيَّما في السُّجود؛ إذ يتقرَّبُ العبدُ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ بالسُّجود.

وإنَّما تكونُ مكاشفةُ كلِّ مصلٍّ على قدرِ صفائِهِ عن كدوراتِ الدنيا، فبعضُهم ينكشفُ له مِنْ صفاتِ الله تعالى وجلاله، ولبعضِهم مِنْ أفعالِهِ، ولبعضِهم مِنْ دقائقِ علومِ المعاملةِ.

(ش: قال الإمامُ الشَّعرانيُّ قُدِّسَ سِرُّهُ: اعلم أنَّ الوجودَ كلَّهُ بأجزائِهِ كلِّها دائم الصلاة لله تعالى بدوامِ وجودِهِ، لا ينفكُّ عن الصَّلاةِ طرفةَ عينٍ؛ فإنَّه في مقامِ العبوديَّةِ لله تعالى في كلِّ وقتٍ ونَفَسٍ، فَمَنْ أَدْمَنَ النَّظرَ رأى الوجودَ كلَّه باطناً وظاهراً مُصلِّياً ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، فَمَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ فقد خالَفَ الخليقةَ كلَّها، وأخلَّ بنظامِ العالَمِ.

فَمَنْ صلَّى بجسدِهِ وقامَ بأركانِ الصَّلاةِ كما أُمِرَ ظاهراً، وأنزلَ نفسَهُ مع كلِّ ركنٍ مِنْ أركانِها في معانيها الباطنة، وفَهِمَ بروحِهِ وعقلِهِ تلك المعاني، وشاهَدَ المرادَ بكلِّ ركنٍ منها فقد صلَّى بجسدِهِ وروحِهِ وعقلِهِ، ومَنْ لم يكن كذلك فهو تحتَ مشيئةِ الله، فنستغفرُ الله العظيم، ونسألُهُ العفوَ إنَّه كريمٌ حليمٌ)[١].

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم

اعلم أنَّ الخشوعَ ثمرةُ الإيمان، ونتيجةُ اليقينِ الحاصلِ بجلالِ الله عزَّ وجلَّ، ومَنْ رُزِقَ ذلك فإنَّه يكونُ خاشعاً في الصَّلاة وفي غيرِ الصَّلاة، بل في خلوتِهِ وفي بيتِ الماءِ عند قضاءِ الحاجة؛ فإنَّ مُوجِبَ الخشوعِ معرفةُ اطِّلاعِ الله تعالى على العبد، ومعرفةُ جلالِهِ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسولُ الله ﷺ يُحَدِّثُنا ونُحَدِّثُهُ، فإذا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فكأنَّه لم يَعْرِفْنا ولم نَعْرِفْهُ)[٢] اشتغالاً بعظمة الله عز وجل.

ورُوِيَ عن بعضِهم أنَّه لم يرفع رأسَهُ إلى السَّماءِ أربعينَ سنةً؛ حياءً مِنَ الله سبحانه وخشوعاً له.

وكان الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ مِنْ شدَّةِ غَضِّهِ لبصرِهِ وإطراقِهِ يظنُّ بعضُ الناسِ أنَّه أعمى، وكان يختلفُ إلى منزلِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه عشرينَ سنةً، فإذا رأتْهُ جاريتُهُ قالت لابنِ مسعودٍ: صديقُكَ الأعمى قد جاءَ، فكان يضحكُ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه مِنْ قولِها، وكان إذا دَقَّ البابَ تخرجُ الجاريةُ إليه فتراهُ مُطرِقاً غاضّاً بصرَهُ، وكان

---

(١) ينظر: (الفتح المبين في جملة من أسرار الدين) (٤٠).

(٢) رواه البخاري (٦٧٦) بنحوه.

ابنُ مسعودٍ ﷺ إذا نَظَرَ إليه يقولُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، أما والله لو رآكَ محمَّدٌ ﷺ لَفَرِحَ بِكَ، وفي لفظٍ آخرَ: لأحبَّكَ[١].

قال بعضُهم: (الصلاةُ مِنَ الآخرة، فإذا دخلتَ في الصَّلاةِ خرجتَ مِنَ الدنيا)[٢].

وسئل بعضُهُم: هل تذكرُ في الصَّلاةِ شيئاً؟ فقال: وهل شيءٌ أحبُّ إليَّ مِنَ الصلاةِ فأذكرَهُ فيها؟[٣].

وكان بعضُهُم يُخفِّفُ الصَّلاةَ خيفةَ الوسواسِ.

وكان أبو الدَّرداءِ ﷺ يقول: (مِنْ فقهِ الرجلِ أن يبدأَ بحاجتِهِ قبلَ دخولِهِ في الصَّلاة؛ ليدخلَ في الصَّلاةِ وقلبُهُ فارغٌ)[٤].

وسُئِلَ أبو العاليةِ عن قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].

قال: هو الذي يسهو في صلاتِهِ، فلا يدري على كم ينصرِفُ أَعَلَى شفعٍ أم على وترٍ؟

وقال الحسن ﷺ: هو الذي يسهو عن وقتِ الصلاةِ حتَّى يخرجَ.

وقال بعضهم: هو الذي إنْ صلاَّها في أوَّلِ الوقتِ لم يفرح، وإن أخَّرَها عن الوقت لم يحزن، فلا يرى تعجيلَها بِرّاً، ولا تأخيرَها إثماً[٥].

---

(١) رواه أحمد في الزهد (١٩٨٩) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥١) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٦).
(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠٢).
(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠٢).
(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (١١٤٢).
(٥) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠٣).

ويروى عن حاتمٍ الأصمِّ رحمه الله أنَّه سُئِلَ عن صلاتِهِ فقال: (إذا حانَتِ الصَّلاةُ أسبغتُ الوضوءَ، وأتيتُ الموضعَ الذي أريدُ الصلاةَ فيه، فأقعدُ فيه حتى تجتمعَ جوارحي، ثمَّ أقومُ إلى صلاتي، فأجعلُ الكعبةَ بين حاجبيَّ، والصِّراطَ تحتَ قدميَّ، والجنَّةَ عن يميني، والنارَ عن شِمالي، ومَلَكَ الموتِ ورائي، وأظنُّها آخرَ صلاتي، ثم أقومُ بين الرَّجاءِ والخوفِ، وأكبِّرُ تكبيراً بتحقيقٍ، وأقرأُ قراءةً بترتيلٍ، وأركعُ ركوعاً بتواضعٍ، وأسجدُ سجوداً بتخشُّعٍ، وأقعدُ على الوَرِكِ الأيسرِ، وأفرشُ ظهرَ قدمِها، وأنصبُ القدمَ اليُمنى على الإبهامِ، وأتبعُها الإخلاصَ، ثُمَّ لا أدري: أَقُبِلَتْ منِّي أم لا؟)[١].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٧٥) بنحوه.

الكتاب الخامس من ربع العبادات
في أسرار الزكاة

قال تعالى في الحديث القدسي: «يا ابنَ آدَمَ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»[١].

(ش: زكاةُ العوامِّ بذلُ الفُلُوس، وزكاةُ الخواصِّ بذلُ النُّفُوس).

(ش: قال القوم رضي الله عنهم: أقبحُ مِنْ كلِّ قبيح صوفيٌّ شَحِيح).

إنَّ الله تعالى جَعَلَ الزَّكاةَ إحدى مباني الإسلام، وأردفَ بذكرِها الصَّلاةَ التي هي أعلى الأعلام، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وشَدَّدَ الوعيدَ على المُقصِّرِينَ فيها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومعنى الإنفاقِ في سبيل الله: إخراجُ حقِّ الزكاة.

قال الأحنفُ بنُ قيسٍ: كنتُ في نفرٍ مِنْ قريشٍ فَمَرَّ أبو ذَرٍّ فقال: (بَشِّرِ الكانِزِينَ المُكاثِرِينَ بِكَيٍّ في ظهورِهِم يخرجُ مِنْ جنوبِهِم، وبِكَيٍّ في أقفائِهِم يخرجُ مِنْ جِباهِهِم)[٢].

واعلم أنَّ الناسَ في بذلِ أموالِهِم على ثلاثةِ أقسام:

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤).

(٢) رواه مسلم (٩٩٢).

القسم الأول: قسمٌ صَدَّقوا التوحيدَ ووفَّوا بعهدِهِ، وبذلوا جميعَ أموالِهم فلم يدَّخروا ديناراً ولا درهماً.

قيل لبعضِهم: كم يجبُ مِن الزكاةِ في مئتي درهم؟

فقال: أما على العوامِّ ـ بحكم الشرع ـ فخمسةُ دراهم، وأما نحن فيجبُ علينا بذلُ الجميع(١).

ولهذا جاء أبو بكرٍ رضي الله عنه بجميع مالِهِ، وعمرُ رضي الله عنه بشطرِ مالِهِ، فقال رسول الله ﷺ لعمرَ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» فقال: مثلَهُ، وقال لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قال: الله ورسولَهُ، فقال ﷺ: «بَيْنَكُمَا مَا بَيْنَ كَلِمَتَيْكُمَا»(٢).

فالصِّدِّيقُ وفَّى بتمامِ الصِّدقِ، فلم يُمسِكْ سوى المحبوبِ عندَهُ، وهو اللهُ ورسولُهُ.

القسم الثاني: درجتُهُم دونَ درجةِ هؤلاء، وهم الممسكون أموالَهم، المُراقِبون لِمَواقيتِ الحاجاتِ ومَواسِمِ الخيراتِ، فيكونُ قصدُهم في الادِّخارِ الإنفاقَ على قدر الحاجةِ دونَ التَّنَعُّم، وصَرْفَ الفاضلِ عن الحاجة إلى وجوه البِرِّ، وهؤلاء لا يقتصرون على أداء الواجبِ على مقدار الزكاة.

والقسم الثالث: هم الذين يقتصرون على أداءِ الواجبِ، فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه، وهي أقلُّ الرُّتب.

واعلم أنَّ صدقةَ السِّرِّ أبعدُ مِنَ الرياءِ والسُّمعة، قال النبيُّ ﷺ: «سَبْعَةٌ

---

(١) ينظر: (كشف المحجوب) (٣٤٧) حكي ذلك عن الشبلي رحمه الله تعالى.

(٢) رواه أبو داود (١٦٧٨).

يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ»، أَحَدُهُمْ: «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَلَمْ تَعْلَمْ شِمَالُهُ بِمَا أَعْطَتْ يَمِينُهُ»[١].

(ز: قال الشيخُ الأكبرُ رحمه الله[٢]: اعلم أنَّ إخفاءَ الصَدقةِ شرطٌ في نَيْلِ المقامِ العالي الذي خَصَّ الله به الأبدالَ السَّبعةَ، وصورةُ إخفائها على وجوهٍ:

منها: أن لا يعلمَ بِكَ مَنْ تَصَدَّقْتَ عليه، وتتلطَّف في إيصال ذلك إليه بأيِّ وجهٍ كان.

ومنها: أن تُعلِّمَهُ كيف يأخُذُ، وأنَّه يأخذُ مِنَ الله لا منك، حتى لا يرى لك فضلاً عليه بما أعطيتَهُ، فلا يظهر عليه بين يديك أثرُ ذِلَّةٍ أو مسكنةٍ، ويحصل له علمٌ جليلٌ بِمَنْ أعطاه، فتغيبُ أنت عن عينِهِ حين تُعطيه، فإنَّكَ قد قرَّرتَ عنده أنَّه ما يأخذُ سوى ما هو له، فهذا مِن إخفاء الصَّدقةِ.

ومنها: أن تُخفِيَ كونَها صدقةً، فلا يعلمُ المتصدَّقُ عليه أنَّه أخذ صدقةً، ولهذا فَرَضَ الله العاملَ في الصدقةِ؛ حتى لا يَذِلَّ المتصدَّقُ عليه بين يدي المتصدِّق، فإذا أَخَذَها العاملُ أَخَذَها بعزَّةٍ وقهرٍ منك، فإذا حصلت بيد السُّلطان الذي هو الوكيلُ مِنْ قِبَلِ الله أعطاها لأربابِ الثمانية، فأخذوها بعزَّةِ نفسٍ لا بذلَّةٍ؛ فإنَّه حقٌّ لهم بيدِ هذا الوكيل، فلم يَعْلَمِ الآخِذُ مَنْ هو ربُّ ذلك المال، فكان هذا أيضاً مِنْ إخفاء الصدقةِ؛ لأنَّه لم يَعْلَمِ المتصدَّقُ عينَ مَنْ تَصَدَّقَ عليه، ولا عَلِمَ المتصدَّقُ عليه مَنْ تَصَدَّقَ عليه، وليس في الإخفاءِ أخفى مِن هذا، فلم تعلم شمالُهُ ما أنفقته يمينُهُ)[٣].

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣).

(٢) ينظر: (الفتوحات المكية) (٣/ ٣٤٤).

(٣) ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٤/ ١١٢، ١١٣).

وإن أظهرها ترغيباً للناس في الاقتداءِ به، فينبغي أن يَحرِسَ سِرَّهُ مِنْ داعية الرياء، فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢]، وعليه أن يحترسَ مِنْ فسادِ صدقتِهِ بالمنِّ والأذى، قال الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

واختلفوا في حقيقة المَنِّ والأذى:

فقيل: المَنُّ: أن يذكرَها، والأذى: أن يُظهِرَها.

وقال سفيان: مَنْ مَنَّ فَسَدَتْ صدقتُهُ، فقيل له: كيف المَنُّ؟ فقال: أن يذكرَهُ ويتحدَّثَ به.

وقيل: المَنُّ: أن يتكبَّرَ عليه لأجلِ عطائه، والأذى: أن يَنْتَهِرَهُ أو يُوبِّخَهُ بالمسألة(١).

وأصلُ المَنِّ: أن يرى نفسَهُ مُحسِناً إليه ومُنعِماً عليه، وحقُّه: أن يرى الفقيرَ مُحسِناً إليه بقبولِ حقِّ الله عزَّ وجلَّ منه الذي هو طُهْرَتُهُ ونجاتُهُ مِنَ النَّارِ؛ فإنَّه لو لم يَقْبَلْهُ لَبَقِيَ مُرتهناً به، فحقُّهُ أن يتقلَّدَ مِنَّةً مِنَ الفقير؛ إذ جَعَلَ كَفَّهُ نائباً عن الله عزَّ وجلَّ في قبضِ حقِّه، قال ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ بِيَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ»(٢)، فليتحقَّقْ أنَّه مُسلِّمٌ إلى الله عزَّ وجلَّ حقَّهُ، والفقيرُ آخِذٌ مِنَ الله تعالى رِزقَهُ.

وكان بعضُهم يضعُ الصَّدقةَ بين يدي الفقيرِ ويتمثَّلُ قائماً بين يديه يسألُهُ قبولَها، حتى يكونَ هو في صورة السائلين.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٠٥).

وكان بعضُهم يبسطُ كفَّهُ ليأخذَ الفقيرُ مِنْ كفِّه؛ لتكونَ يدُ الفقيرِ هي العليا[١].

ومِنْ آدابِ المتصدِّقِ: أن يستصغرَ العطيّة، لأنّه إن استعظمَها أعجب بها، والعجبُ محبطٌ للأعمال.

ومنها: أن ينتقيَ مِنْ مالِهِ أجودهُ وأطيبهُ.

ومنها: أن يطلبَ لصدقتِهِ مَنْ تزكو به الصّدقةُ، وذلك بأن يعطي الأتقياء المعرضِينَ عن الدُّنيا مِنْ أهلِ العلمِ، المُعيلِينَ الذين لا يَبثُّون الشّكوى، خصوصاً إن كانوا مِنَ الأقاربِ أو ذوي الأرحامِ.

وينبغي للآخِذِ أن يكونَ صادقاً في تقواهُ وعلمِهِ بالتوحيد، وتوحيدُهُ أنّه إذا أَخَذَ العطاءَ حَمِدَ الله تعالى وشَكَرَهُ، ورأى النِّعمةَ كلَّها منه، ولم ينظر إلى الواسطةِ، فهذا هو أشكرُ العباد لله، وهو أن يرى أنَّ النِّعمةَ كلَّها منه، ومَنْ شَكَرَ غيرَ الله فكأنَّه لم يعرفِ المُنعِمَ.

ولمّا نَزَلَتْ براءةُ عائشةَ رضي الله عنها في قصّةِ الإفكِ قال أبو بكر ﵁: قُومي فَقَبّلي رأسَ رسولِ الله ﷺ، فقالت: والله لا أفعلُ ولا أحمدُ إلا الله، فقال ﷺ: دَعْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ، وفي لفظٍ آخرَ: أَنَّها رضي الله عنها قالت لأبي بكرٍ ﵁: بحمدِ الله، لا بحمدِكَ ولا بحمدِ صاحبِكَ، فلم يُنْكِرْ رسولُ الله ﷺ ذلك، مع أنَّ الوحيَ وَصَلَ إليها على لسانِ رسول الله ﷺ[٢].

ورؤيةُ الأشياءِ مِنْ غير الله سبحانه وصفُ الكافرين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠٩).

(٢) خبر السيدة عائشة رضي الله عنها رواه أبو داود (٥٢١٩)، والقصة بطولها عند البخاري (٢٦٦١)، والرواية الثانية عند الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٢٣).

ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وينبغي أن يشكرَ المعطِيَ ويدعوَ له ويُثنيَ عليه، ويكونُ شكرُهُ ودعاؤُهُ بحيثُ لا يُخرِجُهُ عن كونِهِ واسطةً، ولكنَّه طريقُ وصولِ نعمةِ الله سبحانه إليه، وللطريقِ حقٌّ مِنْ حيثُ جَعَلَهُ الله، وذلك لا ينافي رؤيةَ النِّعمةَ مِنَ الله سبحانه، فقد قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ»[١]؛ فإنَّ مَنْ لا يرى الواسطةَ واسطةً فقد جَهِلَ، وإنَّما المُنكَرُ أن يرى الواسطةَ أصلاً.

وقد أثنى الله تعالى على عبادِهِ في مواضعَ على أعمالِهِم وهو خالقُها وخالقُ القدرةِ عليها، نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، إلى غيرِ ذلك.

وليقل القابضُ في دعائه: (طَهَّرَ الله قلبَكَ في قلوبِ الأبرار، وزكَّى عَمَلَكَ في عملِ الأخيار، وصَلَّى على روحِكَ في أرواحِ الشهداء)[٢].

وقال النبي ﷺ: «ما المُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَفضلَ أَجْراً مِنَ الذي يَقْبَلُ مِنْ حاجةٍ»[٣].

ولعلَّ المرادَ به: الذي يقصدُ مِنْ دفعِ حاجتِهِ التفرُّغَ للدِّين، فيكونُ مساوياً للمعطي الذي يقصدُ بإعطائِهِ عمارةَ دِينِهِ.

وقال عبدُ العزيز بن عمير: (الصَّلاةُ تُبلِّغُكَ نصفَ الطَّريق، والصَّومُ يُبلِّغُكَ بابَ الملكِ، والصَّدقةُ تُدخِلُكَ عليه)[٤].

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١١).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٠٩).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٨٢٣١).

(٤) ينظر: (تاريخ دمشق) (٣٦/ ٣٣٣).

(ش: قال الإمام الشعراني ـ قدس سره ـ: اعلم ـ يا أخي ـ أنَّه كلَّما كثُر إطعامُكَ للناس كلَّما كثُرَتْ النِّعمةُ عليك؛ فإنَّ الله تعالى يسوقُ لكلِّ عبدٍ مِنَ الرزقِ بقدرِ ما يعلمُ في قلبِهِ مِنَ السخاءِ والكرم)(١).

(م: وقال الأميرُ عبد القادر الجزئري ﷺ: المتصدِّقونَ طوائف:

طائفةٌ تُعطي المتصدَّقَ عليه رحمةً به مع رجاءِ ما وَعَدَ الله به المتصدِّقين، وهؤلاء يُفرِّقون في صدقاتهم بين المؤمنِ والكافرِ والمطيعِ والعاصي، نَظَرُهُم إلى ما وَرَدَ مِنَ الأمر باختيار الإنسانِ لصدقتِهِ.

وطائفةٌ أعلى منها، تُعطي المتصدَّقَ عليه لبقاءِ صورتِهِ مُسبِّحةً لله تعالى ذاكرةً له، وهؤلاء لا يُفرِّقون بين مؤمنٍ وكافرٍ، ولا بين حيوانٍ ناطقٍ وصامتٍ، بل ولا بين حيوانٍ ونباتٍ، نَظَرُهُم إلى أنَّ كلَّ صورةٍ كانت ما كانت مُسبِّحةٌ لله تعالى ما دامت باقيةً.

وطائفةٌ وهي أعلى الجميع ـ وقليلٌ ما هم ـ تُعطي المتصدَّقَ عليه لبقاءِ ظهورِ آثارِ الأسماءِ الإلهيةِ؛ فإنَّه لا ظهورَ لها إلا بالصُّوَرِ، وكلُّ اسمٍ انهدَّ مَنارُهُ خَبَتْ آثارُهُ)(٢).

*

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢٨٢).

(٢) ينظر: (المواقف للأمير عبد القادر الجزائري) (٢/ ٤٠٢).

الكتاب السادس من ربع العبادات
في أسرار الصوم

ورد في الأثر: (تخلَّقُوا بأخلاقِ الرَّحمن).

(أَصُوْمُ عَنِ الأغيارِ قَطْعاً وَذِكْرُكُمْ لِصَوْمي سَحُورٌ في الهوى وفَطُورُ)

اعلم أنَّ الصَّومَ بابُ العبادات؛ لقوله ﷺ: «لِكُلِّ شَيْءٍ بَابٌ، وَبَابُ العِبَادَةِ الصَّوْمُ»[1].

وقال وكيعٌ رحمه الله في قولِهِ تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، هي أيامُ الصِّيام؛ إذ تركوا فيها الأكلَ والشُّربَ.

واعلم أنَّ الصومَ ثلاثُ مراتبَ: صومُ العموم، وصومُ الخصوص، وصومُ خصوصِ الخصوص.

فأما صومُ العمومِ: فهو كَفُّ البطنِ والفرجِ عن قضاء الشهوةِ.

وأما صومُ الخصوص: فهو كَفُّ السَّمعِ والبصرِ واللِّسانِ وسائرِ الجوارحِ عن الآثام.

وأما صومُ خصوصِ الخصوصِ: فصومُ القلبِ عن الهِمَمِ الدَّنيّةِ والأفكارِ الدُّنيويّة، وكفُّهُ عمّا سوى الله بالكُلِّيَّة.

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٤٢٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٣٢).

(ش: فالصَّومُ عند الأكابر: صومُ الخاطر مِنْ شهودِ سوى القاهر، ونظمتُهُ بقولي غفر الله لي:

وَصُمْ بِسِـرِّكَ عَنْ غَيْـرِ الإلهِ تَفُزْ يَا سَـعْدَ مَنْ فَارَقَ الأَكْـوَانَ لِلأَحَدِ

ويُؤَيِّدُهُ قولُ الشيخِ عبدِ الكريمِ الجيليِّ رضي الله عنه في عينيَّتِهِ:

صِيامي هُوَ الإِمساكُ عَن رُؤيَةِ السِّوى وَفِطـرِيَ أَنِّي نَحوَ وَجْهِـكَ راجِعُ

وقولُ الشيخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ رضي الله عنه: العارفُ صائمُ الدَّهرِ، لا يرى سوى محبوبِهِ، ومتى غابَ عنه فقد أفطر).

ويحصلُ الفطرُ في هذا الصَّومِ بالفكرِ فيما سوى الله واليومِ الآخرِ، وبالفكرِ في الدنيا إلا دنيا تُرادُ للدِّين؛ فإنَّ ذلك زادُ الآخرةِ وليس مِنَ الدنيا، حتى قال أربابُ القلوب: (مَنْ تحرَّكَتْ هِمَّتُهُ بالتَّصرُّفِ في نهارِهِ لتدبيرِ ما يُفطِرُ عليه كُتِبَتْ عليه خطيئةٌ)[١]؛ فإنَّ ذلك مِنْ قلَّة الوُثُوقِ بفضلِ الله تعالى، وقلَّةِ اليقينِ برزقِهِ الموعود.

وهذه رتبةُ الأنبياء والصِّدِّيقين والمقرَّبين، ولا نُطَوِّلُ النَّظرَ في تفصيلِها قولاً، ولكنْ في تحقيقِها عملاً؛ فإنَّه إقبالٌ بكنهِ الهِمّةِ على الله تعالى، وانصرافٌ عن غير الله سبحانه، وتَلَبُّسٌ بمعنى قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وأما صومُ الخصوصِ ـ وهو صومُ الصالحين ـ فهو كفُّ الجوارحِ عن الآثام، وتمامُهُ بستَّةِ أمور:

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١١٤).

الأول: غضُّ البصرِ وكفُّهُ عن الاتِّساعِ في النظرِ إلى كلِّ ما يذمُّ ويكرَهُ، وإلى كلِّ ما يشغلُ القلبَ ويلهي عن ذكرِ الله عزَّ وجلَّ.

قال ﷺ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ فَمَنْ تَرَكَها خَوْفاً مِنَ اللهِ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيمَاناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»[1].

الثاني: حفظُ اللِّسانِ عن الهَذَيانِ والكذبِ والغيبةِ والنَّميمةِ والفُحْشِ والجفاءِ والخصومةِ والمِراءِ، وإلزامُهُ السُّكوتَ، وشُغْلُهُ بذكرِ الله سبحانه وتلاوةِ القرآنِ، فهذا صومُ اللِّسان.

وقال ﷺ: «إِنَّما الصَّوْمُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ»[2].

الثالث: كفُّ السَّمعِ عن الإصغاءِ إلى كلِّ مكروهٍ؛ لأنَّ كلَّ ما حَرُمَ قولُهُ حَرُمَ الإصغاءُ إليه، ولذلك سوَّى الله تعالى بين المُستمِعِ وآكلِ السُّحْتِ، فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

فالسكوتُ على الغيبة حرامٌ، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، أي: في الإثمِ.

الرابع: كفُّ بقيَّةِ الجوارحِ عن الآثامِ مِنَ اليدِ والرِّجلِ وعن المكارِهِ، وكفُّ البطنِ عن الشُّبُهات وقتَ الإفطار، فلا معنى للصَّومِ وهو الكفُّ عن الطَّعامِ الحلال ثم الإفطارُ على الحرام، فمثالُ هذا الصائمِ مثالُ مَنْ يبني قصراً ويهدِمُ مصراً؛ فإنَّ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٣).
(٢) رواه ابن أبي شيبة (٨٩٨٠).

الطَّعامَ الحلالَ إنَّما يضرُّ بكثرتِهِ لا بنوعِهِ، فالصَّومُ لتقليلِهِ، وتاركُ الاستكثارِ مِنَ الدواءِ خوفاً مِنْ ضررِهِ إذا عَدَلَ إلى تناولِ السُّمِّ كان سفيهاً، والحرامُ سُمٌّ مُهلِكٌ للدِّين، والحلالُ دواءٌ ينفعُ قليلُهُ ويضرُّ كثيرُهُ، وقصدُ الصَّومِ تقليلُهُ.

وقد قال ﷺ: «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إلاَّ الجُوعُ وَالعَطَشُ»[1]، فقيل: هو الذي يُفطِرُ على الحرام، وقيل: هو الذي يُمسِكُ عن الطعامِ الحلالِ ويفطرُ على لُحُومِ الناسِ بالغيبة وهي حرامٌ، وقيل: هو الذي لا يحفظُ جوارحَهُ عن الآثام[2].

الخامس: أن لا يستكثرَ مِنَ الطَّعامِ الحلالِ وقت الإفطارِ بحيثُ يمتلىء جوفُهُ، فما مِنْ وعاءٍ أبغضُ إلى الله عزَّ وجلَّ مِنْ بطنٍ مَلِيءٍ مِنْ حلالٍ.

وكيف يُستفادُ مِنَ الصَّومِ قهرُ عدوِّ الله وكسرُ الشَّهوةِ إذا تدارَكَ الصائمُ عندَ فطرِهِ ما فاتَهُ ضحوةَ نهارِهِ؟ وربَّما يزيدُ عليه في ألوانِ الطعام، حتى استمرَّتِ العاداتُ بأن تُدَّخَرَ جميعُ الأطعمةِ لرمضانَ، فيُؤكَلُ مِنَ الأطعمةِ فيه ما لا يؤكَلُ في عدَّةِ أشهرٍ، ومعلومٌ أنَّ مقصودَ الصَّومِ الخواءُ وكسرُ الهوى؛ لِتَقْوَى النَّفسُ على التقوى، وتصفوَ الأخلاقُ ويتنوَّرَ الباطنُ.

فروحُ الصومِ وسِرُّهُ تضعيفُ القوى التي هي وسائلُ الشيطانِ في القودِ إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل.

(ش): قال الإمام الشعراني ـ قدس سره: اعلم أنَّ فائدةَ الصومِ لا تحصلُ إلا بالجوعِ الزائدِ على الجوعِ الواقعِ عادةً في غيرِ رمضان، فَمَنْ لم يزد في الجوعِ

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٧٣)، وبنحوه ابن ماجه (١٦٩٠).
(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١١٤).

في رمضان فحكمُهُ كحكمِ المفطرِ سواءٌ في عدمِ سدِّ مجاري الشيطان، لا سيَّما إن تنوَّعَ في المآكلِ والمشاربِ وأنواعِ الفواكهِ، وتعشَّى عشاءً زائداً عن الحاجة، ثم تعتَّمَ بالكنافةِ أو الحلاوةِ أو الجبنِ المقلي، ثم تسحَّرَ آخرَ الليلِ كذلك، فإنَّ مثلَ هذا ينفتحُ مِنْ بدنِهِ للشيطان مواضعُ زائدةٌ عن أيام الإفطار، فتكثر مجاري الشيطان التي يدخلُ منها إلى هلاكِهِ في مثل هذا الشهر العظيم[1].

ثم قال: وسمعتُ سيدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول: ينبغي للمتسحِّرِ أن لا يزيدَ على ثلاث لقمٍ أو ثلاثِ تمرات؛ فإنَّ السِّرَّ في التقويةِ على الصومِ بالسَّحورِ حاصلٌ بالأكلِ القليلِ، فليس في الكثير فائدةٌ، ومَنْ شَبِعَ قلَّ مَدَدُهُ[2]).

السادس: أن يكونَ قلبُهُ بعدَ الإفطارِ مُعلَّقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء؛ إذ ليس يدري أيُقبَلُ صومُهُ فهو مِنَ المقرَّبين، أو يُرَدُّ عليه فهو مِنَ الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كلِّ عبادةٍ يفرغُ منها.

واعلم أنَّ فقهاءَ الظاهرِ يُثبتون شروطَ الظاهرِ بأدلَّةٍ هي أضعفُ مِنْ هذه الأدلةِ التي أوردناها في هذه الشروطِ الباطنةِ، لا سيَّما الغيبةُ وأمثالُها، ولكنْ ليس إلى فقهاءِ الظاهرِ مِنَ التكليفات إلا ما يتيسَّرُ على عمومِ الغافلين المُقبلين على الدُّنيا الدُّخولُ تحتَهُ.

فأمَّا علماءُ الآخرةِ فَيَعْنُونَ بالصِّحّةِ القبولَ، وبالقبولِ الوصولَ إلى المقصود، ويفهمون أنَّ المقصودَ مِنَ الصَّومِ التَّخلُّقُ بِخُلُقٍ مِنْ أخلاقِ الله عزَّ وجلَّ وهو الصَّمديّة، (ز: أي: التَّحلِّي بمعنًى مِنْ معاني أسمائه تعالى، فيه كمالُ العبدِ).

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢٩٥).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٣٢٤. ٣٤١).

(م: قال الإمامُ الشَّعرانيُّ رحمه الله: الصَّومُ وصفٌ مِنْ أوصافِ الرُّبوبيّة، لا يَتَّصِفُ به على الكمالِ إلا الله الذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، كما قال في الحديث القدسيّ: «الصَّومُ لي، وأنا أَجْزِي به»[١]، فأضافَهُ إلى نفسه، أي: لا يتَّصفُ به أحدٌ إلا الله؛ لأنَّه الغنيُّ عن الأكلِ أبدَ الآبدين ودهرَ الداهرين، والمنزَّهُ عن جميعِ الأغراضِ والشهواتِ أزلاً وأبداً.

فَفَرَضَ الله الصَّومَ على عبادِهِ كسراً للشهوات، وقطعاً لأسبابِ الاسترقاقِ والتَّعَبُّدِ للأشياء، والصَّومُ يقطعُ أسبابَ التَّعبُّدِ لغير الله، ويُورِثُ الحُرِّيَّةَ مِنَ الرِّقِّ للشَّهواتِ والمشتهيات؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الإنسانِ أن يكونَ مالكاً للأشياءِ وخليفةً فيها، لا أن تكونَ مالكةً له؛ لأنَّه خليفةُ الله في ملكِهِ)[٢].

وإذا كان هذا سِرَّ الصَّومِ عند أربابِ الألبابِ وأصحابِ القلوبِ فأيُّ جدوى لتأخيرِ أكلةٍ وجمعِ أكلتَينِ عند العشاءِ مع الانهماكِ في الشهوات الأُخَرِ طولَ النهار؟

ولو كان لمثلِهِ جدوى فأيُّ معنًى لقولِهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إلاَّ الجُوعُ وَالعَطَشُ»[٣]، سيَّما وقد قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥٤).

(٢) ينظر: (الفتح المبين في جملة من أسرار الدين) (٤٧).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٧٣).

(٤) رواه البخاري (١٩٠٣).

(ش: قال البيضاوي رحمه الله تعالى: ليس المقصودُ مِنْ شرعيَّةِ الصَّومِ نفسَ الجوعِ والعطشِ، بل ما يَتْبَعُهُ مِنْ كسرِ الشَّهوات، وتطويعِ النفسِ الأمّارةِ للنَّفسِ المطمئنة، فإذا لم يحصل ذلك لا ينظر الله إليه نظرَ القبول)[١].

وقال ﷺ: «إِنَّ الصَّوْمَ أَمَانَةٌ، فَلْيَحْفَظْ أَحَدُكُمْ أَمَانَتَهُ»[٢].

ولمّا تلا رسولُ الله ﷺ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وَضَعَ يدَهُ على سمعِهِ وبصرِهِ فقال: «السَّمْعُ أمانةٌ، والبَصَرُ أمانةٌ»[٣]، فلا يستعملُها فيما نهى الله عنه، ولولا أنَّه مِنْ أماناتِ الصَّومِ لَما قال: «فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ»[٤]، أي: إنِّي أودعتُ لِساني لأحفظَهُ، فكيفَ أُطلِقُهُ بجوابِكَ؟

فإذاً قد ظَهَرَ أنَّ لكلِّ عبادةٍ ظاهراً وباطناً، وقشراً ولُبّاً، ولقشرِها درجاتٍ، ولكلِّ درجةٍ طبقاتٍ، فإليك الخيرةُ الآنَ في أن تقنعَ بالقشرِ عن اللُّباب، أو تتحيَّزَ إلى غمارِ أربابِ الألباب.

---

(١) ينظر: (فتح الباري) (٥/ ١٠٣).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٩).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٧٥).

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٨٩٨٠).

الكتاب السابع من ربع العبادات
في أسرار الحج

(الحُجّاجُ والعُمّارُ وَفْدُ الله، إِنْ دَعَوْهُ أَجابَهُمْ، وإن استغفروه غَفَرَ لَهُمْ)[1].

(ش: الحجُ عندَ أهلِ الحقيقة: حَجُّ القُلُوب نحوَ علاّمِ الغُيُوب، لذا قال الشيخُ عبدُ الكريمِ الجيليُّ رحمه الله في عينيَّتِهِ:

أَيـا كَعبَةَ الآمـالِ وَجْهُكَ حَجَّتي ... وَعُمـرَةُ نُسْكِي أَنَّنـي فيـكَ والِعُ
وَتَجْرِيدُ نَفْسِي عَنْ مَخِيطِ صِفاتِها ... بِوَصفِـكَ إِحرامي عَـنِ الغَيرِ قاطِعُ
وَتَلبِيَتـي أَنّـي أُذَلِّـلُ مُهجَتـي ... لِما مِنكَ في ذاتي مِنَ الحُسـنِ لامِعُ
وَكانَت صِفاتٌ مِنكَ تَدعو إِلى العُلا ... لِذاتـي فَلَبَّت فَاسْـتَبانَتْ شَواسِـعُ
وَتَركي لِطيبـي وَالنِـكاحِ فَإِنَّ ذا ... صِفاتـي وَذا ذاتـي فَهُـنَّ مَوانِـعُ
وَإِعفاءُ حَلقِ الرَّأسِ تَركُ رِياسَـةٍ ... فَشَـرطُ الهَـوى أَنَّ المُتَيَّـمَ خاضِعُ
إِذا تَـرَكَ الحُجّاجُ تَقليـمَ ظُفرِهِمْ ... تَرَكـتُ مِنَ الأَفعـالِ ما أَنـا صانِعُ
وَكُنـتُ كَآلاتٍ وأَنـتَ الَّذي بِها ... تُصَـرِّفُ بِالتَقديـرِ مـا هُـوَ واقِـعُ
وَمـا أَنـا جَبـرِيُّ العَقيـدَةِ إِنَّني ... مُحِـبٌّ فَنى فيمَـن خَبَتـهُ الأَضالِعُ
فَها أَنا فـي تَطوافِ كَعبَةِ حُسـنِهِ ... أَدورُ وَمَعنـى الـدَورِ أَنّـيَ راجِـعُ
وَمُذ عَلِمَتْ نَفسي صِفاتِكَ سَبعَةً ... فَأَعـدادُ تَطوافـي حمـاكَ سَـوابِعُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٢).

أُقَبِّلُ خالَ الحُسنِ في الحَجَرِ الَّذي ... لَنا مِـن قديـم العَهـدِ فيـهِ وَدائِعُ
وَمَعنـاهُ أَنَّ النَفـسَ فيهـا لَطيفَةٌ ... بِها تُقبَلُ الأَوصافُ وَالذاتُ شـائِعُ
وَأَستَلِمُ الرُكـنَ اليَمانِـيَّ إِنَّـهُ ... بِهِ نَفَـسُ الرَّحمَنِ وَالنَفـسُ جامِعُ
وَأَختِـمُ تطـوافَ الغَـرامِ بِرَكعَةٍ ... مِـنَ المَحوِ عَمّـا أَحدَثَتـهُ الطَبائِعُ
تُرى هَل لِموسى القَلبِ مِن زَمزَمِ اللِّقا ... مَراضِـعُ لا حُرِّمنَ تِلـكَ المَراضِعُ
فَتَذهَبُ نَفسي في صَفاءِ صِفاتِكُم ... لِتَسـعى بِمَروَ الذاتِ وَهيَ تُسـارِعُ
فَلَيسَ الصَّفـا إِلّا صَفايَ وَمَروَتي ... بِأَني عَلـى تَحقيـقِ حَقِّيَ صـادِعُ
وَما القَصرُ إِلّا عَنْ سِواكُمْ حَقيقَةً ... وَلا الحَلـقُ إِلّا تَـركُ ما هُـو قاطِعُ
وَلا عَرَفاتُ الوَصـلِ إِلّا جَنابُكُم ... فَطوبى لِمَن في حَضرَةِ القُربِ راتِعُ
بِمُزدَلِفـاتٍ في طَريـقِ غَرامِكُم ... عَوائِـقُ مِـن دونِ اللِّقـا وَقَواطِـعُ
فَإِن حَصَلَ الإِشعارُ في مَشعَرِ الهَوى ... وَسـاعَدَ جَذبُ العَـزمِ فَالفَوزُ واقِعُ
عَلى مَشعَرِ التَّحقيقِ عَظَّمتُ في الهَوى ... شَـعائِرَ حُكـمٍ أَصَّلَتهـا الشَـرائِعُ
وَكَم مِن مُنىً لي في مِنى حَضَراتِكُم ... وَيا حَسَـراتي وَالمُحَسِّـرِ شاسِـعُ
رَمَيتُ جِمارَ النَفسِ بِالروحِ فَانتَشَت ... جُهَنَّمُهـا مـاءً وَصاحَـت ضَفادِعُ
وَأُبـدِلَ رُضـوانٌ بِمالِكٍ وَانتَشـا ... بِها شَـجَرُ الجَرجيـرِ وَالغُصنُ يانِعُ
فَفاضَت عَلى نَفسي يَنابيعُ وَصفِها ... وَناهيكَ صِرفُ الحَـقِّ تِلكَ اليَنابِعُ
فَطُفتُ طَوافـاً لِلإِفاضَةِ بِالحِمى ... وَقُمـتُ مَقامـاً لِلخَليـلِ أُبايِـعُ
فَمُكِّنتُ مِن مُلـكِ الغَرامِ وَها أَنا ... مَليـكٌ وَسَـيفي بِالصبابَـةِ قاطِـعُ
وَحَقَّقتُ عِلمـاً وَاقتِدارَ جَميعِ ما ... تَضَمَّنَـهُ مُلكـي وَمـا لـي مُنـازِعُ
فَلَمّا قَضَينا النُّسْكَ مِن حَجَّةِ الهَوى ... وَتَمَّـتْ لَنا مِـن حَيِّ لَيلـى مَطامِعُ
شَـدَدنا مَطايا العَزمِ نَحـوَ مُحَمَّدٍ ... وَطُفنـا وَداعـاً وَالدُّمـوعُ هَوامِعُ)

اعلم أنَّ الحجَّ مِنْ بين أركانِ الإسلامِ ومبانيه عبادةُ العمرِ، وختامُ الأمرِ، وتمامُ الإسلامِ، وكمالُ الدِّين؛ فيه أنزلَ الله عزَّ وجلَّ قولَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفيه قال ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيّاً»(١).

فأَعْظِمْ بعبادةٍ يعدمُ الدِّينُ بفقدِها الكمالَ، ويساوي تاركُها اليهودَ والنَّصارى في الضلال.

* *

(١) رواه الترمذي (٨١٢).

فصل في فضائل الحج
وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

روي أنَّ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ لمّا فَرَغَ مِنْ بناء الكعبةِ أتاه جبريلُ ـ عليه السلام ـ وقال له: أَذِّنْ في النَّاس، فقال عليه السلام: كيف أُنادي وأنا بين الجبالِ وليس بحضرتي أحدٌ؟ فقال الله تعالى: عليكَ النِّداءُ وعليَّ البلاغ، فَصَعَدَ جبلَ أبي قُبيس، وصَعَدَ الجبلَ الذي هو مقامُهُ، فارتفعَ الحجرُ حتَّى علا كلَّ حجرٍ في الدنيا، وجَمَعَ اللهُ تعالى له الأرضَ كالسُّفرة، فنادى فقال: يا معشرَ المسلمين، إنَّ ربَّكم بنى لكم بيتاً وأَمَرَكُمْ أن تحجُّوا فَحُجُّوا.

وقال بعض السلف: (إذا وافقَ يومُ عرفةَ يومَ جمعةٍ غُفِرَ لكلِّ أهلِ عرفة)[1]، وهو أفضلُ يومٍ في الدُّنيا، فيه حَجَّ رسولُ الله ﷺ حجّةَ الوداع، وكان واقفاً إذ نَزَلَ عليه قولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقال أهلُ الكتابِ: لو أُنزِلَتْ هذه الآيةُ علينا لَجَعْلناهُ يومَ عيدٍ، فقال عمرُ رضي الله عنه: أشهدُ لقد أُنزِلَتْ في يومِ عيدَينِ اثنين: يوم عرفةَ ويوم جمعةٍ على رسول الله ﷺ وهو واقفٌ بعرفةَ[2].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤٥).

وقال ﷺ: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْحَاجِّ وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُ الحَاجُّ»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ حَجَّ البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٢).

وقال ﷺ: «الحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةَ، فقيل له: يا رسولَ الله ﷺ ما برُّ الحجِّ؟ فقال: طِيبُ الكَلامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ»(٣).

وقال ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَسْجِدِي هذَا وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى»(٤).

وقال ﷺ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيما سِوَاهُ إِلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ»(٥).

وكذلك كلُّ عملٍ بالمدينة بألفٍ، وبعدَ المدينةِ الأرضُ المقدَّسة؛ فإنَّ الصلاةَ فيها بخمسِ مئةِ صلاةٍ فيما سواها إلا المسجد الحرام، وكذلك سائرُ الأعمال.

وقد جاء في فضلِ زيارتِهِ ﷺ قولُهُ: «مَنْ زارَنِي بعدَ وَفَاتي، فَكَأَنَّما زارَني في حَياتي»(٦)، وقولُهُ ﷺ: «مَنْ جاءَني زائرًا لا يَهُمُّهُ إلاّ زيارتي كان حَقّاً على الله أَنْ أَكُونَ لَهُ شفيعاً»(٧).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٥٨٩) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٤١).

(٢) رواه البخاري (١٥٢١).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٢٥).

(٤) رواه البخاري (١١٨٩).

(٥) رواه البخاري (١١٩٠).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط (٢٨٩، ٣٤٠٠)، والدارقطني في سننه (٢/ ٢٧٨).

(٧) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٩١).

بيان الأعمال الباطنة، ووجه الإخلاص في النية، وطريقُ الاعتبارِ بالمشاهد الشريفة وكيفيّةُ الافتكارِ فيها والتَّذكُّرِ لأسرارِها ومعانيها مِنْ أوّلِ الحجِّ إلى آخره

اعلم أنَّ أوّلَ الحجِّ الفهمُ، أعني: فهمَ موقعِ الحجِّ في الدِّين، ثم الشوقُ إليه، ثم العزمُ عليه، ثم قطعُ العلائقِ المانعةِ منه، ثم شراءُ ثوبي الإحرامِ، ثم شراءُ الزاد، ثم اكتراءُ الراحلةِ، ثم الخروجُ، ثم المسيرُ في البادية، ثم الإحرامُ مِنَ الميقاتِ بالتلبية، ثم دخولُ مكةَ، ثم استتمامُ الأفعال.

وفي كلِّ واحدٍ مِنْ هذه الأمورِ تذكرةٌ للمتذكِّر، وعبرةٌ للمعتبر، وتنبيهٌ للمريد الصادق، وتعريفٌ وإشارةٌ للفَطِنِ، فلنَرْمِزْ إلى مفاتِحِها، حتى إذا انفتحَ بابُها وعُرِفَتْ أسبابُها انكشفَ لكلِّ حاجٍّ مِنْ أسرارِها ما يقتضيه صفاءُ قلبِهِ وطهارةُ باطنِهِ وغزارةُ فهمِهِ.

أما الفهمُ: فاعلم أنَّه لا وصولَ إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتَّنزُّهِ عن الشهوات والكفِّ عن اللَّذّات، والاقتصارِ على الضَّرورات فيها، والتَّجرُّدِ لله سبحانه في جميع الحركاتِ والسَّكَنات، ولأجلِ هذا انفرد الرَّهبانيّونَ في المللِ السَّالفةِ عن الخَلْقِ، وانحازوا إلى قُلَلِ الجبالِ، وآثروا التَّوَحُّشَ عن الخلقِ؛ لطلبِ الأُنْسِ بالله عزَّ وجلَّ، فتركوا لله عزَّ وجلَّ اللَّذّاتِ الحاضرة، وألزموا أنفسَهم المجاهداتِ الشاقَّة؛ طمعاً في الآخرة، وأثنى الله عزَّ وجلَّ عليهم

في كتابه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فلمّا اندرَسَ ذلك، وأقبلَ الخَلْقُ على اتِّباع الشَّهواتِ، وهَجَروا التَّجرُّدَ لعبادةِ الله عزَّ وجلَّ، وفَتَرُوا عنه بَعَثَ الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمدًا ﷺ لإحياءِ طريقِ الآخرة، وتجديدِ سنَّةِ المرسلين في سلوكِها، فسألَهُ أهلُ المِلَلِ عن الرَّهبانيّةِ والسِّياحةِ في دينه فقال: «أَبْدَلَنا اللهُ بِها الجِهَادَ وَالتَّكْبيرَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ»[١]، يعني: الحجَّ.

فأنعمَ الله عزَّ وجلَّ على هذه الأمةِ بأنْ جَعَلَ الحجَّ رهبانيّةً لهم، فَشَرَّفَ البيتَ العتيقَ بالإضافةِ إلى نفسِه تعالى، ونَصَبَهُ مقصداً لعباده، وجَعَلَ ما حواليهِ حَرَماً لبيتِهِ تفخيماً لأمرِهِ، وجَعَلَ عرفاتٍ كالميدانِ على فِناء حرمِهِ، وأكَّدَ حرمةَ الموضعِ بتحريمِ صيدِهِ وشجرِهِ، ووضعَهُ على مثالِ حضرةِ الملوك، يقصدُهُ الزُّوّارُ مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ، ومِنْ كلِّ أوبٍ سحيقٍ[٢]، شُعثاً غُبراً، متواضعين لربِّ البيتِ ومُستكينينَ له، خضوعاً لجلالِهِ واستكانةً لعزَّته، مع الاعترافِ بتنزيههِ عن أن يحويَهُ بيتٌ أو يَكتنِفَهُ بلدٌ، ليكونَ ذلك أبلغَ في رقِّهم وعبوديَّتِهم، وأتمَّ في إذعانِهم وانقيادِهم، ولذلك وظَّفَ عليهم فيها أعمالاً لا تأنسُ بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقولُ؛ كرمي الجمارِ بالأحجارِ، والتردُّدِ بين الصفا والمروةِ على سبيل التَّكرار.

وبمثلِ هذه الأعمالِ يظهرُ كمالُ الرِّقِّ والعبوديّةِ؛ فإنَّ الزكاةَ إرفاقٌ[٣]،

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧).

(٢) أي: جهةٍ بعيدةٍ.

(٣) أي: إنفاقٌ فيه رفقٌ وإشفاقٌ.

ووجهُهُ مفهومٌ، وللعقل إليه ميلٌ، والصومُ كسرٌ للشهوة التي هي آلةُ عدوّ الله، وتفرّغٌ للعبادةِ بالكفّ عن الشواغل، والركوعُ والسّجودُ في الصلاةِ تواضعٌ لله عزَّ وجلَّ بأفعالِ هي هيئةُ التواضعِ، وللنّفوسِ أنسٌ بتعظيمِ الله عزّ وجلّ.

فأما تردّداتُ السعيِ ورمي الجمارِ وأمثال هذه الأعمالِ فلا حظَّ للنّفوسِ فيها، ولا أُنسَ للطبعِ فيها، ولا اهتداءَ للعقلِ إلى معانيها، فلا يكونُ في الإقدامِ عليها باعثٌ إلا الأمرُ المجرَّدُ، وقصدُ الامتثالِ للأمرِ مِنْ حيث إنَّه أمرٌ واجبُ الاتّباعِ فقط، ولذلك قال ﷺ في الحجّ على الخصوص: «لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ حَقّاً تَعَبُّداً وَرِقّاً»(١)، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها.

وإذا اقتضت حكمةُ الله سبحانه وتعالى ربطَ نجاةِ الخلقِ بأن تكونَ أعمالُهم على خلافِ هوى طباعِهم، وأن يكونَ زِمامُها بيدِ الشرعِ، فيتردَّدون في أعمالِهم على سننِ الانقيادِ وعلى مقتضى الاستعباد كان ما لا يُهتدَى إلى معانيه أبلغَ أنواعِ التَّعبُّدات في تزكيةِ النفوسِ، وصرفِها عن مقتضى الطِّباعِ والأخلاقِ إلى مقتضى الاسترقاق، وإذا تفطَّنتَ لهذا فهمتَ أنَّ تعجُّبَ النُّفوسِ مِنْ هذه الأفعالِ العجيبةِ مصدرُهُ الذُّهولُ عن أسرارِ التَّعبُّدات، وهذا القدرُ كافٍ في تفهُّمِ أصلِ الحجِّ إن شاء الله تعالى.

وأما الشوق: فإنَّما ينبعثُ بعدَ الفهمِ والتَّحقُّقِ بأنَّ البيتَ بيتُ الله عزَّ وجلَّ، فقاصدُهُ قاصدٌ إلى الله تعالى وزائرٌ له، وإنَّ مَنْ قَصَدَ البيتَ في الدنيا جديرٌ بأن لا تضيعَ زيارتُهُ، فيُرزَقُ مقصودَ الزيارةِ في ميعادِهِ المضروبِ له، وهو النَّظرُ إلى وجهِ الله الكريمِ في دار القرار، هذا مع أنَّ المحبَّ مشتاقٌ إلى كلِّ ما له

---

(١) رواه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٦٢٤)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٢١٨).

إلى محبوبِهِ إضافةٌ، والبيتُ مضافٌ إلى الله عزّ وجلّ، فبالحريّ أن يشتاق إليه لمجرَّدِ هذه الإضافة، فضلاً عن الطلبِ لنيلِ ما وَعَدَ عليه من الثواب الجزيل.

وأما العزمُ: فليعلم أنَّه بعزمِهِ قاصدٌ إلى مفارقةِ الأهل والوطن، ومهاجرة الشَّهواتِ واللَّذّاتِ، متوجِّهاً إلى زيارةِ بيتِ الله عزّ وجلّ، فليُعظِّم في نفسه قدر البيتِ وقدرَ ربِّ البيت، وليعلم أنَّه عزمَ على أمرٍ رفيعٍ شأنُهُ خطيرٍ أمرُهُ، وليتحقّق أنَّه لا يُقبَلُ مِنْ قصدِهِ وعملِهِ إلا الخالصُ لوجهِ الله، وإخلاصُهُ باجتنابِ كلّ ما فيه رياءٌ وسمعةٌ، فليحذر أن يستبدلَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ.

وأما قطعُ العلائقِ: فمعناه: ردُّ المظالِمِ، والتوبةُ الخالصةُ لله تعالى عن جملة المعاصي، فكلُّ مظلمةٍ علاقةٌ، وكلُّ علاقةٍ مثلُ غريمٍ حاضرٍ متعلّقٍ بتلابيبِهِ[1] ينادي عليه ويقولُ له: إلى أين تتوجَّه؟ أتقصدُ بيتَ مَلِكِ الملوكِ وأنتَ مضيّعٌ أمرَهُ في منزلك هذا، ومستهينٌ به، ومُهمِلٌ له؟

وليتذكَّرْ عندَ قطعِهِ العلائقَ لسفرِ الحجِّ قطعَ العلائقِ لسفرِ الآخرة.

وأما الزاد: فليطلبْهُ مِنْ موضعٍ حلالٍ، وإذا أَحَسَّ مِنْ نفسِهِ الحرصَ على استكثارِهِ، وطلبِ ما يبقى منه على طولِ السفرِ ولا يتغيَّرُ ولا يفسدُ قبلَ بلوغ المقصد، فليتذكَّرْ أنَّ سفرَ الآخرةِ أطولُ مِنْ هذا السفرِ، وأنَّ زادَهُ التَّقوى، وأنَّ ما عداه ممّا يظنُّ أنَّه زادُهُ يتخلَّفُ عنه عندَ الموت ويخونُهُ، فلا يبقى معه.

فليحذرْ أن تكونَ أعمالُهُ التي هي زادُهُ إلى الآخرة لا تصحبُهُ بعد الموت، بل يفسدُها شوائبُ الرِّياءِ وكدوراتُ التَّقصير.

---

(١) أخذ بتلابيبه: أَمْسَكَهُ مِنْ أعلى ثوبِهِ.

وأما الراحلة: إذا أحضرَها فليشكُرِ الله بقلبِهِ على تسخيرِ الله عز وجل له الدَّوابَ لتحمِلَ عنه الأذى، وتخفِّفَ عنه المشقَّةَ، وليتذكَّر عنده المركبَ الذي يركبُهُ إلى الدار الآخرة، وهي الجنازةُ التي يُحمَلُ عليها، وما يدريه لعلَّ الموتَ قريبٌ، ويكون ركوبُهُ للجنازة قبلَ ركوبِهِ للجمل، وركوبُ الجنازةِ مقطوعٌ به، وتيسُّرُ أسبابِ السفرِ مشكوكٌ فيه، فكيف يحتاطُ في أسبابِ السفرِ المشكوكِ فيه ويستظهِرُ في زادِهِ وراحلتِهِ ويهملُ أمرَ السفرِ المستيقَنِ؟

وأما شراءُ ثوبي الإحرامِ: فليتذكَّر عنده الكفنَ ولفَّهُ فيه، فإنَّه سيرتدي ويتَّزِرُ بثوبي الإحرامِ عندَ القربِ مِنْ بيتِ الله عزَّ وجلَّ، وربَّما لا يَتِمُّ سفرُهُ إليه، وأنَّه سَيلقَى الله عزَّ وجلَّ ملفوفاً في ثياب الكفنِ لا محالة، فكما لا يلقى بيتَ الله عزَّ وجلَّ إلا مخالفاً عادتَهُ في الزِّيّ والهيئةِ فلا يلقى الله عزَّ وجلَّ بعدَ الموتِ إلا في زِيٍّ مُخالِفٍ لِزِيّ الدُّنيا.

وأما الخروجُ مِنَ البلد: فليعلم عنده أنَّه فارقَ الأهلَ والوطنَ مُتوجِّهاً إلى الله عزَّ وجلَّ في سفرٍ لا يُضاهي أسفارَ الدُّنيا، فليحضِرْ في قلبِهِ أنَّه مُتوجِّهٌ إلى ملكِ الملوكِ في زمرةِ الزائرين له، الذين نُودوا فأجابوا، وشُوِّقوا فاشتاقوا، واستُنْهِضوا فنهضوا، وقطعوا العلائقَ، وفارقوا الخلائقَ، وأقبلوا على بيتِ الله عزَّ وجلَّ الذي فَخَّمَ أمرَهُ وعظَّمَ شأنَهُ ورفعَ قدرَهُ.

وليُحضِرْ في قلبِهِ رجاءَ الوصولِ والقبولِ، لا إدلالاً بأعمالِهِ في الارتحالِ ومفارقةِ الأهلِ والمال، ولكنْ ثقةً بفضلِ الله عزَّ وجلَّ، ورجاءً لتحقيقِهِ وعدَهُ لِمَنْ زار بيتَهُ، وليرجُ أنَّه إن لم يصل إليه وأدركتْهُ المنيّةُ في الطريقِ لَقِيَ الله عزَّ

وجلَّ وافِداً إليه؛ إذ قال جلَّ جلالُهُ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وأما دخولُ البادِيةِ إلى الميقاتِ، ومشاهدةُ تلك العقبات: فليتذكَّرْ فيها ما بين الخروجِ مِنَ الدُّنيا بالموت إلى ميقاتِ يومِ القيامة، وما بينَهما مِنَ الأهوالِ والمطالباتِ.

وليتذكَّرْ مِنْ هولِ قطّاعِ الطريقِ هولَ سؤالِ مُنكَرٍ ونكيرٍ، ومِنْ سباعِ البوادي عقاربَ القبرِ ودِيدانَهُ وما فيه مِنَ الأفاعي والحيّات، ومِنِ انفرادِهِ عن أهلِهِ وأقاربِهِ وحشةَ القبرِ وكربتَهُ ووحدتَهُ، وليكن في هذه المخاوفِ في أعمالِهِ وأقوالِهِ مُتزوِّداً لمخاوفِ القبرِ.

وأما الإحرامُ والتَّلبيةُ مِنَ الميقات: فليعلم أنَّ معناهُ إجابةُ نداءِ الله عزَّ وجلَّ، فليرجُ أن يكونَ مقبولاً، وليخشَ أن يُقالَ له: لا لبيكَ ولا سعديك، وليكنْ بين الرجاءِ والخوفِ مُتردِّداً، وعن حولِهِ وقوَّتِهِ مُتبرِّئاً، وعلى فضلِ الله عزَّ وجلَّ وكرمِهِ مُتَّكِلاً.

قال سفيانُ بنُ عيينة: حجَّ عليُّ بنُ الحسينِ رضي الله عنهما فلمّا أحرمَ واستوتْ به راحلتُهُ اصفرَّ لونُهُ، وانتفضَ، ووَقَعَتْ عليه الرِّعدةُ، ولم يستطعْ أن يُلبِّيَ، فقيل له: لِمَ لا تُلَبِّي؟ فقال: أخشى أن يُقالَ لي لا لبيكَ ولا سعديك، فلمّا لبّى غُشِيَ عليه ووقعَ عن راحلتِهِ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حَجَّهُ[1].

فليتذكَّرِ المُلبِّي عندَ رفعِ الصَّوتِ بالتلبيةِ في الميقاتِ إجابةً لنداءِ الله عزَّ وجلَّ إذ قالَ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] نداءَ الخلقِ بنفخِ الصُّوْرِ،

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٣٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١/ ٢٧٨).

وحشرَهُم مِنَ القبور، وازدحامَهم في عرصاتِ القيامةِ مجيبينَ لنداءِ الله سبحانه؛ ومنقسمين إلى مقرَّبين وممقوتين، ومقبولين ومردودين، ومتردِّدين في أوَّل الأمرِ بين الخوف والرجاء تردُّدَ الحاجِّ في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسَّرُ لهم إتمامُ الحجِّ وقبولُهُ أم لا؟

وأما دخولُ مكةَ: فليتذكَّرْ عندها أنَّه قد انتهى إلى حرمٍ آمِنٍ، وليرجُ عنده أن يأمَنَ بدخولِهِ مِنْ عقابِ الله عزَّ وجلَّ، وليكنْ رجاؤُهُ في جميعِ الأوقاتِ غالباً، فالكرمُ عميمٌ، والرَّبُّ رحيمٌ، وشرفُ البيتِ عظيمٌ، وحقُّ الزائرِ مرعيٌّ، وذمامُ المستجيرِ اللائذِ غيرُ مُضيَّعٍ.

وأما وقوعُ البصرِ على البيت: فينبغي أن تُحضِرَ عنده عظمةَ البيتِ في القلب، وتُقدِّرَ أنَّكَ مُشاهِدٌ لربِّ البيت لشدَّةِ تعظيمِك إيّاه، وارجُ أن يرزقَكَ الله تعالى النَّظرَ إلى وجهه الكريمِ كما رَزَقَكَ الله النَّظرَ إلى بيتِهِ العظيم، واشكرِ الله تعالى على تبليغِهِ إيَّاكَ هذه الرتبةَ، وإلحاقِهِ إيَّاكَ بزمرةِ الوافدِينَ إليه.

وأما الطوافُ بالبيت: فاعلم أنَّه صلاةٌ، وأحضرْ قلبَكَ فيه مِنَ التَّعظيمِ والخوفِ والرجاءِ والمحبّةِ ما فصَّلناهُ في كتابِ الصلاة.

واعلم أنَّكَ بالطوافِ مُتشبِّهٌ بالملائكةِ المقرَّبين الحافِّينَ حولَ العرشِ الطائفينَ حولَهُ، ولا تظنَّنَّ أنَّ المقصودَ طوافُ جسمِكَ بالبيت، بل المقصودُ طوافُ قلبِكَ بذكرِ ربِّ البيت، حتى لا تبتدىء الذكرَ إلا منه، ولا تختمَ إلا به، كما تبتدىءُ الطَّوافَ مِنَ البيت وتختمُ بالبيت.

واعلم أنَّ الطوافَ الشريفَ هو طوافُ القلبِ بحضرةِ الربوبيّة، وأنَّ البيتَ مثالٌ ظاهرٌ في عالَمِ الملكِ لتلكَ الحضرةِ التي لا تشاهدُ بالبصر وهي عالَمِ

الملكوت، وإلى هذه الموازنةِ وقعتِ الإشارةُ بأنَّ البيتَ المعمورَ في السموات بإزاء الكعبةِ، وأنَّ طوافَ الملائكةِ به كطوافِ الإنسِ بهذا البيت، ولمّا قَصُرَتْ رتبةُ أكثرِ الخلقِ عن مثلِ ذلكَ الطوافِ أُمِروا بالتشبُّهِ بهم بحسبِ الإمكان، ووُعِدُوا بأنَّ مَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم، والذي يقدرُ على مثل ذلك الطوافِ هو الذي يُقالُ: إنَّ الكعبةَ تزورُهُ وتطوفُ به، على ما رآه بعضُ المكاشفين لبعضِ أولياءِ الله سبحانه وتعالى.

وأما الاستلامُ: فاعتقدْ عنده أنَّكَ مُبايعٌ لله عزَّ وجلَّ على طاعتِهِ، فَصَمِّمْ عزيمتَكَ على الوفاءِ ببيعتِكَ، فَمَنْ غَدَرَ في المبايعةِ استحقَّ المقتَ.

وقد روى ابنُ عبّاس رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ الرَّجُلُ أَخَاهُ»[1].

وأما التَّعلُّقُ بأستارِ الكعبةِ والالتصاقُ بالمُلتَزَمِ: فلتكنْ نيَّتُكَ في الالتزامِ طلبَ القُرْبِ حُبّاً وشوقاً للبيت ولربِّ البيت، وتبرُّكاً بالمماسّةِ، ورجاءً للتحصُّنِ عن النارِ في كلِّ جزءٍ مِنْ بدنِكَ.

ولتكنْ نيَّتُكَ في التعلُّقِ بالسِّترِ الإلحاحَ في طلبِ المغفرةِ، وسؤالَ الأمان، كالمذنبِ المتعلِّقِ بثيابِ مَنْ أذنبَ إليه، المتضرِّعِ إليه في عفوه عنه، وأنه لا يُفارِقُ ذيلَهُ إلا بالعفو وبذلِ الأمنِ في المستقبل.

وأما السَّعيُ بين الصَّفا والمروةِ في فناء البيت: فإنَّه يُضاهي تردُّدَ العبدِ بفناءِ دارِ الملكِ جائياً وذاهباً مرّةً بعدَ أخرى؛ إظهاراً للخلوصِ في الخدمةِ ورجاءً

(١) هو بسياقه هنا رواه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ٢٥٧) موقوفاً، وبنحوه رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٧).

للملاحظةِ بعينِ الرحمة، كالذي دخل على الملكِ وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملكُ في حقِّه مِنْ قبولٍ أو رَدٍّ، فلا يزالُ يتردَّدُ على فِناءِ الدارِ مرّةً بعدَ أخرى يرجو أن يُرحَمَ في الثانيةِ إن لم يُرحَم في الأولى.

وليتذكَّرْ عند تردُّدِهِ بين الصفا والمروة تردُّدَهُ بين كفَّتي الميزانِ في عرصاتِ القيامةِ، وليتذكَّرْ تردُّدَهُ بين الكفتين ناظراً إلى الرُّجحانِ والنُّقصانِ، مُتردِّداً بين العذابِ والغفرانِ.

وأما الوقوفُ بعرفةَ: فاذكُرْ بما ترى مِنِ ازدحامِ الخلقِ، وارتفاعِ الأصواتِ، واختلافِ اللُّغاتِ واتِّباعِ الفِرَقِ أئمَّتَهُم في التَّردُّداتِ على المشاعرِ؛ اقتفاءً لهم وسيراً بسيرهم عرصاتِ القيامة، واجتماعَ الأممِ مع الأنبياء والأئمّة، واقتفاءَ كلِّ أمةٍ نبيَّها، وطَمَعَهُم في شفاعتهم، وتحيُّرَهُم في ذلك الصَّعيدِ الواحدِ بين الرَّدِّ والقبول.

وإذا تذكَّرتَ ذلك فألزمْ قلبَكَ الضَّراعةَ والابتهالَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فتحشرَ في زمرة الفائزين المرحومين، وحقِّقْ رجاءَكَ بالإجابة، فالموقفُ شريفٌ، والرحمةُ إنَّما تَصِلُ مِنْ حضرة الجلال إلى كافة الخلقِ بواسطةِ القلوبِ العزيزةِ مِنْ أوتادِ الأرض، ولا ينفكُّ الموقفُ عن طبقةٍ مِنَ الأبدالِ والأوتادِ، وطبقاتٍ مِنَ الصالحين وأربابِ القلوب.

فإذا اجتمعتْ هِمَمُهُم وتجرَّدَتْ للضراعةِ والابتهالِ قلوبُهُم، وارتفعتْ إلى الله سبحانه أيديهم، وامتدَّتْ إليه أعناقُهُم، وشَخَصَتْ نحوَ السماءِ أبصارُهُم، مجتمعين بهمّةٍ واحدةٍ على طلبِ الرحمةِ فلا تظنَّنَّ أنَّه يُخيِّبُ أملَهُم، ويُضيِّعُ سعيَهم، ويَدَّخِرُ عنهم رحمةً تغمرُهُم، ولذلك قيل: (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ أن يحضرَ عرفاتٍ ويظنَّ أنَّ الله تعالى لم يغفر له).

وكأنَّ اجتماعَ الهِمَمِ والاستظهارَ بمجاورةِ الأبدالِ والأوتادِ المجتمعينَ مِنْ أقطارِ البلادِ هو سِرُّ الحجِّ وغايةُ مقصودِهِ، فلا طريقَ إلى استدرارِ رحمةِ الله سبحانه مثلُ اجتماعِ الهِمَمِ، وتعاونِ القلوبِ في وقتٍ واحدٍ على صعيدٍ واحدٍ.

وأما رميُ الجمار: فاقصدْ به الانقيادَ للأمرِ؛ إظهاراً للرِّقِّ والعبوديّةِ، وانتهاضاً لمجرَّدِ الامتثالِ مِنْ غيرِ حظٍّ للعقلِ والنَّفسِ فيه، ثمَّ اقصدْ به التَّشبُّهَ بإبراهيم ـ عليه السلام ـ حيثُ عَرَضَ له إبليسُ لَعَنَهُ الله تعالى في ذلك الموضعِ ليُدخِلَ على حجِّهِ شبهةً أو يفتنَهُ بمعصيةٍ، فأمرَهُ الله عزَّ وجلَّ أن يرميَهُ بالحجارة؛ طرداً له، وقطعاً لأملِهِ.

وأما ذبحُ الهديِ: فاعلم أنَّه تقرُّبٌ إلى الله تعالى بحكمِ الامتثالِ، فأكملِ الهديَ، وارجُ أن يعتقَ الله بكلِّ جزءٍ منه جزءاً منكَ مِنَ النار، فهكذا وردَ الوعدُ، فكلَّما كان الهديُ أكبرَ وأجزاؤُهُ أوفرَ كان فداؤُكَ به مِنَ النارِ أعمَّ.

وأما زيارةُ المدينة: فإذا وَقَعَ بصرُكَ على حيطانِها فتذكَّرْ أنَّها البلدةُ التي اختارَها الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ، وأنَّها دارُهُ التي شَرَعَ فيها فرائضَ ربِّه عزَّ وجلَّ وسُنَنَهُ، وجاهدَ عدوَّهُ وأظهرَ بها دينَهُ إلى أن توفَّاه الله عز وجل، ثم جَعَلَ تربتَهُ فيها، وتربةَ وزيرَيهِ القائمَينِ بالحقِّ بعدَهُ رضي الله عنهما.

ثم مَثِّلْ في نفسكِ مواقعَ أقدامِ رسولِ الله ﷺ عند ترداده فيها، وأنه ما مِنْ موضعِ قدمٍ تطؤُهُ إلا وهو موضعُ قَدَمِهِ العزيزة، فلا تضعْ قدمَكَ عليه إلَّا عن سكينةٍ ووجلٍ، وتذكَّرْ مشيَهُ وتخطِّيَهُ في سككِها، وتصوَّرْ خشوعَهُ وسكينتَهُ في المشي، وما استودعَ الله سبحانه قلبَهُ مِنْ عظيمِ معرفتِهِ، ورفعةِ ذكرِهِ مع ذكرِهِ تعالى حتى قرنَهُ بذكرِ نفسِهِ.

ثم تذكَّرْ ما مَنَّ الله تعالى به على الذين أدركوا صحبتَهُ وسعدوا بمشاهدتِهِ واستماعِ كلامِهِ، وأَعْظِمْ تأسُّفَكَ على ما فاتَكَ مِنْ صحبتِهِ وصحبةِ أصحابِهِ رضي الله عنهم.

ثم اذكرْ أنَّكَ قد فاتَتْكَ رؤيتُهُ ﷺ في الدُّنيا، وأنَّكَ مِنْ رؤيته في الآخرة على خطرٍ، وأنَّكَ ربما لا تراهُ إلا بحسرةٍ وقد حِيلَ بينَكَ وبينَ قبولِهِ إيَّاكَ لسوءِ عملِكَ، كما قال ﷺ: «يَرْفَعُ اللهُ إِلَيَّ أَقْوَاماً فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: بُعْداً وَسُحْقاً»[١]، فإن تركتَ حرمةَ شريعتِهِ ﷺ ولَوْ في دقيقةٍ مِنَ الدقائقِ فلا تأمَنْ أن يُحالَ بينَكَ وبينَهُ بِعُدُولِكَ عن محجَّتِهِ[٢].

وليعظُمْ مع ذلك رجاؤُكَ أن لا يحولَ الله تعالى بينك وبينه بعد أن رَزَقَكَ الإيمانَ، وأشخصكَ[٣] مِنْ وطنِكَ لأجلِ زيارتِهِ مِنْ غير تجارةٍ ولا حظٍّ في دنيا، بل لمحضِ حبِّكَ له وتشوُّقِكَ إلى أن تنظرَ إلى آثاره، وإلى حائطِ قبرِهِ.

فإذا بلغتَ المسجدَ فاذكرْ أنَّها العرصةُ التي اختارَها الله سبحانه لنبيِّه ﷺ، ولأوَّلِ المسلمين وأفضلِهم عصابةً، وأنَّ فرائضَ الله سبحانه أوَّلُ ما أُقيمتْ في تلك العرصة، وأنَّها جَمَعَتْ أفضلَ خلقِ الله حيّاً وميتاً، فليعظُمْ أملُكَ في الله سبحانه أن يرحمَكَ بدخولِكَ إيّاهُ، فادخُلْهُ خاشعاً مُعظِّماً، وما أجدرَ هذا المكانَ بأن يستدعيَ الخشوعَ مِنْ قلبِ كلِّ مؤمنٍ، كما حُكِيَ عن أبي سليمانَ رحمه الله أنه

---

(١) رواه البخاري (٦٥٨٥).

(٢) المَحَجّة: الطَّريق المستقيم.

(٣) أَشْخَصَكَ: أَخْرَجَكَ.

قال: حَجَّ أويسٌ القرنيُّ رضي الله عنه، ودَخَلَ المدينةَ فلمَّا وقفَ على بابِ المسجدِ قيلَ له: هذا قبرُ النبيِّ ﷺ فغُشِيَ عليه، فلمّا أفاقَ قال: أخرجوني فليس يلذُّ لي بلدٌ فيه محمَّدٌ ﷺ مدفونٌ[1].

وأما زيارةُ رسولِ الله ﷺ: فينبغي أن تقفَ بين يديه كما وصفناهُ، وتزوره ميتاً كما تزوره حيّاً، ولا تقرب مِنْ قبرِهِ إلا كما كنتَ تقربُ مِنْ شخصه الكريم لو كان حيّاً، وكما كنت ترى الحرمةَ في أن لا تمسَّ شخصَهُ ولا تُقبِّلَهُ، بل تقفُ مِنْ بُعْدٍ ماثلاً بين يديه، فكذلك فافعلْ؛ فإنَّ المسَّ والتَّقبيلَ للمشاهدِ عادةُ النَّصارى واليهودِ.

واعلم أنَّه ﷺ عالِمٌ بحضورِكَ وقيامِكَ وزيارتِكَ، وأنَّه يَبْلُغُهُ سلامَكَ وصلاتَكَ، فَمَثِّلْ صورتَهُ الكريمةَ في خيالِكَ، وأَحْضِرْ عظيمَ رتبتِهِ في قلبِكَ، فقد رُوِيَ عنه ﷺ: أنَّ الله تعالى وكَّلَ بقبره مَلَكاً يُبَلِّغُهُ سلامَ مَنْ سلَّمَ عليه مِنْ أمَّتِهِ[2]، هذا في حقِّ مَنْ لم يحضر قبرَهُ، فكيف بِمَنْ فارقَ الوطنَ وقطعَ البواديَ شوقاً إلى لقائه، واكتفاءً بمشاهدةِ مشهدِهِ الكريمِ إذ فاتَهُ مشاهدةُ غرَّتِهِ الكريمة؟ وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْراً»[3]، فهذا جزاؤُهُ في الصَّلاةِ عليه بلسانِهِ، فكيف بالحضورِ لزيارتِهِ ببدنِهِ؟

(م: ثم اعلم أنَّ سِرَّ زيارتِهِ ﷺ بعد إتمامِ أعمالِ الحجِّ والرُّجوعِ إلى وطنِ المباحات، هو أن يكونَ رجوعُكَ إلى المباحات على هدي السُّنَّةِ لا باتِّباع الهوى، فتكون تلك الزيارةُ رجوعاً إلى مصابيحِ سُنَّتِهِ ﷺ في شتَّى شؤونِ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٤٥٠).
(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢٧٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٠١).
(٣) رواه مسلم (٤٠٨).

الحياةِ ومستلزماتِها، فالسُّنّةُ الشريفةُ في تناولِ المباحاتِ والانتفاعِ بالضَّرورياتِ هي عينُ الهدى وعينُ النور؛ فإنَّها تحفظُ صاحِبَها مِنَ التَّفريطِ والإفراطِ في الاسترسالِ مع الشهوات، وكلا الأمرين يُسبِّبانِ الخللَ والفسادَ في نظامِ العالَمِ الحسيِّ والمعنويِّ، فاسألِ اللهَ الاقتداءَ بهديه والتَّحقُّقَ بِسُنَّتِهِ ﷺ في الأمورِ كلِّها وأنتَ في حضرتِهِ الشريفة؛ لعلَّك يُستجابُ لكَ فلا تشقى بعد ذلك أبداً).

ثم ائتِ منبرَ الرَّسولِ ﷺ وتوهَّمْ صعودَ النَّبيِّ ﷺ المنبرَ، ومَثِّلْ في قلبِكَ طلعتَهُ البهيّةَ كأنَّها على المنبر، وقد أحدقَ به المهاجرون والأنصارُ رضي الله عنهم، وهو يحثُّهم على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وسَلِ اللهَ عزَّ وجلَّ أن لا يُفرِّقَ في القيامةِ بينك وبينه.

فهذه وظيفةُ القلبِ في أعمالِ الحجِّ، فإذا فَرَغَ منها كلِّها فينبغي أن يُلزِمَ قلبَهُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ؛ فإنَّه ليس يدري أقُبِلَ منه حجُّهُ وأُثبِتَ في زمرةِ المحبوبين، أمْ رُدَّ حجُّهُ وأُلحِقَ بالمطرودين؟ وليتعرَّفْ ذلك مِنْ قلبِهِ وأعمالِهِ، فإن صادَفَ قلبَهُ قد ازداد تجافياً عن دار الغرورِ، وانصرافاً إلى دار الأُنسِ بالله تعالى، ووجدَ أعمالَهُ قد اتَّزنَتْ بميزانِ الشَّرعِ فليثقْ بالقبول؛ فإنَّ الله تعالى لا يقبلُ إلا مَنْ أحبَّه، ومَنْ أحبَّهُ تولَّاهُ وأظهرَ عليه آثارَ محبَّتِهِ، وكفَّ عنه سطوةَ عدوِّهِ إبليسَ لَعَنَهُ الله، فإذا ظهرَ ذلك عليه دلَّ على القبول، وإن كان الأمرُ بخلافِهِ فيوشكُ أن يكونَ حظُّهُ مِنْ سفرِهِ العناءَ والتعبَ، نعوذُ بالله سبحانه وتعالى مِنْ ذلك.

الكتاب الثامن من ربع العبادات
في آداب تلاوة القرآن

(القرآن ورد العارفين)

(ش: قال الشيخ الأكبر قدس سره في الباب (٤٤٦) من الفتوحات المكية: فَمَنْ أرادَ أن يرى رسولَ الله ﷺ ممن لم يدركه مِنْ أمتِه فلينظر إلى القرآن، فإذا نظر فيه فلا فرقَ بين النظرِ إليه وبين النظرِ إلى رسول الله ﷺ، فكأنَّ القرآنَ أُنشِئَ صورةً جسديةً يُقالُ لها محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب، فيكون محمدٌ ﷺ ما فُقِدَ مِنَ الدار الدنيا؛ لأنَّه صورةُ القرآنِ العظيم، فَمَنْ كانَ خُلُقُهُ القرآنَ مِنْ ورثتِهِ، وأنشأَ صورةَ الأعمالِ في ليلِ طبيعتِهِ، فقد بَعَثَ محمَّداً ﷺ مِنْ قبرِهِ؛ فحياةُ رسولِ الله ﷺ بعدَ موتِهِ حياةُ سُنَّتِهِ، ومَنْ أحياهُ فكأنَّما أحيا الناسَ جميعاً؛ فإنَّه المجموعُ الأتمُّ، والبرنامجُ الأكملُ).

الحمد لله الذي امتنَّ على عبادِهِ بنبيِّه المرسَلِ ﷺ وكتابِهِ المنزَلِ الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، حتى اتَّسعت على أهلِ الافتكارِ طرقُ الاعتبار بما فيه مِنَ القصصِ والأخبار، واتَّضحَ به سلوكُ المنهجِ القويمِ والصِّراطِ المستقيمِ بما فَصَّلَ فيه مِنَ الأحكام، وفَرَّقَ بين الحلال والحرام، فهو الضِّياءُ والنورُ، وبه النَّجاةُ مِنَ الغرور، وفيه شفاءٌ لِمَا في الصُّدور.

مَنْ خالَفَهُ مِنَ الجبابرةِ قَصَمَهُ الله، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ أضلَّهُ الله، هو حبلُ الله المتين، ونورُهُ المبين، والعروةُ الوثقى، والمعتصمُ الأوفى، وهو المحيطُ بالقليلِ والكثيرِ، والصَّغيرِ والكبيرِ، لا تنقضي عجائبُهُ ولا تتناهى غرائبُهُ، لا يحيطُ بفوائدِهِ عندَ أهل الفهمِ تحديدٌ، ولا يخلقُهُ عندَ أهل التلاوةِ كثرةُ الترديد، هو الذي أرشدَ الأوَّلين والآخرين، ولمّا سَمِعَهُ الجنُّ لم يلبثوا أن ولَّوا إلى قومِهم منذرين ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢].

فكلُّ مَنْ آمنَ به فقد وُفِّقَ، ومَنْ قالَ به فقد صدق، ومَنْ تمسَّكَ به فقد هُدِي، ومَنْ عَمِلَ به فقد فاز.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ومِنْ أسبابِ حفظِهِ في القلوبِ والمصاحفِ استدامةُ تلاوتِهِ، والمواظبةُ على دراستِهِ مع القيامِ بآدابه وشروطِهِ والعلمِ بفضلِهِ، والمحافظةُ على ما فيه مِنَ الأعمالِ الباطنةِ والآدابِ الظاهرة، وذلك لا بدَّ مِنْ بيانِهِ وتفصيلِهِ.

❊

فصل في فضل القرآن وأهلِهِ، وذمِّ المقصِّرين في تلاوته

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ ثُمَّ رَأَى أَنَّ أَحداً أُوتِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُوتِيَ فَقَدِ اسْتَصْغَرَ ما عَظَّمَهُ اللهُ تَعَالَى»(١).

وقال ﷺ: «ما مِنْ شَفِيعٍ أَفْضَلُ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ القُرْآنِ، لا نَبِيٌّ وَلا مَلَكٌ وَلا غَيْرُهُ»(٢).

وقال ﷺ: «أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمَّتِي تِلاوَةُ القُرْآنِ»(٣).

وقال ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٤).

وقال ﷺ: «إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالبَيْتِ الخَرِبِ»(٥).

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (اِقْرَؤُوا القُرْآنَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعَذِّبُ قَلْباً وَعَى الْقُرْآنَ)(٦).

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٧٩٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٤٠٣).

(٢) قال الحافظ العراقي: (رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً، وللطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢) من حديث ابن مسعود: «والقرآن شافع مشفع»، ولمسلم في صحيحه (٨٠٤) من حديث أبي أمامة: «اقرؤوا القرآن؛ فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه»). ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٤/ ٤٦٣).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (١٨٦٥).

(٤) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٥) رواه الترمذي (٢٩١٣).

(٦) رواه الدارمي في مسنده (٣٣٦٣).

وقال ﷺ: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَمَنْ دَخَلَ فِيهِ فَهُوَ آمِنٌ)[١].

وقال ﷺ: (إذا أردتـمُ العلمَ فأثيروا القرآنَ؛ فإنَّ فيه علمَ الأوَّلين والآخرين)[٢].

(ش: ولذا قال الشيخ الأكبر قدس سره في الباب (٣٦٦) من الفتوحات المكية حينما أراد أن يُبيّنَ مصدرَ علومِهِ: «فجميعُ ما نتكلَّمُ فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو مِنْ حضرةِ القرآنِ وخزائنِهِ، أعطِيتُ مفتاحَ الفهمِ فيه والإمدادَ منه، وهذا كلّه حتى لا نخرجَ عنه، فإنَّه أرفعُ ما يُمنَح، ولا يَعرِفُ قدرَهُ إلا مَنْ ذاقه وشَهِدَ منزلتَهُ حالًا مِنْ نفسِه، وكلَّمَهُ به الحقُّ في سِرّه، فإنَّ الحقَّ إذا كان هو المكلِّمَ عبدَه في سرِّهِ بارتفاعِ الوسائطِ فإنَّ الفهمَ يَستصحِبُ كلامَهُ منك، فيكون عينُ الكلامِ منه عينَ الفهمِ منك لا يتأخَّر عنه، فإن تأخَّر عنه فليس هو كلامَ الله، ومَن لم يجد هذا فليس عنده علمٌ بكلام الله عبادَه».

وقال قدس سره في الباب (٧٣): «فعلمُ الخضرِ في زمانِ موسى عليه السلام جزءٌ مِنْ أجزاء ما يحويه صاحبُ القرآنِ المحمّدي مِنَ العلوم، فبالقرآن يكشفُ جميعَ ما في الكتب المنزّلة مِنَ العلوم، وفيه ما ليس فيها، فَمَنْ أوتيَ القرآنَ فقد أوتيَ الضِّياءَ الكاملَ الذي يتضمَّنُ كلَّ علمٍ، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وهو القرآنُ العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، وبه صَحَّ لمحمَّدٍ ﷺ جوامعُ الكلم، فَمَنْ أُعطيَ القرآنَ فقد أُعطِيَ العلمَ الكاملَ».

---

(١) رواه الدارمي في مسنده (٣٣٦٣).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٨١٤٢).

وكان عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه يقولُ: إنَّ الوحيَ قد انقطعَ بعدَ رسول الله ﷺ، وما بَقِيَ بأيدينا إلا أن يرزقَ الله عبداً فهماً في هذا القرآن).

(م: قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه في كتابه الوصايا: قد ثَبَتَ عن رسولِ الله ﷺ في أحوالِ مَنْ يقرأُ القرآنَ ومَنْ لم يقرأه مِنْ مؤمنٍ ومنافقٍ أنَّه قال ﷺ: «مثلُ المؤمنِ الذي يقرأُ القرآنَ مثلُ الأترجّةِ ريحُها طيِّبٌ»، يعني بها: التلاوةَ والقراءةَ؛ فإنَّها أنفاسٌ تخرج، فَشَبَّهَها بالروائح التي تعطيها الأنفاس، «وطَعْمُها طَيِّبٌ»، يعني به: الإيمانَ، ولذلك قال ﷺ: «ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ بالله ربّاً وبالإسلامِ ديناً وبمحمّدٍ ﷺ نبياً»[1]، فنسبَ الطَّعمَ للإيمان.

ثم قال ﷺ: «ومثلُ المؤمنِ الذي لا يقرأُ القرآنَ كَمَثَلِ التَّمرةِ طَعْمُها طيِّبٌ»، مِنْ حيث إنَّه مؤمنٌ ذو إيمان، «ولا ريحَ لها»، مِنْ حيثُ إنَّه غيرُ تالٍ في الحال التي لا يكون فيها تالياً وإنْ كان مِنْ حُفَّاظِ القرآن.

ثم قال ﷺ: «ومثلُ المنافقِ الذي يقرأُ القرآنَ كمثلِ الريحانةِ ريحُها طيِّبٌ»؛ لأنَّ القرآنَ طيِّبٌ، وليس سوى أنفاسِ التالي والقارئ في وقتِ تلاوتِهِ وحالَ قراءتِهِ، «وطَعْمُها مُرٌّ»؛ لأنَّ النِّفاقَ كفرُ الباطن.

ثم قال ﷺ: «ومثلُ المنافقِ الذي لا يقرأُ القرآنَ كمثلِ الحنظلةِ طَعْمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها»[2])[3].

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ: (رأيتُ الله عزَّ وجلَّ في المنام، فقلتُ: يا ربِّ، ما

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٠).

(٣) ينظر: (الوصايا) (٦٢. ٦٣).

أفضلُ ما تقرَّبَ به المتقرِّبون إليك؟ قال: بكلامي يا أحمد، قال: قلتُ: يا ربِّ، بفهمٍ أو بغير فهمٍ؟ قال: بفهمٍ وبغير فهمٍ)[١].

وقال محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ: (إذا سمعَ الناسُ القرآنَ مِنَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ فكأنَّهم لم يسمعوهُ قطُّ)[٢].

وقال الفضيل بن عياض: (ينبغي لحاملِ القرآنِ أن لا يكونَ له إلى أحدٍ حاجةٌ، ولا إلى الخلفاءِ فَمَنْ دونَهم، وينبغي أن تكونَ حوائجُ الخلقِ إليه)[٣].

وقال أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: (رُبَّ تالٍ للقرآنِ والقرآنُ يَلْعَنُهُ).

وقال بعضُ العلماءِ: (إذا قرأَ ابنُ آدمَ القرآنَ ثم خلطَ ثم عاد يقرأُ قيل له: ما لَكَ ولكلامي؟)[٤].

ورُوِيَ: (اقرأ القرآنَ ما نَهاكَ، فإذا لم يَنْهَكَ فلستَ تقرؤُهُ)[٥].

وقال بعض العلماء: (إنَّ العبدَ ليتلو القرآنَ فيلعنُ نفسَهُ وهو لا يعلمُ، يقرأُ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وهو ظالِمٌ نفسَهُ؛ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو منهم)[٦].

---

(١) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (٥٢٧).

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٩٨١).

(٣) رواه الآجري في أخلاق حملة القرآن (٥٠).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٢٣٨٢).

(٥) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٤٥)، وابو نعيم في الحلية (٥/ ١٧٧).

(٦) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٥٨).

فصل في ظاهر آداب التلاوة

واعلم أنَّه ينبغي لقارئ القرآنِ أن يكونَ على الوضوء، واقفاً على هيئةِ الأدبِ والسكونِ، إمّا قائماً وإما جالساً مستقبلَ القبلةِ، مُطرِقاً رأسَهُ، غيرَ متربِّعٍ ولا متكئ، ولا جالسٍ على هيئة التكبُّرِ، ويكون جلوسُهُ وحدَهُ كجلوسِهِ بين يدي أستاذِهِ.

(ش: قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه «التبيان في آداب حملة القرآن»:

ومِنْ آدابِهِ: أن يجتنبَ الأسبابَ الشاغلةَ عن التحصيلِ إلا سبباً لا بدَّ منه للحاجة، وينبغي أن يُطهِّرَ قلبَهُ مِنَ الأدناسِ؛ ليصلحَ لقبولِ القرآنِ وحفظِهِ واستثمارِهِ.

وينبغي أن يتواضعَ لِمُعلِّمِهِ ويتأدَّبَ معه وإنْ كان أصغرَ منه سِنّاً، وأقلَّ شهرةً ونسباً وصلاحاً وغيرَ ذلك، ويتواضعَ للعلمِ؛ فبتواضعِهِ يُدرِكُهُ.

وينبغي أن ينقادَ لِمُعلِّمِهِ ويُشاوِرَهُ في أموره، ويقبلَ قولَهُ، كالمريضِ العاقلِ يقبلُ قولَ الطبيبِ الناصحِ الحاذقِ، وهذا أولى، ولا يتعلَّمُ إلا ممَّنْ كَمُلَتْ أهليَّتُهُ، وظهرتْ ديانتُهُ، وتحقَّقتْ معرفتُهُ، واشتهرت صيانتُهُ.

وعليه أن ينظر مُعلِّمَهُ بعينِ الاحترامِ، ويعتقدَ كمالَ أهليَّتِهِ ورجحانَهُ على طبقتِهِ؛ فإنَّه أقربُ إلى انتفاعِهِ به، وكان بعضُ المتقدِّمين إذا ذَهَبَ إلى معلِّمِهِ

تصدَّقَ بشيءٍ وقال: «اللهُمَّ استُرْ عيبَ مُعلِّمي عنِّي، ولا تُذْهِبْ بركةَ علمِهِ منِّي»، وقال الربيعُ صاحبُ الشافعيِّ رحمهما الله: «ما اجترأتُ أن أشربَ الماءَ والشَّافعيُّ ينظر إليَّ هيبةً له».

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «مِنْ حَقِّ المعلِّمِ عليكَ أن تُسلِّمَ على الناسِ عامّةً وتَخُصَّهُ دونَهم بالتَّحيَّة، وأن تجلسَ أمامَهُ، ولا تشيرنَّ عنده بيدِكَ، ولا تغمزنَّ بعينيك، ولا تقولَنَّ: قال فلانٌ خلافَ ما تقول، ولا تغتابَنَّ عنده أحداً، ولا تشاوِرْ جليسَكَ في مجلسِهِ، ولا تأخُذْ بثوبِهِ إذا قامَ، ولا تُلِحَّ عليه إذا كسل، ولا تُعْرِضْ ـ أي: تَشْبَعْ ـ مِنْ طولِ صُحبَتِهِ».

ومِنْ آدابه المتأكِّدة: أن يكونَ حريصاً على التعلُّم، مُواظِباً عليه في جميع الأوقات التي يتمكَّنُ منه فيها، ولا يقنعَ بالقليلِ مع تمكُّنِهِ مِنَ الكثير، ولا يُحمِّلَ نفسَهُ ما لا يطيقُ؛ مخافةً مِنَ المللِ وضياعِ ما حصَّل، وإذا جاءَ إلى مجلسِ الشيخِ فلم يَجِدْهُ انتظرَ ولازمَ بابَهُ، ولا يُفوِّتُ وظيفتَهُ.

وينبغي أن يُبكِّرَ بقراءتِهِ على الشيخِ أوَّلَ النَّهارِ؛ لحديثِ النَّبيِّ ﷺ: «اللهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»[1]، وينبغي أن يُحافِظَ على قراءةِ محفوظِهِ، وينبغي أن لا يُؤثِرَ بنوبتِهِ غيرَهُ؛ فإنَّ الإيثارَ في القُرَبِ مكروهٌ، بخلافِ الإيثارِ بحظوظِ النفوس.

وينبغي أن يُجدِّدَ النيةَ الصالحةَ الخالصةَ كلما أراد القراءة، وأن يستحضرَ في نفسه أنه يناجي الله تعالى، وأن يُنظِّفَ فاه بالسواكِ، والأفضلُ أن يكون بعودٍ مِن أراكٍ).

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٦).

وأفضلُ أحوالِ القراءةِ أن يقرأ في الصَّلاةِ قائماً، وأن يكونَ في المسجدِ، فذلك مِنْ أفضلِ الأعمال، فإن قَرَأَ على غيرِ وضوءٍ، وكان مضطجعاً في الفراش، فله أيضاً فضلٌ، ولكنَّه دونَ ذلك، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فأثنى على الكلِّ، ولكنْ قدَّمَ القيامَ في الذكرِ، ثم القعودَ ثم الذكرَ مضطجعاً.

قال علي رضي الله عنه: (مَنْ قرأَ القرآنَ وهو قائمٌ في الصلاةِ كان له بكلِّ حرفٍ مئةُ حسنةٍ، ومَنْ قرأه وهو جالسٌ في الصلاة فله بكلِّ حرفٍ خمسونَ حسنةً، ومَنْ قرأه في غير صلاةٍ وهو على وضوءٍ فخمسٌ وعشرونَ حسنةً، ومَنْ قرأه على غيرِ وضوءٍ فعشرُ حسناتٍ)[١]، وما كان مِنَ القيامِ بالليل فهو أفضلُ؛ لأنَّه أفرغُ للقلب.

وقد كان جماعةٌ مِنَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم يختمونَ القرآنَ في كلِّ جمعةٍ، كعثمانَ وزيدِ بنِ ثابتٍ وابنِ مسعودٍ وأبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنهم.

وإن كان نافذَ الفكرِ في معاني القرآنِ فقد يكتفي في الشَّهرِ بمرّةٍ؛ لكثرةِ حاجتِهِ إلى التَّرديدِ والتأمُّلِ.

ومَنْ ختَمَ القرآنَ في الأسبوعِ مرّةً فيقسم القرآنَ سبعةَ أحزابٍ، فقد روي أنَّ عثمان رضي الله عنه كان يفتتحُ ليلةَ الجمعةِ بـ البقرة إلى المائدة، وليلةَ السبت بـ الأنعامِ إلى هودٍ، وليلةَ الأحدِ بـ يوسف إلى مريم، وليلةَ الاثنينِ بـ طه إلى طسم موسى وفرعون[٢]، وليلةَ الثلاثاءِ بـ العنكبوت إلى ص، وليلةَ الأربعاء بـ تنزيل إلى الرحمن، ويختمُ ليلةَ الخميس[٣].

---

(١) رواه تمام في فوائده (١٣٠٤) مرفوعاً من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أي: سورة القصص.

(٣) رواه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٥١٧).

وينبغي أن يقولَ في مبتدأِ قراءتِهِ: أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرَّجيمِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ، وليقرأ: (قل أعوذُ بربِّ الناس) وسورةَ (الحمدُ للهِ ربِّ العالمين).

ويقول عندَ فراغِهِ مِنْ كلِّ سورةٍ: (صدقَ اللهُ العظيم، وبَلَّغَ رسولُ اللهِ ﷺ، اللهمَّ انفَعْنا به، وبارِكْ لنا فيه، الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأستغفرُ اللهَ الحيَّ القيومَ).

وفي أثناءِ القراءةِ إذا مرَّ بآيةِ تسبيحٍ وتكبيرٍ سَبَّحَ وكَبَّرَ، وإن مَرَّ بآيةِ دعاءٍ واستغفارٍ دعا واستغفرَ، وإن مَرَّ بمرجوٍّ سَأَلَ، وإن مَرَّ بِمَخُوفٍ استعاذَ، يفعلُ ذلك بقلبِهِ أو بلسانِهِ، فيقولُ: سبحان الله، وتعالى الله، نعوذُ بالله، اللهُمَّ ارحمنا، اللهُمَّ ارزقنا.

ولا شكَّ في أنَّه لا بُدَّ أن يجهرَ بها إلى حدٍّ يُسمِعُ نفسَهُ؛ إذ القراءةُ عبارةٌ عن تقطيعِ الصَّوتِ بالحروف، ولا بُدَّ مِنْ صوتٍ، وأقلُّهُ ما يُسمِعُ نفسَهُ، فإن لم يُسمِعْ نفسَهُ لم تَصِحَّ صلاتُهُ، فأمَّا الجهرُ بحيثُ يُسمِعُ غيرَهُ فهو محبوبٌ على وجهٍ، ومكروهٌ على وجهٍ آخرَ.

ويدلُّ على استحبابِ الإسرارِ ما رُوِيَ عنه ﷺ أنَّه قال: «فَضْلُ قِرَاءَةِ السِّرِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْعَلاَنِيَةِ كَفَضْلِ صَدَقَةِ السِّرِّ عَلَى صَدَقَةِ الْعَلاَنِيَةِ»[١]، وفي لفظ آخر: «الجاهِرُ بالقرآنِ كالجاهرِ بالصَّدقةِ، والمُسِرُّ بِهِ كالمُسِرِّ بالصَّدقة»[٢].

وفي الخبرِ العامِّ: «يَفْضُلُ عملُ السِّرِّ على عملِ العلانيةِ سبعينَ ضِعفاً»[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٦٧).

(٢) رواه أبو داود (١٣٣٣).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٥٥١).

وكان كثيرٌ مِنَ الصحابةِ يقرؤون مِنَ المصحفِ، ويكرهون أن يمضيَ يومٌ ولم ينظروا في المصحف(١).

وينبغي أن يُحسّنَ القراءةَ ويُزيّنَها بترديدِ الصَّوتِ مِنْ غير تمطيطٍ مُفرطٍ يُغيّرُ النَّظْمَ، فذلك سنَّة؛ قال ﷺ: «لَيسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ»(٢). فقيل: أراد به الاستغناءَ، وقيل: أراد به التَّرَنُّمَ وترديدَ الألحانِ به، وهو أقربُ عند أهلِ اللُّغة.

ورُوِيَ أنَّه ﷺ كان ينتظرُ عائشة رضي الله عنها فأبطأتْ عليه، فقال: ما حَبَسَكِ؟ قالت: يا رسولَ الله، كنتُ أستمعُ قراءةَ رجلٍ ما سمعتُ أحسنَ صوتاً منه، فقام ﷺ حتى استمعَ إليه طويلاً، ثم رجعَ فقال ﷺ: «هذا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَهُ»(٣).

وقال ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»(٤).

وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيَامَةِ»(٥).

ومهما عظُمَ أجرُ الاستماعِ، وكان التالي هو السببَ فيه كان شريكاً في الأجرِ، إلا أن يكونَ قصدُهُ الرياءَ والتَّصَنُّعَ.

* * *

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٦١).

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٧).

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٣٨).

(٤) رواه أبو داود (١٤٦٨).

(٥) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٤١).

فصل في أعمال الباطن في التلاوة

(م: قال العارفُ بالله تعالى الشيخُ أحمدُ سعد العقاد ﷺ: اعلم أنَّ القرآنَ كنزٌ ثمينٌ، انطوتْ فيه جميعُ المعارفِ والأسرارِ، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٢].

ولا يُفتَحُ كنزُهُ بالعقل والفكرِ، ولكنْ يُفتَحُ بنورٍ إلهيٍّ يُشرِقُ في الضَّمير، فتقبل على نور القرآنِ وتحظى بمكنونِهِ، ولا يكونُ ذلك إلا للمتأدِّبِ مع الله، الخاشعِ الحاضرِ القلب والروح، المتطهِّرِ مِنَ الذُّنوبِ والعيوب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

والمتطهِّرُ هو المُقبِلُ على خطابِ الله ليسمعَهُ بروحِهِ مِنْ حضرةِ القدسِ، غير ملتفتٍ إلى النَّغماتِ وحسنِ الأصوات، ولكنَّه مُنجذِبٌ بالكلِّيّة إلى مرادِ الله مِنْ خطابه، فإذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قالت الأرواحُ: لبيك، ونَسِيَ الإنسانُ الأغيارَ، وأقبلَ على ربِّه الجميلِ، فيُكاشِفَهُ بغوامضِ الأسرارِ حتى يَتَخَلَّقَ بالقرآن ويتجمَّلَ به، وبدون تلك الآدابِ لا يَصِلُ الإنسانُ إلى المطلوب).

فينبغي للتالي أن يتأدَّبَ بآدابٍ متعدِّدةٍ بقلبه وجَنانه، وهو أن يكونَ له فهمُ أصلِ الكلام، ثم التعظيمُ، ثم حضورُ القلبِ، ثم التدبُّرُ، ثم التَّفهُّمُ، ثم التخلِّي عن موانعِ الفهمِ، ثم التخصيصُ، ثم التأثُّرُ، ثم الترقِّي، ثم التَّبرِّي.

الأول: فهمُ عظمةِ الكلامِ وعلوّهِ، وفضلِ الله سبحانه وتعالى ولطفِهِ بخلقِهِ في نزولِهِ عن عرشِ جلالِهِ إلى درجةِ إفهامِ خلقِهِ، ولولا اكتساءُ جلالِ كلامِهِ بكسوةِ الحروفِ لَمَا ثَبَتَ لسماعِ كلامِهِ عرشٌ ولا ثَرى، ولتلاشى ما بينهما مِنْ عظمةِ سلطانِهِ وسبحاتِ أنوارِهِ.

وقال بعضُ العارفين: (إنَّ كلَّ حرفٍ مِنْ كلام الله تعالى في اللوحِ المحفوظِ أعظمُ مِنْ جبلِ قافٍ، وإنَّ الملائكةَ ـ عليهم السلام ـ لو اجتمعتْ على الحرفِ الواحدِ أن يُقِلُّوهُ ما أطاقوه حتى يأتيَ إسرافيل ـ عليه السلام ـ وهو مَلَكُ اللَّوحِ فيرفعَهُ فيُقلَّهُ بإذنِ الله تعالى ورحمتِهِ، لا بقوَّتِهِ وطاقتِهِ، ولكنَّ الله تعالى طَوَّقَهُ ذلك واستعملَهُ به)(١).

الثاني: التَّعظيمُ للمتكلِّم، فالقارئُ عندَ البدايةِ بتلاوةِ القرآنِ ينبغي أن يُحضِرَ في قلبِهِ عظمةَ الله تعالى المتكلِّم، ويعلمَ أنَّ ما يقرؤُهُ ليس مِنْ كلامِ البشر، وأنَّ في تلاوةِ كلام الله تعالى غايةَ الخطرِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وكما أنَّ ظاهرَ جلدِ المصحفِ وورقَهُ محروسٌ عن ظاهرِ بشرةِ اللامسِ إلا إذا كان مُتطهِّراً، فباطنُ معناهُ أيضاً بحكمِ عزَّتِهِ وجلالِهِ محجوبٌ عن باطنِ القلبِ إلا إذا كان مُتطهِّراً عن كلِّ رجسٍ، مُستنيراً بنورِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ.

الثالث: حضورُ القلبِ، وهو عبارةٌ عن حصولِ الجمعيّةِ بحفظِ الأنفاسِ وتَرْكِ حديثِ النَّفسِ.

قيل في تفسير قولِهِ تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، أي:

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٤٧).

بجدٍّ واجتهادٍ، وأخذُهُ بالجدّ أن يكونَ متجرّداً له عند قراءتِهِ، مُنصرف الهمّة إليه عن غيرِهِ.

وقيل: إنَّ في القرآن ميادينَ وبساتينَ ومقاصيرَ وعرائسَ وديابيج ورياضاً وخاناتٍ، فالميماتُ ميادينُ القرآن، والراءاتُ بساتينُ القرآن، والحاءاتُ مقاصيرُهُ، والمسبِّحات عرائسُ القرآن، والحاميماتُ ديابيجُ القرآن، والمفصّلُ رياضُهُ، والخاناتُ ما سوى ذلك، فإذا جالَ القارئُ في الميادين، وقَطَفَ من البساتين، ودَخَلَ في المقاصير، وشَهِدَ العرائسَ، ولَبِسَ الديباجَ، وتَنَزَّهَ في الرِّياضِ، وسَكَنَ غرفَ الخاناتِ استغرقَهُ ذلك وشَغَلَهُ عمّا سواه، فلم يَعْزُبْ قلبُهُ ولم يتفرَّقْ فكرُهُ.

الرابع: التدبُّرُ، وهو وراءَ حضورِ القلب؛ فإنَّه قد لا يتفكَّرُ في غير القرآن، ولكنَّهُ يقتصرُ على سماعِ القرآنِ مِنْ نفسِهِ وهو لا يتدبَّرُهُ، والمقصودُ مِنَ القراءةِ التدبُّرُ، ولذلك يُسَنُّ فيه الترتيلُ؛ لأنَّ الترتيلَ في الظاهرِ ليتمكَّنَ مِنَ التَّدبُّرِ بالباطن.

(م: ثمَّ إنَّ المقصودَ مِنَ التَّدبُّرِ هو العملُ بما فَهِمَ مِنْ مرادِ الله في خطابِهِ، لا مجرَّدُ الوعيِ الذِّهنيِّ فحسب.

قال الشيخ الأكبر ﵁ في كتابه الوصايا: عليكَ بتلاوةِ القرآنِ وتدبُّرِهِ، وانظرْ في تلاوتِكَ إلى ما حَمِدَ فيه مِنَ النُّعوتِ والصِّفاتِ التي وَصَفَ الله بها مَنْ أحبَّه مِنْ عبادِهِ فاتَّصِفْ بها، وما ذَمَّ الله في القرآن مِنَ النُّعوتِ والصِّفات التي اتَّصفَ بها مَنْ مَقَتَهُ الله فاجْتَنِبْها؛ فإنَّ الله ما ذَكَرَها لكَ وأنزلَها في كتابِهِ عليكَ وعرَّفَكَ بها إلا لتعملَ بذلك، فإذا قرأتَ القرآنَ فكن أنتَ القرآنَ لِمَا في

القرآن، واجتهد أن تحفظَهُ بالعملِ كما تحفظه بالتلاوة، فإنَّه لا أَحَدَ أشدُّ عذاباً يوم القيامة مِنْ شخصٍ حَفِظَ آية فنَسِيَها، كذلك مَنْ حَفِظَ آيةً ثم تَرَكَ العملَ بها كانت عليه شاهدةً يومَ القيامةِ وحسرةً)[١].

الخامس: التَّفهُّم، وهو أن يستوضحَ مِنْ معنى كلِّ آيةٍ ما يليق بها على حسبِ قوَّتِهِ في معرفته؛ إذ القرآنُ يشتملُ على ذكرِ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ، وذكرِ أفعالِهِ، وذكرِ أحوالِ الأنبياءِ عليهم السلام، وذكرِ أحوالِ المكذِّبين لهم، وذكرِ أوامرِهِ وزواجرِهِ، وذكرِ الجنةِ والنارِ، فَمَنْ لم يكن له فهمُ ما في القرآن مِنَ المعاني والأسرارِ دَخَلَ في حكمِ قولِهِ تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد: ١٦].

والطابع: هي الموانعُ مِنَ الفهم التي سنذكرها، وقد قيل: (لا يكونُ المريدُ مريداً حتى يجدَ في القرآن كلَّ ما يريد، ويعرِفَ منه النُّقصانَ مِنَ المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد)[٢].

السادس: التَّخلِّي عن موانعِ الفهم؛ فإنَّ أكثرَ الناسِ مُنِعوا عن فهمِ معاني القرآنِ لأسبابٍ وحجبٍ أَسْدَلَها الشيطانُ على قلوبهم، فعميَتْ عليهم عجائبُ أسرارِ القرآن.

قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى المَلَكُوتِ»[٣]، ومعاني القرآنِ مِنْ جملةِ الملكوت، وكلُّ ما غابَ عن الحواسِّ ولم يُدرَكْ إلا بنورِ البصيرة فهو مِنَ الملكوت.

---

(١) ينظر: (الوصايا) (٦٢).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٥٧).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٣).

وحُجُبُ الفهمِ مثلُ أن يكون مُصِرّاً على ذنبٍ، أو مُتّصفاً بكبرٍ، أو مبتلًى في الجملةِ بهوى في الدنيا مطاعٍ؛ فإنَّ ذلك سببُ ظلمةِ القلبِ وصدئِهِ، وهو كالخبثِ على المرآة، فيمنعُ جليَّةَ الحقِّ مِنْ أن تتجلَّى فيه، وهو أعظمُ حجابٍ للقلب، وبه حُجِبَ الأكثرون، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

السابع: التَّخصيصُ، وهو أن يُقدِّرَ التالي في نفسِهِ أنَّه المقصودُ بعينِهِ بكلِّ خطابٍ في القرآن مِنْ فاتحتِهِ إلى خاتمتِهِ، فإن سَمِعَ أمراً أو نهياً قدَّر أنَّه المنهيُّ والمأمورُ، وإن سَمِعَ وعداً أو وعيداً فكمثلِ ذلك.

قال محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ ؒ: (مَنْ بَلَغَهُ القرآنُ فكأنَّما كلَّمَهُ الله تعالى)[1]، فينبغي للتالي أن يشهدَ في تلاوتِهِ أنَّ مولاه يُخاطِبُهُ ويُكلِّمُهُ.

الثامن: التأثُّرُ، وهو أن يتأثَّرَ قلبُهُ بآثارٍ مختلفةٍ بحسبِ اختلافِ الآياتِ، فيكونَ له بحسبِ كلِّ فهمٍ حالٌ ووجدٌ يَتَّصِفُ به قلبُهُ، مِنَ الحزنِ والخوفِ والرجاء وغيرِهِ.

وبهذا كان شغلُ الصَّحابةِ ؓ في الأحوالِ والأعمالِ، حتى مات رسولُ الله ﷺ عن عشرين ألفاً مِنَ الصحابة في المدينة، ولم يحفظِ القرآنَ منهم إلا ستَّةٌ، اختلف في اثنين منهم، وكان أكثرُهُم يحفظُ السُّورةَ والسُّورتين، وكان الذي يحفظُ البقرةَ والأنعامَ مِنْ علمائهم.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٠٦).

(م: واعلم أنَّ السبيلَ إلى تأثُّرِ القلبِ بالتلاوةِ هو أن يشتركَ العبدُ في مناجاةِ ربِّه بالدُّعاءِ والطَّلَبِ عند آياتِ الرَّجاءِ، والاستعاذةِ والالتجاءِ إلى المولى عند آياتِ الخوفِ والعذابِ كما هي السُّنَّةُ في التلاوة، فهو أدعى للتأمُّلِ، وأقربُ للعبوديّة، وأنفعُ لحالِ القلبِ إذا سَمِعَهُ).

وحقُّ تلاوةِ القرآنِ أن يشتركَ فيه اللِّسانُ والعقلُ والقلبُ، فحظُّ اللِّسانِ تصحيحُ الحروفِ بالترتيل، وحظُّ العقلِ تفسيرُ المعاني، وحظُّ القلبِ الاتِّعاظُ والتأثُّرُ بالانزجارِ والائتمار.

التاسع: التَّرقِّي، وأعني به أن يترقى إلى أن يسمعَ الكلامَ مِنَ الله تعالى لا مِنْ نفسه، قال جعفرُ بنُ محمّدٍ الصادقُ رضي الله عنه: (والله لقد تجلَّى الله لخلقه في كلامِهِ، ولكنَّهم لا يُبصِرُون)[١].

وقال أيضاً وقد سألوهُ عن حالةٍ لَحِقَتْهُ في الصَّلاةِ حتَّى خَرَّ مغشيّاً عليه، فلمّا سُرِّيَ عنه قيل له في ذلك فقال: (ما زلتُ أُرَدِّدُ الآيةَ على قلبي حتى سَمِعْتُها مِنَ المتكلِّم بها، فلم يثبتْ جسمي لِمُعاينةِ قدرتِهِ)[٢].

وقال عثمانُ وحذيفةُ رضي الله عنهما: (لو طهرتِ القلوبُ لم تشبعْ مِنْ قراءةِ القرآن)[٣]، وإنَّما قالوا ذلك لأنَّها بالطهارةِ تترقَّى إلى مشاهدةِ المتكلِّم في الكلام، فَمَنْ لم يره في كلِّ شيءٍ فقد رأى غيرَهُ، وكلُّ ما التفتَ إليه العبدُ سوى الله تعالى تَضَمَّنَ التفاتُهُ شيئاً مِنَ الشِّركِ الخفيِّ، بل التوحيدُ الخالصُ أن لا يرى في كلِّ شيءٍ إلا الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٤٧).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٤٧).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٤٩).

العاشر: التَّبرّي، وأعني به: أن يتبرَّأ مِنْ حولِهِ وقوّتِه، والالتفاتِ إلى نفسِهِ بعينِ الرِّضا والتزكية، فإذا تلا آياتِ الوعدِ والمدحِ للصالحين فلا يشهدْ نفسَهُ عند ذلك، بل يشهدُ الموقنين والصديقينَ فيها، ويتشوَّفُ إلى أن يُلحِقَهُ الله بهم، وإذا تلا آياتِ المقتِ وذمِّ العصاةِ والمقصّرين شَهِدَ نفسَهُ هناك، وقدَّرَ أنَّه المخاطَبُ خوفاً وإشفاقاً.

واعلم أنَّ المكاشفاتِ لا تكونُ إلا بعدَ التَّبرِّي عن النَّفسِ، وعدمِ الالتفاتِ إليها وإلى هواها، ثم تخصَّصُ هذه المكاشفاتُ بحسب أحوالِ المكاشفين، فحيث يتلو آياتِ الرَّجاءِ ويغلبُ على حالِهِ الاستبشارُ ينكشفُ له صورةُ الجنَّةِ فيُشاهِدُها كأنَّه يراها عِياناً، وإن غَلَبَ عليه الخوفُ كُوشِفَ بالنار حتَّى يرى أنواعَ عذابِها.

واعلم أنَّ الأخبارَ والآثارَ تدلُّ على أنَّ معانيَ القرآنِ تَتَّسِعُ لأرباب الفهم، قال علي رضي الله عنه: (لو شئتُ لأوقرتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ فاتحةِ الكتاب)[1].

وقال ﷺ: «إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْراً وَبَطْناً وَحَدّاً وَمُطَّلعاً»[2].

(ش: وقد اختلف العلماءُ في تفسير الظهر والبطن والحد والمطلع على أقوال:

فقيل: الظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: أحكام الحلال والحرام، والمطلع: الإشراف على الوعد والوعيد.

وقيل: ظَهْرُهُ: ما يُفهَمُ مِنْ ألفاظِهِ ويسبقُ الذِّهنُ إليه. وبطنُهُ: المفهوماتُ

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٥٠).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٥) بلفظ: (أُنزِلَ القرآنُ على سبعة أحرف، لكلِّ آيةٍ منها ظهرٌ وبطنٌ).

اللازمةُ للنظرِ الأوَّلِ. وحدُّه: ما إليه ينتهي غايةُ إدراكِ الفهومِ والعقول، ومطلعه: ما يُدرَكُ منه على سبيلِ الكشفِ والشُّهودِ مِنَ الأسرار الإلهية والإشارات الربانية. والمفهومُ الأوَّلُ ـ الذي هو الظَّهرُ ـ للعوام والخواص. والمفهوماتُ اللازمةُ له هي للخواص ولا مدخلَ فيها للعوام، والحدُّ للكاملين. والمطلع لخلاصةِ أخصِّ الخواصِّ كأكابر الأولياء.

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى: المراد بالظهر: ما يظهرُ مِنْ معاني التنزيل لأهل العلم بالظاهر. والمراد بالباطن: ما يتضمَّنه مِنَ الأسرارِ التي أطلعَ الله تعالى عليها أربابَ الحقائق. فالبطنُ روحُ الألفاظ، أي: الكلامُ المعتلي على المدارك الآلية بجواهر الروح القدسية. والمراد بالحد: أن لكل حرف من القرآن منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه. والحدُّ: إما بين الظهر والبطن، وإما بين البطن والمطلع، فيرتقى به من البطن إليه عند استهلاك صفة العبد تحت تجليات صفة المتكلِّم جلَّ شأنه. والمُطَّلع ـ بضم الميم وفتح الطاء المشددة واللام: هو مكانُ الاطلاعِ مِنَ الكلام النَّفسيِّ إلى الاسمِ المتكلِّم، ومِنْ ثَمَّ فالمطلع: ما يصعدُ إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام[1].

وقيل: الظهر: ما ظهر تأويله وعرف معناه. والبطن: ما خفي تفسيره وأشكل فحواه. والحد: هو المقام الذي يقتضي اعتبار كل من الظهر والبطن فيه فلا محيد عنه. والمطلع: هو المكان الذي يشرف منه على توفية خواص كل مقام حده، وليس للحد والمطلع انتهاءٌ؛ لأنَّ غايتهَما طريقُ العارفين بالله، وما يكون سراً بين الله وبين أنبيائه وأوليائه﴾.

---

(١) ينظر: (روح المعاني) (١/ ٨).

وقال بعضُ العلماء: (لكلِّ آيةٍ سِتُّون ألفَ فهمٍ، وما بَقِيَ مِنْ فهمِها أكثرُ)[١].

وإنَّما ينكشفُ للراسخين في العلمِ مِنْ أسرارِهِ بقدرِ غزارةِ علومِهم، وصفاءِ قلوبِهم، وتوفُّرِ دواعيهم على التدبُّر، ويكون لكلِّ واحدٍ حدٌّ في الترقي إلى درجتِهِ منه.

فأمَّا الاستيفاءُ فلا مَطمعَ فيه، ولو كان البحرُ مداداً والأشجارُ أقلاماً فأسرارُ كلماتِ الله لا نهايةَ لها، فتنفدُ الأبحرُ قبل أن تنفدَ كلماتُ الله، فَمِنْ هذا الوجهِ يتفاوتُ الخلقُ في الفهمِ بعد الاشتراكِ في معرفة ظاهرِ التفسير، وظاهرُ التَّفسيرِ لا يغني عنه.

❊

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٥٠).

الكتاب التاسع من ربع العبادات
في الأذكار والدعوات
(اذكروني ذكراً فانياً أذكركم ذكراً باقياً)

(ش: قلتُ غفر الله لي:

حَافِـظْ علـى الأورادِ والأذكارِ ... إيَّـاكَ مِـنْ مَهالِـكِ الإنـكارِ
فالذِّكْـرُ مِفْتاحُ دُخُـولِ الحَضْرَهْ ... فَأَكْثِـرَنْ مِنْـهُ تَفُـزْ بِالنَّظْـرَهْ
فَذَاكِـرُ الإلـهِ لَيْـسَ يَشْـقَى ... بَـلْ يَفْنَـى ثُـمَّ يَبْقَـى ثُـمَّ يَرْقَـى
فَلَيْـسَ إلا اللهُ لا سِـواهُ ... قَـدْ خَـابَ مَـنْ أَعْـرَضَ عَنْ مَـوْلاهُ)

سبحانَ مَنْ خَصَّصَ لَطائفَ ذِكْرِهِ لِمَنْ ذَكَرَهُ فقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ثمَّ عمَّمَ رحمتَهُ لخلقِهِ ورغَّبَهم في السُّؤالِ والدُّعاءِ بأمرِهِ فقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وأطمعَ المطيعَ والعاصيَ والدانيَ والقاصيَ في الانبساطِ إلى حضرةِ جلالِهِ برفعِ الحاجاتِ والأماني بقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فليس بعدَ تلاوةِ كتابِ الله عزَّ وجلَّ عبادةٌ تُؤدَّى باللِّسانِ أفضلَ مِنْ ذكرِ الله تعالى، ولا أعظمَ مِنْ رفعِ الحاجاتِ بالأدعيةِ الخالصةِ إلى الله تعالى؛ لِمَا فيها مِنْ إظهارِ عزِّ الرُّبوبيّة مِنْ ذلِّ العبوديّة، قال ﷺ: «الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ»[1]، ولم يرد ذلك في غيرِهِ مِنَ العبادات.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١).

فلا بُدَّ مِنْ شرحِ فضيلةِ الذِّكرِ على الجملة، ثم على التفصيلِ في أعيانِ الأذكارِ، وشرحِ فضيلةِ الدُّعاءِ وشروطِهِ وآدابِهِ، ونقلِ المأثورِ مِنَ الدعواتِ الجامعةِ لمقاصدِ الدِّينِ والدنيا، والدعواتِ الخاصةِ لسؤالِ المغفرةِ أو الاستعاذةِ أو غيرِها.



فصل في فضلِ الذِّكر

(ش: مَنْ كَثُرَتْ أذكاره كَثُرَتْ أنوارُه، ومَنْ كَثُرَتْ أنوارُه صَفَتْ أسرارُه، ومَنْ صَفَتْ أسرارُه كان في حضرةِ الله قَرارُه.

قال الإمام الشعراني قدس سره: لتعلم أنَّ مَنْ قرأَ الأورادَ الواردةَ في عملِ اليوم والليلةِ فليس للجنِّ ولا للإنسِ عليه سبيل[١]).

قال ثابتٌ البنانيُّ ﵀: إنِّي أعلمُ متى يذكرُني ربِّي عزَّ وجلَّ، فَفَزِعُوا منه وقالوا: كيف تعلمُ ذلك؟ فقال: إذا ذكرتُهُ ذَكَرَني؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أي: باللَّيلِ والنَّهار، في البَرِّ والبحرِ، والسَّفرِ والحضرِ، والغنى والفقرِ، والمرضِ والصِّحّةِ، والسِّرِّ والعلانية[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: له وجهان:

أحدُهما: أنَّ ذكرَ الله تعالى لكم أكبرُ مِنْ ذِكرِكم إيّاه، والآخر: أنَّ ذكرَ الله أكبرُ مِنْ كلِّ عبادةٍ سواه[٣].

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤١٨).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ٣٣٥).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١١/ ١٩٣).

وسئل رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وقال ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا مَعَ عَبْدِي ما ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»(٢).

وقال أبو الدرداء ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِها فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الوَرِقِ وَالذَّهَبِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُونَ أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُونَ أَعْنَاقَكُمْ؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله ﷺ؟ قال: ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دَائِماً»(٣).

قال معاذُ بنُ جبلٍ ﷺ: (ليس يتحسَّرُ أهلُ الجنّةِ على شيءٍ إلا على ساعةٍ مرَّتْ بهم لم يذكروا الله تعالى فيها)(٤).

(م: وجَعَلَ النبيُّ ﷺ الذِّكرَ هو الفارقَ بين الأحياءِ والأمواتِ فقال: «مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»(٥)، فإنَّ نورَ الذِّكرِ مِنْ نورِ اللهِ نفسِهِ، ونورُهُ مُستمرٌّ مِنَ الأزل إلى الأبد.

وقال مولانا العربي الدرقاوي ﷺ: «كلُّ واحدٍ واحدٍ مِنَ الناس خَصَّتْهُ حوائجُ شتَّى، وهم في الحقيقة كلُّهم ما خَصَّتْهُم إلا حاجةٌ واحدةٌ، وهي ذكرُ الله تعالى حقيقة، فإذا حَصَلَ لهم لم يفقدوا شيئاً قطُّ ولو فَقَدُوهُ، والله على ما نقول وكيل».

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٣)، والبيهقي في الشعب (٥١٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٩٢).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٧).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٣)، والبيهقي في الشعب (٥٠٩).

(٥) رواه البخاري (٦٠٤٤).

وقال أبو عليٍّ الدَّقاقُ ﵀: (الذِّكرُ منشورُ الولاية، فَمَنْ وُفِّقَ للذِّكرِ فقد أُعطِيَ المنشورَ، ومَنْ سُلِبَ الذِّكرَ فقد عُزِلَ)[١]، فإنَّ للأذكارِ كلِّها سرّاً لا يخفى ونوراً مِنَ المولى، وهو مرموزٌ في قولِهِ تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وهذه المنَّةُ أي: ذِكْرُ الله للعبد، التي هي عينُ ولايتِهِ واصطفائِهِ، تجري وتتحقَّقُ على سبيلِ المقابلةِ كما أشار إليه الحديث القدسي: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ»[٢].

فبقدرِ الوفاء يكونُ الصَّفاء، وبقدرِ الاجتهاد يكون توالي الإمداد، وهذا ما بيَّنه وفصَّلَهُ الشيخ عبد القادر الجيلاني ﵁ بقوله على لسان الحضرة:

اذكروني بالشوق والمحبة، أذكركم بالوصل والقربة.

اذكروني بالحمد والثناء، أذكركم بالمنن والعطاء.

اذكروني بالسؤال، أذكركم بالنوال.

اذكروني بلا غفلة، أذكركم بلا مهلة.

اذكروني بالمعذرة، أذكركم بالمغفرة.

اذكروني بصفاء السر، أذكركم بخالص البر.

اذكروني بالتعظيم، أذكركم بالتكريم.

اذكروني من حيث أنتم، أذكركم من حيث أنا، ولذكر الله أكبر[٣].

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٣٥٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٥).

(٣) ينظر: (سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج اليه الأبرار) (٢٨٨).

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله ﷺ: «ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ المَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيمَنْ عِنْدَهُ»(١).

وقال: «ما مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى لا يُرِيدُونَ بِذلِكَ إلاَّ وَجْهَهُ إلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: قُومُوا مَغْفُوراً لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ لَكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَناتٍ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه دَخَلَ السُّوقَ وقال: أراكُمْ ههنا وميراثُ رسولِ الله ﷺ يُقسَمُ في المسجد! فَذَهَبَ الناسُ إلى المسجدِ وتركوا السُّوقَ فلم يروا ميراثاً، فقالوا: يا أبا هريرة، ما رأينا ميراثاً يُقسمُ في المسجد؟ قال: فماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يذكرونَ الله عزَّ وجلَّ ويقرؤون القرآنَ، قال: فذلك ميراثُ محمدٍ ﷺ(٣).

وقال ﷺ: «إنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فَضْلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا بُغْيَتَكُمْ فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَيُّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ. فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٤٢).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (١٤٥١).

فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَسْبِيحاً وَتَحْمِيداً وَتَمْجِيداً. فَيَقُولُ لَهُمْ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. فَيَقُولُ تَعَالَى: وَهَلْ رَأَوْها؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْها. فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْها لَكَانُوا أَشَدَّ هَرَباً مِنْها وَأَشَدَّ نُفُوراً. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَيَّ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: الجَنَّةَ. فَيَقُولُ تَعَالَى: وَهَلْ رَأَوْها؟ فَيَقُولُونَ: لا. فَيَقُولُ تَعَالَى: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْها. فَيَقُولُونَ: لَو رَأَوْها لَكَانُوا أَشَدَّ عَلَيْها حِرْصاً. فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُونَ: كَانَ فِيهِمْ فُلانٌ لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»[1].

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٠).

فضيلة التهليل

قال ﷺ: «أَفْضَلُ ما قُلْتُهُ أَنا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ»[(١)].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فقيل: الإحسانُ في الدُّنيا: قولُ لا إله إلا الله، وفي الآخرة: الجنة، وكذا قولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][(٢)].

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي سُوقٍ مِنَ الأَسْوَاقِ: «لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ»[(٣)].

فضيلة ذكر الاسم المفرد

(م: قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى لا يُقالَ في الأرضِ «الله الله»»[(٤)].

وهذا الاسمُ «الله» علمٌ على ذاتِ الحقِّ سبحانه، ومِنْ ثَمَّ يجذبُ ذاكرَهُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ١٣٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٢٨).

(٤) رواه مسلم (١٤٨).

مِنَ الاسمِ إلى المسمَّى، فكان أقربَ الطُّرقِ للوصول إلى المأمول، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي: مِنْ سائر الأسماءِ والأذكارِ، ولقوّةِ هذا الاسمِ احتاجَ ذاكرُهُ إلى إذنٍ خاصٍّ مِنْ مرشدٍ كامل، وتلقينِ الكيفيَّةِ مِنْ مُوصلٍ واصل.

و«الله» هو الاسمُ الأعظمُ عند جمهورِ العلماء وكافَّةِ الأولياء، وهو الاسمُ الجامعُ لسائر الأسماء، فلا يضرُّ مع ذكرِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، سِرُّه انطوى فيه سائرُ الأسرار، ونورُهُ محى ظهورَ سائر الأنوار، قال الجنيد رضي الله عنه: ذاكرُ هذا الاسمِ «الله» ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بربِّه، قائمٌ بأداءِ حقِّه، ناظرٌ إليه بقلبه، قد أحرقَتْ أنوارُ الشُّهودِ صفاتِ بشريَّتِهِ.

وقال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: ليكنْ ذكرُكَ «الله»؛ فإنَّ هذا الاسمَ سلطانُ الأسماء، وله بساطٌ وثمرةٌ، فبساطُهُ العلمُ، وثمرتُهُ النُّور، ثم النُّورُ ليس مقصوداً لذاتِهِ، وإنَّما ليقعَ به الكشفُ والعِيان.

ولهذا الاسمِ خصائصُ كثيرةٌ أفردَها بعضُهم بالتأليف، قال ابنُ عطاءِ الله رضي الله عنه: فَمِنْ خواصِّه أنَّه في ذاته اسمٌ كاملٌ في حروفِهِ، تامٌّ في معناه، خاصٌّ بأسرارِهِ، مُفرَدٌ بصفتِهِ؛ فكان أوّلاً «الله»، فحُذِفَ منه الألفُ فبقي «لله»، ثم حُذِفت منه اللامُ الأولى فبقي «له»، ثُمَّ حُذفتِ اللامُ الثانية فبقي «هو»، فكان كلُّ حرفٍ منه تامُّ المعنى، كاملُ الخصوصيّة، لم يتغير منه معنى، ولا اختلفَ بتفريقِ حروفِهِ منه فائدة، ولا نقصت منه حكمة، ولكلِّ لفظةٍ منه معانٍ عجيبة، مستقلةٌ بذاتها غريبة)[1].

---

(١) ينظر: (الله القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد) (١٧).

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»(١).

وروي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: تولَّتْ عني الدنيا وقلَّت ذات يدي فقال رسول الله ﷺ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ صَلاةِ المَلائِكَةِ وَتَسْبِيحِ الخَلائِقِ وَبِها يُرْزَقُونَ؟ قال: فقلت: وماذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِئَةَ مَرَّةٍ ما بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَى أَنْ تُصَلِّي الصُّبْحَ تَأْتِيكَ الدُّنْيا رَاغِمَةً صَاغِرَةً، وَيَخْلُقُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ مَلَكاً يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَكَ ثَوَابُهُ»(٢).

وروى أبو مالك الأشعري ؓ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ يَمْلآنِ ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُها أَوْ مُشْتَرٍ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها»(٣).

وقال أبو هريرة ؓ: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٥).

(٢) رواه المستغفري في الدعوات.

(٣) رواه مسلم (٢٢٣).

ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[١].

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبّاً وَبِالإِسْلامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيّاً كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ». وفي رواية: «مَنْ قال ذلك رضيَ الله عنه»[٢].

(م: وقال ﷺ: «ما مِنْ عبدٍ يقولُ في صباحِ كُلِّ يومٍ ومساءِ كلِّ ليلةٍ: «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ وهوَ السَّميعُ العليمُ» ثلاثَ مرّاتٍ فَيَضُرَّهُ شيءٌ»[٣].

وقال ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] والمَعُوذَتَيْنِ، حين تُصْبِحُ وحين تُمْسِي ثلاثَ مراتٍ؛ تكْفِيكَ من كلِّ شيءٍ»[٤]).

وقال محمد بن حسان رضي الله عنه: قال لي معروف الكرخي رضي الله عنه: ألا أُعلِّمَكَ عشر كلماتٍ خمس للدنيا وخمس للآخرة، مَنْ دعا الله عزَّ وجلَّ بهنَّ وَجَدَ الله تعالى عندهن، قلتُ: اكتُبْها لي، قال: لا، ولكنْ أُردِّدُها عليك كما ردَّدَها عليَّ بكر بن خنيس رحمه الله: «حسبي الله لديني، حسبي الله لدنياي، حسبي الله الكريم لِمَا أهمني، حسبي الله الحليم القوي لِمَنْ بَغَى عليَّ، حسبي الله الشديد لِمَنْ كادني بسوء، حسبي الله الرحيم عند الموت، حسبي الله الرؤوف عند

---

(١) رواه البخاري (٦٦٨٢).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٧٢).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٨).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٨٢).

المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللطيف عند الميزان، حسبي الله القدير عند الصراط، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»، وقد رُوِيَ هذا الدُّعاءُ مرفوعاً للقراءةِ دبرَ كُلِّ صلاةِ غداةٍ.

فإن قلتَ: فما بالُ ذكرِ الله سبحانه مع خِفَّتِهِ على اللِّسانِ وقلّةِ التَّعبِ فيه صار أفضلَ وأنفعَ مِنْ جملة العبادات مع كثرةِ المشقَّات فيها؟

فاعلم أنَّ تحقيقَ هذا لا يليقُ إلا بعلمِ المكاشفةِ، والقدرُ الذي يُسمَحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ أنَّ المؤثِّرَ النافعَ هو الذِّكرُ على الدوام مع حضورِ القلب، فأمَّا الذكرُ باللِّسانِ والقلبُ لاهٍ فهو قليلُ الجدوى.

وحضورُ القلبِ مع الله تعالى على الدوام هو المقدَّمُ على العبادات، بل به تَشْرُفُ سائرُ العبادات، وهو غايةُ ثمرةِ العباداتِ العمليّة.

وللذِّكرِ أوَّلٌ وآخِرٌ، فأوَّلُهُ يُوجِبُ الأُنسَ والحبَّ ولَوْ تكلُّفاً.

(م: وهو مع ذلك مرتبةٌ مِنَ المراتب ودرجةٌ مِنَ الدرجات، وعلامةُ إقبالِ الله عليه، قال أبو مدين رضي الله عنه: (إذا أراد الله بعبدٍ خيراً آنسَهُ بذكرِهِ ووفَّقَهُ لشكرِهِ)[1]).

وآخِرُهُ يُوجِبُ الأُنسَ والحبَّ تخلُّقاً، والمطلوبُ الأعظمُ عند السَّالكينَ مِنَ الذِّكرِ ذلك الأُنسُ والحبُّ لا غير، ويكونان وسيلتين إلى ذكرِ الرُّوح، وهو غلبةُ حضورِ الحقِّ على الحضورِ مع الخلق.

---

(١) مِن حكم الشيخ أبي مدين الغوث قدس الله سره.

(م: وهو ما أشار إليه أبو مدين رحمه الله بقوله: «الذِّكرُ شهودُ المذكورِ ودوامُ الحضور، الذِّكرُ شهودُ الحقيقةِ وخمودُ الخليقة، الذِّكرُ ما غَيَّبَكَ عنكَ بوجودِهِ، وأخذكَ مِنكَ بشهودِهِ»).

وبينَ أوَّلِ الذِّكرِ وآخرِهِ، أو تقولُ: بين التَّلوينِ وتمامِ التَّمكينِ درجاتٌ كثيرةٌ.

والمريدُ في بدايةِ أمرِهِ قد يكونُ متكلِّفاً بصرفِ قلبِهِ ولسانِهِ عن الوسواسِ إلى ذكرِ الله عزَّ وجلَّ، فإن وُفِّقَ للمداومةِ أَنِسَ به، وانغرسَ في قلبِهِ حبُّ المذكور.

(م: فعلى المريدِ أن يصبرَ ولا يسأمَ مِنْ ذكرِهِ في بدايةِ أمرِهِ حتى تنتجَ ثمرتُهُ، قال ابنُ عطاء الله رحمه الله: لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيهِ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ، فَعَسى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سِوَى المَذْكورِ، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠][1]).

وهذا معنى قولِ بعضِهم: (كابدتُ القرآنَ عشرين سنةً، ثم تنعَّمْتُ به عشرين سنةً)[2]، ولا يصدرُ التَّنعُّمُ إلا مِنَ الأُنسِ والحُبِّ، ولا يصدرُ الأُنْسُ إلا مِنَ المداومةِ على المكابدةِ والتَّكلُّفِ مدّةً طويلةً، حتى يصيرَ المتكلَّفُ طبعاً، وهذا الأُنسُ يتلذَّذُ به العبدُ بعدَ موتِهِ إلى أنْ ينزلَ في جوارِ الله عزَّ وجلَّ ويترقَّى مِنَ الذِّكرِ إلى اللِّقاءِ.

---

(١) الحكمة (٤٧) من الحكم العطائية.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٠).

فصل في آداب الدعاء وفضله
وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «الدُّعاءُ هو العبادةُ»[١].

وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الدُّعَاءِ»[٢].

وقال ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لا يُخْطِئُهُ مِنَ الدُّعَاءِ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا ذَنْبٌ يُغْفَرُ لَهُ، وَإِمَّا خَيْرٌ يُعَجَّلُ لَهُ، وَإِمَّا خَيْرٌ يُدَّخَرُ لَهُ»[٣].

* * *

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٠).

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٧٤٩) وبنحوه عند أبي نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٤) وعند أحمد في المسند (٣/ ١٨).

سر الدعاء وآدابه

(م: اعلم أنَّ الدُّعاءَ مُخُّ العبادةِ ومفتاحُ السَّعادة، ظاهرُهُ وردٌ وباطنُهُ واردٌ، فإنَّه سبحانه ما وَفَّقَ أحداً إلى الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ بين يديه إلا ويريدُ أن يُكرِمَهُ بما لديه، قال ابنُ عطاء الله رضي الله عنه: (مَتى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بالطَّلبِ فاعْلَمْ أَنَّه يُريدُ أنْ يُعطيَكَ)[1]، ومِنْ ثَمَّ قال النَّبيُّ ﷺ: «لا تعجِزوا في الدُّعاءِ؛ فإنَّه لَنْ يَهْلِكَ مَعَ الدُّعاءِ أَحَدٌ»[2].

فالدُّعاءُ حِرْزٌ وأمانٌ مِنْ سوءِ الخاتمةِ لِمَنْ طَلَبَ مِنَ الله رُشدَهُ وهدايتَهُ، ومَنْ داوَمَ عليه أدامَ الله عليه العطاءَ وخَفَّفَ عنه البلاء، إلا أنَّه لا يخلو قبولُ الدُّعاءِ مِنْ شروطٍ وآدابٍ لنيلِ الإجابةِ مِنَ الله تعالى على أيِّ وجهٍ كان، وقد لخَّصَها ورتَّبها الإمامُ الغزالي رضي الله عنه في عشرةِ آدابٍ):

الأول: أن يترصَّدَ لدعائِهِ الأوقاتَ الشريفةَ، كيومِ عرفةَ مِنَ السَّنةِ، ورمضانَ مِنَ الأشهر، ويومَ الجمعةِ مِنَ الأسبوع، ووقتَ السَّحرِ مِنْ ساعاتِ الليل، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقيل: إنَّ يعقوبَ ـ عليه السلام ـ إنَّما قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾

---

(١) الحكمة (١٠٢) من الحكم العطائية.

(٢) رواه العقيليُّ في الضعفاء الكبير (٣/ ١٨٨) واللفظ له، وابن حبان (٨٧١)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ١٣) بنحوه.

[يوسف:٩٨]، ليدعوَ في وقتِ السَّحَر، فقيل: إنّه قام في وقتِ السّحرِ يدعو وأولادُهُ يُؤمِّنون خلفَهُ، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه أنّي قد غفرتُ لهم وجعلتُهم أنبياءَ.

الثاني: أن يغتنمَ الأحوالَ الشريفةَ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إنَّ أبوابَ السَّماءِ تُفتَحُ عند زحفِ الصُّفوفِ في سبيلِ الله تعالى، وعند نُزُولِ الغيثِ، وعند إقامةِ الصَّلواتِ المكتوبة، فاغتنموا الدُّعاءَ فيها)(١).

وقال مجاهدٌ رحمه الله: (إنَّ الصَّلاةَ جُعِلَتْ في خيرِ السَّاعاتِ، فعليكم بالدُّعاءِ خلفَ الصَّلوات)(٢).

قال النبي ﷺ: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ»(٣).

وبالحقيقةِ يرجعُ شرفُ الأوقاتِ إلى شرفِ الحالاتِ أيضاً؛ إذ وقتُ السحرِ وقتُ صفاءِ القلبِ وإخلاصِهِ وفراغِهِ مِنَ المشوِّشات.

(ش: وقد نظم الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى مواطن الإجابة وأماكنها فقال:

فِي وَقْتِ غَيْثٍ وَعِنْدَ الْفِطْرِ مَعْ سَفَرٍ ... وَجَوْفَ لَيْلٍ وَأَسْحَارٍ وَإِنْ تَقُمِ
بَيْنَ الأَذَانَيْنِ بَيْنَ الْخُطْبَتَيْنِ فَفُهْ ... بِالاِضْطِرَارِ وَعِنْدَ الضَّرْبِ لِلْقُمَمِ
أَيْ فِي الْجِهَادِ وَأَيَّامِ الْحَجِيجِ وَفِي ... رَمْضَانَ وَاللَّيْلَةَ الْغَرَّاءَ بِالْكَرَمِ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٧١) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٢٠).

(٢) روى النسائي في السنن الكبرى (٩٨١٧) عن أنس رضي الله عنه: (إذا أقيمت الصلاةُ فُتِحَتْ أبوابُ السماء واستُجِيبَ الدعاء).

(٣) رواه مسلم (٤٨٢).

وَلَيْلَةَ الْقَــدْرِ مَعْ يَوْمِ الْوُقُوفِ كَذَا — عِنْدَ اضْطِرَاخِ دُيُوكِ الْقَوْمِ فِي الْخِيَمِ
وَبَعْــدَ طُهْرٍ لَدَى تَغْمِيــضِ مَيْتِهِمْ — وَدُبْــرَ مَكْتُوبَــةٍ مَــعْ أَشْــهُرٍ حُــرُمِ
وفِــي الْمُحَرَّمِ يَوْمَ الْعَشْــرِ فَابْتَغِهِ — وَفِــي الْبِقَــاعِ كَبَيْــتِ اللهِ وَالْحَــرَمِ
وَعِنْدَ زَمْزَمَ حَالَ الشُّــرْبِ مُنْتَهِلًا — وَعِنْــدَ قَبْــرِ رَسُــولِ اللهِ ذِي الْكَرَمِ
وَمَسْجِدِ الْقُدْسِ مَعْ قَبْرِ الْخَلِيلِ وَقِسْ — كُلَّ الْمَشَاهِدِ لِلْخَيْرَاتِ فَانْتَسِمِ[1]
وَعِنْــدَ خَتْــمِ كَلَامِ اللهِ خَالِقِنَــا — بَيْنَ اسْــمَيِ اللهِ فِي الأَنْعَــامِ فَاغْتَنِمِ
وَعِنْــدَ رُؤْيَــا هِــلَالٍ لَاحَ فِي أُفُقٍ — فَاسْــأَلْ إِلَهَــكَ وَاقْــرَأْ آيَ مُلْكِهِمِ
أَعْنِي تَبَارَكَ وَاسْأَلْ فِي السُّجُودِ تُجَبْ — وَيَــوْمَ عِيــدٍ وَحَالَ الضُّرِّ وَالسَّــقَمِ
وَلَيْلَةَ الْفِطْرِ وَالأَضْحَى وَمُنْتَصَفٍ — مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ لَا تُهْمِلْهُ فِي الظُّلَمِ
وَلَيْلَــةٌ هَــلَّ فِيهَــا شَــهْرُ بَارِئِنَــا — رَجْبُ الأَصَمُّ تَضَــرَّعْ صَاحِ لَا تَنَمِ
وَعِنْــدَ نَوْمٍ وَلُبْــسٍ وَالْقِيَــامِ إِلَى — صَــلَاةِ لَيْــلٍ وَكَــرْبٍ ثُــمَّ دَيْنِهِــمِ
وَغَيْــرِ ذَلِكَ فَالْــزَمْ لِلدُّعَــاءِ بِمَا — قَــدْ جَاءَ فِــي كُتُبِ الآثَــارِ وَالْتَزِمِ)

الثالث: أن يدعوَ مستقبلَ القبلةِ، ويرفعَ يديه بحيث يُرى بياضُ إبطيه.

وقال سلمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبِيدِهِ إِذَا رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْراً»[2].

وروى أنسٌ رضي الله عنه: (أنه ﷺ كان يرفعُ يديهِ حتى يُرى بياضُ إبطيهِ في الدُّعاء)[3].

---

(١) أي: هُبَّ واغتَنِم.
(٢) رواه أبو داود (١٤٨٨).
(٣) رواه البخاري (١٠٣١).

وقال عمرُ رضي الله عنه: (كان رسولُ الله ﷺ إذا مَدَّ يديه في الدُّعاء لم يردَّهما حتَّى يمسحَ بهما وجهَهُ)[1].

فهذه هيئاتُ اليدِ.

ولا يرفعُ بصرَهُ إلى السَّماءِ قال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»[2].

الرابع: خفضُ الصَّوتِ بين المخافتةِ والجهرِ، قالت عائشةُ رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بدعائك[3].

وقد أثنى الله على نبيِّه زكريا عليه السلام حيثُ قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

الخامس: أن لا يتكلَّفَ السَّجعَ في الدُّعاء؛ فإنَّ حالَ الداعي ينبغي أن يكونَ حالَ مُتضرِّعٍ، والتَّكلُّفُ لا يناسبُهُ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فقيل: معناهُ: التَّكلُّفُ في الأسجاع.

واعلم أنَّ المرادَ بالسجعِ هو المتكلَّفُ مِنَ الكلام، فإنَّ ذلك لا يُلائِمُ الضَّراعةَ والذِّلَّةَ، قال بعضُهم: ادعُ بلسانِ الذِّلَّةِ والافتقارِ، لا بلسانِ الفصاحةِ والانطلاقِ.

السادس: التضرُّعُ والخشوعُ والرغبةُ والرهبةُ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٦).

(٢) رواه مسلم (٤٢٩).

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٧).

وقال ﷺ: «إذا أَحَبَّ الله عبداً ابتلاهُ حتَّى يسمعَ تَضَرُّعَهُ»[(١)].

السابع: أن يجزمَ الدُّعاءَ ويُوقِنَ بالإجابةِ ويصدقَ رجاؤُهُ فيه.

قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ إِذَا دَعَا: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ولِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ»[(٣)].

(م: ولأجلِ ذلك قال أبو سليمانَ الدَّاراني رضي الله عنه: مِنْ حَسُنَ ظنُّه بالله عزَّ وجلَّ فقد فُتِحَ عليه بابُ الرحمة).

وقال سفيانُ بنُ عيينة رضي الله عنه: لا يمنعنَّ أحدَكم مِنَ الدعاء ما يعلمُ مِنْ نفسه؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ أجابَ دعاءَ شرِّ الخلقِ إبليسَ ـ لعنه الله ـ إذ قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٧].

الثامن: أن يُلِحَّ في الدُّعاءِ، ويُكرِّرَهُ ثلاثاً.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: (كان ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سألَ سألَ ثلاثاً)[(٤)].

وينبغي أن لا يستبطىءَ الإجابةَ؛ لقولِهِ ﷺ: «يُستجابُ لأحدِكُم ما لم يعجلْ فيقولَ: قد دعوتُ فلم يُستجَبْ لي»[(٥)].

---

(١) رواه هناد في الزهد (٤٠٥)، والشاشي في مسنده (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (٩٣٣١).

(٢) رواه البخاري (٦٣٣٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٩).

(٤) رواه مسلم (١٧٩٤).

(٥) رواه البخاري (٦٣٤٠).

وقال ﷺ: «إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ مَسْأَلَةً فَتَعَرَّفَ الإِجَابَةَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَمَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ مِنْ ذلِكَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[١].

(ش: ولا ينبغي للعبد أن ييأسَ مِنَ الدعاء؛ لأنَّ الحقَّ قد تكفَّلَ بالإجابة، ولذا قال ابنُ عطاء الله رحمه الله: «لاَ يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ، فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ، لاَ فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ، لاَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ»)[٢].

التاسع: أن يفتتحَ الدُّعاءَ بذكرِ الله عزَّ وجلَّ، فلا يبدأُ بالسُّؤال، بل يبدأُ أوَّلاً بالثَّناء على الله تعالى ثم يسألُ الحاجةَ، كما قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وفي السُّننِ: «كلُّ كلامٍ لا يبدأُ بحمدِ الله فهو أجذمُ»[٣].

(م: وقال ﷺ: «إذا صلَّى أحدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ والثَّناءِ عليهِ ثُمَّ لِيُصَلِّ على النبيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِما شاءَ»[٤]).

وقال أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمه الله: (مَنْ أرادَ أن يسألَ الله حاجةً فليبدأ بالصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ، ثم يسألُهُ حاجتَهُ، ثم يختمُ بالصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الله تعالى يقبلُ الصلاتين، وهو أكرمُ مِنْ أن يَدَعَ ما بينهما)[٥].

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١٧١).

(٢) الحكمة (٦) من الحكم العطائية.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٤٠).

(٤) رواه الترمذي (٣٤٧٧).

(٥) ينظر: (مطالع المسرات) (٣٦).

العاشر ـ وهو الأدبُ الباطنُ، وهو الأصلُ في الإجابة: التوبةُ النَّصوحةُ وردُّ المظالِمِ إلى أهلِها، والإقبالُ على الله بكنهِ الهِمّةِ، فذلكَ هو السَّببُ القريبُ في الإجابة.

(م: قال الشيخُ حسن رضوان رحمه الله:

فَأَعْظَمُ الآدابِ صِدْقُ تَوْبَتِهْ ... مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ سِيَّما مِنْ غَفْلَتِهْ
وَرَدُّهُ مَظالِمَ العِبَادِ ... أَوْ عَفْوُهُمْ بِقَدْرِ الاِجْتِهَادِ
وَحِلُّ مَا انْتِفَاعُهُ بِهِ حَصَلْ ... فِي نَفْسِهِ مِنْ مَأكَلٍ وَمَا اتَّصَلْ
والصِّدْقُ وَالإِخْلاصُ فِي الدُّعَاءِ ... وَحُسْنُ ظَنِّهِ مَعَ الرَّجَاءِ[1]

وللدُّعاءِ شروطٌ وآدابٌ أخرى لم يتعرَّضْ لها المصنِّفُ كأكلِ الحلالِ؛ إذ هو شرطٌ في الإجابةِ، وكونِ الدَّاعي على طهارةٍ، وتقديمِ صلاةٍ على دعائِهِ، والصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ في وسطِ الدُّعاءِ وآخرِهِ، وأن لا يدعوَ بمستحيلٍ عادةً كالمشي على الماءِ أو إعادةِ الشبابِ أو طيِّ الزَّمانِ والمكانِ، وأن لا يَخُصَّ نفسَهُ بالدُّعاءِ إن كان إماماً).

(ش: وقد ذكر الشيخُ علوان الحمويُّ رحمه الله تعالى آدابَ الدُّعاء في نظمِهِ فقال:

اِعْزِمْ سُؤَالًا وَلَا تَشْكُكْ بِمَوْعِدِهِ ... وَلَا تَسَلْ لِحَرَامٍ إِنْ تَسَلْ تُلَمِ
وَلَا لِمَنْزِلَةٍ لِلأَنْبِيَا قُسِمَتْ ... وَلَا بِمَوْتٍ عَلَى كُفْرٍ لِذِي السَّلَمِ
وَلَا عَلَى النَّفْسِ وَالأَهْلِينَ قَاطِبَةً ... بِالسُّوءِ قُلْ هَكَذَا فِي الْمَالِ وَالْخَدَمِ
وَلَا تَمَنَّ لِمَوْتٍ إِنْ بُلِيتَ نَعَمْ ... إِنْ خِفْتَ مِنْ فِتْنَةٍ فِي الدِّينِ لَمْ تُلَمِ

---

(١) ينظر: (روض القلوب المستطاب) (٢٤٨- ٢٤٩).

مِنْ غَيْرِ جَزْمٍ وَبِالتَّفْوِيضِ سَلْ فَإِذَا ... كَانَ الدُّعَـاءُ كَذَا تَمْشِـي عَلَى قِوَمِ
وَلَا تُبَالِغْ بِرَفْعِ الصَّوْتِ فِي طَلَبِ ... وَلَا تَمِـلْ نَحْـوَ تَسْـجِيعٍ وَلَا نَغَمِ
وَالسَّـجْعُ إِنْ لَمْ تُكَلَّفْ فِيهِ مُؤْتَثَرٌ ... وَكُلْ حَـلَالًا تُجَـبْ أَوْ لَا فَتُحْتَرَمِ
أَكْلُ الْحَلَالِ وَتَقْوَى اللهِ قُطْبُ هُدًى ... فِـي كُلِّ حَالٍ فَخُذْهُ عَنْ ذَوِي الْهِمَمِ
وَلَا تَكُـنْ بِجَبَـانٍ عِنْـدَ مَسْـأَلَةٍ ... أَعْظِمْ سُـؤَالَكَ فَالْمَسْؤُولُ ذُو عِظَمِ
إِنْ لَمْ تُجَبْ فِي سُؤَالٍ لَا تَدَعْهُ وَلَا ... تَيْـأَسْ فَتَتْـرُكْ دُعَـاءَ اللهِ ذِي الْكَرَمِ
وَلَا تَوَهَّـمْ بِذَنْـبٍ كَانَ ذَا كِبَـرٍ ... فَقَـدْ أُجِيـبَ عَـدُوُّ اللهِ مِـنْ قِـدَمِ
وَاحْذَرْ مِنَ الظُّلْمِ لَا تَأْمَنْ عَوَاقِبَهُ ... فَدَعْـوَةُ الْعَبْـدِ مَظْلُومًا مِـنَ النِّقَمِ
تَسْـرِي إِلَى رَبِّهِ لَا شَيْءَ يَحْجُبُهَا ... كَـذَا وَوَالِـدُ مَوْلُـودٍ مِـنَ النَّسَـمِ
مُسَـافِرٌ وَوَلِـيٌّ مُسْـتَجَابُ دُعًـا ... فَاحْذَرْ أَذًى وَاتَّعِظْ مِنْ فِعْلِ سَعْدِهِمِ
وَاطْلُبْ دُعَاءً مِنَ الْأَبْرَارِ أَجْمَعِهِمْ ... وَمِنْ فَتًـى رَامَ حَجَّ الْبَيْـتِ وَالْحَرَمِ
وَاسْـأَلْ إِلَهَكَ لِلإِخْوَانِ نَيْلَ رِضًا ... فِي ظَهْـرِ غَيْبٍ تُجَبْ بِالْمِثْلِ فَاغْتَنِمِ
اِبْـدَأْ بِنَفْسِـكَ وَالآبَـاءِ قَاطِبَـةً ... ثُـمَّ الْقَرِيـبِ وَبِالْجِيـرَانِ كُلِّهِـمِ
عَمِّمْ بِدَعْوَتِكَ الإِسْلَامَ تَلْقَ هُدًى ... ذُكُورَهُـمْ وَإِنَاثًـا مَيْـتَ حَيِّهِـمِ
لَا تَنْسَ مَنْ مَاتَ يَا ذَا مِنْ جَمِيلِ دُعًا ... فَالْمَيْتُ مِثْـلُ غَرِيقٍ وَسْـطَ مُلْتَطِمِ
فَإِنْ تَصِلْ دَعْـوَةٌ مِنْ أَهْلٍ اوْ أَحَدٍ ... مِـنَ الأَجَانِبِ كَانَـتْ أَكْبَـرَ النِّعَمِ
وَاخْتِمْ بِحَمْدٍ وَتَسْلِيمٍ وَصَلِّ عَلَى ... مُحَمَّـدِ الْمُجْتَبَى لِلْعُـرْبِ وَالْعَجَمِ
وَامْسَحْ بِكَفَّيْكَ وَجْهًا لَا الْقُنُوتَ فَدَعْ ... وَظَهْـرَ كَفٍّ لِرَفْـعِ الضُّـرِّ وَالْغَمَمِ
وَالِاسْمُ الأَعْظَمُ إِنْ تَبْغِ الدُّعَاءَ بِهِ ... اللهَ فَاسْـأَلْ بِهِ مَـعْ حَـرْفِ مِيمِهِمِ
وَاسْأَلْ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى تُصِبْهُ بِهَا ... قَـدْ صِيـنَ جَوْهَـرُهُ فِيهَا فَـلَا تَهِمِ
وَقِيـلَ يَا حَيُّ يَـا قَيُّـومُ فَاغْتَنِمَنْ ... وَاجْـأَرْ بِذَيْنِ مِـنَ الإِتْمَـامِ لِلنِّعَمِ

وَقِيلَ فِيهِ هُوَ التَّهْلِيلُ فَادْعُ بِهِ ... ذُو النُّونِ فَاهَ بِهِ فِي بَطْنِ حُوتِهِمِ
كَرِّرْهُ بَعْدَ صَلَاةٍ فِي الدُّجَى سَحَرًا ... كَقِهْ بِجُمَّلِهِمْ فَافْهَمْ لِحَسْبِهِمِ
مِئَةٌ وَخَمْسًا وَعِشْرِينَ أُخَيَّ إِذًا ... تُكْفَى مِنَ الْكَرْبِ إِذْ يَغْشَى كَلَيْلِهِمِ
إِنْ مَسَّكَ الضُّرُّ فَاجْأَرْ بِالدُّعَاءِ كَمَا ... دَعَا بِهِ الْمُبْتَلَى أَيُّوبُ ذُو السَّقَمِ
فِي آخِرِ اللَّيْلِ صَطٌّ فِي الْحِسَابِ فَقَدْ ... يَا صَاحِ جَرَّبَهَا الأَخْيَارُ فَاحْتَزِمِ[1]
لِدَفْعِ ظُلْمٍ وَضَيْمٍ بَعْدَ سَجْدَتِهِمْ ... وَفِي الصَّحِيحِ دُعَاءُ الْكَرْبِ كَالْعَلَمِ

وقد سُئِلَ إبراهيمُ بنُ أدهم ـ رحمه الله ـ عن قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ إننا ندعو ولا يستجاب لنا، فقال: لأنَّ قلوبَكم ماتَتْ بعشرةٍ:

١. عرفتم الله ولم تؤدُّوا حقَّهُ.

٢. قرأتُم كتابَ اللهَ ولم تعملوا به.

٣. ادَّعيتُم حُبَّ رسول الله ﷺ ـ وتركتم سنته.

٤. ادَّعيتُم عداوةَ الشيطان وواليتموه.

٥. ادَّعيتُم حبَّ الجنَّة ولم تعملوا لها.

٦. ادَّعيتُم خوفَ النار ولم تنتهوا عن الذنوب.

٧. ادَّعيتُم أنَّ الموتَ حقٌّ ولم تستعدوا له.

٨. اشتغلتم بعيوبِ غيركم وتركتم عيوب أنفسكم.

٩. دفنتم موتاكم ولم تعتبروا.

١٠. أكلتم رزق الله ولم تشكروه)[2].

---

(١) قوله (صَطٌّ فِي الْحِسَابِ) أي (٩٩) مرة لأن الطاء = ٩ والصاد = ٩٠.

(٢) ينظر: (سمير المؤمنين) (٢٧٥).

فضيلة الاستغفار

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قال ﷺ: «مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِر»(٢).

وقال ﷺ: «إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»(٣)، هذا مع أنَّه غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ.

وقال ﷺ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»(٤).

وإنَّ أفضلَ الاستغفارِ وسيِّدَهُ: «اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ»(٥).

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٤).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٤٦٩).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٤) رواه أبو داود (١٥١٨).

(٥) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(م: فعلى كلِّ مريدٍ صادقٍ ومستغفرٍ تائبٍ أن يحذرَ أن يكونَ استغفارُهُ مُناقِضاً لحالِهِ وعملِهِ).

قال الفضيلُ رحمه الله: (الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكذَّابين)[١].

وقال بعضُ العلماء: (مَنْ قَدَّمَ الاستغفارَ على النَّدمِ كان مُستهزئاً بالله عزَّ وجلَّ وهو لا يعلم)[٢].

وقالت رابعةُ العدويّةُ رحمها الله: (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ كثيرٍ)[٣].

(ش: مَنْ لم يكن له انكسارٌ حقيقيٌّ لم يكن له استغفارٌ حقيقيٌّ.

قال الإمام الشعراني قُدِّسَ سرُّه: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نُكثِرَ مِنَ الاستغفارِ ليلاً ونهاراً، سواءٌ استحضرنا ذنوبَنا أو لم نستحضرها، وهذا العهدُ يُخِلُّ به كثيرٌ مِنَ المتصوِّفة الذين لم يُفطَموا على يد شيخٍ، فيُزيِّنُ الشيطانُ لهم أنهم صاروا موحِّدين، لا فعلَ لهم مع الله تعالى، فلا يكادُ أحدُهم يستحضرُ له ذنباً يستغفرُ اللهَ منه، ورُبَّما قال في نفسِهِ: بعيدٌ أنَّ مثلي يُعذِّبُهُ الله، ولو كَشَفَ الله عن بصيرته كما كشفَ للعارفين لرأى أنه استحقَّ الخسفَ به في الدُّنيا ودخولَ النار في العقبى؛ إذ العبدُ سَداهُ ولُحمَتُهُ ذنوبٌ، وكم وقعَ العبدُ في ذنبٍ ونسيَهُ، وسيبدو له ذلك في يوم القيامة، فأكثرْ ـ يا أخي ـ مِنَ الاستغفار.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواصُ يتفقَّدُ أعضاءَهُ مِنْ رأسِهِ إلى قدمِهِ كلَّ يومٍ صباحاً ومساءً، ويتوب إلى الله تعالى مِنْ جنايةِ كلِّ عضوٍ ذلك اليوم، لا سيَّما

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٧٧٧) عن ذي النون المصري.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٦٧٧٨).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٨٩).

الأذنُ والعينُ واللِّسانُ والقلبُ، ويقول: إنَّ الاستغفار يُطفِئُ غضبَ الجبّار، ومَنْ قال: «أستغفرُ الله» لم يبقَ عليه ذنبٌ إن شاء الله تعالى، لا سيَّما إن أشرفَ الإنسانُ على معترك المنايا، وضاق عمرُهُ عن العمل الصالح؛ فإنَّ هذا ما بقي له شيءٌ أنفعُ مِنَ الاستغفار.

وسمعتُ سيِّدي عليّاً الخواصَ ـ رحمه الله ـ يقولُ: ما توقَّفَ عن أحدٍ حاجةٌ مِنْ حوائجِ الدنيا والآخرة إلا مِنْ تركِهِ الاستغفار، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣] الآيةَ، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

فاعلم أنَّه ما لِمَنْ عُزِلَ عن وظيفتِهِ أو حُبِسَ على جريمته أو دَيْنِهِ أنفعُ مِنْ كثرةِ الاستغفار، وذلك أنَّ العزلَ والحبسَ خِزْيٌ للعبد بين الناسِ ونكال، فإذا أرضى ربَّه بالاعترافِ والاستغفارِ ورضي عنه ربُّهُ أخرجَهُ لوقتِهِ مِنَ السجن، فإن استغفر ولم يُطْلِقْهُ الحقُّ تعالى فهو دليلٌ على أنَّ الحقَّ تعالى لم يقبل توبتَهُ، وأنَّ عنده بقيّةُ تجبُّرٍ أو ميلٍ إلى معصية.

وقد جُرِّبَ أنَّ كلَّ مَنْ أحكمَ سَدَّ بابِ المعاصي لم تُرَدَّ له دعوةٌ؛ لأنه يصيرُ كالملائكةِ، فلا تقعْ ـ يا أخي ـ في المعاصي وتطلب إجابةَ دعائك؛ فإنَّ ذلك لا يكون، وإن كان فهو استدراجٌ، فكما دعاكَ الحقُّ تعالى إلى طاعته فلم تُجِبْهُ كذلك دعوتَهُ فلم يستجب لك، وكما أسرعت إلى طاعته حين دعاكَ إليها، كذلك أسرعَ الحقُّ تعالى بإجابتِكَ على الفورِ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦][(١)].

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٢٣، ٤٢٤).

فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(م: ومِنْ فوائدِ هذه الآيةِ أنَّ هذه الجملةَ ـ إن الله وملائكته يُصلُّون على النبيّ ـ جملةٌ اسميّةٌ تدلُّ على دوامِ الحدث، و«يُصلُّون» فعلٌ مضارعٌ يفيدُ التَّجدُّدَ للصلاة، فيستفاد مِنْ ذلك دوامُ صلاةِ الله وملائكتِهِ على النَّبيِّ ﷺ لا بصلاةٍ واحدةٍ تستغرقُ المدَّةَ، لكنْ بتوالي الصلواتِ في كلِّ حينٍ إلى أبدِ الآباد، فلا يُصلِّي أحدٌ على النَّبيِّ ﷺ في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقات إلّا ويُوافِقُ عملُهُ عملاً مِنْ أعمالِ الباري سبحانه وملائكتِهِ المقرَّبين، فلذا كانت الصلاةُ عليه ﷺ مِنْ أعظمِ القربات).

(ش: لا تخفى أهميةُ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ على أحدٍ ممّن له أدنى نصيب مِنَ التصديقِ بطريق أهل الله، بل قد أجمعَ المحقِّقون والعارفون بالله أنَّ الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ تنوبُ عن المرشدِ الكاملِ عندَ فقدِهِ، بل لا بُدَّ منها حتَّى مع وُجُودِهِ[١].

---

(١) وللصلاة على النبي ﷺ صيغٌ كثيرةٌ:

١. منها ما يتعلق بجانب الكم كـ «دلائل الخيرات» للإمام الجزولي رحمه الله تعالى، ومن أفضل شروحه: «مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات» للشيخ محمد المهدي الفاسي.

٢. ومنها ما يتعلق بجانب الكيف، وهي كثيرة جداً: =

وكلُّ شيخٍ لا يُمكِّنُ في قلبِ مريديه كمالَ التَّعلُّقِ به ﷺ فهو مفترٍ كذّابٌ، لم يعرف للطريق طعماً، بل يجب الحذرُ والتحذيرُ منه؛ لأنَّه دَجّالٌ وقاطعُ طريقٍ، ولو ادَّعى ما ادَّعى مِنَ الأحوال، وعن قريبٍ تُكذِّبُهُ شواهدُ الامتحان ويُبتلَى بالنَّكصِ والخذلان، ولذا قلتُ غفر الله لي:

لَا تَتْبَعَنْ مَـنْ يَدَّعِي الوُصُولَا ... مَا لَمْ يَكُنْ فِـي حَالِهِ مَوْصُولَا
بِسَـيِّدِ الوُجُـودِ وَالأَنَـامِ ... مُحَمَّـدٍ ذِي القَـدْرِ وَالمَقَـامِ

وقال الإمام الشعراني ـ قُدِّسَ سِرُّهُ: اعلم ـ يا أخي ـ أنَّ طريقَ الوصولِ إلى حضرةِ الله مِنْ طريقِ الصلاةِ على النبي ﷺ مِنْ أقربِ الطرقِ، فَمَنْ لم

= ـ منها «الصلاة المشيشية» لسيدي عبد السلام بن مشيش، ومزجُها المشهور بـ «الوظيفة الشاذلية» لمولانا العربي الدرقاوي، وتنسب لسيدي أبي المواهب الشاذلي، ولهما شروح كثيرة، فمن شروح الوظيفة: «كشف الأسرار لتنوير الأفكار» شرح الشيخ مصطفى نجا البيروتي.
ـ ومنها «الصلوات» للشيخ عبد القادر الجيلاني، ومن أفضل شروحها «كوكب المباني وموكب المعاني شرح صلوات سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني» للشيخ عبد الغني النابلسي.
ـ ومنها «الصلاة الفيضية» للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، ولها شروح كثيرة، منها: شرح القاوقجي والنابلسي.
ـ ومنها «الصلوات الإدريسية» ومن أفضل شروحها: «النفحات الأقدسية» للشيخ بهاء الدين البيطار.
ـ ومنها «الصلوات الدرديرية» لمولانا الشيخ أحمد الدردير، ومن أفضل شروحها: «الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية» للشيخ أحمد الصاوي.
هذا وقد جمع الولي الكبير الشيخ يوسف النبهاني كتباً تجمع الصلوات على النبي ﷺ مما يتعلق بالكم أو الكيف، فمنها: «جامع الصلوات ومجمع السعادات في الصلاة على سيد السادات»، ومنها: «سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين ﷺ».
تنبيه: مَنْ أراد الفهمَ التامَ وكمالَ الانتفاعِ فليقرأ الكتب المذكورةَ على شيخٍ ذائقٍ متقنٍ؛ ليأمَنَ الوقوعَ في اللَّبس والوهم، وليسريَ إليه مددُ التنويرِ والفهم.

يخدمه ﷺ الخدمةَ الخاصَّةَ به وطَلَبَ دخولَ حضرةِ الله فقد رام المحال، ولا يُمكِّنُهُ حُجّابُ الحضرةِ أن يدخل، وذلك لجهلِهِ بالأدبِ مع الله تعالى، فحكمُهُ حكمُ الفلاَّحِ إذا طَلَبَ الاجتماعَ بالسلطانِ بغير واسطةٍ، فافهم. فعليك بالإكثارِ مِنَ الصلاةِ على رسول الله ﷺ، ولو كنت سالماً مِنَ الخطايا؛ لتصحَّ لك معه الصُّحبةَ البرزخية، واعلم أنَّ الصحبةَ البرزخيةَ تحتاجُ إلى صفاءٍ عظيم، حتى يصلحَ العبدُ لمجالسته ﷺ، ومَنْ كان له سريرةٌ سيئةٌ يستحي مِن ظهورِها في الدنيا والآخرة لا تصحُ له صحبةٌ مع رسولِ الله ﷺ ولَوْ كان على عبادة الثقلين، كما لم تنفع صحبةُ المنافقين، ومثلُ ذلك تلاوةُ الكفار للقرآن، لا ينتفعون بها لعدم إيمانهم بأحكامِهِ[1].

وقال ـ قُدِّسَ سِرُّهُ: وكذلك السَّلامُ على رسول الله ﷺ، معناهُ: أنتَ في أمانٍ منَّا يا رسول الله أن نُخالِفَ شريعتَك، فيحصلُ عند رسولِ الله ﷺ طمأنينةُ القلبِ على ذلك الذي سلَّم عليه أن يقع في معصية الله عزَّ وجلَّ، وذلك لكمال وُفُورِ شفقتِه ﷺ على أمَّته[2].

ورُوِيَ أنَّه ﷺ جاء ذاتَ يومٍ والبُشرى تُرى في وجهِهِ فقال: «إِنَّهُ جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى يا مُحَمَّدُ أَنْ لا يُصَلِّيَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاةً وَاحِدَةً إلاَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْراً وَلا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْراً»[3].

وقال ﷺ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً»[4].

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٣٧ . ٤٣٨).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٤٧٤).

(٣) رواه النسائي (٣/ ٤٤) بنحوه.

(٤) رواه الترمذي (٤٨٤).

ورُوِيَ عن أبي الحسن الشافعيّ قال: رأيتُ النّبيَّ ﷺ في المنام فقلتُ: يا رسولَ الله بِمَ جُزِيَ الشّافعيُّ عنكَ حيث يقولُ في كتابه «الرّسالةِ»: وصلّى الله على محمّدٍ كلّما ذَكَرَهُ الذاكرون وغَفَلَ عن ذكره الغافلون؟ فقال: جُزِيَ عنّي أنَّه لا يوقفُ للحساب[1].

(م: هذا وقد صنَّفَ العلماءُ كتباً لا تُعدُّ ولا تُحصى في فضائل الصَّلاةِ على النَّبيّ ﷺ يطولُ ذكرُها والاقتباسُ منها، فلنُورِدْ هنا جملةً مِمّا ذكروه مِنَ الفوائد، فمنها:

١. امتثالُ أمرِهِ تعالى.

٢. صلاةُ الله تعالى على المصلّي.

٣. إثمارُ محبَّتِهِ ﷺ في القلب.

٤. كفايةُ الهموم.

٥. غفرانُ الذُّنوب.

٦. نفيُ الفقرِ وضيقِ العيشِ.

٧. هدايةُ العبدِ وحياةُ قلبِهِ.

٨. تطهيرُ القلبِ مِنَ النِّفاقِ والصَّدأِ.

٩. عرضُ اسمِ المصلّي للنبي ﷺ.

١٠. شفاعتُهُ ﷺ في الآخرةِ.

فهذه عشرةُ فوائدَ تحصلُ لكلِّ مَنْ أكثرَ مِنَ الصلاةِ على النَّبيِّ ﷺ، فنسألُ

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٤٣٦).

الله الكريمَ أن يمنَّ علينا بكثرةِ الصَّلاةِ عليه في الدُّنيا، لنكونَ مِنَ المقرَّبين لديه يومَ القيامة، يوم يفتقرُ العبادُ إلى مَنْ يقوم شفيعاً، فيظهرُ مقامُهُ للعالمين جميعاً، إنَّه قريبٌ مجيبٌ) .

❊

الكتاب العاشر من ربع العبادات
في ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

(خيرُ ما تطلبُهُ منه ما هو طالبُهُ منكَ)[١]

(مَنْ أَنْفَقَ زَمَانَهُ في الضَّياعِ حُرِمَ بركةَ الجِدِّ والانتفاع)[٢]

(مَنْ لَيسَ لَهُ وِرْدٌ فليس له واردٌ)

اعلم أنَّ الناظرين بنورِ البصيرةِ علموا أنَّه لا نجاةَ إلا في لقاء الله تعالى، وأنَّه لا سبيلَ إلى اللِّقاءِ إلا بأن يموتَ العبدُ مُحِبّاً لله وعارفاً به سبحانه، وأنَّ المحبّةَ والأُنْسَ لا تحصلُ إلا مِنْ دوامِ ذكرِ المحبوبِ والمواظبةِ عليه، وأنَّ المعرفةَ به لا تحصلُ إلا بدوامِ الفكرِ فيه وفي صفاتِهِ الغلى وأفعالِهِ، وليس في الوجودِ سوى الله عزَّ وجلَّ وأفعالِهِ، ولن يَتَيَسَّرَ دوامُ الذِّكرِ والفكرِ إلا بوداعِ الدُّنيا وشهواتِها، والاجتزاءِ منها بقدرِ البُلغةِ[٣] والضَّرورة، وكلُّ ذلك لا يتمُّ إلا باستغراقِ أوقاتِ الليلِ والنهارِ في وظائفِ الأذكارِ والإفكارِ.

والنَّفسُ لِمَا جُبِلَتْ عليه مِنَ السآمةِ والمَلالِ لا تصبرُ على فنٍّ واحدٍ مِنَ الأسبابِ المعينةِ على الذِّكرِ والفكرِ، بل إذا رُدَّتْ إلى نمطٍ واحدٍ أَظْهَرَتِ

(١) الحكمة (٧٥) من الحكم العطائية.

(٢) ينظر: (قوانين حكم الإشراق) (٨٠).

(٣) البُلْغَةُ: ما يكفي لسدِّ الحاجة ولا يفضُل عنها.

المَلال والاستثقال، وإنَّ الله تعالى لا يملُّ حتَّى تملُّوا كما جاء في الحديث[1].

فَمِنْ ضرورةِ اللُّطفِ بها أن تُروَّحَ بالتَّنقُّلِ مِنْ فَنٍّ إلى فنٍّ، ونوعٍ إلى نوعٍ، بحسبِ كلِّ وقتٍ لِتَغْزُرَ بالانتقالِ لذَّتُها، وتعظُمَ باللَّذَّةِ رغبتُها، وتدومَ بدوامِ الرغبةِ مواظبتُها، فلذلك تُقسَّمُ الأورادُ قسمةً مختلفةً.

فالذكرُ والفكرُ ينبغي أن يستغرقا جميعَ الأوقاتِ أو أكثرَها؛ فإنَّ النَّفسَ مائلةٌ إلى ملاذِّ الدنيا، فإنْ صَرَفَ العبدُ شطرَ أوقاتِهِ إلى تدبيراتِ الدُّنيا وشهواتِها المباحةِ مثلاً، والشَّطرَ الآخرَ إلى العباداتِ رجحَ جانبُ الميلِ إلى الدُّنيا لموافقتِها الطَّبعَ؛ إذ يكونُ الوقتُ متساوياً، فأنَّى يتقاومانِ والطَّبعُ لأحدِهما مُرجِّحٌ؟ إذ الظاهرُ والباطنُ يتساعدان على أمورِ الدنيا، ويصفو في طلبها القلبُ ويتجرَّدُ، وأما الرَّدُّ إلى العباداتِ فمتكلَّفٌ، ولا يَسْلَمُ إخلاصُ القلبِ وحضورُهُ إلا في بعض الأوقات.

فَمَنْ أراد أن يدخلَ الجنّةَ بغير حسابٍ فليستغرقْ أوقاتَهُ في الطاعة، ومَنْ أراد أن تترجَّحَ كفةُ حسناتِهِ وتثقُلَ موازينُ خيراتِهِ فليستوعبْ في الطاعة أكثرَ أوقاتِهِ، فإن خَلَطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً فأمرُهُ مُخطِرٌ، ولكنِ الرجاءُ غيرُ منقطعٍ، والعفوُ مِنْ كرمِ الله مُنتظَرٌ، فعسى الله أن يغفرَ له بجودِهِ وكرمِهِ.

فهذا ما انكشفَ للناظرين بنور البصيرة؛ فإن لم تكن مِنْ أهلِهِ فانظرْ إلى خطابِ الله سبحانه لرسوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۞ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٧ - ٨].

---

(١) رواه البخاري (٤٣).

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦].

وقال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

فكلُّ هذه الآياتِ دالّةٌ على أنَّ الطريقَ إلى الله تعالى مراقبةُ الأوقاتِ، وعمارتُها بالأوراد على سبيل الدَّوام.

(ش: قال الإمام الشعراني ـ قدس سره ـ في وصف المريد الصادق: ومِنْ شأنِهِ أن لا يُطيعَ المللَ مِنْ قراءةِ الأوراد التي أمرَهُ بها شيخه؛ فإنَّ كلَّ شيخٍ قد جَعَلَ الله مددَهُ وسِرَّهُ وسرَّ طريقتِهِ في أورادِهِ التي يأمرُ بها المريد، فَمَنْ تَرَكَ وردَهُ فقد نَكَثَ عهدَ شيخِهِ، وأجمعوا على أنه ما قَطَعَ مريدٌ وِرْدَهُ إلا انقطعت عنه الأمدادُ في ذلك اليوم، وإيضاحُ ذلك أنَّ طريقَ القومِ طريقُ تصديقٍ وتحقيقٍ وجهدٍ وعملٍ وغضِّ بصرٍ وطهارةِ قلبٍ ويدٍ وفرجٍ ولسانٍ، ومَنْ خالَفَ شيئاً مِنْ أفعالها رَفَضَتْهُ الطَّريقُ كُرهاً عليه)[١].

ومِنْ تلك الأوراد أن يقرأ المسبَّعاتِ العشرَ التي أهداها الخضرُ ـ عليه السلام ـ إلى إبراهيمَ التيميِّ رحمه الله ووصَّاهُ أن يقولَها غدوةً وعشيّةً، فقد رُوِيَ عن كرزِ بنِ وبرةَ رحمه الله، وكان مِنَ الأبدال، قال: أتاني أخٌ لي مِنَ أهل الشامِ فأهداني هديةً وقال: يا كرزُ، اقبلْ منِّي هذه الهديةَ؛ فإنَّها نعمتِ الهديّة، فقلتُ: يا أخي مَنْ أهدى لكَ هذه الهدية؟ قال: أعطانيها إبراهيمُ التَّيميُّ، قلتُ له: أفلم تسأل إبراهيمَ مَنْ أعطاهُ إيَّاها؟ قال: بلى: قال: كنتُ جالساً في فناء الكعبةِ وأنا

(١) ينظر: (الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية) (٦٣ ـ ٦٤).

في التهليلِ والتسبيحِ والتحميدِ والتمجيد، فجاءني رجلٌ فسلَّمَ عليَّ وجلسَ عن يميني، فلم أرَ في زماني أحسنَ منه وجهاً، ولا أحسنَ منه ثياباً، ولا أشدَّ بياضاً، ولا أطيبَ ريحاً منه، فقلتُ: يا عبدَ الله، مَنْ أنتَ ومِنْ أين جئت؟ فقال: أنا الخضر، فقلت: في أيِّ شيءٍ جئتني؟ فقال: جئتُكَ للسلامِ عليكَ وحُبّاً لكَ في الله عزَّ وجلَّ، وعندي هديةٌ أريدُ أن أُهديَها إليكَ، فقلتُ: وما هي؟ فقال: أن تقرأَ قبلَ طلوعِ الشمسِ، وقبلَ انبساطِها على الأرضِ، وقبلَ الغروبِ (سورةَ الحمدِ)، و (قل أعوذ برب الناس)، و (قل أعوذ برب الفلق)، و (قل هو الله أحد)، و (قل يا أيها الكافرون)، وآية الكرسي، كلَّ واحدةٍ سبعَ مراتٍ، وتقولَ: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) سبعاً، وتصلِّيَ على النَّبيِّ ﷺ سبعاً، وتستغفرَ لنفسِكَ ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعاً، وتقولَ: (اللهُمَّ افعلْ بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدِّين والدُّنيا والآخرة ما أنتَ له أهلٌ، ولا تفعلْ بنا يا مولانا ما نحن له أهلٌ، إنَّك غفورٌ حليمٌ، جوادٌ كريمٌ، رؤوفٌ رحيمٌ) سبع مرات، وانظر أن لا تدع ذلك غدوةً وعشيّةً.

فقلت: أُحِبُّ أن تخبرني مَنْ أعطاك هذه الهدية؟ فقال: أعطانيها محمَّدٌ ﷺ، فقلتُ: أخبرني بثواب ذلك؟ فقال: إذا لقيتَ محمّداً ﷺ فَسَلْهُ عن ثوابه، فإنَّه يُخبِرُكَ بذلك.

فَذَكَرَ إبراهيمُ التيميُّ أنَّه رأى ذاتَ يومٍ في منامه كأنَّ الملائكةَ جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنةَ، فرأى ما فيها، ووصفَ أموراً عظيمةً مما رآه في الجنة، قال: فسألتُ الملائكةَ فقلتُ: لِمَنْ هذا كلُّهُ؟ فقالوا: للذي يعملُ مثلَ عملِكَ، وذَكَرَ أنَّه أكلَ مِنْ ثمرِها وسَقَوهُ مِنْ شرابِها، قال: فأتاني النَّبيُّ ﷺ ومعه

سبعونَ نبياً وسبعون صَفّاً مِنَ الملائكة، كلُّ صَفٍّ مثلُ ما بين المشرقِ والمغربِ، فسلَّمَ عليَّ وأخذَ بيدي، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ الخضرَ أخبرني أنَّه سَمِعَ منكَ هذا الحديثَ، فقال ﷺ: صَدَقَ الخضرُ، وكلُّ ما يحكيه فهو حقٌّ، وهو عالِمُ أهلِ الأرض، وهو رئيسُ الأبدالِ، وهو مِنْ جنودِ الله في الأرضِ، فقلتُ: يا رسولَ الله: فَمَنْ فَعَلَ هذا أو عَمِلَهُ ولم يرَ مثلَ الذي رأيتُ في المنام، هل يُعطَى شيئاً مما أُعطيتُهُ؟ فقال: والذي بَعَثَني بالحقِّ نبياً، إنَّه ليُعطَى العاملُ بهذا وإن لم يرني ولم يَرَ الجنّة، إنَّه ليُغفَرُ له جميعُ الكبائرِ التي عَمِلَها، ويرفعُ الله عنه غضبَهُ ومقتَهُ، ويأمرُ صاحبَ الشمالِ أن لا يكتبَ عليه شيئاً مِنَ السَّيِّئات إلى سنةٍ، والذي بعثني بالحقِّ نبياً، ما يعملُ بهذا إلا مَنْ خلقَهُ الله سعيداً، ولا يتركُهُ إلا مَنْ خلقَهُ الله شقيّاً، وكان إبراهيمُ التيميُّ يمكثُ أربعةَ أشهرٍ لم يطعم ولم يشرب، فلعلَّه كان بعدَ هذه الرُّؤيا[١].

واعلم أنَّ المقصودَ مِنَ الأورادِ تزكيةُ القلبِ وتطهيرُهُ وتحليتُهُ بذكرِ الله تعالى، وإيناسُهُ به.

قال بعضُ العلماء: (ليس في الدُّنيا وقتٌ يُشبِهُ نعيمَ أهلِ الجنة إلا ما يجدُهُ أهلُ التَّملُّقِ في قلوبهم بالليل مِنْ حلاوةِ المناجاة)[٢].

وقال بعضُهم: (لذَّةُ المناجاةِ ليست مِنَ الدُّنيا، إنَّما هي مِنَ الجنة أظهرَها الله تعالى لأوليائه، لا يجدُها سواهم)[٣].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٧).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٣٦).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٣٦).

وقال الفضيلُ بنُ عياض رحمه الله: (إذا غَرَبَتِ الشمسُ فَرِحْتُ بالظلامِ لخلوتي بربي، وإذا طلعَتْ حزنتُ لدخولِ الناسِ عليَّ)(١).

فلينظر المريدُ إلى قلبِهِ، فما يراه أشدَّ تأثيراً فيه فليواظِبْ عليه، فإذا أحسَّ بملالةٍ منه فلينتقل إلى غيره؛ لأنَّ الملالَ هو الغالبُ على الطبعِ، فلذلك الأصوبُ لأكثرِ الخلقِ توزيعُ الخيراتِ المختلفةِ على الأوقات.

وأمَّا المُوحِّدُ المستغرِقُ بالواحد الصَّمدِ، الذي أصبحَ وهمُّهُ همٌّ واحدٌ، فلا يحبُّ إلا الله، ولا يخافُ إلا منه، ولا يتوقَّعُ الرِّزقَ مِنْ غيره، ولا ينظر في شيء إلا يرى الله تعالى فيه، فَمَن ارتفعتْ رتبتُهُ إلى هذه الدرجةِ لم يفتقر إلى اختلاف الأوراد، بل كان وردُهُ بعدَ المكتوبات واحداً، وهو حضورُ القلبِ مع الله في كلِّ حال، فهؤلاء لا يخطرُ بقلوبِهم أمرٌ، ولا يقرعُ سمعَهم قارعٌ، ولا يلوحُ لأبصارهم لائحٌ إلا كان لهم فيه عبرةٌ وفكرٌ ومزيد، فلا مُحرِّكَ لهم ولا مُسكِّنَ لهم إلا الله، فلا يتميَّزُ عندهم عبادةٌ عن عبادة، وهم الذين فَرُّوا إلى الله، كما قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وتحقَّقَ فيهم قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦]، وإليه الإشارةُ بقولِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]. وهذه منتهى درجاتِ الصِّدِّيقين، ولا وصولَ إليها إلا بعدَ ترتيبِ الأورادِ، والمواظبةِ عليها دهراً طويلاً.

فلا ينبغي أن يغترَّ المريدُ بما سَمِعَهُ مِنْ ذلك فَيَدَّعِيَهُ لنفسه ويفترَ عن وظائفِ عبادة الله تعالى؛ فإنَّ علامتَهُ أن لا يهجسَ في قلبِهِ وسواسٌ، ولا يخطرَ لقلبه

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٣٦).

معصيةٌ، ولا تُزعِجُهُ هواجمُ الأهوال والأحوال، ولا تَسْتَفِزُّهُ عظائمُ الأشغالِ، وأنَّى يُرزَقُ هذه الرُّتبةَ كلُّ واحد؟

وجميعُ ما ذكرنا طرقٌ إلى الله تعالى عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤]. فكلُّهم مهتدون وبعضُهم أهدى.

قال بعض العلماء: الإيمانُ ثلاثُ مئةٍ وثلاثة عشر خلقاً بعددِ الرُّسل، كلُّ مؤمنٍ على خلقٍ منها، فهو سالكٌ للطريق إلى الله عزَّ وجلَّ، فإذاً الناسُ وإنْ اختلفت طرقُهُم في العبادة فكلُّهم على الصواب، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾، وإنما يتفاوتون في درجات القربِ لا في أصلِهِ، وأقربُهُم إلى الله عزَّ وجلَّ أعرفُهم به، وأعرفُهُم به لا بُدَّ أن يكونَ أعبدَهُمْ له، فَمَنْ عَرَفَهُ لم يعبد غيرَهُ.

والأصلُ في الأورادِ في حقِّ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ المداومةُ؛ فإنَّ المرادَ منه تغييرُ الصِّفاتِ الباطنةِ.

واعلم أنَّ اللياليَ المخصوصةَ بمزيدِ الفضلِ التي يتأكَّدُ فيها استحبابُ الإحياءِ في السَّنةِ خمسَ عشرةَ ليلةً، لا ينبغي أن يغفلَ المريدُ عنها؛ فإنَّها مواسمُ الخيرات، ومتى غَفَلَ المريدُ عن فضائل الأوقاتِ لم يربح، فستةٌ مِنْ هذه الليالي في شهرِ رمضان، وهي أوتارُ العشرِ الأخير؛ إذ فيها يَطلُبُ ليلةَ القدر، وليلةُ سبعَ عشرةَ مِنْ رمضان، وقال ابن الزبير رضي الله عنه: هي ليلةُ القدر[1]، وأمَّا التِّسعُ الأُخَرُ:

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٦٢).

فأوّلُ ليلةٍ مِنَ المحرَّم، وليلةُ عاشوراءَ، وأوّلُ ليلةٍ مِنْ رجبٍ، وليلةُ النّصفِ منه، وليلةُ سبعٍ وعشرين منه، وهي ليلةُ المعراجِ، وليلةُ النّصفِ مِنْ شعبانَ، وليلةُ عرفةَ وليلتا العيدين، قال النبي ﷺ: «مَنْ أحيا ليلتي العيدِ لم يَمُتْ قلبُهُ يومَ تموتُ القلوبُ»[1].

وأما الأيامُ الفاضلةُ فهي تسعة عشر يستحبُّ مواصلةُ الأورادِ فيها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبعةٍ وعشرين مِنْ رجبٍ، له شرفٌ عظيمٌ، قال النّبيُّ ﷺ: «مَنْ صَامَ يَوْمَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَب كَتَبَ اللهُ لَهُ صِيَامَ سِتِّينَ شَهْراً»[2]، وهو اليومُ الذي أهبطَ الله فيه جبريلَ عليه السلام على محمَّدٍ ﷺ بالرسالة.

ويوم سبعةَ عشرَ مِنْ رمضان، وهو يومُ وقعةِ بدر، ويومُ النّصفِ مِنْ شعبان، ويومُ الجمعةِ، ويوما العيدينِ، والأيّامُ المعلوماتُ، وهي عشرُ ذي الحِجّة، والأيامُ المعدودات، وهي أيّامُ التّشريقِ.

وقد روى أنسٌ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «إِذَا سَلِمَ يَوْمُ الجُمُعَةِ سَلِمَت الأَيَّامُ وَإِذَا سَلِمَ شَهْرُ رَمَضَانَ سَلِمَتِ السَّنَةُ»[3].

ومِنْ فواضلِ الأيامِ في الأسبوعِ يومُ الخميسِ والاثنين، ترفعُ فيهما الأعمالُ إلى الله تعالى.

واعلم أنَّ الخيرَ يدعو إلى الخير، والشَّرَّ إلى الشر، والقليلُ مِنْ كلِّ واحدٍ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٧٨٢).

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٢٨٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/ ٢٣٤).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٤٠)، والبيهقي في الشعب (٣٤٣٤).

منهما يَجُرُّ إلى الكثير، ولذلك قال أبو سليمان الدَّاراني رحمه الله: (لا تفوتُ أحداً صلاةُ الجماعةِ إلا بذنبٍ)[١].

وقال الثوري رحمه الله: حرمتُ قيامَ الليلِ خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنبتُه، قيل: وما ذلك الذنب؟ قال: رأيتُ رجلاً بَكَّاءً، فقلتُ في نفسي: هذا مرائي[٢].

وكما أنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكذلك الفحشاءُ تنهى عن الصلاةِ وسائرِ الخيرات.

فصل في قيام الليل

(م: قال الإمامُ الحداد رحمه الله: واعلم أنَّه يقبحُ بطالبِ الآخرةِ أن لا يكونَ له قيامٌ بالليل، كيفَ والمريدُ لا يزالُ طالباً للمزيد، مُتعرِّضاً للنَّفحاتِ في سائر الأوقات.

وفي بعضِ الكتبِ المنزلة: كذبَ مَنِ ادَّعى محبتي، فإذا جَنَّهُ اللَّيلُ نام عني، أليس كلُّ محبٍّ يحبُّ الخلوةَ بحبيبه؟ وقال الشيخُ إسماعيلُ الجَبرتي رحمه الله: جُمِعَ الخيرُ كلُّه في الليل، وما عُقِدَتْ لوليٍّ ولايةٌ إلا باللَّيل).

واعلم أنَّ مُستغرِقَ الهمِّ بتدبير الدُّنيا لا يتيسَّرُ له القيامُ، فإن قامَ فلا يتفكَّرُ في صلاتِهِ إلا في مهماته، وفي مثل هذا يقال:

يُخَبِّرُنـي البَـوَّابُ أنَّـكَ نائـمٌ وأنـتَ إذا استيقظتَ أيضـاً فنَائِمُ

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٤٠).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٦٢).

وفي الخبرِ الصَّحيحِ عن جابرٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةً لاَ يُوافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى خَيْراً إِلاَّ أَعْطاهُ إِيَّاهُ»[1]، وذلك كلَّ ليلةٍ.

ومطلوبُ القائمين تلك الساعةُ، وهي مبهمةٌ في جملةِ الليلِ كليلة القدرِ في شهر رمضان، وهو كساعةِ يومِ الجمعة.

وشكا بعضُ المريدين إلى أستاذِهِ طولَ سهرِ الليل، وطَلَبَ حيلةً يغلبُ بها النوم، فقال أستاذه: يا بني، إنَّ لله نفحاتٍ في الليل والنهار تصيبُ القلوبَ المستيقظةَ، وتخطىء القلوبَ النائمةَ، فتعرَّضْ لتلك النفحات؛ فقال: يا أستاذ، تركتني لا أنامُ بالليل ولا بالنهار.

واعلم أنَّ هذه النَّفحاتِ بالليل أرجى؛ لِمَا في قيام الليلِ مِنْ صفاءِ القلبِ واندفاعِ الشواغل.

❊

(١) رواه مسلم (٧٥٧).


الربع الثاني
ربع العادات

(٢)

ربع العادات

(معاملتك مع الخلق معاملتك مع الحق)

وفيه عشرة كتب:

١. كتاب آداب الأكل

٢. كتاب آداب النكاح

٣. كتاب آداب الكسب والمعاش

٤. كتاب الحلال والحرام

٥. كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة

٦. كتاب آداب العزلة

٧. كتاب آداب السفر

٨. كتاب آداب السماع والوجد

٩. كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١٠. كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

الكتاب الأول من ربع العادات
في آداب الأكل

(بصفاءِ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ يصلحُ الأمرُ كلُّه)

(مَنْ أكلَ الحلالَ أطاعَ الله شاء أم أبى،
ومَنْ أكلَ الحرامَ عصى الله شاء أم أبى)

(ش: ما أُكِلَ بحضورٍ استُهلِكَ بحضور، وما أُكِلَ بغفلةٍ استُهلِكَ بغفلةٍ)

اعلم أنَّ الأصلَ في الطعام كونُهُ طيّباً، وهو مِنَ الفرائضِ وأصولِ الدِّين.

فَمَنْ أراد أن يأكلَ على هيئةِ السنة:

- فليَغْسِلْ يَدَهُ قبلَ الأكلِ وبعدَهُ؛ لقولِهِ ﷺ: «الوُضُوءُ قَبْلَ الطَّعَامِ يَنْفِي الفَقْرَ، وَبَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ»، وفي رواية: «يَنْفِي الفَقْرَ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ»[1]؛ ولأنَّ اليدَ لا تخلو عن لوثٍ في تعاطي الأعمال، فغسلُها أقربُ إلى النظافةِ والنزاهةِ.

- وليَضَعِ الطعامَ على السُّفْرةِ الموضوعةِ على الأرض، فقد كان رسولُ الله ﷺ إذا أُتِيَ بطعامٍ وضعَهُ على الأرض[2]، وهذا أقربُ إلى التواضع، فإن لم يكن فعلى السُّفْرةِ؛ فإنَّها تُذكِّرُ السَّفرَ، ويتذكَّرُ مِنَ السَّفرِ سفرَ الآخرة، وحاجتَهُ إلى زادِ التقوى.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٩)، وأبو داود (٣٧٦١).

(٢) رواه أحمد في الزهد (٢٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٦٧).

قال أنسٌ ﵁: (مَا أَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى خِوانٍ ولا في سُكُرُّجَةٍ)(١).

وقيل: (أربعٌ أُحدِثَتْ بعدَ رسول الله ﷺ: الموائدُ، والمناخِلُ، والأُشنانُ، والشِّبعُ)(٢).

واعلم أنَّه ليس كلُّ ما ابتُدِعَ بعدَ رسولِ الله ﷺ منهيًّا عنه، بل المنهيُّ عنه بدعةٌ تُضادُّ سنَّةً ثابتةً، وترفعُ أمراً مِنَ الشرعِ مع بقاءِ عِلَّتِهِ، بلِ الابتداعُ قد يجبُ في بعضِ الأحوالِ إذا تغيَّرتِ الأسبابُ، وليس في المائدةِ إلا رفعُ الطَّعامِ عن الأرضِ لتيسيرِ الأكلِ، وليس في الأُشنانِ إلا التنظيفُ، وهو حسنٌ، وليس في المُنخُلِ إلا تطييبُ الطعام، وهو مباحٌ ما لم يَنْتَهِ إلى الكبرِ والتعاظمِ، وأمثالُ ذلك لا كراهةَ فيها، وأما الشِّبعُ فإنَّه مذمومٌ؛ لأنَّه يدعو إلى تهييجِ الشهواتِ، وتحريكِ الأدواءِ في البدن.

(ش: سيما وقد قال الحكماء: «البِطْنة تُذهِبُ الفِطْنة»).

ـ وليجلسْ كما جلسَ رسولُ الله ﷺ؛ فإنَّه جثا للأكلِ على ركبتيه وجلسَ

---

(١) رواه البخاري (٥٣٨٦). الخِوَانُ ـ بكسر الخاء وضمها: ما يؤكل عليه، والأكلُ عليه مِنْ دأبِ المترفين والجبارين؛ لئلا يفتقروا إلى التطأطؤ والانحناءِ عند الأكل، والسُّكُرُّجَةُ: إناءٌ صغير يؤكل فيه الشيءُ القليلُ من الأُدْمِ، وهي فارسية، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها كذا في النهاية. قيل: والعجمُ كانت تستعملُها في الكوامخ وما أشبهَها مِنَ الجوارشات يعني: المُخلَّلات على الموائد حولَ الأطعمة للتشهي والهضم، فأخبرَ أنسٌ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ لم يأكل على هذه الصفة قط.

قال العراقيُّ في شرح الترمذي: تركُهُ الأكلَ في السُّكُرُّجةِ إما لكونها لم تكن تصنعُ عندهم إذ ذاك، أو استصغاراً له؛ لأنها كانت تُعَدُّ لوضعِ الأشياءِ التي تُعينُ على الهضم، ولم يكونوا غالبًا يشبعون، فلم يكن لهم حاجةٌ بالهضم. ينظر: (تحفة الأحوذي) (٥/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٣).

على ظهرِ قدميه(١)، وربَّما نَصَبَ رجلَهُ اليمنى وجلس على اليسرى، وكان يقول: «لا آكُلُ مُتَّكِئاً»(٢)، «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ»(٣)، والشُّربُ مُتَّكئاً مكروهٌ.

ويُكرَهُ الأكلُ نائماً إلّا ما يُتَنَقَّلُ به مِنَ الحبوب(٤)، رُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه أكلَ كعكاً على فراشٍ وهو مضطجعٌ، ويقال: مُنْبَطِحٌ على بطنِهِ(٥).

ـ ولْيَنْوِ بأكلِهِ التَّقوِّيَ على طاعة الله عزَّ وجلَّ؛ ليكونَ مُطيعاً بالأكلِ، فلا يقصدُ التَّلذُّذَ والتَّنعُّمَ بالأكل.

وينبغي أن لا يَمُدَّ اليدَ إلى الطعامِ إلا وهو جائعٌ، ثم ينبغي أن يرفعَ اليدَ قبلَ الشِّبَعِ، ومَنْ فعلَ ذلك استغنى عن الطبيب.

ـ وليرضَ بالموجودِ مِنَ الرِّزقِ، والحاضرِ مِنَ الطَّعامِ، وقد ورد الأمرُ بإكرامِ الخبزِ، ومِنْ إكرامِهِ أن لا ينتظرَ به الأُدْمَ، بل لا ينتظر بالخبزِ الصَّلاةَ إن حَضَرَ وقتُها إذا كان في الوقت مُتَّسَعٌ، قال ﷺ: «إِذَا حَضَرَ العَشَاءُ وَالعِشَاءُ فَابْدَؤُوا بِالعَشَاءِ»(٦).

وكان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما ربَّما سَمِعَ قراءةَ الإمامِ ولا يقومُ مِنْ عشائِهِ(٧).

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٨).

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤١٥).

(٤) التَّنَقُّل: تناولُ النُّقْل، اسم للحبوب وما في معناها تتناول. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٥/ ٢١٥).

(٥) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٧٩).

(٦) رواه البخاري (٥٤٦٥).

(٧) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٧٨).

ومهما كانت النَّفسُ لا تتوقُ إلى الطعام، ولم يكن في تأخير الطَّعامِ ضررٌ فالأولى تقديمُ الصَّلاةِ.

ـ وليجتهدْ في تكثير الأيدي على الطعامِ ولو مِنْ أهلِهِ وولدِهِ؛ فقد ورد في الخبر: «اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ»(١).

وقال أنسٌ رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ لا يأكلُ وحدَهُ(٢).

ـ وليبدأْ بـ «بسم الله» في أوَّلِهِ، وليَخْتِمْ بـ «الحمد لله» في آخره، ولو قال مع كلِّ لقمةٍ «بسم الله» فهو حسنٌ؛ حتَّى لا يَشْغَلَهُ الشَّرَهُ عن ذكرِ الله تعالى، ويقولُ مع اللُّقمةِ الأولى «بسم الله»، ومع الثانية «بسم الله الرحمن»، ومع الثالثة «بسم الله الرحمن الرحيم»، ويجهرُ به ليُذكِّرَ غيره.

ـ وليأكُلْ باليمين، وليَبْدَأْ بالملحِ وليَخْتِمْ به.

ـ وليُصَغِّرِ اللُّقمةَ وليُجوِّدْ مضغَها، وما لم يبتلعها لم يمدَّ اليدَ إلى الأخرى؛ فإنَّ ذلك عجلةٌ في الأكل.

ـ وليجتهدْ ألا يَذُمَّ مأكولاً؛ فقد كَانَ ﷺ لاَ يَعِيبُ مَأْكُولاً، كَانَ إِذَا أَعْجَبَهُ أَكَلَهُ وَإِلاَّ تَرَكَهُ(٣).

ـ وليأكلْ ممَّا يليه إلا الفاكهةَ؛ فإنَّ له أن يجيلَ يدَهُ فيها، قال ﷺ: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(٤)،

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٦٤).

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣٤٢).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٣).

(٤) رواه البخاري (٥٣٧٦).

ثم كان ﷺ يدورُ على الفاكهةِ، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «لَيْسَ هُوَ نَوْعاً وَاحِداً»[١].

ـ ولا يأكلُ مِنْ ذروةِ القصعةِ ولا مِنْ وسطِ الطَّعامِ، بل يأكلُ مِنِ استدارةِ الرغيفِ، إلا إذا قَلَّ الخبزُ، فيكسرُه ولا يقطعُهُ بالسِّكِّين، ولا يقطعُ اللَّحمَ أيضاً؛ فقد نهى عنه ﷺ وقال: «انْهَشُوهُ نَهْشاً»[٢].

ـ ولا يُوضَعُ على الخبزِ قصعةٌ ولا غيرُها إلا ما يُؤكَلُ به؛ قال ﷺ: «أَكْرِمُوا الخُبْزَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ»[٣].

ـ ولا يمسحُ يدَهُ بالخبزِ، وقال ﷺ: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا وَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ وَلاَ يَمْسَحْ يَدَهُ بِالمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ البَرَكَةَ»[٤].

ـ ولا ينفخُ في الطَّعامِ الحارِّ، فهو منهيٌّ عنه[٥].

ـ ويأكلُ مِنَ التَّمرِ وتراً سبعاً، أو إحدى عشرة، أو إحدى وعشرين، ولا يجمعُ بين التَّمرِ والنَّوى في طبقٍ، ولا يجمعُ في كفِّهِ، بل يضعُ النَّواةَ مِنْ فيه على ظهرِ كفِّه، ثم يلقيها، وكذا كلُّ ما له عَجَمٌ وثُفْلٌ[٦].

---

(١) رواه الترمذي (١٨٤٨).

(٢) رواه أبو داود (٣٧٧٨).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٧٦٦)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، واورد الحافظ الزبيدي لهذا الحديث شواهد في إتحافه (٥/ ٢٢٠).

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٣).

(٥) روى أحمد في مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((نهى رسولُ الله ﷺ عن النَّفخِ في الطَّعامِ والشَّرابِ)).

(٦) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٧٩) وروى مسلم (٢٠٤٢) وأبو داود (٣٧٢٩) واللفظ له: (أنَّه ﷺ =

ـ وما استرذلَهُ مِنَ الطعامِ لا يطرحُهُ في القصعة، بل يتركُهُ مع الثُّفْلِ حتى لا يَلْتَبِسَ على غيرِهِ فيأكلَهُ.

ـ ولا يُكثِرُ الشُّربَ في أثناء الطعامِ إلا إذا غَصَّ بلقمةٍ أو صدقَ عطشُهُ، فقد قيل: إنَّ ذلك مستحبٌّ في الطِّبِّ، وإنَّه دباغُ المعدةِ.

(ش: ذكرَ الشيخُ ابنُ البَنَّا السَّرقُسطِيُّ رحمه الله آدابَ القوم رضي الله عنهم في الطعام فقال:

وأَدَبُ القَوْمِ لَدَى الطَّعامِ جَمٌّ فَمِنْهُ تركُ الاهتمامِ
وقِلَّةُ الذِّكْرِ لَهُ إنْ غَابَا لِكَوْنِهِ عِنْدَهُمُ حِجَابَا
بَلْ أَنْزَلُوهُ مَنْزِلَ الدَّواءِ عِنْدَ العَلِيلِ بُغيةَ الشِّفاءِ
ولم يَكُنْ هَمُّهُمُ بِجَمْعِهِ وَكَسْبِهِ وفَضْلِهِ ومَنْعِهِ
ولا اسْتَقَلُّوهُ ولا عَابُوهُ ولم يَكُنْ قَصْدًا فَيَطْلُبُوهُ
والقَوْمُ لَمْ يَدَّخِرُوا طَعَامَا بَلْ تَرَكُوا الحَلالَ والحَرَامَا
إلاّ يَسِيرًا قَدْرَ ما تَيَسَّرا إِذِ الحلالُ المَحْضُ قَدْ تَعَذَّرا
وَإِنْ أَتَى شَيءٌ بِلَا تَكْلِيفِ اِبْتَدَؤُوا بِالجَارِ والضَّعِيفِ
وَجَنَّبُوا طَعَامَ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالبَغْيِ والفَسَادِ خَوْفَ الإِثْمِ
بَلْ أَكَلُوا مِمَّا اسْتَبَانَ حِلُّهُ غَيْرَ الَّذِي لا يَعْرِفُونَ أَصْلَهُ
وَيَكْرَهُونَ الأَكْلَ مَرَّتَيْنِ فِي اليَوْمِ والمَرَّةَ فِي اليَوْمَينِ
وفَضَّلُوا الجَمْعَ على الإِفْرادِ فِيهِ لِأَجْلِ كَثْرَةِ الأَيادِي

= أكل تمراً، فجعل يلقي النَّوى على ظهر أصبعيه السبابة والوسطى). والعَجَم: النوى، واحدته: عَجَمة، والثُّفْل: الحَبُّ.

وَلَـمْ يُلَقِّمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ وَلَـمْ يَجُـلْ بَصَرَهُ بَـلْ يُغْضِي
وَلَـمْ يَـرَوا فِيـهِ بِالانْتِظَـارِ فَيَذْهَـبُ الوَقْـتُ بِلا تَـذْكَارِ
وَكَرِهُـوا البِطْنَـةَ لِلإِخْـوانِ فَالبَطْـنُ كَالوِعَـاءِ لِلشَّـيْطَانِ
وَعَلِمُـوا أَنْ لَيْسَ شَـيءٌ قَاطِعْ كَبَـدَنٍ كَاسٍ وبَطْـنٍ شَـابِعْ
وأَمَـرُوا فِيـهِ بِفَتْـحِ البَـابِ وأَكَلُـوا بِالقَصْـدِ والآدَابِ
وفَتَحُـوا البَـابَ لِـكُلِّ سَـارِ وَأَكَلُـوا بِالرِّفْـقِ والإِيْثَـارِ)

[مطلب في آداب الشرب]

وأما الشربُ: فأدبُهُ أن يأخذَ الكوزَ بيمينِهِ، ويشربَ في ثلاثةِ أنفاسٍ، يُسمِّ الله تعالى في أوائلها، ويحمدُهُ في أواخرِها، ويقولُ في آخرِ النَّفَسِ الأوَّلِ: الحمد لله، والثانية: يزيدُ رب العالمين، وفي الثالثة يزيد: الرحمن الرحيم.

وقال ﷺ بعدَ الشُّربِ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَهُ عَذْباً فُرَاتاً بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحاً أُجَاجاً بِذُنُوبِنَا»[1].

ويشربُ مَصّاً لا عَبّاً، قال ﷺ: «مُصُّوا المَاءَ مَصّاً، وَلاَ تَعُبُّوهُ عَبّاً؛ فَإِنَّ الكُبَادَ مِنَ العَبِّ»[2].

ولا يشربُ قائماً ولا مضطجعاً؛ فإنَّه ﷺ نهى عن الشُّربِ قائماً[3]، وقد شَرِبَ ﷺ قائماً مرَّةً[4]، ولعلَّه كان لعذرٍ.

---

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٢٨)، والكُباد: وجعُ الكبدِ.

(٣) رواه مسلم (٢٠٢٤).

(٤) رواه البخاري (٥٦١٥).

ويراعى أسفلَ الكوزِ حتَّى لا يقطرَ عليه، وينظر في الكوزِ قبلَ الشُّربِ، ولا يتجشَّأُ في الكوزِ ولا يتنفَّسُ فيه، والكوزُ وكلُّ ما يُدارُ على القومِ يُدارُ يَمنةً.

[مطلب فيما يندب من الآداب عند الطعام وبعده]

ويُستحبُّ بعدَ الطعامِ أن يلعقَ أصابعَهُ، ثم يمسحَ بالمنديلِ ثم يغسلَها، ويلتقطَ فتاتَ الطَّعامِ، قال ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مَا يَسْقُطُ مِنَ المَائِدَةِ عَاشَ فِي سَعَةٍ وَعُوفِيَ فِي وَلَدِهِ»[١].

ويتخلَّلُ ولا يبتلعُ ما يخرجُ مِنْ بين أسنانِهِ بالخِلالِ إلا ما يجتمعُ مِنْ أصولِ أسنانِهِ بلسانِهِ، أما المُخرَجُ بالخِلال فيرميه، وليتمضمضْ بعدَ الخِلال[٢]، ففيه أثرٌ عن أهل البيتِ عليهم السلام.

ويلعقُ القصعةَ، يقال: مَنْ لَعِقَ القصعةَ وغَسَلَها وشَرِبَ ماءَها كان له عتقُ رقبةٍ، وإنَّ التقاطَ الفُتاتِ مهورُ الحورِ العينِ[٣].

ومهما أكلَ حلالاً قال: «الحمد لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحاتُ وتنزلُ البركات، اللهُمَّ أَطْعِمْنا طيِّباً، واستعمِلْنا صالحاً».

وإن أَكَلَ شبهةً فليقل: «الحمد لله على كلِّ حالٍ، اللهُمَّ لا تجعله قوّةً لنا على معصيتِكَ».

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥٨٤٠)، وأورد الحافظ الزبيدي له طرقاً. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٥/ ٢٢٤).

(٢) الخِلال: العودُ الذي يتخلَّلُ به بين أسنانه ليخرجَ ما عَلَقَ مِنَ الطعام.

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٠).

ويقرأ بعدَ الطعامِ «قل هو الله أحد» و«لإيلاف قريش».

(م: وقد سَنَّ سيدي أبو مدين الغوث رضي الله عنه سُنّةً حسنةً حيث كان يأمرُ مريديه بصلاةِ ركعتينِ شكراً بعدَ الفراغِ مِنَ الطعام).

ولا يقومُ عن المائدةِ حتى تُرفعَ أوَّلاً.

فإن أكلَ طعامَ غيرِهِ فليدعُ له وليَقُلْ: «اللهُمَّ أكثِرْ خيرَهُ، وبارِكْ له فيما رزقتَهُ، ويَسِّرْ له أن يفعلَ فيه خيراً، وقَنِّعْهُ بما أعطيتَهُ، واجعلنا وإيَّاه مِنَ الشاكرين».

وإن أفطرَ عند قومٍ فليَقُلْ: «أفطرَ عندكم الصائمون، وأكلَ طعامَكُمُ الأبرارُ، وصَلَّتْ عليكم الملائكةُ».

وليُكْثِرِ الاستغفارَ والحزنَ على ما أكلَ مِنْ شبهةٍ؛ ليُطفىءَ بدموعِهِ وحزنِهِ حَرَّ النارِ التي تعرَّضَ لها؛ لقوله ﷺ: «كُلُّ لحمٍ نَبَتَ مِنَ السُّحْتِ فالنارُ أولى به»[1].

ولا يسكتُ على الطعامِ، فإنَّ ذلك مِنْ سيرةِ العجم، ويتحدَّثُ بحكايات الصالحين.

ويقول لآكلِهِ: «كُلْ»، ولا يزيدُ على ثلاثِ مرات؛ فإنَّ ذلك إلحاحٌ وإفراطٌ، وكان ﷺ يُكرِّرُ الكلامَ ثلاثاً[2]، فليس مِنَ الأدبِ الزيادةُ عليه، فأما الحلفُ عليه بالأكل فممنوعٌ.

ولا يحوج رفيقَهُ إلى أن يقولَ له: «كُلْ»، ولا ينبغي أن يدعَ شيئاً مما يشتهيه

---

(١) رواه الترمذي (٦١٤).

(٢) رواه البخاري (٩٤).

لأجلِ نظرِ غيرِهِ إليه؛ فإنَّ ذلك تصنُّعٌ، ولا ينقص مِنْ عادته في الوحدة، ولكنْ ليُعوّدْ نفسَهُ حسنَ الأدبِ في الوحدةِ حتَّى لا يحتاجَ إلى التَّصنُّعِ عند الاجتماع، ولو قَلَّلَ مِنْ أكلِهِ إيثاراً لإخوانِهِ ونظراً لهم عند الحاجةِ إلى ذلك فهو حسنٌ، وإن زاد في الأكلِ على نيَّةِ المساعدةِ وتحريكِ نشاطِ القومِ في الأكلِ فلا بأسَ به، بل هو حسنٌ.

فإذا قَدَّمَ الطستَ إليه غيرُهُ إكراماً له فليَقْبَلْهُ، فقد اجتمعَ أنسُ بنُ مالكٍ وثابتٌ البنانيُّ رضي الله عنهما على طعامٍ فقدَّمَ أنسٌ الطستَ إليه فامتنع ثابتٌ، فقال أنسٌ: (إذا أكرمَكَ أخوكَ فاقبلْ كرامتَهُ ولا تردَّها، فإنَّما يكرمُ اللهَ عزَّ وجلَّ)[1].

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمه الله إلى الأمصارِ: (لا يُرفَعُ الطستُ مِنْ بين يدي قومٍ إلا مملوءةً، ولا تشبَّهوا بالعجم)[2].

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (اجتمعوا على غسلِ اليدِ في طستٍ واحدٍ، ولا تَسْتَنُّوا بسنَّةِ الأعاجم)[3].

وفي الطستِ سبعةُ آداب: أن لا يبزقَ فيه، وأن يقدَّمَ به المتبوعَ، وأن يقبلَ الإكرامَ بالتقديم؛ وأن يُدارَ يمنةً، وأن يجتمعَ فيه جماعةٌ، وأن يجمعَ الماءُ فيه، وأن يكونَ الخادمُ قائماً، وأن يمجَّ الماءَ مِنْ فيه ويرسلَهُ مِنْ بين يديه برفقٍ حتى لا يرشَّ على الفراشِ وعلى أصحابِهِ.

وينبغي أن لا ينظر إلى أصحابه، بل يغضُّ ويشتغلُ بنفسه، ولا يُمسِكُ قبلَ

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٢).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٢).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٢).

إخوانِهِ إذا كانوا يحتشمونَ الأكلَ بعدَهُ، بل يمدُّ اليدَ ويقبضُها، ويتناولُ قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا، فإن كان قليلَ الأكلِ توقَّفَ في الابتداء وقلَّلَ الأكلَ حتَّى إذا توسَّعوا في الطَّعامِ أكلَ معهم أخيراً، فقد فَعَلَ ذلك كثيرٌ مِنَ الصحابة ﷺ، وإن امتنع لسببٍ فليعتذرْ إليهم؛ دفعاً للخجلةِ عنهم.

ولا ينفضُ يدَهُ في القصعةِ، ولا يُقدِّمُ إليها رأسَهُ عندَ وضعِ اللُّقمةِ في فيه، وإذا أخرجَ شيئاً مِنْ فيه صَرَفَ وجهَهُ عن الطعامِ وأخذَهُ بيساره، واللقمةُ التي قَطَعَها بِسِنِّهِ لا يغمسُ بقيَّتَها في المرقةِ والخلِّ، ولا يتكلَّمُ بما يذكِّرُ المستقذراتِ.

قال جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ رضي الله عنهما: (إذا قَعَدْتُم مع الإخوانِ على المائدةِ فأطيلوا الجلوسَ؛ فإنَّها ساعةٌ لا تُحسَبُ عليكم مِنْ أعماركم)[1].

وروي في الخبر: «لا يُحاسَبُ العبدُ على ما يأكلُهُ مع إخوانه»، وكان بعضُهم يُكثِرُ الأكلَ مع الجماعةِ لذلك، ويُقلِّلُ إذا أكلَ وحدَهُ.

[مطلب في آداب الضيافة]

وقال ﷺ: «إِذَا جَاءَكُم الزَّائِرُ فَأَكْرِمُوهُ»[2].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةَ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا هِيَ لِمَنْ أَلَانَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[3].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٢).

(٢) رواه الخرائطي كما في (المنتقى من مكارم الأخلاق) (١٣٥)، والشهاب في المسند (٧٦٣)، والديلمي في مسند الفردوس (١٣٥١).

(٣) رواه الترمذي (١٩٨٤).

وليس مِنَ السُّنةِ أن يقصدَ قوماً مُترِّبصاً لوقتِ طعامِهم فيدخلَ عليهم وقتَ الأكل؛ فإنَّ ذلك مِنَ المفاجأة، وقد نهي عنه، قال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يعني: منتظرين حينَهُ ونُضجَهُ.

ولكنْ إن صادفَهُم على طعامٍ مِنْ غيرِ تربُّصٍ لا يأكلُ ما لم يُؤذَنْ له، فإذا قيل له: «كُلْ» نَظَرَ، فإن عَلِمَ أنَّهم يقولونَهُ عن محبةٍ لمساعدتِهِ فليُساعِدْ، وإن عَلِمَ أنَّهم يقولونَهُ حياءً منه فلا ينبغي أن يأكلَ، بل يتعلَّل، أما إذا كان جائعاً، فقصدَ بعضَ إخوانِهِ ليطعمَهُ، ولم يتربَّصْ به وقتَ أكلِهِ فلا بأسَ به؛ فقد قصدَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما منزلَ أبي الهيثمِ بن التَّيِّهانِ رضي الله عنه وأبي أيوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه لأجلِ طعامٍ يأكلونَهُ وكانوا جِياعاً[1]، والدُّخولُ على مثل هذه الحالةِ إعانةٌ لذلك المسلمِ على حيازةِ ثوابِ الإطعام، وهي عادةُ السلف.

وجاء قومٌ إلى منزل سفيانَ الثوريِّ رضي الله عنه فلم يجدوه، ففتحوا البابَ وأنزلوا السُّفرةَ وجعلوا يأكلون، فدخلَ الثَّوريُّ فَجَعَلَ يقولُ: ذكَّرتموني أخلاقَ السلفِ، هكذا كانوا[2].

ولا ينبغي التَّكلُّفُ في الضيافة، فقد قال سلمانُ رضي الله عنه: (أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن لا نتكلَّفَ للضَّيفِ ما ليس عندنا، وأن نُقدِّمَ إليه ما حَضَرَنا)[3].

---

(١) حديث خروجهم ألى أبي الهيثم رواه الترمذي (٢٣٦٩)، وأصله عند مسلم (٢٠٣٨)، وحديث قصدهم أبا أيوب الأنصاري رواه ابن حبان في صحيحه (٥٢١٦).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٥).

(٣) رواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) (٣٢٩)، والبزار في المسند (٢٥١٤)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧١).

(ش: قال القوم رضي الله عنهم: أُخِذَتْ علينا العهود أن لا نتكلَّف المفقود، ولا نَبْخَلَ بالموجود).

رُوِيَ أنَّ رجلاً دعا علياً رضي الله عنه فقال: أجيبُكَ على ثلاثةِ شرائط: لا تُدخِلْ مِنَ السوق شيئاً، ولا تَدَّخِرْ ما في البيت، ولا تجحِفْ بالعيال[١].

وفي حديث يونسَ النبيِّ على نبيِّنا وعليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام: أنَّه زارَهُ إخوانُهُ، فَقَدَّمَ إليهم كِسَراً، وجَزَّ لهم بَقلاً كان يزرعُهُ، ثم قال لهم: (كُلُوا، لولا أنَّ الله تعالى لَعَنَ المتكلِّفينَ لَتَكَلَّفْتُ لكم)[٢].

وقال بعضُهم: (الأكلُ على ثلاثةِ أنواعٍ: مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوانِ بالانبساط، ومع أبناءِ الدُّنيا بالأدب)[٣].

قال الثَّوريُّ: (إذا زاركَ أخوكَ فلا تَقُلْ لَهُ: أتأكل؟ أو أُقدِّمُ إليك؟ ولكنْ قدِّمْ، فإن أكلَ، وإلا فارفعْ)[٤].

وينبغي أن يدعوَ الأتقياءَ دون الفساق، وأن يقصد الفقراءَ؛ لقولِهِ ﷺ: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الأَغْنِيَاءُ دُونَ الفُقَرَاءِ»[٥].

وينبغي أن لا يدعوَ مَنْ يعلمُ أنَّه يَشِقُّ عليه الإجابةُ، وإذا حضر تأذَّى بالحاضرين بسببٍ مِنَ الأسباب.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨١).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨١).

(٣) ينظر: (اللمع) (٢٤٣).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٥).

(٥) رواه البخاري (٥١٧٧).

وينبغي أن لا يدعوَ إلا مَنْ يُحِبُّ إجابتَهُ، قال سفيانُ الثَّوريُّ رحمه الله: (مَنْ دعا أحداً إلى طعامٍ وهو يكرهُ الإجابةَ فعليه خطيئةٌ، فإن أجابَهُ المدعوُّ فعليه خطيئتان؛ لأنَّه حَمَلَهُ على الأكل مع كراهيتِهِ، ولو علم ما كان يأكلُهُ).

وإطعامُ التَّقيِّ إعانةٌ له على الطاعةِ، وإطعامُ الفاسقِ تقويةٌ له على الفسقِ، قال خَيّاطٌ لابنِ المبارك رحمه الله: أنا أخيطُ ثيابَ السلاطين، فهل يُخافُ أن أكونَ مِنْ أعوانِ الظلمة؟ قال: لا، إنَّما أعوانُ الظلمةِ مَنْ يبيعُ منكَ الخيطَ والإبرةَ، أما أنتَ فَمِنَ الظَّلَمةِ أنفسِهم.

[مطلب في إجابة الدعوة]

وأما الإجابةُ فهي سُنّةٌ مُؤكَّدةٌ، وقد قيل بوجوبِها في بعضِ المواضع، قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إلى كُراعٍ لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ»[١].

ولا يُميِّزُ الغنيَّ بالإجابةِ عن الفقير، فذلك هو التكبُّرُ المنهيُّ عنه، ولأجل ذلك امتنعَ بعضهم عن أصلِ الإجابةِ وقال: انتظارُ المرقةِ ذُلٌّ.

ومِنَ المتكبِّرين مَنْ يجيبُ الأغنياءَ دونَ الفقراء، وهو خلافُ السُّنة، كان رسولُ الله ﷺ يجيبُ دعوةَ العبدِ ودعوةَ المسكين[٢].

وينبغي أن لا يقصدَ بدعوته المباهاةَ والتفاخرَ، بل استمالةَ قلوب الإخوانِ، والتَّسَنُّنَ بسنَّةِ رسولِ الله ﷺ في إطعام الطَّعام، وإدخالَ السُّرورِ على قلوب المؤمنين، فَمَنْ فَعَلَ ذلك مباهاةً وتكلُّفاً فليس مِنَ السُّنةِ إجابتُهُ، بل الأولى

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٨).

(٢) رواه الترمذي (١٠١٧).

التَّعلُّل، ولذلك قال بعضُ الصوفيّةِ: (لا تُجِبْ إلا دعوةَ مَنْ يرى أنَّكَ أكلتَ رزقَكَ، وأنَّه سَلَّمَ إليك وديعةً كانت لكَ عنده، ويرى لكَ الفضلَ عليه في قبولِ تلك الوديعةِ منه)[١].

ورسولُ الله ﷺ كان يحضرُ لعلمِهِ أنَّ الداعيَ له يتقلَّدُ بها مِنَّةً، ويرى ذلك شرفاً وذُخراً لنفسِهِ في الدنيا والآخرة.

وينبغي أن لا يُهمِلَ أقاربَهُ في ضيافتِهِ؛ فإنَّ في إهمالهم إيحاشاً وقطعَ رحمٍ، وكذلك في أصدقائِهِ ومعارفِهِ؛ فإنَّ في تخصيصِ البعضِ إيحاشَ الباقين.

يُقال في التوراةِ أو بعضِ الكتبِ: (سِرْ ميلاً عُدْ مريضاً، سِرْ ميلين شَيِّعْ جنازةً، سِرْ ثلاثةَ أميالٍ أَجِبْ دعوةً، سِرْ أربعةَ أميالٍ زُرْ أخاً في الله تعالى)[٢].

ولا يمتنعُ عن الإجابةِ لكونِهِ صائماً، بل يحضرُ، فإن كان يسرُّ أخاهُ إفطارُهُ فليُفْطِرْ وليحتسبْ في إفطارِهِ بنيَّةِ إدخالِ السُّرورِ على قلبِ أخيه ما يحتسب في الصوم، وقد قال ﷺ لِمَنِ امتنعَ بعذرِ الصَّومِ: «تَكَلَّفَ لَكَ أَخُوكَ وَتَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ؟»[٣].

وعليه الامتناعُ مِنَ الإجابةِ إن كان الطعامُ طعامَ شبهةٍ، أو الموضعُ أو البساطُ المفروشُ غيرَ حلالٍ، أو كان يقام في الموضع منكرٌ، مِنْ فرشِ ديباجٍ، أو إناءِ فضّةٍ، أو تصويرِ حيوانٍ على سقفٍ أو حائطٍ، أو سماعِ شيءٍ مِنَ المزاميرِ والملاهي، أو التشاغلِ بنوعٍ مِنَ اللهوِ واللَّعبِ، فكلُّ ذلك ممَّا يمنعُ الإجابةَ،

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٦).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٧).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٣٢٦٤).

وكذلك إذا كان الداعي ظالماً، أو مبتدعاً، أو فاسقاً، أو شريراً، أو متكلِّفاً طلباً للمباهاة والفخرِ، فإذا دَخَلَ فرأى منكراً غَيَّرَهُ إن قدرَ، وإلا أنكرَ بلسانِهِ وانصرفَ.

وينوي بالإجابةِ الاقتداءَ بِسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ، وإكرامَ المؤمنِ، وإدخالَ السُّرورِ على قلبِهِ، وأن يكونَ من المتحابِّينَ في الله، والنِّيةُ إنَّما تُؤثِّرُ في المباحاتِ والطاعاتِ، أمَّا المنهيَّاتُ فلا، فإنَّه لو نوى أن يَسُرَّ إخوانَهُ بمساعدتهم على شربِ الخمرِ، أو حرامٍ آخرَ لم تنفعِ النِّيَّةُ، ولم يجز أن يُقالَ: «الأعمال بالنيات»، بل لو قَصَدَ بالغزوِ الذي هو طاعةٌ المباهاةَ وطلبَ المالِ انصرفَ عن جهةِ الطاعةِ.

وأما الحضورُ فأدبُهُ أن يدخلَ الدارَ، ولا يتصدَّرَ فيأخذَ أحسنَ الأماكن، بل يتواضعُ.

وينبغي أن لا يُطوِّلَ الانتظارَ عليهم، ولا يَعْجَلَ بحيثُ يُفاجئهم قبلَ تمامِ الاستعداد.

وعليه أن يجلسَ حيثُ أشارَ إليه صاحبُ الدارِ، ولا يخالفه ألبتة، وإن أشار بعضُ الضِّيفانِ بالارتفاع إكراماً له فليتواضَعْ، قال ﷺ: «إنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لله الرِّضَا بِالدُّونِ مِنَ المَجْلِسِ»[1].

ولا ينبغي له أن يجلسَ في مقابلةِ بابِ حجرةِ النِّساءِ وسترِهم، ولا يكثرُ النَّظرَ إلى الموضعِ الذي يخرجُ منه الطَّعامُ؛ فإنَّه دليلٌ على الشَّرَهِ، ويخصُّ بالتَّحيَّةِ والسُّؤالِ مَنْ يقربُ منه إذا جَلَسَ.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/ ١١٤)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١/ ١٠٤)، والبيهقي في الشعب (٧٨٨٩).

[مطلب في آداب المضيف]

وإذا دَخَلَ ضيفٌ للمبيتِ فليُعرِّفْهُ صاحبُ المنزلِ عندَ الدُّخولِ القبلةَ وبيتَ الماءِ وموضعَ الوضوءِ.

وينبغي للمضيفِ: أن يعجلَ في تقديمِ الطعامِ؛ فذلك مِنْ إكرامِ الضَّيفِ.

وأن يُقدِّمَ الفاكهةَ أوَّلاً إن كانت؛ فذلك أوفقُ في الطِّبِّ؛ فإنَّها أسرعُ استحالةً، فينبغي أن تقعَ في أسفلِ المعدة، وفي القرآنِ تنبيهٌ على تقديمِ الفاكهةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١-٢٠].

وأن لا يُبادِرَ إلى رفعِ الألوانِ قبلَ تمكُّنِهم مِنَ الاستيفاءِ حتَّى يرفعوا الأيديَ عنها؛ فلعلَّ منهم مَنْ يكونُ بقيَّةُ ذلك اللَّونِ أشهى عنده ممَّا سيحضره، أو بقيت فيه حاجةٌ إلى الأكلِ فيتنغَّصُ عليه بالمبادرة.

وأن يُقدِّمَ مِنَ الطَّعامِ قدرَ الكفاية؛ فإنَّ التقليلَ عن الكفاية نقصٌ في المروءة، والزِّيادةَ عليه تَصَنُّعٌ ومراءاةٌ، إلا إذا نوى أن يتبرَّكَ بفضلةِ طعامِهِم.

أحضر إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمه الله طعاماً كثيراً على مائدتِهِ، فقال له سفيان رحمه الله: يا أبا إسحاق، أما تخافُ أن يكونَ هذا سرفاً؟ فقال إبراهيم: ليس في الطَّعامِ سَرَفٌ[١]، فإن لم تكن هذه النِّيَّةُ فالتَّكثيرُ تكلُّفٌ.

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (نُهينا أن نجيبَ دعوةَ مَنْ يباهي بطعامِهِ)[٢]، وكَرِهَ جماعةٌ مِنَ الصحابة أكلَ طعامِ المباهاة.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٧٧. ١٨٠).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٨٢).

ومِنْ تمامِ إكرامِ الضيفِ طلاقةُ الوجهِ، وطيبُ الحديثِ عند الدُّخولِ والخروجِ وعلى المائدةِ، وأن يخرجَ مع الضَّيفِ إلى بابِ الدار، وهو سنَّة؛ قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ سُنَّةِ الضَّيْفِ أَنْ يُشَيَّعَ إِلَى بَابِ الدَّارِ»[١].

ولا يزيدُ الضَّيفُ الإقامةَ على ثلاثةِ أيامٍ؛ قال ﷺ: «الضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا زَادَ فَصَدَقَةٌ»[٢].

حُكِيَ عن فتحٍ الموصليِّ رضي الله عنه أنَّه دخلَ على بِشْرٍ الحافيِّ زائراً، فأخرجَ بِشرٌ درهماً فَدَفَعَهُ لأحمدَ الجلاءِ خادمِهِ وقال: اشترِ به طعاماً جيِّداً وإداماً طيِّباً، قال: فاشتريتُ خبزاً نظيفاً، وقلتُ: لم يقل رسولُ الله ﷺ لشيءٍ «اللهُمَّ بارِكْ لنا فيه، وزِدْنا منه»[٣] سوى اللَّبنِ، فاشتريتُ لبناً واشتريت تمراً جيِّداً، فقدَّمتُهُ إليه فأكلَ وأخذَ الباقي.

فقال بشر: أتدرونَ لِمَ قلتُ: اشترِ طعاماً طيباً؟ لأنَّ الطعامَ الطَّيِّبَ يستخرجُ خالصَ الشُّكرِ.

أتدرونَ لِمَ لَمْ يقلْ لي: كُلْ؟ لأنَّه ليسَ للضَّيفِ أن يقولَ لصاحبِ الدارِ: كُلْ.

أتدرونَ لِمَ حَمَلَ ما بقي؟ لأنَّه إذا صَحَّ التوكُّلُ لم يضرَّ الحملُ.

وحكى أبو عليٍّ الرُّوذباري رضي الله عنه أنَّه اتَّخذَ ضيافةً، فأوقدَ فيها ألفَ سراجٍ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٥٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٩).

(٣) رواه أبو داود (٣٧٣٠).

فقال له رجلٌ: قد أسرفتَ، فقال له: ادخل، فكلُّ ما أوقدتُهُ لغير الله فأطفئه، فَدَخَلَ الرجلُ، فلم يقدر على إطفاءِ واحدٍ منها، فانقطع(١).

وقال الشَّافعيُّ رحمه الله: الأكلُ على أربعةِ أنحاء: الأكلُ بأصبعٍ مِنَ المقتِ، وبأصبعين مِنَ الكبرِ، وبثلاثِ أصابعَ مِنَ السُّنّةِ، وبأربعٍ وخمسٍ مِنَ الشَّرَهِ.

وأربعةُ أشياءَ تُقوِّي البدن: أكلُ اللَّحمِ، وشَمُّ الطيب، وكثرةُ الغُسلِ مِنْ غير جماعٍ، ولبسُ الكتَّان.

وأربعةٌ تُوهِنُ البدنَ: كثرةُ الجماعِ، وكثرةُ الهمِّ، وكثرةُ شربِ الماءِ على الرِّيقِ، وكثرةُ أكلِ الحموضةِ.

وأربعةٌ تُقوِّي البصرَ: الجلوسُ تجاه القبلةِ، والكحلُ عند النوم، والنظرُ إلى الخضرةِ، وتنظيفُ الملبسِ.

وأربعةٌ تُوهِنُ البصرَ: النظرُ إلى القذرِ، والنَّظرُ إلى المصلوبِ، والنَّظرُ إلى فرج المرأة، والقعودُ في استدبارِ القبلةِ.

والنَّومُ على أربعةِ أنحاء: فنومٌ على القَفا وهو نومُ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتفكَّرون في خلق السموات والأرض، ونومٌ على اليمين، وهو نومُ العلماءِ والعُبّاد، ونومٌ على الشِّمالِ وهو نومُ الملوكِ لينهضمَ طعامُهم، ونومٌ على الوجهِ وهو نومُ الشياطين.

وأربعةٌ تزيدُ في العقلِ: تركُ الفضولِ مِنَ الكلامِ، والسِّواكُ، ومجالسةُ الصالحين، وصحبةُ العلماء.

---

(١) ينظر: (اللمع) (٢٤٥).

وأربعةٌ هُنَّ مِنَ العبادة: ألا تخطوَ خطوةً إلا على وضوءٍ، وكثرةُ السُّجود، ولزومُ المساجدِ، وكثرةُ قراءةِ القرآنِ.

* * *

الكتاب الثاني من ربع العادات
في آداب النكاح

(الدُّنيا متاعٌ، وخيرُ مَتاعِها المرأةُ الصالحةُ)(١)

اعلم أنَّ العلماءَ قد اختلفوا في فضلِ النكاح، فَبالَغَ بعضُهم فيه حتَّى زعمَ أنَّه أفضلُ مِنَ التَّخلِّي لعبادةِ الله تعالى، واعترفَ آخرونَ بفضلِهِ، ولكنْ قدَّموا عليه التَّخلِّيَ لعبادةِ الله تعالى مهما لم تَتُقِ النَّفسُ إلى النِّكاحِ توقاناً يُشوِّشُ الحالَ ويدعو إلى الوِقاع.

وقال آخرون: الأفضلُ تركُهُ في زمانِنا هذا، وقد كان له فضيلةٌ مِنْ قبلُ؛ إذ لم تكنِ الأكسابُ محظورةً، وأخلاقُ النساءِ مذمومةً.

ولا ينكشفُ الحقُّ فيه إلا بأن نقدِّم أوَّلاً ما وَرَدَ مِنَ الآياتِ والأخبارِ في الترغيبِ فيه والترغيبِ عنه.

ما جاء في الترغيب في النكاح

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وهذا أمرٌ.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وهذا منعٌ مِنَ العضلِ(٢) ونهيٌ عنه.

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٧).

(٢) العَضْلُ: مَنْعُ الرَّجُلِ مَوْلِيَتَهُ مِنَ التَّزَوُّجِ ظُلْماً. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٥/ ٢٨٥).

ويُقال: إنَّ الله تعالى لم يذكر في كتابِهِ مِنَ الأنبياءِ إلا المتأهِّلين، فقالوا: إنَّ يحيى ـ عليه السلام ـ قد تَزَوَّجَ ولم يُجامِعْ، قيل: إنَّما فَعَلَ ذلك لِنَيْلِ الفضلِ وإقامةِ السُّنّةِ، وقيل: لِغَضِّ البصرِ، وأمَّا عيسى ـ عليه السلام ـ فإنَّه سَيَنْكِحُ إذا نَزَلَ الأرضَ ويُولَدُ له(١).

وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لاَ فَلْيَصُمْ؛ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ»(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ شَطْرَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ الله فِي الشَّطْرِ الثَّانِي»(٣)، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فضيلتَهُ لأجلِ التَّحرُّزِ مِنَ المخالفةِ؛ تحصُّناً مِنَ الفسادِ، وكأنَّ المُفسِدَ لِدينِ المرءِ في الأغلبِ فرجُهُ وبطنُهُ، وقد كُفِيَ بالتزويجِ أحدَهُما.

وماتَتِ امرأتانِ لمعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه في الطاعونِ، وكان هو أيضاً مطعوناً، فقال: (زَوِّجوني فإنِّي أكرهُ أن ألقى الله عزباً)(٤).

وقال سفيانُ بنُ عيينةَ: (كثرةُ النِّساءِ ليست مِنَ الدُّنيا؛ لأنَّ عليّاً رضي الله عنه كان أزهدَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ وكان له أربعُ نسوةٍ وسبعَ عشرةَ سُرِّيّةً)(٥).

وقال رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهم رضي الله عنه: طوبى لكَ، تفرَّغتَ للعبادة بالعزوبة، فقال: لَرَوعةٌ منك بسببِ العيالِ أفضلُ مِنْ جميع ما أنا فيه، فقال: فما الذي

(١) رواه ابن الجوزي في المنتظم (١/ ٣٢٨) مرفوعاً. ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٤٣).
(٢) رواه البخاري (١٩٠٥).
(٣) رواه البيهقي في الشعب (٥١٠٠)، والطبراني في الأوسط (٩٧٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦١).
(٤) رواه ابن أبي شيبة (١٦١٥٧). ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٤١).
(٥) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٤١).

يمنعكَ مِنَ النكاح؟ فقال: ما لي حاجةٌ في امرأة، وما أريدُ أن أَغُرَّ امرأةً بنفسي[١].

وقد قيل: (فضلُ المتأهِّلِ على العزبِ كفضلِ المجاهدِ على القاعدِ، وركعةٌ مِنْ متأهِّلٍ أفضلُ مِنْ سبعين ركعةً مِنْ عزبٍ)[٢].

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نختارَ التزويجَ على العزوبة، ولَوْ كُنّا في عبادةٍ ليلاً ونهاراً، وأن نُعينَ مَنْ طَلَبَ التَّزويجَ جُهدَنا، وذلك لأنَّ عبادةَ العازبِ ناقصةٌ، وإنما مَدَحَ الله تعالى السَّيدَ يحيى ـ عليه السلام ـ بالعزوبةِ بقولِه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] لأنَّ مقامَه أعطى ذلك، فَخَرَجَ عن الشهوةِ الغالبةِ على البشر.

وقال الشيخُ محيي الدين بن العربي رحمه الله: لم تكن العزوبةُ مقصودةً ليحيى ـ عليه السلام ـ وإنَّما ذلك لأنَّ زكريا كان يُعجِبُهُ حالُ مريم ـ عليها السلام ـ كلَّما دَخَلَ عليها مِنْ حيث إنَّها كانت بتولاً أي: منقطعةً عن الأزواج، فلما استفرغَ وسعَهُ في ذلك خَرَجَ ولده يحيى كذلك، فما هي صفةُ كمالٍ في نفسِ الأمرِ؛ بدليل أنَّ الله تعالى أثنى على الرسلِ بالتزويجِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وكم يقعُ العازبُ في فاحشةٍ ويسترُهُ الله، وكم تخطرُ في بالِهِ الفاحشةُ ويحميه الله، وكم يُصلِّي صلاةً وجارحتُهُ منتشرةٌ في حالِ الصلاة، وكم يسيءُ الناسُ ظنَّهم به، وكم يمنعونه عن السُّكنى بين النساء في الربوع وغيرها، ولو أنَّه تزوَّجَ لكان أعفَّ نفسَهُ عن مثل ذلك.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢١).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٤٣).

وانظرْ يا أخي إلى إيجارِ سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ نفسَهُ عشرَ سنين في تحصيلِ مهرِ امرأةٍ تعرفْ مقدارَ التزويجِ)(١).

ما جاء مِنَ الترغيب عن النكاح

وأما ما جاء في الترغيب عن النكاح، فقد قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ المِئَتَيْنِ الخَفِيفُ الحَاذِ». قيل يا رسول الله ﷺ وما الخفيفُ الحاذِ؟ فقال: «الَّذِي لاَ أَهْلَ لَهُ وَلاَ وَلَدَ»(٢).

وقال ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلاَكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ، يُعَيِّرُونَهُ بِالفَقْرِ، وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لاَ يُطِيقُ، فَيَدْخُلُ المَدَاخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِكُ»(٣).

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: (الوحيدُ يجدُ مِنْ حلاوةِ العملِ وفراغِ القلبِ ما لا يجدُ المتأهِّلُ).

وقال أيضاً: (ما رأيتُ أحداً مِنْ أصحابنا تزَوَّجَ فثَبَتَ على مرتبتِهِ الأولى).

وقال أيضاً: (ثلاثٌ مَنْ طَلَبَهُنَّ فقد رَكَنَ إلى الدُّنيا: مَنْ طَلَبَ معاشاً، أو تَزَوَّجَ امرأةً، أو كَتَبَ الحديثَ)(٤).

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) رواه الخطابي في العزلة (٤٠)، والبيهقي في الشعب (٩٨٦٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١٥٠).

(٣) رواه الخطابي في العزلة (١٠)، والبيهقي في الزهد الكبير (٤٣٩) والديلمي في مسند الفردوس (٨٦٩٧).

(٤) تُنظر هذه الأقوال الثلاثة في (قوت القلوب) (٢/ ٢٤٧) والمراد بـ «كتب الحديث»: طلب الأسانيد العالية، أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طريق الآخرة.

وبالجملةِ لم يُنقَلْ عن أحدٍ الترغيبُ عن النّكاحِ مطلقاً إلا مقروناً بشرطٍ، وأما الترغيبُ في النكاحِ فقد وَرَدَ مطلقاً ومقروناً بشرطٍ، فلنكشفِ الغِطاءَ عنه بحصرِ آفاتِ النكاحِ وفوائدِهِ.

[مطلب في فوائد النكاح]

الفائدةُ الأولى: الولدُ، وهو الأصلُ، وله وُضِعَ النِّكاحُ، والمقصودُ إبقاءُ النَّسلِ، وأن لا يخلو العالَمُ عن جنسِ الإنس، وإنَّما الشَّهوةُ خُلِقَتْ باعثةً مُستحِثّةً كالموكَّلِ بالفحل في إخراج البَذْرِ، وبالأنثى في التَّمكينِ مِنَ الحرثِ؛ تلطُّفاً بهما في السِّياقةِ إلى اقتناصِ الولدِ بسببِ الوقاعِ، كالتَّلطُّفِ بالطيرِ في بثِّ الحبِّ الذي يشتهيه لِيُساقَ إلى الشبكةِ.

وكانت القدرةُ الأزليَّةُ غيرَ قاصرةٍ عن اختراعِ الأشخاصِ ابتداءً مِنْ غير حراثةٍ وازدواجٍ، ولكنَّ الحكمةَ اقتضت ترتيبَ المسبَّباتِ على الأسباب مع الاستغناءِ عنها؛ إظهاراً للقدرةِ، وإتماماً لعجائبِ الصَّنعةِ، وتحقيقاً لِمَا سَبَقَتْ به المشيئةُ وحقَّتْ به الكلمةُ وجرى به القلمُ.

وفي التَّوصُّلِ إلى الولدِ قربةٌ مِنْ أربعةِ أوجهٍ هي الأصلُ في الترغيبِ فيه عندَ الأمنِ مِنْ غوائلِ الشهوةِ، حتَّى لم يُحبَّ أحدُهُم أن يلقى الله عزباً:

الأول: موافقةُ محبّةِ الله بالسعي في تحصيلِ الولدِ لإبقاءِ جنسِ الإنسانِ.

والثاني: طلبُ محبّةِ رسولِ الله ﷺ في تكثير مَنْ به مباهاتُهُ.

والثالث: طلبُ التَّبرُّكِ بدعاءِ الولدِ الصالحِ بعدَهُ.

والرابع: طلبُ الشفاعةِ بموتِ الولدِ الصَّغيرِ إذا ماتَ قبلَهُ.

الفائدة الثانية: التَّحصُّنُ عن الشيطانِ، وكسرُ التَّوَقانِ، ودفعُ غوائلِ الشَّهوةِ، وغَضُّ البصرِ، وحِفظُ الفرجِ، وإليه الإشارةُ بقولِهِ ﷺ: «مَنْ نَكَحَ فَقَدْ حَصَّنَ نِصْفَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي الشَّطْرِ الآخَرِ»(١).

وإليه الإشارةُ بقولِهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ»(٢).

وروى جابرٌ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى امرأةً فَدَخَلَ على زينب، فقضى حاجتَهُ وخَرَجَ، وقال: «إِنَّ المَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِصُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فإِنَّ مَعَهَا مِثْلُ الَّذِي مَعَهَا»(٣).

وأكثرُ ما نقلناه في فضلِ النكاحِ مِنَ الآثارِ والأخبارِ إشارةٌ إلى هذا المعنى.

الفائدة الثالثة: ترويحُ النَّفسِ وإيناسُها بالمجالسةِ والنظرِ والملاعبةِ؛ إراحةً للقلبِ وتقويةً له على العبادة؛ فإنَّ النَّفسَ ملولٌ، وهي عن الحقِّ نفورٌ؛ لأنَّه على خلافِ طبعِها، فلو كُلِّفَتْ المداومةَ بالإكراهِ على ما يُخالِفُها جَمَحَتْ وتأبَّتْ، وإذا رُوِّحَتْ باللَّذّاتِ في بعضِ الأوقاتِ قَوِيَتْ ونَشَطَتْ، وفي الاستئناسِ بالنِّساءِ مِنَ الاستراحةِ ما يُزيلُ الكربَ ويُروِّحُ القلبَ.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥١٠٠)، والطبراني في الأوسط (٩٧٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦١).

(٢) رواه البخاري (١٩٠٥).

(٣) رواه مسلم (١٤٠٣). أقبلت بصورة شيطان: أي: في صفته، شَبَّهَ المرأةَ الجميلةَ به في صفة الوسوسة والإضلال، يعني: ان رؤيتها تثير الشهوة وتقيم الهمة، فنسبها للشيطان لكون الشهوة من جنده وأسبابه، والعقل من جند الملائكة. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٥/ ٣٠٤).

وينبغي أن يكونَ لنفوسِ المتقين استراحاتٌ بالمباحات، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال علي رضي الله عنه: (رَوِّحوا القلوبَ ساعةً؛ فإنَّها إذا أُكرِهَتْ عَمِيَتْ)[١].

وفي الخبر: (على العاقلِ أن يكونَ له ثلاثُ ساعاتٍ: ساعةٌ يُناجي فيها ربَّهُ، وساعةٌ يُحاسِبُ فيها نفسَهُ، وساعةٌ يخلو فيها بمطعمِهِ ومشربِهِ؛ فإنَّ في هذه الساعةِ عوناً على تلك الساعات)[٢].

الفائدة الرابعة: تفريغُ القلبِ عن تدبيرِ المنزلِ ورعايةِ الأطفالِ والتَّكفُّلِ بشغلِ الطبخِ والكَنْسِ والفرشِ وتنظيفِ الأواني وتهيئةِ أسبابِ المعيشة، إذ لو تكَفَّلَ بجميعِ أشغالِ المنزلِ لَضاعَ أكثرُ أوقاتِهِ، ولم يتفرَّغْ للعلم والعمل.

فالمرأةُ الصالحةُ المُصلِحةُ للمنزلِ عونٌ على الدِّين بهذه الطريق، واختلالُ هذه الأسبابِ شواغلُ ومُشوِّشاتٌ للقلبِ ومُنغِّصاتٌ للعيش.

ولذلك قال أبو سليمانَ الداراني رحمه الله: (الزَّوجةُ الصالحةُ ليست مِنْ الدَّنيا؛ فإنَّها تُفرِّغُكَ للآخرة)[٣]، وإنَّما تفريغُها بتدبيرِ المنزلِ وبقضاءِ الشَّهوةِ جميعاً.

---

(١) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٧١٩)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٨٣)، ولفظه: (روحوا القلوب وابتغوا لها طُرَفَ الحكمة؛ فإنها تمل كما تمل الأبدان)، وفي حديث حنظلة رضي الله عنه عند مسلم (٢٧٥٠): «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً».

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٣١٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٢) عن وهب بن منبه من حكمة آل داود، ورواه مرفوعاً ابن حبان في صحيحه (٣٦١) ضمن خبر طويل، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٧).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٤٤) عن عمر رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْباً شَاكِراً وَلِسَاناً ذَاكِراً وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى آخِرَتِهِ»(١)، فانظرْ كيفَ جمعَ بينها وبين الذِّكرِ والشُّكرِ.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وكان أحمدُ بنُ حرب يقول: إذا اجتمعَ في المرأةِ ستُّ خصالٍ فقد كمُلَ صلاحُها: المحافظةُ على الخمسِ، وطواعيةُ زوجِها، ومرضاةُ ربِّها، وحفظُ لسانِها مِنَ الغيبة والنميمة، وزهدُها في متاعِ الدُّنيا، وصبرُها عند المصيبة(٢)).

الفائدة الخامسة: مجاهدةُ النفسِ ورياضتُها بالرِّعايةِ والولايةِ، والقيامِ بحقوقِ الأهلِ، والصَّبرِ على أخلاقِهِنَّ، واحتمالِ الأذى منهنَّ، والسَّعيِ في إصلاحِهِنَّ وإرشادِهِنَّ إلى طريقِ الدِّينِ، والاجتهادِ في كسبِ الحلالِ لأجلِهِنَّ، والقيامِ بتربيةِ الأولاد.

فكلُّ هذه أعمالٌ عظيمةُ الفضلِ؛ فإنَّها رعايةٌ وولايةٌ، والأهلُ والولدُ رعيَّةٌ، وفضلُ الرِّعايةِ عظيمٌ، وإنَّما يَحترِزُ منها مَنْ يَحترِزُ خيفةً مِنَ القصورِ عن القيامِ بحقِّها، وإلا فقد قال ﷺ: «يَوْمٌ مِنْ وَالٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً»(٣)، ثم قال ﷺ: «أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٤).

وليس مَنِ اشتغلَ بإصلاحِ نفسِهِ وغيرِهِ كَمَنِ اشتغلَ بإصلاحِ نفسِهِ فقط، ولا مَنْ صبرَ على الأذى كَمَنْ رَفَّهَ نفسَهُ وأراحَها، فمُقاساةُ الأهلِ والولدِ بمنزلةِ

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦) واللفظ له.

(٢) ينظر: (تنبيه المغترين) (٧٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٢).

(٤) رواه البخاري (٨٩٣).

الجهادِ في سبيلِ الله، ولذلك قال بشرٌ رحمه الله: (فُضّلَ عليَّ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله بثلاثٍ: إحداها: أنّه يطلبُ الحلالَ لنفسِه ولغيرِه)[1].

ورُوِيَ أنَّ بعضَ المتعبّدين كانَ يحسنُ القيامَ على زوجتِهِ إلى أن ماتَتْ، فعُرِضَ عليه التّزويجُ، فامتنعَ وقال: الوحدةُ أروحُ لقلبي، وأجمعُ لِهَمّي، ثم قال: رأيتُ في المنامِ بعدَ جمعةٍ مِنْ وفاتِها كأنَّ أبوابَ السّماءِ فُتِحَتْ، وكأنَّ رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبعُ بعضُهم بعضاً، فكلَّما نَزَلَ واحدٌ نَظَرَ إليَّ وقال لِمَنْ وراءَهُ: هذا هو المشؤومُ، فيقولُ الآخر: نعم، ويقولُ الثالثُ كذلك، ويقولُ الرابعُ: نعم، فَخِفْتُ أن أسألَهم هيبةً مِنْ ذلك إلى أن مرَّ بي آخرُهم وكان غلاماً، فقلتُ له: يا هذا مَنْ هذا المشؤومُ الذي تومئونَ إليه؟ فقال: أنت، فقلتُ: ولم ذاك؟ قال: كنَّا نرفعُ عَمَلَكَ في أعمالِ المجاهدين في سبيل الله، فمنذُ جمعةٍ أُمِرْنا أن نضعَ عملَكَ مع الخالفين، فما ندري ما أحدثْتَ؟ فقال لإخوانِهِ: زَوّجوني زَوّجوني، فلم يكن تُفارِقُهُ زوجتانِ أو ثلاثٌ.

آفاتُ النكاح

أما آفاتُ النّكاحِ:

فالأولى: العجزُ عن طلبِ الحلالِ؛ فإنَّ ذلك لا يتيسَّرُ لكلِّ أحدٍ، لا سيَّما في هذا الزمان.

ويقال: إنَّ أوَّلَ ما يتعلَّقُ بالرجلِ في القيامة أهلُهُ وولدُهُ، فيوقفونَهُ بين يدي الله عزَّ وجلَّ ويقولون: يا ربَّنا خُذْ لنا بحقِّنا منه؛ فإنَّه ما علَّمنا ما نجهلُ، وكان يُطعِمُنا الحرامَ ونحنُ لا نعلمُ، فيُقتَصُّ لهم منه.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٤١).

قال بعضُ السلف: (إذا أراد الله بعبدٍ شراً سلّط عليه في الدنيا أنياباً تَنْهَشُهُ)[١]، يعني: العيالَ.

وقال ﷺ: «لاَ يَلْقَى الله أَحَدٌ بِذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنْ جَهَالَةِ أَهْلِهِ»[٢].

فهذه آفةٌ عامةٌ، قَلَّ مَنْ يتخلَّصُ منها، إلا مَنْ له مالٌ موروثٌ أو مُكتسبٌ مِنَ حلالٍ يفي به وبأهلِهِ، وكان له مِنَ القناعةِ ما يمنعُهُ مِنَ الزيادة، فإنَّ ذلك يتخلَّصُ مِنْ هذه الآفة، أو مَنْ هو مُحترِفٌ ومُقتدِرٌ على كسبِ حلالٍ مِنَ المباحات، باحتطابٍ أو اصطيادٍ.

الآفةُ الثانيةُ: القصورُ عن القيامِ بحقوقِهِنَّ، والصبرِ على أخلاقِهِنَّ، واحتمالِ الأذى منهنَّ.

واعتذرَ بعضُهم مِنَ التَّزوُّجِ وقال: أنا مبتلى بنفسي، فكيف أضيفُ إليها نفساً أخرى؟

تحقيق: فإن انتفتْ في حقِّهِ الآفاتُ واجتمعتِ الفوائدُ؛ بأن كان له مالٌ حلالٌ، وخُلُقٌ حسنٌ، وجِدٌّ في الدِّين تامٌّ، لا يشغلُهُ النِّكاحُ عن الله تعالى، وهو مع ذلك شابٌّ يحتاجُ إلى تسكينِ الشَّهوة، ومُنفرِدٌ يحتاجُ إلى تدبير المنزل، فلا شكَّ في أنَّ النِّكاحَ أفضلُ له مع ما فيه مِنَ السعي في تحصيلِ الولد، وإن انتفت الفوائدُ واجتمعتِ الآفاتُ فالعزوبةُ أفضلُ له.

فإن كان الرجلُ مِمَّنْ أَمِنَ مِنَ الآفات، ولا يسلكُ سبيلَ الآخرةِ إلا بالصلاةِ النافلةِ أو الحجِّ وما يجري مَجراهُ مِنَ الأعمالِ البدنيّةِ فالنِّكاحُ له أفضلُ؛ لأنَّ في

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٥١).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٥١)، و(إتحاف السادة المتقين) (٥/ ٣١٧).

كسبِ الحلالِ والقيامِ بالأهلِ والسعي في تحصيل الولد، والصبرِ على أخلاقِ النساءِ أنواعاً مِنَ العبادات، لا يقصرُ فضلُها عن نوافلِ العبادات، وإن كانت عبادتُهُ بالعلم والفكرِ وسيرِ الباطنِ، والكسبُ يُشوّشُ عليه ذلك، فتركُ النِّكاحِ له أفضلُ.

ومَنْ لا يشغلُهُ عن الله تعالى شاغلٌ، فالأفضلُ في حقِّه الجمعُ بينهما، ورسولُ الله ﷺ جَمَعَ بين فضلِ العبادةِ والنِّكاح، وقد كان مع تسعٍ مِنَ النِّسوةِ مُتخلِّياً لعبادةِ الله تعالى، وكان قضاءُ الوطرِ بالنِّكاحِ في حقِّهِ غيرَ مانعٍ، ولا يمنعُهُ أمرُ هذا العالَمِ عن حضورِ القلبِ مع الله تعالى، فكان ينزلُ عليه الوحيُ وهو في فراشِ امرأتِهِ، فقد روي عنه ﷺ يقولُ لإحدى نسائه: «لا تُؤْذِيني في عائشةَ؛ فإنَّهُ والله ما نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وأنَا فِي لِحَافِ امرأةٍ مِنْكُنَّ غَيْرَها»[1]، ومتى يَسْلَمُ مثلُ هذا المنصبِ لغيرِهِ؟ فلا يبعدُ أن يُغيِّرَ السَّواقيَ ما لا يُغيِّرُ البحرَ الخضمَّ، فلا ينبغي أن يُقاسَ عليه غيرُهُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٣٧٧٥).

فصل في آداب المعاشرة

اعلم أنَّ أهمَّ آدابِ المعاشرةِ حُسْنُ الخلقِ معهنَّ، واحتمالُ الأذى منهنَّ ترحُّماً عليهن، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال في تعظيمِ حقِّهِنَّ: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، وقال: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، قيل: هي المرأةُ[١].

وآخرُ ما أوصى به رسولُ الله ﷺ ثلاثٌ، كان يتكلَّمُ بهنَّ حتَّى تَلَجْلَجَ لسانُهُ وخَفِيَ كلامُهُ: جَعَلَ يقولُ: «الصَّلاةَ الصَّلاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، لاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا لاَ يُطِيقُونَ، الله الله فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ فِي أَيْدِيكُمْ - يعني: أُسراءَ - أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله»[٢].

وقال أنسٌ رضي الله عنه: (كان رسولُ الله ﷺ أرحمَ الناسِ بالنِّساءِ والصِّبيان)[٣].

واعلم أنَّه ليس حسنُ الخلقِ معها كفَّ الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشِها وغضبِها؛ اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجُهُ تُراجِعْنَهُ، وتهجرُهُ الواحدةُ منهنَّ يوماً إلى الليل[٤].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤/ ١١١).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٧٠٦٠)، وابن ماجه (١٦٢٥)، وأما الوصية بهنَّ فرواها مسلم (١٢١٨) وكان ذلك في حجة الوداع.

(٣) رواه مسلم (٢٣١٦).

(٤) رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

وراجعتِ امرأةُ عمرَ عمرَ في الكلامِ، فقال: أَوَتراجِعيني يا لكعاءُ[1]، فقالت: إنَّ أزواجَ رسولِ الله ﷺ يُراجِعْنَهُ وهو خيرٌ منك، فقال عمرُ: خابَتْ حفصةُ وخَسِرَتْ إن راجَعَتْهُ، ثم قال لحفصةَ: لا تغترِّي بابنةِ ابنِ أبي قحافةَ؛ فإنَّها حِبُّ رسولِ الله ﷺ، وخوَّفها مِنَ المراجعةِ.

ورُوِيَ أنَّه دَفَعَتْ إحداهُنَّ في صدرِ رسولِ الله ﷺ فزَبَرَتْها أمُّها، فقال ﷺ: «دَعِيْهَا؛ فَإِنَّهُنَّ يَصْنَعْنَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ»[2].

وجرى بين رسولِ الله ﷺ وبينَ عائشةَ رضي الله عنها كلامٌ حتى أدخلا بينهما أبا بكرٍ حَكَماً واستشهداه، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «تكَلَّمِينَ أَوْ أَتَكَلَّمُ؟» فقالت: بل تكلَّمْ أنتَ ولا تَقُلْ إلا حقّاً، فَلَطَمَها أبو بكرٍ حتى دَمِيَ فوها وقال: يا عُدَيَّةَ نفسِها، أَوَيقولُ غيرَ الحقِّ؟ فاستجارتْ برسولِ الله ﷺ وقعدَتْ خلفَ ظهرِهِ، فقال النبيُّ ﷺ: «لَمْ نَدْعُكَ لِهٰذَا، وَلاَ أَرَدْنَا مِنْكَ هٰذَا»[3].

(م: وهكذا كان السَّلفُ الصالحُ في اقتدائهم برسولِ الله ﷺ، بل بَلَغَ مِنْ صدقِهم وتواضعِهم أنَّهم كانوا يجعلونَ تصرُّفاتِ أزواجِهم مرآةً لمعاملتِهم مع الله تعالى.

يقول الإمامُ الشعرانيُّ في ذكره لأخلاقِ السلف رضي الله عنهم: ومِنْ أخلاقِهم صبرُهم على أذى زوجاتِهم، وشهودُهم أنَّ كلَّ ما بدا مِنْ زوجةِ

---

(١) اللُّكَعُ: اللَّئيمُ الأحمقُ.

(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٨/ ١٦٦)، والآجري في الشريعة (١٨٩٠)، وتلك المرأةُ هي عائشة. زَبَرَتْها: زَجَرَتْها.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في العيال (٥٦٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢١٥). ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٥٣).

أحدِهم مِنَ المخالفاتِ له صورةُ معاملتِهِ لربِّه، فلمَّا خالَفَ ربَّهُ كذلك خالفتْهُ زوجتُهُ، وكانوا يؤدُّون إلى المرأة حقَّها على الكمال، ولا يمنعُهم مخالفتُها لهم عن ذلك[1]. انتهى.

وقال مولانا جلالُ الدِّين الرُّوميُّ رحمه الله: أنت ليلاً ونهاراً تحاربُ طالباً تهذيبَ أخلاقِ المرأةِ وتطهيرَ نجاستِها بنفسك؛ فَلَأَنْ تُطَهِّرَ نفسَكَ بها خيرٌ مِنْ أن تُطهِّرَها بنفسِكَ، فهذِّبْ نفسَكَ بواساطتِها).

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وسمعتُ سيِّدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقولُ: أخلاقُ الزوجةِ على صورةِ أخلاقِ الرجلِ في نفسه؛ لأنَّها منه خُلِقَتْ، فَمَنْ جَهِلَ شيئاً مِنْ أخلاقِهِ فلينظر إلى أخلاقِ زوجتِهِ فإنَّها تغمزُ عليه، فإن أردتَ يا أخي استقامةَ زوجتِكَ في الأخلاقِ فاستقمْ مع الله فيما بينَكَ وبينه. قال: وهذا أمرٌ قد أغفله الناسُ، فصاروا يشكون مِنْ أخلاقِ زوجاتهم، ولا ينتبهون لنفوسهم، ولو أنَّهم عرفوا ما قلناه لَرَجعوا لنفوسِهم فاستقاموا في أخلاقها فاستقامت أخلاقُ نسائهم.

وقد جربتُ أنا زوجتي أم عبد الرحمن رضي الله عنه في أخلاقها، فلا أتعوَّجُ في عملٍ ظاهرٍ أو باطنٍ إلا وتتعوَّجُ عليَّ في أخلاقها قهراً عليها، مع كونِها ذاتَ خُلُقٍ حسنٍ، وربَّما أكونُ معها في أحسنِ ما يكونُ مِنْ حسنِ العشرة، فيخطرُ في بالي فعلَ شيءٍ مِنَ الشهواتِ فتتغيَّرُ في المجلسِ قهراً، فأعرفُ سببَ ذلك، فأرجعُ عنه فترجع في الحال.

ففتِّشْ يا أخي نفسَكَ في الأخلاق السيئة قبل أن تشكوَ مِنْ زوجتِكَ، وكذلك المرأةُ ينبغي لها أن تُفَتِّشَ نفسَها ثم تشكو مِنْ زوجها.

---

(١) ينظر: (تنبيه المغترين) (٧١).

ثمَّ إن ما ذكرناه مِنْ هذه القاعدةِ هو الغالبُ في الناس، وقد يكونُ بعضُ الأولياءِ مستقيماً في الباطن، ويُبتلَى بزوجته وبأصحابه وغيرِهم؛ اختباراً له وتحمُّلاً عن غيرِهِ مِنَ الناس، فربَّما كان غيرُهُ يتزوَّجُ تلك الزوجةَ فلا يتحمَّلُ أذاها)[١].

ثم ليس المقصودُ مِنْ حُسنِ الخلقِ مجرَّدَ تحمُّلِ الأذى فحسب، بل ينبغي أن يزيدَ على احتمالِ الأذى بالمداعبة والمزحِ والملاعبةِ، فهي التي تُطيِّبُ قلوبَ النِّساء، وقد كان رسولُ الله ﷺ يمزحُ معهنَّ، وينزل إلى درجاتِ عقولهنَّ في الأعمالِ والأخلاقِ، حتى رُوِيَ أنَّه كان يُسابِقُ عائشةَ في العَدْوِ، فَسَبَقَتْهُ يوماً، وسَبَقَها في بعضِ الأيام، فقال ﷺ: «هذِهِ بِتِلْكَ»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ»[٣].

وقال ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي»[٤].

وقال عمرُ رضي الله عنه مع خشونتِهِ: (ينبغي للرجلِ أن يكونَ في أهلِهِ مثلَ الصَّبيِّ، فإذا التمسوا ما عنده وُجِدَ رجلاً)[٥].

وفي تفسير الخبر المروي: «إنَّ الله تعالى يُبْغِضُ الجَعْظَرِيَّ الجَوَّاظَ»[٦]، قيل: هو الشديدُ على أهلِهِ، المتكبِّرُ في نفسِهِ.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٩٩. ٥٠٠).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٧٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٦١٢).

(٤) رواه الترمذي (١١٦٢).

(٥) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٨٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٣٣١).

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٢) وأبو داود (٤٨٠١).

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وقد دَرَجَ السلفُ كلُّهم على الصَّبرِ على الزَّوجةِ، قال كعب الأحبار: مَنْ صَبَرَ على أذى زوجتِهِ له أعطاه الله مِنَ الأجرِ ما أعطى أيوبَ عليه السلام.

وكان المدايني يقول: شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياء إلى ربِّه سوءَ خُلُقِ امرأتِهِ، فأوحى الله إليه: إنِّي جعلتُ ذلك حظَّكَ مِنَ العقاب.

وشكا أبو مطيعٍ البلخيُّ إلى أيوب بن خلف زوجتَهُ، فقال له أيوب: مَنْ لم يصبرْ على أذى زوجتِهِ كيف يدَّعي أنَّ له درجةً عليها[1].

وقد كان بعضُهم يتزوَّجُ المرأة الشوهاء ويصبر عليها ويقول: أنا أحقُّ بها مِنْ غيري، فأحمِلُها عن إخواني المسلمين.

وسمعتُ سيِّدي عليّاً الخواصَ رحمه الله يقول: قلَّ أحدٌ مِنَ الأولياء إلا وهو تحتَ حكمِ امرأتِهِ تؤذيه بلسانِها وبأفعالها، إما أن يكونَ ذلك لمشاكلتِها لنفسه، وإما أن يكونَ ذلك اختباراً له؛ ليحملَ أذاها عن غيره ممن يتزوَّجُها.

وأخبرني شيخُنا نورُ الدين الشوني شيخُ مجلسِ الصلاة على رسول الله ﷺ بمصرَ وقُراها أنَّهُ جاورَ عند سيدي عثمان الحطاب بمصرَ فخرجَ يتوضَّأُ في ليلةٍ باردةٍ، فوجدَ شخصاً ملفوفاً، قال: فحرَّكتُهُ وقلتُ له: مَنْ أنت؟ فقال: عثمان، فقلتُ: يا سيِّدي ما لكَ نائمٌ هنا، فقال: أخرجتني أم أحمد مِنَ البيت.

وكذلك رأيتُ زوجةَ سيِّدي الشيخ محمد بن أبي الحمايل تشتمُهُ.

---

(١) ينظر: (تنبيه المغترين) (٧٠- ٧٢).

وكانت زوجةُ سيِّدي عليِّ الخواصِّ تهجرُهُ الثلاثةَ أشهرٍ وأكثر، ثم لَمّا ماتَتْ تَبِعَها برايةٍ بيضاء أمامَ نعشِها، مع أنَّه أخبرني في مرضِ موتِها بأنَّ له سبعاً وخمسين سنةً مِنْ حين دَخَلَ بها لم يَنَمْ معها ليلةً واحدةً وهما مصطلحان، فمثلُ هؤلاءِ لهم مقاصدُ صحيحةٌ، فينبغي التسليمُ لهم فيمَنْ يتزوَّجونَهُ مِنَ العجائزِ والشوهات والسيئاتِ الخُلُقِ[١].

وكان رجلٌ في مكةَ يُدعى عبد الله القرشي وكان له زوجةٌ مؤذيةٌ اصطبرَ على أذاها أكثرَ مِنْ أربعين عاماً، فلما اشتدَّ أذاها ونَفِدَ صبرُهُ عليها خَرَجَ مِنْ مكةَ فإذا هو بالبادية، فَوَجَدَ عابدَينِ يتعبَّدان ويتدارسانِ العلمَ، فَجَلَسَ معهم يتعبَّدُ ويقرأُ القرآنَ ويتقرَّبُ إلى الله، وكان مِنْ شيمةِ العربِ حينئذٍ ألا يسألوا ضيفَهم عن هويته أو غايته إلا بعد ثلاثة أيام، وإذا بوقت العَشاء قد حان، فقال أحدُ العابدَينِ لصاحبه: ادعُ لنا الله أن يرزقنا بعشاء، فأخذ أحدُ العابدَينِ بالدعاء، فما هو إلا وقتٌ قصيرٌ وإذا بطارقٍ يَطْرُقُ البابَ ويحملُ إناءً مِنَ الطعامِ، وجاء اليومُ التالي وأَخَذَ العابدُ الآخرُ يدعو الله أن يرزقَهم بِعَشاءٍ، فإذا بالباب يطرقُ ويحملُ أحدُهم إناءً مِنَ الطعام، فلمّا كان اليومُ الثالثُ قال العابدانِ لعبد الله القرشي: جاء دورُكَ اليوم، فعليك أن تدعوَ الله أن يرزقنا بعشاء، فأخذَ الرجلُ يُحدِّثُ نفسَهُ أنَّه رجلٌ عاصٍ كثير الذنوب، وكيف يستجيبُ الله له وهو لاهٍ غافلٌ، فأخذَ يدعو ويقول: اللهمَّ بعملِ هذين العابدَينِ وصلاحِهما ارزقنا عشاءَ الليلة، فإذا البابُ يطرقُ ويحمل أحدهم إناءين مِنَ الطعام، فتعجَّبَ العابدان، وأخذا يسألانِ الرجل: بما كنت تدعو يا عبد الله؟ فقال الرجلُ: واللهِ ما دعوتُ إلا بحقِّ تقواكما وإيمانكما ليس إلا، ثم سألهما بما كنتم تدعوان؟ قالا: حَدَّثنا أحدُهم عن رجلٍ في مكة

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٩٧ . ٤٩٨).

يُدعى عبد الله القرشي كان له زوجةٌ وصَبَرَ على أذاها، فكنا ندعو الله بحقِّ صبرِ القرشيِّ على زوجتِهِ ارزقنا العَشاء).

ولكن مع ما ذكرنا مِنْ قبلُ فينبغي للرجل أن لا ينبسطَ في الدُّعابةِ والموافقةِ باتِّباعِ هواها إلى حدٍّ يُفسِدُ خُلُقَها، ويُسقِطُ بالكليّةِ هيبتَهُ عندَها، بل يراعي الاعتدالَ فيه، فلا يدعُ الهيبةَ والانقباضَ مهما رأى منكراً، ولا يفتحُ بابَ المساعدةِ على المنكراتِ البتة، بل مهما رأى ما يُخالِفُ الشرعَ والمروءةَ تنمَّرَ وامتعضَ.

قال الحسن: (واللهِ ما أصبحَ رجلٌ يطيعُ امرأتَهُ فيما تهوى إلا أكبَّهُ الله في النار)[1]، وإنما قال ذلك لأنَّه إذا أطاعَها في هواها فهو عبدُها، وإنَّ الله مَلَّكَهُ المرأةَ فإذا أطاعها فقد مَلَّكَها نفسَهُ، وحينئذ يكونُ قد عكسَ الأمرَ، وقلبَ القَضيّةَ، وأطاعَ الشيطانَ لَمّا قال: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، إذ حقُّ الرجلِ أن يكونَ متبوعاً لا تابعاً، وقد سمَّى الله الرِّجالَ قوّامينَ على النِّساءِ، وسمَّى الزَّوجَ سيِّداً فقال تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، فإذا انقلبَ السَّيِّدُ مُسخَّراً فقد بدَّلَ نعمةَ الله كفراً، ونفسُ المرأةِ على مثالِ نفسِكَ إن أرسلتَ عِنانَها قليلاً جَمَحَتْ بِكَ طويلاً.

(ش: ولذا قال الشيخ علوان الحموي رضي الله عنه:

فَفِي النِّسَا فِتَنٌ كَاللَّيْلِ فِي سُحُبٍ ... وَكَيْدُهُنَّ عَظِيمٌ مِنْهُ فَانْهَزِمِ

وقال غيرُهُ:

رأيتُ الهَمَّ في الدُّنيا كثيراً ... وأكثرُهُ يَكونُ مِنَ النِّساءِ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٩٨).

فـلا تَأْمَـنْ لِأُنْثَـى قَـطُّ يومـاً   وَلَـوْ قَالَـتْ نَزَلْـتُ مِنَ السَّـماءِ)

ولينظر الرجلُ أوّلاً إلى أخلاقِها بالتَّجربةِ ثم ليُعامِلْها بما يُصلِحُها كما يقتضيه حالُها، فالطَّبيبُ الحاذِقُ هو الذي يُقدِّرُ العلاجَ بقدرِ الدَّاءِ.

وينبغي للرجل أن يعتدلَ في غيرتِهِ على زوجتِهِ، بحيثُ لا يتغافلُ عن مبادىء الأمورِ التي تُخشَى غوائلُها، ولا يُبالِغُ في إساءةِ الظَّنِّ والتَّعنُّتِ وتجسُّسِ البواطن، فقد نهى رسولُ الله ﷺ أن تُتبعَ عوراتُ النساء، وفي لفظٍ آخرَ: أن تُبغَتَ النِّساءُ[1].

ولَمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مِنْ سفرِهِ قال قبلَ دخولِ المدينةِ: «لاَ تَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلاً»، فَخالَفَهُ رجلانِ فَسَبَقا، فرأى كلٌّ واحدٍ منهما في منزلِهِ ما يَكرَهُ[2].

وقال ﷺ: «إِنَّ مِنَ الغَيْرَةِ غَيْرَةً يُبْغِضُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ غَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ»[3]؛ لأنَّ ذلك مِنْ سوءِ الظَّنِّ الذي نُهينا عنه، فإنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ.

وأما الغَيرةُ في محلِّها فلا بُدَّ منها وهي محمودةٌ، وقال رسولُ الله ﷺ لابنتِهِ فاطمةَ رضي الله عنها: أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْمَرْأَةِ؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجلٌ، فَضَمَّها إليه وقال: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ٣٤]، واستحسنَ قولَها[4].

* * *

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١٨٥٤) ومسلم (٧١٥).

(٢) رواه الدارمي في سننه (٤٥٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٥٩).

(٤) رواه البزار في مسنده (٥٢٦) مرفوعاً، وابن أبي الدنيا في العيال (٤١٢).

الكتاب الثالث من ربع العادات في آداب الكسب والمعاش

(مَنْ عامَلَ الله وَجَدَهُ في الدُّنيا والآخرة)

قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلاَلاً وَتَعَفُّفاً عَنِ المَسْأَلَةِ، وَسَعْياً عَلَى عِيَالِهِ، وَتَعَطُّفاً عَلَى جَارِهِ لَقِيَ الله وَوَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»[١].

ورُوِيَ أنَّ عيسى ـ عليه السلام ـ رأى رجلاً فقال: ما تصنعُ؟ قال: أَتَعَبَّدُ، قال: مَنْ يعولُكَ؟ قال: أخي، قال: أخوكَ أعبدُ منكَ[٢].

وقال ﷺ: «مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَاباً مِنَ السُّؤَالِ فَتَحَ الله عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الفَقْرِ»[٣].

وقال معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه: يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة: أينَ بُغضاءُ الله في أرضِهِ، فيقومُ سُؤَّالُ المساجدِ.

وسئل إبراهيمُ النخعيُّ رضي الله عنه عن التاجرِ الصَّدوقِ: أهوَ أحبُّ إليكَ أمِ المتفرِّغُ للعبادة؟

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٢٦٢٥)، وابن أبي الدنيا في العيال (٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٩)، البيهقي في الشعب (٩٨٩٠).

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٧٥٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٤٦٨).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/ ٤١٨)، والترمذي (٢٣٢٥).

قال: التاجرُ الصَّدوقُ أحبُّ إليَّ؛ لأنَّه في جهادٍ يأتيه الشيطانُ مِنْ طريقِ المكيالِ والميزانِ، ومِنْ قِبَلِ الأخذِ والعطاءِ فيُجاهِدُهُ.

فإن قلتَ: فقد قال ﷺ: «مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَنِ اجْمَعِ المَالَ وَكُنْ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلكِنْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ»[1].

وقيل لسلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه: أوصِنا؛ فقال: (مَنِ استطاعَ منكم أن يموتَ حاجّاً، أو غازياً، أو عامراً لمسجدِ ربِّهِ فليفعلْ، ولا يموتنَّ تاجراً ولا خائناً)[2].

فالجواب: أنَّ وجهَ الجمعِ بين هذه الأخبارِ تفصيلُ الأحوالِ؛ فَمَنْ طَلَبَ بالتِّجارةِ الثَّروةَ والزِّيادةَ لاستكثارِ المالِ وادِّخارِهِ، لا لتُصرَفَ إلى الخيراتِ والصدقاتِ فهي مذمومةٌ؛ لأنَّه إقبالٌ على الدُّنيا التي حبُّها رأسُ كلِّ خطيئةٍ، فإن كان مع ذلك خائناً فهو ظلمٌ وقسوةٌ وفسقٌ، وهذا ما أرادَهُ سلمانُ بقولِهِ: (لا يموتنَّ تاجراً ولا خائناً)، وأراد بالتاجرِ: طالبَ الزيادة.

وأما مَنْ طلبَ بها الكفايةَ لنفسِهِ وأولادِهِ تعفُّفاً عن السؤالِ فليست مذمومةً، بل هي أفضلُ له، وإنْ كان لا يحتاجُ إلى السُّؤالِ وكان يُعطَى مِنْ غير سؤالٍ فالكسبُ أفضلُ؛ لأنَّ التعفُّفَ والتَّستُّرَ أولى مِنَ البطالة.

فإن كان رجلٌ له سيرٌ بالباطنِ إلى الحقِّ تعالى، وعملٌ بالقلبِ في علومِ الأحوالِ والمكاشفاتِ، أو عالمٌ يشتغلُ بتربية علمِ الظاهرِ ممّا ينتفعُ الناسُ به في دينهم، فهؤلاء إذا كانوا يُكفَون مِنَ الأموال المُرصَدةِ للمصالحِ الشرعيةِ أو

---

(١) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي (٨٠٧).

(٢) رواه ابن المبارك في الجهاد (٢١٥)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٨٥).

الأوقافِ المُسبَّلةِ على العلماءِ والفقراءِ مِنْ أربابِ الزَّوايا مِنَ الصوفيّةِ فإقبالُهم على ما هم فيه مِنَ الاشتغالِ بالعلمِ باللهِ وبمصالحِ الخلقِ أفضلُ مِن اشتغالهم بالكسبِ، ولهذا أُوحِيَ إلى رسول الله ﷺ أَنْ سَبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكُنْ مِنَ الساجدين، ولم يُوحَ إليه أنْ كُنْ مِنَ التاجرين.

وقال رسولُ الله ﷺ: «لاَ تَزَالُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله تَدْفَعُ عَنِ الخَلْقِ سَخَطَ الله مَا لَمْ يُؤْثِرُوا صَفَقَةَ دُنْيَاهُمْ عَلَى آخِرَتِهِمْ»، وفي لفظ آخر: «مَا لَمْ يُبَالُوا مَا نَقَصَ مِنْ دُنْيَاهُمْ بِسَلاَمَةِ دِينِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلِكَ وَقَالُوا: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، قَالَ الله تَعَالَى: كَذَبْتُمْ، لَسْتُمْ بِهَا صَادِقِينَ»[1].

فلا ينبغي للرجلِ أن يشغلَهُ معاشُهُ عن مَعادِهِ فيكون عمرُهُ ضائعاً وصفقتُهُ خاسرةً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، أي: لا تنسَ في الدُّنيا نصيبَكَ منها للآخرة؛ فإنَّها مزرعةُ الآخرة.

[مطلب في ذكر نيّاتِ التاجر]

وينبغي للتاجرِ أن ينويَ في ابتداءِ التِّجارةِ الاستعفافَ عن السُّؤالِ، وكَفَّ الطَّمعِ عن الناس؛ استغناءً بالحلال عنهم، واستعانتَهُ بما يكتسبه على الدِّين، وقياماً بكفايةِ العيال؛ ليكونَ مِنْ جملةِ المجاهدين به.

ولينوِ النُّصحَ للمسلمين، وأن يحبَّ لسائر الخلق ما يحبُّ لنفسِهِ، ولينوِ العدلَ والإحسانَ في معاملتِهِ، ولينوِ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكرِ في كلِّ

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٧١)، ورواه أبو يعلى في مسنده (٤٠٣٤)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢١٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٠١٥).

ما يراه في السُّوق، فإذا أضمرَ هذه العقائدَ والنِّياتِ كان عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفاد مالاً فهو مزيد، وإن خَسِرَ في الدُّنيا رَبِحَ في الآخرة.

وأن يقصدَ في صنعتِهِ أو تجارتِهِ الإتيانَ بفرضٍ مِنْ فروضِ الله تعالى الكفايات؛ فإنَّ الصناعاتِ والتِّجاراتِ لو تُرِكَتْ بَطَلَتِ المعايشُ وهَلَكَ الخلقُ، فانتظامُ أمرِ الكلِّ بتعاونِ الكلِّ، وتكفُّلِ كلِّ فريقٍ بعملٍ، ولو أقبل كلُّهم على صنعةٍ واحدةٍ لتعطَّلَتِ البواقي وهلكوا، وعلى هذا حملَ بعضُ الناسِ قولَهُ: «اخْتِلافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ»[1]، أي: اختلافُ هِمَمِهِمْ في الصِّناعاتِ والحِرَفِ.

ومِنَ الصِّناعاتِ ما هي مُهِمّةٌ، ومنها ما يُستغنى عنها؛ لرجوعِها إلى طلبِ التزيُّنِ والتَّنَعُّمِ في الدُّنيا، فليشتغلْ بصناعةٍ مهمّةٍ؛ ليكونَ في قيامِهِ بها كافياً عن المسلمين مُهِمّاً في الدِّين.

وليجتنبْ صناعةَ النَّقشِ والصِّياغةَ وتشييدَ البُنيانِ بالجصِّ، وجميعَ ما وُضِعَ لِتُزَخْرَفَ به الدُّنيا، فكلُّ ذلك كَرِهَهُ ذَوو الدِّين، فأمَّا عملُ الملاهي والآلاتِ التي يحرمُ استعمالُها فاجتنابُ ذلك مِنْ قبيلِ تركِ الظُّلمِ، ومِنْ جملةِ ذلك خياطةُ الخيّاطِ القَباءَ مِنَ الإبريسم للرجال، وصياغةُ الصائغِ مراكبَ الذَّهبِ أو خواتيمَ الذَّهبِ للرجال، فكلُّ ذلك مِنَ المعاصي، والأجرةُ المأخوذةُ عليه حرامٌ.

وبيعُ الطَّعامِ وبيعُ الأكفانِ مكروهٌ؛ لأنه يُوجِبُ انتظارَ موتِ الناسِ وحاجتِهِم؛ لغلاء الأسعار.

ويُكرَهُ أن يكونَ جزّاراً؛ لِمَا فيه مِنْ قساوةِ القلبِ، وأن يكونَ حَجّاماً أو كَنّاساً؛ لِمَا فيه مِنْ مخالطةِ النَّجاسةِ، وكذا الدَّبّاغُ وما في معناه.

---

(۱) رواه البيهقي في المدخل (١٥٢) بلفظ: (واختلاف أصحابي لكم رحمة).

وكَرِهَ ابنُ سيرين الدلالةَ، وكَرِهَ قتادةُ أجرةَ الدَّلّالِ، ولعلَّ السَّببَ فيه: قلّةُ استغناءِ الدَّلّالِ عن الكذبِ، والإفراطُ في الثناءِ على السِّلعةِ لترويجِها، ولأنَّ العملَ فيه لا يتقدَّرُ، ولا ينظر في مقدارِ الأجرةِ إلى عملِهِ، بل إلى قدرِ قيمةِ الثوب، هذا هو العادةُ، وهو ظلمٌ، بل ينبغي أن ينظر إلى قدرِ التَّعبِ.

وكرهوا الصَّرْفَ؛ لأنَّ الاحترازَ فيه عن دقائقِ الرِّبا عسيرٌ، واستحبُّوا تجارةَ البَزِّ.

قال سعيدُ بنُ المسيّب رضي الله عنه: (ما مِنْ تجارةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ تجارةِ البَزِّ، ما لم يكن فيها أيمانٌ)[1].

ورُوِيَ: (لو اتَّجرَ أهلُ الجنّةِ لاتَّجروا في البَزِّ، ولو اتَّجَرَ أهلُ النارِ لاتَّجروا في الصَّرْفِ)[2].

وقد كان غالبُ أعمالِ الأخيارِ مِنَ السلفِ عشرَ صنائعَ: الخَرْزُ، والنِّجارةُ، والحملُ، والخياطةُ، والحَذْوُ، والقصارةُ، وعملُ الخِفافِ، وعملُ الحديدِ، وعملُ المغازلِ، والوراقةُ.

وأربعةٌ مِنَ الصَّنائعِ مَوْسُومون عند الناس بضعفِ الرأي: الحاكةُ، والقَطّانون، والمغازليُّون، والمعلِّمون، ولعلَّ ذلك لأنَّ أكثرَ مخالطتِهم مع النِّساءِ والصِّبيان.

وكَرِهَ السَّلفُ أخذَ الأجرةِ على كلِّ ما هو مِنْ قبيلِ العباداتِ وفروضِ

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٧/ ١٣٤)، وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٢٤٨).

(٢) روى صدره الطبراني في الصغير (١/ ٢٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦٥)، وهو بتمامه في مسند الفردوس (٥١٣٢).

الكفاياتِ، كغسلِ الأمواتِ ودفنِهم، وكذا الأذانُ وصلاةُ التراويح، وإنْ حُكِمَ بصحّةِ الاستئجارِ عليه، وكذا تعليمُ القرآنِ وتعليمُ علمِ الشَّرعِ، فإنَّ هذه أعمالٌ حقُّها أن يُتَّجَرَ فيها للآخرة، وأخذُ الأجرةِ عليها استبدالٌ بالدنيا عن الآخرة، فلا يُستحبُّ ذلك.

وكان صالحو السَّلفِ يجعلونَ أوَّلَ النهارِ وآخرَهُ للآخرةِ، والوسطَ للتِّجارة، فلم يكن يبيعُ الهريسةَ والرُّؤوسَ بكرةً إلا الصِّبيانُ وأهلُ الذِّمة؛ لأنَّهم كانوا في المساجد بعدُ.

وفي الخبرِ: «إنَّ الملائكةَ إذا صَعَدَتْ بصحيفةِ العبدِ وفيها في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخرِهِ ذِكْرُ الله وخيرٌ كَفَّرَ الله ما بينَهما مِنْ سيِّىءِ الأعمالِ»[1].

وقد جاء في تفسير قولِهِ تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، أنَّهم كانوا حَدّادين وخَرَّازين، فكان أحدُهُم إذا رفعَ المطرقةَ أو غرزَ الإشفى فَسَمِعَ الأذانَ لم يُخرجِ الإشفى مِنَ المغرزِ، ولم يُوقِعِ المطرقةَ، ورمى بها وقام إلى الصلاة.

وينبغي أن يُلازِمَ ذكرَ الله تعالى في السُّوقِ، ويشتغلَ بالتَّهليلِ والتَّسبيحِ.

قال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ الله لَه أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنَى لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٩٨١). ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٢٨)، ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٩).

وكان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، وسالِمُ بنُ عبد الله رحمه الله، ومحمدُ بنُ واسعٍ رحمه الله، وغيرُهم يدخلون السُّوقَ قاصدِينَ لنيلِ فضيلةِ هذا الذِّكرِ [١].

وكان عمرُ رضي الله عنه إذا دخلَ السُّوقَ قال: (اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ والفُسُوق، ومِنْ شَرِّ ما أحاطَتْ بِهِ السُّوق، اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ يمينٍ فاجرةٍ وصفقةٍ خاسرةٍ)[٢].

فاعلم أنَّ السُّوقَ والمسجدَ والبيتَ في حقِّ طالبِ الآخرةِ لها حكمٌ واحدٌ، وإنَّما النَّجاةُ بالتقوى، قال ﷺ: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ»[٣]، فوظيفةُ التَّقوى لا تنقطعُ عن المتجرِّدين للدِّين كيفما تقلَّبَتْ بهم الأحوالُ، فبه تكونُ حياتُهم وعيشتُهم؛ إذ فيه يرون تجارتَهُم وربحَهُم.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نُبَكِّرَ في طلب الرزقِ؛ مبادرةً لقطعِ خاطرِ الاهتمامِ بأمر الرِّزق، لا حُبّاً للدنيا مِنْ حيث هي دُنيا، فإنَّ في الآدميِّ ما عدا الأكابر جزءاً يهتمُّ بأمرِ المعيشةِ ويضطربُ ولا يسكنُ حتى يُحصِّلَ العبدُ كفايتَهُ ذلك اليوم.

وقد كان السلفُ الصالحُ رضي الله عنهم يفتحون حوانيتهم، فإذا ربحوا قدرَ نفقةِ ذلك اليومِ أغلقوا الحانوتَ ورجعوا إلى بيوتهم، وكذلك بلغنا عن الشيخ المحقق الصالح جلال الدين المحلي شارح المنهاج أنَّه كان يفتحُ حانوتَهُ مِنْ بكرةِ النهار، فيبيعُ الناسَ القماشَ ويقول: إنَّما أُبَكِّرُ للسُّوقِ اغتناماً لدعائه ﷺ

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٥).

(٣) رواه الترمذي (١٩٨٧).

بالبركة لِمَنْ يُبكِّرُ في طلبِ رزقِهِ، ودعاؤهُ لا يُرَدُّ، فلا يزال يبيعُ حتى يتعالى النهار، ثم يُغلِقُهُ ويرجعُ إلى الجلوسِ لإقراءِ الناسِ في المدرسة[١].

وقال قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن لا نتعاطى أسبابَ تعسيرِ الرِّزقِ، كعدمِ الإيثارِ، وكالمعاصي الظاهرةِ والباطنةِ مِنْ زناً وغيبةٍ وحقدٍ وحسدٍ وتكبُّرٍ وفخرٍ وعجبٍ، وكالنَّومِ في الأسحارِ وقتَ تفرقةِ الغنائم، وكالنومِ بعد الفجرِ حتى يتعالى النهار.

وقد سمعتُ سيدي عليّاً الخواصَ ـ رحمه الله ـ يقول: إنَّ الله تعالى يقسمُ الأرزاقَ المحسوسةَ بعد صلاة الصبحِ، والأرزاقَ المعنويةَ بعدَ صلاة العصرِ، قال: ولذلك نُهينا عن النومِ في هذين الوقتين؛ لأنَّ فيه إظهارَ عدمِ الفاقة، وعدمِ الاعتناءِ بمشاهدةِ مَنْ يقسمُ الأرزاقَ مِنْ قِبَلِ الحقِّ تعالى.

وسمعتُهُ مراراً يقول: والله إنَّه ليُصبِحُ عندي نفقةُ الجمعةِ أو أكثر، ويكون عليَّ النومُ، أي: أحتاجه، فلا أنامُ لأجل حضوري بقلبي مع الله تعالى وقتَ القِسمة، حتى لا أُظْهِرَ عدمَ احتياجي إلى فضلِهِ في وقتٍ مِنَ الأوقات[٢].

وقال قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن يكونَ عندنا سماحةٌ في البيعِ والشراءِ، وسهولةٌ في أخذِ حقِّنا، وفي وزنِ ما للناس علينا، وأن نُقيلَ كلَّ نادمٍ على بيعٍ أو شراءٍ؛ عملاً بأخلاقِ السلفِ الصالحِ، كما نُقيلُ كلَّ نادمٍ على وقوعِهِ في حقِّنا.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا يبلغُ الإنسانُ مقامَ

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٤٩).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٥٠ - ٤٥١).

المحبّةِ لله ولرسوله إلا إن سَامَحَ جميعَ الخلقِ مما له عليهم مِنْ مالٍ وعرضٍ في الدنيا والآخرة؛ إكراماً لِمَنْ هم عبيده، ولِمَنْ هم مِنْ أُمَّتِهِ ﷺ.

ومَنْ سامحَ الناسَ سامَحَهُ الله وبالعكس، ومَنْ شاحَحَ أحداً مِنْ هذه الأمة المحمدية ولم يُسامِحهم بحقِّهِ مِنْ غير ضرورةٍ شرعيةٍ فما عَرَفَ قدرَ عظمتِهِ ﷺ، فضلاً عن معرفتِهِ بقدرِ عظمة الله تعالى التي كلَّفَ بها الخلق[1].

* *

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٤٦٣ـ ٤٦٥).

الكتاب الرابع من ربع العادات
في الحلال والحرام

(مَنْ أكلَ الحلالَ أطاعَ الله شاء أم أبى، ومَنْ أكلَ الحرامَ عصى الله شاء أم أبى).

(كُنْ وَرِعاً تكُنْ أعبدَ الناس).

قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

ولما قال ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[١]، قال بعضُ العلماء: أرادَ به طلبَ علمِ الحلالِ والحرامِ.

وقال ﷺ: «مَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ مِنْ حِلِّهِ فَهُوَ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله تعالى»[٢].

ورُوِيَ أنَّ سعداً سأل رسولَ الله ﷺ أن يسألَ الله تعالى أن يجعلَهُ مُجابَ الدَّعوة، فقال له: «أَطِبْ طُعْمَتَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ»[٣].

ورُوِيَ: «إِنَّ لله مَلَكاً عَلَى بَيْتِ المَقْدِسِ يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ: مَنْ أَكَلَ حَرَاماً لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ»[٤]، فقيل: الصَّرفُ: النافلةُ، والعدلُ: الفريضةُ.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٩٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٥).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٤٩١).

(٤) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٥٥٣). ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٨٨).

(ش: قال الشيخ علوان الحموي في وصف أهلِ زمانه:

أَكْلُ الحَرَامِ فَشَا بَيْنَ الخَلائِقِ لَمْ يُنْكِرْهُ ذُو مَنْصِبٍ فِي الْعِلْمِ وَالحِكَمِ)

وقال الفضيل رحمه الله: (مَنْ عَرَفَ ما يدخلُ جوفَهُ كتبَهُ الله صِدِّيقاً، فانظرْ عندَ مَنْ تُفطِرُ يا مسكينُ)[١].

وقال سهلٌ التُّستَرِيُّ رحمه الله: (لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتى يكونَ فيه أربعُ خصالٍ: أداءُ الفرائضِ بالسُّنّة، وأكلُ الحلالِ بالورعِ، واجتنابُ النَّهي مِنَ الظاهرِ والباطنِ، والصَّبرُ على ذلك إلى الموت).

وقال رحمه الله: (مَنْ أحبَّ أن يُكاشَفَ بآياتِ الصِّدِّيقين فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سُنَّةٍ أو ضرورةٍ)[٢].

ويقال: (مَنْ أكلَ الشُّبهةَ أربعين يوماً أظلمَ قلبُهُ، وهو تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤])[٣].

وكان بشرٌ الحافيُّ رحمه الله مِنَ الورعين، فقيل له: مِنْ أين تأكلُ؟ فقال: مِنْ حيثُ تأكلون، ولكن ليس مَنْ يأكلُ وهو يبكي كَمَنْ يأكلُ وهو يضحكُ[٤].

* *

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٣٩٣).

(٢) ينظر: هذا القول وما قبله في (قوت القلوب) (٢/ ٢٨٧).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٨٧).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٩٥).

فصلٌ في درجات الحلال والحرام

اعلم أنَّ الحرامَ كلَّهُ خبيثٌ، لكنَّ بعضَه أخبثُ مِنْ بعضٍ، والحلالَ كلَّهُ طيِّبٌ، ولكنَّ بعضَهُ أطيبُ مِنْ بعضٍ وأصفى.

واعلم أنَّ الورعَ عن الحرامِ على أربعةِ مراتبَ:

الأولى: ورعُ العدولِ، وهو الامتناعُ عن الذي يجبُ الفسقُ باقتحامِهِ، وتسقطُ العدالةُ به، ويثبتُ اسمُ العصيانِ والتعرُّضُ للنار بسببِهِ، وهو الورعُ عن كلِّ ما تُحرِّمُهُ فتاوى الفقهاءِ.

الثانية: ورعُ الصالحين، وهو الامتناعُ عمَّا يتطرَّقُ إليه احتمالُ التَّحريم، ولكنَّ المفتيَ يُرخِّصُ في التَّناولِ بناءً على الظاهر.

الثالثة: ما لا تُحرِّمُهُ الفتوى الشَّرعيّةُ ولا شبهةَ في حِلِّهِ، ولكن يُخافُ منه أداؤُهُ إلى مُحرَّمٍ، وهو تركُ ما لا بأسَ به مخافةً ممّا به بأسٌ، وهذا ورعُ المتقين، قال ﷺ: «لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ دَرَجَةَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ»[1]، أي: يتركُ تناولَ الحلالِ مخافةً مِنَ الوقوعِ في الحرام.

الرابعة: ما لا بأسَ به أصلاً، ولا يُخافُ منه أن يُؤدِّيَ إلى ما به بأسٌ، ولكنَّه يُتناولُ لغيرِ الله تعالى، لا على نيّةِ التَّقوّي به على عبادة الله، أو تَتطرّقَ إلى أسبابه المسهِّلةِ له كراهيةٌ أو معصيةٌ، والامتناعُ منه ورعُ الصِّدِّيقين.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١).

فينبغي لصاحبِ الورِعِ أن يستفتيَ قلبَهُ، فإن حاكَ في صدرِهِ شيءٌ فهو الآثمُ بينه وبين الله تعالى إن ارتكبه، فلا يُنجيه في الآخرةِ فتوى المفتي؛ فإنَّه يُفتي بالظاهر، والله تعالى يتولَّى السرائر، وحيث قَضَيْنا باستفتاءِ القلبِ أَرَدْنا به حيثُ أباح المفتي، أما حيثُ حَرَّمَ فيجبُ الامتناعُ.

ثم لا يُعوَّلُ على كلِّ قلبٍ، فرُبَّ موسوسٍ ينفرُ عن كلِّ شيء، ورُبَّ شَرِهٍ مُتساهِلٍ يطمئنُّ إلى كلِّ شيء، ولا اعتبار بهذين القلبين، وإنَّما المعتبرُ بقلبِ العالِمِ الموفَّقِ المراقبِ لدقائق الأحوال، فهو الحاكمُ الذي تُمتَحَنُ به خفايا الأمور، وما أعزَّ هذا القلبَ في القلوب، فَمَنْ لم يَثِقْ بقلبِ نفسِهِ فليلتَمِسْ النُّورَ مِنْ قلبٍ بهذه الصِّفة، وليَعرِضْ عليه واقعتَهُ.

وجاء في الزبور: إنَّ الله تعالى أوحى إلى داودَ عليه السلام: قُلْ لبني إسرائيلَ إنِّي لا أنظرُ إلى صلاتِكم ولا صيامِكم، ولكنْ أنظرُ إلى مَنْ شَكَّ في شيءٍ فتركَهُ لأجلي، فذاك الذي أنظرُ إليه وأؤيِّدُهُ بنصري، وأباهي به ملائكتي.

واعلم أنَّ لكَ مع الأمراءِ والعُمّالِ والظَّلمةِ ثلاثةَ أحوالٍ:

الحالة الأولى ـ وهي شَرُّها: أن تدخلَ عليهم.

والثانية ـ وهي دونَها: أن يدخلوا عليك.

والثالثة ـ وهي الأسلمُ: أن تعتزلَ عنهم، فلا تراهم ولا يرونَكَ.

أما الحالةُ الأولى: وهي الدُّخولُ عليهم، فهو مذمومٌ جداً في الشَّرع، وفيه تغليظاتٌ وتشديداتٌ.

ولَمّا وَصَفَ رسولُ الله ﷺ الأمراءَ الظَّلمةَ قال: «فَمَنْ نَابَذَهُمْ نَجَا، ومَنْ

اعْتَزَلَهُمْ سَلِمَ، أَوْ كَادَ أَنْ يَسْلَمَ، وَمَنْ وَقَعَ مَعَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١)، وذلك لأنَّ مَنِ اعتزلَ سَلِمَ مِنْ إثمهم، ولكنْ لم يسلَمْ مِنْ عذابٍ يَعُمُّهُ معهم إن نَزَلَ بهم؛ لتركِهِ المنابذةَ والمنازعةَ.

وفي الخبر: «خَيْرُ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ العُلَمَاءَ، وَشَرُّ العُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الأُمَرَاءَ»(٢).

وفي الخبر: «العُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللهِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ، فَاحْذَرُوهُمْ وَاعْتَزِلُوهُمْ»(٣).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال ﷺ: «أَبْغَضُ القُرَّاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الَّذِينَ يَزُورُونَ الأُمَرَاءَ»(٤).

وقال حذيفةُ رضي الله عنه: (إياكُم ومواقفَ الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبوابُ الأمراء، يدخلُ أحدُكُم على الأميرِ فيُصدِّقُهُ بالكذب، ويقولُ ما ليسَ فيه)(٥).

وقال سفيانُ رضي الله عنه: (في جهنَّمَ وادٍ لا يسكنُهُ إلا القراءُ الزَّوَّارونَ للملوك)(٦).

وقال الأوزاعي رضي الله عنه: (ما مِنْ شيءٍ أبغضَ إلى الله مِنْ عالِمٍ يزورُ عاملاً)(٧).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٨٩٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٩).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٥٦٦).

(٣) رواه العقيلي كما في جامع بيان العلم وفضله (١١١٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٢١٠)، وقال الحافظ المناوي نقلاً عن السيوطي: (وقولُ ابن الجوزي: «أنَّه موضوعٌ» ممنوعٌ، وله شواهد فوق الأربعين، فنحكمُ له على مقتضى صناعةِ الحديث بالحسن).

(٤) رواه ابن ماجه (٢٥٦).

(٥) رواه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٣١٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٧).

(٦) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٠٩٧).

(٧) رواه ابن عدي في الكامل (٢/ ٣٥).

وقال عبادةُ بنُ الصامتِ ﷺ: حُبُّ القارئ النَّاسِكِ للأمراءِ نفاقٌ، وحُبُّهُ للأغنياء رياءٌ.

وقال محمد بن سلمة ﷺ: (الذُّبابُ على العَذِرةِ أحسنُ مِنْ قارئ على باب هؤلاء)[1].

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى في وصف حالِ مَنْ يقصدُ الأمراءَ مِنْ طلبةِ العلم:

وَصَارَ طَالِبُ عِلْمِ الدِّيْنِ هِمَّتُهُ ... وِلَايَةُ الْحُكْمِ وَالْمَنْبُوذُ لِلْحُطَمِ

يَهْوَى الرِّيَاسَةَ لَا يَبْغِي بِهَا بَدَلًا ... عِنْدَ الْمُلُوكِ بِقُرْبٍ مِنْ دِيَارِهِمِ

يَمْشِي إِلَيْهِمْ عَلَى دُنْيَاهُ مُكْتَلِبًا ... مُصَدِّقًا لَهُمُ فِي زُورِ كِذْبِهِمِ

مُدَاهِنًا فِي حُقُوقِ اللهِ أَجْمَعِهَا ... لَمْ يَكْتَرِثْ بِتَعَدِّيهِمْ لِحَدِّهِمِ

يَكْفِيهِ فِي خِزْيِهِ حَشْرٌ غَدًا مَعَهُمْ ... لِحُبِّهِ لَهُمُ فِي قَعْرِ نَارِهِمِ)

واعلم أنَّ التواضعَ للظالِمِ معصيةٌ، بل مَنْ تواضعَ لغنيٍّ ليس بظالمٍ لأجلِ غناه - لا لمعنًى آخرَ اقتضى التواضعَ - ذَهَبَ ثُلُثا دينِهِ، فكيف إذا تواضَعَ للظالم؟ فلا يُباحُ إلا مجرَّدُ السَّلام.

فأما تقبيلُ اليدِ والانحناءُ في الخدمةِ فهو معصيةٌ إلا عندَ خوفٍ، أو لإمامٍ عادلٍ، أو لعالِمٍ، أو لِمَنْ يستحقُّ ذلك بأمرٍ دينيٍّ، فقد قَبَّلَ أبو عبيدةَ بنُ الجرّاح ﷺ يدَ عمرَ ﷺ لَمّا أن لَقِيَهُ بالشام، فلم ينكر عليه[2].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ٤٤٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٧٣٢).

أما الدُّعاءُ للظالِمِ والفاسقِ فلا يَحِلُّ إلا أن يقولَ: «أصلحكَ الله» أو «وَفَّقَكَ الله للخيرات»، وأما الدعاءُ للحراسةِ وطولِ البقاءِ واتِّساعِ النِّعمةِ له فغيرُ جائزٍ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ دَعَا لِظَالِمٍ بِالبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَى الله فِي أَرْضِهِ»[1]، فإن جاوزَ الدُّعاءَ إلى الثناءِ فسيذكرُ ما ليس فيه، فيكونُ به كاذباً ومنافقاً ومُكرِماً لظالِمٍ، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ الله لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ»[2]، وفي خبرٍ آخرَ: «مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقاً فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الإِسْلَامِ»[3].

وإذا دَخَلَ عليكَ السلطانُ الظالمُ زائراً فالقيامُ والإكرامُ له لا يحرمُ مقابلةً له على إكرامِهِ، فإنَّه بإكرامِ العلمِ والدِّينِ مُستحقٌّ للإكرام، ولكنَّ الأولى تركُ الإكرامِ بالقيامِ إذا أَمِنَ نيلَ أذى مِنْ غضبِهِ؛ ليظهرَ له به عزَّ الدِّينِ وحقارةَ الظالم، وإعراضَهُ عمَّن أعرضَ الله تعالى عنه، فلتكُنْ جنايةُ كلِّ واحدٍ مِنَ الظَّلَمةِ على حقِّ الله كجنايتِهِ على حقِّك، فإنَّ المحبَّ يكرهُ بضرورةِ الطبعِ ما هو مكروهٌ عند محبوبه، فأحبَّ ما أحبَّه وكره ما كرهه، فإنَّ مَنْ لا يكرهُ معصيةَ الله لا يحبُّ الله، وإنَّما لا يحبُ الله مَنْ لا يعرفُهُ، والمعرفةُ واجبةٌ والمحبةُ لله واجبةٌ.

ثم يجبُ عليه أن ينصحَ له فيأمرَهُ بالمعروف وينهاه عن المنكر فيما قصَّر وارتكب.

والأولى والأسلمَ له أن يعتزِلَهم ولا يراهم ولا يرونه؛ إذ لا سلامةَ إلا فيه، فعليه أن لا يحبَّ لقاءَهم ولا بقاءَهم، ولا يثنيَ عليهم، ولا يستخبرَ عن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦٠٤)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٤٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٠)، والبيهقي في الشعب (٤٥٤٣).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢١٨).

أحوالهم، ولا يتقرَّبَ إلى المتصلين بهم، ولا يتأسَّفَ على ما يفوتُ بسببِ مفارقتهم.

فعن سفيانَ الثوري رحمه الله قال: أُدخِلْتُ على أبي جعفر المنصور بمنى فقال لي: ارفعْ إلينا حاجتك، فقلتُ له: اتَّقِ الله؛ فقد ملأتَ الأرضَ ظُلْماً وجُوراً، قال: فطأطأَ رأسَهُ ثم رفعَ وقال: ارفعْ إلينا حاجتَكَ، فقلتُ: إنَّما أُنزلتَ هذه المنزلةَ بسيوف المهاجرين والأنصارِ وأبناؤهم يموتونَ جوعاً، فاتَّقِ الله وأَوْصِلْ إليهم حقوقَهم، فطأطأَ رأسَهُ ثم رفعَ وقال: ارفعْ إلينا حاجتَكَ، فقلت: حَجَّ عمرُ ابنُ الخطاب رضي الله عنه، فقال لخازنِهِ:كم أنفقتَ؟ قال: بضعةَ عشرَ درهماً، وأرى لدي ههنا أموالاً لا تطيقُ الجمالُ حملَها، وخرجَ[1].

فهكذا كانوا يدخلون على السُّلطانِ إذا أُكرهوا، وكانوا يُغرِّرونَ بأرواحهم للانتقام لله مِنْ ظلمهم.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبي حازم: عِظْني، فقال: اضطجعْ، ثم اجعلِ الموتَ عندَ رأسِكَ، ثمَّ انظرْ ما تحبُّ أن يكونَ فيك تلك الساعةَ فَخُذْ به الآن، وما تكرهُ أن يكونَ فيك تلكَ الساعةَ فَدَعْهُ الآنَ، فلعلَّ تلك الساعةَ قريبةٌ[2].

واعلم أنَّ الظلمةَ في العصرِ الأوَّلِ لقربِ عهدِهم بزمانِ الخلفاءِ الراشدين كانوا مُتخوِّفين مِنْ ظلمِهم، ومُتشوِّفين إلى استمالةِ قلوبِ الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولِهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم مِنْ غير سؤالٍ وإذلالٍ، بل كانوا يتقلَّدون المنَّةَ بقبولهم ويفرحون به، فكانوا يأخذون منهم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٤٤).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣١٧).

ويُفرِّقون، ولا يطيعون السَّلاطينَ في أغراضهم، ولا يَغْشَون مجالسَهُم، ولا يُكثرونَ جمعَهُم، ولا يُحبُّونَ بقاءَهم، بل يدعون عليهم، ويُطلِقُونَ اللِّسانَ فيهم، وينكرونَ المنكراتِ منهم، فما كان يُحذَرُ أن يُصيبوا مِنْ دينهم بقدرِ ما أصابوا مِنْ دنياهم، فلم يكن بأخذِهم بأسٌ.

فأما الآن فلا تسمحُ نفوسُ السلاطينِ بعطيَّةٍ إلا لِمَنْ طَمِعُوا في استخدامه، والتَّكثُّرِ به، والاستعانةِ به على أغراضهم، وتكليفِهِ المواظبةَ على الدُّعاءِ والثَّناءِ والتزكيةِ والإطراءِ في حضورِهم ومغيبهم، فلو لم يذلَّ الآخذُ نفسَهُ بالسُّؤالِ، وبالتَّردُّدِ في الخدمةِ ثانياً، وبالثناءِ والدُّعاءِ ثالثاً، وبالمساعدةِ له على أغراضِهِ عند الاستعانةِ رابعاً، وبتكثيرِ جمعِهِ في مجلسِهِ وموكبِهِ خامساً، وبإظهارِ الحُبِّ والموالاةِ والمناصرةِ له على أعدائه سادساً، وبالسترِ على ظلمِهِ ومقابحِهِ ومساوىءِ أعمالِهِ سابعاً، لم يُنعمْ عليه بدرهمٍ واحدٍ.

فإذاً لا يجوزُ أن يُؤخَذَ منهم في هذا الزَّمانِ ما يُعلمُ أنَّه حلالٌ؛ لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيفَ ما يُعلَمُ أنَّه حرامٌ أو يشكُّ فيه؟

فَمَنِ استجرأَ على أموالِهم وشبَّهَ نفسَهُ بالصحابة والتابعين فقد قاسَ الملائكةَ بالحدَّادين، ففي أخذِ الأموالِ منهم حاجةٌ إلى مخالطتِهم ومراعاتِهم وخدمةِ عُمَّالِهم، واحتمالِ الذُّلِّ منهم، والثناءِ عليهم، والتردُّدِ إلى أبوابهم، وكلُّ ذلك معصيةٌ، فلو تُصُوِّرَ أن يأخذَ الإنسانُ منها ما يحلُّ بقدرِ استحقاقِهِ، وهو جالسٌ في بيته يُساقُ إليه ذلك، لا يحتاجُ فيه إلى تفقُّدِ عاملٍ وخدمتِهِ، ولا إلى الثَّناءِ عليهم وتزكيتِهم، ولا إلى مساعدتهم فلا يحرمُ الأخذُ، ولكنْ يُكرَهُ، فقد جُبِلَتِ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها، وبغضِ مَنْ أساء إليها،

وقد قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا تَجْعَلْ لفاجرٍ عندي يداً فيُحِبَّهُ قلبي»[١]، بيَّنَ أنَّ القلبَ لا يكادُ يمتنعُ عَنْ ذلك.

ورُوِيَ أنَّ بعضَ الأمراءِ أرسلَ إلى مالكِ بنِ دينارٍ رضي الله عنه بعشرةِ آلافِ درهمٍ فأخرجَها كلَّها، فأتاه محمدُ بنُ واسعٍ وقال: ما صنعتَ بما أعطاكَ هذا المخلوق؟ فقال: سَلْ أصحابي؟ فقالوا: أخرجَهُ كلَّهُ، فقال: أنشدكَ الله، أقلبُكَ أشدُّ حُبّاً له الآن أم قبلَ أن يرسلَ إليك؟ قال: لا بل الآن، فقال: إنَّما كنتُ أخافُ هذا[٢].

وقد صَدَقَ محمدُ بنُ واسعٍ رضي الله عنه؛ فإنَّه إذا أحبَّه أحبَّ بقاءَهُ، وكَرِهَ عزلَهُ ونكبتَهُ وموتَهُ، وأحبَّ اتِّساعَ ولايتِهِ وكثرةَ مالِهِ، وكلُّ ذلك حبٌّ لأسبابِ الظلمِ، وهو مذمومٌ.

فإن كنتَ في القوّةِ بحيث لا تزدادُ حُبّاً بذلك فلا بأسَ بالأخذ، وقد حُكِيَ عن بعضِ عُبَّادِ البصرةِ أنَّه كان يأخذُ أموالاً ويُفرِّقُها، فقيل له: ألا تخافُ أن تُحِبَّهم؟ فقال: لو أَخَذَ رجلٌ بيدي فأدخلني الجنّةَ ثم عصى ربَّه ما أحبَّهُ قلبي؛ لأنَّ الذي سَخَّرَهُ للأخذِ بيدي هو الذي أبغضُهُ لأجلِهِ؛ شكراً له على تسخيرِهِ إيَّاهُ.

❊

(١) رواه ابن مردويه في التفسير، ورواه الديلمي في مسند الفردوس (٢٠١١).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥٤).

الكتاب الخامس من ربع العادات
في آداب الصحبة والأخوة والمعاشرة مع أصناف الخلق

«المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[١]

(واللهِ ما أفلحَ مَنْ أفلحَ إلَّا بصحبةِ مَنْ أفلحَ)

(صحبةُ الأخيارِ تُورِثُكَ حُسنَ الظَّنِّ بالأشرار،
وصحبةُ الأشرارِ تُورِثُكَ سُوءَ الظَّنِّ بالأخيار)

اعلم أنَّ التَّحابَّ في الله تعالى والأخوّةَ في دينِهِ مِنْ أفضلِ القرباتِ، وألطفِ ما يُستفادُ مِنَ الطاعاتِ في مجاري العادات، والتَّحابُّ والتآلفُ ثمرةُ حسنِ الخُلُق، والتَّفرُّقُ والتَّباغضُ ثمرةُ سوءِ الخُلُقِ.

قال سبحانه وتعالى مُظهِراً عظيمَ مِنَّتِهِ على الخلقِ بنعمةِ الأُلفةِ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أي: بالأُلفة[٢].

ثم ذَمَّ التفرقةَ وزَجَرَ عنها، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨).

(٢) ينظر: (تفسير الطبري) (٣/ ٤٦).

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الله بِهِ خَيْراً رَزَقَهُ خَلِيلاً صَالِحاً، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ»(١).

وقال النبيُّ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ يَعُودُ إِلَيْهِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَى ذلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله تَعَالَى، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(٢).

وقال ﷺ: «أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الحُبُّ فِي الله وَالبُغْضُ فِي الله»(٣)، فبهذا يجبُ على الرجلِ أن يكونَ له أعداءٌ يُبْغِضُهم في الله، كما يكونُ له أصدقاءُ وإخوانٌ يُحبُّهم في الله.

قال عيسى عليه السلام: تَحبَّبوا إلى الله تعالى بِبُغْضِ أهلِ المعاصي، وتقرَّبوا إلى الله تعالى بالتَّباعُدِ منهم، والتمسوا رضا الله بسخطِهم، قالوا: يا روحَ الله؛ فَمَنْ نُجالِسُ؟ قال: جَالِسوا مَنْ تُذكِّرُكُمْ بالله رؤيتُهُ، ومَنْ يزيدُ في عملِكُم مَنْطِقُهُ، ومَنْ يُرغِّبُكُم في الآخرةِ عملُهُ(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٢٩٣٢) بلفظ: (من ولي منكم أمرا فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نَسِيَ ذكَّره، وإن ذَكَرَ أعانَهُ). ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٤).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠).

(٣) رواه الطيالسي في مسنده (٧٤٧)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٨٦).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٥٥).

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (لو أنَّ رجلاً قام بين الركنِ والمقامِ يعبدُ الله سبعينَ سنةً لَبَعَثَهُ الله يومَ القيامةِ مع مَنْ يُحِبُّ)(١).

ويروى أنَّ الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى موسى عليه السلام: هل عَمِلْتَ لي عملاً قط؟ فقال: إلهي؛ صَلَّيْتُ لكَ وصمتُ وتصدَّقتُ وزكَّيتُ، فقال: إنَّ الصلاةَ لكَ برهانٌ، والصومَ جُنّةٌ، والصَّدقةَ ظِلٌّ، والزَّكاةَ نورٌ، فأيُّ عملٍ عملتَ لي؟ قال موسى: إلهي؛ دُلَّني على عملٍ هو لكَ؟ قال: يا موسى هل واليتَ لي ولياً قط؟ وهل عاديتَ فيَّ عدوّاً قط؟ فَعَلِمَ موسى أنَّ أفضلَ الأعمالِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله(٢).

وقال رجلٌ لمحمَّدِ بنِ واسعٍ رضي الله عنه: إنِّي لأحبُّكَ في الله، فقال: أحبَّكَ الذي أحببتني له، ثم حَوَّلَ وجهَهُ وقال: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ أن أُحبَّ فيكَ وأنتَ لي مُبْغِضٌ(٣).

ودخلَ رجلٌ على داودَ الطائيِّ رضي الله عنه فقال له: ما حاجتُكَ؟ فقال: زيارتُكَ، فقال: أمَّا أنتَ فقد عَمِلْتَ خيراً حين زُرتَ، ولكنِ انظرْ ماذا ينزلُ بي إذا قيلَ لي: مَنْ أنتَ فتُزار؟ أَمِنَ الزُّهّادِ أنتَ؟ لا والله، أَمِنَ العُبّادِ أنتَ؟ لا والله، أَمِنَ الصالحين أنتَ؟ لا والله، ثُمَّ أقبلَ يُوبِّخُ نفسَهُ ويقول: كنتُ في الشَّبيبةِ فاسقاً، فلمّا شِخْتُ صرتُ مُرائياً، واللهِ لَلْمُرائي شَرٌّ مِنَ الفاسق.

وقال مجاهد: (المتحابُّون في الله إذا التقَوا فَكَشَرَ بعضُهُم إلى بعضٍ تتحاتُّ

---

(١) رواه الدارمي في سننه (٣١٨، ٣١٩).

(٢) رواه بنحوه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١٧).

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٨).

عنهم الخطايا كما يتحاتُّ ورقُ الشَّجرِ في الشتاء إذا يَبِسَ)[١].

واعلم أنَّ مَنْ أحبَّ إنساناً أحبَّ مُحِبَّ ذلك الإنسانِ، وأحبَّ محبوبَه، وأحبَّ مَنْ يخدمُهُ، وأحبَّ مَنْ يُثني عليه محبوبُهُ، وأحبَّ مَنْ يتسارعُ إلى رضا محبوبِهِ حتَّى قال بقيَّةُ بنُ الوليد: (إنَّ المؤمنَ إذا أحبَّ المؤمنَ أحبَّ كلبَهُ).

وكذلك حبُّ الله تعالى إذا قَوِيَ وغلبَ على القلب استولى عليه حتَّى انتهى إلى حدِّ الاستهتار، فيتعدَّى إلى كلِّ موجودٍ سواه؛ فإنَّ كلَّ موجودٍ سواه أثرٌ مِنْ آثار قدرتِهِ، ومَنْ أحبَّ إنساناً أحبَّ صنعتَهُ وخَطَّهُ وجميعَ أفعالِهِ، ولذلك كان رسولُ الله ﷺ إذا حُمِلَ إليه باكورةٌ مِنَ الفواكهِ[٢] مَسَحَ بها عينيه وأكرمَها وقال: «إنه قريبُ العهدِ بربِّنا»[٣].

ومَنْ أحبَّ إنساناً فإنَّه يحفظُ ثوبَهُ وتُحفتَهُ؛ تذكرةً مِنْ جهتِهِ، فيُحِبُّ منزلَهُ ومحلَّتَهُ وجيرانَهُ، حتى قال مجنون بني عامر:

أَمُرُّ على الدِّيارِ دِيارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وذا الجِدارا
وما حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارا

وقد انتهت محبّةُ الله تعالى بقومٍ إلى أن قالوا: لا نُفرِّقُ بين البلاءِ والنِّعمة؛ فإنَّ الكلَّ مِنَ الله، ولا نفرحُ إلا بما فيه رضاه، حتى قال بعضُهم: لا أريدُ أن أنالَ مغفرةَ الله بمعصية الله.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٧)، كَشَرَ: ضَحِكَ.

(٢) أي: أوّلُ الثّمرِ.

(٣) رواه الطبراني في الصغير (٢/ ١١)، وورد بنحو عند مسلم (٨٩٨) قاله ﷺ في حق باكورة المطر، إذ كان يحسر عن ثوبه ليصيبه المطر ويقول: (لأنَّه حديثُ عهدٍ بربّه).

وقال سمنون رحمه الله:

وليسَ لي في سِواكَ حَظٌّ ... فَكَيْفَما شِئْتَ فَاخْتَبِرْني

وقال بعضُهم:

أريدُ وِصالَهُ ويُريدُ هَجْرِي ... فَأَتْرُكُ ما أريدُ لِمَا يُريدُ

واعلم أنَّ مَنْ استغرقَ الحبُّ جميعَ قلبِهِ لم يبقَ له محبوبٌ سواه، ويترك في مقابلتِهِ كلَّ محبوبٍ سواه، مثلُ أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه؛ فإنَّه لم يتركْ لنفسِهِ أهلاً ولا مالاً، فَسَلَّمَ ابنتَهُ وهي قُرَّةُ عينِهِ، وبذلَ جميعَ مالِهِ.

وقال ابنُ عمر رضي الله عنهما: بينما رسولُ الله ﷺ جالسٌ وعندَهُ أبو بكرٍ، وعليه عباءةٌ قد خلَّلَها على صدرِهِ بخلالٍ إذ نَزَلَ جبريلُ ـ عليه السلام ـ فأقرأَهُ مِنَ الله السَّلامِ، وقال له: يا رسولَ الله، ما لي أرى أبا بكرٍ عليه عباءةٌ قد خَلَّلَها على صدرِهِ بخلال؟ فقال: «أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَيَّ قَبْلَ الفَتْحِ»، قال: فأقرئه مِنَ الله السَّلام، وقُلْ له: يقولُ لكَ ربُّكَ: أراضٍ أنتَ عنِّي في فقرِكَ هذا أم ساخطٌ؟ فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه وقال: أعلى ربِّي أسخطُ؟ أنا عن ربِّي راضٍ، أنا عن ربِّي راضٍ[1].

[مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم]

واعلم أنَّ المخالِفَ لأمرِ الله سبحانه وتعالى إمَّا أن يكونَ مخالِفاً في عقيدتِهِ أو في عملِهِ، والمخالِفُ في العقيدةِ كافرٌ أو مُبتدِعٌ، فإن كان الكافرُ مُحارِباً فهو مُستحِقٌّ للقتل والإرقاقِ، وإن كان ذِمِّيّاً فإنَّه لا يجوزُ إيذاؤُهُ إلا بالإعراضِ

---

(١) رواه الثعلبي في تفسيره (٩/ ٢٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٠٥)، وابن حزم في المحلى (٩/ ١٣٩)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ١٠٥).

عنه والتَّحقيرِ له؛ بالاضطرارِ إلى أضيقِ الطرقِ، وبتركِ المفاتحةِ بالسلامِ، فإذا قالَ: «السَّلامُ عليكَ»، قلتَ: «وعليك»، والأولى الكفُّ عن مخالطتِهِ ومعاملتِهِ ومؤاكلتِهِ، فأمَّا الانبساطُ معه والاسترسالُ إليه كما يسترسلُ إلى الأصدقاءِ فهو مكروهٌ كراهةً شديدةً يكادُ ينتهي ما يقوى منه إلى التَّحريم، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، الآية، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، الآية.

وأما المُبتدِعُ فإن كان يدعو إلى بدعةٍ بحيث يكفرُ بها فأمرُهُ أشدُّ مِنَ الذِّمِّيِّ؛ لأنَّه لا يقرُّ بجزيةٍ، ولا يسامحُ بعقدِ ذمّة، وإن كان ممّا لا يكفرُ بها فأمرُهُ بينه وبين الله تعالى أخفُّ مِنْ أمرِ الكافرِ لا محالة، ولكنَّ الأمرَ في الإنكار عليه أشدُّ منه على الكافر؛ لأنَّ شرَّ الكافرِ غيرُ متعدٍّ؛ فإنَّ المسلمين اعتقدوا كفرَهُ، فلا يلتفتون إلى قولِهِ؛ إذ لا يدَّعي لنفسه الإسلامَ واعتقادَ الحقِّ، أمَّا المبتدعُ الذي يدعو إلى البدعةِ، ويزعمُ أنَّما يدعو إليه حقٌّ فهو سببٌ لغوايةِ الخلقِ، فَشَرُّهُ متعدٍّ، فالمستحبُّ إظهارُ بغضِهِ ومعاداتِهِ، والانقطاعُ عنه وتحقيرُهُ، والتَّشنيعُ عليه ببدعتِهِ، وتنفيرُ الناسِ عنه، قال ﷺ: «مَنِ انْتَهَرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ مَلأَ الله قَلْبَهُ أَمْناً وَإِيمَاناً، وَمَنْ أَهَانَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ أَمَّنَهُ الله يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَمَنْ أَلَانَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ أَوْ لَقِيَهُ بِبِشْرٍ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِمَا أَنْزَلَ الله عَلَى مُحَمَّدٍ»[1].

قال سعيدُ بنُ المسيّب رضي الله عنه: (لا تنظروا إلى الظَّلَمةِ فتُحبَطَ أعمالُكُم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٩٩)، والهروي في ذم الكلام (٩٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الصَّالحـة)[١]، فهـؤلاء لا سـلامةَ فـي مخالطتهم، وإنَّما السَّـلامةُ فـي الانقطاعِ عنهم.

فأمَّا المبتدعُ العامِّيُّ الذي لا يقدرُ على الدعوةِ، ولا يُخافُ الاقتداءُ به فأمرُهُ أهونُ، والأولى أن لا يُعالَجَ بالتغليظِ والإهانةِ، بل يُتلطَّفُ به في النُّصح، فإنَّ قلوبَ العوامِّ سريعةُ التَّقلُّبِ، فإن عُلِمَ أنَّ ذلك لا يُؤثِّرُ فيه لجمودِ طبعِهِ ورسوخِ عقدِهِ في قلبه فالإعراضُ أولى؛ لأنَّ البدعةَ إذا لم يُبالَغ في تقبيحها شاعت بين الخلقِ وعمَّ فسادُها.

وأما العاصي بفعلِهِ وعملِهِ لا باعتقاده، فإن كان مما يتأذَّى به غيرُهُ كالظُّلمِ والغصبِ وشهادةِ الزُّورِ والغيبةِ والتضريبِ بين الناس والمشيِ بالنميمة وأمثالِها فالأَولى الإعراضُ عنهم، وتركُ مخالطتِهم، والانقباضُ عن معاملتهم.

ثم هؤلاء ينقسمون إلى مَنْ يظلمُ في الدِّماء، وإلى مَنْ يظلمُ في الأموال، وإلى مَنْ يظلمُ في الأعراض، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ، والاستحبابُ في إهانتهم والإعراضِ عنهم مُؤكَّدٌ جِدّاً.

وأما صاحبُ الماخورِ الذي يجمعُ بين الرجالِ والنِّساء ويُهيِّئ أسبابَ الشُّربِ والفسادِ، ويُسهِّلُ طرقَها على الخلق، فهذا لا يُؤذي الخلقَ في دنياهم، ولكنْ يُفسِدُ بفعلِهِ دينَهم، وهذا أخفُّ مِنَ الأول؛ فإنَّ المعصيةَ بينه وبين الله تعالى إلى العفو أقرب، ولكنْ مِنْ حيثُ إنَّه مُتعدٍّ على الجملة إلى غيره فهو شديدٌ، وهذا أيضاً يقتضي الإهانةَ والإعراضَ.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٣٥).

وأما ما يكون فسقاً في نفسِهِ غيرَ متعدٍّ إلى غيرِهِ كشربِ الخمرِ، أو تركِ الواجبِ، أو مقارفةِ محظورٍ بحقِّه فالأمرُ منه أخف، فإن صُودِفَ في وقتِ مباشرتِهِ يجبُ منعُهُ بما يمتنعُ منه ولَوْ بالضَّربِ والاستخفافِ، فإنَّ النَّهيَ عن المنكرِ واجبٌ، فإذا فَرَغَ منه وعلمَ أنَّ ذلك مِنْ عادتِهِ وهو يمضي عليه، فإن تحقَّقَ أنَّ نُصحَهُ يمنعُهُ مِنَ العَودِ وَجَبَ النُّصحُ، وإن لم يتحقَّقْ ولكنَّه يرجوه فالأفضلُ النُّصحُ والزَّجرُ بالتلطُّفِ أو بالتغليظِ إن كان هو الأنفعَ.

فأما الإعراضُ عن جوابِ سلامِهِ والكَفُّ عن مخالطتِهِ حيثُ يعلمُ أنَّه يُصِرُّ وأنَّ النُّصحَ ليس ينفعُهُ، فهذا فيه نظرٌ، وسيرُ العلماءِ فيه مختلفةٌ.

والصَّحيحُ أنَّ ذلك يختلف باختلافِ نيّةِ الرجل، فعند هذا يُقال: الأعمالُ بالنيات؛ إذ في الرِّفقِ والنظرِ بعين الرحمةِ إلى الخلق نوعٌ مِنَ التواضع، وفي العنفِ والإعراضِ نوعٌ مِنَ الزَّجر، والمستفتى فيه القلبُ، فما يراهُ أميلَ إلى هواه ومقتضى طبعِهِ فالأولى ضِدُّهُ؛ إذ قد يكون استخفافُهُ وعنفُهُ عن كبرٍ وعجبٍ والتذاذٍ بإظهارِ العلوِّ والإدلالِ بالصَّلاح، وقد يكونُ رِفقُهُ عن مداهنةٍ واستمالةِ قلبٍ للوصولِ إلى غرضٍ، أو لخوفٍ مِنْ تأثيرِ وحشةٍ وذهابِ جاهٍ أو مالٍ، بظنٍّ قريبٍ أو بعيدٍ، وكلُّ ذلك تردُّدٌ على إشاراتِ الشيطان، وبعيدٌ عن أعمالِ أهلِ الآخرة، وكلُّ راغبٍ في أعمالِ الدِّينِ يجتهدُ مع نفسِهِ في التَّفتيش عن هذه الدَّقائقِ ومراقبةِ هذه الأحوال، والقلبُ هو المفتي فيه، وقد يصيبُ الحقَّ في اجتهادِهِ وقد يُخطئ، وقد يقدمُ على اتِّباعِ هواه وهو عالِمٌ به، وقد يقدمُ وهو بحكمِ الغرورِ ظانٌّ أنَّه عاملٌ لله وسالكٌ طريقَ الآخرة.

ويدلُّ على تخفيفِ الأمرِ في الفسقِ القاصرِ الذي هو بين العبدِ وبين الله تعالى ما رُوِيَ أنَّ شاربَ الخمرِ ضُرِبَ بين يدي رسول الله ﷺ وهو يعودُ، فقال واحدٌ مِنَ الصحابة رضي الله عنهم: لَعَنَهُ الله ما أكثرَ ما يشرب، فقال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَكُنْ عَوْناً لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكَ»[1]، أو لفظاً هذا معناه، وكان هذا إشارةً إلى أنَّ الرِّفقَ أولى مِنَ العنفِ والتغليظ.

(م): قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه: إيَّاكَ ومعاداةَ أهلِ لا إله إلا الله؛ فإنَّ لها مِنَ الله الولايةَ العامة؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهم أولياءُ الله وإن أخطؤوا وجاؤوا بِقُرابِ الأرضِ خطايا لا يشركون بالله لَقِيَهم الله بمثلِها مغفرة، ومَنْ ثَبَتَتْ ولايتُهُ حَرُمَتْ مُحاربَتُهُ، ومَنْ حاربَ الله فقد ذَكَرَ اللهُ جزاءَهُ في الدُّنيا والآخرة.

وكلُّ مَنْ لم يُطلِعْكَ الله على عداوتِهِ لله فلا تَتَّخِذْهُ عدوّاً، فلا تُعادِ عبادَ الله بالإمكان، ولا بما ظَهَرَ على اللِّسان، والذي ينبغي لكَ أن تكرَهَ فعلَهُ لا عينَهُ، والعدوُّ لله إنَّما تكرَهُ عينَهُ، فَفَرِّقْ بين مَنْ تكرَهُ عينَهُ ـ وهو عدوُّ الله ـ وبين مَنْ تكرَهُ فعلَهُ وهو المؤمِنُ، واحذرْ قولَهُ تعالى في الصَّحيح: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[2]، فعامِلْ عبادَ الله بالشَّفقةِ والرَّحمةِ)[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٨١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: التواضع برقم (٦٥٠٢)، ومعاداةُ الأولياءِ مِنَ الكبائرِ كما نَصَّ على ذلك الإمامُ ابنُ حجرٍ الهيتميُّ رحمه الله تعالى عند الكبيرة السَّادسة والخمسون. ينظر: (الزواجر عن اقتراف الكبائر) (١/ ١٨٥).

(٣) ينظر: (الباب الموفي ستين وخمسمئة في باب الوصايا في الفتوحات المكية) (١٢/ ٤٢٦) الوصية رقم (٩)، بتصرُّفٍ يسيرٍ.

[صفاتُ مَنْ يُختارُ للصُّحبة]

(ش: قال الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ ـ رضي الله عنه ـ: «لا تَصْحَبْ إلّا مَنْ تكونُ فيه أربعةُ خِصال: الجودُ مِنَ القِلَّة، والصَّفحُ عن المَظلَمَة، والصَّبرُ على البَلِيّة، والرِّضا بالقضيّة»[1].

قال المراكشي:

إِخْتَـرْ لِصُحْبَتِـكَ مَـنْ أَطَاعَا إِنَّ الطِّبَاعَـا تَسْـرِقُ الطِّبَاعَـا

وقيل: «الصَّاحب ساحِب»، وقيل: «مَنْ جالس جانس»، وقيل: «قل لي: مَنْ تُصاحِبْ؟ أَقُلْ لَكَ مَنْ أنتَ».

وقال الشَّيخُ ابنُ البنَّا السَّرقُسطيُّ رضي الله عنه:

وَمَنْ يَكُنْ يَصْحَبُ غَيْرَ جِنْسِـهِ فَجَاهِـلٌ وَاللهِ قَـدْرَ نَفْسِـهِ

قال الشيخ ابن عجيبة رضي الله عنه: قلتُ: وإنَّما كان مَنْ يَصْحَبُ غيرَ جنسِهِ جاهلًا بقدرِ نفسِهِ، لأنَّ النَّفسَ وهي الرُّوحُ ياقوتةٌ رفيعةٌ، جَعَلَها اللهُ في صَدَفِ بشريَّتِكَ، فإذا صَحِبْتَ بها مَنْ هو أحسنُ فقد صُنْتَها ورَفَعْتَها واعتنيتَ بشأنِها؛ لأنَّ صحبةَ الأبرارِ تُصَيِّرُكَ مِنَ الأخيار، وإذا صَحِبْتَ بها مَنْ هو أسوأُ منكَ وأخسرُ منكَ فقد بَخَسْتَها وحَطَطْتَ قدرَها، ورميتَ بها في المزابل، ويرحمُ اللهُ القائل:

عَلَيْـكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا مُضَافًـا لِأَرْبَابِ الصُّـدُورِ تَصَدَّرَا

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَـاقِطٍ فَتَنْحَـطَّ قَـدْرًا مِنْ عُـلَاكَ وتُحْقَرَا

---

(١) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (٩٤).

وقال سهلُ بنُ عبدِ الله: احذر صحبةَ ثلاثةٍ مِنْ أصنافِ النَّاسِ: الجبابرةِ الغافلين، والقرَّاءِ المداهنين، والمتصوِّفةِ الجاهلين.

وأوحى اللهُ إلى موسى عليه السَّلام: يا ابنَ عمران كُنْ يقظانًا، وارْتَدْ لنفسكَ إخوانًا، وكُلُّ أخٍ لا يُوافِقُكَ على مسرَّتي فهو لك عدوٌّ، يُقَسِّي قلبكَ، ويُباعِدُكَ منِّي)[١].

وينبغي أن يكونَ فيمن تُؤثِرُ صحبتُهُ خمسُ خصالٍ: أن يكونَ عاقلاً، حَسَنَ الخلقِ، غيرَ فاسقٍ، ولا مُبتدِعٍ، ولا حريصٍ على الدنيا.

فلا خيرَ في صحبة الأحمق؛ لأنَّ مآلَها إلى الوحشة والقطيعةِ، كيف والأحمقُ قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري، ولذلك قال الشاعر:

إنِّـي لآمَـنْ مِـنْ عَـدُوٍّ عاقـلٍ ... وأخـافُ خِـلاً يَعْتَرِيـهِ جُنُـونُ
فالعَقْـلُ فَـنٌّ واحِـدٌ وطَرِيقَـهُ ... أَدْرِي فَأَرْصُـدُ والجُنُـونُ فُنُـونُ

وقيل:

وتَـرَى الكَرِيمَ إذا تَصَـرَّم وَصْلُهُ ... يُخْفِـي القَبِيـحَ ويُظْهِرُ الإِحْسَـانا
وتَرَى اللَّئِيـمَ إذا تَقَضَّـى وَصْلُهُ ... يُخْفِـي الجَمِيـلَ ويُظْهِـرُ البُهْتَانا

(م: وقال ابنُ عطاءِ الله رضي الله عنه: «لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنهِضُكَ حالُهُ، ولا يَدُلُّكَ على الله مَقالُهُ»[٢]).

ولذا قال ﷺ: «المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْينظر أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[٣].

---

(١) ينظر: (شرح المباحث الأصلية) ص (١٩٨. ٢٠١).

(٢) الحكمة (٤٣) من الحكم العطائية.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٣٣).

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

عن المَرءِ لا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

قال بعضُ الأدباء: (لا تَصْحَبْ مِنَ الناسِ إلا مَنْ يكتمُ سِرَّكَ ويسترُ عيبَكَ، ويكونُ معكَ في النوائب، ويُؤثِرُكَ بالرَّغائب، وينشرُ حسنتَكَ ويطوي سيئتَكَ، فإن لم تَجِدْهُ فلا تصحبْ إلا نفسَكَ)[1].

وقال عليٌّ رضي الله عنه:

إنَّ أخاكَ الحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكْ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ

وَمَنْ إذَا رَيْبُ زَمَانٍ صَدَعَكْ شَتَّتَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكْ

* * *

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢٦).

فصلٌ في حقوقِ الصُّحبة

(ش: قال الإمامُ الشَّعرانيُّ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ: اعلم ـ وفَّقني اللهُ وإيَّاكَ إلى ما يُحِبُّ ـ أنَّ حقوقَ الصُّحبةِ كثيرةٌ، ولكنْ نذكرُ لك جملةً مِنَ الحقوقِ التي لا بُدَّ منها؛ لأنَّ مَنْ ضَيَّعَ حقوقَ إخوانِهِ ابتلاهُ اللهُ تعالى بتضييعِ حقوقِهِ، وإذا ابتلى اللهُ عبدًا بذلك مَقَتَهُ، وإذا مَقَتَ اللهُ عبدًا طَرَحَهُ في النَّارِ، إذا عَلِمْتَ ذلك فأقولُ وباللهِ التَّوفيقُ:

مِنْ حقِّ الأخِ على أخيهِ: أنْ يَتَعامَى عن عيوبِهِ، وأنْ يَحْمِلَ ما يراهُ منه على وجهٍ مِنَ التَّأويلِ جميلٍ ما أمكن، فإنْ لم يجدْ تأويلًا رَجَعَ على نفسِهِ باللَّوم، وأنْ يرجوَ له مِنَ الخيراتِ والمسامحةِ وقبولِ التَّوبةِ، ولَوْ فَعَلَ مِنَ المعاصي الإسلاميَّةِ ما فَعَلَ، كما يرجو لنفسِهِ، وألَّا ينظر إلى زلَّةٍ سَبَقَتْ، ولا يكشفَ له عورةً سُتِرَتْ، وألَّا يُعَيِّرَهُ بذنبٍ ولا غيرِهِ، فإنَّ المعايرةَ تَقْطَعُ الوِدَّ، وألَّا ينظر له بعينِ الاحتقارِ، وإذا اطَّلَعَ على عيبٍ فيه أنْ يَتَّهِمَ نفسَهُ في ذلك ويقولَ: إنَّما ذلك العيبُ فِيَّ؛ لأنَّ المسلمَ مرآةُ المسلمِ، وأنْ يرى نفسَهُ دونَهُ على الدَّوامِ، وأنْ يُؤْثِرَهُ على نفسِهِ في كُلِّ شيءٍ، وأنْ يَخْدِمَهُ إذا مَرِضَ، وأنْ يَحترِمَهُ ويُوقِّرَهُ لا سيَّما إذا استَحَقَّ ذلك، وأنْ يُثْنِيَ عليه في غيبتِهِ وفي حضورِهِ بطريقِ الشَّرعِ، وأنْ يُكْرِمَهُ إذا وَرَدَ عليه، بأنْ يَتَلَقَّاهُ بالتَّرحيبِ، وطلاقةِ الوجهِ، وأنْ يُوسِّعَ له في المجلسِ إذا رآه، وألَّا يدعوَهُ باسمِهِ فقط، وأنْ يَعْتَرِفَ له بالفضلِ، وأنْ يزورَهُ كلَّ قليلٍ مِنَ الأيَّامِ، وأنْ يُصافِحَهُ كلَّما لَقِيَهُ بنيَّةِ التَّبرُّكِ وامتثالِ الأمرِ، وأنْ يُهادِيَهُ

كُلَّ قليلٍ مِنَ الأيَّام، لا سيَّما إذا بَلَغَهُ عنه وَقْفَةٌ، وأنْ يُرْشِدَهُ إلى تَرْكِ البغيِ على مَنْ بغى عليه، وأنْ يُساعِدَهُ في التَّزويجِ، وألَّا يغفلَ عن عيادتِهِ إذا مَرِضَ، وأنْ يَسْهَرَ عنده إلى الصَّباحِ إذا كانَ في حالةٍ تُفْضِي إلى الموت، وألَّا يُبْغِضَ ذاتَهُ إذا وَقَعَ في معصية، وأنْ يَقْبَلَ اعتذارَهُ، وأنْ يَفْرَحَ له إذا انْقَلَبَ النَّاسُ إليه بالاعتقادِ، وأنْ يُشاوِرَهُ في كلِّ أمرٍ مُهِمٍّ، وأنْ يَتَفَقَّدَ عيالَهُ وأولادَهُ إذا غابَ عنهم، وأنْ يَكْتُمَ سِرَّهُ، وألَّا يُصَدِّقَ مَنْ نَمَّ له فيه أبدًا، وأنْ يَذُبَّ عن عرضِهِ، وأنْ يَقْبَلَ نُصْحَهُ، وأنْ يَعْزِمَ على أنَّه إنْ أَدْخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ لا يَدْخُلُها إلَّا إنْ دَخَلَ أخوه، وأنْ يتظاهرَ بعداوةِ مَنْ عاداهُ بغيرِ حقٍّ، وأنْ يقومَ له إذا وَرَدَ عليه، وألَّا ينساهُ مِنَ الدُّعاءِ، وأنْ يَشْخَصَ ببصرِهِ إليه حتَّى يَفْرُغَ مِنْ حديثِهِ، وألَّا يَمْتَحِنَهُ؛ فإنَّ الامتحانَ مِنْ جنسِ كَشْفِ العورةِ، وإذا رآه في ما لا ينبغي أنْ يعتقدَ أنَّه تابَ مِنْ وقتِهِ، وألَّا يَمُنَّ عليه بما فَعَلَهُ معه مِنَ المعروفِ إذا هو خَاصَمَهُ ونَسِيَ ذلك المعروفَ، وألَّا يُبادِرَ إلى هجرِهِ، وألَّا يُقِرَّهُ على بدعةٍ)[1].

واعلم أنَّ للأخوّةِ والصُّحبةِ حقوقاً في المالِ والنَّفسِ واللِّسانِ والقلبِ، بالعفوِ والدُّعاءِ، وبالإخلاصِ والوفاء، وبالتخفيفِ وتركِ التَّكلُّفِ والتَّكليفِ.

قال ﷺ: «مَثَلُ الأَخَوَيْنِ مَثَلُ اليَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى»[2]، وإنَّما شَبَّهَهُما باليدين لا باليد والرجل لأنَّهما يتعاونانِ على غرضٍ واحدٍ، وكذلك الأخوانِ إنَّما تَتِمُّ أخوَّتُهما إذا توافقا في مقصدٍ واحدٍ.

---

(١) ينظر: (الأنوار في آداب الصحبة) ص (٧١. ١١٢) باختصارٍ وتصرُّفٍ يسيرٍ.

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٤)، وقد رواه السلمي في آداب الصحبة (١٢٨)، وابن شاهين في الترغيب والترهيب (٤٣٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٦٤١١)، وحكى سنده الحافظ الزبيدي. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٦/ ١٧٤).

والمواساةُ بالمالِ مع الأخوّةِ على ثلاثِ مراتب:

أدناها: أن تُنزِلَهُ منزلةَ عبدِكَ أو خادِمِكَ، فتقوم بحاجتِهِ مِنْ فضلِ مالك، فإذا سَنَحَتْ له حاجةٌ وكانت عندكَ فضلةٌ على حاجتِكَ أعطيتَهُ ولم تُحْوِجْهُ إلى السؤال، فإن أحوجتَهُ إلى السُّؤالِ فهو غايةُ التَّقصيرِ في حقِّ الأخوّةِ.

وأوسطها: أن تُنزِلَهُ منزلةَ نفسِكَ، وترضى بمشاركتِهِ إيَّاكَ في مالك.

وأعلاها: أن تُؤْثِرَهُ على نفسِكَ، وتُقدِّمَ حاجتَهُ على حاجتِكَ، وهذه رتبةُ الصِّدِّيقين، ومنتهى درجاتِ المتحابِّين.

جاء رجلٌ إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إنِّي أريدُ أن أؤاخيكَ في الله فقال: أتدري ما حقُّ الإخاء؟ قال: عرِّفْني، قال: أن لا تكونَ أحقَّ بدينارِكَ ودرهمِكَ مني، قال: لم أبلغْ هذه المنزلةَ بعدُ، قال: فاذهبْ عني[1].

وقال عليُّ بنُ الحسين رضي الله عنهما لرجلٍ: هل يُدْخِلُ أحدُكُم يدَهُ في كمِّ أخيه أو كيسِهِ فيأخذُ منه ما يريدُ بغير إذنِهِ؟ قال: لا، قال: فلستم بإخوانٍ[2].

وجاء فتحٌ الموصليُّ رحمه الله إلى منزلِ أخٍ له وكان غائباً، فأمرَ جاريتَهُ فأخرجَتْ صندوقَهُ ففتحَهُ وأخذَ حاجتَهُ، فأخبرتِ الجاريةُ مولاها، فقال: إن صدقتِ فأنتِ حُرّةٌ لوجهِ الله؛ سروراً بما فعلَ[3].

وقال أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمه الله: (إنِّي لأُلَقِّمُ اللُّقمةَ أخاً مِنْ إخواني فأجدُ طعمَها في حلقي)[4].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢٣).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨٧).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢٢).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢٤).

واقتدى الكلُّ في الإيثار برسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبٍ يَصْحَبُ صَاحِباً وَلَوْ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ إِلاَّ سُئِلَ عَنْ صُحْبَتِهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حقَّ الله أَمْ أَضَاعَهُ؟»[١].

وخرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بئرٍ يغتسلُ عندها، فأمسكَ حذيفةُ بنُ اليمانِ رضي الله عنه الثَّوبَ، وقام يسترُ رسولَ الله ﷺ حتى اغتسلَ، ثم جلسَ حذيفةُ ليغتسلَ، فتناولَ رسولُ الله ﷺ الثَّوبَ، وقامُ يسترُ حذيفةَ رضي الله عنه عن الناس، فأبى حذيفةُ رضي الله عنه وقال: بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ الله ﷺ لا تفعلْ، فأبى ﷺ إلا أن يسترَهُ بالثَّوبِ حتَّى اغتسلَ[٢].

فأشار بهذا إلى أنَّ الإيثارَ هو القيامُ بحقِّ الله تعالى في الصُّحبةِ، وقال ﷺ: «مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ قَطُّ إِلاَّ كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى الله أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ»[٣].

واعلم أنَّ أشدَّ الأسبابِ لإثارةِ نارِ الحقدِ بين الإخوانِ المماراةُ والمناقشةُ؛ فإنَّها عينُ التَّدابرِ والتَّقاطعِ؛ فإنَّ التقاطعَ يقع أوَّلاً بالآراء، ثم بالأقوال، ثم بالأبدان، وقد قال ﷺ: «لاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَحْرِمُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ بِحَسْبِ المَرْءِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ»[٤].

---

(١) رواه بنحوه الطبري في تفسيره (٤/ ١١٢)، وابن حبان في المجروحين (١/ ١٥٦)، والنهرواني في الجليس الصالح (١/ ٣٩٥)، ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الوحدان. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٦/ ٢٠٧).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٦).

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤).

وأشدُّ الاحتقارِ المماراةُ؛ فإنَّ مَنْ ردَّ على غيرِهِ كلامَهُ فقد نَسَبَهُ إلى الجهلِ والحمقِ، أو إلى الغفلةِ والسَّهوِ عن فهمِ الشيءِ على ما هو عليه، وكلُّ ذلك استحقارٌ وإيغارٌ للصدر وإيحاشٌ.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ»(١).

وينبغي للرجل أن يحترزَ عن سوءِ الظَّنِّ، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى المُؤْمِنِ مِنَ المُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ»(٢)، وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»(٣).

وسوءُ الظَّنِّ يدعو إلى التَّجسُّسِ والتَّحسُّسِ، وقد قال ﷺ: «لاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً»(٤).

والتَّجسُّسُ في تطلُّعِ الأخبار، والتَّحسُّسُ بالمراقبةِ بالعين، فسترُ العيوبِ والتجاهلُ والتغافلُ عنها سُنَّةُ أهلِ الدِّين.

وينبغي له أن يسكتَ عن إفشاءِ سِرِّهِ الذي استودعَهُ، وله أن يُنكِرَهُ وإنْ كان كاذباً، فليس الصِّدقُ واجباً في كلِّ مقام؛ فإنَّه كما يجوزُ للرجلِ أن يُخفِيَ عيوبَ نفسِهِ وأسرارَهُ وإنِ احتاجَ إلى الكذبِ فله أن يفعلَ ذلك في حقِّ أخيه؛ فإنَّ أخاه نازلٌ منزلتَهُ، وهما كشخصٍ واحدٍ لا يختلفانِ إلا بالبدن، هذه حقيقةُ الأخوَّة،

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٣).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٣١)، والبيهقي في الشعب (٦٢٨٠).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٤).

(٤) هو تتمة الحديث المتقدم قبله.

ولذلك لا يكونُ بالعملِ بين يديه مُرائياً وخارجاً عن أعمال السِّرِّ إلى أعمال العلانية، فإنَّ معرفةَ أخيه بعمله كمعرفتِهِ بنفسه مِنْ غير فرقٍ، وقد قال ﷺ: «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ سَتَرَهُ الله تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[١].

وفي الحديث: «إِنَّ الله إِذَا سَتَرَ عَلَى عَبْدٍ عَوْرَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ كَشَفَهَا في الدُّنْيا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفها مَرَّةً أُخْرَى»[٢].

وقيل: إنَّ قلبَ الأحمقِ في فيه، ولسانَ العاقلِ في قلبه.

وقد قيل: (صدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرار)[٣].

وينبغي للمؤمن أن ينصحَ أخاه سِرّاً، بحيثُ لا يطلعُ عليه أحدٌ، فما كان على الملأ فهو توبيخٌ وفضيحةٌ، وما كان في السِّرِّ فهو شفقةٌ ونصيحةٌ، قال النبيُّ ﷺ: «المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِنِ»[٤]، أي: يرى منه ما لا يرى مِنْ نفسِهِ.

وقيل لِمِسْعَرٍ: أتُحِبُّ مَنْ يخبرُكَ بعيوبك؟ قال: إن نصحَني فيما بيني وبينَهُ فنعم، وإن قَرَّعني في الملأ فلا[٥].

وقد صَدَقَ؛ فإنَّ النُّصحَ على الملأ إفضاحٌ، والله تعالى يُعاتِبُ المؤمنَ يومَ القيامةِ تحتَ كنفِهِ وفي ظلِّ سترِهِ، فيُوقِفُهُ على ذنوبه سِرّاً، وقد يدفعُ كتابَ عملِهِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٢٦) بمعناه.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٧٧) عن ذي النون المصري.

(٤) رواه أبو داود (٤٩١٨).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨١).

مختوماً إلى الملائكة الذين يحفونَ به إلى الجنة، فإذا قاربوا بابَ الجنَّةِ أعطوه الكتابَ مختوماً ليقرأَهُ.

وأما أهلُ المقتِ فيُنادَونَ على رؤوسِ الأشهاد، وتُستنطَقُ جوارحُهم بفضائحهم، فيزدادونَ بذلك خِزياً وافتضاحاً، ونعوذُ بالله مِنَ الخزيِ يومَ العرضِ الأكبرِ.

فالفرقُ بينَ التَّوبيخِ والنَّصيحةِ بالإسرارِ والإعلان، كما أنَّ الفرقَ بين المداراةِ والمداهنةِ بالغرضِ الباعثِ على الإغضاءِ، فإن أغضيتَ لسلامةِ دينِكَ ولِمَا ترى فيه مِنْ إصلاحِ أخيكَ بالإغضاءِ فأنتَ مُدارٍ، وإن أغضيتَ لحظِّ نفسِكَ واجتلابِ شهواتِكَ وسلامةِ جاهِكَ فأنتَ مُداهِنٌ.

وقال ذو النُّون رضي الله عنه: (لا تصحبْ مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلقِ إلا بالمناصحة، ولا مع النَّفسِ إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطانِ إلا بالعداوة)[1].

وينبغي للناصحِ أن يُنبِّهَ أخاه المسلمَ ما لا يعلمه؛ لأنَّ ذلك عينُ الشَّفقةِ، ولذلك كان عمرُ رضي الله عنه يستهدي ذلك مِنْ إخوانِهِ ويقولُ: (رَحِمَ الله امرأً أهدى لأخيه عيوبَهُ)[2].

فأمَّا ما علمتَ أنَّه يعلمُهُ مِنْ نفسِهِ، وإنَّما هو مقهورٌ مِنْ طبعِهِ، فلا ينبغي أن يُكشفَ فيه سترُهُ إن كان يخفيه، وإن كان يُظهِرُهُ فلا بد مِنَ التَّلَطُّفِ في النُّصحِ، بالتَّعريضِ مرَّةً وبالتصريحِ أخرى إلى حدٍّ لا يُؤدِّي إلى الإيحاش.

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٤٨٩).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢١).

فإن علمتَ أنَّ النُّصحَ غيرُ مؤثِّرٍ فيه، وأنَّه مضطرٌّ مِنْ طبعِهِ إلى الإصرار عليه، فالسُّكوتُ عنه أولى، وهذا كلُّهُ فيما يتعلَّقُ بمصالحِ أخيك في دينه أو دنياه.

فأمَّا ما يتعلَّقُ بتقصيرِهِ في حقِّكَ فالواجبُ فيه الاحتمالُ والعفوُ والصَّفحُ والتَّعامي عنه، فالتَّعرُّضُ لذلك ليس مِنَ النُّصحِ في شيء.

(م: قال الشَّيخُ أبو العزائم ﷺ: مَنْ عصى اللهَ فيكَ فاجتهدْ أن تُطيعَ اللهَ فيه).

نعم إن كان بحيثُ يؤدِّي استمرارُهُ عليه إلى القطيعةِ فالعتابُ في السِّرِّ خيرٌ مِنَ القطيعة، والتَّعريضُ به خيرٌ مِنَ التَّصريح، والمكاتبةُ خيرٌ مِنَ المشافهة، والاحتمالُ خيرٌ مِنَ الكلِّ.

واختلفَ طريقُ الصَّحابةِ والتابعين في إدامةِ مودَّةِ الصَّديقِ إذا ارتكبَ المعصية، قال أبو ذرٍّ ﷺ: (إذا انقلبَ أخوكَ عمَّا كان عليه فأَبْغِضْهُ مِنْ حيثُ أحببتَهُ)(١)، ورأى ذلك مِنْ مقتضى الحبِّ في الله والبغضِ في الله.

وأمَّا أبو الدَّرداءِ وجماعةٌ مِنَ الصَّحابةِ ﷺ فذهبوا إلى خلافِهِ؛ فقال أبو الدَّرداءِ ﷺ: (إذا تغيَّرَ أخوكَ وحالَ عمَّا كان عليه فلا تَدَعْهُ لأجل ذلك، فإنَّ أخاكَ يعوجُّ مرةً ويستقيمُ مرةً أخرى)(٢).

وقال إبراهيمُ النَّخعيُّ ﷺ: (لا تقطعْ أخاكَ ولا تهجرْهُ عندَ الذَّنبِ يُذنِبُهُ، فإنَّه يرتكبُهُ اليومَ ويتركُهُ غداً)(٣).

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٨).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٨).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٨).

وفي الخبر: «اتَّقوا زَلَّةَ العالِمِ ولا تقطعوهُ وانتظروا فيئتَهُ»[1].

وقد قال ﷺ: «مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ فَلَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ فَعَلَيْهِ مِثْلُ إِثْمِ صَاحِبِ المَكْسِ»[2].

وقد قيل:

خُـذْ مِـنْ خَلِيلِـكَ مـا صَفَا   وَدَعِ الَّـذِي فِيْـهِ الكَـدَرْ
فَالعُمْـرُ أَقْصَـرُ مِـنْ مُعَـا   تَبَـةِ الخَلِيْـلِ عَلَـى الغِيَـرْ

(ش: فالعارفُ باللهِ المُشاهِدُ المُتمكِّنُ يُؤلِّفُ قلوبَ الخلقِ ويَدُلُّهُم على الحقِّ، ويَصْبِرُ على أذاهم وجفاهم، ويُقابِلُ إساءتَهُم بالإحسانِ مُراعيًا في كلِّ خَلْقٍ وَجْهَ مَنْ خَلَقَه، كما قال محمَّد الإخسيكائيّ:

اِرْحَـمْ أُخَـيَّ عِبـادَ اللهِ كُلَّهَـمُ   وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ اللُّطْفِ وَالشَّـفَقَهْ
وَقِّـرْ كَبِيرَهُمُ وَارْحَـمْ صَغِيرَهُمُ   وَرَاعِ في كُلِّ خَلْـقٍ وَجْهَ مَنْ خَلَقَه

وحكي عن شيخ شيوخنا سيدي الشَّيخِ الهاشـميِّ - رضي الله تعالى عنه - مِنَ الأمثلةِ التي ضَرَبَها لإخوانِهِ في معاملةِ الصُّوفيِّ للخَلْق أنَّه قال: العارفُ باللهِ يُعامِلُ الخَلْقَ معاملةَ رجلٍ مُؤدِّبٍ مُرَبٍّ أَوْكَلَ إليه المَلِكُ تربيةَ أبنائِه، فإنّه إذا أساءَ تربيتَهُم عَاقَبَهُ المَلِك، وإذا أساءَ إليهم عَاقَبَهُ المَلِك، وإذا أساؤوا إليه تَحَمَّلَ إساءَتَهُم مِنْ أجلِ المَلِك، ولا يُقابِلُهُم على الإساءةِ بالمثل، فالعارفُ باللهِ الدَّالُّ على اللهِ يَحْتَمِلُ إساءةَ الخَلْقِ ويُحْسِنُ تربيتَهُم، ولا يَعْذِرُ نفسَهُ في التَّقصيرِ بما

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٦/ ٦٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١١).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٧١٨).

كُلِّفَ به ويَعْذُرُهم فيما يَصْدُرُ عنهم؛ لأنَّهم لم يَصِلُوا إلى مشاهدةِ المقامِ الذي هو فيه، ولو أنَّهم وَصَلُوا إلى المقامِ ذاتِهِ لَتَأَدَّبوا معه كما يَتَأَدَّبُ معهم، لذلك أهلُ اللهِ إذا باتوا فإنَّهم يَبِيتُونَ على المُسامحةِ لجميعِ الخلقِ الذين وَقَعُوا فيهم أو نالوا منهم، سواءٌ مَنْ كانَ منهم مُحِقًّا أو مُبْطِلاً، وكان مِنْ وصيّةِ النّبيِّ لسيِّدنا أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ: «يَا بُنَيَّ، إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ»، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الجَنَّةِ»[١].

ومِنْ علامةِ السّالكين لهذا الطَّريقِ السُّلوكَ الصَّحيح ثلاثةُ أشياء: سلامةُ الصَّدر، وسخاوةُ النَّفس، وحُسنُ الظَّنِّ بعبادِ الله.

ومِمّا يُنسَبُ إلى الإمامِ الشّافعيِّ رحمه الله تعالى:

مَنْ نَالَ مِنِّي أَوْ عَلِقْتُ بِذِمَّتِهْ أَبْرَأْتُهُ للهِ شَاكِرَ مِنَّتِهْ
أَأُرَى مُعَوِّقَ مُؤْمِنًا يومَ الجزا أو أن أَسُوءَ محمدًا في أُمَّتِهِ

ونُقِلَ لأحدِ السَّلفِ أنَّ فلانًا يَتَكَلَّمُ عليك بكذا وكذا، فقال للنّاقل: اِرفَعْ يديك وقُلْ: اللّهُمَ إن كان فلانٌ صادقًا فيما يقولُ عنّي فَاغْفِرْ لي، وإن كان غيرَ صادقٍ فَاغْفِرْ له، فهذه الأخلاقُ إنَّما تَنْتُجُ عن مشاهدةِ الحَقِّ، فَمَنْ شاهدَ الحقَّ في مظاهرِ الخلقِ تأدَّبَ معهم، فالأدبُ مع الخلقِ أدبٌ مع الحقّ.

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: الأولياءُ يَدُلُّونَ الخلقَ ويَصْبِرُونَ على أذاهم مع دوامِ النُّصحِ لهم، يَتَبَسَّمُونَ في وجوهِ المُنافقِينَ والفُسّاقِ، ويحتالونَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨).

عليهم بكلِّ حِيلةٍ حتَّى يُخلِّصوهم مِمّا هم فيه، ويحملوهُم إلى بابِ ربِّهم عزَّ وجلَّ، ولهذا قال بعضُهم رحمةُ اللهِ عليه: لا يَضْحَكُ في وجهِ الفاسقِ إلّا العارف، يَضْحَكُ في وجهِهِ ويُرِيَهُ أنَّه ما يَعْرِفُهُ، وهو يَعْلَمُ بخرابِ بيتِ دِينِهِ، وسوادِ وجهِ قلبِه، وكثرةِ غِلِّهِ وكَدَرِه، والفاسقُ والمُنافِقُ يَظُنَّانِ أنَّهما قد خَفِيا عليه ولم يَعْرِفْهُما[١].

تنبيه: لا يُفهَمُ مِنْ ذلك أنَّ العارفَ يَضْحَكُ في وجهِ الفاسقِ أثناءَ تَلَبُّسِهِ بالمعصية، وإنَّما يَبَشُّ في وجهِهِ في وقتِ لُقياهُ؛ لِتَحْبيبِهِ إلى الله تعالى)[٢].

وقال ﷺ: «المُؤْمِنُ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَا»[٣]، فلم يَصِفْهُ بأنَّه لا يغضب.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: (والفاقدين الغيظ).

واعلم أنَّ مِنْ حقِّ الأخِ على أخيه أن تدعوَ له في حياته وبعدَ مماتِهِ بكلِّ ما تُحِبُّه لنفسِكَ؛ فإنَّ دعاءَكَ له دعاءٌ لنفسِكَ على التحقيق؛ فقد قال ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الغَيْبِ قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ»[٤]. وفي لفظٍ آخرَ: «يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: بِكَ أَبْدَأُ»[٥].

---

(١) ينظر: (الفتح الرباني) (١٣٥).

(٢) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٥٦. ١٥٧).

(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) بنحوه.

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٢).

(٥) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢٨)، قال الحافظ العراقي: (لم أجد هذا اللفظ). ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٦/ ٢٣٤).

وفي الحديث: «دَعْوَةُ الرَّجُلِ لأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الغَيْبِ لاَ تُرَدُّ»[١].

وكان أبو الدَّرداءِ ﵁ يقول: (إنِّي لأدعو لسبعين مِنْ إخواني في سجودي، أُسمِّيهم بأسمائِهم)[٢].

وقال بعضُ السلفِ: الدُّعاءُ للأمواتِ بمنزلةِ الهدايا للأحياء، فيدخلُ المَلَكُ على الميتِ ومعه طبقٌ مِنْ نورٍ، عليه منديلٌ مِنْ نورٍ، فيقول: هذه هديةٌ لكَ مِنْ عندِ أخيكَ فلان، مِنْ عندِ قريبِكَ فلان، قال: فيفرحُ بذلك كما يفرحُ الحيُّ بالهدية.

واعلم أنَّ مِنْ حقوقِ المسلم: أن يُسلِّمَ عليه إذا لَقِيَهُ ويُصافِحَهُ عندَ السَّلام، قال ﷺ: «مَنْ بَدَأَ بِالكَلاَمِ قَبْلَ السَّلاَمِ فَلاَ تُجِيبُوهُ حَتَّى يَبْدَأَ بِالسَّلاَمِ»[٣].

وجاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، فقال ﷺ: «عَشْرُ حَسَنَاتٍ»، فجاء آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال: «عِشْرُونَ حَسَنَةً»، فجاء آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ، فقال: «ثَلاَثُونَ»[٤].

وقال ﷺ: «إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ»[٥].

وقال قتادةُ ﵀: (كانت تحيَّةُ مَنْ كان قبلَكُم السُّجودَ، فأعطى الله عزَّ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٨١٨٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ١٨٨).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٤٣٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢١٤).

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٩٣)، وبنحوه عند أبي داود (٥١٩٥).

(٥) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٤٣).

وجلَّ هذه الأمّةَ السَّلامَ، وهي تحيَّةُ أهل الجنَّةِ)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تُصَافِحُوا أَهْلَ الذِّمَّةِ، وَلاَ تَبْدَؤُوهُمْ بِالسَّلاَمِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهِ»[٢].

وقال أنسٌ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَةً تِسْعٌ وَسِتُّونَ لأَحْسَنِهِمَا بِشْراً»[٣].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال ﷺ: «تَمَامُ تَحِيَّاتِكُم الْمُصَافَحَةُ»[٤].

ولا بأسَ بتقبيلِ يدِ المعظَّمِ في الدِّينِ تبرُّكاً به وتوقيراً له؛ روي عن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: (قَبَّلْنا يدَ النَّبيِّ ﷺ)[٥].

ورُوِيَ أنَّ أعرابياً قال: يا رسولَ الله ﷺ ائذن لي فَأُقبِّلَ رأسَكَ ويدَكَ قال: فأذنَ لهُ، فَفَعَلَ[٦].

ولَقِيَ أبو عبيدةَ رضي الله عنه عمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه فَصَافَحَهُ وقبَّلَ يَدَهُ وتَنَحَّيا يبكيانِ[٧].

وأما الانحناءُ عندَ السَّلامِ فمنهيٌّ عنه.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٨٧).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٣٦).

(٣) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٤٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٧٣١).

(٥) رواه أبو داود (٢٦٤٧).

(٦) رواه أبو بكر ابن المقرئ في الرخصة في تقبيل اليد (٥).

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في الإخوان (١٢٩).

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى في آداب السلام:

وَلَا تُسَلِّمْ عَلَى الْكُفَّارِ أَجْمَعِهِمْ ... نَعَمْ أَجِبْهُمْ بِلَفْظِ غَيْرِ ذِي تَمَمِ

فَقُلْ عَلَيْكَ وَزِدْ وَاوًا بِأَوَّلِهِ ... أَوْ أَسْقِطِ الْوَاوَ أَوْ فَاصْمُتْ لِخِزْيِهِمِ

وَلَا تُسَلِّمْ عَلَى الْفُسَّاقِ قَاطِبَةً ... كَأَهْلِ مَكْسٍ وَشُرَّابٍ لِخَمْرِهِمِ

وَمَنْ أَضَاعَ صَلَاةً أَوْ زَنَا وَكَذَا ... شُهُودُ زُورٍ فَدَعْهُمْ مَعْ قُضَاتِهِمِ

إِنْ لَمْ تَخَفْ فِتْنَةً مِنْهُمْ وَلَا ضَرَرًا ... أَوْ شِئْتَ سَلِّمْ عَلَيْهِمْ خَوْفَ شَرِّهِمِ

وَلَا تُسَلِّمْ عَلَى الْأُنْثَى الْفَتِيَّةِ ذَرْ ... إِنْ لَمْ تَكُنْ حُرْمَةٌ أَوْ كَانَ فَاغْتَنِمِ

وَلَا تُسَلِّمْ عَلَى الْأُنْثَى لِفِتْنَتِهَا ... فَإِنْ أَمِنْتَ افْتِتَانًا صَاحِ فَاغْتَنِمِ

نَعَمْ وَسَلِّمْ عَلَى جَمْعِ الْإِنَاثِ كَمَا ... جَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمُخْتَارِ لِلْأُمَمِ(١)

أَفْشِ السَّلَامَ وَصَافِحْ لِلذُّكُورِ إِذَا ... كَانَ الْمُصَافِحُ غَيْرَ الْمُرْدِ مِنْ نَسَمِ

وَغَيْرَ شَخْصٍ يُرَى بِالشِّرْكِ مُتَّصِفًا ... وَغَيْرَ مَنْ قَدْ بَلَاهُ اللهُ بِالْجَذَمِ

بَلْ فُرَّ مِنْهُ وَعُذْ بِاللهِ مِنْ مَرَضٍ ... بِهِ ابْتُلِي وَامْتَثِلْ لِلْأَمْرِ وَانْهَزِمِ

وَاسْبِقْ إِلَى الْبِشْرِ وَالْإِكْرَامِ مُلْتَزِمًا ... لِقُبْلَةِ الْيَدِّ مِنْ ذِي الزُّهْدِ وَالْحِكَمِ

وَنَحْوِ ذَا لَا لِجَبَّارٍ وَنَحْوِ غِنًى ... إِلَّا لِخَوْفٍ فَكَشِّرْ صَاحِ وَابْتَسِمِ

وَإِنْ تُعَانِقْ لِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ سَفَرٍ ... أَوِ الْجِهَادِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

فَذَا مُبَاحٌ كَتَقْبِيلِ الصَّغِيرِ كَذَا ... تَقْبِيلُ مَيْتٍ بِكَأْسِ الْمَوْتِ مُسْتَنِمِ

لَا تَحْقِرَنْ بِسَلَامِ صِبْيَةٍ وُجِدُوا ... فَذَا مِنَ الْكِبْرِ فَاحْذَرْهُ وَمِنْ شَمَمِ

وَإِنْ تَكُنْ رَاكِبًا سَلِّمْ عَلَى الْجُلَسَا ... أَوِ الْمُشَاةِ وَذا صِغْرٍ عَلَى هَرِمِ

---

(١) وهو ما روته أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: مَرَّ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي نِسْوَةٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا. رَوَاهُ أبو داود (٥٢٠٤).

وَإِنْ تَكُنْ مَاشِيًا أَفْشِ السَّلَامَ عَلَى ... مَنْ خِلْتَهُ قَاعِدًا فَاحْفَظْ لِذِي الرُّسُمِ
وَالْجَمْعُ ذُو قِلَّةٍ يُفْشُوا السَّلَامَ عَلَى ... مَــنْ كَانَ ذَا كَثْــرَةٍ فِي الْعَــدِّ فَافْتَهِمِ
كَرِّرْ سَلامَكَ جَهْرًا بِالثَّلاثِ عَلَى ... مَنْ لَمْ يُجِبْكَ وَأَوْمِئْ نَحْوَ ذِي الصَّمَمِ
وَالأَوْلَى فِي عُصْبَةٍ رَدُّ الْجَمِيعِ لَهُ ... وَإِنْ تُــرِدْ جَبْــرَ قَلْــبٍ بِالْقِيَــامِ قُمِ
لَا لِلْقُضَاةِ وَأَهْــلِ الْجَوْرِ وَالْكُبَرَا ... نَعَمْ لِمِسْــكِينِهِمْ مَعْ أَهْــلِ زُهْدِهِمِ
كَــذَا لِعَالِمِهِــمْ إِنْ كَانَ مُتَّقِيَــا ... أَلِّفْ قُلُوبَ ذَوِي الأَمْــوَالِ وَالْكَرَمِ
وَمَنْ تَخَفْ شَــرَّهُ قُمْ خَوْفَ فِتْنَتِهِ ... للهِ مُحْتَسِــبًا وَاجْنَــحْ إِلَى السَّــلْمِ)

ومنها: تشميتُ العاطسِ، قال ﷺ: «يَقُولُ العاطِسُ: الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَيَقُولُ الَّذِي يُشَمِّتُهُ: يَرْحَمُكُم الله، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ العَاطِسُ فَيَقُولُ: يَهْدِيكُمُ الله وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ»[١].

وقال ﷺ: «يُشَمَّتُ العَاطِسُ المُسْلِمُ إِذَا عَطَسَ ثَلاَثاً، فَإِنْ زَادَ فَهُوَ زُكَامٌ»[٢].

ورُوِيَ أنَّه ﷺ شَمَّتَ عاطساً ثلاثاً، فَعَطَسَ أخرى فقال: «إِنَّكَ مَزْكُومٌ»[٣].

وقال أبو هريرةَ رضي الله عنه: (كان رسولُ الله ﷺ إذا عَطَسَ غَضَّ صوتَهُ، واستترَ بثوبِهِ أو يدِهِ)، ورُوِيَ: (وخمَّرَ وجهَهُ)[٤].

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: كان اليهودُ يتعاطسون عند رسولِ الله ﷺ رجاءَ أن يقولَ: «يرحمُكم الله»، فكان يقول: «يَهْدِيكُمُ الله»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٤).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٣).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٢٩).

(٥) رواه أبو داود (٥٠٣٨).

وقال ﷺ: «العُطَاسُ مِنَ الله، وَالتَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَضَعْ يَدَهُ عَلَى فِيهِ، فَإِذَا قَالَ: آه آه فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَضْحَكُ مِنْ جَوْفِهِ»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ عُطِسَ عِنْدَهُ فَسَبَقَ إِلَى الحَمْدِ لَمْ يَشْتَكِ خَاصِرَتَهُ»(٢).

ومنها: إذا بُلِيَ بذي شرٍّ يُخافُ شرَّهُ فينبغي أن يدفعَه بالمداراةِ.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إنَّا لَنَكْشُرُ(٣) في وجوهِ أقوامٍ وإنَّ قلوبَنا لَتَلْعَنُهُم)(٤).

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنه في معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]، أي: الفحشَ والأذى بالسَّلامِ والمداراةِ(٥).

وقال محمدُ بنُ الحنفيّةِ رضي الله عنه: (ليس بحكيمٍ مَنْ لم يُعاشِرْ بالمعروفِ مَنْ لا يجدُ مِنْ مُعاشرَتِهِ بُدّاً، حتَّى يجعلَ اللهُ له منه فرجاً)(٦).

ومنها: أن يجتنبَ مخالطةَ الأغنياءِ ويختلطَ بالمساكينِ ويُحسِنَ إلى الأيتام.

كان النبيُّ ﷺ يقولُ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينَ»(٧).

وكان سليمانُ ـ عليه السلام ـ في ملكِهِ إذا دخلَ المسجدَ فرأى مسكيناً جلسَ إليه، وقال: مسكينٌ جالسَ مسكيناً.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨٩)، والترمذي (٢٧٤٦) واللفظ له.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧١٣٧).
(٣) أي: نَبَشُّ.
(٤) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٩١)، وهو من معلقات البخاري كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس.
(٥) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢١٥).
(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٨٩).
(٧) رواه الترمذي (٢٣٥٢)، والمسكنة هنا: الإخباتُ والخمولُ لا القلة.

وقيل: (ما كان مِنْ كلمةٍ تُقالُ لعيسى ـ عليه السلام ـ أحبَّ إليه مِنْ أن يُقالَ له: يا مسكينُ)[١].

وقال كعبُ الأحبارِ رضي الله عنه: (ما في القرآنِ مِنْ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو في التوراةِ: يا أيُّها المساكين)[٢].

وقال عبادةُ بنُ الصَّامتِ رضي الله عنه: (إنَّ للنارِ سبعةَ أبوابٍ: ثلاثةٌ للأغنياء، وثلاثةٌ للنساء، وواحدٌ للفقراءِ والمساكينِ). وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ المَوْتَى»، قيل: ومَنِ الموتى يا رسول الله ﷺ؟ قال: «الأَغْنِيَاءُ»[٣].

وأما اليتيمُ فقد قال ﷺ في حقِّه: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ كَهاتَيْنِ وَهُوَ يُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ»[٤].

ومنها: النصيحةُ لكلِّ مسلمٍ، والجهدُ في إدخالِ السُّرورِ على قلبه.

قال ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ـ قَضَاها أَوْ لَمْ يَقْضِها ـ كَانَ خَيْراً لَهُ مِنِ اعْتِكَافِ شَهْرَيْنِ»[٥].

وقال ﷺ: «مَنْ قَضَى حَاجَةً لأَخِيهِ فَكَأَنَّمَا خَدَمَ اللهَ عُمْرَهُ»[٦].

وقال معروفٌ الكرخيُّ رضي الله عنه: (مَنْ قال كلَّ يومٍ: اللهمَّ ارحمْ أمّةَ محمدٍ ﷺ،

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٦١٧٢).

(٣) رواه الترمذي (١٧٨٠).

(٤) رواه البخاري (٥٣٠٤).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠).

(٦) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٥٥).

اللهمَّ أصلحْ أمّةَ محمّدٍ ﷺ، اللهمَّ فَرِّجْ عن أمَّةِ محمّدٍ ﷺ كلَّ يومٍ ثلاثَ مراتٍ كَتَبَهُ اللهُ مِنَ الأبدالِ)[١].

ومنها: أن يعودَ مرضاهم.

وأدبُ العائدِ: خِفّةُ الجلسةِ، وقِلّةُ السُّؤالِ، وإظهارُ الرِّقةِ، والدُّعاءُ بالعافية، وغضُّ البصرِ عن عوراتِ الموضعِ، وعند الاستئذانِ لا يُقابِلُ البابَ، ويدقُّ برفقٍ، وإذا قيل له: «مَنْ»؟ لا يقولُ: «أنا»، ولا يقولُ: يا غلامُ، لكنْ يحمدُ ويُسبِّحُ.

وقال ﷺ: «تَمَامُ عِيادَةِ المَرِيضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ وَيَسْأَلَهُ كَيْفَ هُوَ وَتَمَامُ تَحِيَّاتِكُمْ المُصَافَحَةُ»[٢].

وقال ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضاً قَعَدَ فِي مَخَارِفِ الجَنَّةِ حَتَّى إِذَا قَامَ وُكِّلَ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى اللَّيْلِ»[٣].

وقال طاوس رضي الله عنه: (أفضلُ العيادةِ أخفُّها)[٤].

وقال ﷺ: «أَغِبُّوا في العِيادةِ وأَرْبِعُوا فيها»[٥].

وجملةُ أدبِ المريضِ: حسنُ الصَّبرِ، وقلّةُ الشَّكوى والضجرِ، والفزعُ إلى الدُّعاء، والتَّوكُّلُ بعدَ الدَّواءِ على خالقِ الدَّواء.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٦٦) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي (٢٧٣١).

(٣) رواه أبو داود (٣٠٩٨).

(٤) رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٩٤).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢١٢)، والبيهقي في الشعب (٨٧٨٢). **أغبُّوا**: زوروه يوماً ودعوه يوماً، وأربعوا: زوروه يوماً، ودعوه يومين، وعودوه في الرابع. ينظر: (فيض القدير) (٢/ ١٥).

ويُستحبُّ للعليلِ أن يقولَ سبعَ مراتٍ: (أعوذُ بعزَّةِ الله وقدرتِهِ مِنْ شرِّ ما أَجِدُ وأُحاذِرُ)[١].

ومنها: أن يُشيِّعَ جنائزَهم، قال ﷺ: «مَنْ شَيَّعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ مِنَ الأَجْرِ، فَإِنْ وَقَفَ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيراطَانِ»[٢]، وفي الخبر: «القِيَرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ»[٣].

ومنها: أن يزورَ قبورَهم، والمقصودُ الدُّعاءُ والاعتبارُ وترقيقُ القلبِ.

قال عمرُ رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتى المقابرَ فجلسَ إلى قبرٍ وكنتُ أدنى القومِ منه، فبكى وبكينا، فقال: وَمَا يُبْكِيكُمْ؟ قلنا: بكينا لبكائك، قال ﷺ: «هذَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِها فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَها فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ»[٤].

وكان عثمانُ رضي الله عنه إذا وقفَ على قبرٍ بكى حتى تبتلَّ لحيتُهُ، ويقولُ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ»[٥].

وقال سفيانُ رضي الله عنه: (مَنْ أكثرَ ذِكْرَ القبورِ وَجَدَهُ روضةً مِنْ رياضِ الجنّة، ومَنْ غَفَلَ عن ذِكرِهِ وَجَدَهُ حفرةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ)[٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٢)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٤٢).

(٢) رواه البخاري (٤٧، ١٣٢٥).

(٣) رواه مسلم (٩٤٦).

(٤) رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٥٥)، ومسلم (٩٧٦) باختصار.

(٥) رواه الترمذي (٢٣٠٨).

(٦) حكاه الحافظ الإشبيلي في العاقبة في ذكر الموت (١٩٥).

واعلم أنَّ الجوارَ يقتضي حقّاً وراءَ ما تقتضيه أخوَّةُ الإسلام؛ فقد قال ﷺ: «ما زالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بالجارِ حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سَيُوَرِّثُهُ»[١].

وقال ﷺ: «الجِيرَانُ ثَلاَثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ، فَالجَارُ الَّذِي لَهُ ثَلاَثَةُ حُقُوقٍ الجَارُ المُسْلِمُ ذُو الرَّحِمِ، فَلَهُ حَقُّ الجِوَارِ وَحَقُّ الإِسْلاَمِ وَحَقُّ الرَّحِمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالجَارُ المُسْلِمُ، لَهُ حَقُّ الجِوَارِ وَحَقُّ الإِسْلاَمِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالجَارُ المُشْرِكُ»[٢].

وروى الزُّهريُّ رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ ﷺ فجعلَ يشكو جارَهُ، فأمرَهُ النبيُّ ﷺ أن يناديَ على باب المسجد: «أَلاَ إِنَّ أَرْبَعِينَ دَاراً جَارٌ»[٣]، قال الزُّهريُّ رضي الله عنه: (أربعونَ هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا)، وأومأَ إلى أربعِ جهات.

وقال ﷺ: «اليُمْنُ وَالشُّؤْمُ فِي المَرْأَةِ وَالمَسْكَنِ وَالفَرَسِ، فَيُمْنُ المَرْأَةِ خِفَّةُ مَهْرِهَا، وَيُسْرُ نِكَاحِهَا، وَحُسْنُ خُلُقِهَا، وَشُؤْمُهَا غَلاَءُ مَهْرِهَا، وَعُسْرُ نِكَاحِهَا، وَسُوءُ خُلُقِهَا، وَيُمْنُ المَسْكَنِ سَعَتُهُ وَحُسْنُ جِوَارِ أَهْلِهِ، وَشُؤْمُهُ ضِيقُهُ وَسُوءُ جِوَارِ أَهْلِهِ، وَيُمْنُ الفَرَسِ ذُلُّهُ وَحُسْنُ خُلُقِهِ، وَشُؤْمُهُ صُعُوبَتُهُ وَسُوءُ خُلُقِهِ»[٤].

واعلم أنَّه ليس حقُّ الجوارِ كفَّ الأذى فقط، بل احتمالُ الأذى، ولا يكفي احتمالُ الأذى، بل لا بُدَّ مِنَ الرِّفقِ وإسداءِ الخيرِ والمعروفِ؛ إذ يُقال: إنَّ الجارَ

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٤).

(٢) رواه هناد في الزهد (١٠٣٦)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٠٧).

(٣) رواه أبو داود في المراسيل (٣٤٢).

(٤) رواه مسلم (٢٢٢٥).

الفقيرَ يتعلَّقُ بجارِهِ الغنيِّ يومَ القيامةِ ويقول: يا ربِّ؛ سَلْ هذا: لِمَ مَنَعني معروفَهُ وسدَّ بابَهُ دوني؟[١].

وشكا بعضُهم كثرةَ الفأرِ في داره، فقيل له: لو اقتنيتَ هِرّاً؟ فقال: أخشى أن يسمعَ الفأرُ صوتَ الهِرِّ فيهربَ إلى دورِ الجيران، فأكونَ قد أحببتُ لهم ما لا أحبُّ لنفسي.

وقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الله بِهِ خَيْراً عَسَّلَهُ»، قيل: وما عسله؟ قال: «يُحَبِّبُهُ إِلَى جِيرَانِهِ»[٢].

واعلم أنَّ الأخبارَ والآثارَ في حقوقِ الأقاربِ والرَّحمِ كثيرةٌ، منها:

قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمنُ وَهَذِهِ الرَّحِمُ، شققتُ لَها اسْماً مِن اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَها بَتَتُّهُ»[٣].

وقال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٤].

وقال ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، وَلَيْسَ الوَاصِلُ بالمُكَافِىء، وَلكِنَّ الوَاصِلَ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها»[٥].

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضي الله عنه كتبَ إلى عُمَّالِهِ: (مُرُوا الأقاربَ أن يتزاوروا ولا

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢).

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (١٦٣).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٩).

(٤) رواه البخاري (٢٠٦٧).

(٥) رواه أحمد في المسند (٢/ ١٦٣)، والبخاري (٥٩٩١).

يتجاوروا)[١]، وإنَّما قال ذلك لأنَّ التَّجاورَ يُورِثُ التَّزاحُمَ على الحقوق، وربَّما يُورِثُ الوحشةَ وقطيعةَ الرَّحِمِ.

واعلم أنَّ أخصَ الأرحامِ وأمسَّها الولادة، فيتضاعفُ تأكُّدُ الحقِّ فيها، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «لَنْ يُجزِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ حَتَّى يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»[٢].

وقال ﷺ: «أكبرُ الكبائرِ الإشراكُ بالله وعُقُوقُ الوالدين»[٣].

وقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ الأَبُ»[٤].

وسأله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله ﷺ مَنْ أبرُّ؟ فقال: «بِرَّ وَالِدَيْكَ»، فقال: ليس لي والدان، فقال: «بِرَّ وَلَدَكَ، كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقّاً كَذلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ»[٥].

وقال ﷺ: «رَحِمَ الله وَالِداً أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَى بِرِّهِ»[٦]، أي: لم يَحمِلْهُ على العُقوقِ بِسُوءِ عَمَلِهِ.

واعلم أنَّ مِلْكَ اليمينِ يقتضي حقوقاً في المعيشةِ لا بُدَّ مِنْ مراعاتها، فقد

---

(١) أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار (٣/ ٨٨).

(٢) رواه مسلم (١٥١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٩١٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٥٢).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في العيال (١٥١)، قال الدارقطني في العلل (١٢/ ٤١١): (إن الأصح وقفه على ابن عمر)، وعند مسلم (١١٥٩): (وإنَّ لِوَلَدِكَ عليكَ حقاً).

(٦) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٩٢٤)، وهناد في الزهد (٩٩٥).

كان مِنْ آخرِ ما أوصى به رسولُ الله ﷺ أن قال: «اتَّقُوا الله فِيما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مِنَ العَمَلِ مَا لاَ يُطِيقُونَ، فَما أَحْبَبْتُم فَأَمْسِكُوا، وَمَا كَرِهْتُمْ فَبِيعُوا، وَلاَ تُعَذِّبُوا خَلْقَ الله؛ فَإِنَّ الله مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَمَلَّكَهُمْ إِيَّاكُمْ»(١).

وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله تعالى عنهما: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله ﷺ كم نعفو عن الخادمِ؟ فَصَمَتَ عنه رسولُ الله ﷺ ثمَّ قال: «اعْفُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»(٢).

وقال ابنُ المنكدِر رحمه الله: إنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ضَرَبَ عبداً له فَجَعَلَ العبدُ يقول: أسأَلُكَ بالله أسأَلُكَ بوجه الله، فلم يعفه، فَسَمِعَ رسولُ الله ﷺ صياحَ العبدِ فانطلقَ إليه، فلمَّا رأى رسولَ الله ﷺ أمسكَ يدَهُ فقال رسول الله ﷺ: «سَأَلَكَ بِوَجْهِ الله فَلَمْ تَعْفُهُ، فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَمْسَكْتَ يَدَكَ؟ قال: فإنَّه حُرٌّ لوجهِ الله يا رسولَ الله، فقال ﷺ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَسَفَعَتْ وَجْهَكَ النَّارُ»(٣).

وقال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٤).

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رحمه الله تعالى في آداب صحبة الأصول والفروع وذوي الأرحام وعموم الناس:

وَاصْحَبْ لِأَصْلٍ وَفَرْعٍ مَعْ ذَوِي رَحِمٍ ... بِالبِرِّ وَالْجُودِ والإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ

---

(١) رواه البخاري (٣٠) ومسلم (١٦٦١)، وأبو داود (٥١٦١).

(٢) رواه أبو داود (٥١٦٤)، والترمذي (١٩٤٩).

(٣) رواه مسلم (١٦٥٩) بنحوه.

(٤) رواه البخاري (٨٩٣).

وَتَرْكِ كُلِّ أَذًى وَاعْـرِفْ لِقَدْرِهِمِ ... وَوَالِهِـمْ إِنْ أَطَاعُـوا أَوْ عَصَوا فَلَمِ
وَأْمُرْ بِعُرْفٍ لَهُمْ مِثْلَ الصَّلَاةِ وَقُلْ ... حَقًّـا إِذَا خِلْـتَ بُطْلًا فِي سَـبِيلِهِمِ
فَإِنْ أَطَاعُوكَ فَاشْكُرْ أَوْ عَصَوْكَ فَلَا ... تُطِعْ وَصَاحِبْهُمَا بِالْعُرْفِ مِنْ شِـيَمِ
فَإِنْ أَصَرُّوا عَلَى الْعِصْيَانِ وَالْجُرُمِ ... فَخَـلِّ وُدًّا لَهُـمْ وَاقْطَـعْ لِوَصْلِهِمِ
لَا تَدْعُ أَصْلًا بِمَا سُـمِّي بِـهِ فَإِذًا ... تَكُـنْ مُسِـيئًا ظَلُومًا قَاطِـعَ الرَّحِمِ
بَـلْ بِالأُبُـوَّةِ سَـمِّهْ وَالأُمُومَةِ قُلْ ... أَوْ بِالسِّـيَادَةِ وَاعْرِفْ حَـقَّ فَضْلِهِمِ
وَاشْكُرْ لَهُمْ بِدُعَاءٍ فِي الْكِتَابِ أَتَى ... وَإِنْ يمُـتْ وَاحِدٌ صِلْ أَهْـلَ وُدِّهِمِ
نَظِّفْ ثِيَابًـا وَأَبْدَانًا لَهُمْ شَـعُثَتْ ... أَمِـطْ أَذَاهُـمْ كَبَرْغُـوثٍ وَقَمْلِهِـمِ
أَنْفِقْ عَلَـى وَالِدٍ يَحْتَـاجُ أَوْ وَلَدٍ ... وَهَكَـذَا فَاكْسُـهُمْ دَفْعًـا لِبَرْدِهِـمِ
لَا تُدْنِ زَوْجًا وَتُقْصِي الأُمَّ تَقْطَعُهَا ... وَلَا صَدِيقًـا وَتُقْصِي الأَصْلَ فَافْتَهِمِ
اِصْبِرْ عَلَى قَوْلِهِـمْ وَاغْفِرْ لِزَلَّتِهِمْ ... وَدَعْ أَذَاهُـمْ مِـنَ الأَفْعَـالِ وَالْكَلِمِ
وَكُنْ صَبُورًا لِمَا تَلْقَـاهُ مِنْ ضَرَرٍ ... وَعَاشِـرِ الأَهْلَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ
وَاللِّينِ وَالرِّفْقِ وَالإِحْسَانِ مَا قَدَرَتْ ... نَفْـسٌ وَلَا تَـكُ لَعَّانًـا وَذَا شَـتَمِ
وَلَا تَسُـبَّ لِعَيْـشٍ إِذْ تَضِيـقُ يَدٌ ... وَلَا لِدَهْـرٍ وَمَوْلُـودٍ وَلَا خَـدَمِ
وَاحْذَرْ مِنَ الظُّلْمِ لَا تَأْمَنْ عَوَاقِبَهُ ... فَدَعْـوَةُ الْعَبْـدِ مَظْلُومًا مِـنَ النِّقَمِ
تَسْـرِي إِلَى رَبِّهِ لَا شَيْءَ يَحْجُبُهَا ... كَـذَا وَوَالِـدُ مَوْلُـودٍ مِـنَ النَّسَـمِ
رُدَّ السَّلامَ وَعُدْ مَنْ كَانَ ذَا مَرَضٍ ... شَيِّعْ جَنَازَتَهُمْ وَانْصُرْ لِمُصْطَلَمِ[1]
شَـمِّتْ لِعَاطِسِهِمْ مِنْ بَعْدِ حَمْدَلَةٍ ... إِنْ لَمْ يُحَمْدِلْ فَدَعْـهُ مِثْلَ ذِي زَكَمِ
أَجِـبْ لِدَاعٍ وَلَوْ قَـدْ كَانَ مِنْ بُعُدٍ ... إِنْ لَـمْ يَكُنْ مُنْكَرًا بَرِّرْ لِذِي الْقَسَـمِ

---

(١) لِمُصْطَلَمِ: أي لمظلومٍ أو مُهانٍ.

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ حَتَّى وَلَوْ ... تَلْقَى أَخَاكَ بِثَغْرٍ مِنْكَ مُبْتَسِمِ[١]

أَحْسِنْ إِلَى الجَارِ لَا تَحْقِرْ مَوَدَّتَهُ ... بِمَا تُهَادِيهِ حَتَّى فِرْسِنَ الْغَنَمِ[٢]

وَلَا تَسَمَّعْ وَلَا تَفْخَرْ عَلَى أَحَدٍ ... وَلَا تكَبَّرْ عَلَى شَخْصٍ مِنَ النَّسَمِ

إِلَّا عَلَى كَافِرٍ أَوْ ظَالِمٍ أَشِرٍ ... لَا تَتَّضِعْ لَهُمَا وَاحْذَرْ مِنَ الشَّمَمِ

لَا تَحْقِرَنْ أَحَدًا فِي بَاطِنٍ أَبَدًا ... وَلَا تَظُنَّ بِهِ سُوءًا فَتَتَّهِمِ

نَعَمْ إِذَا جَاهَرَ الْفُسَّاقُ خَالِقَهُمْ ... بِالْمُنْكَرَاتِ فَلَا إِثْمٌ عَلَى تُهَمِ

لِأَنَّهُمْ خَلَعُوا ثَوْبَ الْحَيَا وَأَتَوا ... فِعْلَ الْخَنَا جَهْرَةً مِنْ غَيْرِ مُحْتَشِمِ

أَعْرِضْ عَنِ اللَّغْوِ مُرْ بِالْعُرْفِ مُحْتَسِبًا ... وَلَا تُدَاهِنْ لِذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمِ

وَلَا تُدَاهِنْ كَبِيرَ الْقَوْمِ تَاجِرَهُمْ ... وَلَا الرَّئِيسَ وَذَا الأَعْوَانِ وَالْخَدَمِ

وَلَا تُصَاحِبْ لِأَهْلِ الشَّرِّ وَاجْفُهُمُ ... وَاصْحَبْ لِأَهْلِ الْهُدَى وَانْهَضْ لِحَيِّهِمِ)

* * *

---

(١) الثَّغْرُ: الفَمُ.

(٢) الفِرْسِنُ للبَعِيرِ: كالحافِرِ للفَرَسِ، وكالقَدَم للإنسان.

الكتاب السادس من ربع العادات
في آداب العزلة

(ما نَفَعَ القَلْبَ شيءٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرةٍ)[1]

(مِنْ علامةِ الإفلاس الاستئناسُ بالناس)

(م: قال رسول الله ﷺ: «اليَسِيرُ مِنَ الرِّياءِ شِرْكٌ، ومَنْ عادَى أولياءَ اللهِ فقد بارز الله بالمحاربةِ، إنَّ اللهَ يحِبُّ الأبرارَ الأتقياءَ الأخفياءَ، الَّذين إن غابوا لم يُفتَقَدوا، وإن حضروا لم يُعرَفوا، قلوبُهم مصابيحُ الهُدى، يَخْرُجُونَ مِنْ كلِّ غبراءَ مُظلِمةٍ»[2]).

اعلم أنّه قد ظهرَ الاختلافُ بين التابعين في اختيار العزلةِ وتفضيلِها على المخالطة:

فاختارَ العزلةَ سفيانُ الثوريُّ، وإبراهيمُ بنُ أدهمَ، وداودُ الطائيُّ، وفضيلُ ابنُ عياض، وسليمانُ الخوّاصُ، ويوسفُ بنُ أسباطٍ، وحذيفةُ المرعشيُّ، وبشرٌ الحافيُّ رحمهم الله.

وقال أكثرُ التابعين باستحبابِ المخالطةِ، واستكثارِ المعارفِ والإخوانِ، والتَّحبُّبِ إلى المؤمنين، والاستعانةِ بهم في الدِّين؛ تعاوناً على البر والتقوى،

(١) الحكمة (١٢) من الحكم العطائية.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩).

ومال إلى هذا سعيدُ بنُ المسيّب، والشعبيُّ، وابنُ أبي ليلى، وهشامُ بنُ عروةَ، وشُرَيحٌ، وابنُ المبارك، والشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ رحمهم الله.

[الكلماتُ الدالةُ على فضلِ العزلة]

قال عمر رضي الله عنه: (خُذوا حظَّكم مِنَ العزلة)[1].

وقال ابن سيرين رحمه الله: (العزلةُ عبادةٌ)[2].

وقال الفضيل رحمه الله: (كفى بالله مُحبّاً، وبالقرآنِ مُؤنِساً، وبالموتِ واعظاً)[3].

وقيل: (اتَّخِذ الله صاحِباً، ودَعِ الناسَ جانباً)[4].

وقال أبو الربيعِ الزاهدُ رحمه الله لداودَ الطائيّ رحمه الله: عِظْني، فقال: صُمْ عن الدُّنيا، واجعلْ فطرَكَ الآخرةَ، وفِرَّ مِنَ الناسِ فرارَكَ مِنَ الأسد[5].

وقال الحسنُ رحمه الله: (كلماتٌ أحفظُهُنَّ مِنَ التوراة؛ قنعَ ابنُ آدم فاستغنى، اعتزلَ الناسَ فَسَلِمَ، تركَ الشَّهواتِ فصار حُرّاً، وتركَ الحسدَ فظهرَتْ مروءَتُهُ، صَبَرَ قليلاً فتمتَّعَ طويلاً)[6].

وقال وهيبُ بن الورد رحمه الله: (بَلَغَنا أنَّ الحكمةَ عشرةُ أجزاءٍ، تسعةٌ منها في الصَّمتِ، والعاشرُ في عزلةِ النَّاسِ)[7].

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١١)، وابن حبان في روضة العقلاء (٨١).

(٢) رواه الخطابي في العزلة (٢٧).

(٣) رواه الخطابي في العزلة (٣٣).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٣).

(٥) رواه الخطابي في العزلة (٣٤).

(٦) رواه الخطابي في العزلة (٣٧).

(٧) رواه الخطابي في العزلة (٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٤٢).

وقال سفيانُ الثَّوريُّ رحمه الله: (هذا وقتُ السُّكوت، وملازمةِ البيوت)[١].

وقال إبراهيمُ النَّخعي رحمه الله لرجلٍ: (تَفَقَّهْ ثم اعتزل)[٢].

وقال يوسفُ بنُ أسباطٍ رحمه الله: سمعتُ سفيانَ الثوريَّ رحمه الله يقول: (والله الذي لا إله إلا هو؛ لَقَدْ حَلَّتِ العزلةُ)[٣].

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: أفضلُ المجالسِ مجلسٌ في قعرِ بيتِك، لا تَرى ولا تُرى.

(ش: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدس سره: «اهرُبْ مِنْ خيرِ النّاسِ أكثرَ مِمّا تَهْرُبُ مِنْ شَرِّهم، فإنَّ خَيْرَهُمْ يُصِيبُكَ في قلبِك، وشرَّهم يُصيبُكَ في بدنِك، ولَعَدُوٌّ تَصِلُ به إلى اللهِ خيرٌ مِنْ حبيبٍ يقطعُكَ عن الله».

والهربُ مِنْ خيرِ النّاسِ إنما يكونُ بعدمِ الطَّمعِ فيما في أيديهم، لأنَّ الطَّمعَ فيهم يجلبُ العداوةَ والشَّرَّ، ثمَّ إذا نال شيئًا مِنْ خيرِهم وكان عن طمعٍ فإنَّه يقعُ ذلك في موضعِ السِّرِّ مِنَ القلب، فيميلُ إليهم بالمحبّة والرُّكونِ فيُصاب، وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ مِن اشتغالِ قلبِ المؤمنِ بمحبة النّاسِ وعطيّاتِهم.

فلا تُعَلِّقْ قلبَكَ بأحدٍ مِنَ النّاس، ولا تنتظر الخيرَ منهم؛ لأنَّ المُنتظِرَ لخيرِ النّاسِ وعطائِهم سيعتادُ على الأخذِ مِنَ النّاس واعتقادِ النَّفعِ منهم، فيبقى مع الأسبابِ وينْسَى المُسَبِّب، وقد يَجُرُّهُ ذلك إلى التَّمَلُّقِ للخلقِ والنِّفاقِ لهم طمعًا في المزيدِ مِنْ عطاياهم، وغيرِ ذلك مِنَ الأضرارِ القلبية، ولذلك يُجري

---

(١) رواه الخطابي في العزلة (٤٠).

(٢) رواه الخطابي في العزلة (٤٢).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٨٨).

الحَقُّ على أيدي العبادِ أنواعًا مِنَ الأذى حتّى لا يَرْكَنَ العبدُ إلى الخلق، لأنَّ هذا موجبٌ لسخطِ اللهِ وغَضَبِهِ، وسقوطِكَ مِنْ عينِ محبَّتِهِ، وأمَّا إذايةُ الخلقِ ويُعدُهُم عنكَ فرحمةٌ بِكَ، وأيضاً إذا اشتغلَ النّاسُ بِذَمّكَ وإضرارِكَ فانظرْ أنتَ مقامَكَ مع ربِّك، فإن كنتَ مع ربِّكَ صافياً فلا يكيدُكُ ولا يَضُرُّكَ شيء، كما قال الشيخُ عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه:

النّاسْ قالوا لـي بِدْعِي ... وانـا طريقـي مَهْجُورَه

إذا صَفِيتَ أَنَـا مَعْ رَبِّي ... العَبـدْ ما مِنْـهُ ضَرُورَه

وقال إبراهيم التَّيمي ـ رضي الله عنه ـ لبعضِ أصحابِهِ ما يقولُ النَّاس فِيَّ؟ قال: يقولون: إنّكَ مُرائي، قال: الآنَ طابَ العيش، قال بشر الحافي ـ حين بَلَغَهُ كلامُ التَّيمي: اكْتَفَى واللهِ بعلمِ اللهِ فلم يُحِبَّ أن يُدْخِلَ مع علمِ اللهِ علمَ غيره.

وقال سيدي ابن عطاء الله السكندري ـ رضي الله عنه ـ في حكمِه: «إنَّما أجرى الأذى عليهم كي لا تكونَ ساكناً إليهم، أراد أن يُزعِجَكَ عن كُلِّ شيءٍ حتى لا يُشغِلَكَ عنه شيء».

قال سيدي ابنُ عجيبة ـ رضي الله عنه: إذ محالٌ أن تَشهدَهُ وتشهدَ معه سواه، أو تُحِبَّهُ وتُحِبَّ معه سواه، أَبَتِ المحبّةُ أن تَشهَدَ غيرَ محبوبِها، قال في «لطائف المنن»: اعلم أنَّ أولياءَ اللهِ تعالى حكمُهُم في بدايتهم أن يُسلَّطَ الخلقُ عليهم لِيَتَطَهَّرُوا مِنَ البقايا، وتكْمُلَ فيهم المزايا، وكي لا يُساكِنُوا هذا الخلقَ باعتمادٍ أو يميلوا إليهم باستناد.

قال الشيخ أبو الحسن ـ رضي الله عنه: آذاني إنسانٌ مرّةً فَضِقْتُ ذَرْعاً بذلك، فَنِمْتُ

فرأيتُ يقالُ لي: مِنْ علامةِ الصّدّيقيّة كثرةُ أعدائِها ثــمَّ لا يبالي بهم)(١).

[حجج المائلين إلى المخالطة]

وأما المائلون إلى المخالطةِ فاحتجُّوا بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥]، الآيةَ، وبقولِهِ تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فامتنَّ على الناس بالسببِ المؤلِّفِ.

وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ المرادَ تفرُّقُ الآراءِ واختلافُ المذاهبِ في معاني الكتابِ وأصولِ الشريعة، والمرادُ بالألفةِ: نزعُ الغوائلِ مِنَ الصدور، وهي الأسبابُ المثيرةُ للفتنِ المحرِّكةُ للخصومات.

واحتجوا بقولِ ﷺ: «المُؤْمِنُ آلِفٌ مَأْلُوفٌ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ»(٢).

وهذا أيضاً ضعيفٌ؛ لأنَّه إشارةٌ إلى مذمّةِ سوءِ الخُلُقِ الذي يمتنعُ بسببِهِ المؤالفةُ، ولا يدخلُ تحتَهُ الحسنُ الخُلُقِ، الذي إن خالَطَ أَلِفَ وأُلِفَ، ولكنَّه تركَ المخالطةَ اشتغالاً بنفسِهِ وطلباً للسلامةِ مِنْ غيره.

واحتجُّوا بقولِهِ ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْراً خَلَعَ ربقةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِهِ»(٣).

وقوله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»(٤).

---

(١) ينظر: (إيقاظ الهمم) (٣٢٣. ٣٢٦) باختصار.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢/ ٤٠٠)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٣١).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٥٧).

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٠٧).

وهذا أيضاً ضعيفٌ؛ لأنَّ المرادَ به الجماعةُ التي اتَّفقتْ آراؤهم على إمامٍ، فالخروجُ عليهم بغيٌ، وذلك محظورٌ لاضطرارِ الخلقِ إلى إمامٍ مُطاعٍ، فالمخالفةُ فيها تشويشٌ مثيرٌ للفتنة، فليس في هذا تعرُّضٌ للعزلة.

[حجج المائلين إلى تفضيل العزلة]

وأما المائلون إلى تفضيلِ العزلةِ فاحتجُّوا بقولِهِ عزَّ وجلَّ في أصحابِ الكهفِ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦]، فقد أمرَهم بالعزلة.

وقد اعتزلَ نبيُّنا ﷺ قريشاً لمّا آذوهُ وجفوهُ، ودخلَ الشِّعْبَ، وأمرَ أصحابَهُ باعتزالِهم والهجرةِ إلى أرضِ الحبشةِ، ثم تلاحقوا به إلى المدينةِ بعدَ أن أعلى الله كلمتَهُ.

وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّه اعتزالٌ عن الكفارِ عندَ اليأسِ منهم، وليس فيه اعتزالٌ عن المسلمين، ولا على مَنْ يُتوقَّعُ إسلامُهُ مِنَ الكفار.

وكذا أهلُ الكهفِ ما اعتزلَ بعضُهم بعضاً وهم مؤمنون، وإنَّما اعتزلوا الكفارَ، وإنَّما النَّظرُ في العزلةِ مِنَ المسلمين.

واحتجُّوا بقولِهِ ﷺ لعبدِ الله بنِ عامرٍ الجهني رضي الله عنه لما قال: يا رسول الله ﷺ ما النجاة؟ قال: «لِيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[1].

وقولِهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ النَّقِيَّ الخَفِيَّ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).

وفي الاحتجاجِ بهذه الأحاديثِ نظرٌ؛ فإنَّه ﷺ عَرَفَ بنورِ النُّبوّةِ مِنْ حالِهِ أنَّ لزومَ البيتِ كان أليقَ به، وأسلمَ مِنَ المخالطة؛ فإنَّه لم يأمر جميعَ الصَّحابةِ بذلك.

وقولُهُ ﷺ: «إنَّ الله يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ النَّقِيَّ الخَفِيَّ» إشارةٌ إلى إيثارِ الخمولِ وتوقِّي الشُّهرة، وذلك لا يتعلَّقُ بالعزلةِ، فكم مِنْ راهبٍ معتزلٍ يعرفُهُ كافّةُ الناس؟ وكم مِنْ مخالطٍ خاملٍ لا ذكرَ له ولا شهرة؟ فهذا تعرَّضٌ لأمرٍ لا يتعلَّقُ بالعزلة.

فإذا ظهرَ أنَّ هذه الأدلةَ لا شفاءَ فيها مِنَ الجانبين، فلا بدَّ مِنْ كشفِ الغطاءِ بالتَّصريحِ بفوائدِ العزلةِ وغوائلِها، ومقايسةِ بعضِها بالبعضِ؛ ليتبيَّنَ الحقُّ فيها.

*

[فوائدُ العزلة]

اعلم أنَّ اختلافَ الناسِ في هذا يُضاهي اختلافَهم في فضيلةِ النّكاحِ والعزوبةِ، وقد ذكرنا أنَّ ذلك يختلفُ بالأحوالِ بحسب ما فصَّلناهُ مِنْ آفاتِ النّكاحِ وفوائدِهِ، فكذلك القولُ فيما نحنُ فيه.

ولنذكر أوّلاً فوائدَ العزلة:

فمنها: الفراغُ للعبادةِ والفكرِ، والاستئناسُ بمناجاةِ الله سبحانه وتعالى، والاشتغالُ باستكشافِ أسرارِ الله تعالى في أمرِ الدُّنيا والآخرة، وملكوتِ السَّماواتِ والأرض.

لذا كان ﷺ في ابتداءِ أمرِهِ يتبتَّلُ في جبلِ حراءٍ وينعزِلُ إليه، حتى قَوِيَ فيه نورُ النُّبوّةِ، فكانَ الخَلْقُ لا يحجبونَهُ عن الله، فكان ببدنِهِ مع الخلقِ، وبقلبِهِ مُقبِلاً على الله تعالى.

ولن يَتَّسِعَ الجمعُ بين مخالطةِ الناسِ ظاهراً والإقبالِ على الله سِرّاً إلا قوّةُ النُّبوّة، فلا ينبغي أن يغترَّ كلُ ضعيفٍ بنفسِهِ فيطمعَ في ذلك.

ولا يبعدُ أن تنتهيَ درجةُ بعضِ الأولياءِ إليه، فقد نُقِلَ عن الجنيد رحمه الله أنّه قال: (أنا أُكَلِّمُ الله منذُ ثلاثين سنةً والناسُ يظنُّونَ أنّي أُكلِّمُهم)[1]، وهذا إنَّما يتيسَّرُ للمُستغرِقِ بحبِّ الله استغراقاً لا يبقى لغيرِهِ فيه مُتَّسعٌ.

---

(١) ينظر: (التعرف لمذهب التصوف) (١٤٤).

قال مالكُ بنُ دينارٍ رحمه الله: (مَنْ لم يأنسْ بمحادثةِ الله عزَّ وجلَّ عن محادثةِ المخلوقين فقد قلَّ علمُهُ، وعَمِيَ قلبُهُ، وضيَّعَ عمرَهُ)[١].

فَمَنْ يتيسَّرُ له بدوامِ الذكرِ الأُنسُ بالله، وبدوامِ الفكرِ التَّحقُّقُ في معرفة الله، فالتَّجرُّدُ له أفضلُ مِنْ كلِّ ما يتعلَّقُ بالمخالطة؛ فإنَّ غايةَ العباداتِ وثمرةَ المعاملاتِ أن يموتَ الإنسانُ مُحِبّاً لله، عارفاً به، ولا محبّةَ إلا بالأُنسِ الحاصلِ بدوامِ الذِّكرِ، ولا معرفةَ إلا بدوامِ الفكرِ، وفراغُ القلبِ شرطُ كلِّ واحدٍ منهما، ولا فراغَ مع المخالطة.

(م: ومِنْ ثَمَّ قال أبو الحسنِ الشاذليُّ رحمه الله: ثمارُ العزلةِ الظَّفَرُ بمواهبِ المنّة، وهي أربعةٌ: كشفُ الغِطاء، وتنزُّلُ الرحمة، وتحقيقُ المحبّة، ولسانُ الصّدقِ في الكلمة[٢]).

ومنها: التَّخلُّصُ مِنَ الغيبةِ والنَّميمةِ والرياءِ، والسُّكوتِ عن الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكر، ومسارقةِ الطَّبعِ مِنَ الأخلاقِ الرديئةِ والأعمالِ الخبيثةِ التي يُوجِبُها الحرصُ على الدنيا، فلا يُجالِسُ الإنسانُ فاسقاً مدّةً مع كونِهِ منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاسَ نفسَهُ إلى ما قبلَ مجالستِهِ لأدركَ بينهما تفرقةً في النُّفرةِ عن الفسادِ واستثقالِهِ؛ إذ يصيرُ الفسادُ بكثرةِ المشاهدةِ هَيِّناً على الطَّبعِ.

ومنها: الخلاصُ مِنَ الفتنِ والخصوماتِ، وصيانةُ الدِّينِ والنَّفسِ عن الخوضِ فيها، وقلَّما تخلو البلادُ عن تعصُّباتٍ وفتنٍ، والمعتزلُ عنهم في سلامةٍ منها.

---

(١) رواه ابن حبان في روضة العقلاء (٨٥).

(٢) ينظر: (إيقاظ الهمم) (٣٠).

وروى عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ، إلاَّ مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ، وَمِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ، وَمِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ، كَالثَّعْلَبِ الَّذِي يَرُوغُ، قيل له: ومتى ذلك يا رسول الله ﷺ؟ قال: إِذَا لَمْ تُنَلِ المَعِيشَةُ إِلاَّ بِمَعَاصِي الله تَعَالَى، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ العُزُوبَةُ، قالوا: وكيف يا رسول الله ﷺ وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال: إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَانَ هَلاَكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدِ أَبَوَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ فَعَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله ﷺ؟ قال: يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ اليَدِ، فَيَتَكَلَّفُ مَا لاَ يُطِيقُ، حَتَّى يُورِدَهُ ذَلِكَ مَوَارِدَ الهَلَكَةِ»[1].

وهذا الحديثُ وإنْ كان في العزوبةِ فالعزلةُ مفهومةٌ منه؛ إذ لا يستغني المتأهِّلُ عن المعيشةِ والمخالطةِ، ثم لا ينالُ المعيشةَ إلا بمعصيةِ الله تعالى.

ولستُ أقولُ هذا أوانُ ذلك الزَّمان، فلقد كان هذا بأعصارٍ قبلَ هذا العصرِ، ولأجلِهِ قال سفيانُ الثوريُّ رحمه الله: (والله لقد حلَّتِ العزلةُ)[2].

ومنها: الخلاصُ مِنْ شرِّ الناسِ، وقطعُ أطماعِهِم.

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رحمه الله:

وَخَلِّ كُلَّ خَلِيٍّ وَاعْتَزِلْهُ تَفُزْ ... وفِرَّ بِالدِّينِ مِنْ دُنْيَاكَ وَانْهَزِمِ
وَفُرَّ مِنْهُمْ إِلَى شَعْفِ الْجِبَالِ تَفُزْ ... أَوْ مَوْقِعِ الْقَطْرِ وَاخْتَرْ قُنْيَةَ الْغَنَمِ[3]

---

(1) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٤٣٩)، والديلمي في الفردوس (٨٦٩٧).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٨٨).

(3) قوله: (شَعْفِ الجِبَالِ) أي رؤوسها، وقوله: (مَوْقِعِ القَطْرِ) أي: المواضع التي يستقرُّ فيها المطرُ كالأودية، وقولُهُ (قُنْيَةَ) هي ما اكتُسِبَ.

أَجْسَامُهُمْ إِنْ تَرَى تُعْجِبْكَ صُورَتُهَا أَسْرَارُهَا مِثْلُ خُشْبٍ مِنْ كَلَامِهِمِ

ثم بَيَّنَ حالةَ أهلِ الزمانِ الموجبة لتلك العزلة فقال:

وَبَعْدُ إِنِّي كَئِيبُ الْقَلْبِ ذُو حَزَنٍ لِمَا تَرَاكَمَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمِ[(١)]

اللهُ أَكْبَرُ مِنْ خَطْبٍ أَلَمَّ بِنَا فِي قَرْنِنَا الْعَاشِرِ الْمَشْحُونِ بِالْغُمَمِ[(٢)]

أَنْعِي إِلَى الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ شِرْعَتَهُ كَادَتْ تَؤُولُ مِنَ التَّبْدِيلِ لِلْعَدَمِ

طَمَّ الْفَسَادُ وَعَمَّ الْفِسْقُ وَانْحَرَفَتْ أَعِنَّةُ الْعَزْمِ عَنْ مِنْهَاجِ ذِي الْعَلَمِ[(٣)]

وَعَسْعَسَ الشَّرُّ بِالإِقْبَالِ مُصْطَلِمًا وَأَدْبَرَ الْبِرُّ فِي أَحْكَامِ مُنْهَزِمِ[(٤)]

شَمْسُ التُّقَى أَفَلَتْ بِذْرُ الرِّضَا انْتَقَلَتْ رَبْعُ الرَّشَادِ خَلَتْ مِنْ عَارِفٍ فَهِمِ[(٥)]

نُورُ الْعَفَافِ غَدَا يَا صَاحِ مُرْتَحِلًا مُذْ حَلَّ لَيْلُ الْهَوَى وَالزَّيْغِ فِي الْخِيَمِ

جَوَارِحٌ أُرْسِلَتْ فِي كُلِّ فَاحِشَةٍ مَصَالِحٌ أُهْمِلَتْ وَالنَّاسُ كَالْبُهُمِ

قُلُوبُهُمْ أَدْبَرَتْ نُفُوسُهُمْ كَفَرَتْ أَحْوَالُهُمْ غُيِّرَتْ عَنْ مَنْهَجٍ قَوِمِ

غَاضَ الْوَفَاءُ وَفَاضَ الْغَدْرُ وَانْدَرَسَتْ مَعَالِمُ الدِّينِ لَمْ تَشْهَدْ سِوَى الرُّسُمِ[(٦)]

عَمَّ الْبَلَاءُ وَطَمَّ الدَّاءُ وَاعْتَكَفُوا عَلَى مُخَالَفَةِ الْمَوْلَى بِلَا نَدَمِ

ثُمَّ الرِّبَا قَدْ رَبَا وَالْخَمْرُ قَدْ شُرِبَا مِنْ غَيْرِ مُعْتَرِضٍ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ

---

(١) قوله (ظُلَم): جمع ظُلْمَة.

(٢) قوله (خَطْبٍ أَلَمَّ بِنَا): أي مكروهٍ أصابنا، قوله (الغُمَم): جمع غُمَّة، وهي: الحُزْن أو الكُرْبة أو المصيبة.

(٣) قوله (طَمَّ الْفَسَادُ): أي عَلاَ وغَمَر، أو كثُر حتّى عظُم.

(٤) قوله (عَسْعَسَ الشَّرُّ): أي أقبل بظلامه وطاف على الناس، قوله (مُصْطَلِمًا): أي مُسْتَأْصِلاً ومُبِيْدًا.

(٥) قوله (أَفَلَتْ): أي غابت واستترت.

(٦) قوله (غَاضَ الْوَفَاءُ): أي نقص وذهب.

وَأَصْبَحَ الْخَلْقُ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ وَفِـي التَّفَاخُـرِ بِاللَّـذَّاتِ وَالنِّعَـمِ
أَكْلُ الْحَرَامِ فَشَـا بَيْنَ الخَلائِقِ لَمْ يُنْكِرْهُ ذُو مَنْصِبٍ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكَمِ
وَالظُّلْـمُ بَحْـرٌ بِلَا حَـدٍّ تَلاطُمُهُ مِـنْ كُلِّ فَـجٍّ بِأَمْـوَاجٍ مِـنَ الظُّلَمِ
لَا يَنْظُـرُونَ لِمَخْلُـوقٍ بِمَصْلَحَةٍ عُمْيٌ عَنِ الْحَقِّ خُرْسٌ كَامِلُو الْبُكَمِ
صُمٌّ فَلَا يَسْمَعُونَ الْوَعْظَ مِنْ أَحَدٍ تَبًّـا لَهُمْ أَبَـدًا سُـحْقًا إِلَـى الْعَدَمِ
يُجَـدِّدُونَ أُمُـورًا لَا أُصُـولَ لَهَا وَيَهْدِمُـونَ الْهُدَى جَهْـلًا بِنَصْرِهِمِ
أَوَّاهُ مِـنْ بِـدَعٍ قَـدْ عَـمَّ غَيْهَبُهَا لِلْخَاصِ وَالْعَامِ وَالسُّلْطَانِ وَالْحَكَمِ
لَا يَعْرِفُـونَ إِلَهَ العَـرْشِ خَالِقَهُمْ وَلَا نَبِيًّـا وَلَا أَصْـلًا لِدِينِهِـمِ
لَيْسَـتْ لَهُـمْ هِمَّـةٌ إِلَّا بُطُونَهُمُ وَنَحْوَهَا مِنْ خَسِـيسِ الْقَدْرِ وَالنِّعَمِ
وَكُلُّ مَا قَدْ ذَكَرْنَا مِنْ مَفَاسِـدِهِمْ كَقَطْرَةٍ مِنْ بِحَارِ الْقُبْحِ فِي الشِّـيَمِ)

[فوائد المخالطة]

واعلم أنَّ فوائدَ المخالطةِ كثيرةٌ جداً، فمنها: التعليمُ والتَّعلُّمُ، والنَّفعُ والانتفاعُ، والتأديبُ والتأدُّبُ، والاستئناسُ والإيناسُ، ونيلُ الثوابِ وإنالتُهُ في القيامِ بالحقوق، واعتيادُ التواضعِ، واستفادةُ التجاربِ مِنْ مشاهدةِ الأحوالِ والاعتبارِ بها.

ومَنِ اعتزلَ قبل التعلُّمِ فهو في الأكثرِ مُضيِّعٌ أوقاتَهُ بنومٍ أو فكرٍ في هوسٍ، وغايتُهُ أن يستغرقَ الأوقاتَ بأورادٍ يستوعبها، ولا ينفكُّ في أعمالِهِ بالبدنِ والقلبِ عن أنواعٍ مِنَ الغرور، فَيَخيبُ سعيُهُ، ويبطلُ عملُهُ بحيث لا يدري، ولا ينفكُّ في اعتقادِهِ في الله وصفاتِهِ عن أوهامٍ يتوهَّمُها ويأنسُ بها، وعن خواطرَ

فاسدةٍ تعتريه فيها، فيكونُ في أكثرِ أحوالِهِ ضُحْكَةً للشيطان، وهو يرى نفسَهُ مِنَ العُبَّاد.

فالعلمُ هو أصلُ الدِّين، ولا خيرَ في عزلةِ العوامِّ والجُهّالِ، ولا تليقُ العزلةُ إلا بالعالِمِ الذي قصدُهُ بالعزلة سلامةُ الدِّين عن الآفات التي تولَّدتْ مِنَ المخالطة.

فلا ينبغي أن يكون معتزلاً في بيته وباعثُهُ على عزلتِهِ التَّكبُّرُ على إخوانِهِ، ومانعُهُ عن المحافلِ أن لا يُوقَّرَ أو لا يُقدَّمَ، أو يرى العزلةَ عنهم أرفعَ لمحلِّه وأبقى لطراوةِ ذكرِهِ بين الناس.

(ش: لذا قال ابنُ عطاء الله السكندري رحمه الله: «رُبَّما دَخَلَ الرِّياءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا ينظر الخَلْقُ إِلَيْكَ»[1]).

وقد يعتزلُ خيفةً مِنْ أن تظهرَ مقابِحُهُ لو خالَطَ، فيتَّخِذُ مِنَ البيتِ ستراً على مقابحِهِ؛ إبقاءً على اعتقادِ الناسِ في زهدِهِ وتعبُّدِهِ مِنْ غير استغراقِ وقتٍ في الخلوةِ بذكرٍ أو فكرٍ.

وعلامةُ هؤلاءِ أنَّهم يُحبُّون أن يُزاروا ولا يُحِبُّون أن يَزُوروا، ويفرحونَ بتقرُّبِ العوامِّ والسَّلاطينِ إليهم، واجتماعِهم على بابهم، وتقبيلِهم أيديَهم على سبيلِ التَّبرُّكِ، ولو كان الاشتغالُ بنفسِهِ هو الذي يُبَغِّضُ إليه المخالطةَ وزيارةَ الناسِ لَبَغَّضَ إليه زياراتَهم له، كما حُكِيَ عن الفضيلِ رحمه الله أنَّه كان جالساً وحدَهُ في المسجدِ الحرامِ، فجاء إليه أخٌ له، فقال: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة يا

---

(١) الحكمة (١٦٠) من الحكم العطائية.

أبا علي، فقال: هي والله بالمواحشةِ أشبهُ، هل تريدُ إلا أن تتزّينَ لي وأتزيّنَ لك، وتكذبَ لي وأكذبَ لك؟ إما أن تقومَ عنّي وإما أن أقومَ عنك.

وعن حاتمِ الأصمّ رحمه الله أنّه قال للأميرِ الذي زاره: (حاجتي أن لا أراك ولا تراني).

فَمَنْ ليس مشغولاً مع نفسِهِ بذكر الله فاعتزالُهُ عن الناسِ سببُهْ شدّةْ اشتغالِهِ بالناس؛ لأنَّ قلبَهُ متجرّدٌ للالتفات إلى نظرهم إليه بعينِ الوقار والاحترام، والعزلةُ بهذا السَّببِ جهلٌ.

وينبغي للمعتزل أن يرى بعزلتِهِ كفَّ الشَّرّ الذي يحصلُ مِنَ المخالطة، والخلاصَ مِنْ آفةِ القصورِ عن القيامِ بحقوقِ المسلمين، والتَّجرُّدَ بكنهِ الهمّةِ لعبادة الله، فيكون في خلوتِهِ مواظباً على العلمِ والعملِ والذّكرِ والفكرِ، ويكفّ عن سؤالِ أخبارِ الناس، وعن الإصغاءِ إلى أراجيفِ البلادِ وما به الناس مشغولون؛ فإنَّ كلَّ ذلك يغرسُ في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، وأحدُ مُهمّاتِ المعتزِلِ قطعُ الوساوسِ الصَّارفةِ عن ذكرِ الله، والأخبارُ ينابيعُ الوساوسِ وأصولُها.

وأن يكون صبوراً على ما يلقاه مِنْ أذى الجيران، ويَسُدَّ سمعَهُ عن الإصغاء إلى ما يُقالُ فيه مِنْ ثناءٍ عليه بالعزلة، أو قدحٍ فيه بتركِ الخُلطة؛ فإنَّ كلَّ ذلك يُؤثّرُ في القلب، ولا بُدَّ أن يكونَ واقفاً عن سيره في طريق الآخرة؛ فإنَّ السيرَ إمَّا بالمواظبةِ على وردٍ وذكرٍ مع حضورِ القلب، وإمَّا بالفكرِ في جلالِ الله وصفاتِهِ وأفعالِهِ وملكوتِ سماواته، وإمَّا بالتأمُّلِ في دقائقِ الأعمالِ ومُفسداتِ القلوبِ وطرقِ التَّحصُّنِ منها.

ولا يَتِمُّ له الصَّبرُ في العزلةِ إلا بقطعِ الطَّمعِ عن الدُّنيا وما فيه الناس مُنهمِكون، ولا ينقطعُ طمعُهُ إلا بقصرِ الأملِ، بأن لا يُقدِّرَ لنفسِهِ عمراً طويلاً، بل يصبحُ على أنه لا يُمسي، ويُمسي على أنَّه لا يُصبِحُ.

وأن يكونَ كثيرَ الذِّكرِ للموتِ ووحدةِ القبرِ مهما ضاقَ قلبُهُ مِنَ الوحدة، فَمَنْ لم يحصل في قلبه مِنْ ذكرِ الله ومعرفتِهِ ما يَأنَسُ به لا يطيقُ وحشةَ الوحدةِ بعد الموت، وقد قيل: مَنْ أراد الله أن ينقلَهُ مِنْ ذلِّ المعصيةِ إلى عزِّ الطاعةِ آنسَهُ بالوحدةِ، وأغناه بالقناعة، وبَصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ، فَمَنْ أُعطِيَ ذلك فقد أُعطِيَ الخيرَ كلَّه.

ومَنْ أَنِسَ بذكرِ الله ومعرفتِهِ لا يُزِيلُ الموتُ أُنْسَهُ؛ إذ لا يَهْدِمُ الموتُ محلَّ الأُنسِ والمعرفة، بل يبقى حيّاً بمعرفتِهِ وأُنْسِهِ، فَرِحاً بفضل الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

وكلُّ مُتجرِّدٍ لله في جهادِ نفسِهِ فهو شهيدٌ مهما أدركه الموتُ، فالمجاهدُ مَنْ جاهدَ نفسَهُ وهواه، كما صرح به رسول الله ﷺ[1]، والجهادُ الأكبرُ جهادُ النَّفسِ، كما قال بعضُ الصَّحابة رضي الله عنهم: قد رجعنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهاد الأكبر.

لأن الموت بالسيف يكون مرة واحدة
أما الموت بالتصرف فهو مستمر لا يتوقف

* * *

(١) رواه الترمذي (١٦٢١)، وابن حبان في صحيحه (٤٦٢٤).

الكتاب السابع من ربع العادات
في آداب السفر

(سافروا تستغنوا)[1]

(ش: قال ابن البنا السَرَقُسْطِيّ رضي الله عنه في المباحث الأصلية:

وإنَّما القومُ مسافرونَ لِحضرةِ الحقِّ وظاعِنُونَ
فَافتقَرُوا فيهِ إلى دَلِيلِ ذِيْ بصرٍ بِالسَّيرِ والمَقِيلِ
قد سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عادَ لِيُخْبِرَ القَوْمَ بما استفادَ

اعلم أنَّ السفرَ سفران: سفرٌ بظاهرِ البدنِ عن المستقرِّ والوطنِ إلى الصَّحارى والفلوات، وسفرٌ بسيرِ القلبِ عن أسفلِ السافلين إلى ملكوتِ السماوات، وأشرفُ السفرين السفرُ الباطنُ.

فإنَّ الواقفَ على الحالةِ التي نشأ عليها عَقيبَ الولادةِ، الجامدَ على ما تلقَّنه بالتقليدِ مِنَ الآباء والأجدادِ لازمٌ درجةَ القصورِ، وقانِعٌ برتبةِ النَّقصِ، ومستبدلٌ بمتَّسعِ فضاءِ جنَّةٍ عَرْضُها السَّموَاتُ والأرْضُ ظلمةَ السِّجنِ وضيقَ الحبسِ، وقد صدق القائل:

ولَم أرَ في عُيُوبِ النَّاسِ عَيْباً كَنَقْصِ القادِرِينَ على التَّمامِ[2]

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٣١٢).

(٢) البيت من الوافر، وهو للمتنبي في (ديوانه بشرح العكبري) (٤/ ١٤٥).

إلا أنَّ هذا السفرَ لمّا كان مُقتحِمُهُ في خطبٍ خطيرٍ، لم يستغنِ فيه عن دليلٍ وخفيرٍ، فاقتضى غموضُ السَّبيلِ، وفقدُ الخفيرِ والدَّليل، وقناعةُ السالكين عن الحظِّ الجزيلِ بالنَّصيبِ النازلِ القليلِ اندراسَ مسالكِهِ، فانقطعَ فيه الرِّفاقُ، وخلا عن الطائفين مُتنزَّهاتُ الأنفسِ والملكوتِ والآفاقِ.

(ش: قال ابنُ البنا السرقسطي رضي الله عنه في المباحث الأصلية واصفاً حالَ الطريق، ومتأسِّفاً على ما حَصَلَ مِنْ أبنائِها مِنَ الفتورِ وعدمِ التَّحقيق:

يا سائلاً عن سَنَنِ الفقيرِ ... سألتَ ما عَزَّ عَنِ التَّحريرِ

إنَّ الذي سألتَ عنه ماتَ ... وصارَ بَعْدُ أعظماً رفاتَ

فَطُمِسَتْ أعلامُهُ تحقيقاً ... فَلَمْ تَجِدْ بَعْدُ لها طريقاً

إلا رُسُوماً ربَّما لم تَعْفُ ... وذَاكَ ما نَتْبَعُهُ ونَقْفُ

يا حسرتى إذْ لا مُجِدَّ راكبْ ... يَصْحَبُنا في هذِهِ المراكِبْ

واأَسَفاً يا فِتيةَ الوُصُولِ ... على انْصرامِ حَبْلِها الموصولِ

واعلمْ رَعاكَ اللهُ مِنْ صَدِيقِ ... أنَّ الورى حادُوا عَنِ التَّحقيقِ

إذْ جَهِلُوا النُّفُوسَ والقُلُوبا ... وطَلَبُوا ما لم يَكُنْ مَطْلُوبا

واشْتَغَلُوا بعالَمِ الأبدانِ ... فَالكُلُّ ناءٍ لَيْسَ مِنْهُمُ دانِ

وأَنْكَروا ما جَهِلُوا وزَعَمُوا ... أَنْ لَيْسَ بعدَ الجِسْمِ شيءٌ يُفْهَمُ)

وإلى السَّفرِ الباطنِ دعا الله سبحانه وتعالى بقولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]، وبقولِهِ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، وعَلَى القعودِ عنْ هذا السَّفرِ وَقَعَ الإنكارُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]، وبقولِهِ

تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

(م: ولهذا السفرِ الباطنِ عِدّةُ مراحلَ، وقد فصّلَها وبيّنَ خصائصَها العارفُ بالله تعالى أحمد سعد العقاد ﷺ أحسنَ بيانٍ حيث قال: السالكُ مسافرٌ مِنَ الآثارِ إلى الآيات، ومِنَ الآياتِ إلى التجليات، ومِنَ التَّجلّياتِ إلى مجلى الذات، ثم الرُّجوع إلى الأكوانِ ليُفيضَ عليها أسرارَ الكمالات، والسَّفرُ هو توجُّهٌ إلى الله تعالى، وهو سفرٌ إلى الله، وسفرٌ بالله، وسفرٌ في الله، وسفرٌ عن الله.

فالسَّفرُ الأولُ، السفرُ إلى الله: وهو جهادُ النَّفسِ وحربُها، وتحمُّلُ المشاقِّ والصُّعوباتِ في سبيل الله، وكثرةُ الأذكارِ، وقطعُ عقباتِ النَّفسِ، وهذه المرحلةُ هي أصعبُ مراحلِ السَّفرِ على المريد؛ لأنَّ السالكَ فيها مُلاحِظٌ لنفسِهِ، مُفتخِرٌ بجهاده، واقفٌ عند مظاهرِ حِسِّهِ، وهي رتبةُ التكليفِ التي يقومُ بها العبدُ لمشاقِّ الكافةِ وعناءِ الجهاد.

المرحلةُ الثانيةُ، السفرُ بالله: وهي عبارةٌ عن شعورِ العبدِ بمدد الله، ودخولِهِ في دائرةِ لا حول ولا قوة إلا بالله، فتشرق عليه أنوارُ لطائفِ القلب، وتنفتحُ له أنوارُ القربُ والقبول، ويشهدُ بعيونِ القلبِ آياتِ الله، ويتمتَّعُ بجمال الله، ويتمتَّعُ بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهذه هي مرحلةُ التَّعريف، فيتعرَّفُ له الحقُّ في كلِّ مظهرٍ، ويعرفُ آياتِ الله في كلِّ أثر، وهي مرحلةٌ برزخيّةٌ جامعةٌ بين أسرارِ الملكوتِ وأسرارِ الملكِ.

المرحلة الثالثة، السفر في الله: وهي عبارةٌ عن إشراقِ أنوارِ الأسماءِ

والصّفاتِ، وإحاطةِ تلك المعاني بالعبدِ مِنْ كلِّ الجهات، فتخفى الآثارُ وتظهرُ الأنوار، ويأتمنُ الحقُّ العبدَ على الأسرار، وهي مرتبةُ الوصولِ إلى الرُّوحِ وأسرارِها، وهذا مقامُ التَّشريفِ الذي يتلذَّذُ العبدُ منه بمشاقِّ العبادة، ويتشرَّفُ بمثولِهِ بين يدي مولاه في كلِّ أنفاسِهِ، ولا يزالُ العبدُ في هذه المرحلةِ يتمتَّعُ بأسرارِ الواحدية، ويُكاشِفُهُ الحقُّ بمقام الدُّنوِّ والتَّدلِّي وقابَ قوسينِ أو أدنى، فتنتفي الغيريّة، وتنمحي الاثنينيّة، ويتفانى العبدُ في حبيبِهِ بالكُلّيّة، فَيَتِمُّ للعبدِ الكمال.

المرحلةُ الرابعة، السَّفرُ عن الله في الله بالله: وهو رجوعُ العبدِ إلى الأكوان؛ لِيَدُلَّهم على الرحمن، وهو مقامُ البقاء بالله، وإفاضةُ الكمالِ على خلق الله، والوراثةُ الكبرى للأنبياء، جَعَلَنا الله مِمَّنْ تحقَّق بهذا المقامِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قدير).

فَمَنْ تَيَسَّرَ له هذا السَّفرُ لم يزل في سيرِهِ مُتنزِّهاً في جنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ وهو ساكنٌ بالبدنِ، مُستقِرٌّ في الوطن، وهو السَّفرُ الذي لا تضيقُ فيه المناهلُ والموارد، ولا يضرُّ فيه التزاحمُ والتوارد، بل تزيدُ بكثرةِ المسافرين غنائمُهُ، وتتضاعَفُ ثمراتُهُ وفوائدُهُ، فغنائمُهُ دائمةٌ غيرُ ممنوعة، وثمراتُهُ متزايدةٌ غيرُ مقطوعة، إلا إذا وَقَعَ للمسافرِ فترةٌ في سفرِهِ ووَقْفَةٌ في حركتِهِ، فإنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يُغيِّروا ما بأنفسِهم، وإذا زاغوا أزاغَ الله قلوبَهم، وما الله بظلَّامٍ للعبيد.

ومَنْ لم يُؤهَّل للجولانِ في هذا الميدان، والطَّوافِ في متنزَّهاتِ هذا البستانِ ربَّما سافرَ بظاهرِ بدنِهِ في مدَّةٍ مديدةٍ فراسخَ معدودةً.

(م: قال ابنُ عطاءِ الله السكندريُّ رحمه الله: «لا تَرْحَلْ مِنْ كونٍ إلى كونٍ فتكونَ

كحِمَارِ الرَّحى يسير، والمكانُ الذي ارتحلَ إليه هو الذي ارتَحَلَ منه، ولكنْ ارحَلْ مِنَ الأكوانِ إلى المكوّن؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]»(١)).

بيانُ آدابِ السَّفرِ الظاهرِ

(م: وأمَّا الآدابُ المطلوبةُ في السَّفرِ الظاهرِ فهي كثيرةٌ، وقد لَخَّصَ جملةَ هذهِ الآدابِ القطبُ ابنُ مشيش رحمه الله فيما أوصى به الشاذليَّ رحمه الله حيثُ قال: «لا تَنْقُلْ قدميكَ إلّا حيثُ ترجو ثوابَ الله، ولا تجلِسْ إلّا حيثُ تأمَنُ غالباً مِنْ معصية الله، ولا تُصاحِبْ إلا مَنْ تستعينُ به على طاعةِ الله، ولا تَصْطَفِ لنفسِكَ إلّا مَنْ تزدادُ به يقيناً بالله، وقليلٌ ما هُم».

وينبغي أن يكونَ له نيّةٌ حسنةٌ في سفرِهِ، كطلبِ العلمِ أو صلةِ الرَّحمِ أو نحو ذلك، وبقدرِ ما يُعدِّدُ مِنَ النِّيّات يحصلُ له مِنَ الخيرات.

قال ابنُ البَنَّا السرقسطيُّ رحمه الله في المباحث الأصلية مُبيِّناً مقاصدَ الصُّوفيّةِ وحالَهُم في السَّفر:

مَذْهَبُهُمْ في جَوْلَةِ البُلْدانِ ... زِيارَةُ الشُّيوخِ والإخْوانِ
ثُمَّ اقتباسُ العِلْمِ والآثارِ ... أَوْ رَدُّ ظُلْمٍ أَوْ لِلاِعْتِبَارِ
أَوْ لِلْخُمُولِ أَوْ لِنَفْيِ الجَاهِ ... أَوْ لِلرَّسُولِ أَوْ لِبَيْتِ اللهِ
ولَمْ تكُنْ أَسْفَارُهُمْ تَنَزُّهَا ... بَلْ كَانَ فِيْهَا نَحْوَهُ التَّوَجُّهَا
وَكَرِهُوا تَضْيِيعَهُ أَوْرادَهْ ... كَيْفَ وقَدْ جاءَ إلى الزِّيادهْ
ومَنْ يُسافِرْ في هَوَى النُّفوسِ ... فَإنَّما يُؤمَرُ بالجُلُوسِ)

---

(١) الحكمة (٤٢) من الحكم العطائية.

وينبغي للمسافرِ أن يبدأ بردِّ المظالِمِ، وقضاءِ الدُّيون، وإعدادِ النَّفقةِ لِمَن تلزمُهُ نفقتُهُ، وردِّ الودائعِ إن كانت عنده، ويختار رفيقاً فلا يخرج وحدَهُ، وقد نهى ﷺ أن يُسافِرَ الرَّجلُ وحدَهُ فقال ﷺ: «الرَّاكِبُ شَيْطانٌ، والراكبانِ شيطانانِ، والثلاثةُ ركبٌ»[(١)].

وقال أيضاً ﷺ: «إِذَا كُنتُمْ ثَلاثَةً فِي السَّفَرِ فَأَمِّرُوا أَحَدَكُمْ»[(٢)]، وكانوا يفعلونَ ذلك، ويقولون: هذا أميرٌ أَمَّرَهُ رسولُ الله ﷺ، وقال ﷺ: «خَيْرُ الأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ»[(٣)]، وليُؤمِّروا أحسنَهم أخلاقاً، وأرفقَهم بالأصحاب، وأسرعَهم إلى الإيثارِ وطلبِ الموافقة.

وينبغي أن يكون رفيقُهُ مِمَّنْ يُعينه على الدِّين، فيُذكِّرُهُ إذا نَسِيَ، ويُساعِدُهُ إذا ذَكَرَ؛ فإنَّ المرءَ على دينِ خليلِهِ، ولا يُعرَفُ الرَّجلُ إلا برفيقِهِ.

ويُودِّعُ رفقاءَ الحضرِ والأهلَ والأصدقاءَ، ويدعو عندَ الوداعِ لهم بدعاءِ رسولِ الله ﷺ، قال موسى بنُ وردان: أتيتُ أبا هريرةَ رضي الله عنه أُودِّعُهُ لسفرٍ أردتُهُ، فقال: ألا أُعَلِّمَكَ يا ابنَ أخي شيئاً عَلَّمَنِيهِ رسولُ الله ﷺ عندَ الوداعِ؟ فقلتُ: بلى، قال: قل: «أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الذي لا تضيعُ ودائعُهُ»[(٤)].

قال بعضُهم: صحبتُ عبدَ الله بنَ عمرَ رضي الله عنهما مِنْ مكةَ إلى المدينةِ حَرَسَها الله، فلمّا أردتُ أن أُفارِقَهُ شَيَّعني وقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٨٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٦١١).

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠٢٦٩)، وابن ماجه (٢٨٢٥).

«قَالَ لُقْمَانُ: إِنَّ الله عزَّ وجلَّ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئاً حَفِظَهُ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ»[١].

وقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَراً فَلْيُوَدِّعْ إِخْوَانَهُ، فَإِنَّ الله تَعَالَى جَاعِلٌ لَهُ فِي دُعَائِهِمُ البَرَكَةَ»[٢].

وكان ﷺ إذا وَدَّعَ رجلاً قال: «زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى، وَغَفَرَ ذَنْبَكَ، وَوَجَّهَكَ إِلَى الخَيْرِ حَيْثُ تَوَجَّهْتَ»[٣]، فهذا دعاءُ المقيمِ للمُوَدِّعِ.

وينبغي أن يُصلِّيَ قبلَ السَّفرِ صلاةَ الاستخارةِ، ويقولَ بعدَ الاستخارةِ هذا الدُّعاءَ: «اللهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفر، والخليفةُ في الأهلِ والمالِ والولدِ والأصحابِ، احفظنا وإيَّاهم مِنْ كلِّ آفةٍ وعاهةٍ».

وأن يُصلِّيَ قبلَ الخروجِ ركعتين وهما سنةُ السَّفر، قال رسول الله ﷺ: «مَا خَلَفَ عَبْدٌ عَلَى أَهْلِهِ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يَرْكَعُهُمَا عِنْدَهُمْ حِينَ يُرِيدُ سَفَرًا»[٤].

ويرحلُ عن المنزلِ بكرةً؛ روى جابرٌ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ رحلَ يومَ الخميسِ وهو يريدُ تبوكَ وبكَّرَ، وقال ﷺ: «اللهُمَّ بارِكْ لأمَّتي في بُكُورِها»[٥].

ويُستحَبُّ أن يبدأَ بالخروجِ يومَ الخميسِ؛ فإنَّه ﷺ قلَّما خرَجَ إلى سفرٍ إلا يومَ الخميسِ[٦].

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠٢٧٣).

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٠٥).

(٣) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٠٦)، وبنحوه عند الترمذي (٣٤٤٤).

(٤) رواه الطبراني كما قال النووي في (الأذكار) (٣٦٠).

(٥) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٣٥) بلفظ المصنف، وبنحوه عند أبي داود (٢٦٠٦).

(٦) رواه البخاري (٢٩٤٩).

والتَّشيعُ للوداعِ سُنّةٌ، قال ﷺ: «لَأَنْ أُشيِّعَ مُجاهِداً في سبيلِ الله فَأَكْنُفَهُ على رَحْلِهِ غَدوةً أو رَوْحةً أَحَبُّ إليَّ مِنَ الدُّنيا وما فيها»[1].

وينبغي أن لا ينزلَ حتى يحمى النَّهارُ، فهو سُنّةٌ، فإذا نَزَلَ المنزلَ فليصلِّ ركعتين، ثم ليقلْ: (أعوذُ بكلماتِ الله التامّاتِ التي لا يُجاوِزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما خَلَقَ)[2].

ومهما خافَ الوَحشةَ في سفرِهِ قال: (سُبْحانَ الملكِ القُدُّوسِ، ربِّ الملائكةِ والرُّوح، جللتَ السَّماواتِ بالعزَّةِ والجبروت)[3].

واعلم أنَّ مَنْ خرجَ متوكِّلاً مِنْ غير زادٍ فلا بأسَ به إنْ كان سفرُهُ في قافلةٍ أو بين قرىً مُتَّصلةٍ.

وإن رَكِبَ الباديةَ وحدَهُ أو مع قومٍ لا طعامَ معهم ولا شرابَ، فإن كان مِمَّنْ يصبرُ على الجوعِ أسبوعاً أو عشراً، ويقدرُ على أن يجتزئَ بالحشيشِ فله ذلك، وإن لم يكن له قوّةُ الصَّبرِ على الجوعِ ولا القدرةُ على الاجتزاء بالحشيش فخروجُهُ مِنْ غير زادٍ معصيةٌ؛ فإنَّه ألقى نفسَهُ بيدِهِ إلى التهلكة، ولهذا سرٌّ سيأتي في كتابِ التَّوكُّلِ.

وليس معنى التَّوكُّلِ التباعدَ عن الأسبابِ بالكلية، ولو كان كذلك لَبَطَلَ التَّوكُّلُ بطلبِ الدَّلوِ والحبلِ، ونزحِ الماءِ مِنَ البئر، ولَوَجَبَ أن يصبرَ حتَّى يُسخِّرَ الله مَلَكاً أو شخصاً آخرَ حتَّى يصبَّ الماءَ في فيه، فإن كان حفظُ الدَّلوِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٢٤). أكنفه: أعينه عليه

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨) بنحوه.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٤).

والحبلِ لا يقدحُ في التوكُّلِ، وهو آلةُ الوصولِ إلى المشروب، فَحَمْلُ عينِ المشروبِ والمطعومِ حيثُ لا يُنتظرُ له أولى بأن لا يَقْدَحَ فيه، وحقيقةُ التوكُّلِ مُلتبِسٌ إلا على المحقِّقين مِنْ علماءِ الدِّين.

* *

الكتاب الثامن من ربع العادات
في آداب السماع والوجد

(لكلِّ شيءٍ قوتٌ، وقوتُ الأرواحِ السَّماع؛ لأنَّه صادرٌ عن الحقِّ وراجعٌ إليه)

(ش: إنَّ السَّماعَ الصوفي ـ عند أصحاب الحقيقة والذوق ـ ليس بالشعرِ والإنشادِ والغناءِ والدندنةِ كما قد يُتوَهَّمُ، وإنما هو دروسٌ علميَّةٌ توجيهيَّةٌ تربويةٌ، وتوحيديةٌ عِرفانيَّةٌ ذوقيَّةٌ، يُقصَدُ مِنْ خلاله تقويمُ الفهمِ عن الله وبه، وتنشيطُ القلبِ والروح، وتقويةُ الباطنِ على تحمُّلِ أعباءِ العملِ بالكتاب والسنة.

ولذا فإنَّ التصوُّفَ القائمَ على ذكرِ الله تعالى وتلاوةِ القرآن، وسماعِ القصائدِ الروحيةِ، والحقائق الإلهية، والأمداح النبوية له هدفٌ سامٍ، ومنهاجٌ متكاملٌ يجمع بين صلاح الظاهر وصلاح الباطن.

والغايةُ المنشودةُ مِنَ السماعِ الإرشادُ والوعظُ؛ حيث إنَّ مِنْ طبيعةِ السماعِ إثارةَ كوامنِ النفوسِ، وتهييجَ مكنوناتِ القلوب، بما فيها مِنَ الأنسِ بالحضرة القدسية، والشوقِ إلى الأنوار المحمدية، ولذا اهتمَّ السادةُ الصوفيةُ بالسماع وقصدوا به ترقية الحال، ولم يحتجبوا بحسن الأصوات.

ولأجلِ ما ذكرنا مِنْ أهمية السماعِ مَدَحَ الصوفيةُ السَّماعَ، فقد قال أبو طالب المكي قدس سِرُّهُ: مَنْ طَعَنَ في السَّماعِ فقد طَعَنَ في سبعين صِدِّيقاً.

وقال السهروردي رحمه الله تعالى: المنكرُ للسماعِ إما جاهلٌ بالسُّننِ والآثار، وإما جاهلٌ بالطبعِ لا ذوق له، وأشار بالسنن إلى ما صح عنه ﷺ أنَّه كان له شعراء يصغي إليهم في المسجدِ وغيره، منهم حسان بن ثابت وابن رواحة، واستنشد أمية بن الصلت واستمع إليه كما في مسلم.

وقال العز بن عبد السلام: أما سماعُ الإنشادِ المُحرِّكِ للأحوال السنيةِ، المُذكِّرِ للأمورِ الأخروية فلا بأسَ به، بل يُندَبُ عند الفتورِ وسآمة القلب، ولا يُحظَرُ إلا لِمَنْ في قلبه هوى خبيث؛ فإنَّه يُحرِّكُ ما في القلب.

وقال ابنُ عبدِ البر: لا يُنكِرُ الحَسَنَ مِنَ الشِّعرِ أحدٌ مِنْ أهل العلمِ ولا مِنْ أولي النُّهى، وليس أحدٌ مِنْ كبار الصحابةِ وأهلِ العلمِ وموضعِ القدوةِ إلا وقد قال الشِّعرَ، أو تَمَثَّلَ به، أو سَمِعَهُ فَرَضِيَهُ.

وقد فصل الشيخ عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي رحمه الله تعالى في السماع فقال: إن السَّماعَ ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حرامٌ محضٌ، وهو لأكثرِ الناسِ مِنَ الشبابِ ومَنْ غَلَبَتْ عليهم شهواتهم ولذاتهم، ومَلَكَهُم حُبُّ الدُّنيا.

والقسم الثاني: مباح، وهو لِمَنْ لا حظَّ له منه إلا التلذُّذ بالصوت الحسن، واستدعاء السرور والفرح.

والقسم الثالث: مندوب، وهو لِمَنْ غَلَبَ عليه حُبُّ الله تعالى والشوق إليه، فلا يُحرِّكُ السَّماعُ منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعفَ الشوقِ إلى الله تعالى، وهذا القسمُ الثالثُ هو سماعُ الصوفيةِ أهلِ الصِّدقِ والإخلاصِ في كلِّ زمانٍ[1].

---

(١) ينظر: (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) (١٥٣. ١٥٤).

وقد كان شيخ شيوخنا سيدي محمد الهاشمي ـ قدس سره ـ يقول: الإنشادُ نصفُ الإرشاد، وكان يقول: قصائدُ القومِ كلُّها متونٌ علميّةٌ.

وكان السَّماعُ ولم يزل أحدَ الوسائلِ الفعالةِ في التزكيةِ والتربية الروحيّة والأخلاقية والعرفانية، فقد كان شيخنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري ـ قدس الله سره ـ يُرَبِّي إخوانَه مِنْ خلالِ المذاكرةِ عبرَ الإنشاد.

وإنَّ مِنْ فوائدِ الإنشادِ أنَّه يحرك في النَّفسِ بواعثَ السرور، ويساعدُ على تجديدِ النشاطِ وتبديدِ السآمة، ويُكسِبُ المنشدَ الصِّفاتِ النبيلة والمثل العليا، ويزيدُ في تقويةِ المعارفِ وتوضيحِ المفاهيمِ بطريقةٍ شيّقةٍ، ويساعد على سريانِ حالِ المؤلِّفِ للقصيدة إلى مَنْ ينشدها، كما يعتبرُ الإنشادُ مِنْ أنواعِ الذكر؛ لِما يشملُ مِنْ ذكرِ الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وإنَّه يُعَدُّ أحدَ أشكالِ الدعوة إلى الله، وذلك لأنَّ القلوبَ تميلُ إلى سماعِ الألحانِ العذبةِ والأشعارِ المنمَّقة).

اعلم أنَّ القلوبَ والسرائرَ خزائنُ الأسرارِ ومعادِنُ الجواهرِ، وقد طُوِيَتْ فيها جواهرُها كما طُوِيَتِ النَّارُ في الحديدِ والحجرِ، وأُخْفِيَتْ كما أُخفِيَ الماءُ في الترابِ والمَدَرِ، ولا سبيلَ إلى استثارةِ خفاياها إلا بِقَوادِحِ السَّماع، ولا منفذَ إلى القلوبِ إلا مِنْ دهليزِ الأسماع، فالنَّغماتُ الموزونةُ المستلذَّةُ تُخرِجُ ما فيها، وتُظهِرُ محاسنَها أو مساويَها، فلا يظهرُ مِنَ القلبِ عندَ التَّحريكِ إلا ما يحويه، كما لا يرشحُ الإناءُ إلا بما فيه.

فالسَّماعُ للقلبِ محكٌّ صادقٌ، ومعيارٌ ناطقٌ، فلا تَصِلُ روحُ السَّماعِ إليه إلا وقد تحرَّكَ فيه ما هو الغالبُ عليه، فَمَنْ غَلَبَ عليه حبُّ الله تعالى واشتياقُهُ

إلى لقائِهِ فلا ينظر إلى شيءٍ إلا رآه فيه، ولا يقرعُ سمعَهُ قارعٌ إلا سمعَهُ منه أو فيه، فالسَّماعُ في حقِّه مُهيِّجٌ لشوقِهِ، ومُؤكِّدٌ لعشقِهِ وحُبّه، ومُورِ زِناد قلبه، ومُستخرِجٌ منه أحوالاً مِنَ المكاشفاتِ والملاطفاتِ لا يحيطُ الوصفُ بها، يعرفُها مَنْ ذاقها، وتُسمَّى تلك الأحوالُ بلسانِ الصُّوفيّةِ وجداً.

(م: يقولُ القطبُ الجيلانيُّ ﵁ واصفاً الوجدَ الحاصلَ مِنْ سماعِ ذكرِ الحبيب: «الذِّكرُ روحُ جنابِ الرحمة، يَهُبُّ نسيمُهُ على مشامِّ أرواحِ الذاكرين، فتهتزّ مِنْ نشواتِهِ أعطافُ الأرواحِ في أقفاصِ الأشباح، فتقوم العقولُ راقصةً في بساتين الصُّوَر، وتُخرِج الأسرارَ هائمةً في براري الوجد، وتنطق بلابلُ الشُّكرِ بما في خبايا الضَّمائر، ويحترق المُحِبُّ بنيرانِ التَّلَهُّفِ، ويغيب المشتاقُ عن نظرِ ذاتِهِ لشدّةِ التَّأسُّف، ويقول لسانُ الواجدِ ـ طرباً بِقُربِ الواحد: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]»[(١)]).

وحصولُ هذه الأحوالِ للقلبِ بالسَّماعِ سَبَبُهُ سِرُّ الله تعالى في مناسبةِ النَّغماتِ الموزونةِ للأرواح، وتسخيرُ الأرواحِ لها وتأثُّرها بها شوقاً، وفرحاً وحزناً، وانبساطاً وانقباضاً، ومعرفةُ السَّبَبِ في تأثُّرِ الأرواحِ بالأصواتِ مِنْ دقائقِ علومِ المكاشفاتِ، والبليدُ الجامدُ المحرومُ عن لذّةِ السَّماعِ يتعجَّبُ مِنَ التذاذِ المستمعِ وَوَجْدِهِ واضطرابِ حالِهِ وتغيُّرِ لونِهِ تعجُّبَ البهيمةِ مِنْ لذّةِ اللَّوْزِيْنَجِ[(٢)]، وتعجُّبَ العِنِّينِ مِنْ لذَّةِ المباشرةِ، وتعجُّبَ الجاهلِ مِنْ لذَّةِ معرفةِ الله سبحانه وتعالى ومعرفةِ جلالِهِ وعظمتِهِ وعجائبِ صُنْعِهِ.

---

(١) ينظر: (نظرات حول الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته) (٢٢٠- ٢٢١) لشيخنا العارف بالله الشيخ عبد الباقي مفتاح الجزائري.

(٢) اللَّوْزِيْنَج: نوعٌ مِنَ الحلوى يُشبِهُ القطائف، يُؤدَمُ بدهنِ اللَّوزِ، وهي لفظةٌ فارسيّةٌ.

ولعلَّكَ تقولُ: كيفَ يُتَصَوَّرُ العشقُ في حقِّ الله تعالى حتَّى يكونَ السَّماعُ مُحرِّكاً له؟

فاعلم أنَّ مَنْ عرفَ الله سبحانه أَحَبَّهُ لا محالةَ، ومَنْ تأكَّدَتْ معرفتُهُ تأكَّدَتْ محبَّتُهُ بقدرِ تأكُّدِ معرفتِه، والمحبّةُ إذا تأكَّدَتْ سُمِّيتْ عشقاً، فلا معنى للعشقِ إلا محبةٌ مؤكَّدةٌ مُفرطةٌ، ولذلك قالت العربُ: «إنَّ محمداً ﷺ قد عَشِقَ ربَّهُ» لمّا رأوهُ يتخلّى للعبادةِ في جبلِ حراءٍ.

واعلم أنَّ كلَّ جمالٍ محبوبٌ عندَ مُدرِكِ ذلك الجمالِ، والله تعالى جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ[1]، ولكنَّ الجمالَ إن كان بتناسبِ الخلقةِ وصفاءِ اللَّونِ أُدرِكَ بحاسّةِ البصرِ، وإن كان الجمالُ بالجلالِ والعظمةِ وعلوِّ الرتبةِ، وحسنِ الصِّفاتِ والأخلاقِ، وإرادةِ الخيراتِ لكافَّةِ الخلقِ، وإفاضتِها عليهم على الدوامِ إلى غير ذلك مِنَ الصِّفاتِ الباطنة أُدرِكَ بحاسَّةِ القلب.

واعلم أنَّ مَنْ غَلَبَ على قلبِهِ محبَّةُ الله جلَّ جلالُهُ تذكَّرَ بلفظِ «الوصال» لقاءَ الله تعالى، وتذكَّرَ بلفظِ «الفِراق» الحجابَ مِنَ الله تعالى، ولا يحتاجُ في تنزيل ذلك عليه إلى استنباطٍ وتفكُّرٍ ومُهلةٍ، بل تَسْبقُ المعاني الغالبةُ على القلبِ إلى فهمِهِ مع اللَّفظ، كما رُوِيَ عن بعضِ الشُّيوخِ أنَّه مَرَّ في السُّوقِ فَسَمِعَ واحداً يقولُ: «الخيارُ عشرةٌ بحبَّة»، فَغَلَبَهُ الوجدُ، فَسُئِلَ عن ذلك، فقال: إذا كان خيارُ النّاسِ عشرةٌ بحبّة فما قيمةُ أشرارهم؟

وقد قيل: مَنْ لم يُحرِّكْهُ الرَّبيعُ وأزهارُهُ، والشِّعرُ وآثارُهُ فهو فاسدُ المزاج، ليس له علاج.

---

(١) كما رواه مسلم (٩١).

وأما مَنْ غلبَ على قلبِهِ عشقُ مخلوقٍ لا يحلُّ النظرُ إليه، وكان ينزلُ ما يسمعُ على ما يميلُ في نفسِهِ كصورةِ صبيٍّ أو امرأةٍ لا يحلُّ النّظرُ إليها فالسّماعُ في حقِّهِ حرامٌ؛ لأنّه مُحرّكٌ للفكرِ في الأفعالِ المحظورة، وأكثرُ الفسّاقِ والسُّفهاءِ مِنَ الشَّبابِ في وقتِ هيجانِ الشّهوةِ لا ينفكّون عن إضمارِ شيءٍ مِنْ ذلك، ولذلك سئل حكيمٌ عن العشقِ فقال: دُخانٌ يصعدُ بدماغِ الإنسان، يُزيلُهُ الجِماعُ ويُهيّجُهُ السّماع.

وقد روى أبو أمامة رضي الله عنه عنه ﷺ أنّه قال: «مَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِغِنَاءٍ إلاّ بَعَثَ اللهُ لَهُ شَيْطَانَيْنِ عَلَى مَنْكِبَيْهِ يَضْرِبَانِ بِأَعْقَابِهِما عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى يُمْسِكَ»[1].

وهذا محمولٌ على الغناءِ الذي يُحرّكُ مِنَ القلبِ ما هو مرادُ الشّيطانِ مِنَ الشّهوةِ وعشقِ المخلوق، وأمّا ما يُحرّكُ الشّوقَ إلى الله تعالى فهذا يُضادُّ مرادَ الشيطان.

وأما مَنْ لم يَغْلِبْ عليه حُبُّ الله تعالى ليكونَ السّماعُ محبوباً في حقّه، ولا غَلَبَتْ عليه الشّهوةُ ليكونَ محظوراً في حقّه، يكونُ السّماعُ مباحاً له كسائرِ اللّذّاتِ المباحةِ، إلا أنّه إذا اتخذَهُ دَيْدَنَهُ وهِجّيراه، وقَصَرَ عليه أكثرَ أوقاتِهِ فهذا هو السّفيهُ الذي تُرَدُّ شهادتُهُ؛ فإنَّ المواظبةَ على اللهوِ جنايةٌ، وكما أنَّ الصّغيرةَ بالإصرارِ والمداومةِ تصيرُ كبيرةً، فبعضُ المباحاتِ بالمداومةِ تصيرُ صغيرةً، وهو كالمواظبةِ على متابعةِ الزُّنوجِ والحبشةِ والنَّظرِ إلى لعبِهم على الدوام، فإنّه ممنوعٌ وإنْ لم يكن أصلُهُ ممنوعاً؛ إذ فَعَلَهُ رسولُ الله ﷺ.

والسّماعُ في أوقاتِ السُّرورِ تأكيداً للسُّرورِ وتهييجاً له مباحٌ إن كان ذلك

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٤).

السُّرورُ مباحاً، كالغناءِ في أيَّامِ العيد، وفي العرسِ، وفي وقتِ قدومِ الغائبِ، ووقتِ الوليمةِ والعقيقةِ، وعند ولادةِ المولودِ، وعند خِتانِهِ، وعند حفظِهِ للقرآن العزيزِ، فكما جاز السُّرورُ به جازَ إثارةُ السُّرورِ فيه.

ويدلُّ على هذا مِنَ النَّقلِ إنشادُهُم بالدُّفِّ والألحانِ عندَ قدومِ رسولِ الله ﷺ:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنا مِن ثَنيّاتِ الوداع
وَجَبَ الشُّكْرُ علينا ما دعَا لله داع

فهذا إظهارٌ للسُّرورِ بقدومِهِ ﷺ، وهو سرورٌ محمودٌ، فقد نُقِلَ عن جماعةٍ مِنَ الصَّحابة رضي الله عنهم أنَّهم حَجَلوا في سرورٍ أصابَهم.

ورُوِيَ في الصحيحين عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّها قالت: (رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يسترني بردائِهِ، وأنا أنظرُ إلى الحبشةِ يلعبونَ في المسجد حتَّى أكونَ أنا الذي أسأمُهُ)(١).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه دخلَ عليها وعندها جاريتانِ في أيَّامِ منى تُدَفِّفانِ وتضربانِ والنَّبيُّ ﷺ مُتَغَشٍّ بثوبِهِ، فانْتَهَرَهُما أبو بكرٍ رضي الله عنه، فكشفَ النَّبيُّ ﷺ عن وجهِهِ وقال: «دَعْهُما يا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّها أَيَّامُ عِيدٍ»(٢).

واعلم أنَّ السماعَ إذا كان مِن امرأةٍ لا يَحِلُّ النَّظرُ إليها، ويُخشى الفتنةُ مِنْ سماعِها، ومِنَ الصَّبيِّ الأمردِ الذي يُخشَى فتنتُهُ حرامٌ لِمَا فيه مِنْ خوفِ الفتنةِ،

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٦)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) رواه البخاري (٩٨٨)، ومسلم (٨٩٢).

وليس هذا لأجلِ الغناء، بل لو كانت المرأةُ بحيثُ يُفتَنُ بصوتِها في المحاورةِ، فلا يجوزُ محادثتُها وسماعُ صوتِها في القرآن أيضاً، وكذلك الصبي الذي تخافُ فِتنتُهُ.

وما رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه سَمِعَ صوتَ الجاريتين المغنِّيَتَينِ في بيت عائشةَ رضي الله عنها[1] فلم تكن الفتنةُ مَخوفةً، فلا يُقاسُ الحدّادون بالملائكة، فإذاً يختلفُ هذا بأحوالِ المرأةِ وأحوالِ الرجلِ في كونه شاباً وشيخاً.

وينبغي أن لا يكونَ في مجلسِ السَّماعِ آلةٌ مِنْ شعائرِ أهلِ الشُّربِ والمخنَّثين، وهي: المزاميرُ والأوتارُ وطبلُ الكوبةِ، فهذه ثلاثةُ أنواع ممنوعة، وما عدا ذلك يبقى على الإباحةِ كالدُّفِّ وإنْ كان فيه الجلاجلُ، وكالطَّبلِ والشاهينِ والضَّربِ بالقضيبِ وسائرِ الآلات.

[كلام الصوفية والحكماء والوجد والسماع]

واعلم أنَّ للصوفيّةِ والحكماءِ في حقيقةِ الوجدِ كلاماً، وفي مناسبةِ السَّماعِ للأرواح لهم نظراً.

قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع: (إنَّه واردُ حقٍّ جاء يُزعِجُ القلوبَ إلى الحق، فَمَنْ أصغى إليه بحقٍّ تَحَقَّق، ومَنْ أصغى إليه بنفسٍ تزندق)[2]، وكأنَّه عبَّر عن الوجدِ بانزعاج القلوبِ إلى الحق، وهو الذي يجده عندَ ورود واردِ السماع، إذ سمَّى السماعَ واردَ حقٍّ.

---

(١) رواه البخاري (٩٨٨)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٥٤٨).

وقال الشّبليُّ رحمه الله: (السَّماعُ ظاهرُهُ فتنة، وباطنُهُ عبرة، فَمَنْ عرفَ الإشارةَ حَلَّ له سماعُ العِبرة، وإلا فقد استدعى الفتنةَ، وتعرّضَ للبليّة)[١].

وقال عمرُو بنُ عثمانَ المكيُّ رحمه الله: (لا يقعُ على كيفيّةِ الوجدِ عبارةٌ؛ لأنّه سِرُّ الله عندَ المؤمنين الموقنين)[٢].

وقال بعضُهُم: (الوجدُ مكاشفاتٌ مِنَ الحقّ)[٣].

وقال أبو سعيدِ بنُ الأعرابيّ رحمه الله: (الوجدُ أوّلُ درجاتِ الخصوص، وهو ميراثُ التّصديقِ بالغيب، فلمّا ذاقوه وسَطَعَ في قلوبهم نورُهُ زال عنهم كلُّ شكٍّ وريبٍ)[٤].

ولا يبعدُ أن يكونَ السَّماعُ سبباً لكشفِ ما لم يكن مكشوفاً قبلَهُ، فإنَّ الكشفَ يحصلُ بأسبابٍ:

منها: التّنبيهُ، والسَّماعُ مُنبِّهٌ.

ومنها: تغيُّرُ الأحوالِ ومشاهدتُها وإدراكُها، فإنَّ في إدراكِها نوعَ علمٍ يفيدُ إيضاحَ أمورٍ لم تكن معلومةً قبلَ الورود، والسَّماعُ مُغيِّرٌ للأحوال.

ومنها: صفاءُ القلبِ، والسَّماعُ يُؤثِّرُ في تصفيةِ القلب، والصفاءُ يُسبِّبُ الكشفَ، بل القلبُ إذا صفا رُبَّما تَمَثَّلَ له الحقُّ في صورةِ مشاهَدةٍ، أو في لفظٍ

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٥٤٨)، و(اللمع) (٣٤٢).

(٢) ينظر: (اللمع) (٣٧٥).

(٣) ينظر: (اللمع) (٣٧٥).

(٤) ينظر: (اللمع) (٣٧٦).

يَقْرَعُ سمعَهُ، يُعبَّرُ عنه بصوتِ الهاتفِ إذا كان في اليقظة، وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزءٌ مِنَ النبوة.

(ش: ينبغي للصُّوفيِّ ألّا يَستعمِلَ التّكلُّفَ في التَّأْويل، بل يَتوجَّهُ إلى اللهِ ـ تعالى ـ بباطنه، ويَقْبَلُ ما يَرِدُ مِنْ ذلك الجَنابِ، ولا يَشْتَغِلُ بأَلْحانِ المَغاني، ولا بِتَحسِيناتِ الأَغاني، ولا يَلْتفِتُ إلى الإِعرابِ، ولا إلى تَصرِيفِ الألفاظ، فَيَفُوتَه بذلكِ لُبُّ المَعنى، وينبغي له ألّا يَسْتَمِعَ في شيءٍ مِنَ الأكوانِ مِمّا يَتعلَّقُ بالدُّنيا أوِ الآخِرةِ، كالحُورِ والقُصُورِ، فإنّ جميعَ ذلك راجعٌ إلى شَهْوةِ النَّفْسِ وزِيادةِ الحَظِّ.

والمُسْتَمِعُون، وإنِ اشْتَرَكُوا في سَماعِ مُجرَّدِ الألفاظ، فقد تَبايَنُوا في سَماعِ مَعانِيها. فرُبَّ كَلِمةٍ مَوْضُوعةٍ لِمعنى القُرْبِ قَدْ يُفْهَمُ مِنها مَعنى البُعدِ، وبالعكس، وذلك على قَدْرِ مَقامِ المُستمِعِ. لكنْ أَشْرَفُ الفُهُومِ وأعلاها، وأَعَزُّها وأَجْلاها، وأَنْوَرُها وأحلاها، فَهْمٌ يُقرِّبُكَ إلى الله بأنواعِ الوَسائل، ولا يَحْجُبُكَ فِي مَعرِفتِه بالدَّلائِل. فارفَعْ هِمَّتَكَ في فَهْمِ المَعاني، عمّا دَلَّتْ عليهِ ظَواهِرُ الألفاظِ والأغاني، ممّا يقتضيه حالُ الوقت، فتكونَ ممّنْ قالَ الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

فمتى فُتِحَ على المُرِيدِ الفَهْمُ عنِ اللهِ في السَّماع، وظَهَرَ لَهُ تأويلُ ذلك فيما يُناسِبُ مَطْلُوبَه بِحُكْمِ حُسْنِ الِاستماع، يَجِدُ بذلك قُوّةً في قابِلِيّتِه لِفَهْمِ الكِتابِ العَزِيز، على قَدْرِ ما يُعلِّمُه اللهُ مِنْ تأويلِهِ في ذلك[1].

---

(١) ينظر: (غُنْية أربابِ السَّماع) لِلمُحقِّقِ الكامِلِ الشَّيخ عبدِ الكريمِ الجِيليِّ (٢٨. ٢٩).

والسَّماعُ يكون على ثلاثةِ أَوْجُهٍ: بالطَّبْعِ، أوْ بالحال، أو بالحَقِّ. فمَنْ يَسْمَعُ بِطَبْعِهِ اشتَرَكَ فيه الخاصُّ والعامُّ، وكُلُّ ذي رُوحٍ يَستطِيبُ الصَّوْتَ الطَّيِّب، ومَنْ يَسْمَعْ بحالِه، إذا طَرَقَ سمعَهُ ما يوافِقُ حالَه، يَنقدِحْ سِرُّه على قَدْرِ صفاءِ وقتِه وقُوَّةِ وارِده، فيَفِيضُ ذلك على جَوارِحِهِ، ومَنْ يَسْمَعْ بالحَقِّ ومِنَ الحَقِّ فإنَّه لا يَلْتَفِتُ إلى هذه الأَحوال، لأنَّها وإنْ كانَتْ شَرِيفةً فَهِيَ مَمْزُوجةٌ بِحُظوظِ البَشَرِيَّة، ولا يُؤْمَنُ عليها الزَّلَلُ، حتّى يكونَ سَماعُه باللهِ وللهِ ومِنَ اللهِ وإلى الله، وهُمُ الّذين فَنُوا عنِ الأقوالِ والأفعالِ والأحوال، ووَصَلُوا إلى الحَقائقِ ومَحْضِ الإخلاصِ وصَفاءِ التَّوحيد، فَخَمَدَتْ بَشَرِيَّتُهُمْ، وفَنِيَتْ حُظُوظُهُمْ، وبَقِيَتْ حُقُوقُهُمْ، فَشَهِدُوا مَوارِدَ الحَقِّ بالحَقِّ، بِلا عِلَّةٍ لِلنَّفْسِ ولا حَظٍّ لِلرُّوحِ بالنَّغْمةِ، فَشَهِدُوا مِنْ مَوارِدِ السَّماعِ على أَسْرارِهِمْ إِظهارَ حِكْمتِهِ وآثارَ قُدْراتِهِ وغرائِبَ عِلْمِه[1].

وليسَ مَقْصُودُ القَوْمِ في السَّماعِ التّلذُّذَ بِحُسنِ النَّغْمةِ، لِأَنَّ الرِّقّةَ والهَيَجانَ والوَجْدَ كامِنٌ فيهم عِندَ فقدانِ الأصواتِ، والسَّكِينةَ والهُدوءَ كامِنٌ فيهم عِندَ وِجْدانِ النَّغَمات. فالمَقصُودُ، في جَميعِ ما يَسْمَعُونَ، ما يُناسِبُ ما انْخَنَسَ في قُلُوبِهِمْ مِنَ المَواجِيدِ والأذكار.

ولا يَصِحُّ السَّماعُ لِلمُرِيدِ حتّى يَعرِفَ أسماءَ اللهِ وصِفاتِه، فلا يُضِيفَ إليه إلّا ما أَضافَهُ ـ سبحانه وتعالى ـ إلى نَفْسِهِ، ولا يَكُونَ قَلْبُهُ مُلَوَّثًا بِحُبِّ ما سِوى الله، بل يكونُ حافِظًا لِحُدُودِه مُتعاهِدًا لِوَقْتِهِ. فإذا كان كذلك يَسْمَعُ ما يَحُثُّه على المُعامَلةِ والمُجاهَدةِ، ولا يَسْمَعُ لِلتّلذُّذِ، لكيلا يَصِيرَ عادتَه، فيَشْغَلَهُ عَنْ عِبادتِه ورِعايةِ قَلْبه[2].

---

(١) ينظر: (اللُّمَع) (٢٤٦).

(٢) ينظر: (اللُّمَع) (٢٥٨).

وعَلامةُ السّامِعينَ المُحقِّقينَ في سَماعِهِم: انقِيادُهم إلى كُلّ عَمَلٍ مُقرّبٍ إلى الله ـ تعالى ـ مِنَ التَّكْلِيفاتِ مِنْ أَمْرٍ ونَهْيٍ، كسَماعِهِ لِلعِلْمِ والذّكْرِ والثّناءِ على الحَقِّ ـ تعالى ـ والمَوْعِظةِ الحَسَنةِ.

ومِن علامتِهم أيضًا: التّصامُّ عنِ الغِيبةِ والنَّميمةِ، والبُهتانِ والسَّيِّئِ مِنَ القولِ، كالخوضِ في آياتِ اللهِ ـ تعالى ـ والرَّفَثِ والجِدالِ، وسَماعِ القِيانِ وكُلِّ مُحرَّمٍ حَجَرَ الشّارِعُ سَماعَه[1].

وعن مسلمٍ العباداني رحمه الله أنَّه قال: قَدِمَ علينا صالحٌ المريُّ، وعتبةُ الغلام، وعبدُ الواحدِ بنُ زيد، ومسلمٌ الأَسْوارِيُّ رحمهم الله فنزلوا على السَّاحل، قال: فهيَّأتُ لهم ذاتَ ليلةٍ طعاماً، فدعوتهم إليه، فجاؤوا، فلمّا وضعتُ الطعامَ بين أيديهم إذا بقائلٍ يقولُ رافعاً صوته:

وتُلْهِيكَ عن دارِ الخُلُودِ مَطاعِمٌ ولَذّةُ نَفْسٍ غَيُّها غيرُ نافعِ

قال: فصاح عتبةُ الغلامُ صيحةً وخَرَّ مَغْشِيّاً عليه، وبكى القوم، فَرَفَعْنا الطَّعامَ، وما ذاقوا واللهِ منه لُقمةً[2].

وكما يُسمَعُ صوتُ الهاتفِ عندَ صفاءِ القلبِ يُشاهَدُ أيضاً بالبصرِ صورةُ الخضرِ عليه السلام؛ فإنَّه يتمثَّلُ لأرباب القلوبِ بصورٍ مختلفةٍ، وفي مثلِ هذه الحالةِ تتمثَّلُ الملائكةُ للأنبياء عليهم السلام، إمَّا على حقيقةِ صورتِها، وإمَّا على مثالٍ يُحاكي صورتَها بعضَ المحاكاة.

---

(١) ينظر: (مواقع النجوم) للشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره (١٥٠).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٦٠).

ورأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام مرَّتين في صورتِهِ، فأخبرَ عنه بأنَّه كان قد سَدَّ الأُفُقَ، وهو المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٥ - ٧]، إلى آخرِ هذه الآيات.

وإلى مثلِ هذا الكشفِ الإشارةُ بقولِهِ عليه السلام: «لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ»[١].

وفي مثلِ هذه الأحوالِ مِنَ الصَّفاءِ يقعُ الاطلاع على ضمائرِ القلوبِ، وقد يُعبَّرُ عن ذلك الاطِّلاعِ بالتفرُّسِ، ولذلك قال ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ ينظر بِنُورِ الله»[٢].

وقد رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنَ المجوسِ كان يدورُ على المسلمين ويقولُ ما معنى قولِ النَّبيِّ ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ»؟ وكان يذكرُ له تفسيرُهُ فلا يُقنِعُهُ ذلك، حتى انتهى إلى بعضِ المشايخِ الصُّوفيّةِ فَسَأَلَهُ فقال: معناه أن تقطعَ الزُّنَّارَ الذي على وسطِكَ، فقال: صدقتَ، هذا معناه، وأسلمَ، وقال: الآن عرفتُ أنَّكَ مؤمنٌ، وأنَّ إيمانَكَ حقٌّ[٣].

وروي أنَّ ذا النُّونِ المصريَّ رحمه الله دخلَ بغدادَ فاجتمعَ إليه قومٌ مِنَ الصُّوفيّةِ ومعهم قَوَّالٌ، فاستأذنوه في أن يقولَ لهم شيئاً، فَأَذِنَ لهم في ذلك فأنشدَ:

صغيــرُ هــواكَ عَذَّبني فكيــفَ بــه إذا احتنكا

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٣١٢٧).

(٣) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٤٠٨).

وأنتَ جَمَعْتَ في قلبي هـوًى قد كانَ مُشـتَرَكا
أمـا ترثـي لمكتئـبٍ إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بكى

فقام ذو النُّونِ رحمه الله وسَقَطَ على وجهه، ثم قام رجلٌ آخرُ، فقال ذو النُّونِ: ﴿الَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، فجلس ذلك الرجل، وكان ذلك اطِّلاعاً مِنْ ذي النون رحمه الله على قلبِهِ أنَّه مُتكلِّفٌ في تواجده، فَعَرَّفَهُ أنَّ الذي يراه حين يقومُ هو الخصمُ في قيامِهِ لغير الله تعالى، ولو كان الرجلُ صادقاً لَمَا جلسَ[1].

وأما الحالُ، فكم مِنْ إنسانٍ يُدرِكُ في قلبِهِ في الوقت الذي يُصبِحُ فيه قبضاً أو بسطاً ولا يعلمُ سببَهُ، وقد يتفكَّرُ الإنسانُ في شيءٍ فيُؤثِّرُ في نفسِهِ أثراً، فينسى ذلك السَّببَ ويبقى الأثرُ في نفسه، وهو يُحِسُّ به، وقد يحصلُ في السَّماعِ عن غناءٍ مفهومٍ مِنْ غير أوتارِ الأحوالُ مِنْ حزنٍ وخوفٍ وسرورٍ.

وقد يُؤثِّرُ في النَّفسِ مِنَ النَّغماتِ التي ليست مفهومةً تأثيراً عجيباً، ولا يمكنُ التَّعبيرُ عن عجائبِ تلك الآثار، ويُعبَّرُ عنها بالشوق، ولكنْ شوقٌ لا يعرفُ صاحبُهُ المشتاقَ إليه، فهو عجيب، والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار ليس يدري إلى ماذا يشتاق، وهو يجدُ في نفسِهِ حالةً كأنَّها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك للعوامِ ومَنْ لا يغلبُ على قلبِهِ لا حبُّ آدميٍّ ولا حبُّ الله تعالى.

وكذلك في نفسِ الآدميِّ مناسبةٌ مع العالم الأعلى واللَّذّاتِ التي وُعِدَ بها في سدرة المنتهى والفراديسِ العلا، إلا أنه لم يتخيَّل مِنْ هذه الأمورِ إلا الصِّفات

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٣٩٣) احتنك: استولى واستحكم.

والأسماء، فالسَّماعُ يُحرِّكُ منه الشوق، والجهلُ والاشتغالُ بالدنيا قد أنساهُ نفسَه، وأنساه ربَّه، وأنساه مُستقرَّهُ الذي إليه حنينُهُ واشتياقُهُ بالطبع، فيتقاضاه قلبُهُ أمراً ليس يدري ما هو، فيدهشُ ويتحيَّرُ ويضطرب، ويكون كالمنخنقِ الذي لا يعرف طريق الخلاص.

(ش: قال ابنُ البنَّا السرقسطيُّ رضي الله عنه:

متى يَجِدْ جواهرَ المعاني ... مَنْ قلبُهُ على الدَّوامِ عاني
لم يَتَّصِلْ بالعالَمِ الرُّوحاني ... مَنْ عُمْرُهُ على الفضولِ حاني
ليس يُرَى مع المعاني دانِ ... مَنْ قلبُهُ في عالَمِ الأبدانِ)

واعلم أنَّ الوجدَ ينقسمُ أيضاً إلى هاجمٍ وإلى متكلَّفٍ، ويُسمَّى تواجداً، والتَّواجدُ المتكلَّف منه ما هو مذمومٌ، وهو الذي يُقصَدُ به الرياءُ وإظهارُ الأحوالِ الشريفةِ مع الإفلاس عنها، ومنها ما هو محمودٌ، وهو التوصُّلُ إلى استدعاءِ الأحوالِ الشريفةِ واكتسابِها واجتلابِها بالحيلة، فإنَّ للكسبِ مدخلاً في جلب الأحوال.

(قال الشيخُ أحمد العلوي رضي الله عنه:

ومَنْ لم يَجِدْ فَلْيَتَواجَدْ ... قصداً يتعرَّضْ لفضلِ الله).

ولذلك أَمَرَ رسولُ الله ﷺ مَنْ لم يحضرْهُ البكاءُ في قراءةِ القرآنِ أن يتباكى ويتحازنَ، فإنَّ هذه الأحوالَ قد تُتكلَّفُ مبادئُها، ثم تتحقَّقُ أواخرُها، كما أنَّ جميعَ ما تحتملُهُ النَّفسُ والجوارحُ مِنَ الصِّفات لا سبيلَ إلى اكتسابها إلا بالتَّكلُّفِ والتَّصنُّع أوّلاً، ثم يصيرُ بالعادةِ طبعاً، وهو المرادُ بقولِ بعضِهم: العادةُ طبيعةٌ خامسةٌ.

فكذلك الأحوالُ الشريفةُ لا ينبغي اليأسُ عنها عند فقدِها، بل ينبغي أن يتكلَّفَ لها بالسَّماعِ وغيرِهِ مِنْ أسبابها كمجالسة الصالحين والخائفين والمخبتين والمشتاقين والخاشعين، ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم، فَمَنْ جالسَ شخصاً سَرَتْ إليه صفاتُهُ مِنْ حيث لا يدري، وبالدُّعاءِ والتَّضرُّعِ إلى الله، كما فَزِعَ النَّبيُّ ﷺ إلى الدُّعاءِ في طلبِ الحُبِّ فقال: «اللهُمَّ ارْزقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ، وَحُبَّ عمل مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ»[1].

واعلم أنَّ الوجدَ الحقَّ ما ينشأُ مِنْ فرطِ حبِّ الله وصدقِ إرادتِهِ والشوقِ إلى لقائه، وذلك يهيجُ بسماعِ القرآنِ كما يهيجُ بسماعِ الغناء، وأمَّا حُبُّ المخلوقِ فلا يهيجُ بسماعِ القرآن.

وقد أثنى الله تعالى على أهلِ الوجدِ بالقرآن فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، ورُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ كان يُصلِّي ولصدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَل[2].

وأمَّا ما نُقِلَ مِنَ الوجدِ بالقرآنِ عن الصحابة والتابعين ﷺ فكثيرٌ، فمنهم مَنْ صُعِقَ، ومنهم مَنْ بكى، ومنهم مَنْ غُشِيَ عليه، ومنهم مَنْ ماتَ في غشيتِهِ.

روي أنَّ الشبلي رضي الله عنه كان في مسجدِهِ ليلةً مِنْ رمضان وهو يُصلِّي خلفَ إمامٍ له، فقرأ الإمامُ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، فزعقَ الشِّبليُّ زعقةً ظَنَّ الناسُ أنَّه طارت روحُهُ، واحمرَّ وجهُهُ وارتعدت

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٩٠٤).

فرائضُهُ، وكان يقولُ: (بمثل هذا يُخاطبُ الأحبابُ)، يُردّد ذلك مراراً[١].

وسَمِعَ رجلٌ مِنْ أهلِ التصوُّفِ قارئاً يقرأ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، فاستعادَها مِنَ القارئ، وقال: كم أقولُ لها «ارجعي» وليست ترجع؟ وتواجدَ، وزَعَقَ زعقةً فخرجت روحُهُ.

فَمَنْ كان لا يتأثَّرُ بالقرآن أصلاً فمثلُهُ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، بل صاحبُ القلبِ تُؤثِّرُ فيه الكلمةُ مِنَ الحكمة يسمعُها.

(ش: قال البنا السرقسطي رحمه الله في السماع وأحكامه وآدابه:

ولِلأنامِ في السَّماعِ خَوْضُ ... لَكِنْ لهذا الحِزْبِ فيه رَوْضُ
قال العراقيُّونَ بالتَّحريم ... قال الحجازيُّون بالتسليمِ
وإنَّ للشُّيوخِ فيه فَنّا ... إذ جعلوه للطريق رُكنا
وإنما أُبيحَ للزُّهادِ ... وندبُهُ إلى الشُّيوخِ بادِ
وهو على العوام كالحرامِ ... عندَ الشُّيوخِ الجِلّةِ الأعلامِ
ولا يجوزُ عندَهُ التَّكلُّمُ ... ولا التلاهي لا ولا التبسُّمُ
ويُمنَعُ الأحداثُ مِنْ حضورِهِ ... وإن يَكُنْ ذاك فَمِنْ ظُهُورِهِ
والرَّقصُ فيه دونَ هجمِ الحالِ ... ليس على طريقةِ الرِّجالِ
وإن يكن يَقْوَى على السُّكونِ ... فإنَّهُ أسلمُ للظُّنونِ
وليس يحتاجُ إلى السَّماعِ ... إلا أخو الضَّعفِ القصيرُ الباعِ

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٥٥٣)، و(اللمع) (٣٥٥).

وسمعُهُ مواقعَ الألحانِ ... بغيرِ موتِ النَّفسِ فهو عانِ
وحُبُّهُ السَّماعَ لا محالَهْ ... بقيّةٌ فيه مِنَ البطالَهْ
ورقصُهُ فيه بغيرِ واردْ ... يسلُبُهُ عنه فقيرُ واردْ
والزَّعقاتُ فيه والتَّمزيقُ ... ضعفٌ وهَزُّ الرأسِ والتَّصفيقُ
ولم يكن لأجلِهِ اجتماعُ ... ولا لدى غيبتِهِ انصداعُ
وأمروا فيه بغلقِ البابِ ... وإنَّما ذاك للاجتنابِ
وليس للقائلِ ما يقولُ ... في الشِّعرِ إذ سمعَهُ الرَّسولُ
وإنما كان السَّماعُ قِدْمَا ... قصدَ المريدِ الشيخَ يشكو السُّقْما
فَبَثَّ كلٌّ ما به قد جاء ... فَعَرَضُوا مِنْ دائهم دواء
فعندما نَشَطَتِ النُّفوسُ ... وزال عنها كَسَلٌ وبُوسُ
وطابتِ القلوبُ بالأسرارِ ... واستُعْمِلَتْ نتائجُ الأفكارِ
تَرَنَّمَ الحادي ببيتِ شعرِ ... فاكتنفتْهُ غامضاتُ الفكرِ
كلٌّ له ممّا استفادَ شِرْبُ ... هذا له قشرٌ وهذا لُبُّ
فهكذا كان سماعُ النَّاسِ ... فهل ترى به كذا مِنْ باسِ)

[مطلب في آداب السماع]

واعلم أنَّ في السَّماعِ آداباً:

- منها: مراعاةُ الزَّمانِ والمكانِ والإخوانِ.

قال الجنيدُ رحمه الله: (السَّماعُ يحتاجُ إلى ثلاثةِ أشياء، وإلا فلا تَسمَعْ: الزَّمان والمكان والإخوان)(١).

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٥٤٨)، و(اللمع) (٣٤٢).

ومعناه: أنَّ الاشتغالَ به في وقتِ حضورِ طعامٍ أو صلاةٍ أو صارفٍ مِنَ الصوارفِ مع اضطراب القلبِ لا فائدةَ فيه، فهذا معنى مراعاةِ الزمان، فيراعي حالةَ فراغِ القلب له.

وأما المكانُ إذا كان شارعاً مطروقاً، أو موضعاً كريهَ الصورة، أو فيه سببٌ يشغلُ القلبَ به فيُجتنَبُ.

وأما الإخوانُ فسببُهُ أنَّه إذا حضرَ غيرُ الجنسِ مِنْ منكرٍ للسَّماعِ مُتزهِّدٍ بالظاهرِ، مفلسٍ مِنْ لطائفِ القلوبِ كان مُستثقَلاً في المجلس، فاشتغل القلبُ به، وكذلك إذا حَضَرَ مُتكبِّرٌ مِنْ أهل الدنيا يُحتاجُ إلى مراقبتِهِ ومراعاتِهِ، أو متكلِّفٌ متواجِدٌ مِنْ أهلِ التَّصوُّفِ يرائي بالوجدِ والرَّقصِ وتمزيقِ الثوب، فكلُّ ذلك تشويشاتٌ، فتركُ السَّماعِ عند فقد هذهِ الشُّروطِ أولى.

ـ ومنها: أنَّ الشيخَ إذا كان حولَهُ مريدون يضرُّهم السَّماعُ فلا ينبغي أن يسمعَ في حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغلٍ آخر.

والمريدُ الذي يستضرُّ بالسَّماعِ أحدُ ثلاثةٍ:

أقلُّهم درجة: هو الذي لم يُدرِكْ مِنَ الطريقِ إلا الأعمالَ الظاهرةَ، ولم يكن له ذوقُ السَّماع، فاشتغالُهُ بالسَّماعِ اشتغالٌ بما لا يعنيه؛ فإنَّه ليس مِنْ أهل اللهوِ فيلهو، ولا مِنْ أهلِ الذَّوقِ ليتنعَّمَ بذوقِ السَّماع، فليشتغلْ بذكرٍ أو خدمةٍ، وإلا فهو تضييعٌ لزمانِهِ.

والثاني: هو الذي له ذوقُ السَّماع، ولكنْ فيه بقيَّةٌ مِنَ الحظوظِ والالتفاتِ إلى الشَّهواتِ والصِّفاتِ البشرية، ولم ينكسرْ بعدُ انكساراً تُؤمَنُ غوائلُهُ،

فربَّما يُهيِّجُ السَّماعُ منه داعيةَ اللهوِ والشَّهوةِ، فيقطعُ عليه طريقَهُ، ويصدُّهُ عن الاستكمالِ.

والثالث: أن يكونَ قد انكسرَتْ شهوتُهُ، وأُمِنَتْ غائلتُهُ، وانفتحت بصيرتُهُ، واستولى على قلبِهِ حُبُّ الله تعالى، ولكنَّه لم يُحْكِمْ ظاهرَ العلم، ولم يَعرِفْ أسماءَ الله تعالى وصفاتِهِ، وما يجوزُ عليه وما يستحيل، فإذا فُتِحَ له بابُ السَّماعِ نزَّلَ المسموعَ في حقِّ الله على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضررُهُ مِنْ تلك الخواطر التي هي كفرٌ أعظمَ مِنْ نفعِ السَّماعِ.

قال سهلٌ رضي الله عنه: (كلُّ وجدٍ لا يشهدُ له الكتابُ والسُّنّةُ فهو باطلٌ)[1].

فلا يصلحُ السَّماعُ لمثلِ هذا، ولا لِمَنْ قلبُهُ بعدُ مُلوَّثٌ بحبِّ الدُّنيا وشهوةِ المحمدةِ والثَّناءِ، ولا لِمَنْ يسمعُ لأجلِ التَّلذُّذِ والاستطابةِ بالطبعِ فيصيرُ ذلك عادةً له، ويشغلُهُ ذلك عن عبادتِهِ ومراعاةِ قلبِهِ، وينقطعُ عليه طريقُهُ، فالسَّماعُ مَزِلَّةُ قدمٍ يجبُ حفظُ الضُّعفاءِ عنه.

ـ ومنها: أن يكون مُصغياً إلى ما يقولُهُ القائلُ، حاضرَ القلبِ، قليلَ الالتفاتِ إلى الجوانب، مُتحرِّزاً عن النظرِ إلى وجوهِ المستمعين وما يظهرُ عليهم مِنْ أحوالِ الوجدِ، مُشتغِلاً بمراعاةِ قلبِهِ ومراقبةِ ما يفتحُ الله له مِنْ رحمتِهِ في سرِّه، مُتحفِّظاً عن حركةٍ تُشوِّشُ على أصحابه قلوبَهم، بل يكونُ ساكنَ الظاهرِ، مُتحرِّزاً عن التَّنحنُحِ والتثاؤبِ، فيجلسُ مُطرِقاً رأسَهُ كجلوسِهِ في فكرٍ مستغرقٍ لقلبِهِ، متماسِكاً عن التصفيقِ وسائرِ الحركاتِ على وجهِ التَّصنُّعِ والتَّكلُّفِ والمراءاةِ.

---

(١) ينظر: (اللُّمَع) (٣٧٦).

فإن غَلَبَ عليه الوجدُ، وحرَّكَهُ بغيرِ اختيارٍ فهو فيه معذورٌ غيرُ مَلُومٍ، ومهما رَجَعَ إليه الاختيارُ فَلْيَعُدْ إلى هدوئه وسكونِهِ، ولا ينبغي أن يستديمَهُ حياءً مِنْ أن يُقالَ: «انقطعَ وجدُهُ على القُربِ»، ولا أن يتواجَدَ خوفاً مِنْ أن يُقالَ: «هو قاسي القلب، عديمُ الصَّفاءِ والرِّقَّة».

قال أبو القاسمِ النصراباذي رحمه الله لأبي عمرو بن نجيد رحمه الله أنا أقول: إذا اجتمعَ القومُ فيكون معهم قَوَّالٌ يقولُ شيئاً ويسكتُ الباقون خيرٌ مِنْ أن يغتابوا، فقال أبو عمرٍو رحمه الله: والرِّياءُ في السَّماع، وهو أن ترى مِنْ نفسِكَ حالاً ليستْ فيكَ شرٌّ مِنْ أن تغتابَ ثلاثين سنةً أو نحوَ ذلك[1].

واعلم أنَّ عدمَ ظهورِ الوجدِ تارةً يكونُ لضعفِ الواردِ مِنَ الوجد فهو نقصانٌ، وتارةً يكون مع قُوَّةِ الوجدِ في الباطن، ولكنْ لا يظهرُ لكمالِ القُوَّةِ على ضبطِ الجوارحِ فهو كمالٌ، وتارةً يكونُ لكون حالِ الوجدِ مُلازِماً ومصاحباً في الأحوال كلِّها، فلا يتبيَّنُ للسماعِ مزيدُ تأثيرٍ، وهو غايةُ الكمال، فإنَّ صاحبَ الوجدِ في غالب الأحوالِ لا يدومُ وجدُهُ، فَمَنْ هو في وجدٍ دائمٍ فهو المرابطُ للحقِّ والملازمُ لعينِ الشُّهود، فهذا لا تغيِّرُهُ طوارقُ الأحوال.

ولا يبعدُ أن تكونَ الإشارةُ بقولِ الصِّديقِ رضي الله عنه حينَ رأى بعضَ الأعرابِ يبكي عند سماعِ القرآن: (كُنَّا كما كنتم ثم قَسَتْ قلوبُنا)، معناه: قَوِيَتْ قلوبُنا واشتدَّتْ، فصارتْ تُطيقُ ملازمةَ الوجدِ في كلِّ الأحوال، فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام، فلا يكونُ القرآنُ جديداً في حقِّنا طارئاً علينا حتى نتأثَّرَ به.

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٥٥٨).

ولا تظنَّنَّ أنَّ الذي يضربُ بنفسِهِ على الأرضِ أتمُّ وجداً مِنَ الساكنِ باضطرابه، بل رُبَّ ساكنٍ أتمُّ وجداً مِنَ المضطرب، فقد كان الجنيدُ رحمه الله يتحرَّكُ في السَّماعِ في بدايتِهِ، ثم صار لا يتحرَّكُ، فقيل له في ذلك فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

واعلم أنَّ الرقصَ قد يكونُ بفرحٍ أو بشوقٍ فحكمُهُ حكمُ مُهيِّجِهِ، إن كان فرحُهُ محموداً والرَّقصُ يزيدُهُ ويُؤكِّدُهُ فهو محمودٌ، وإن كان مباحاً فهو مباحٌ، وإن كان مذموماً فهو مذمومٌ.

وروي عن جماعةٍ مِنَ الصحابة رضي الله عنهم أنَّهم حَجَلوا بما أصابهم مِنْ سرورٍ، نَعَمْ، لا يليقُ اعتيادُ ذلك لمناصبِ الأكابرِ وأهلِ القُدوةِ؛ لأنَّه فِي الأكثرِ يكونُ عن لهوٍ ولعبٍ، وما له صورةُ اللَّعبِ في أعينِ الناسِ فينبغي أن يجتنبَهُ المقتدى به لئلا يصغرَ في أعين الناس، فيُتركَ الاقتداءُ به.

وأمَّا تمزيقُ الثوبِ فلا رخصةَ فيه إلا عندَ خروجِ الأمرِ عن الاختيار، ولا يبعد أن يغلبَ الوجدُ بحيث يُمزِّقُ ثوبَهُ وهو لا يدري لغلبةِ سُكْرِ الوجدِ عليه، أو يدري ولكنْ يكون كالمضطرِّ الذي لا يقدرُ على ضبطِ نفسِهِ، وتكون صورتُهُ صورةَ المكرهِ؛ إذ يكونُ له في الحركة أو التَّمزيقِ مُتنفَّسٌ يضطرُّ إليه اضطرارَ المريضِ إلى الأنين، ولو كُلِّفَ الصبرَ عنه لم يقدر عليه مع أنَّه فعلٌ اختياري، فليس كلُّ فعلٍ حصولُهُ بالإرادةِ يقدرُ الإنسانُ على منعِ نفسِهِ منه، فالتَّنَفُّسُ فعلٌ يحصلُ بالإرادةِ، ولو كُلِّفَ الإنسانُ أن يُمسِكَ النَّفَسَ ساعةً لاضطرَّ مِنْ باطنِهِ إلى أن يختارَ التَّنفُّسَ، فكذلك الزَّعقةُ وتمزيقُ الثِّيابِ قد يكونُ كذلك، فهذا لا يُوصَفُ بالتحريم.

ـ ومنها: موافقةُ القومِ في القيامِ إذا قامَ واحدٌ منهم في وجدٍ صادقٍ مِنْ غيرِ رياءٍ وتكلُّفٍ، أو قام باختيارٍ مِنْ غيرِ إظهارِ وجدٍ وقام له الجماعةُ، فلا بُدَّ مِنَ الموافقة، فذلك مِنْ آداب الصُّحبة، وكذلك إن جرتْ عادةُ طائفةٍ بتنحيةِ العِمامة على موافقةِ صاحبِ الوجدِ إذا سَقَطَتْ عمامتُهُ، أو خلعِ الثِّيابِ إذا سَقَطَ عنه ثوبُهُ بالتمزيق، فالموافقةُ في هذه الأمورِ مِنْ حُسنِ الصُّحبة؛ إذ المخالفةُ تُوحِشُ، ولكلِّ قومٍ رسمٌ، ولا بُدَّ مِنْ مخالقةِ الناسِ بأخلاقِهِم كما ورد في الخبر[1]، لا سيَّما إذا كانت أخلاقاً فيها حسنُ العشرةِ والمجاملةُ وتطييبُ القلبِ بالمساعدة.

فإن قيل: إنَّ ذلك بدعة لم تكن في الصحابة، قلنا: ليس كلُّ ما يحكمُ بإباحتِهِ منقولاً عن الصحابة ﷺ، وإنَّما المحظورُ بدعةٌ تُراغِمُ سنَّةً مأثورةً، ولم ينقل النَّهيُ عن شيء مِنْ هذا.

فالقيامُ عند الدخولِ للداخلِ لم يكن مِنْ عادة العربِ، بل كان الصَّحابةُ ﷺ لا يقومونَ لرسول الله ﷺ في بعض الأحوالِ كما رواه أنسٌ ﷺ[2]، ولكن إذا لم يثبت فيه نهيٌ عامٌّ فلا نرى به بأساً في البلادِ التي جرت العادةُ فيها بإكرامِ الداخلِ بالقيام له، فإنَّ المقصودَ منه الاحترامُ والإكرامُ وتطييبُ القلوبِ به، وكذلك سائرُ أنواعِ المساعداتِ إذا قُصِدَ بها تطييبُ القلبِ، واصطلح عليها جماعةٌ، بل الأحسنُ المساعدةُ إلا فيما ورد فيه نهيٌ لا يقبلُ التأويلَ.

ـ ومنها: أن لا يقومَ للرَّقصِ مع القومِ إن كان يُستثقَلُ رقصُهُ، ويُشوِّش

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٤٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٧٥٤).

عليهم أحوالهم، إذ الرَّقصُ مِنْ غيرِ إظهارِ التواجدِ مباحٌ، والمتواجِدُ هو الذي يلوحُ للجمعِ منه أثرُ التكلُّفِ، ومَنْ يقومُ عن صدقٍ لا تستثقلُهُ الطِّباعُ، فقلوبُ الحاضرين إذا كانوا مِنْ أربابِ القلوبِ محكٌّ للصدقِ والتكلُّفِ.

سُئِلَ بعضُهم عن الوجدِ الصَّحيحِ فقال: (صِحَّتُهُ قبولُ قلوبِ الواجدين له إذا كانوا أشكالاً غيرَ أضدادٍ)[1].

---

(١) ينظر: (اللُّمَع) (٣٧٨).

الكتاب التاسع من ربع العادات
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ﷺ: (بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يُصْلِحُونَ ما أَفْسَدَ النَّاسُ)[1].

اعلم أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ هو القطبُ الأعظمُ في الدِّين، وهو المُهِمُّ الذي ابتعثَ الله له النَّبيينَ أجمعين، ولو طُوِيَ بساطُهُ وأُهْمِلَ علمُهُ وعملُهُ لتعطَّلَتِ النُّبوَّةُ، واضمحلَّتِ الدِّيانةُ، وعَمَّتِ الفتنةُ، وفَشَتِ الضَّلالةُ، وشاعَتِ الجهالةُ، واستشرى الفسادُ، واتَّسَعَ الخرقُ، وخَرِبَتِ البلادُ، وهَلَكَ العبادُ، ولم يشعروا بالهلاك إلى يومِ التَّنادِ.

(ش: وقد أشار الشيخُ علوانُ الحمويُّ رحمه الله إلى ما حَلَّ بالبلاد مِنَ الفساد فقال:

سَلِ الْمَدَارِسَ وَالْجَبَّانَ مُخْتَبِرًا ... وَسَلْ لِأَعْوَامِهَا وَالأَشْهُرِ الْحُرُمِ
غَاضَ الْوَفَاءُ وَفَاضَ الْغَدْرُ وَانْدَرَسَتْ ... مَعَالِمُ الدِّينِ لَمْ تَشْهَدْ سِوَى الرُّسُمِ
عَمَّ الْبَلاءُ وَطَمَّ الدَّاءُ وَاعْتَكَفُوا ... عَلَى مُخَالَفَةِ الْمَوْلَى بِلَا نَدَمِ
ثُمَّ الرِّبَا قَدْ رَبَا وَالْخَمْرُ قَدْ شُرِبَا ... مِنْ غَيْرِ مُعْتَرِضٍ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
فَهَلْ تَرَى ثَمَّ فِيهَا غَيْرَ مَعْصِيَةٍ ... وَمُحْدَثَاتٍ كَلَيْلٍ حَالِكٍ قَتِمِ

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

وَأَصْبَحَ الْخَلْقُ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ ... وَفِـي التَّفَاخُـرِ بِاللَّـذَّاتِ وَالنِّعَـمِ

أَكْلُ الْحَرَامِ فَشَـا بَيْنَ الخَلائِقِ لَمْ ... يُنْكِرْهُ ذُو مَنْصِبٍ فِي العِلْمِ وَالحِكَمِ

يَا لَهْفَ قَلْبِي عَلَى عِلْمٍ عَلَى عَمَلٍ ... عَلَـى صَـلَاةٍ عَلَى عَهْدٍ عَلَـى ذِمَمِ

صَلَاتُنَـا ضُيِّعَـتْ زَكَاتُنَـا مُنِعَتْ ... وَحِيـلَ بَيْنَ وُفُـودِ الْبَيْـتِ وَالْحَرَمِ

قَوَاعِدٌ دُرِسَـتْ مَفَاسِـدٌ غُرِسَتْ ... مَقَاصِدٌ غُمِسَـتْ فِي أَبْحُـرِ الظُّلَمِ

مَعَالِمٌ طُمِسَـتْ أَنْوَارُهَا فُرِسَـتْ ... أَعْلَامُهَا افْتُرِسَـتْ فِي جَوْفِ مُلْتَقِمِ

جَوَارِحٌ أُرْسِـلَتْ فِي كُلِّ فَاحِشَةٍ ... مَصَالِـحٌ أُهْمِلَتْ وَالنَّـاسُ كَالْبُهُمِ

قُلُوبُهُمْ أَدْبَرَتْ نُفُوسُـهُمْ كَفَرَتْ ... أَحْوَالُهُـمْ غُيِّـرَتْ عَنْ مَنْهَـجٍ قَوِمِ

سَلِ الْمَسَـاجِدَ مَاذَا حَلَّ سَاحَتَهَا ... مِـنَ الْمَنَاكِـرِ وَالآثَـامِ وَاللَّمَـمِ

صَارَتْ مَوَاطِنَ ظُلْمٍ يَأْخُذُونَ بِهَا ... مَـالَ الْيَتِيـمِ وَمِسْـكِينٍ وَذِي رَحِمِ

وَيَجْلِسُـونَ بِهَـا مَا جُـلُّ هِمَّتِهِمْ ... إِلَّا قَبَائِـحَ أَلْفَـاظٍ بِخَوْضِهِـمِ

لَا يَذْكُرُونَ سِـوَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... تَبًّـا لَهُـمْ غَفَلُـوا عَـنْ ذِكْـرِ رَبِّهِمِ

هَـذَا وَمَنْ كَانَ ذَا عِلْـمٍ وَذَا عَمَلٍ ... بِزَعْمِـهِ صَـارَ مَغْمُـورًا بِحِزْبِهِـمِ

مُحَسِّـنًا لَهُـمُ مَـا كَانَ مِـنْ قُبُحٍ ... يَرْجُونَ رَحْمَـةَ مَوْلَاهُـمْ بِزَعْمِهِمِ

هَيْهَاتَ، رَحْمَةُ مَوْلَانَا يَخُصُّ بِهَا ... مَـنْ كَانَ مُتَّقِيًـا لَا تَغْتَـرِرْ بِهِـمِ

حَتَّى لَقَدْ شُوهِدَتْ بَعْضُ الْمَسَاجِدِ فِي ... هَذَا الزَّمَانِ بِهَا الْقَيْنَـاتُ فِي الْحَرَمِ

صَارَ الزَّوَانِـي بِهَا أَوَّاهُ وَا أَسَـفَا ... جَهْرًا بِـإِذْنِ وَلِيِّ الأَمْـرِ وَالْحَكَمِ)

وقد كان الذي خِفْنا أن يكون، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، إذ قد اندرس مِنْ هذا القطبِ عملُهُ وعلمُهُ، وانمحقَ بالكُلّيّةِ حقيقتُهُ ورسمُهُ، فاستولَتْ على القلوبِ مُداهنةُ الخلقِ، وانمحتْ عنها مراقبةُ الخالقِ، واسترسلَ الناسُ في اتِّباعِ

الهوى والشَّهواتِ استرسالَ البهائم، وعَزَّ على بساط الأرضِ مؤمنٌ صادقٌ لا تأخذُهُ في الله لومةُ لائم.

فَمَنْ سعى في تلافي هذه الفترةِ وسَدِّ هذه الثُّلمةِ، إمَّا مُتكفِّلاً بعلمِها، أو مُتقلِّداً لتنفيذِها، مُجدِّداً لهذه السُّنّةِ الدائرة، ناهضاً بأعبائِها ومُتشمِّراً في إحيائها، كان مستأثِراً مِنْ بين الخلقِ بإحياءِ سُنَّةٍ أفضى الزمانُ إلى إماتتِها، ومُستبدّاً بقربةٍ تتضاءَلُ درجاتُ القربِ دونَ ذُروتِها.

[مطلب في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

قال الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ففي الآية بيانُ الإيجابِ؛ فإنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلۡتَكُن﴾ أمرٌ، وظاهرُ الأمرِ الإيجابُ، وفيها بيانُ أنَّ الفلاحَ منوطٌ به؛ إذ حَصَرَ وقالَ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وفيها بيانُ أنَّه فرضُ كفايةٍ لا فرضُ عينٍ؛ إذ لم يقل: (كونوا كلكم آمرين بالمعروف)، بل قال: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾، فإذاً مهما قامَ به واحدٌ أو جماعةٌ سَقَطَ الحرجُ عن الآخرين، وإن تَقاعَدَ عنه الخلقُ أجمعون عَمَّ الحرجُ كافّةَ القادرين عليه لا محالةَ.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وهذا غايةُ التشديدِ؛ إذ عَلَّلَ استحقاقَهُم لِلَّعْنَةِ بتركِهِمُ النَّهيَ عن المنكرِ.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، الآيَةَ، والإصلاحُ: نهيٌ عن البغي، وإعادةٌ إلى الطاعة، فإن لم يفعلوا فقد أمرَ الله تعالى بقتالهم، لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وروى أبو أمامةَ الباهليُّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شبابكم وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟ قالوا: وإنَّ ذلك لَكَائنٌ يا رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، قالوا: وما أشدُّ منه يا رسول الله ﷺ؟ قال: كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ؟ قالوا: وكائنٌ ذلك يا رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، قالوا: وما أشدُّ منه؟ قال: كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ المَعْرُوفَ مُنْكَراً وَالمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟ قالوا: وكائنٌ ذلك يا رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، قالوا: وما أشدُّ منه؟ قال: كَيفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ المَعْرُوفِ؟ قالوا: وكائنٌ ذلك يا رسول الله ﷺ؟ قال: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، يَقُولُ الله تَعَالَى: بِي حَلَفْتُ لأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الحَلِيمُ فِيها حَيْرَانَ»[1].

ورُوِيَ عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِّ رضي الله عنه: أنه سألَ رسولَ الله ﷺ عن تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال ﷺ: «يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ مُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبَعاً وَدُنْيا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ، إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَناً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣١)، ونحوه أبو يعلى في مسنده (٦٤٢٠)، والطبراني في الأوسط (٩٣٢١).

كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيها بِمِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ، قيل: بل منهم يا رسول الله ﷺ، قال ﷺ: بَلْ مِنْكُمْ؛ لأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الخَيْرِ أَعْوَاناً وَلاَ يَجِدُونَ عَلَيْهِ أَعْوَاناً»[١].

وسُئِلَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه عن تفسيرِ هذه الآيةِ فقال: (إنَّ هذا ليس زمانَها، إنَّها اليومَ مقبولةٌ، ولكنْ قد أوشكَ أن يأتي زمانُها، تأمرونَ بالمعروف فيُصنَعُ بكم كذا وكذا، وتقولون فلا يُقبَلُ منكم، فحينئذٍ عليكُم أنفسَكُم لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم)[٢].

وعن عكرمةَ رضي الله عنه عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يَقْتُلُ مَظْلُوماً؛ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ، وَلاَ تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يَضْرِبُ مَظْلُوماً؛ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ»[٣].

قال: وقال رسول الله ﷺ: «لاَ يَنْبَغِي لامرئ شَهِدَ مَقَاماً فِيهِ حَقٌّ إِلاَّ تَكَلَّمَ بِهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُقَدِّمَ أَجَلَهُ وَلَنْ يَحْرِمَهُ رِزْقاً هُوَ لَهُ»[٤].

وهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّه لا يجوزُ دخولُ دُوْرِ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ حيثُ لا يَقْدِرُ على تغييرِ المنكر؛ فإنَّه قال: «اللَّعْنَةُ تَنْزِلُ عَلَى مَنْ حَضَرَ».

ولا يجوزُ له مشاهدةُ المنكرِ مِنْ غير حاجةٍ اعتذاراً بأنَّهُ عاجزٌ، ولهذا اختارَ

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٥/ ١٢٣).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٦٠)، والبيهقي في الشعب (٧١٧٣).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٧١٧٣).

جماعةٌ مِنَ السلفِ رحمهم الله العزلةَ؛ لمشاهدتِهم المنكراتِ في الأسواقِ والأعيادِ والمجامعِ وعجزِهِم عن التغيير، وهذا يقتضي لزومَ الهجرةِ.

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ الله عَزَّ وَجَلَّ نَبِيّاً إِلاَّ وَلَهُ حَوَارِي، فَيَمْكُثُ النَّبِيُّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَا شَاءَ الله تَعَالَى يَعْمَلُ فِيهِمْ بِكِتَابِ الله وَبِأَمْرِهِ حَتَّى إِذَا قَبَضَ الله نَبِيَّهُ مَكَثَ الحَوَارِيُّونَ يَعْمَلُونَ بِكِتَابِ الله وَبِأَمْرِهِ وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ، فَإِذَا انْقَرَضُوا كَانَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَرْكَبُونَ رُؤُوسَ المَنَابِرِ يَقُولُونَ مَا يَعْرِفُونَ وَيَعْمَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذلِكَ فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ جِهَادُهُمْ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذلِكَ إِسْلامٌ»[١].

وقال جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «أَوْحَى الله تَعَالَى إِلَى مَلَكٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ أَنِ اقْلِبْ مَدِينَةَ كَذَا وَكَذَا عَلَى أَهْلِهَا فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ فِيهِمْ عَبْدَكَ فُلاَناً لَمْ يَعْصِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فقَالَ: اقْلِبْهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ، فَإِنَّ وَجْهَهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ»[٢].

(م: وقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سُئِلَ: أيُّ الجهادِ أفضل؟ قال: «كلمةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلطانٍ جَائرٍ»[٣]).

وقال كعبُ الأحبارِ رضي الله عنه لأبي مسلمٍ الخولاني رضي الله عنه: كيف منزلتُكَ مِنْ قومِكَ؟ قال: حسنةٌ، قال كعبٌ: إنَّ التوراةَ لتقولُ غيرَ ذلك، قال: وما تقول؟

---

(١) رواه مسلم (٥٠) بنحوه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٦٥٧)، والبيهقي في الشعب (٧١٨٩). التَّمَعُّر: تغيُّرُ الوجهِ عندَ الغضبِ.

(٣) رواه أبو داود (٤٣٤٤).

قال: تقولُ إنَّ الرجلَ إذا أَمَرَ بالمعروفِ ونهى عن المنكرِ ساءَتْ منزلتُهُ عند قومِهِ، فقال: صدقتِ التوراةُ وكَذَبَ أبو مسلمٍ[١].

[أركان الأمر بالمعروف وشروطه]

واعلم أنَّ للأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ أربعةَ أركانٍ: المحتسِبُ، والمحتسَبُ عليه، والمحتسب فيه، ونفسُ الاحتسابِ[٢]، فهذه أربعةُ أركانٍ، ولكلِّ واحدٍ منها شروطُهُ.

١ . فللمُحتَسِبِ شروطٌ وهي: أن يكونَ مُكلَّفاً، مُسلِماً، قادراً، فيخرجُ منه المجنونُ والصَّبيُّ والكافرُ والعاجزُ، ويدخلُ فيه آحادُ الرعايا وإنْ لم يكونوا مأذونين، ويدخلُ فيه الرَّقيقُ والمرأةُ والفاسقُ.

وما ذكرناه أردنا به شرطَ الوجوبِ، فأمَّا الجوازُ فلا يستدعي إلا العقلَ، حتَّى إنَّ الصَّبيَّ المراهقَ للبلوغِ المميِّزَ وإنْ لم يكن مُكلَّفاً فله إنكارُ المنكرِ، وله أن يُريقَ الخمرَ ويَكْسِرَ الملاهي، وإذا فَعَلَ ذلك نالَ به ثواباً، ولم يكن لأحدٍ منعُهُ مِنْ حيث إنَّه ليس بمكلَّفٍ، فإنَّ هذه قربةٌ، وهو مِنْ أهلِها، وليس حكمُهُ حكمَ الولاياتِ حتَّى يُشترَطَ فيه التَّكليفُ، ولذلك أثبتناهُ للعبدِ وآحادِ الرَّعيَّةِ.

نَعَمْ، في المنعِ بالفعلِ وإبطالِ المنكرِ نوعُ ولايةٍ، ولكنَّها تُستفادُ بمجرَّدِ الإيمانِ؛ كقتلِ المُشرِكِ وإبطالِ أسبابِهِ وسلبِ أسلحتِهِ؛ فإنَّ للصبيِّ أن يفعلَ ذلك حيثُ لا يستضرُّ به، فالمنعُ مِنَ الفسقِ كالمنعِ مِنَ الكفرِ.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٢٠٣).

(٢) الحِسْبة: ادِّخارُ الأجرِ عندَ الله تعالى.

ومِنْ شرطِهِ الإيمانُ؛ لأنَّ هذا نصرةٌ للدِّين، فلا يكونُ مِنْ أهله مَنْ هو جاحدٌ لأصلِ الدِّينِ.

وشَرَطَ بعضُهم العدالةَ وقالوا: ليس للفاسقِ أن يَحتسِبَ، وربَّما استدلُّوا فيه بالنَّكيرِ الواردِ على مَنْ يأمرُ بما لا يفعله، مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقولِهِ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وبما رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِقَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: كُنَّا نَأْمُرُ بِالخَيْرِ وَلاَ نَأْتِيهِ وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ»[1].

وبما رُوِيَ أنَّ الله تعالى أوحى إلى عيسى صلوات الله عليه: (عِظْ نفسَكَ، فإن اتَّعظتَ فَعِظِ النَّاسَ، وإلا فاستحيِ مني)[2]، وربَّما استدلُّوا مِنْ طريقِ القياسِ بأنَّ هدايةَ الغيرِ فرعٌ للاهتداء، فَمَنْ ليس بصالحٍ في نفسِهِ فكيف يُصلِحُ غيرَهُ؟ ومتى يستقيمُ الظِّلُّ والعُودُ أعوجُ؟

والحقُّ أنَّ للفاسقِ أن يحتسبَ؛ فإنَّ شرطَ العصمةِ حسمٌ لِبابِ الاحتساب؛ إذ لا عصمةَ للصحابةِ رضي الله عنهم فضلاً عمَّنْ دونَهم.

والأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ قد اختُلِفَ في عصمتِهم عن صغائر الخطايا، والقرآنُ دالٌّ على نسبةِ آدمَ صلوات الله عليه إلى المعصية، وكذا جماعةٌ مِنَ الأنبياءِ صلوات الله عليهم.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٢٠) بنحوه.

(٢) رواه أحمد في الزهد (٣٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٢).

(م: وفي حلِّ هذا الإشكالِ حولَ نسبةِ الذَّنبِ إلى الأنبياءِ مع وجودِ العصمةِ يقولُ الشيخُ عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ رحمه الله: «لا بُدَّ لكلِّ مُكلَّفٍ مِنَ الذنب، ولكنْ ذنوبُ الأنبياءِ عليهم السلام ليستْ كذنوبِ المؤمنين، وذنوبُ المؤمنين ليست كذنوبِ غيرهم، والعصمةُ للأنبياءِ والحفظُ للأولياء لا يُنافيان الذَّنبَ، وذلك لأنَّ عصمةَ الأنبياءِ عليهم السلام مِنْ جميعِ ذنوبِ المؤمنين لا مِنْ مُطلَقِ الذنوب، وكذلك حفظُ المؤمنين مِنْ ذنوبِ مَنْ دونهم لا مِنْ مُطلَقِ الذنوب»[1]، ويقال في حقِّهم: حسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبين) .

واعلم أنَّ الحسبةَ تارةً تكونُ بالوعظِ وتارةً بالقهرِ، ولا ينجعُ وعظُ مَنْ لا يَتَّعِظُ هو أوّلاً؛ لعلمِ الناسِ بفسقِهِ، فليس عليه الحسبةُ؛ إذ لا فائدةَ في وعظِهِ، فإذا سقطت فائدةُ الكلامِ سقطَ وجوبُهُ.

فأما إذا كانت الحِسبةُ بالقهر، وقد قَدَرَ عليه، فعليه الحِسبةُ، فلا حجرَ على الفاسقِ في إراقة الخمورِ وكسرِ الملاهي وغيرِها إذا قَدَرَ عليها، وهذا غايةُ الإنصافِ والكشفِ في المسألة.

وأما الآياتُ التي استدلُّوا بها فهو إنكارٌ عليهم مِنْ حيث تركُهُمَ المعروفَ لا مِنْ حيث أمرُهُم، ولكنَّ أمرَهُم دَلَّ على قوّةِ علمِهم، وعقابُ العالِمِ أشدُّ؛ لأنَّه لا عذرَ له مع قوَّةِ علمِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ إنكارٌ مِنْ حيثُ إنَّهم نَسَوا أنفسَهم، لا مِنْ حيث إنَّهم أمروا غيرَهم، ولكنْ ذَكَرَ أمرَ الغيرِ استدلالاً به على علمِهم وتأكيداً للحُجَّةِ عليهم.

---

(١) ينظر: (الفتح الرباني والفيض الرحماني) للشيخ عبد الغني النابلسي (٥٤. ٥٥).

وقولُهُ: (يا ابنَ مريمَ، عِظْ نفسَكَ ... إلخ)، هو في الحِسبةِ بالوعظِ، وقد سلَّمنا أنَّ وعظَ الفاسقِ ساقطُ الجدوى عند مَنْ يعرفُ فِسْقَهُ.

ثم قولُهُ: (فاستحيِ مني) لا يدلُّ على تحريمِ وعظِ الغير، بل معناه: استحيِ منِّي فلا تتركِ الأهمَّ وتشتغلَ بالمهمِّ، كما يقال: احفظْ أباكَ ثم جارَكَ، وإلاَّ فاستحيِ.

[مراتب الحسبة وشروطها]

واعلم أنَّ الحسبةَ لها خمسُ مراتبَ:

أوّلها: التَّعريفُ.

والثانية: الوعظُ بالكلامِ اللَّطيف.

والثالثة: السَّبُّ والتَّعنيف، ولستُ أعني بالسَّبِّ الفحشَ، بل أن يقولَ: يا جاهلُ، يا أحمقُ، يا فاسقُ؛ ألا تخافُ الله، وما يجري هذا المجرى.

والرابعة: المنعُ بالقهرِ بطريقِ المباشرةِ ككسرِ الملاهي، وإراقةِ الخمرِ، واختطافِ الثَّوبِ الحريرِ مِنْ لابِسِهِ، واستلابِ الشيءِ المغصوبِ منه وردِّهِ على صاحبِهِ.

والخامسة: التَّخويفُ والتَّهديدُ بالضَّربِ، ومباشرةُ الضَّربِ له حتَّى يمتنعَ عنه.

واعلم أنَّ الحِسبةَ للولدِ على الوالدِ بالتَّعريفِ، ثمَّ بالوعظِ والنُّصحِ بالتلطُّفِ، وليس له غيرُ ذلك.

وسئل الحسنُ رحمه الله عن الولد كيف يحتسبُ على والدِهِ؟ فقال: يَعِظُهُ ما لم يغضب، فإن غَضِبَ سكت عنه.

وكذلك حِسبةُ العبدِ على السَّيِّدِ، وحِسبةُ الزَّوجةِ على الزَّوجِ، فهما قريبان مِنَ الولدِ في لزومِ الحقِّ، وإن كان مِلْكُ اليمينِ آكدُ مِنْ ملكِ النِّكاحِ، ولكن في الخبر أنَّه: «لَوْ جَازَ السُّجُودُ لِمَخْلُوقٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»[1].

وأمَّا الرَّعيَّةُ مع السُّلطانِ فالأمرُ فيها أشدُّ مِنَ الوالدِ، فليس لهم معه إلا التَّعريفُ والنُّصحُ.

وأما التِّلميذُ والأستاذُ فالأمرُ فيما بينهما أخفُّ؛ لأنَّ المحترَمَ هو الأستاذُ المفيدُ للعلمِ مِنْ حيثُ الدِّين، ولا حرمةَ لعالِمٍ لا يعملُ بعلمِهِ، فله أن يُعامِلَهُ بموجَبِ علمِهِ الذي تعلَّمَهُ منه.

واعلم أنَّ مَنْ يعلمُ أنَّه لا ينفعُ كلامُهُ ويُضرَبُ إن تكلَّم فلا تجبُ عليه الحِسبة، بل ربَّما يحرمُ في بعضِ المواضعِ.

نَعَمْ، يلزمُهُ أن لا يحضرَ مواضعَ المنكرِ، وأن يعتزلَ في بيته حتى لا يشاهد، ولا يخرج إلا لحاجةٍ مُهمَّةٍ أو واجبٍ.

ولا يلزمُهُ مفارقةُ تلك البلدةِ إلا إذا يقتربُ إلى الفسادِ أو يُحمَلُ على مساعدةِ السَّلاطين في الظلم والمنكرات، فيلزمُهُ الهجرةُ إن قدرَ عليها؛ فإنَّ الإكراهَ لا يكون عذراً في حقِّ مَنْ يكون قادراً على الهربِ مِنَ الإكراهِ، (م: كما قال تعالى معاتِباً المدَّعين أنَّهم مستضعفون في الأرض: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٧]).

---

(١) رواه الترمذي (١١٥٩).

ومَنْ يعلمُ أنَّ المنكرَ يزولُ بقولِهِ وفعلِهِ، ولا يخافُ على مكروهٍ ينالُهُ يجبُ الاحتسابُ عليه، وهذه هي القدرةُ المطلقة، فإن عَلِمَ أنَّه لا يفيدُ إنكارُهُ، لكنَّه لا يخاف مكروهاً، فلا تجبُ عليه الحسبةُ؛ لعدمِ فائدتها، ولكنْ تُستحبُّ لإظهارِ شعائرِ الإسلامِ، وتذكيرِ الناسِ بأمرِ الدِّين.

وإن عَلِمَ أنه يُصابُ بمكروهٍ، ولكنْ يُبْطِلُ المنكرَ بفعلِهِ كما يقدرُ على أن يرميَ زجاجةَ الفاسقِ بحجرٍ فيكسرَها ويريقَ الخمرَ، فهذا ليس بواجبٍ وليس بحرامٍ، بل هو مستحبٌّ، ويدلُّ عليه الخبرُ الذي أوردناه في فضلِ كلمةِ حقٍّ عندَ إمامٍ جائرٍ، ولا شَكَّ في أنَّ ذلك مَظِنَّةُ الخوفِ.

ويدلُّ عليه ما رُوِيَ عن أبي سليمان الداراني رحمه الله أنه قال: (سمعتُ مِنْ بعضِ الخلفاء كلاماً، فأردتُ أن أنكرَ عليه وعلمتُ أنِّي أقتلُ، ولم يمنعني القتلُ ولكنْ كان في ملأٍ مِنَ الناسِ، فخشيتُ أن يعتريني التَّزيُّنُ للخلقِ، فأقتلَ مِنْ غيرِ إخلاصٍ في الفعلِ)(١).

واعلم أنَّ للحسبة شروطاً وهي أن يعلمَ ما فيه الحِسبةُ، وهو كلُّ منكرٍ، موجودٍ في الحال، ظاهرٍ للمُحتسِبِ بغيرِ تجسُّسٍ، معلومٍ كونُهُ منكراً بغيرِ اجتهادٍ، فهذه أربعةُ شروطٍ، فلنبحثْ عنها:

أ. كونُهُ منكراً: سواء كان صغيرةً أو كبيرةً، فلا تختصُّ الحِسبةُ بالكبائر، بل كشفُ العورةِ في الحمّام، والخلوةُ بالأجنبيّةِ، وإتباعُ النَّظرِ للنِّسوةِ الأجنبياتِ كلُّ ذلك مِنَ الصغائر، ويجبُ النَّهيُ عنها.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٣٧).

ب. أن يكونَ ما فيه الحِسبةُ موجوداً في الحال: وهو احترازٌ عن الحِسبةِ على مَنْ فرغَ مِنْ شربِ الخمرِ، فإنَّ ذلك ليس إلى الآحادِ وقدِ انقرضَ المنكرُ، بل ذلك إلى الولاةِ، واحترازٌ عمّا سيوجدُ في ثاني الحال، كمن يعلمُ بقرينةِ حالٍ أنَّه عازمٌ على الشُّربِ في ليلتِهِ، فلا حِسبةَ عليه إلا بالوعظ، وإن أنكرَ عزمَهُ عليه لم يَجُزْ وعظُهُ أيضاً؛ فإنَّ فيه إساءةَ الظَّنِّ بالمسلم.

ج. أن يكونَ المنكرُ ظاهراً للمُحتسِبِ بغيرِ تجسُّسٍ، فكلُّ مَنْ سَتَرَ معصيةً في دارِهِ وأغلقَ بابَهُ لا يجوزُ أن يُتجسَّسَ عليه، فلا ينبغي أن يسترقَ السَّمعَ على دارِ غيرِهِ ليسمعَ صوتَ الأوتار، ولا يستنشق ليُدرِكَ رائحةَ الخمر، ولا أن يَسْتَخْبِرَ مِنْ جيرانِهِ ليُخبروهُ بما يجري في دارِهِ؛ فقد نهى الله عنه.

روي أنَّ عمرَ ﵁ تَسَلَّقَ دارَ رجلٍ فرآه على حالةٍ مكروهةٍ، فأنكرَ عليه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن كنتُ قد عصيتُ اللهَ بوجهٍ فقد عصيتَهُ مِنْ ثلاثةِ أوجه، فقال: وما هي؟ فقال: قد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد تجسَّسْتَ، وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وقد تَسَوَّرتَ مِنَ السطحِ، وقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وما سَلَّمْتَ، فَتَرَكَهُ عمرُ وشَرَطَ عليه التوبةَ.

وحدُّ الاستتار: أن يُغلِقَ بابَ دارِهِ ويَستَتِرَ بحيطانه، فلا يجوزُ الدُّخولُ عليه بغير إذنِهِ لِتَعْرِفَ المعصيةَ إلا أن يظهرَ في الدارِ ظهوراً يعرفُهُ مَنْ هو خارجُ الدار؛ كأصواتِ المزاميرِ والأوتارِ إذا ارتفعَتْ بحيث جاوزَ حيطانَ الدار، فَمَنْ سَمِعَ ذلك فله دخولُ الدارِ وكَسْرُها، وكذلك إذا ارتفعَتْ أصواتُ السُّكارى بالكلماتِ المألوفةِ بينهم، بحيث يسمعُها أهلُ الشوارع، فهذا إظهارٌ مُوجِبٌ للحِسبةِ.

د. أن يكونَ كونُهُ مُنكَراً معلوماً بغيرِ اجتهاد: فكلُّ ما هو في محلّ الاجتهادِ فلا حِسبةَ فيه، فليس للحنفيِّ أن يُنكِرَ على الشافعيّ أكلهُ الضّبَّ والضّبعَ ومتروكَ التّسميةِ، ولا للشافعيِّ أن يُنكِرَ على الحنفيّ شربَهُ النَّبيذَ الذي ليس بمسكرٍ، وتناولَهُ ميراثَ ذوي الأرحام، إلى غير ذلك مِنْ مجاري الاجتهاد.

وشرط المحتسَبِ عليه: أن يكونَ بصفةٍ يصيرُ الفعلُ الممنوعُ منه في حقّه منكراً، وأقلُّ ما يكفي في ذلك أن يكونَ إنساناً، ولا يُشترَطُ كونُهُ مكلَّفاً؛ إذ بيَّنا أنَّ الصَّبيَّ لو شَرِبَ الخمرَ مُنِعَ منه واحتُسِبَ عليه، وإنْ كان قبلَ البلوغِ.

[درجات الاحتساب وآدابه]

وأما نفسُ الاحتسابِ فله درجاتٌ وآدابٌ:

أما الدرجاتُ: فأوّلُها التَّعرُّفُ، ثمَّ التعريفُ، ثم النَّهيُ، ثم الوعظُ والنُّصحُ، ثُمَّ السَّبُّ والتَّعنيفُ، ثم التَّغييرُ باليد، ثم التَّهديدُ بالضَّربِ، ثم إيقاعُ الضَّربِ وتحقيقُهُ، ثم شَهْرُ السِّلاحِ، ثم الاستظهارُ فيه بالأعوانِ وجمعِ الجنود.

ويُراعي المحتسِبُ التَّدريجَ في ذلك كلِّه، ويقتصرُ في طريق التَّغييرِ على القدرِ المحتاجِ إليه.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وقد جَعَلَ الشارعُ ﷺ لتغييرِ المنكرِ ثلاثةَ طرقٍ: اليد واللسان والقلب، وكان سيدي عليٌّ الخواصُ رحمه الله يقول: تغييرُ المنكرِ باليد للولاة الذين إن ضَرَبوا العاصيَ لا يقدرُ يضربهم، وتغييرُهُ باللسانِ للعلماء العاملين، فيأمرونَ الناسَ وينهونهم فيمتثلون قولَهم، وتغييرُهُ بالقلبِ لكُمَّلِ العارفين، فيتوجَّهُ العارفُ إلى الله في كسرِ جَرّةِ الخمرِ، فَتَنْفَلِق

نصفين بنفسها، وإلى الظالم فتيبس يده التي يضربُ بها ذلك المظلوم، فقلتُ له: إنَّ الشارعَ جَعَلَ ذلك أضعفَ الإيمان، فقال: جَعْلُهُ صحيحٌ؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما ارتفعَ عن حجابِ الإيمانِ إلى حضرةِ الإحسان رقَّ حجابُ إيمانِهِ، فكَنَى عن تلك الرِّقةِ بالضَّعفِ بالنظر لمرتبةِ الشهودِ الواقع لأهلِ حضرةِ الإحسانِ، فليس المرادُ بضعفِ الإيمانِ الضَّعفَ المذمومَ؛ لأنَّ صاحبَ هذا الحالِ قد ارتقى عن الإيمانِ خلفَ الحجابِ إلى حضرة الشهود، كالذي كان مؤمناً بشيءٍ مِنْ وراء حائطٍ مِنْ زجاجٍ ثخينةٍ لا يرى أحدٌ ما وراءها، فصارت تَرِقُّ وتَدِقُّ حتى صارت كالبلور تحكي ما وراءها، فهذا معنى قولِهِ «أضعف الإيمان»، وأما على ما يفهمه غالبُ الناسِ مِنْ أنَّه يُنكِرُ بقلبِهِ فليس ذلك بتغييرٍ للمنكر، بل هو باقٍ، والشارعُ قد صرَّحَ بأنه يُغيِّرُهُ بقلبِهِ، وليس التغييرُ إلا ما ذكرناه مِنْ كسرِ جَرَّةِ الخمرِ مثلاً، فافهم هذا، مع أنَّا نقولُ: الإنكارُ بالقلبِ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ»[1].

واعلم أنَّ جميعَ آدابِ المحتسِبِ مصدرُها ثلاثُ صفاتٍ: العلمُ، والورعُ، وحسنُ الخلق.

أما العلمُ: فَلِيَعْلَمَ مواقعَ الحِسبةِ وحدودَها ومجاريَها وموانعَها؛ لِيَقتصِرَ على حدِّ الشَّرعِ فيه.

وأما الورعُ: فليردعَهُ عن مخالفةِ معلومةٍ، فما كُلُّ مَنْ عَلِمَ عَمِلَ بعلمه، فإذا عَمِلَ يكونُ كلامُهُ ووعظُهُ مقبولاً.

وأما حسنُ الخلقِ: فليتمكَّنَ مِنَ اللُّطفِ والرِّفقِ، وهو أصلُ البابِ وأساسُهُ، والعلمُ والورعُ لا يكفيان فيه؛ فإنَّ الورعَ لا يَتِمُّ إلا مع حسنِ الخلقِ والقُدرةِ على

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٥٨٥).

ضبطِ الشَّهوةِ والغضب، وبه يصبرُ المحتسِبُ على ما أصابَهُ في دين الله، وإلا فإذا أُصيبَ عرضُهُ أو نفسُهُ بشتمٍ أو ضربٍ نَسِيَ الحِسبةَ، وغفلَ عن دينِ الله واشتغلَ بنفسِهِ، بل ربَّما يقدمُ عليه ابتداءً لطلبِ الجاهِ والاسمِ.

فهذه الصِّفاتُ الثلاثُ بها تصيرُ الحِسبةُ مِنَ القربات، وبها تندفعُ المنكرات، وإن فُقِدَتْ فربَّما كانت الحِسبةُ أيضاً مُنكرةً؛ لمجاوزةِ حدِّ الشرعِ فيها.

ودلَّ على هذه الآدابِ قولُهُ ﷺ: «لاَ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ إِلاَّ رَفِيقٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقٌ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ، حَلِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمٌ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ، فَقِيهٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ فَقِيهٌ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ»[1].

وهذا يدلُّ على أنَّه لا يُشترَطُ أن يكونَ فقيهاً مطلقاً، بل فيما يأمرُ به وينهى عنه، وكذا الحلمُ.

قال الحسنُ البصري رضي الله عنه: (إذا كنتَ مِمَّنْ يأمرُ بالمعروف فَكُنْ مِنْ آخذِ الناسِ به، وإلا هلكتَ)[2].

وقد قيل:

لا تَلُمِ المرْءَ على فِعْلِهِ ... وأنتَ مَنْسُوبٌ إلى مِثْلِهِ
مَنْ ذَمَّ شيئاً وأتى مِثْلَهُ ... فإنَّما يَزْري على عَقْلِهِ

ولأبي العتاهية:

تَدُلُّ على التَّقوى وأنتَ مُقصِّرٌ ... أيا مَنْ يُداوي النَّاسَ وَهْوَ سَقِيمُ

---

(١) رواه بنحوه الديلمي في مسند الفردوس (٧٧٤١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٩١).

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وسمعتُ أخي أفضلَ الدين ـ رحمه الله ـ يقول: «إني لأتعجَّبُ مِمّنْ يشتغلُ بإزالةِ منكراتِ الغير، ولا يسعى في إزالةِ منكراتِ نفسِهِ، ويهجرُ الغيرَ ولا يهجرُ أفعالَ نفسِهِ الرديئةِ، وإن كان كلٌّ منهما واجباً، ولكنَّ الله ذَمَّ مَنْ ينسى نفسَهُ ويشتغلُ بأمرِ الخلقِ في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٤]، أي: وهو أقربُ الأشياءِ إليكم، وقال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وفي ذلك قال الشاعر:

لا تَنْـهَ عَـنْ خُلُقٍ وَتَأْتِـيَ مِثْلَهُ ... عـارٌ عَلَيْكَ إذا فَعَلْـتَ عَظِيمُ
اِبْدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْهَهَـا عَنْ غَيِّهَا ... فَـإِذَا فَعَلْتَ كَـذَا فَأَنْتَ حَكِيمُ

وهذا العهدُ يُخِلُّ به كثيرٌ مِنَ الناس؛ لأجلِ عدمِ سلامتِهم مِنَ المنكر، فيخافون أن ينكروا منكراً فيقولَ الناسُ: انهوا أنتم أنفسكم عن كذا وكذا، ولو أنَّهم سَلِمُوا مِنَ المنكرِ لَرُبَّما انقادَ الناسُ لهم، ومِنْ هنا قالوا: لا ينبغي لإنسانٍ أن يَعِظَ الناسَ إلا إن كان مُتَّعِظاً قَبْلَهم، فلا يأمرُهم بتركِ الدُّنيا ويُزاحِمُ هو عليها، ولا يأمرُهُم بالصدقةِ ويبخلُ هو، ولا يأمرُهُم بقيامِ الليلِ وينام هو، وقِسْ على ذلك؛ لأنَّ رؤيةَ الناسِ إلى أفعالِهِ تحجبُهم عن سماعِ مقالِهِ.

ولا يخفى أنَّ ذلك أكثريٌّ لا كُلِّيٌّ، فلا يلزمُ مِنْ عدمِ انقيادِ الناسِ للواعظِ أنَّه غيرُ عاملٍ بعلمِهِ، فإنَّ الأنبياءَ ـ عليهم السلام ـ عاملون بعلمهم بالإجماعِ؛ لعصمتهم، ومع ذلك فما أطاعهم وانقادَ لهم إلا القليل[1].

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٥٨٦. ٥٨٧).

وقال قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن لا نتهاونَ بتركِ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر مُداهنةً للناس، وطَلَباً لمرضاتهم الفاسدة؛ فإنَّ أمرَ الله تعالى وأمرَ رسولِهِ ﷺ أحقُّ بالمراعاة والتقديم، ومعلومٌ أنَّ مَنْ راعى أمرَ الله تعالى وقدَّمَهُ على أمرِ عبادِهِ لا بُدَّ أن ينصرَهُ الله تعالى على ذلك الظالمِ، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقد مضى الأئمّةُ والعلماءُ القوّامونَ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ، وأظلمَتِ الدُّنيا لفقدِهم، وكانت أنفاسُهُم تحميهم مِنَ الظُّلمةِ حتى يقوموا بالمرتبة، وذلك حين كان الدِّينُ في زيادة، فلما أخذَ الدِّينُ في النَّقصِ في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ضَعُفَتْ قلوبُ العلماء، وعَجَزَتْ عن إزالةِ المنكراتِ؛ لكثرتِها وقلَّةِ مَنْ يُساعِدُ عليها وقلّةِ الوُلاةِ الذين يسمعون للعلماء، بل نقول: لو أنَّ العلماءَ الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الزمان الماضي عاشوا إلى اليوم لكانوا مثلَنا في عدمِ الإنكارِ ولكنْ سبقُونا بالزمان.

وقد حكى لي شيخُنا شيخُ الإسلام زكريا الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أنَّ سفيانَ الثوري كان يخرجُ إلى السوقِ فيأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، فما ماتَ حتى صار يرى المنكرَ فلا يُنكِرُهُ، فقيل له في ذلك، فقال: قد انفتحَ في الإسلام ثلمة، فأردنا أن نسدها فانفتح في الإسلام ذروة وانهدمت من أركانه أركانٌ، ثم صار يبولُ من القهرِ الدَّمَ إلى أن مات[1].

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

ولسنا نعني بهذا أنّ الأمرَ بالمعروفِ يصيرُ ممنوعاً بالفسق، ولكنْ قد يسقطُ أثرُهُ عن القلوبِ بظهورِ فسقِهِ للناس، فقد رُوِيَ عن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله ﷺ، لا نأمرُ بالمعروفِ حتى نعمل به كلّه، ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبَهُ كلَّه، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ»[١].

وأوصى بعضُ السَّلفِ بنيه فقال: (إن أراد أحدُكم أن يأمرَ بالمعروفِ فليوطِّنْ نفسَهُ على الصَّبر، وليثِقْ بالثواب مِنَ الله، فَمَنْ وَثِقَ بالثواب لم يجد مَسَّ الأذى)[٢].

ولذلك قَرَنَ الله تعالى الصَّبرَ بالأمر بالمعروف، فقال حاكياً عن لقمان عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

ومِنَ الآداب: تقليلُ العلائقِ حتى لا يكثُرَ خوفُهُ، وقطعُ الطَّمعِ عن الخلائق حتَّى تزولَ المداهنةُ، فقد رُوِيَ عن بعض المشايخ أنَّه كان له سِنَّورٌ، وكان يأخذُ مِنْ قصَّابٍ في جوارِهِ كلَّ يومٍ شيئاً مِنَ الغُدَدِ لِسِنَّورِهِ، فرأى على القَصَّابِ منكراً، فدخل الدارَ أوّلاً وأخرجَ السِّنَّور، ثم جاء واحتسبَ على القَصَّابِ، فقال له القَصَّابُ: لا أُعطيكَ بعد هذا شيئاً لِسِنَّورِكَ، فقال: ما احتسبتُ عليكَ إلا بعد إخراجِ السِّنَّورِ وقطعِ الطَّمعِ منك.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦٦٢٤)، والصغير (٢/ ٧٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٦١٠٣).

وهو كما قال، فَمَنْ لم يقطعِ الطَّمعَ مِنَ الخلقِ لم يقدر على الحِسبة، ومَنْ طَمِعَ في أن تكونَ قلوبُ الناسِ عليه طيبةً، وألسنتُهم بالثناءِ عليه مُطلقةً لم تتيسّرْ له الحِسبة.

ويدلُّ على وجوبِ الرِّفقِ ما استدلَّ به المأمونُ رحمه الله إذ وَعَظَهُ واعظٌ وعنَّفَ له في القول، فقال له: يا رجلُ؛ ارفق، فقد بَعَثَ اللهُ مَنْ هو خيرٌ منكَ إلى مَنْ هو شرٌّ منِّي وأمرَهُ بالرِّفقِ، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

فليكنْ اقتداءُ المحتسِبِ في الرِّفقِ بالأنبياء صلوات الله عليهم، فقد روى أبو أمامةَ رضي الله عنه أنَّ غلاماً شاباً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا نبيَّ الله ﷺ أتأذنُ لي في الزِّنى؟ فصاحَ الناسُ به، فقال النبيُّ ﷺ: «قَرِّبُوهُ، ادْنُ»، فدنا حتَّى جلسَ بين يديه فقال النبيُّ ﷺ: «أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ»؟ فقال: لا، جَعَلَني الله فِداكَ، قال: «كَذلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ»؟ قال: لا، جَعَلَني الله فِداكَ، قال: «كَذلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ»؟

وزاد ابن عوف حتى ذكرَ العَمّةَ والخالةَ وهو يقولُ في كلِّ واحدٍ: لا، جَعَلني الله فداكَ، وهو يقول: «كَذلِكَ النَّاسُ لاَ يُحِبُّونَهُ»، فَوَضَعَ رسولُ الله ﷺ يدَهُ على صدرِهِ وقال: «اللهُمَّ طَهِّرْ قَلْبَهُ، وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فلم يكن شيءٌ أبغضَ إليه منه، يعني: مِنَ الزنى»[1].

وينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يبدأَ بنفسِهِ فيُصلِحَها بالمواظبةِ على الفرائضِ وتركِ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٥٦)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٦٢).

المحرَّمات، ثم يُعلِّمَ ذلك أهلَ بيتِهِ، ثم يتعدَّى بعد الفراغِ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهلِ محلَّتِهِ، ثم إلى أهلِ بلده، ثم إلى أهلِ السَّوادِ المُلصَقِ ببلده، ثم إلى أهلِ البوادي مِنَ الأكرادِ والعربِ وغيرِهم، وهكذا إلى أقصى العالَمِ، فإن قام به الأدنى سَقَطَ عن الأبعد، وإلا حَرِجَ به كلُّ قادرٍ عليه، قريباً كان أو بعيداً، ولا يسقطُ الحرجُ ما دام يبقى على وجه الأرضِ جاهلٌ بفرضٍ مِنْ فروضِ دينِهِ، وهو قادرٌ على أن يسعى إليه بنفسِهِ أو بغيرِهِ فيُعلِّمَهُ فرضَهُ.

❊

الكتاب العاشر من ربع العادات
في آداب المعيشة وأخلاق النبوة

(بالخُلُقِ الحَسَن تشرَّفَ مَنْ تشرَّف ووَصَلَ مَنْ وَصَل)
(أحسنُ الحَسَن الخُلُقُ الحَسَن)

اعلم أنَّ آدابَ الظواهرِ عنوانُ آدابِ البواطن، وحركاتِ الجوارحِ ثمراتُ الخواطر، والأعمالَ نتيجةُ الأخلاقِ، والآدابَ رَشْحُ المعارفِ، وسرائرَ القلوبِ هي مغارسُ الأفعالِ ومنابعُها، وأنوارَ السرائرِ هي التي تُشرِقُ على الظواهر، ومَنْ لم يخشعْ قلبُهُ لم تخشَعْ جوارحُهُ، ومَنْ لم يكن صدرُهُ مشكاةَ الأنوارِ الإلهيّةِ لم يفض على ظاهرِهِ جمالُ الآدابِ النَّبويَّة.

ولقد كنتُ عزمتُ على أن أختمَ ربعَ العاداتِ مِنْ هذا الكتابِ بكتابٍ جامعٍ لآدابِ المعيشةِ، ثم رأيتُ كلَّ كتابٍ مِنْ ربعِ العاداتِ قد أتى على جملةٍ مِنَ الآداب فاستثقلتُ تكريرَها وإعادتَها، فرأيتُ أن أقتصرَ على ذكرِ آدابِ رسولِ الله ﷺ وأخلاقِهِ المأثورةِ عنه بالإسناد، فأسردَها مجموعةً فصلاً فصلاً، محذوفةَ الأسانيد؛ ليجتمعَ فيه مع جميعِ الآدابِ تجديدُ الإيمانِ، وتأكيدُهُ بمشاهدةِ أخلاقِهِ الكريمةِ التي يشهدُ آحادُها على القطع بأنَّه ﷺ أكرمُ خلقِ الله تعالى، فكيف بمجموعها؟

ثم أضيفُ إلى ذكرِ أخلاقِهِ ذكرَ خِلقَتِهِ؛ ليكونَ ذلك معرِّفاً مكارمَ الأخلاقِ والشِّيَم، ومُنتَزِعاً عن آذان الجاحدين لنبوَّتِهِ صِمامَ الصممِ، والله تعالى وليُّ التوفيقِ للاقتداء بسيِّدِ المرسلين ﷺ في الأخلاقِ والأحوالِ وسائرِ معالمِ الدِّين؛ فإنَّه دليلُ المتحيِّرين، ومجيبُ دعوةِ المضطرين.

(ش: اعلم أنَّ مفتاحَ السعادةِ بل مفتاح الجنة في اتباع السنةِ والاقتداءِ برسول الله ﷺ في جميعِ مصادرِهِ ومواردِهِ وحركاتِهِ وسكناتِهِ حتَّى في هيئةِ أكلِهِ وقيامِهِ ونومِهِ وكلامِهِ، ولستُ أقولُ ذلك في آدابِهِ فقط؛ لأنَّه لا وجهَ لإهمالِ السُّنَنِ الواردةِ فيها، بل ذلك في جميع أمورِ العاداتِ، فبذلك يحصلُ الاتِّباعُ المُطلَقُ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. ولذا قلتُ غفر الله لي:

أيُّها القَاصِدُ حُبَّ المُصْطَفَى	لا تكُنْ عن هَدْيِهِ مُنْصَرِفا
فالهُدَى كُلُّ الهُدَى في الإقتدا	إنْ سَرَى في سِرِّكَ نِلْتَ الشِّفا
مَنْ أقامَ شَرْعَهُ حَازَ المُنَى	وَكَذَاكَ الرَبُّ عَنْهُ قَدْ عَفَا
كَمْ شَرِيدٍ صَارَ حِبًّا مُجْتَبَى	بَعْدَ بُعْدٍ نَالَ غَايَاتِ الصَّفا
وَقَرِيبٍ زَادَ جَفْوًا فَاكْتَوَى	بِلَهِيبٍ ذاك حُكْمُ مَنْ جَفَا)

بيانُ تأديبِ الله تعالى حبيبَهُ ﷺ بالقرآن

كان رسولُ الله ﷺ كثيرَ الضَّراعةِ والابتهال، دائمَ السؤالِ مِنَ الله تعالى أن يُزَيِّنَهُ بمحاسنِ الآدابِ ومكارمِ الأخلاق، فكان يقولُ في دعائه: «اللهُمَّ حَسِّنْ

خَلْقِي وَخُلُقِي»[1]، ويقولُ: «اللهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ»[2]، فاستجابَ الله دعاءَهُ وفاءً بقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فأنزلَ الله عليه القرآنَ، وأدَّبَهُ به، فكان خُلُقُهُ القرآنَ.

قال سعدُ بنُ هشام: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، فسألتُها عن أخلاقِ رسولِ الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى، فقالت عائشةُ رضي الله تعالى عنها: «كان خُلُقُ رسولِ الله القُرآنَ»[3].

وإنما أدَّبه القرآنُ بمثلِ قولِهِ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وبقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وبقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وأمثالُ هذا التأديباتِ في القرآن لا تنحصرُ.

قال ﷺ: «بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[4].

ولمّا أكملَ الله سبحانه تعالى خُلُقَهُ أثنى عليه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [ن: ٤].

فانظر إلى عميمِ فضلِهِ سبحانه وتعالى كيف أعطى ثم أثنى! ثمَّ إنَّ رسولَ الله

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٤٠٣)، وابن حبان في صحيحه (٩٥٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩١).

(٣) رواه مسلم (٧٤٦).

(٤) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣).

ﷺ بيَّنَ للخلقِ أن الله يُحِبُّ مكارمَ الأخلاق ويُبغِضُ سفاسِفَها[1].

ومِنْ مكارمِ الأخلاقِ حسنُ المعاشرةِ، وكرمُ الصنيعةِ، ولينُ الجانبِ، وبذلُ المعروفِ، وإطعامُ الطعامِ، وإفشاءُ السلامِ، وعيادةُ المريضِ براً كان أو فاجراً، وتشييعُ جنازةِ المسلم، وحسنُ الجوارِ مسلماً كان أو كافراً، وتوقيرُ ذي الشيبةِ المسلم، وإجابةُ الطعامِ، والدُّعاءُ عليه، والعفوُ، والإصلاحُ بين الناسِ، والجودُ، والكرمُ، والسماحةُ، والابتداءُ بالسلام، وكظمُ الغيظِ، والعفوُ عن الناس، واجتنابُ ما حرَّمَهُ الإسلامُ مِنَ اللهوِ، والباطلِ، والغناءِ، والمعازفِ كلِّها، والكذبِ، والغيبةِ، والنَّميمةِ، والبخلِ، والشُّحِّ، والجفاءِ، والمكرِ، والخديعةِ، وسوءِ ذاتِ البين، وقطيعةِ الأرحامِ، وسوءِ الخلقِ، والتَّكبُّرِ، والفخرِ، والتَّبختُرِ، والاختيالِ، والاستطالةِ، والقَدحِ، والتَّفحُّشِ، والحقدِ، والحسدِ، والطِّيرةِ، والبغيِ، والظُّلمِ.

قال أنسٌ ﷺ: فلم يدع رسولُ الله ﷺ نصيحةً جميلةً إلا وقد دعانا إليها وأَمَرَنا بها، ولم يَدَعْ غِشاً ـ أو قال: عيباً ـ ولا شيناً إلا حذَّرَنا منه ونهانا عنه.

* * *

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩١).

بيانُ جملةٍ مِنْ محاسنِ أخلاقه ﷺ
التي جَمَعَها بعضُ العلماءِ والتقطها مِنَ الأخبار

كان ﷺ أحلمَ الناسِ، وأشجعَ الناس، وأعدلَ الناس، وأعفَّ الناسِ، لم تَمَسَّ يدُهُ قطُّ يدَ امرأةٍ لا يملكُ رِقَّها أو عصمةَ نكاحِها، أو تكونَ ذاتَ محرمٍ منه[1].

وكان ﷺ أسخى الناس، لا يبيتُ عندَهُ دينارٌ ولا درهمٌ، وإن فَضَلَ ولم يجد مَنْ يعطيه وفَجَأَهُ اللَّيلُ لم يأوِ إلى منزلِهِ حتى يتبرّأَ منه إلى مَنْ يحتاجُ إليه[2].

ولا يأخذُ ممّا آتاه الله إلا قوتَ عامِهِ فقط، مِنْ أيسرِ ما يجدُ مِنَ التمرِ والشَّعيرِ، ويضعُ سائرَ ذلك في سبيل الله.

لا يُسألُ شيئاً إلا أعطاه، ثم يعودُ على قوتِ عامِهِ فيؤثرُ منه، حتى إنَّه ربما احتاجَ قبلَ انقضاءِ العام إن لم يأتِهِ شيءٌ[3].

وكان ﷺ يَخْصِفُ النَّعلَ[4]، ويرقعُ الثَّوبَ، ويخدمُ في مهنةِ أهلِهِ[5]، ويقطعُ اللَّحمَ معهنَّ[6].

---

(١) رواه البخاري (٢٧١٣)، ومسلم (١٨٦٦).

(٢) رواه أبو داود (٣٠٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٩١٦).

(٤) أي: يُصلِحُها بترقيعٍ وخرزٍ.

(٥) رواه أحمد في المسند (٦/ ١٦٧).

(٦) رواه أحمد في المسند (٦/ ٩٤).

وكان ﷺ أشدّ الناس حياءً، لا يثبتُ بصرُهُ في وجهِ أحدٍ[١].

ويجيبُ دعوةَ العبدِ والحرّ[٢]، ويقبلُ الهديّةَ ولو أنّها جرعةُ لبنٍ أو فخذُ أرنبٍ، ويكافئُ عليها[٣]، ويأكلُها ولا يأكلُ الصدقةَ، ولا يستكبرُ عن إجابةِ الأمةِ والمسكين.

يغضبُ لربّه عزَّ وجلَّ ولا يغضبُ لنفسِهِ[٤]، وينفّذُ الحقَّ وإنْ عاد ذلك بالضررِ عليه أو على أصحابه[٥]، وعُرِضَ عليه الانتصارُ بالمشركين على المشركين، وهو في قلّةٍ وحاجةٍ إلى إنسانٍ واحدٍ يزيدُهُ في عددِ مَنْ معه فأبى وقال: «إنَّا لا نستنصرُ بمشرِكٍ»[٦].

وكان ﷺ يَعصِبُ الحجرَ على بطنِهِ مِنَ الجوع[٧]، ومرّةً يأكلُ ما حضرَ، ولا يردُّ ما وجد، ولا يتورَّعُ عَنْ مطعمٍ حلالٍ[٨]، وإن وجدَ تمراً دونَ خبزٍ أكلَهُ[٩]، وإن وجدَ شواءً أكلَهُ[١٠]، وإن وجدَ خبزَ بُرٍّ أو شعيرٍ أكلَهُ[١١]، وإن وجدَ حلواءَ

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٢).

(٢) رواه الترمذي (١٠١٧).

(٣) رواه البخاري (١٦٦٢- ٢٥٧٢- ٢٥٨٥) ومسلم (١١٢٣- ١٩٥٣).

(٤) رواه البخاري (٣٥٦٠).

(٥) رواه البخاري (٢٧١٣).

(٦) رواه مسلم (١٨١٧).

(٧) رواه البخاري (٤١٠١).

(٨) رواه مسلم (٢٠٥٢).

(٩) رواه مسلم (٢٠٤٤).

(١٠) رواه الترمذي (١٨٢٩).

(١١) رواه البخاري (٥٤١٦).

أو عسلاً أكلَهُ[١]، ولو وجدَ لبناً دون خبزٍ اكتفى به[٢].

لا يأكلُ مُتكئاً، ولا على خِوانٍ، لم يشبعْ مِنْ خبزِ بُرٍّ ثلاثةَ أيامٍ متواليةٍ حتى لَقِيَ الله؛ إيثاراً على نفسِهِ، لا فقراً ولا بخلاً.

ويجيبُ الوليمةَ، ويعودُ المرضى، ويشهدُ الجنائزَ، ويمشي وحدَهُ بين أعدائه بلا حارسٍ[٣].

وكان ﷺ أشدَّ الناسِ تواضعاً، وأسكنَهُم مِنْ غيرِ كبرٍ، وأبلغَهم مِنْ غيرِ تطويلٍ[٤]، وأحسنَهم بشراً[٥].

لا يهولُهُ شيءٌ مِنْ أمورِ الدنيا، ويلبسُ ما وجدَ، فمرَّةً شملةً، ومرةً حبرةً أي: برداً يمانياً، ومرّةً جبةَ صوفٍ، ما وجدَ مِنَ المباح لَبِسَ[٦].

وخاتمُهُ فضّةٌ[٧]، يلبسُهُ في خِنصرِهِ الأيمنِ، وتارةً في الأيسر[٨].

يُردِفُ خلفَهُ في الركبِ عبدَهُ أو غيرَهُ[٩]، يَركَبُ ما أمكنَهُ، مرّةً فرساً، ومرّةً بعيراً، ومرّةً بغلةً شهباءَ، ومرّةً حماراً، ومرة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامةٍ ولا قلنسوةٍ.

---

(١) رواه البخاري (٥٤٣١).

(٢) رواه البخاري (٢١١).

(٣) رواه الترمذي (٣٠٤٦).

(٤) رواه البخاري (٣٥٦٨).

(٥) رواه الترمذي في الشمائل (٣٥١).

(٦) رواه البخاري (١٢٧٧).

(٧) رواه البخاري (٦٥).

(٨) رواه مسلم (٢٠٩٤. ٢٠٩٥).

(٩) رواه البخاري (٥٤٤).

يُحِبُّ الطِّيبَ، ويكرهُ الرائحةَ الرَّديئة[١].

ويجالسُ الفقراءَ، ويُؤاكِلُ المساكين[٢]، ويُكرمُ أهلَ الفضلِ في أخلاقِهم، ويتألَّفُ أهلَ الشَّرفِ بالبرِّ لهم[٣].

ويَصِلُ ذوي رحمِهِ مِنْ غير أن يؤثرَهُم على مَنْ هو أفضلُ منهم[٤].

لا يجفو على أحدٍ[٥]، ويقبلُ معذرةَ المعتذِرِ إليه[٦].

يمزحُ ولا يقولُ إلّا حقّاً[٧]، يضحكُ مِنْ غير قهقهةٍ[٨]، يرى اللَّعبَ المباحَ فلا يُنكِرُهُ، ويُسابِقُ أهلَهُ، وتُرفَعُ الأصواتُ عليه فيصبر[٩].

وكان له غنمٌ يتقوَّتُ هو وأهلُهُ مِنْ ألبانِها، وكان له عبيدٌ وإماءٌ لا يرتفعُ عليهم في مأكلٍ ولا ملبسٍ[١٠].

ولا يمضي له وقتٌ في غيرِ عملٍ لله تعالى، أو فيما لا بُدَّ له مِنْ صلاح نفسِه[١١].

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٧٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٣) رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٦).

(٤) رواه البخاري (٤٦٦).

(٥) رواه الترمذي في الشمائل (٣٤٤).

(٦) رواه البخاري (٤٤١٨).

(٧) رواه الترمذي (١٩٩٠).

(٨) رواه البخاري (٤٨٢٩).

(٩) رواه البخاري (٤٣٦٧).

(١٠) رواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢٨).

(١١) رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٦).

لا يحقِّرُ مسكيناً لفقرِهِ، ولا يهابُ مَلِكاً لملكِهِ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً واحداً.

قد جمَعَ الله السِّيرةَ الفاضلةَ والسياسةَ التامّةَ فيه، وهو أمّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتبُ، نشأ في بلادِ الجهلِ والصحارى في فقرٍ وفي رعايةِ غنمٍ، يتيماً لا أبَ له ولا أمَّ، فعلَّمَهُ الله تعالى جميعَ محاسنِ الأخلاقِ والطُّرُق الحميدة وأخبار الأوّلين والآخرين، وما فيه النَّجاةُ والفوزُ في الآخرة، والغبطةُ والخلاصُ في الدنيا، ولزومَ الواجبِ وتركَ الفضول. وفَّقنا الله لطاعته في أمرِهِ والتأسِّي به في فعلِهِ، آمين آمين يا ربَّ العالمين.

ومِنْ آدابِهِ وأخلاقِهِ ﷺ أنَّه ما شَتَمَ أحداً مِنَ المؤمنين بشتيمةٍ إلا جُعِلَتْ له كفّارةً ورحمةً[1]، وما لَعَنَ امرأةً قطُّ ولا خادماً، وقيل له وهو في القتال: لو لَعَنْتَهُم يا رسولَ الله ﷺ فقال: «إِنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً وَلَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً»[2].

وكان إذا سُئِلَ أن يدعو على أحدٍ، مسلمٍ أو كافرٍ، عامٍّ أو خاصٍّ عَدَلَ عن الدُّعاءِ عليه إلى الدعاء له[3].

ما ضَرَبَ بيدِهِ أحداً قطُّ إلا أن يضربَ بها في سبيل الله، وما انتقمَ مِنْ شيءٍ صُنِعَ إليه قطُّ إلا أن تُنْتَهَكَ حرمةُ الله، وما خُيِّرَ بين أمرَينِ قطُّ إلا اختارَ أيسرَهما إلا أن يكون فيه إثمٌ أو قطيعةُ رحمٍ، فيكونَ أبعدَ الناسِ مِنْ ذلك[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٩).

(٣) رواه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٤) رواه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

وما كان يأتيه أحدٌ، حُرٌ أو عبدٌ أو أمةٌ إلا قام معه في حاجتِهِ[1].

وقال أنسٌ رضي الله عنه: والذي بعثهُ بالحقّ ما قال لي في شيء قطُّ كَرِهَهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ ولا لَامَنِي نساؤُهُ إلا قال: «دَعُوهُ إنَّما كَانَ هذَا بِكِتَابٍ وَقَدَرٍ»[2].

وكان مِنْ خُلُقِهِ أن يبدأ مَنْ لَقِيَهُ بالسَّلامِ، وما أخذَ أحدٌ بيدِهِ فيرسلَ يدَهُ حتى يُرسِلَها الآخِذُ[3]، وكان إذا لَقِيَ أحداً مِنْ أصحابِهِ بدأه بالمصافحةِ، ثم أخذَ بيدِهِ فشابكَهُ، ثم شدَّ قبضتَهُ عليها.

وكان لا يقومُ ولا يجلسُ إلا على ذكر الله تعالى[4]، وكان لا يجلسُ إليه أحدٌ وهو يصلّي إلا خفَّفَ مِنْ صلاتِهِ وأقبلَ عليه، فقال: «أَلَكَ حَاجَةٌ»؟ فإذا فرَغَ مِنْ حاجتِه عاد إلى صلاته[5].

وكان ﷺ أكثرُ جلوسِهِ أن يَنْصِبَ ساقيه جميعاً، ويمسكَ بيديه عليهما شبهَ الحبوةِ[6].

ولم يكن يُعرَفُ مجلسُهُ مِنْ مجالسِ أصحابِهِ؛ لأنَّه كان حيثُ انتهى به المجلسُ جلسَ[7].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٧٢) معلّقاً، وروي موصولًا عند ابن ماجه (٤١٧٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٢٣١).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٩٠).

(٤) رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٦).

(٥) رواه أحمد في المسند (٣/ ٥٠٠).

(٦) رواه البخاري (٦٢٧٢).

(٧) رواه أبو داود (٤٦٩٨).

وما رُئِيَ قطُّ مادّاً رجليه بينَ أصحابِهِ حتَّى يضيِّقَ بهما على أحد إلا أن يكونَ المكانُ واسعاً لا ضيقَ فيه[١].

وكان ﷺ أكثرُ ما يجلسُ مستقبلَ القبلة.

وكان يُكرِمُ مَنْ يدخلُ عليه، حتَّى ربَّما بَسَطَ له ثوبَهُ، وربَّما يُؤثِرُهُ بالوسادةِ التي تكون تحتَهُ، فإن أبى أن يقبلَها عَزَمَ عليه حتى يفعلَ.

وكان ﷺ يدعو أصحابَهُ بِكُناهم؛ إكراماً لهم واستمالةً لقلوبهم، ويُكنِّي مَنْ لم تكن له كُنيةٌ، فكان يُدعى بما كَنَّاهُ به[٢]، وكان ﷺ يُكنِّي أيضاً النِّساءَ اللاتي لهنَّ أولادٌ، واللاتي لم يَلِدْنَ يبتدئُ لَهُنَّ الكُنى[٣]، ويُكنِّي الصِّبيانَ فيستلينُ به قلوبَهم[٤].

وكان ﷺ أبعدَ الناسِ غضباً، وأسرَعَهم رضاً[٥].

وكان ﷺ أرأفَ النـاسِ بالنـاس، وخيـرَ النـاسِ للنـاس، وأنفـعَ النـاسِ للنـاس[٦].

وكان إذا قامَ مِنْ مجلسِهِ قال: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، ثم يقول: عَلَّمَنِيهُنَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ».

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧١٦).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٣٠).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٧٠).

(٤) رواه البخاري (٦١٢٩).

(٥) رواه الترمذي (٢١٩١) بنحوه.

(٦) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٤/ ١٩٧).

بيانُ كلامِهِ وضَحِكِهِ

وكان ﷺ أفصحَ الناسِ مَنْطِقاً، وأحلاهم كلاماً، وكان يقول: «أنا أفصحُ العربِ»[١]، وإنَّ أهلَ الجنةِ يتكلَّمون فيها بِلُغةِ محمَّدٍ ﷺ[٢].

وكان نزرَ الكلامِ، سَمْحَ المقالةِ، ليس بمهذارٍ، وكان كلامُهُ كخرزاتِ النَّظمِ[٣].

وكان أوجزَ الناسِ كلاماً، وبذلك جاءه جبريل عليه السلام، وكان مع الإيجازِ يجمعُ كلَّ ما أراد.

وكان جهيرَ الصَّوتِ، أحسنَ الناسِ نغمةً.

وكان طويلَ السُّكوتِ، لا يتكلَّمُ في غير حاجةٍ، ويُكنِّي عمّا اضطره الكلامُ إليه ممّا يكره[٤].

وكان إذا سكتَ تكلَّمَ جلساؤُهُ، ولا يُتنازَعُ عنده في الحديث[٥].

وكان ﷺ أكثرَ الناسِ تبسُّماً وضحكاً في وجوهِ أصحابِهِ، وتعجُّباً ممّا تحدَّثوا به، ولربَّما ضَحِكَ حتى تبدوَ نواجِذُهُ[٦].

---

(١) رواه ابن الأعرابي في معجمه (٢٤٠٨)، والطبراني في الكبير (٦/ ٣٥).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٢١٨).

(٣) رواه ابن سعد في طبقاته (١/ ١٩٦).

(٤) رواه البخاري (٢٦٣٩).

(٥) رواه الترمذي في الشمائل (٣٥١).

(٦) رواه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

بيانُ أخلاقِهِ وآدابِهِ في الطعام

وكان ﷺ يأكلُ ما وَجَدَ، وكان أحبُّ الطعامِ إليه ما كان على ضففٍ، والضَّفَفُ: ما كثُرَتْ عليه الأيدي، وكان إذا وُضِعَتِ المائدةُ قال: «بِسْمِ الله، اللهم اجْعَلْهَا نِعْمَةً مَشْكُورَةً تَصِلُ بِها نِعْمَةَ الجَنَّةِ»[١].

وكان كثيراً إذا جلسَ ليأكُلَ يجمعُ بين ركبتَيهِ وبين قدميه كما يجلسُ المصلي، إلا أنَّ الركبةَ تكونُ فوقَ الركبةِ والقدمَ فوقَ القدمِ، ويقول: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ، وَأَجْلِس كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ»[٢].

وكان ﷺ لا يأكلُ الحارَّ، ويقول: «إِنَّهُ غَيْرُ ذِي بَرَكَةٍ، وَإِنَّ الله لَمْ يُطْعِمْنا نَاراً، فَأَبْرِدُوهُ»[٣].

وكان يأكلُ ممّا يليه، ويأكلُ بأصابعِهِ الثلاث، وربَّما استعانَ بالرابعةِ، ولم يكن يأكلُ بأصبعين ويقول: «إِنَّ ذلِكَ أَكْلَةُ الشَّيطَانِ»[٤].

وجاءه عثمانُ بنُ عفّانَ رضي الله عنه بفالوذجٍ، فأكلَ منه، وقال: «مَا هذَا يَا أَبا عَبْد الله؟» قال: بأبي أنتَ وأمي، نجعلُ السمنَ والعسلَ في البُرمةِ ونضعُها على النار، ثم

---

(١) روى التسميةَ النسائيُّ، وأما بقية الحديث فلم أجده. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٧/ ١١٥).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (١٠/ ٤١٥)، وأبو يعلى (٤٩٢٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٨).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٦).

نغليه، ثم نأخذُ مُخَّ الحنطةِ إذا طُحِنَتْ فنقليهِ على السَّمنِ والعسلِ، ثم نسوطُهُ حتى ينضجَ فيأتي كما ترى، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هذَا طَعَامٌ طَيِّبٌ»[١].

وكان ﷺ يأكلُ خبزَ الشَّعيرِ غيرَ منخولٍ[٢]، وكان يأكلُ القِثّاءَ بالرُّطبِ وبالملحِ[٣].

وكان أحبُّ الفواكهِ الرطبةِ إليه البطيخَ والعنبَ، وربما أكلَ البطيخَ بالرُّطب[٤].

وأكلَ يوماً رطباً في يمينه وكان يحفظُ النَّوى في يساره، فمرَّتْ شاةٌ فأشار إليها بالنَّوى، فَجَعَلَتْ تأكلُ مِنْ كفِّه اليسرى، وهو يأكلُ بيمينِهِ حتى فرغَ وانصرفَتِ الشاةُ[٥].

وكان ﷺ أكثرُ طعامِهِ التَّمرَ والماءَ، وكان يجمعُ اللَّبنَ بالتمرِ، ويُسمِّيهما الأطيبين[٦].

وكان أحبُّ الطعامِ إليه الثريدَ باللَّحمِ والقرعِ[٧]، وكان يُحِبُّ القرعَ ويقول: «إِنَّها شَجَرَةُ أَخِي يُونُسَ ﷺ»[٨].

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٤٠)، والبيهقي في الشعب (٥٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (٥٤١٣).

(٣) أكل القثاء بالرطب رواه البخاري (٥٤٤٠)، وأما أكله بالملح فقد رواه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٣٥).

(٤) رواه أبو داود (٣٨٣٦).

(٥) رواه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٩٨٦).

(٦) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٧٤).

(٧) رواه البخاري (٢٠٩٢).

(٨) رواه البخاري (٢٠٩٢).

وكان يأكلُ الخبزَ والسَّمنَ، وكان يحبُّ مِنَ الشاةِ الذِّراعَ والكتفَ، ومِنَ القِدْرِ الدُّبّاءَ[١]، ومِنَ الصباغِ الخلَّ، ومِنَ التَّمرِ العجوةَ، ودعا في العجوةِ بالبركةِ، وقال: «هِيَ مِنَ الجَنَّةِ وَشِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ وَالسِّحْرِ»[٢].

وكان لا يأكلُ الثومَ ولا البصلَ ولا الكرّاث[٣].

وما ذَمَّ طعاماً قطُّ، لكنْ إن أعجبَهُ أكلَهُ وإن كَرِهَهُ تَرَكَهُ، وإن عافَهُ لم يُبغِّضْهُ إلى غيره.

وكان يعافُ الضَّبَّ والطِّحالَ ولا يُحرِّمُهُما.

وكان يَلْعَقُ بأصابعِهِ القصعةَ ويقول: «آخِرُ الطَّعَامِ أَكْثَرُ بَرَكَة»[٤].

وكان إذا أكلَ الخبزَ واللَّحمَ خاصّةً غسلَ يديه غسلاً جيِّداً، ثم يمسحُ بفضلِ الماءِ على وجهه[٥].

وكان ﷺ يشربُ في ثلاثِ دفعاتٍ، وله فيها ثلاثُ تسميات، وفي أواخرها ثلاثُ تحميدات[٦].

وكان يمصُّ مَصّاً ولا يَعُبُّ عَبّاً[٧].

---

(١) القدر: أي: المطبوخ في القدر.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٦٦).

(٣) رواه مسلم (٥٦٤).

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٤).

(٥) رواه أبو يعلى في مسنده (٥٥٦٧).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط (٨٤٤).

(٧) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٤٧).

وكان لا يتنفَّسُ في الإناء، بل ينحرفُ عنه، وكان يدفعُ فضلَ سؤرِهِ إلى مَنْ على يمينه، فإن كان مَنْ على يساره أجلَّ رتبةً قال للذي على يمينه: «السُّنَّةُ أَنْ تُعْطَى لك، فَإِنْ أَحْبَبْتَ آثَرْتَهُمْ»(١).

وأُتِيَ بإناءٍ فيه عسلٌ ولبنٌ فأبى أن يشربَهُ وقال: «شُرْبَتَانِ فِي شُرْبَةٍ وَإِدَامَانِ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ؟» ثم قال ﷺ: «لاَ أُحَرِّمُهُ، وَلٰكِنِّي أَكْرَهُ الفَخْرَ وَالحِسَابَ بِفُضُولِ الدُّنْيَا غَداً، وَأُحِبُّ التَّوَاضُعَ؛ فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ اللهُ»(٢).

وكان لا يسألُ أهلَ بيتِهِ طعاماً ولا يتشهَّاهُ عليهم، إن أطعموه أكلَ، وما أعطوه قَبِلَ، وما سَقَوهُ شَرِبَ، وكان ربَّما قام فأخذ ما يأكلُ أو يشربُ بنفسه.

بيانُ آدابِهِ وأخلاقِهِ في اللباس

وكان ﷺ يلبسُ مِنَ الثيابِ ما وجدَ مِنْ إزارٍ أو رداءٍ أو قميصٍ أو جُبَّةٍ أو غير ذلك، وكان يُعجِبُهُ الثِّيابُ الخضرُ(٣)، وكان أكثرُ لباسِهِ البياضَ ويقولُ: «أَلْبِسُوهَا أَحْيَاءَكُمْ وَكَفِّنُوا فِيها مَوْتَاكُمْ»(٤).

وكان يلبسُ القَباءَ المحشوَّ للحرب وغيرَ المحشوِّ، وكانت ثيابُهُ كلُّها مشمرةً فوقَ الكعبين، ويكون الإزارُ فوقَ ذلك إلى نصف الساق، وكان قميصُهُ

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٨٩١).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥٧٢٧).

(٤) رواه الترمذي (٩٩٤).

مشدودَ الأزرار، وربَّما حَلَّ الأزرارَ في الصلاةِ وغيرِها، وربما لَبِسَ الكساءَ وحدَهُ ما عليه غيرُهُ[١].

وكان ﷺ له ثوبانِ لجمعتِهِ خاصّةً سوى ثيابِهِ في غير الجمعةِ[٢]، وربَّما لَبِسَ الإزارَ الواحدَ ليس عليه غيرُهُ[٣]، ويعقدُ طرفيه بين كتفيه، ورُبَّما أَمَّ به الناسَ على الجنائز[٤]، وربَّما صلى في بيته في الإِزار الواحدِ مُلتحِفاً به، مخالفاً بين طرفيه.

وكان ﷺ يلبسُ القَلانِسَ تحت العمائم، وبغير عمامةٍ.

وكان إذا لبس ثوباً لَبِسَهُ مِنْ قِبَلِ ميامنِهِ[٥] ويقول: «الحَمْدُ لله الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ»[٦]، وإذا نَزَعَ ثوبَهُ أخرجَهُ مِنْ مياسرِهِ.

وكان إذا لَبِسَ جديداً أعطى خَلَقَ ثيابِهِ[٧] مسكيناً ثم يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً مِنْ سَمَلِ ثِيَابِهِ لاَ يَكْسُوهُ إلاَّ لله إلاَّ كَانَ فِي ضَمَانِ الله وَحِرْزِهِ وَخَيْرِهِ مَا وَارَاهُ حَيّاً وَمَيِّتاً»[٨].

وكان ﷺ له فراشٌ مِنْ أدمٍ، حشوُهُ ليفٌ، طولُهُ ذراعانِ أو نحوه، وعرضُهُ ذراعٌ وشبرٌ أو نحوه.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٠٣٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٣٥٤٠).

(٣) رواه مسلم (١٤٧٩).

(٤) رواه البخاري (٣٥٢).

(٥) رواه الترمذي (١٧٦٦).

(٦) رواه الترمذي (٣٥٦٠).

(٧) الخَلَق: الثَّوبُ القديمُ البالي.

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٣).

وكان ينامُ على الحصيرِ ليس تحتَهُ شيءٌ غيره[١]، وكانت له عباءةٌ تُفرَشُ له حيثما تنقَّلَ، تُثنى طاقَينِ تحتَهُ.

وكان مِنْ خلقِهِ ﷺ تسميةُ دوابِّهِ وسلاحِهِ ومتاعِهِ، وكان اسمُ سيفِهِ الذي يشهدُ به الحروبَ: ذو الفقار[٢]، وكان له سيفٌ يقال له: المِخْذَم، وآخرُ يُقال له: الرسوبُ، وكانت قبضةُ سيفِهِ مُحلاَّةً بالفضة[٣].

وكان يلبسُ المنطقةَ مِنَ الأدمِ، فيها ثلاثُ حلقٍ مِنْ فضةٍ.

وكان اسمُ قوسِهِ: الكتومَ، وجَعبتِهِ: الكافور.

وكان اسمُ ناقته: القصواء، وهي التي يقال لها: العضباء، واسمُ بغلتِهِ: الدُّلْدُلَ.

وكان اسمُ حمارِهِ: يعفوراً، واسمُ شاتِهِ التي يشربُ لبنَها: عينةَ.

بيان إغضائه عما كان يكرهه

وكان ﷺ أحلمَ الناسِ، وأرغبَهم في العفوِ مع القدرة.

وكان رسولُ الله ﷺ رقيقَ البشرةِ، لطيفَ الظاهرِ والباطنِ، يُعرَفُ في وجهه غضبه ورضاه، وكان إذا اشتدَّ وجدُهُ أكثرَ مَسَّ لحيتِهِ.

وكان لا يُشافِهُ أحداً بما يكرهُهُ، دخل عليه رجلٌ وعليه صفرةٌ، فكرِهَها،

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٣).

(٢) رواه الترمذي (١٥٦١).

(٣) رواه الترمذي (١٥٩١).

فلم يقل له شيئاً حتى خرجَ، فقال لبعضِ القوم: «لَوْ قُلْتُمْ لِهذَا أَنْ يَدَعَ هذِهِ»[١]، يعني: الصُّفرةَ.

بيانُ سخاوتِهِ وجُودِهِ

وكان ﷺ أجودَ الناسِ وأسخاهم، وكان في شهر رمضانَ كالرِّيحِ المرسلةِ لا يمسك شيئاً[٢].

وكان عليٌّ رضي الله عنه إذا وَصَفَ النبيَّ ﷺ قال: كان أجودَ الناسِ كَفّاً، وأوسعَ الناسِ صدراً، وأصدقَ الناسِ لهجةً، وأوفاهم ذِمّةً، وأليَنَهم عريكةً، وأكرمَهم عِشرةً، مَنْ رآه بديهةً هابَهُ، ومَنْ خالطَهُ معرفةً أَحَبَّه، يقولُ ناعتُهُ: لم أَرَ قبلَهُ ولا بعدَهُ مثلَه[٣].

وما سُئِلَ عن شيءٍ قطُّ على الإسلامِ إلا أعطاه، وإنَّ رجلاً أتاه فسألَهُ، فأعطاهُ غنماً سَدَّتْ ما بين جبلين، فَرَجَعَ إلى قومه وقال: أسلموا؛ فإنَّ محمداً يُعطِي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقةَ[٤]، وما سئل شيئاً قط فقال: لا[٥].

بيان شجاعته

كان ﷺ أنجدَ الناسِ وأشجعَهم، قال عليٌّ رضي الله عنه: (لقد رأيتُني يومَ بدرٍ

---

(١) رواه أبو داود (٤١٨٢).

(٢) رواه البخاري (٦).

(٣) رواه الترمذي (٣٦٣٨).

(٤) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٥) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (٩٢).

ونحنُ نلوذُ بالنبيِّ ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوِّ، وكان مِنْ أشدِّ الناسِ يومئذٍ بأساً)[١].

وقال عمرانُ بنُ حصين رضي الله عنه: (ما لَقِيَ رسولُ الله ﷺ كتيبةً إلا كان هو أوّلَ مَنْ يضربُ فيها)[٢].

وكان قويَّ البطشِ، ولمّا غشيه المشركون نزلَ عن بغلته فجعل يقول:

أنـا النَّبـيُّ لا كَـذِبْ أنا ابـنُ عبـدِ المُطَّلِبْ

فما رُئِيَ يومئذٍ أحدٌ كان أشدَّ منه[٣].

بيان تواضعه

وكان ﷺ أشدَّ الناسِ تواضعاً في علوِّ منصبِهِ، قال ابنُ عامرٍ رضي الله عنه: (رأيته يرمي الجمرةَ على ناقةٍ شهباءَ)[٤].

وكان يجيبُ دعوةَ المملوكِ، ويَخصِفُ النَّعلَ، ويَرقَعُ الثَّوبَ.

وكان يصنعُ في بيته مع أهلِهِ في حاجتهم، وكان أصحابُهُ لا يقومون له؛ لِما عرفوا مِنْ كراهته لذلك.

وكان يمرُّ على الصِّبيانِ فيُسلِّم عليهم.

وأُتِيَ برجلٍ فأرعدَ مِنْ هيبتِهِ فقال ﷺ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ فَلَسْتُ بِمَلِكٍ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ مِنْ قُريشٍ تَأْكُلُ القَدِيدَ»[٥].

---

(١) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (١٠٤).

(٢) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (١١٠).

(٣) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (١١٩) بتمام لفظه، وهو عند البخاري (٢٨٦٤).

(٤) رواه الترمذي (٩٠٣).

(٥) رواه ابن ماجه (٣٣١٢).

وكان ﷺ يجلسُ بين أصحابِهِ مختلطاً بهم كأنَّه أحدُهُم.

وكان لا يدعوه أحدٌ مِنْ أصحابِهِ وغيرِهم إلا قال: لَبَّيك[١].

وكان إذا جلسَ مع الناس إن تكلَّموا في معنى الآخرة أَخَذَ معهم، وإن تحدَّثوا في طعامٍ أو شرابٍ تحدَّثَ معهم؛ رفقاً بهم وتواضعاً لهم.

وكانوا يتناشدون الشِّعرَ بين يديه أحياناً، ويذكرون أشياءَ مِنْ أمرِ الجاهلية، ويضحكون فيتبسَّم هو إذا ضحكوا، ولا يزجرُهم إلا عن حرام[٢].

بيانُ صورتِهِ وخِلْقتِهِ

(ز: واعلم أنَّ مِنْ تمامِ الإيمانِ به ﷺ اعتقادُ أنَّه لم يجتمعْ في بدنِ آدميٍّ مِنَ المحاسنِ الظاهرةِ ما اجتمعَ في بدنه ﷺ، وسرُّ ذلك أنَّ المحاسنَ الظاهرةَ آياتٌ على المحاسنِ الباطنةِ والأخلاقِ الزكية، ولا أكملَ منه ﷺ، بل وليس له مساوٍ).

(م: ولله درُّ البوصيري رحمه الله حيث قال:

فهـو الذي تَمَّ معنـاهُ وصورتُهُ ... ثمَّ اصطفاهُ حبيباً بارئُ النَّسَـمِ

مُنَزَّهٌ عَنْ شـريكٍ في محاسنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غَيْرُ مُنْقَسِمِ)

(ز: ثم اعلم أنَّ الكلامَ على خلقِهِ ﷺ يستدعي الكلامَ على ابتداء وجودِهِ فاحتيجَ إلى ذكره، وإنْ أغفلَهُ المصنِّفُ رحمه الله تعالى، ومُلخَّصُهُ: أنَّه صَحَّ أنه ﷺ قال: «إني عند اللهِ في أُمِّ الكتاب لَخاتمُ النبيِّينَ، وإنَّ آدمَ لَمُنْجدِلٌ في

---

(١) رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٧٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٢).

طِينتِه»(١)، وصحَّ أيضاً: يا رسول الله ﷺ متى كنت نبيّاً؟ فقال: «وآدمُ بينَ الرُّوحِ والجسدِ»(٢)).

(م: قال الإمامُ القسطلاني رحمه الله: «اعلم أنه لمّا تعلَّقتْ إرادةُ الحقّ تعالى بإيجادِ خلقِهِ أبرزَ الحقيقةَ المحمديّةَ مِنْ أنوارِهِ، ثم سلخَ منها العوالِمَ كلَّها علوَها وسفلَها، ثم أعلمَهُ بنبوَّتِهِ وآدمُ لم يكن إلا كما قال ﷺ: «بينَ الرُّوحِ والجسدِ»، ثم انبجستْ منه ﷺ عيونُ الأرواحِ، فهو الجنسُ العالي على جميعِ الأجناسِ، والأبُ الأكبرُ لجميعِ الموجوداتِ، ولمّا انتهى الزَّمانُ بالاسمِ الباطنِ في حقِّه ﷺ إلى وجودِ جسمِهِ وارتباطِ الرُّوحِ به، انتقل حكمُ الزَّمانِ إلى الاسم الظاهرِ، وظَهَرَ محمدٌ ﷺ بكلِّيَّتِهِ جسماً وروحاً، ففي صحيحِ مسلمٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(٣)، ومِنْ جملة ما كتبَ في الذكرِ ـ وهو أمُّ الكتابِ ـ أنَّ محمّداً خاتمَ النَّبيّين»(٤).

وقال الشيخُ عبد القادر الجزائري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: اعلم أنَّه ليس المرادُ مِنْ إرساله ﷺ رحمةً للعالمين هو إرسالَهُ مِنْ حيثُ ظهورُ جسمِهِ الشريفِ الطبيعيِّ فقط، وإن قال به جمهورُ المفسِّرين وعامَّتُهم، فإنَّه مِنْ هذه الحيثيّةِ غيرُ عامِّ الرَّحمةِ لجميعِ العالمين؛ فإنَّ العالَمَ اسمٌ لِمَا سوى الحقِّ تعالى، بل المرادُ إرسالُهُ ﷺ مِنْ حيثُ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٨/ ٣٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٦).

(٢) رواه الترمذي (٥٧٥٨).

(٣) رواه مسلم (٤٩٢٦).

(٤) ينظر: (المواهب اللدنية) (١/ ٢٧).

حقيقَتُهُ التي هي حقيقةُ الحقائق، ومِنْ حيثُ روحُهُ الذي هو روحُ الأرواح؛ فإنَّ حقيقتَهُ هي الرحمةُ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ، وهذه الرحمةُ هي أوَّلُ شيءٍ فَتَقَ ظلمةَ العدم، وهي الوجودُ المفاضُ على أعيانِ الكائنات»[1]).

(ش: ولله دَرُّ الشيخِ علوان الحموي رضي الله عنه حيث يقول:

مَاذَا أَقُولُ وَغَيْرِي فِي مَدَائِحِهِ ... يَكْفِيهِ مَدْحُ إِلَهِ الْعَرْشِ مِنْ قِدَمِ

سُبْحَانَ مَنْ خَصَّهُ بِالْمُعْجِزَاتِ فَلَا ... تَكَادُ تُحْصَرُ بِالأَطْرَاسِ وَالْقَلَمِ

وَكُلُّ ذِي رُتْبَةٍ مِنْهُ لَهُمْ حَصَلَتْ ... وَالأَنْبِيَا مِنْهُ قَدْ مُدُّوا بِأَسْرِهِمِ

فَهْوَ الإِمَامُ لَهُمْ فِي كُلِّ مَعْرِفَةٍ ... وَكُلِّ مَنْقَبَةٍ فَاعْرِفْهُ وَافْتَهِمِ

وَكُلِّ نُورٍ وَمَعْرُوفٍ وَفَائِدَةٍ ... وَنِعْمَةٍ وَكَرَامَاتٍ لِكُلِّهِمِ

وَكُلِّ نَجْمٍ وَأَفْلَاكٍ وَشَمْسِ ضُحَىً ... وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْعُلْوِي وَسُفْلِهِمِ

وَالْعَرْشِ وَاللَّوْحِ وَالْكُرْسِي وَجَنَّتِهِمْ ... وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالأَنْوَارِ فِي الظُّلَمِ

فَأَصْلُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ مُكْتَسَبٌ ... بِغَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ وَلَا تُهَمِ

لَوْلَاهُ لَمْ يُوجِدِ الرَّحْمَنُ كَائِنَةً ... كَمَا رُوِي فِي حَدِيثٍ عَنْ ذَوِي الْكَرَمِ

وَقَدْرُهُ جَلَّ عَنْ إِدْرَاكِ عَارِفِنَا ... فَضْلًا عَنِ الأَغْبِيَا مِنْ أَهْلِ جَهْلِهِمِ

كَلَّ اللِّسَانُ وَمَلَّ الْعَقْلُ وَانْحَرَفَتْ ... أَعِنَّةُ الْعَزْمِ عَجْزًا مِنْ ذَوِي الْهِمَمِ

وَكُلُّ مُمْتَدِحٍ بِالْعَجْزِ مُعْتَرِفٌ ... فَلَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفًا عَلَى الدَّوَمِ

ولقد رغبتُ أن أذكرَ نزراً يسيراً مما يتعلق بالجناب المحمدي مِنْ كتابي «اللطائف الأحمدية في الحقائق المحمدية» فأقول وبالله التوفيق: وردت آياتٌ كثيرةٌ توضِّحُ ما تميَّزَ به سيِّدنا محمد ﷺ عن جميع الخلق، مِنْ خصوصياتٍ

---

(١) ينظر: (المواقف للأمير عبد القادر الجزائري) (١/ ١٦١).

انفرد بها، وعلوّ درجاتٍ لم ينلها غيره، وخلقٍ عظيمٍ لا أوسعَ منه، وعلومٍ موهوبةٍ جامعةٍ لا نهايةَ للمزيد منها. ونكتفي بإيراد بعض تلك الآيات الدالة على ذلك.

ـ أوليته ﷺ في العبادة والخلق:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وأوّلُ عابدٍ هو أوّلُ مخلوقٍ.

ـ أوليته في الإسلام:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ـ رسالته بالرحمة العامة لجميع العالمين:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ـ تقدمه على جميع الأنبياء، فهم خلفاؤه، مع كونه خاتما لهم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ـ تحققه الأكمل بالقرآن العظيم والخلق العظيم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١-٤].

- خلافته الإلهية الكبرى الشاملة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

- نوره السراجي العام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره: (وليس في الموجودات مَنْ وَسِعَ الحقَّ سواه، فكان ﷺ أعظمَ مجلى إلهي علم به علم الأولين والآخرين)[١].

وقال قدس سره: (اعلم أنَّ لكلِّ نفسٍ منّا حظاً مِنْ محمد ﷺ، وهو الصورة التي في باطنه، أعني: في باطنِ كلِّ إنسانٍ منه ﷺ، فهو في كلِّ نفسٍ، وهكذا يجدُهُ أهلُ الله في كشفهم)[٢].

قال سيدي الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس سره: (ثم إنّ أفراد هذا النوع الإنساني كلٌّ واحد منهم نسخة للآخر بكماله، لا يُفقد في أحد منهم مما في الآخر شيء إلَّا بحسب العارض، كمن تقطع يداه ورجلاه، أو يخلق أعمى لما عرض له في بطن أمّه.

ومتى لم يحصل العارضُ فهم كمِرْآتين متقابلتين، يوجدُ في كلِّ واحدٍ منهما ما يوجد في الأخرى، ولكن منهم من تكونُ الأشياءُ فيه بالقوّة، ومنهم مَنْ تكونُ فيه بالفعل، وهم الكُمَّل مِنَ الأنبياء والأولياء.

---

(١) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (١١٨).

(٢) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (٩٢) بتصرُّف.

ثم إنهم متفاوتون في الكمال، فمنهم الكامل والأكمل، ولم يتعيَّن أحدٌ منهم بما تعيَّنَ به سيدنا محمدٌ ﷺ في هذا الوجود من الكمال الذي قطع له بانفراده فيه، شَهِدَتْ له بذلك أخلاقُهُ وأحوالُهُ وأفعالُهُ وأقواله، فهو الإنسانُ الكاملُ، والباقون مِنَ الأنبياء والأولياء والكُمَّل صلوات الله عليهم مُلحقون به لحوقَ الكامل بالأكمل، ومنتسبون إليه انتسابَ الفاضل إلى الأفضل.

وحيث وقع في مؤلفاتي لفظُ «الإنسان الكامل» فالمراد به سيِّدُنا محمدٌ ﷺ، تأدُّباً بمقامه الأعلى، ومحلِّه الأكمل الأسنى؛ إذ هو الإنسانُ الكاملُ بالاتفاق، وليس لأحدٍ مِنَ الكُمَّلِ ما له مِنَ الخَلْقِ والأخلاقِ)[١].

قال سيدي الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس سره: (وما جُعِلَ ﷺ راعياً للأغنام قبل دركِهِ الأحلام إلا تنبيهاً على أنَّه الراعي الأعظم المتصرِّفُ المستخلَفُ على تدبير العالم، أما تراهُ قد شفعَ في الأول حتَّى عفى عن آدم، وسيشفعُ في الآخرِ لأولادِهِ بالخلاصِ مِنْ جهنَّم، كلٌّ يقولُ: «نفسي نفسي» خوفاً مِنَ الأمرِ المبرم؛ لكونهم رعيةً يقولُ قائلهم: «لا أملك إلا نفسي»، لكنما الراعي الأعظم يقول: «أمتي أمتي» لأنَّه راعيهم، وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته»، فهو الموجودُ عند شدائد الوجود، وهو المنفسُ في الضائقِ عن سائر الخلائق)[٢].

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره: (اعلم أيَّدكَ الله أنَّ أصلَ أرواحِنا روحُ محمَّدٍ ﷺ، فهو أوَّلُ الآباءِ روحاً؛ وآدمُ أوَّلُ الآباءِ جِسماً)[٣].

(١) ينظر: (الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل) (٤٥٤).
(٢) ينظر: (نسيم السحر) (٧١).
(٣) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (١٢٢).

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (اعلم أن خصال النبوة لم يحزها على الوجه الأكمل ـ الذي ليس فوقه شيءٌ ـ إلا نبينا ﷺ، وسببُ ذلك أنَّ خصالَ الآدميَّةِ والقبضَ والبسطَ لم تكمل في ذاتٍ من الذوات مثل ما كَمُلَتْ في ذاته ﷺ، فلما كانت على الوجه الأعلى في ذاته الظاهرة ونزلت عليها خصالُ النبوة زادَتْ أنوارُها وتشعشعتْ أسرارُها، وأما معرفتُهُ بربه فلا يُطاقُ شرحُها)[1].

وقال قدس سره: (لولا نورُ سيِّدنا محمد ﷺ ما ظَهَرَ سرٌّ مِنْ أسرار الأرض، ولولاه ما تفجَّرَتْ عينٌ مِنَ العيون، ولا جرى نهرٌ مِنَ الأنهار، وإنَّ نورَهُ ﷺ يفوحُ في شهر مارس ثلاث مرات على سائر الحبوب فيقع لها الإثمار ببركته ﷺ، ولولا نوره ﷺ ما أثمرت.

وإن الذاتَ تَكِلُّ أحياناً عن حمل الإيمانِ فتريدُ أن ترميَهُ فيفوح نورُ النبيِّ ﷺ عليها فيكون معيناً لها على حملِ الإيمان فتستحليه وتستطيبه)[2].

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره: (فلمَّا أُعطيَ ﷺ مفاتيحَ خزائن الأرض عَلِمنا أنَّه «حفيظ عليم»، فكلُّ ما ظَهَرَ مِنْ رزقٍ في العالَمِ فإنَّ الاسمَ الإلهيَّ لا يعطيه إلا عن أمرِ محمَّدٍ ﷺ الذي بيده المفاتيح.

وأُوتيَ ﷺ جوامعَ الكَلِم، والكَلِمُ: جمعُ كلمة، وكلماتُ الله لا تنفد، فأعطيَ علماً لا يتناهى، فَعَلِمَ ما يتناهى بما حصره الوجودُ، وعَلِمَ ما لم يدخل في الوجود وهو غيرُ متناهٍ، فأحاطَ عِلْماً بحقائق المعلومات؛ وهي صفةٌ إلهيَّةٌ لم تكن لغيره.

---

(١) ينظر: (الإبريز) (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٢) ينظر: (الإبريز) (١/ ٥٩).

ولما علم بجوامع الكلم، أعطي الإعجاز بالقرآن الذي هو كلمة الله، وهو المترجم به عن الله، فوقع الإعجاز في الترجمة التي هي له)[١].

قال الشيخ أحمد زيني دحلان رحمه الله تعالى: (فكلُّ ما ظهرَ في هذا العالَمِ فإنما يعطيه سيدنا محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، فلا يخرجُ شيءٌ مِنَ الخزائن الإلهية إلا على يديه ﷺ، وهو معنى اسمه الخليفة، فلا طاقةَ لأحدٍ بالنفي والشهودِ بدون واسطته ﷺ، فهو المرآة الكبرى والمجلى الأعظم، وأقوالُهُ وأفعالُهُ كلها دائرةٌ على الدلالة على الله، والتعريفِ به، ولا نهايةَ للمعرفة، فما دام الإنسانُ يترقى فيها فهو مُغترِفٌ مِنْ بحره، ومستمدٌّ منه؛ حتى الأنبياءُ والمرسلون صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وكلُّهم مِنْ رسولِ الله مُلتَمِسٌ غرفاً مِنَ البحرِ أو رشفاً مِنَ الدِّيَمِ

غايةُ الأمر: أنَّ صاحبَ الفناءِ لا يشعرُ بذلك وقتَ فنائِهِ في الله؛ لغيبتِهِ فيما فَنِيَ فيه، فالمنتفي إنما هو شعورُهُ، وأما استمدادُهُ منه وتوجُّهُ الفتحِ له على يديه فثابتٌ في نفس الأمر، فإن تَنَبَّهَ لذلك بعدَ إفاقتِهِ اعترف)[٢].

لا تطلب مشاهدة الحق إلا في مرآة نبيك ﷺ:

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره: (علمتَ أنَّ الرسلَ أعدلُ الناس مزاجاً؛ لقبولهم رسالاتِ ربهم، وكل شخصٍ منهم قَبِلَ مِنَ الرسالةِ قدرَ ما أعطاه الله في مزاجه في التركيب، فما مِنْ نبيٍّ إلا بُعِثَ خاصَّةً إلى قوم معيَّنين؛ لأنَّه على مزاجٍ

(١) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (١٤٣) بتصرُّف.
(٢) ينظر: (تقريب الأصول لتسهيل الوصول) (١٨٣).

خاصٌّ مقصور، وأنَّ سيدنا محمداً ﷺ ما بَعَثَهُ الله إلا برسالةٍ عامةٍ إلى جميع الناس كافة، ولا قَبِلَ هو مثلَ هذه الرسالةِ إلا لكونِهِ على مزاجٍ عامٍّ يحوي على مزاجِ كلِّ نبيٍّ ورسولٍ، فهو أعدلُ الأمزجةِ وأكملُها، وأقومُ النشآت.

فإذا علمتَ هذا وأردتَ أن ترى الحقَّ على أكملِ ما ينبغي أن يظهرَ به لهذه النشأة الإنسانية، فاعلم أنَّك ليس لك، ولا أنت على مثلِ هذا المزاجِ الذي لمحمدٍ ﷺ، وأنَّ الحقَّ مهما تجلَّى لك في مرآةِ قلبِكَ فإنَّما تظهرُ لك مرآتُكَ على قدرِ مزاجِها وصورةِ شكلها، وقد عَلِمْتَ نزولَكَ عن الدرجةِ التي صَحَّتْ لمحمدٍ ﷺ في العلمِ بربِّه في نشأته، فالزمِ الإيمانَ والاتِّباعَ، واجعلْهُ أمامَكَ مثلَ المرآةِ التي تنظرُ فيها صورتَكَ وصورةَ غيرك، فإذا فعلتَ هذا علمتَ أنَّ الله تعالى لا بدَّ أن يتجلَّى لمحمدٍ ﷺ في مرآته؛ وقد أعلمتُكَ أنَّ المرآةَ لها أثرٌ في نظرِ الرائي في المرئي، فيكون ظهورُ الحقِّ في مرآة محمدٍ ﷺ أكملَ ظهورٍ وأعدلَهُ وأحسنَهُ لِما هي مرآتُهُ عليه، فإذا أدركته في مرآةِ محمدٍ ﷺ فقد أدركتَ منه كمالاً لم تدركه مِنْ حيثُ نظرُكَ في مرآتك.

فقد نصحتُكَ وأبلغتُ لك في النصيحة: فلا تطلبْ مشاهدةَ الحقِّ إلا في مرآةِ نبيِّكَ ﷺ، واحذرْ أن تشهدَهُ في مرآتِكَ، أو تشهدَ النبيَّ وما تجلَّى في مرآتِهِ مِنَ الحقِّ في مرآتِكَ؛ فإنَّه ينزلُ بك ذلك عن الدرجةِ العالية، فالزمِ الاقتداءَ والاتباعَ، ولا تطأْ مكاناً لا ترى فيه قدمَ نبيِّكَ؛ فَضَعْ قدمَكَ على قدمه، إن أردتَ أن تكونَ مِنْ أهل الدرجات العلى، والشهود الكامل في المكانة الزلفى)[1].

---

(١) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (١٦٧ ـ ١٦٨).

النبي ﷺ هو الأصل والواسطة في كل شيء ولأجله خلق كل شيء

روى الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٢): عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ، قَالَ: يَا رَبِّ، أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللهُ: يَا آدَمُ، وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، لأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا لا إِلَهَ إِلا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللهُ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لأُحِبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ ادْعُنِي بِحَقِّهِ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَلَوْلا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ». قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد[1].

وقال الإمامُ ابنُ حجرٍ الهيتميُّ: «ومما صح عند الحاكم أيضاً (٢/ ٦٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَوْحَى اللهُ إلى عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ: يَا عِيسَى! آمِنْ بِمُحَمَّدٍ وَامُرْ مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ أُمَّتِكَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ؛ فَلَوْلاَ مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُ آدَمَ، وَلَوْلاَ مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُ الجَنَّةَ وَلاَ النَّارَ».

ثم قال: ومثل هذا لا يقال مِنْ قِبَلِ الرأي، فإذا صَحَّ عن مثل ابن عباس رضي الله عنهما يكون في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ كما قرره أئمة الأصول والحديث والفقه، وحينئذٍ فما في الأوَّل ـ وهو حديث لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ ـ مِنْ

(١) ورواه الطبراني في معجمه الأوسط (٦/ ٣١٣٩)، وابن عساكر في تاريخه (٧/ ٤٣٧)، وحكى عن البيهقيُّ في الدلائل (٥/ ٤٨٩) أنَّ مداره على ابن أسلم وهو ضعيف. وقال السيوطي في (الدر المنثور) (١/ ١٤٢): أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر.

ضعفٍ لو سُلِّمَ لقائله يكونُ مجبورًا بهذا؛ لأنَّ هذا وحدَهُ كافٍ في الحُجّيّة، فَضَمُّ الأوَّلِ إليه يزيدُهُ قوّةً إلى قوّة»(١).

وقال الهيتميُّ رحمه الله: «إنَّ الله لَمّا خَلَقَ الدنيا بأسرها مِنْ أجلِ النبيِّ ﷺ جَعَلَ دوامَها بدوامِهِ ودوامِ أهلِ بيته؛ لأنهم يساوونه في أشياء؛ ولأنه قال في حقهم: «اللهُمَّ إنَّهم مني وأنا منهم»؛ ولأنهم بضعةٌ منه بواسطة أنَّ فاطمةَ أمَّهُم بَضْعَتُهُ، فأُقيموا مُقامَه في الأمان»(٢).

قال سيدي الشيخ عبد السلام بن مشيش ـ قدس سره ـ في الصلاة المشيشية: (اللهمَّ صَلِّ على مَنْ منهُ انشقَّت الأسرار، وانفلقَتِ الأنوارُ، وفيهِ ارتقَتِ الحقائقُ، وتنـزَّلتْ عُلومُ آدمَ فأعجزَ الخلائقَ، ولهُ تضاءَلتِ الفُهومُ فَلمْ يُدْرِكْهُ منّا سابقٌ ولا لاحِقٌ، فرياضُ الـملكوتِ بزهرِ جماله مونِقةٌ، وحياضُ الجبروتِ بِفيضِ أنوارِهِ مُتدفّقةٌ، ولا شيءَ إلَّا وهوَ به منوط، إذ لولا الواسِطةُ لذهَبَ كما قيلَ الـموسوطُ، صلاةً تليقُ بكَ مِنكَ إليهِ كما هو أهلهُ. اللهمَّ إنَّه سِرُّكَ الجامعُ الدَّالُّ عليكَ، وحِجابُكَ الأعظمُ القائمُ لكَ بينَ يديكَ).

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (ولمّا كان النبيُّ ﷺ هو الأصلُ في الأنوار، ومنه تفرقَّت، لَزِمَ أنَّ الحقائقَ ارتقت فيه على قدر نورِهِ، ونورُهُ لا يطيقه أحدٌ، فارتقاءُ الحقائقِ الذي فيه لا يطيقه أحد، ولولاه ﷺ ما خُلِقَتْ جنة ولا نار، ولا سماء ولا أرض، ولا زمان ولا مكان، ولا ليل ولا نهار، ولا غير ذلك)(٣).

---

(١) ينظر: (الفتاوى الحديثية) (٣٤٥).

(٢) ينظر: (الصواعق المحرقة) (٢/ ٤٤٨).

(٣) ينظر: (الإبريز) (٢/ ١٩٦).

الأنبياء والملائكة والأولياء نوابه ﷺ وهم مستمدون منه

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (فالملائكة والأنبياء والأولياء تفرَّقَ فيهم بعضُ ما في الذات الشريفة، مع كون الشقي وَصَلَ إليهم مِنَ الذات الشريفة، والأسرار الموجودة في ذواتهم قد انشقت منه ﷺ، ولولا الدم الذي في الذات واللحم والعروق ـ المانعُ مِن معرفة حقائق الأمور ـ لم يتكلَّم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منذ وُجِدُوا إلى أن ظهرَ نبيُّنا ﷺ إلا بأمرِ نبينا ﷺ، فلا تكونُ إشارتهم إلا إليه، ولا تكونُ دلالتُهم إلا عليه، حتى إنهم يصرحون لكلِّ مَنْ تَبِعَهُم بأنَّهم إنما ربحوا منه، وأنَّ مَدَدَهم جميعاً إنما هو منه ﷺ، وأنهم في الحقيقة نائبون عنه لا مستقلون، وأنهم بمنزلة أولادِهِ ﷺ، وهو بمنزلةِ الأبِ لهم، حتى يكونَ الخلقُ كلُّهم فيه سواء، ودعوةُ الجميعِ إليه ﷺ واحدة؛ فإنَّ هذا هو الكائنُ في نفس الأمر، والأممُ الماضيةُ بمجرد موتهم وانفصالهم عن هذه الدار يعلمونه يقيناً، وفي الآخرة يظهرُ لهم عياناً)[1].

وقال قدس سره: (لو عاش سيِّدُنا جبريلُ مائة ألف عامٍ إلى مائة ألفِ عام إلى ما لا نهايةَ له ما أدرك ربعاً مِنْ معرفة النبي ﷺ ولا مِنْ علمِهِ بربِّه تعالى، وكيف يمكنُ أن يكونَ سيِّدُنا جبريلُ أعلمَ وهو إنَّما خُلِقَ مِنْ نورِ النبي ﷺ؟ فهو وجميعُ الملائكةِ بعضُ نورِهِ ﷺ، وجميعُهم وجميعُ المخلوقاتِ يستمدون المعرفةَ منه ﷺ.

وقد كان الحبيبُ ﷺ مع حببيه عزَّ وجلَّ حيثُ لا جبريلَ ولا غيره، واستمدَّ

---

(١) ينظر: (الإبريز) (٢/ ١٨٨).

ﷺ مِنْ ربِّه تعالى إذ ذاك ما يليق بعطية الكريم وجلاله وعظمته مع حبيبه ﷺ، ثم بعد ذلك بمدة مديدةٍ جَعَلَ تعالى يخلقُ مِنْ نوره الكريمِ جبريلَ وغيرَهُ مِنَ الملائكة عليهم الصلاة والسلام.

وجبريلُ بل وجميعُ الملائكة وجميعُ الأولياءِ أرباب الفتح وحتَّى الجن يعرفون أنَّ سيدنا جبريل عليه السلام حَصَلَتْ له مقاماتٌ في المعرفةِ وغيرِها ببركةِ صحبتِهِ للنبي ﷺ، بحيث لو عاش سيدنا جبريل عليه السلام طول عمره ولم يَصْحَبْ سيِّدَ الوجود ﷺ وسعى في تحصيلها وبذل المجهود والطاقة ما حَصَلَ له مقامٌ واحدٌ منها، فالنفعُ الذي حصل له مِنَ النبي ﷺ لا يَعْرِفُهُ إلا هو ومَنْ فَتَحَ الله عليه.

وسيِّدُنا جبريلُ إنما خُلِقَ لخدمةِ النبي ﷺ، وليكونَ مِنْ جملةِ حفظةِ ذاتِهِ الشريفة ﷺ، إذ هو ﷺ سرُّ الله مِنْ هذا الوجود، وجميعُ الموجوداتِ تستمدُّ منه)[١].

حال العارفين معه ﷺ

يقول سيدي أبو العباس المرسي قدس سره: (لو غاب عني رسولُ الله ﷺ طرفةَ عينٍ ما عددتُ نفسي مِنَ المسلمين)[٢].

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (حالُ العارفين إذا سمعوا كلامَهُ ﷺ تقوى أنوارهم وتزداد معارفهم، وإذا سمعوا كلامَ غيرِهِ بقوا على حالتهم)[٣].

---

(١) ينظر: (الإبريز) (٢/ ٢٠٨. ٢٠٩).

(٢) ينظر: (البحر المديد) (٣/ ٣٦٥).

(٣) ينظر: (الإبريز) (١/ ١١٤).

وقال قدس سره: (فالعارفون يشاهدون سيِّدَ الوجودِ ﷺ ويشاهدون ما أعطاه الله عز وجل، وما أكرمه به ربُّه بما لا يطيقه غيره، ويشاهدون غيرَهُ مِنَ المخلوقات الأنبياء والملائكة وغيرهم، ويشاهدون ما أعطاهم الله مِن الكرامات، ويشاهدون المادَّةَ ساريةً مِنْ سيِّد الوجود ﷺ إلى كلِّ مخلوقٍ في خيوطٍ مِنْ نورٍ قابضة في نورِهِ ﷺ ممتدةٍ إلى ذوات الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام وذوات غيرهم من المخلوقات، فيشاهدون عجائبَ ذلك الاستمداد وغرائبه.

ولقد وَقَعَ لبعضِ أهل الخذلانِ ـ نسأل الله السلامة ـ أنه قال: ليس لي مِنْ سيِّدنا محمدٍ ﷺ إلا الهداية إلى الإيمان، وأما نورُ إيماني فهو مِنَ الله عز وجل لا مِنَ النبي ﷺ، فقال له الصالحون: أرأيتَ إن قَطَعْنا ما بين نورِ إيمانِكَ وبين نورِهِ ﷺ، وأبقينا لكَ الهدايةَ التي ذكرتَ أترضى بذلك؟ قال: نعم رضيت، فما تَمَّ كلامُهُ حتى سجدَ للصليبِ وكفرَ بالله وبرسوله ﷺ، ومات على كفره، نسأل الله السلامة بمنه وفضله)[1].

وقال قدس سره: (وقد يُعيرُ ﷺ بعضَ أثوابِهِ لبعضِ الكاملين مِنْ أمَّته الشَّريفة، فإذا لَبِسَهُ حَصَلَ له ما قالَهُ أبو يزيد البسطامي: «خُضْنا بحوراً وَقَفَتِ الأنبياءُ بسواحِلِها»، وذلك في الحقيقةِ منسوبٌ إلى النبي ﷺ، فهو الخائضُ لتلك البحور، والمقدَّمُ على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد غَلِطَ بعضُ الأولياء مِنْ أهل الفتحِ فظنَّ أنَّ الوليَّ العارفَ الكبيرَ قد يبلغُ مقامَ النبيِّ في المعرفة، وإن كان في الدرجة لا يصله، وهذا الذي ظنوه غلطٌ مخالفٌ لما

---

(١) ينظر: (الإبريز) (١/ ٣٦١).

في نفس الأمر، والصواب: أنَّ الوليَّ ولو بلغ في المعرفة ما بَلَغَ لا يصلُ إلى ما ذكروه، ولا يقربُ منه أصلاً)(١).

لا خوف على المفتوح عليه بعد الاجتماع بالنبي ﷺ والمشاهدة له

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (فلمّا كان اليومُ الثالثُ مِنْ يومِ العيد رأيتُ سيِّدَ الوجودِ ﷺ، فقال سيدي عبد الله البرناوي: يا سيِّدي عبد العزيز؛ قبلَ اليومِ كنتُ أخافُ عليك، واليوم حيثُ جمعَكَ الله مع رحمته تعالى سيد الوجود ﷺ أَمِنَ قلبي واطمأنَّ خاطري، فأستودعُكَ الله عز وجل، فذهبَ إلى بلاده وتركني، وكانت إقامتُهُ معي بقصدِ أن يحفظني مِنْ دخولِ الظلام عليَّ في الفتح الذي وقع لي إلى أن يقع لي الفتحُ في مشاهدةِ النبي ﷺ؛ لأنَّه لا يُخافُ على المفتوحِ حينئذٍ، وإنما يخافُ عليه قبل ذلك)(٢).

وقال قدس سره: (ولا يزالُ المفتوحُ عليه على خطرٍ عظيمٍ وهلاكٍ قريب حتى يُشاهِدَ مقامَ سيِّدنا ومولانا محمد ﷺ، فإذا شاهدَهُ حَصَلَ له الهناءُ وتَمَّ له السرور؛ لأنَّ في ذاته ﷺ قوةً جاذبةً إلى الله عز وجل اختصَّتْ بها ذاتُهُ الشريفةُ ﷺ مِنْ بين سائر المخلوقات، ولذا كان أعزَّ المخلوقات وأفضلَ العالمين، فإذا وَصَلَ المفتوحُ عليه إلى مقامِ نبينا ﷺ تزايدَ جذبُهُ إلى الله عز وجل وأَمِنَ مِنَ الانقطاع، وفي ذلك أسرارٌ أُخَرُ يعرفُها أربابُ الفتح، جعلنا الله منهم ولا حرمنا بركتهم)(٣).

---

(١) ينظر: (الإبريز) (٢/ ٢١٣).

(٢) ينظر: (الإبريز) (١/ ٥٥).

(٣) ينظر: (الإبريز) (١/ ٤٠٠).

وقال قدس سره: (والفتحُ المعوَّلُ عليه في الطريق: أن يفتحَ عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى ويتكلم معهم ويناجيهم على بُعدِ المسافةِ مناجاة الجليس لجليسه، وكذا يشاهدُ أرواح المؤمنين فوق القبور والكرام الكاتبين والملائكة، والبرزخ وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي ﷺ وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ، فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي ﷺ في اليقظة حَصَلَ له الأمانُ مِنْ تلاعبِ الشيطانِ؛ لاجتماعه مع رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ، ثم اجتماعُهُ مع الذات الشريفة سببٌ إلى معرفته بالحق سبحانه ومشاهدةِ ذاته الأزلية؛ لأنَّه يجدُ الذات الشريفة غائبةً في الحقِّ هائمةً في مشاهدته سبحانه، فلا يزالُ الولي ببركةِ الذاتِ الشريفةِ يتعلَّقُ بالحقِّ سبحانه، ويترقَّى في معرفتِهِ شيئاً فشيئاً إلى أن تقعَ له المشاهدةُ وأسرارُ المعرفةِ وأنوارُ المحبة فهذا هو الفتح الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل، وأما الفتحُ في مشاهدةِ الأمور الفانيةِ كرؤية الأرضين السبع وما فيهن والسموات السبع وما فيهن، ومشاهدةِ أفعال العباد في دورهم وقصورهم، ومشاهدة الأمور المستقبلة مثل ما يقع في شهر كذا وسنة كذا، والتمكن من التصرف فيهم، فإنا نرى المبطل يمشي على البحر ويطير في الهواء ويرزق من الغيب وهو من الكافرين بالله عز وجل، وأهل الله وأهل الظلام في هذا الفتح على حدٍّ سواء، ولذا يقال: «الكشف أضعف درجات الولاية» أي: لأنه يوجدُ عند أهل الحق، ويوجد عند أهل الباطل، وصاحبُهُ لا يأمنُ على نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام، حتى يقطع مقامه ويتجاوزه)[1].

---

(١) ينظر: (الإبريز) (٢/ ٢٧٦، ٢٧٧).

كيفية الاجتماع بالنبي ﷺ والرؤية له

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره: (فَمَنْ أراد أن يرى رسول الله ﷺ ممن لم يدركه مِنْ أمته، فلينظر إلى القرآن، فإذا نَظَرَ فيه، فلا فرقَ بين النظرِ إليه وبين النظرِ إلى رسول الله ﷺ، فكأنَّ القرآنَ أُنشِئَ صورةً جسديةً يُقال لها: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب)(١).

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (كنتُ أبيتُ كلَّ ليلةِ جمعةٍ في ضريحِ الوليِّ الصالحِ سيدي علي بن حرزهم، وكنتُ أقرأ البردةَ مع مَنْ يبيتُ به حتَّى نختمَها كلَّ ليلةِ جمعة، فلما كان ذات ليلة طلعت ليلة الجمعة كالعادة فقرأنا البردةَ وختمناها، ثم خرجتُ مِنَ الروضةِ فوجدتُ رجلاً جالساً تحت السدرة المحررة التي بقرب باب الروضة، فجعلَ يُكلِّمُني ويُكاشفني بأمورٍ في باطني فعلمتُ أنَّه مِنَ الأولياء العارفين بالله عز وجل، فقلت: يا سيدي أعطني الورد ولقِّني الذكر، فَجَعَلَ يتغافلُ عني في أمورٍ أُخر، فجعلتُ أُلِحُّ عليه في الطلبِ وهو يمتنع، ومقصودُهُ أن يستخرجَ منِّي العزمَ الصحيحَ حتى لا أتركَ ما أسمعُ منه، فلم أزل معه كذلك إلى أن طلعَ الفجرُ وظَهَرَ الغبارُ في الصومعة، فقال: لا أعطيكَ الوردَ حتى تعطيني عهدَ الله أنك لا تتركه، فأعطيته عهد الله وميثاقه أني لا أتركه، قال: اذكر كلَّ يومٍ سبعةَ آلاف: «اللهمَّ يا رب بجاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ اجمع بيني وبين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ في الدنيا قبل الآخرة»)(٢).

---

(١) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (١٧٩).

(٢) ينظر: (الإبريز) (١/ ٥١. ٥٢).

وقال قدس سره: (إنَّ العبدَ لا ينالُ معرفةَ الله تعالى حتى يعرفَ سيدَ الوجود ﷺ، ولا يعرفُ سيدَ الوجود ﷺ حتى يعرفَ شيخَهُ، ولا يعرف شيخَهُ حتى يموتَ الناسُ في نظره، فلا يراقبهم ولا يراعيهم، فصلِّ عليهم صلاةَ الجنازة وانزعْ مِنْ قلبِكَ التشوُّفَ إليهم)[1].

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (المريدُ لا يجيءُ منه شيءٌ حتَّى لا يكون في قلبِهِ غيرُ الله والرسول والشيخ)[2].

وهذا مِنْ باب التدرُّجِ بالوسائط والأسباب؛ إذ محبَّةُ المريدِ شيخَهُ تنقلُهُ إلى محبة الرسول الأعظم ﷺ، وبالتالي إلى محبة الله تعالى ومعرفته، والأدبُ مع الشيخِ ينقلُهُ إلى الأدبِ الصحيح مع سيدنا محمد ﷺ، ومِنْ ثَمَّ يترقَّى إلى الأدبِ مع الحضرة الإلهية، كما هو مقرر عند العارفين بالله تعالى.

كيف نتقرب إلى النبي ﷺ

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (لا تَرِثُ ذاتٌ ذاتاً إلا إذا كانت مُشاكِلة لها في العقلِ والطَّبعِ والدَّمِ، وقد كان بعض العارفين يقول: لو كانت بالقرب لكانت لولدي، ولو كانت بالقوة لكانت للسلطان، ولو كانت بالخدمة لكانت لفلان خديمي، ولكنها بموافقة العقل للعقل والطبعِ للطبع والدم للدم، وهي أمورٌ لا تُدرَكُ بالكسب ولا بالعمل)[3].

---

(١) ينظر: (الإبريز) (١/ ٨١).

(٢) ينظر: (الإبريز) (١/ ١٠٦).

(٣) ينظر: (الإبريز) (٢/ ٢٩٥).

رؤية النبي ﷺ في المنام

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس سره: (فَمَنْ رآه ﷺ في المنامِ فقد رآه في اليقظة، ما لم تتغير عليه الصورة، فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ على صورته أصلاً، فهو معصومُ الصورةِ حياً وميتاً؛ فَمَنْ رآه فقد رآهُ في أيِّ صورةٍ رآه)[1].

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (رؤيةُ سيدِ الوجودِ ﷺ في المنام بحالته التي كان ﷺ عليها في دار الدنيا كما كان الصحابة رضي الله عنهم لها حالتان:

- فإن كان الرائي مِنْ أهل الفتح والعرفان والشهود والعيان فإنَّ الذي رأى هو ذاته الطاهرة الشريفة.

- وإن لم يكن مِنْ أهل الفتحِ فتارةً تكونُ رؤياه كذلك وهو النادر، وتارةً وهو الكثير يرى صورةَ ذاتِهِ الشريفةِ، لا عينَ ذاته، وذلك لأنَّ لذاته الشريفة الطاهرةِ صوراً بها يُرى ﷺ في أماكنَ كثيرةٍ في المنام وفي اليقظة، وذلك لأنَّ لذاتِهِ ﷺ نوراً منفصلاً عنها، قد امتلأ به العالَمُ كلُّه، فما مِنْ موضعٍ منه إلا وفيه النورُ الشريف، ثم هذا النورُ تظهرُ فيه ذاتُهُ عليه الصلاة والسلام كما تظهرُ صورةُ الوجهِ في المرآة، فأُنزِلَ النورُ بمثابة مرآةٍ واحدةٍ ملأتِ العالَمَ كلَّه، والمرتسمُ فيها هو الذات الكريمة، فَمِنْ هنا كان يراه عليه الصلاة والسلام رجلٌ بالمشرق وآخرُ بالمغرب، وآخرُ بالجنوبِ وآخرُ بالشمال، وأقوامٌ لا يحصون في أماكن مختلفة في آنٍ واحدٍ، وكلٌّ يراه عنده، وذلك لأنَّ النورَ الكريمَ الذي تُرسَمُ فيه الذات مع كلِّ واحدٍ منهم.

---

(١) ينظر: (الكمالات المحمدية في رؤية ابن العربي) (١٢٦).

والمفتوحُ عليه هو الذي إذا رأى الصورة التي عنده تبعها ببصيرته، ثم يخرقُ بنورها إلى محلّ الذات الكريمة، وقد يقع هذا لغير المفتوحِ عليه، بأن يمنَّ عليه تعالى برؤيةِ الذات الكريمة، وذلك بأن يجيئه عليه الصلاة والسلام إلى موضعِهِ، كما إذا عَلِمَ منه عليه الصلاة والسلام كمال المحبّةِ والصدق فيها، فأمرُ المسألةِ موكولٌ إلى النبي ﷺ، فَمَنْ شاء أراه ذاتهُ الكريمة، ومَنْ شاء أراه صورتها)[1].

وقال قدس سره: (وبالجملة فإن الرؤيةَ لا تقعُ إلا لِمَنْ كمُلَ تعلّقُهُ بالنبي ﷺ)[2].

علامة مشاهدة النبي ﷺ في اليقظة

قال سيدي الشيخ عبد العزيز الدباغ قدس سره: (لكلِّ شيءٍ علامةٌ، وعلامةُ إدراكِ العبدِ مشاهدةَ النبي ﷺ في اليقظة أن يشتغلَ الفكرُ بهذا النبيّ الشريفِ اشتغالاً دائماً، بحيثُ لا يغيب عن الفكر، ولا تَصْرِفُهُ عنه الصوارفُ ولا الشواغلَ، فتراه يأكلُ وفِكْرُهُ مع النبي ﷺ، ويشربُ وهو كذلك، ويُخاصم وهو كذلك، وينام وهو كذلك، فيكون باطنُ العبدِ مع النبي ﷺ وظاهرُهُ مع الناس، يتكلّمُ معهم بلا قصد، ويأكلُ بلا قصدٍ، ويأتي لجميعِ ما يشاهده في ظاهره بلا قصد؛ لأنَّ العبرةَ بالقلب وهو مع غيرهم، فإذا دامَ العبدُ على هذا مدةً رَزَقَهُ الله تعالى مشاهدةَ نبيّه الكريم في اليقظة، ومدَّةُ الفكرِ تختلفُ، فمنهم مَنْ تكونُ له شهراً، ومنهم مَنْ تكونُ له أقلَّ ومنهم مَنْ تكونُ أكثرَ.

---

(١) ينظر: (الإبريز) (١/ ٢٨٠).

(٢) ينظر: (الإبريز) (٢/ ٧٢).

ومشاهدةُ النبيّ ﷺ أمرُها جسيمٌ وخطبُها عظيمٌ، فلولا أنّ الله تعالى يقوّي العبدَ ما أطاقها، ولو فرضنا رجلاً قوياً عظيماً اجتمع فيه قوة أربعين رجلاً، كلُّ واحدٍ منهم يأخذُ بأذنِ الأسدِ مِنَ الشجاعة والبسالة، ثم فرضنا النبيّ ﷺ خرجَ مِنْ مكانٍ على هذا الرجلِ لانفلقَتْ كبدُهُ وذابَتْ ذاتُهْ وخرجَتْ روحُهْ؛ وذلك مِنْ عظمةِ سطوتِهِ ﷺ، ومع هذه السطوةِ العظيمةِ ففي تلك المشاهدةِ الشريفةِ مِنَ اللّذةِ ما لا يُكيَّفُ ولا يحصى، حتَّى إنَّها عند أهلها أفضلُ مِنْ دخولِ الجنة، وذلك لأنَّ مَنْ دخلَ الجنةَ لا يرزقُ جميعَ ما فيها مِنَ النعم، بل كلُّ واحدٍ له نعيمٌ خاصٌّ، بخلافِ مشاهدة النبي ﷺ؛ فإنَّه إذا حصلت له المشاهدةُ المذكورةُ سُقِيَتْ ذاتُهُ بجميعِ نعيمِ أهلِ الجنةِ، فيجدُ لذَّةَ كلِّ لونٍ وحلاوةَ كلِّ نوعٍ كما يجدُ أهلُ الجنة في الجنة، وذلك قليلٌ في حقِّ مَنْ خُلِقَتِ الجنَّةُ مِنْ نوره ﷺ.

وعلامةُ إدراكِ العبدِ لمشاهدةِ ربِّه عزَّ وجلَّ أن يقعَ في فكرِهِ بعدَ مشاهدةِ النبي ﷺ التعلُّقَ بربِّه، بحيثُ يغيبُ فكرُهُ في ذلك مثلَ الغيبةِ السابقةِ في النبي ﷺ، ثم لا يزالُ كذلك إلى أن يقعَ له الفتحُ في مشاهدةِ الحقِّ سبحانه، فيقع على ثمرةِ الفؤادِ ونتيجةِ الفكر، وإذا كانت ذاتُهُ تُسقَى بجميعِ أنواعِ نعيمِ أهلِ الجنة عند مشاهدتِهِ النبيَّ ﷺ، فما ظنُّكَ بما يحصلُ له عند مشاهدةِ الحق سبحانه وتعالى، الذي هو خالقُ النبيِّ ﷺ وخالقُ الجنةِ وكلِّ شيء.

ثم بعد الفتحِ في مشاهدةِ الحقِّ سبحانه انقسمَ الناسُ إلى قسمين:

- فقسم غابوا في مشاهدةِ الحقِّ سبحانه عمّا سواه.

- وقسمٌ وهم أكملُ، غابت أرواحُهم في مشاهدةِ الحقِّ سبحانه، وبقيت ذواتُهم في مشاهدةِ النبيِّ ﷺ، فلا مشاهدةُ أرواحِهم تغلبُ مشاهدةَ ذواتهم،

ولا مشاهدةُ ذواتِهم تغلبُ مشاهدةَ أرواحِهم. وإنما كان هذا القسمُ أكملَ؛ لأنَّ مشاهدتَهم في الحق سبحانه أكملُ مِنْ مشاهدةِ القسم الأول، وإنما كانت مشاهدتُهم في الحقِّ سبحانه أكملَ؛ لأنهم لم ينقطعوا عن مشاهدةِ النبي ﷺ التي هي سببٌ في الارتقاء في مشاهدة الحق سبحانه، فَمَنْ زاد في مشاهدتِهِ عليه الصلاة والسلام زِيدَ له في مشاهدةِ الحقِّ سبحانه، ومَنْ نَقَصَ منها نقصَ له. فمشاهدةُ النبيِّ ﷺ بمنزلةِ المرآةِ، ومشاهدةُ الحق سبحانه بمنزلة ما يظهر في تلك المرآة، فعلى قدرِ الصَّفاءِ في المشاهدةِ النبوية يحصل الصَّفاءُ ويزولُ الغمامُ في المشاهدةِ للذات الأزلية)[1].

انتهى ما نقلتُهُ مِنْ كتابي «اللطائف الأحمدية في الحقائق المحمدية»، ولنعد إلى تلخيص ما ذكره الإمام الغزالي في وصف الجسد الشريف).

[وصفُ هيكلِهِ الجسماني وجسدِهِ النُّوراني ﷺ]

كان مِنْ صفةِ رسولِ الله ﷺ أنَّه ليسَ بالطويلِ البائنِ ولا بالقصيرِ المتردِّد، بل كان يُنسَبُ إلى الرَّبعةِ إذا مشى وحدَهُ، ومع ذلك لم يماشِهِ أحدٌ مِنَ الناسِ يُنسَبُ إلى الطُّولِ إلا طالَهُ، ولربَّما اكتنفه الرجلانِ الطويلان فيطولُهُما، فإذا فارقاه نُسِبَا إلى الطُّولِ، ونُسِبَ هو ﷺ إلى الرَّبعةِ، ويقولُ ﷺ: «جُعِلَ الخَيْرُ كُلُّهُ فِي الرَّبْعَةِ»[2].

وأما لونُهُ ﷺ، فقد كان أزهرَ اللَّونِ، ولم يكن بالآدمِ ولا شديدَ البياضِ،

---

(١) ينظر: (الإبريز) (٢/ ٢٨٥. ٢٨٨).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٩٨).

والأزهرُ: هو الأبيضُ الناصعُ الذي لا تشوبُهُ صفرةٌ ولا حمرةٌ ولا شيءٌ مِنَ الألوان، ونَعَتَهُ عمُّه أبو طالبٍ فقال:

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ اليَتامى عصمةٌ للأراملِ[1]

وكان ﷺ عَرَقُهُ في وجهِهِ كاللؤلؤِ أطيبَ مِنَ المسكِ الأذفر.

وكان شعرُهُ يضرِبُ منكبيه، وأكثرُ الرِّواية أنه كان إلى شحمةِ أذنيه.

وكان إذا مشطَ الشَّعرَ بالمشط يأتي كأنَّه حُبُكُ الرَّملِ[2].

وكان شيبُهُ في الرأسِ واللِّحيةِ سبع عشرة شعرةً، ما زاد على ذلك.

وكان ﷺ أحسنَ الناسِ وجهاً وأنورَهم، لم يَصِفْهُ واصفٌ إلا شَبَّهَهُ بالقمرِ ليلةَ البدر، وكان يُرى رِضاهُ وغضبُهُ في وجهِهِ لصفاءِ بشرته، ووصفُهُ صاحبُهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه بقولِهِ:

أمينٌ مُصْطَفى للخيرِ يَدْعُو ... كَضَوْءِ البَدْرِ زايلَهُ الظَّلامُ

وكان ﷺ واسعَ الجبهةِ، وكان أبلجَ ما بين الحاجبين كأن ما بينَهما الفضة.

وكانت عيناهُ نجلاوينِ، وكان في عينيه تمزُّجٌ مِنْ حُمْرةٍ، كان أهدبَ الأشفارِ حتى تكادُ تلتبسُ مِنْ كثرتها.

وكان أقنى العِرنينِ، أي: مستويَ الأنفِ.

وكان مُفلَّجَ الأسنان، أي: مُتفرِّقَها.

---

(١) رواه البخاري (١٠٠٩)، الثِّمال: العِماد والملجأ، والعصمة: ما يُعتَصَمُ به ويُتمسَّك.

(٢) أي: فيه شيءٌ لطيفٌ مِنَ التَّكسُّرِ.

وكان إذا افترَّ ضاحكاً افترَّ عن مثلِ سنا البرقِ إذا تلألأَ.

وكان مِنْ أحسنِ عباد الله شفتينِ وألطفِهم خَتْمَ فمٍ.

ليس بالطَّويلِ الوجهِ ولا بالمُكلثَمِ(١).

كان ﷺ كَثَّ اللِّحية، وكان يُعفِي لحيتَهُ، ويأخذُ مِنْ شاربِهِ.

وكان ﷺ أحسنَ الناسِ عُنُقاً، لا يُنسبُ إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظَهَرَ مِنْ عُنُقِهِ للشمسِ والرياحِ فكأنَّه إبريقُ فضةٍ مُشرَّبٌ ذهباً، يتلألأ في بياض الفضةِ وفي حمرةِ الذهب.

وكان ﷺ عريضَ الصدرِ، لا يعدو لحمُ بعضٍ بدنِهِ بعضاً، كالمرايا في استوائها، وكالقمرِ في بياضه، موصولَ ما بين لبَّتِهِ وسُرَّتِهِ بشعرٍ منقادٍ كالقضيب، ولم يكن في صدرِهِ ولا بطنِهِ شعرٌ غيره.

وكان عظيمَ المنكبين، كثير الشَّعرِ، ضخمَ الكراديس، أي: رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين.

وكان ﷺ واسعَ الظَّهرِ، ما بين كتفيه خاتمُ النُّبوَّةِ، وهو مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامةٌ سوداءُ تَضْرِبُ إلى الصُّفرةِ حولَها شعراتٌ متوالياتٌ كأنَّها مِنْ عُرْفِ فرسٍ.

وكان عَبْلَ العضدين والذراعين، طويلَ الزِّندين، رحبَ الراحتين، سائلَ الأطرافِ، كأنَّ أصابعَهُ قضبانُ الفِضّةِ، كفُّهُ ألينُ مِنَ الخزِّ، كأنَّ كفَّه كفُّ عطّارٍ طيباً ـ مَسَّها بطيبٍ أو لم يمسَّها، يُصافِحُهُ المصافِحُ فَيَظَلُّ يومَهُ يجدُ ريحَها،

---

(١) أي: المدوَّر الوجه.

ويضعُ يدَهُ على رأسِ الصَّبيِّ فيُعرَفُ مِنْ بين الصِّبيانِ بريحها على رأسِهِ.

وكان معتدلَ الخلقِ في السِّمَنِ.

وكان ﷺ مشيُهُ كأنَّما يتقلَّعُ مِنْ صخرٍ، وينحدرُ مِنْ صَبَبٍ، ويمشي الهُوينى بغيرِ تبخترٍ، والهُوينى: تقاربُ الخطا.

وكان يقولُ ﷺ: «أَنَا أَشْبَهُ النَّاسِ بِآدَمَ، وَكَانَ أَبِي إِبْرَاهِيمُ أَشْبَهَ النَّاسِ بِي خَلْقاً وَخُلُقاً».

وكان يقول: «إِنَّ لِي عِنْدَ رَبِّي عَشَرَةَ أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، وَأَنَا الحَاشِرُ يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ، وَرَسُولُ التَّوْبَةِ، وَرَسُولُ المَلَاحِمِ، وَالمُقَفِّي قَفَّيْتُ النَّاسَ جَمِيعاً، وَأَنَا قُثَمُ»[1].

وأما معجزاتُهُ ﷺ: فإنَّ مَنْ شاهدَ أحوالَهُ وأصغى إلى سماعِ أخبارِهِ المشتملةِ على أخلاقِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ وعاداتِهِ وسجاياه، وتألُّفِهِ لأصنافِ الخلقِ، وقودِهِ إياهم إلى طاعته مع ما يحكى مِنْ عجائبِ أجوبتِهِ في مضائقِ الأسئلة، ومحاسنِ إشاراتِهِ في تفصيلِ ظواهرِ الشرعِ التي يعجزُ الفقهاءُ والعقلاءُ عن إدراكِ أوائلِ دقائقِها في طولِ أعمارِهم، لم يبقَ له ريبٌ ولا شكٌّ في أنَّ ذلك لم يكن مُكتسَباً بحيلةِ رجلٍ أميٍّ لا يُمارِسُ العلمَ ولم يطالع الكتبَ ولم يسافر قطُّ في طلب العلم، ولم يزلْ بين أظهرِ الجُهّالِ مِنَ الأعراب، فَمِنْ أينَ حَصَلَ له مِنْ محاسنِ

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٧/ ٦٤)، وعند البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) بلفظ: (لي خمسة أسماء).

الأخلاقِ والآدابِ ومعرفةِ الله تعالى وملائكتِهِ وكتبِهِ وغيرِ ذلك مِنْ خواصِّ النبوَّةِ لولا صريحُ الوحي؟

وأنَّ ذلك كلَّهُ لا يُتصوَّرُ لكذَّابٍ ولا مُلَبِّسٍ، بل كانت شمائلُهُ وأحوالُهُ شواهدَ قاطعةً بصدقِهِ حتَّى إنَّ العربيَّ الجلفَ كان يراه فيقول: (واللهِ ما هذا وجهُ كذّابٍ)[1].

ولو لم يكن غيرُ هذه الأمورِ الظاهرةِ لكانَ فيها كفايةٌ.

وقد ظَهَرَ مِنْ آياتِهِ ومعجزاتِهِ ما لا يستريبُ فيه مُحصِّلٌ، فاستفاضَتْ به الأخبارُ واشتملَتْ عليه الكتبُ الصِّحاحُ، فلا نشتغلُ ببيانه. والله أعلم.

* *

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥).

الربع الثالث
ربع المهلكات

(٣)

ربع المهلكات

مَنْ لم يتغلغل في عِلْمِنا هذا ماتَ مُصِرّاً على الكبائر

وفيه عشرة كتب:

١. كتاب عجائب القلب

٢. كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

٣. كتاب كسر الشهوتين

٤. كتاب آفات اللسان

٥. كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

٦. كتاب ذم الدنيا

٧. كتاب ذم البخل وذم حب المال

٨. كتاب ذم الجاه والرياء

٩. كتاب ذم الكبر والعجب

١٠. كتاب ذم الغرور

الكتاب الأول من ربع المهلكات
في عجائب القلب

(بصفاء المشكاة تظهر الآيات)

(الكَائِنُ في الكَوْن ولَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيادِينُ الغُيُوب مَسْجُونٌ بِمُحِيطاتِهِ، ومَحْصُورٌ في هَيْكَلِ ذاتِهِ)[١]

اعلم أنَّ القلبَ هو العالِمُ بالله، وهو السَّاعي إلى الله، وهو المتقرِّبُ إليه، والمكاشَفُ بما عندَ الله ولديه، وإنَّما الجوارحُ أتباعٌ وخدمٌ وآلاتٌ له يستعملُها استعمالَ المالكِ للعبيد، واستخدامَ الراعي للرعية، والصانعِ للآلة.

والساري إلى الأعضاءِ مِنَ المحاسنِ أو المساوئ آثارُهُ، وبإظلامِهِ واستنارتِهِ تظهرُ محاسنُ الظاهرِ ومساويه؛ إذ كلُّ إناءٍ ينضحُ بما فيه.

فمعرفةُ القلبِ وحقيقةِ أوصافِهِ أصلُ الدين، وأساسُ طريقِ السالكين، وهو الذي إذا عرفَهُ الإنسانُ فقد عرفَ نفسَهُ، وإذا عرفَ نفسَهُ فقد عرفَ ربَّه، وهو الذي إذا جَهِلَهُ الإنسانُ فقد جَهِلَ نفسه، وإذا جَهِلَ نفسَهُ جَهِلَ ربَّه.

(ش: قلت غفر الله لي:

إنَّ فـي الإنسـانِ حَقًّـا مُضْغةً … فإذا ما صَلُحَتْ عَاشَ الجَسَـدْ

---

(١) الحكمة (٢٤٧) من الحكم العطائية.

نَــزِّهِ السِّــرَّ عَــنِ الغَيــرِ تَفُــزْ بِشُــهُودِ الوَاحِدِ الحَــقِّ الأَحَدْ
فَهُــوَ المَوْجُودُ حَقًّا لا سِــوَاهْ قَــدْ أُمِرْنَــا قُلْ هُــوَ اللهُ أَحَدْ)

بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي

اللفظُ الأوَّلُ: القلبُ.

ويُطلَقُ لمعنيين:

أحدُهما: اللحمُ الصَّنوبريُّ الشَّكلِ، المودَعُ في الجانب الأيسرِ مِنَ الصدر، وهو لحمٌ مخصوصٌ، وفي باطنِهِ تجويفٌ، وفي ذلك التجويفِ دمٌ أسودُ، وهو منبعُ الرُّوحِ ومَعدِنُهُ، وهذا القلبُ موجودٌ للبهائم، ونحن إذا أطلقنا لفظَ القلبِ في هذا الكتابِ لم نعن به ذلك؛ فإنَّه قطعةُ لحمٍ لا قدرَ له، وهو مِنْ عالَمِ المُلْكِ والشهادةِ.

والمعنى الثاني: هو لطيفةٌ ربّانيّةٌ روحانيّةٌ، لها بهذا القلبِ الجسمانيِّ تعلُّقٌ، وتلك اللَّطيفةُ هي حقيقةُ الإنسان، وهو المُدرِكُ العالِمُ العارفُ مِنَ الإنسان، وهو المخاطَبُ والمعاقَبُ، والمعاتَبُ والمطالَبُ، وله علاقةٌ مع القلب الجسماني، وقد تحيَّرَتْ عقولُ أكثرِ الخلقِ في إدراكِ وجهِ علاقتِهِ؛ فإنَّ تعلُّقَهُ به يُضاهي تعلُّقَ الأعراضِ بالأجسامِ، والأوصافِ بالموصوفات، أو تعلُّقَ المستعمِلِ للآلة بالآلة، أو تعلُّقَ المتمكِّنِ بالمكان، وشرحُ ذلك يستدعي إفشاءَ سِرِّ الروح، ولم يتكلَّم فيه رسولُ الله ﷺ، فليس لغيرِهِ أن يتكلَّمَ فيه.

(م: قال ابنُ رسلان رحمه الله:

والـرُّوحُ ما أخبرَ عنهـا المجتبى فَنُمْسِـكُ المقـالَ عنهـا أَدَبـا)

وغرضُنا ذكرُ أوصافِها وأحوالِها، لا ذكرُ حقيقتِها في ذاتها، وعلمُ المعاملةِ يفتقرُ إلى معرفةِ صفاتِها وأحوالِها، ولا يفتقرُ إلى ذكر حقيقتِها.

اللفظ الثاني: الروح.

واعلم أنَّ لفظَ الروحِ يُطلَقُ لمعنيين أيضاً:

أحدُهما: جسمٌ لطيفٌ منبعُهُ تجويفُ القلبِ الجسماني، وينتشرُ بواسطةِ العروقِ الضواربِ إلى سائر أجزاءِ البدنِ، وجريانُهُ في البدنِ وفيضانُ أنوارِ الحياةِ والحِسِّ والبصرِ والسَّمعِ والشَّمِّ منه على أعضائه يضاهي فيضانَ النورِ مِنَ السراجِ الذي يُدارُ في زوايا البيت؛ فإنه لا ينتهي إلى جزءٍ مِنَ البيتِ إلا ويستنير به.

فالحياةُ مثالُها النورُ الحاصلُ في الحيطان، والرُّوحُ مثالُهُ السراج، وسريانُ الروحِ وحركتُهُ في الباطنِ مثالُهُ حركةُ السراجِ في جوانبِ البيتِ بتحريكِ مُحرِّكِهِ، والأطباءُ إذا أطلقوا لفظَ الرُّوحِ أرادوا به هذا المعنى، وهو بخارٌ لطيفٌ أنضجَتْهُ حرارةُ القلب.

والمعنى الثاني: هو اللطيفةُ العالِمَةُ المُدرِكةُ مِنَ الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحدِ معاني القلبِ، وهو الذي أراده الله تعالى بقولِهِ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو أمرٌ عجيبٌ ربّانيٌّ، تعجزُ أكثرُ العقولِ والأفهامِ عن دَرْكِ كُنهِ حقيقتِهِ.

اللفظ الثالث: النفس.

وهو لفظٌ مُشتركٌ بينَ معانٍ متعدِّدةٍ، ويتعلَّقُ بغرضِنا منه معنيان:

أحدهما: أنَّه يُرادُ به المعنى الجامعُ لقوَّةِ الغضبِ والشهوةِ في الإنسان، وهذا الاستعمالُ هو الغالبُ على الصوفية، فهم يريدون بالنفسِ الأصلَ الجامعَ للصِّفاتِ المذمومةِ مِنَ الإنسان، فيقولون: لا بُدَّ مِنْ مجاهدةِ النَّفسِ وكسرِها، وإليه الإشارةُ بما وَرَدَ: «أَعْدَى عَدُوِّكَ نفسُكَ التي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[1].

(م: وقد صَحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «المُجَاهِدُ مَنْ جاهَدَ نفسَهُ في طاعة الله تعالى»[2]).

والمعنى الثاني: هو اللطيفةُ التي ذكرناها التي هي الإنسانُ بالحقيقة، وهي نفسُ الإنسانِ وذاتُهُ، ولكنَّها تُوصَفُ بأوصافٍ مختلفةٍ بحسبِ اختلافِ أحوالِها.

(م: وهي القابلةُ للتَّرقِّي في سيرِها وسلوكِها، قال الشيخُ حسن رضوان رضي الله عنه في بيان مراتبِ النفسِ واختلاف أسمائها:

هذا وأصلُ النَّفسِ الاتِّحادُ ... في ذاتِها وما لها تَعْدادُ
وإنَّما أحوالُها تَختَلِفُ ... بِمَا بِهِ في سيرِها تَتَّصِفُ
وباختلافِها لها مَراتِبْ ... سبعٌ ومنها تُدرَكُ المطالِبْ

---

(١) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (٣٢) عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً، والبيهقي في الزهد (٣٤٣) من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال الحافظ الزبيدي في إتحافه (٧/ ٢٠٦) تعقباً على طريق البيهقي: (ووجدت بخط الحافظ ابن حجر ما نصه: وللحديث طرق أخرى غير هذه من حديث أنس وغيره).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٤٠١٣)، والبزار (٣٧٥٢)، والطبراني (١٨/ ٣٠٩) باختلاف يسير.

وكلُّ رتبةٍ لها اسمٌ يُعتبَرْ مِنْ حالِ سيرِها الذي عنه ظَهَرْ
أمّارةٌ لوّامةٌ ومُلْهَمهْ ومُطمئنَّةٌ هِيَ المُنَعَّمَهْ
راضيةٌ مرضيَّةٌ وكامِلَهْ بِكَوْنِها لكلِّ سِرٍّ حامِلَهْ

وقد أشار الإمامُ الغزالي رحمه الله إلى الرابعِ والثاني والأول مِنْ هذه المراتبِ حيث قال:)

فإذا سكنتِ النَّفسُ تحتَ الأمرِ والنَّهيِ، وزايلها الاضطرابُ على أحكامِ الله بسبب معارضةِ الشهوات، سُمِّيتْ النفسَ المطمئنة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، والنفس بالمعنى الأوّلِ لا يُتصوَّرُ رجوعُها إلى الله تعالى؛ فإنَّها مُبعدةٌ عن حضرةِ الله، وهي مِنْ حزبِ الشيطان.

وإذا لم يتم سكونُها تحتَ الأمرِ، ولكنَّها صارت مدافعةً للنفسِ الشهوانيَّةِ ومعترضةً عليها سُمِّيتِ النَّفسَ اللوَّامةَ؛ لأنَّها تلومُ صاحبَها عندَ تقصيرِهِ في عبادةِ مولاه، قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

وإن تركتِ الاعتراضَ على النَّفسِ الشهوانية، وأذعنَتْ وأطاعَتْ لمقتضى الشهواتِ ودواعي الشيطانِ سُمِّيتِ النَّفسَ الأمَّارةَ بالسُّوء، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقد يجوزُ أن يقالَ: المرادُ بالأمَّارةِ بالسوء هي النَّفسُ بالمعنى الأوَّلِ.

(م: ولعلَّ أحسنَ بيانٍ لجميعِ هذه المراتبِ هو ما ذَكَرَهُ الشيخُ الخانيُّ رحمه الله حيث فَصَّلَ سيرَ كلِّ نفسٍ مِنْ هذهِ النُّفوسِ السَّبعةِ وعالَمَها ومحلَّها وحالَها وواردَها وصفاتِها فقال:

النَّفسُ الأمَّارةُ: فسيرُها إلى الله، وعالَمُها عالَمُ الشهادةِ، ومحلُّها الصَّدرُ، وحالُها الميلُ، وواردُها الشريعةُ.

وإنما هي اللَّطيفةُ الربانيَّةُ، لكنَّها لَمّا تَدَنَّسَتْ بالميلِ إلى الطبيعةِ، والرُّكونِ إلى الشهواتِ انخرطَتْ في سِلْكِ الحيوانات، وتبدَّلَتْ أوصافُها الحميدةُ بأوصافهم الذَّميمة، وصارت لا تتميَّزُ عنهم إلا بالصُّورةِ.

ومِنْ أوصافِها: الجهلُ، والبخلُ، والحرصُ، والكبرُ، والغضبُ، والشهوةُ، وسوءُ الخُلُقِ، والإيذاءُ باليدِ واللِّسانِ، وغيرُ ذلك مِنَ القبائح، فلا تُفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، ولا تُميِّزُ بين الخيرِ والشَّرِّ.

النفسُ اللَّوّامةُ: فسيرُها إلى الله، وعالَمُها عالَمُ البرزخِ، ومحلُّها القلبُ، وحالُها المحبّةُ، وواردُها الطريقة.

وصفاتُها: اللَّومُ، والكبرُ، والعجبُ، والاعتراضُ على الخلقِ، والرِّياءُ الخفيُّ، وحُبُّ الشُّهرةِ والرياسةِ، وقد يبقى معها بعضُ أوصافِ النَّفسِ الأمَّارةِ، لكنَّها مع هذه الأوصافِ ترى الحقَّ حقّاً وترى الباطلَ باطلاً، ولها رغبةٌ في المجاهدةِ وموافقةِ الشَّرعِ.

النفسُ المُلهَمةُ: فسيرُها على الله ـ يعني: أنَّ السالكَ لا يقعُ نظرُهُ في هذا المقامِ إلا على الله تعالى؛ لظهورِ الحقيقةِ الإيمانيّةِ على باطنه ـ وعالَمُها عالَمُ الأرواح، ومحلُّها الرُّوحُ، وحالُها العشقُ، وواردُها المعرفة.

وصفاتُها: السَّخاوةُ، والقناعةُ، والعلمُ، والتواضعُ، والصَّبرُ، والتَّحلُّمُ، وتحمُّلُ الأذى، والعفوُ عن الناس، وشهودُ أنَّ الله تعالى آخِذٌ بناصيةِ كلِّ دابّةٍ، فلم يبقَ لها اعتراضٌ على مخلوقٍ أصلاً.

ومن صفاتها: الشوقُ، والهَيَمانُ، والبكاءُ، والإعراضُ عن الخلقِ، والاشتغالُ بالحقِّ، والتَّلوينُ، وتعاقبُ القبضِ والبسطِ، والفرحُ بالله، والتَّكلُّمُ بالحِكَمِ والمعارف.

وإنَّما سُمِّيت ملهمةً لأنَّ الله تعالى أَلْهَمَها تمييزَ فجورِها واتِّباعَ تقواها.

النفسُ المطمئنَّةُ: فسيرُها مع الله، وعالَمُها عالَمُ الحقيقةِ، ومحلُّها السِّرُّ، وحالُها الطُّمأنينةُ الصادقةُ، وواردُها بعضُ أسرارِ الشريعةِ.

وصفاتُها: الجودُ، والتوكلُ، والحلمُ، والعبادةُ، والشكرُ، والرِّضا بالقضاءِ، والصَّبرُ على البلاءِ.

ومِنْ علامةِ الدُّخولِ في هذا المقام أنَّه لا يُفارِقُ الأمرَ التكليفيَّ شبراً، ولا يلتذُّ إلا بالتَّخلُّقِ بأخلاقِ المصطفى ﷺ، ولا يطمئنُّ إلا باتباعِ أقوالِهِ؛ لأنَّ هذا المقامَ مقامُ التَّمكين وعينِ اليقين، كما أنَّ المقامَ الذي قبلَهُ مقامُ التلوينِ.

النفسُ الراضيةُ: فسيرُها في الله، وعالَمُها اللاهوت، ومحلُّها سِرُّ السِّرِّ، وحالُها الفناء، والمرادُ به: محوُ الصِّفاتِ البشريَّةِ، وهذه النَّفسُ ليس لها واردٌ؛ لأنَّ الواردَ لا يكونُ إلا مع بقاءِ الأوصاف، وقد زالتْ في هذا المقام حتى لم يبقَ لها أثر.

وصفاتُ هذه النَّفسِ: الزُّهدُ في ما سوى الله تعالى، والإخلاصُ، والورعُ، والنِّسيانُ، والرِّضا بكلِّ ما يقعُ في الوجودِ مِنْ غيرِ اختلاجِ قلبٍ، ولا توجُّهٍ لرفعِ مكروهٍ، ولا اعتراضٍ أصلاً على أمرٍ مِنَ الأمور، وذلك لأنَّه مُستغرِقٌ في شهودِ الجمالِ المطلق، ولا تحجبُهُ هذه الحالةُ عن الإرشادِ والنُّصحِ للخلقِ، ولا يسمعُ أحدٌ كلامَهُ إلا وينتفعُ به، كلُّ ذلك وقلبُهُ بعالَمِ اللاهوتِ وسرِّ السِّرِّ.

النفسُ المرضيّةَ: فسيرُها عن الله، وعالَمُها عالَمُ الشَّهادةِ، ومحلُّها الخفاء، وحالُها الحيرةُ المقبولةُ، وواردُها الشريعةُ.

وصفاتُها: حسنُ الخُلُقِ، وتركُ ما سوى الله تعالى، واللُّطفُ بالخلقِ، والصَّفحُ عن ذنوبِهم، وحُبُّهم، والميلُ إليهم لإخراجِهم مِنْ ظلماتِ طبائعِهم ونفوسِهِم إلى أنوارِ أرواحِهم.

ومِنْ صفاتِ هذه النَّفسِ: الجمعُ بين حُبِّ الخلقِ والخالق، وهذا شيءٌ عجيبٌ لا يتيسَّرُ إلا لأصحابِ هذا المقامِ السادس.

وسُمِّيَتْ هذه النفسُ بالمرضيّةِ لأنَّ الحقَّ تعالى قد رَضِيَ عنها، وسيرُها عن الله بمعنى أنَّها أخذَتْ ما تحتاجُ إليه مِنَ العلوم مِنْ حضرةِ الحيِّ القَيُّوم، ورَجَعَتْ مِنْ عالَمِ الغيبِ إلى عالَمِ الشَّهادةِ بإذن الله لِتُفيدَ الخلقَ مِمَّا أنعمَ الله عليها.

النفسُ الكاملةُ: فسيرُها بالله، وعالَمُها كثرةٌ في وحدةٍ، ووحدةٌ في كثرةٍ، ومحلُّها الأخفى، أي: السِّرُّ الأخفى الذي نسبتُهُ إلى الخفاءِ كنسبةِ الرُّوحِ إلى الجسد، وحالُها البقاءُ، وواردُها جميعُ ما ذُكِرَ مِنْ وارداتِ النُّفوس، وصفاتُها جميعُ ما ذُكِرَ مِنَ الأوصافِ الحسنةِ للنُّفوسِ).

فيُعلَمُ ممَّا ذكرنا أنَّ النَّفسَ بالمعنى الأوَّل الذي هو الجامعُ لقوَّةِ الغضبِ والشَّهوةِ مِنَ الإنسانِ مذمومةٌ غايةَ الذَّمِّ، وبالمعنى الثاني أي: اللَّطيفةِ الرَّبانيّةِ المودعةِ فيه محمودةٌ؛ لأنَّها نفسُ الإنسانِ، أي: ذاتُهُ وحقيقتُهُ العالِمَةُ بالله تعالى وبسائرِ المعلومات.

(ش: يقول ابن البنا السرقسطي رحمه الله في بيان ذلك:

فلـم تَـزَلْ كُلُّ نفـوسِ الأحيا علّامـةً درّاكـةً للأشـيا
وإنّمـا تَعُوقُهـا الأبـدانُ والأنفسُ النُّـزَّغُ والشَّـيطانُ)

اللفظُ الرابعُ: العقل.

ولفظُ العقلِ أيضاً مُشتركٌ لمعانٍ مختلفة، والمتعلِّقُ بغرضِنا مِنْ جملتِها معنيان:

أحدُهُما: أنَّه قد يُطلَقُ ويرادُ به العلمُ بحقائقِ الأمور، فيكونُ عبارةً عن صفةِ العلمِ الذي محلُّهُ القلبُ.

والثاني: أنه قد يُطلَقُ ويُرادُ به المُدرِكُ للعلوم، فيكونُ هو القلب، أعني: تلكَ اللَّطيفة، وهو المرادُ بقولِهِ ﷺ: «أَوَّلُ ما خَلَقَ الله العَقْلُ»[1]؛ فإنَّ العلمَ عرضٌ لا يُتصوَّرُ أن يكونَ أوَّلَ مخلوقٍ، بل لا بُدَّ وأن يكونَ المحلُّ مخلوقاً قبلَهُ أو معه.

فإذاً قد انكشفَ لك أنَّ معانيَ هذه الأسامي موجودةٌ، وهي القلبُ الجسمانيُّ، والرُّوحُ الجسمانيُّ، والنَّفسُ الشَّهوانيَّةُ، والعلومُ، فهذه أربعةُ معانٍ يُطلَقُ عليها الألفاظُ الأربعةُ، ومعنًى خامسٌ: وهي اللَّطيفةُ العالِمةُ المُدرِكةُ مِنَ الإنسان، والألفاظُ الأربعةُ بجملتِها تتواردُ عليها، فالمعاني خمسةٌ والألفاظُ أربعةٌ.

وأكثرُ العلماءِ قد التبسَ عليهم اختلافُ هذه الألفاظِ وتواردُها، فيقولون: هذا خاطرُ العقلِ، وهذا خاطرُ الرُّوحِ، وهذا خاطرُ النفسِ، وهذا خاطرُ القلبِ،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٣)، والبيهقي في الشعب (٤٣١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٨).

وليس يدري الناظرُ اختلافَ معاني هذه الأسماء، فلأجل كشفِ الغِطاءِ عن ذلك قدَّمنا شرحَ هذه الأسامي، وحيث وَرَدَ في القرآن والسُّنّةِ لفظُ القلبِ فالمرادُ به المعنى الذي يعرفُ حقيقةَ الأشياءِ.

*

بيان جنود القلب

واعلم أنَّ لله سبحانه وتعالى في القلوبِ والأرواحِ وغيرِها مِنَ العوالِمِ جنوداً مُجَنَّدةً، لا يعرفُ حقيقتَها وتفصيلَ عددِها إلا هو، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وللقلب جندان: جندٌ يُرى بالأبصار، وجندٌ لا يرى إلا بالبصائر.

والقلبُ في حكمِ الملِكِ، والجنودُ في حكمِ الخَدَمِ والأعوان.

فأما جُندُهُ المشاهدُ بالعين: فهو اليدُ والرِّجْلُ والعينُ والأذنُ واللِّسانُ وسائرُ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ؛ فإنَّ جميعَها خُلِقَتْ مجبولةً على طاعةِ القلبِ لا تستطيعُ له خلافاً، فإذا أمرَ العينَ بالانفتاحِ انفتحت، وإذا أمرَ الرِّجلَ بالحركةِ تحرَّكَتْ، وإذا أمرَ اللِّسانَ بالكلامِ تكلَّمَ، وكذا سائرُ الأعضاء.

وتسخيرُ الأعضاءِ والحواسِّ يشبهُ وجهَ تسخيرِ الملائكةِ لله تعالى؛ فإنَّهم مجبولونَ على الطاعةِ، لا يستطيعونَ له خلافاً، بل لا يعصون الله ما أمرَهم، ويفعلون ما يؤمرون، وإنَّما يفترقانِ في شيءٍ، وهو أنَّ الملائكةَ عالِمةٌ بطاعتِها وامتثالِها، والأجفانُ تطيعُ القلبَ في الانفتاحِ والانطباقِ على سبيلِ التَّسخيرِ، ولا خبرَ لها مِنْ نفسِها ومِنْ طاعتِها للقلب، وكذا سائر الأعضاء.

وأما الجنودُ الباطنةُ: فهي المدرِكةُ للأشياء كالجواسيس، وهي خمسةٌ: قوَّةُ السَّمع والبصرِ والشَّمِّ والذَّوقِ واللَّمسِ، وإنَّها أُسْكِنَتِ المنازلَ الظاهرةَ،

وخمسةٌ أخرى وهي: تخيُّلٌ وتحفُّظٌ وتفكُّرٌ وتذكُّرٌ وحِسٌّ مُشترَكٌ، وإنها أُسْكِنَتِ المنازلَ الباطنةَ، وهي تجاويفُ الدماغ؛ فإنَّ الإنسانَ بعدَ رؤيةِ الشيءِ يُغمِضُ عينيهِ، فيُدرِكُ صورتَهُ في نفسِهِ وهو الخيالُ، ثم تبقى تلك الصُّورةُ معه بسببِ تحفُّظِهِ، ثم يتفكَّرُ فيما حَفِظَهُ، فيُركِّبُ بعضَ ذلك إلى البعض، ثم يتذكَّرُ ما قد نسيه، ويعود إليه، ثم يجمعُ جملةَ معاني المحسوساتِ في خيالِهِ بالحِسِّ المشترَكِ بينَ المحسوسات.

واعلم أنَّ العقلَ ينقسمُ إلى ضروريٍّ ومُكتسَبٍ:

فالضَّروري: ما لا يدري مِنَ أين حصلَ، وكيف حصلَ، كعلمِ الإنسانِ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانين، والشَّيءَ الواحدَ لا يكونُ حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً معاً.

وأما المكتسَبُ: فهو المستفادُ بالتعلُّمِ والاستدلال.

وكلا القِسمَينِ قد يُسمَّى عقلاً، قال علي رضي الله عنه:

رأيتُ العَقْلَ عقلَينِ ... فَمَطْبُوعٌ ومَسْمُوعُ
ولا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إذا لم يَكُ مَطْبُوعُ
كما لا تَنْفَعُ الشَّمسُ ... وضوءُ العَيْنِ مَمْنُوعُ

والأول هو المرادُ بقولِهِ ﷺ: «ما خَلَقَ الله خَلْقاً أكرمَ عليه مِنَ العقل»[1].

والثاني هو المرادُ بقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «إذا تَقَرَّبَ الناسُ إلى الله تعالى

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٣)، والبيهقي في الشعب (٤٣١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٨).

بأنواعِ البرِّ فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ»[1]؛ إذ لا يمكنُ التقرُّبُ بالغريزةِ الفطريةِ ولا بالعلومِ الضروريّةِ، بل بالمكتسبة، ولكنْ مثلُ عليٍّ رضي الله عنه هو الذي يقدرُ على التقرُّبِ باستعمالِ العقلِ في اقتناصِ العلومِ التي بها يُنالُ القربَ مِنْ ربِّ العالمين.

واعلم أنَّ العلومَ العقليَّةَ تنقسمُ إلى الدنيوية والأخروية.

فالدُّنيويّةُ: كعلمِ الطِّبِّ والحسابِ والهندسةِ والنُّجومِ وسائرِ الحِرَفِ والصِّناعاتِ.

والأُخرويّةُ: كعلمِ أحوالِ القلبِ، وآفاتِ الأعمالِ، والعلمِ باللهِ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ.

وهما علمانِ مُتنافيان، فَمَنْ تعمَّقَ في أحدِهما قَصُرَتْ بصيرتُهُ عن الآخرِ على الأكثر، ولذلك ضَرَبَ عليٌّ رضي الله عنه للدُّنيا والآخرةِ ثلاثةَ أمثلةٍ فقال: (هما ككفَّتي الميزان، وكالمشرقِ والمغرب، وكالضَّرَّتَينِ، إذا أرضيتَ إحداهُما أسخطتَ الأخرى)[2].

ولذلك ترى الأكياسَ في أمورِ الدُّنيا وفي علمِ الطِّبِّ والحِسابِ والهندسةِ والفلسفةِ جُهّالاً في أمورِ الآخرةِ، والأكياسَ في دقائقِ علومِ الآخرةِ جُهّالاً في أكثر علومِ الدُّنيا؛ لأنَّ قوةَ العقلِ لا تَفِي بالأمرَينِ جميعاً في الغالب، فيكون أحدُهما مانعاً مِنَ الكمالِ في الثاني، ولذلك قال ﷺ: «أَكْثَرَ أَهْلِ الجَنَّةِ البُلْهُ»[3]، أي: في أمورِ الدُّنيا.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٨) مرفوعاً.

(٢) ينظر: (الذريعة) (١٣٦).

(٣) رواه الطحاوي في مشكل الآثار (٧/ ٤٣١)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٨٩)، والبيهقي في الشعب (١٣٠٤).

وقال الحسنُ رحمه الله في بعضِ مواعظه: (أدركتُ أقواماً لو رأيتموهم لقلتم: مجانين، ولو رأوكم لقالوا: شياطين)(١).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠]).

فالجمعُ بين كمالِ الاستبصارِ في مصالحِ الدُّنيا والدِّينِ لا يتيسَّرُ إلا للأنبياء وكُمَّلِ وَرَثَتِهم، وأما قلوبُ سائرِ الخلقِ فإنها إذا اشتغلَتْ بأمرِ الدُّنيا انصرفَتْ عن الآخرة، وقَصُرَتْ عن الاستكمالِ فيها.

واعلم أنَّ القلبَ يُتصوَّرُ أن يحصلَ فيه حقيقةُ العالَمِ وصورتُهُ، تارةً مِنَ الحواسِّ، وتارةً مِنَ اللَّوحِ المحفوظ، كما أنَّ العينَ يُتصوَّرُ أن يحصلَ فيها صورةُ الشمسِ تارةً مِنَ النظرِ إليها، وتارةً مِنَ النظرِ إلى الماء الذي يُقابِلُ الشمس، فمهما ارتفعَ الحجابُ بينه وبين اللَّوحِ المحفوظِ رأى الأشياءَ فيه، وتفجَّرَ إليه العلم، فاستغنى عن الاقتباسِ مِنْ مداخلِ الحواسِّ.

واعلم أنَّ العلماءَ يعملون في اكتسابِ نفسِ العلومِ واجتلابِها إلى القلب، وأولياءُ الصوفيةِ يعملون في جلاءِ القلبِ وتطهيرِهِ، وتصفيتِهِ عن الكدوراتِ، وتصقيلِهِ بالذِّكرِ.

---

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٥).

وقد حُكِيَ أنّ أهل الصّينِ والرّوم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعةِ النّقشِ والصّورِ، فاستقرّ رأيُ الملِكِ على أن يُسلّمَ إليهم صُفّةً لينقش أهلُ الصّينِ منها جانباً، وأهلُ الرّومِ جانباً، ويُرخى بينهما حجابٌ يمنعُ اطّلاعَ كلِّ فريقٍ على الآخر، ففُعِلَ ذلك، فجمعَ أهلُ الرّومِ مِنَ الأصباغِ الغريبةِ ما لا ينحصرُ، ودخلَ أهلُ الصّينِ مِنْ غيرِ صبغٍ، وأقبلوا يَجْلُونَ جانبَهم ويَصْقُلونَه، فلمّا فرغَ أهلُ الرّومِ ادّعى أهلُ الصّينِ أنّهم قد فرغوا أيضاً، فَعَجِبَ الملِكُ مِنْ قولِهِم، وأنّهم كيف فرغوا مِنَ النّقشِ مِنْ غير صبغٍ، فقيل: وكيف فرغتُم مِنْ غير صبغٍ؟ فقالوا: وما عليكم مِنّا ارفعوا الحجابَ، فرفعوا، فإذا بجانبهم قد تلألأَ فيه عجائبُ الصنائعِ الرّوميّةِ مع زيادةِ إشراقٍ وبريقٍ، إذ كان قد صار كالمرآةِ المجلوّةِ لكثرةِ التصقيل، فازداد حسنُ جانبِهم بمزيدِ التصقيلِ.

فكذلك عنايةُ الأولياءِ بتطهير القلبِ وجِلائه وتزكيتِهِ وصفائِهِ، حتى يتلألأَ فيه جليّةُ الحقِّ بنهايةِ الإشراق، كفعل أهلِ الصين، وعنايةُ العلماءِ والحكماءِ باكتسابِ نفسِ العلومِ وتحصيلِ نقشِها في القلب، كفعلِ أهلِ الرومِ.

واعلم أنَّ مَنِ انكشفَ له ولو الشيءَ اليسيرَ بطريقِ الإلهامِ والوقوعِ في القلبِ مِنْ حيث لا يدري فقد صار عارفاً بصحةِ الطريق، ومَنْ لم ير ذلك مِنْ نفسِهِ قطُّ فينبغي أن يُؤمِنَ به؛ فإنَّ درجةَ المعرفةِ فيه عزيزةٌ جِدّاً، ويشهدُ لذلك شواهدُ الشَّرعِ والتَّجارِبُ والحكاياتُ.

أمّا الشواهدُ: فقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بَمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»[1]، زاد بعضُ

(١) رواه أبو نعيم (١٠/ ١٥) عن أنس رضي الله عنه، ثم قال: ذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ هَذَا الْكَلامَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ، عَنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَوَهِمَ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَنَّهُ ذَكَرَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

التابعين: «وَوَفَّقَهُ فِيما يعْمَلُ حتَّى يسْتوْجب الجنَّة، وَمن لَمْ يعْملْ بمَا يعْلمْ تاه فِيما يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفَّقْ فِيما يعْملُ حتَّى يسْتوْجب النّار»(١).

فكلُّ حكمةٍ تظهرُ مِنَ القلبِ بالمواظبةِ على العبادة منْ غير تعلُّمٍ فهو بطريق الكشفِ والإلهامِ.

وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، قيل: نوراً يفرقُ به بين الحقِّ والباطلِ، ويخرجُ به مِنَ الشُّبُهات، ولذلك كان ﷺ يُكثِرُ في دعائه مِنْ سؤالِ النُّور، فقال ﷺ: «اللهُمَّ أَعْطِنِي نُوراً وَزِدْنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُوراً وَفِي قَبْرِي نُوراً وَفِي سَمْعِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً حَتَّى قالَ: فِي شَعَرِي وَفي بشرِي وَفِي لَحْمِي وَدَمِي وَعِظامِي»(٢).

وسُئِلَ ﷺ عن قولِ الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، ما هذا الشرحُ؟ فقال: «هُوَ التَّوسِعَةُ، إِنَّ النُّورَ إذا قُذِفَ بِهِ فِي القَلْبِ اتَّسَعَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ»(٣).

وقال ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ ينظر بِنُورِ الله»(٤).

وكان أبو يزيدَ رحمه الله وغيرُهُ يقولُ: (ليس العالِمُ الذي يحفظُ مِنْ كتابٍ، فإذا نَسيَ ما حَفِظَهُ صار جاهلاً، إنَّما العالِمُ الذي يأخذُ عِلْمَهُ مِنْ ربِّه أيَّ وقتٍ شاء بلا حفظٍ ولا درسٍ)، وهذا هو العالِمُ الرَّبانيُّ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١١)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٦٨).

(٤) رواه الترمذي (٣١٢٧).

فهذه شواهدُ النَّقلِ، ولو جُمِعَ كلُّ ما وردَ فيه مِنَ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ لَخَرَجَ عن الحصرِ.

وأما مشاهدةُ ذلك بالتجارِبِ فذلك أيضاً خارجٌ عن الحصرِ، وظَهَرَ ذلك على الصحابةِ والتابعين ومَنْ بعدهم، ويكفي في ذلك قولُهُ ﷺ: «إنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ، وإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»(١).

واعلم أنَّ مبدأَ الأفعالِ الخواطرُ، فالخواطرُ تُحرِّكُ الرَّغبةَ، والرَّغبةُ تُحرِّكُ العزمَ والنِّيَّةَ، فالنِّيَّةُ تُحرِّكُ الأعضاءَ.

والخاطرُ المحمودُ ـ أعني: الداعيَ إلى الخير ـ يُسمَّى إلهاماً، والخاطرُ المذمومُ ـ أعني: الداعيَ إلى الشَّرِّ ـ يُسمَّى وَسواساً، وسببُ الخاطرِ الداعي إلى الخيرِ يُسمَّى مَلَكاً، وسببُ الخاطرِ الداعي إلى الشَّرِّ يُسمَّى شيطاناً، واللُّطفُ الذي يتهيأُ به القلبُ لقبولِ إلهامِ المَلَكِ يُسمَّى توفيقاً، والذي به يتهيَّأُ لقبولِ وسواسِ الشيطانِ يُسمَّى إغواءً وخِذلاناً، فالوسوسةُ في مقابلةِ الإلهامِ، والشيطانُ في مقابلة المَلَك، والتَّوفيقُ في مقابلةِ الخذلان، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]؛ فإنَّ الموجوداتِ كلَّها متقابِلةٌ مزدوجةٌ إلا الله تعالى، فإنَّه لا مُقابِلَ له، بل هو الواحدُ الحقُّ الخالقُ للأزواج كلِّها.

والقلبُ مُتجاذِبٌ بين الشيطانِ والمَلَكِ، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «فِي القَلْبِ لَمَّتَانِ: لَمَّةٌ مِنَ المَلَكِ إيعادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، وَلَمَّةٌ مِنَ العَدُوِّ إيعادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الخَيْرِ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٤).

وقال الحسنُ رضي الله عنه: (إنما هُمَا هَمّانِ يجولانِ في القلب: همٌّ مِنَ الله تعالى وهَمٌّ مِنَ العدوِّ، فَرَحِمَ الله عبداً وَقَفَ عند همِّه، فما كان مِنَ الله تعالى أمضاه، وما كان مِنْ عدوِّهِ جاهدَهُ)[1].

(ز: وقد تختلفُ اللَّمتانِ، فربَّما تقدَّمَتْ إليه لَمَّةُ العدوِّ بالأمرِ بالشَّرِّ، ويقدحُ بعدَها لَمّةُ المَلَكِ فينهى عن ذلك، فعلى العبدِ أن يعصيَ الخاطرَ الأوَّلَ ويتبعَ الثاني، وقد يتقدَّمُ إلهامُ المَلَكِ بالخير، ثم يقدحُ بعده خاطرُ العدوِّ بالنَّهيِ عنه، فعليه أن يُطيعَ الخاطرَ الأوَّلَ ويعصيَ الثاني.

وقد تَرِدُ خواطرُ العدوِّ ووساوسُهُ بالخيرِ ابتلاءً مِنَ الله تعالى، وحيلةً مِنَ العدوِّ، ومكراً مِنَ النَّفس؛ ليقطعَهُ بذلك عن واجبِ وقتِهِ، ويشغله بعملٍ آخرَ ظاهرُهُ أولى، فيكون ظاهرُهُ بِرّاً وباطنُهُ إثماً، ويكونُ أوَّلُهُ خيراً وآخرُهُ شَرّاً).

(م: مثالُهُ كَمَنْ مَرَّ بمسكينٍ في الطريق فألهمَهُ المَلَكُ أن يتصدَّقَ بدينارٍ، ثم وَسْوَسَ إليه الشيطانُ أنَّ الدينارَ قليلٌ ولا يفيدُ شيئاً، بل ينبغي أن يتصدَّقَ بعشرِ دنانير على الأقل، فيبقى بعد ذلك متحيِّراً بين هذا وذاك حتَّى يمرَّ بالمسكينِ ولا يتصدَّقُ بشيءٍ أصلاً.

أو كَمَنْ يشتغلُ بذكرٍ مُعيَّنٍ كالصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ ويجدُ فيه صفاءَهُ، فيأتيه الشيطانُ ويُوَسْوِسُ له أن لو اشتغل بالتَّهليل لكان أفضلَ؛ حيث يقولُ النبيُّ ﷺ: «أفضلُ الذِّكرِ لا إلهَ إلَّا الله»[2]، وقصدُهُ بذلك التَّشويشُ والصَّدُّ عمّا هو الأنفعُ لذلك الذاكر لا غير، ففي أمثالِ هذه المواقفِ يقولُ المشايخُ: إنَّ الخاطرَ الأوَّلَ مِنَ المَلَكِ، فيتعيَّنُ العملُ به).

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١١٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣).

واعلم أنَّ مَنِ اتَّبَعَ مقتضى الشهوةِ والغضبِ ظَهَرَ تسلُّطُ الشيطانِ عليه بواسطةِ الهوى، وصار القلبُ عُشَّ الشيطانِ ومَعدِنَهُ؛ لأنَّ الهوى هو مرعى الشَّيطانِ ومرتعُهُ، وإن جاهدَ الشَّهواتِ ولم يُسلِّطْها على نفسِهِ صار قلبُهُ مُستقَرَّ الملائكةِ ومَهْبطَهُم.

ولمّا كان لا يخلو قلبٌ عن شهوةٍ وغضبٍ وحرصٍ وطمعٍ وطولِ أملٍ إلى غير ذلك مِنْ صفاتِ البشريةِ المتشعِّبةِ عن الهوى، لا جَرَمَ لم يخلُ قلبٌ عن أن يكونَ للشيطانِ فيه جولانٌ بالوسوسةِ، ولذلك قال ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلّا وَلَه شَيْطَانٌ، قالوا: وأنت يا رسول الله ﷺ؟ قال: وَأَنَا إلّا أَنَّ الله تعالى أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلا يَأْمُرُ إلّا بِخَيْرٍ»[1].

واعلم أنَّ التطاردَ بين جُندَي الملائكةِ والشَّياطينِ في معركةِ القلبِ دائمٌ إلى أن ينفتحَ القلبُ لأحدِهما، فيتمكَّنُ ويَسْتَوْطِنُ، ويكونُ اجتيازُ الثاني اختلاساً.

وأكثرُ القلوبِ قد فَتَحَتْها جنودُ الشيطانِ وتَمَلَّكَتْها، فامتلأتْ بالوساوسِ الداعيةِ إلى إيثارِ العاجلةِ واطِّراحِ الآخرةِ، ومبدأُ استيلائها اتِّباعُ الهوى، ولا يمكنُ فتحُها بعدَ ذلك إلا بتخليةِ القلبِ عن قوتِ الشيطانِ، وهو الهوى والشهوات، وعمارتِهِ بذكرِ الله تعالى الذي هو مطرحُ أثرِ الملائكةِ.

(ش: قال الشيخ محمد الهاشمي رضي الله عنه:

وَإِنْ خَـلَا قَلْـبٌ مِـنَ الأَنْوارِ ... فالذِّكرُ يَجْلِـي ظُلْمَةَ الأغيارِ)

وكلُّ مَنِ اتَّبعَ الهوى فهو عبدُ الهوى لا عبدُ الله.

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٤).

(م: كما قال ابنُ البَنّا السرقسطيُّ رحمه الله:

وَمَـنْ أبـاحَ النَّفْسَ مـا تَهْواهُ فَإنَّمـا مَعْبُـودُهُ هَـواهُ)

فلذلك سلَّطَ الله عليه الشَّيطانَ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهو إشارةٌ إلى أنَّ مَنِ الهوى معبودُهُ فهو عبدُ الشيطانِ لا عبدُ الله.

واعلم أنَّ الخواطرَ تنقسمُ إلى ما يُعلَمُ قطعاً أنه داعٍ إلى الشرِّ، فلا يخفى أنَّه وسوسةٌ، وإلى ما يُعلَمُ قطعاً أنه داعٍ إلى الخيرِ، فلا يشكُّ أنَّه إلهامٌ، وإلى ما يتردَّدُ فيه، فلا يدري أنَّه مِنْ لَمّةِ المَلَكِ أو مِنْ لَمّةِ الشيطان؟ فإنَّ مِنْ مكايدِ الشَّيطانِ أن يعرضَ الشَّرَّ في معرضِ الخيرِ، والتَّمييزُ فيه غامضٌ، وأكثرُ العُبّادِ به يهلكون؛ فإنَّ الشيطانَ لا يقدرُ على دعائهم إلى الشَّرِّ الصريحِ، فيُصوِّرُ الشَّرَّ بصورةِ الخير، كما يقولُ للعالمِ بطريقِ الوعظِ: أما تنظرُ إلى الخلقِ وهم موتى مِنَ الجهلِ، هلكى مِنَ الغفلة، قد أشرفوا على النار؟ أما لكَ رحمةٌ على عبادِ الله تُنْقِذُهم مِنَ المعاطبِ بنصحِكَ ووعظِكَ، وقد أنعمَ الله عليكَ بقلبٍ بصيرٍ، ولسانٍ ذلقٍ، ولهجةٍ مقبولةٍ؟ فكيف تكفرُ نعمةَ الله تعالى، وتتعرَّضُ لسخطِهِ، وتسكتُ عن إشاعةِ العلمِ ودعوةِ الخلقِ إلى الصراط المستقيم؟

فلا يزال يَجُرُّهُ بلطائفِ الحيلِ إلى أن يشتغلَ بوعظِ الناس، ثم يدعوه إلى أن يتزيَّنَ لهم ويتصنَّعَ بتحسينِ اللَّفظِ، ويقول: إن لم تفعلْ ذلك سَقَطَ وقعُ كلامِكَ مِنْ قلوبهم، ولم يهتدوا إلى الحقِّ، فلا يزال يُقرِّرُ به ذلك وهو في أثنائه يُؤكِّدُ فيه شوائبَ الرياءِ، وقبولَ الخلقِ، ولذَّةَ الجاهِ، والتَّعزُّزَ بكثرةِ الأتباعِ والعلمِ، والنَّظرَ إلى الخلقِ بعينِ الاحتقارِ، فيستدرجُ المسكينَ بالنُّصحِ إلى الهلاكِ، فيتكلَّمُ وهو

يظنُّ أنَّ قصدَهُ النُّصحُ والوعظُ، وإنَّما قصدُهُ الجاهُ والقبولُ، فَيَهْلِكُ بسببِهِ، وهو يظنُّ أنَّه عندَ الله بمكانٍ، وهو عند الله ممَّنْ قال فيهم رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِقَوْمٍ لا خَلاقَ لَهُمْ، وإنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»(١).

ولذلك رُوِيَ أنَّ إبليسَ تمثَّلَ لعيسى ابنِ مريمَ عليه السلام فقال: قل لا إله إلا الله. فقال: (كلمةُ حقٍّ ولا أقولُها بقولك)؛ لأنَّ له تحتَ الخيرِ أيضاً تلبيساتٍ، وتلبيساتُ الشيطانِ مِنْ هذا الجنسِ لا تتناهى، وبها يهلكُ العلماءُ والعُبّادُ والزُّهّادُ والفقراءُ والأغنياءُ وأصنافُ الخلقِ، وربَّما يوسوسُ له أنَّه خيرٌ وحسنةٌ، فيقدِمُ عليه كالراغبِ في الخير، فيخرجُ الأمرُ بعدَ ذلك عن اختيارِهِ، ويجرُّهُ البعضُ إلى البعضِ بحيثُ لا يَجِدُ محيصاً، فنعوذُ بالله مِنْ تضييعِ أوائلِ الأمورِ، وإليه الإشارةُ بقولِهِ ﷺ: «مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»(٢).

فحقٌّ على العبدِ أن يقفَ عند كلِّ هم يخطرُ له؛ ليعلمَ أنَّه مِنْ لَمَّةِ المَلَكِ أو لَمّةِ الشيطان، ولا يطلع على ذلك إلا بنور التقوى وغزارةِ العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي: رجعوا إلى نور العلم ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي: ينكشف لهم الإشكال، وأما من لم يرُض نفسَهُ بالتقوى فيميلُ طبعه إلى الإذعانِ لتلبيسِهِ بمتابعةِ الهوى ويكثر فيه غلطُهُ.

(م: قال القشيري رحمه الله: اتفق المشايخ على أنَّ مَنْ كان أكلُهُ مِنَ الحرام لم يُفرِّقْ بين الإلهام والوسواس)، وفي مثلهم قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

---

(١) رواه البخاري (٣٠٦٢).

(٢) رواه البخاري (٥٠).

لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، قيل: هي أعمالٌ ظنُّوها حسنات فإذا هي سيئات.

وأغمضُ أنواعِ علومِ المعاملةِ الوقوفُ على خِدَعِ النَّفسِ ومكائدِ الشيطان، وذلك فرضُ عينٍ على كل عبدٍ، وقد أهملَهُ الخلقُ واشتغلوا بعلومٍ تستجرُّ إليهم الوسواس، وتُسلِّطُ عليهم الشيطان، وتُنسيهم عداوتَهُ وطُرُقَ الاحتراز عنه، ولا ينجي مِنْ كثرة الوسواسِ إلا سدُّ أبوابِ الخواطر، وأبوابُها مِنَ الخارجِ الحواسُّ الخمسُ، ومِنَ الداخلِ الشهواتُ وعلائقُ الدُّنيا، والخلوةُ في بيتٍ مُظلِمٍ تسدُّ بابَ الحواسِّ، والتَّجرُّدُ عن المالِ والأهلِ يُقلِّلُ مداخلَ الوسواسِ مِنَ الباطن، ويبقى مع ذلك مداخلُ باطنةٌ مِنَ التَّخيُّلاتِ الجاريةِ في القلب، وذلك لا يدفعُ إلا بشغلِ القلبِ بذكر الله، ثم لا يستغنى عن الجهادِ والمدافعةِ ما دامَ الدَّمُ يجري في بدنه، فإنَّه ما دام حيّاً فأبوابُ الشيطانِ مفتوحةٌ إلى قلبِهِ لا تَنْغَلِقُ، وهي: الشهوةُ، والغضبُ، والحسدُ، والطمعُ، والشَّرَهُ، وغيرُها، ومهما كان البابُ مفتوحاً والعدوُّ غيرَ غافلٍ لم يُدفعْ إلا بالحراسةِ والمجاهدةِ.

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رضي الله عنه:

وَاجْلِسْ عَلَى بَابِ قَلْبٍ حَارِسًا أَبَدًا ... وَكُنْ مَعَ النَّفْسِ كَالرَّاعِي مَعَ الْغَنَمِ

فَإِنَّهَا قُطْبُ شَرٍّ قَدْ حَوَتْ فِتَنًا ... مِنَ الدَّسَائِسِ تَحْكِي دَاجِيَ الظُّلَمِ

رَوَّاغَةٌ أَبَدًا لَا تَسْتَقِيمُ بَلَى ... تَكُبُّ صَاحِبَهَا مُرْدًى إِلَى الْعَدَمِ

فِرْعَوْنُ هَامَانُ قَارُونٌ وَرَابِعُهُمْ ... نَمْرُودُ جَالُوتُ عَادٌ مَعْ ثَمُودِهِمِ

وَبُخْتُ نَصَّرِهِمِ كِسْرَى وَقَيْصَرُهُمْ ... فَالنَّفْسُ مِنْ كَيْدِهَا أَرْدَتْ لِكُلِّهِمِ

والسَّامِرِيُّ وَقَابِيلٌ لَقَدْ لَعِبَتْ ... قِدْمًا بِذَيْنِ بِكُفْرٍ ثُمَّ قَتْلِهِمِ

وَكُلُّ غَيْهَبِ ظُلْمٍ قَدْ بَدَا فَإِذَا ... أَمْعَنْتَ فِكْرًا تَجِدْهُ غَيْرَ مُكْتَتِمِ

مِنْ مَكْرِهَا جَاءَ فَاحْذَرْ مَكْرَهَا أَبَدًا حَتَّـى لَقَـدْ نَازَعَـتْ للهِ ذِي الْقِدَمِ
وَلَـمْ تُقِـرَّ بِتَوْحِيـدِ فَعَذَّبَهَـا آلَافَ أَرْبَعَـةً بِالْـجُوعِ مِـنْ طَعِمِ
وَجُوِّعَتْ كُلَّ ذَا الْمِقْدَارِ فَانْقَمَعَتْ بِالْـجُوعِ فَالْزَمْهُ فِي تَرْوِيضِهَا وَدُمِ
وَارْعَ الْـخَوَاطِرَ وَاعْرِفْ حُكْمَهَا بِفَتَّى قَدْ خَاضَ أَوْدِيَةَ الْعِرْفَانِ وَالْـحِكَمِ
وَكُلُّهَـا أَرْبَـعٌ فِـي رَأْيِ قُدْوَتِنَـا رَبَّانِـي نَفْسَـانِي شَـيْطَانِيُّ ذُو رُجَمِ
وَالرَّابِعُ الْمَلَكِي فَاحْفَظْ لِـجُمْلَتِهَا بِالْـحَالِ لَا بِـمَقَالِ النَّاسِ فِي الرُّسُمِ)

واعلم أنَّ مداخلَ الشيطانِ وأبوابَهُ صفاتُ العبدِ، وهي كثيرة، ولكنا نشيرُ إلى الأبوابِ العظيمةِ الجاريةِ مجرى الدُّروبِ التي لا تضيقُ عن كثرة جنودِ الشيطان.

فَمِنْ أبوابِهِ العظيمةِ:

ـ الغضبُ والشهوةُ، فإنَّ الغضبَ هو غولُ العقلِ[1]، فإذا ضعفَ جند العقلِ هَجَمَ جندُ الشيطانِ، ومهما غَضِبَ الإنسانُ لَعِبَ الشيطانُ به كما يلعبُ الصَّبيُّ بالكرةِ.

ـ والحسدُ والحرصُ، فمهما كان العبدُ حريصاً على شيءٍ أعماهُ حِرْصُهُ وأَصَمَّهُ.

ـ والشِّبعُ مِنَ الطعامِ وإنْ كان حلالاً صافياً؛ فإنَّ الشِّبعَ يُقوِّي الشهواتِ، والشهواتُ أسلحةُ الشيطان.

وقيل: في كثرةِ الأكلِ ستُّ خصالٍ مذمومة: أولها: أن يذهبَ خوفُ الله مِنْ

---

(١) الغُولُ: كلُّ ما أَخَذَ الإنسانَ من حيث لا يدري فأهلكه.

قلبِهِ، الثاني: أن يذهبَ رحمةُ الخلقِ مِنْ قلبِهِ؛ لأنّه يظنُّ أنّهم شِباعٌ، والثالث: أنه يثقلُ عن الطاعة، والرابعُ: أنّه إذا سمعَ كلامَ الحكمةِ لا يجدُ له رقّةً، والخامسُ: أنّه إذا تكلَّم بالموعظةِ والحكمةِ لا يقعُ في قلوب الناسِ، والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

- وحبُّ التَّزيُّنِ في الثيابِ والأثاثِ والدارِ؛ فإنَّ الشيطانَ إذا رأى ذلك غالباً على قلبِ الإنسانِ باضَ فيه وفرَّخَ.

- والطمعُ في الناسِ؛ لأنّه إذا غلبَ الطَّمعُ على القلبِ لم يزل الشيطانُ يحبِّبُ إليه التَّصنُّعَ والتَّزيُّنَ لِمَنْ طمعَ فيه حتى يصيرَ المطموعُ فيه كأنّه معبودُهُ.

- والعجلةُ وتَرْكُ التَّثبُّتِ في الأمور، روي في الأثر: «العجلةُ مِنَ الشيطان، والتأنّي مِنَ الله تعالى»(١)، وهذا لأنَّ الأعمالَ ينبغي أن تكونَ بعدَ التبصرةِ والمعرفةِ، وعند الاستعجالِ يُروِّجُ الشيطانُ شَرَّهُ على الإنسانِ مِنْ حيثُ لا يدري.

- والدراهمُ والدنانيرُ وسائرُ أصنافِ الأموالِ مِنَ العُرُوضِ والدَّوابِّ والعقارِ؛ فإنَّ كلَّ ما يزيدُ على قدرِ القوتِ والحاجةِ فهو مستقرُّ الشيطان؛ فإنَّ مَنْ معه قوتُهُ فهو فارغُ القلب، فلو وجدَ مئةَ دينارٍ مثلا انبعثَ مِنْ قلبِهِ عشرُ شهواتٍ، تحتاجُ كلُّ شهوةٍ منها إلى مئةِ دينارٍ أخرى.

قال ثابتٌ البنانيُّ رحمه الله: لمّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ قال إبليسُ لشياطينه: لقد حَدَثَ أمرٌ فانظروا ما هو؟ فانطلقوا ثم جاؤوا وقالوا ما ندري، قال إبليس: أنا آتيكم

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٤٢٧).

بالخبر، فذهبَ ثم جاء وقال: قد بَعَثَ الله محمّداً، فَجَعَلَ يُرسِلُ شياطِينَهُ إلى أصحاب النّبيّ ﷺ فينصرفون خائبين، ويقولون: ما صَحِبْنا قوماً قطُّ مثلَ هؤلاء، نُصيبُ منهم، ثم يقومون إلى صلاتهم فيُمحى ذلك، فقال إبليسُ: رُوَيداً بهم، عسى الله أن يفتحَ لهم الدُّنيا، فهناك تصيبون حاجتَكم منهم[١].

ـ والبخلُ وخوفُ الفقرِ، قال سفيانُ رضي الله عنه: (ليس للشَّيطانِ سلاحٌ مثلَ خوفِ الفقر، فإذا قبلَ ذلك منه أَخَذَ في الباطل، ومَنَعَ مِنَ الحق، وتكلَّم بالهوى، وظَنَّ بربِّهِ ظَنَّ السوءِ).

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ إبْلِيسَ لَمَّا نَزَلَ إلى الأَرْضِ قَالَ: يا ربِّ أَنْزَلْتَنِي إِلَى الأَرْضِ وَجَعَلْتَنِي رَجِيماً فَاجْعَلْ لِي بَيْتاً. قالَ: الحَمَّامُ، قالَ: فاجْعَلْ لَي مَجْلِساً. قال: الأَسْوَاقُ ومَجَامِعُ الطُّرُقِ، قالَ: فاجْعَلْ لِي طَعَاماً، قالَ: ما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْهِ، قالَ: فاجْعَلْ لِي شَرَاباً، قالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ، قَالَ: اجْعَلْ لِي مُؤَذِّناً قالَ: المَزَامِيرُ، قالَ: اجْعَلْ لِي قُرْآناً، قالَ: الشِّعْرُ، قالَ: اجْعَلْ لِي كِتَاباً، قالَ: الوَشْمُ، قالَ: اجْعَلْ لِي حَدِيثاً، قالَ: الكَذِبُ، قالَ: اجْعَلْ لِي مَصَائِدَ قالَ: النِّسَاءُ»[٢].

ـ ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ: التَّعصُّبُ للمذاهبِ والأهواءِ، والحقدُ على الخصومِ، والنَّظرُ إليهم بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ، فترى الواحدَ منهم يتعصَّبُ لأبي بكر رضي الله عنه وهو آكلُ الحرامَ، ومُطلِقٌ اللِّسانَ بالفضولِ والكذبِ، ومُتعاطٍ لأنواعِ الفسادِ، ولو رآه أبو بكرٍ لكانَ أوّلَ عدوٍّ له؛ إذ مُوالي أبي بكرٍ مَنْ أَخَذَ سبيلَهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٣٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٧).

وسار بسيرتِهِ، وحَفِظَ ما بين لَحييهِ، وكان مِنْ سيرته أن يضعَ حجراً في فمِهِ ليكفَّ لسانَهُ عن الكلامِ فيما لا يعنيه، فأنَّى لهذا الفضوليّ أن يدَّعيَ حُبَّهُ؟ وترى فضوليّاً آخرَ يتعصَّبُ لعليٍّ رضي الله عنه ويميلُ إلى حبّهِ وتفضيلِهِ على غيرِهِ، وقد كان من زهدِ عليٍّ وسيرتِهِ أنَّه لَبِسَ في خلافتِهِ ثوباً اشتراهُ بثلاثةِ دراهمَ، وقطعَ رأسَ الكُمَّينِ إلى الرُّسغِ، وترى الفاسقَ لابساً لثيابِ الحريرِ، ومتجمّلاً بأموالٍ اكتسبَها مِنْ حرامٍ وهو يتعاطى حُبَّ عليٍّ رضي الله عنه ويدعيه، وهو أوَّلُ خصمائِهِ يومَ القيامة، وهكذا حكمُ المتعصِّبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرِهم مِنَ الأئمة، فَمَنِ ادَّعى مذهبَ إمامٍ وهو ليس يسيرُ بسيرتِهِ فذلك الإمامُ هو خصمُهُ يوم القيامة؛ إذ يقولُ له: كان مذهبي العملُ دونَ الحديث باللسان، وكان الحديثُ باللِّسانِ لأجلِ العملِ لا لأجلِ الهذيان.

ـ ومِنْ عظيمِ حِيَلِ الشيطانِ أن يَشغَلَ الإنسانَ عن نفسِهِ بالاختلافاتِ الواقعةِ بين الناسِ في المذاهب والخصومات.

ـ ومِنْ أبوابه: حَمْلُ العوامِّ الذين لم يمارسوا العلمَ ولم يتبحَّروا فيه على التَّفكُّرِ في ذات الله وصفاته، وفي أمورٍ لا يبلغُها حدُّ عقولِهِم، حتى يُشكِّكَهم في أصل الدِّين، أو يُخيِّلَ إليهم في الله تعالى خيالاتٍ يتعالى الله عنها، فيصير بها كافراً أو مبتدعاً، وهو به فَرِحٌ بما وَقَعَ في صدره، يظنُّ أنَّ ذلك هو المعرفةُ والبصيرةُ.

فأشدُّ الناسِ حماقةً أقواهم اعتقاداً في عقلِ نفسِهِ، وأثبتُ الناسِ عقلاً أشدُّهُم اتِّهاماً لنفسِهِ، وأكثرُهُم سؤالاً من العلماء.

فحقُّ العوامِّ أن يؤمنوا ويُسلِّموا ويشتغلوا بعباداتهم ويتركوا العلمَ للعلماء،

فإنَّ مَنْ تكلَّم في الله وفي دينِهِ مِنْ غير إتقانِ العلمِ وَقَعَ في الكفرِ مِنْ حيث لا يدري، كَمَنْ يركبُ لُجّةَ البحرِ وهو لا يَعرِفُ السباحةَ.

ـ ومِنْ أبوابه: سوءُ الظَّنِّ بالمسلمين، قال الله تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢]، فَمَنْ يحكمُ بِشَرٍّ على غيرِهِ بالظَّنِّ بَعثَهُ الشيطانُ على أن يُطوِّلَ فيه اللِّسانَ بالغيبةِ فَيَهْلِكَ، أو يُقصِّرَ في القيامِ بحقوقه، أو يتوانى في إكرامِهِ، أو ينظر إليه بعينِ الاحتقارِ ويرى نفسَهُ خيراً منه، وكلُّ ذلك مِنَ المهلكات.

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رضي الله عنه:

دَارٌ بِـهَا حَكَمَ الْمَلْعُونُ مُبْلِسُـهَا ... يَصُـولُ فِيهَـا بِأَنْـوَاعٍ مِـنَ الظُّلَمِ

يُضِلُّ لِلْخَلْقِ عَنْ سُبْلِ الْـهُدَى أَبَدًا ... يَدْعُوهُـمُ بِغُـرُورِ الْقَـوْلِ لِلنِّقَـمِ

وَلَا يُفَارِقُهُـمْ فِـي وَقْـتِ أَكْلِهِمُ ... أَيْضًا وَيَـحْضُرُهُمْ فِي حَالِ شُرْبِـهِمِ

وَفِي مَعَايِشِـهِمْ يَأْتِي وَيَشْـهَدُهُمْ ... وَفِي الْـحَيَاةِ وَأَيْضًا عِنْدَ مَوْتِـهِمِ

يُوحِي إِلَيْهِمْ غُرُورًا مِنْ وَسَاوِسِهِ ... يُزْجِيهِـمُ قَعْـرَ لُـجِّيٍّ بِـمُلْتَقِمِ

يَـا رَبِّ بَاعِـدْهُ عَنَّا وَاخْـزِهِ أَبَدًا ... وَكُـنْ لَنَـا مَلْجَأً يَـا خَيْـرَ مُعْتَصَمِ

كَيْفَ الْـخَلَاصُ مِنَ الشَّيْطَانِ حَاسِدِنَا ... مَـا ذَاكَ إِلَّا بِتَأْيِيـدٍ مِـنَ الْعِصَـمِ

فَالْمُخْلِصُـونَ عِبَـادُ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... عَلَيْهِـمُ سُـلْطَةٌ فِـي لَا وَلَا نَعَـمِ

وَالْأَغْوِيَـاءُ جَـمِيعًا فِـي وِلَايَتِهِ ... يُضِلُّهُـمْ وَيُـمَنِّيهِـمْ بِغَيِّهِـمِ

وَكَـمْ أَضَلَّ عَـدُوُّ اللهِ مِـنْ جُبُلٍ ... كَثِيْرَةٍ قَدْ مَضَتْ فِي سَالِفِ الْأُمَمِ[1]

قَـصَّ الْإِلَـهُ عَلَيْنَـا مِـنْ مَكَايِدِهِ ... فِي مُـحْكَمِ الذِّكْرِ وَالآيَاتِ وَالْـحِكَمِ

---

(١) الجُبُل: جمعُ جَبِيلٍ: وهم الجماعة من الناس.

تِسْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ خَيْرٍ يُفَتِّحُهَا ... لِأَجْلِ بَابٍ مِنَ الْأَشْرَارِ وَالظُّلَمِ
يُرْدِي الْفَتَى فِيهِ مَخْذُولًا وَمُنْتَكِسًا ... عَوْذًا بِرَبِّ الْوَرَى مِنْ شَرِّ مُرْتَجِمِ
هُوَ الْعَدُوُّ فَلَا تُرْجَى مَوَدَّتُهُ ... دَوْمًا فَعَادِهْ وَلَا تَجْنَحْ إِلَى السَّلَمِ
وَاحْذَرْ مِنَ ابْوَابِهِ فَالْعُجْبُ أَعْظَمُهَا ... وَالْكِبْرُ ثُمَّ الرِّيَا وَالْمَيْلِ لِلْحُرَمِ
فَفِي النِّسَا فِتَنٌ كَاللَّيْلِ فِي سُحُبٍ ... وَكَيْدُهُنَّ عَظِيمٌ مِنْهُ فَانْهَزِمِ
وَالشُّحُّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَبْوَابِ مَعْ شِبَعٍ ... وَحُبُّ دُنْيَا وَأَهْوَاءٌ مِنَ الْأُمَمِ
وَالْحِقْدُ مَعْ غَضَبٍ فَاحْذَرْ وَمِنْ حَسَدٍ ... وَمِنْ فُضُولٍ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْكَلِمِ
وَالْبَطْنُ وَالْفَرْجُ وَالسُّلْطَانُ وَالْأُمَرَا ... وَالْأَغْنِيَاءُ وَأَهْلُ الْحُمْقِ وَالْجُرُمِ
وَخَوْفُ فَقْرٍ وَهَمُّ الرِّزْقِ مَعْ أَمَلٍ ... رِضًى عَنِ النَّفْسِ مَعْ صِيتٍ وَجَاهِهِمِ
فَاحْذَرْ مَدَاخِلَهُ ثُمَّ الْتَجِئْ أَبَدًا ... مِنْهُ إِلَى اللهِ ذِي السُّلْطَانِ وَاعْتَصِمِ
يُحَسِّنُ الْكَافِرُ الْمَلْعُونُ أَقْبَحَ مَا ... يَكُونُ لِلْجَاهِلِ الْمَغْرُورِ مِنْ شِيَمِ
مِنْ ثَمَّ فَاقَ ذَوُو الْعِرْفَانِ وَارْتَفَعُوا ... قَدْرًا عَلَى عَابِدٍ بِالْجَهْلِ كَالْبُهُمِ
فَوَاحِدٌ عَالِمٌ بِاللهِ أَفْضَلُ مِنْ ... تِعْدَادِ أَلْفٍ مِنَ الْعُبَّادِ لَا تَهِمِ
فَالْعَالِمُ الْوَاحِدُ الْمَذْكُورُ مَقْصِدُنَا ... بِهِ الْمُوَافِقُ فِي الطَّاعَاتِ وَالْخَدَمِ
لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ ذَا الْقَالِ لَقْلَقَةً ... فَإِنَّهُ سَاقِطٌ عَنْ ذُرْوَةِ السَّنَمِ)

* * *

بيانُ ما يُؤاخَذُ به العبدُ مِنْ وساوسِ القلوبِ وما يعفى عنه

اعلم أنَّ هذا أمرٌ غامضٌ، وقد وَرَدَتْ فيه أخبارٌ وآياتٌ مُتعارِضةٌ يَلتبِسُ طريقُ الجمعِ بينها إلا على سماسرةِ العلماءِ، فقد صَحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله تجاوزَ عَنْ أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به نفوسُها ما لم تعمل أو تتكلَّم به»(١).

وقال ﷺ: «إِنّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسّيِّئَاتِ، ثُمّ بَيّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عَزّ وَجَلّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيّئَةً وَاحِدَةً»(٢). وذلك يدلُّ على العفوِ عن عملِ القلبِ وهَمِّهِ بالسيئة.

فأما ما يدلُّ على المؤاخذةِ فقولُهُ سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فدلَّ على أنَّ عملَ الفؤادِ كعملِ السمعِ والبصرِ، فلا يعفى عنه.

والحقُّ عندنا في هذه المسألةِ لا يُوقَفُ عليه ما لم تقعِ الإحاطةُ بتفصيلِ أعمالِ القلوب مِنْ مبدأِ ظهورِها إلى أن يظهرَ العملُ على الجوارح.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧).

(٢) رواه البخاري (٧٥٠١) ومسلم (١٢٨).

وأحوالُ القلبِ قبلَ العملِ بالجارحة أربعةٌ: الخاطرُ وهو حديثُ النّفس، ثم الميلُ، ثم الاعتقادُ، ثم الهَمُّ.

فنقول: أما الخاطرُ فلا يُؤاخَذُ به؛ لأنَّه لا يدخلُ تحتَ الاختيار، ولا يمكن دفعُهُ، وكذلك الميلُ وهيجانُ الشَّهوةِ؛ لأنَّهما لا يدخلانِ تحتَ الاختيار، وهما المرادانِ بقولِهِ ﷺ: «عُفِيَ عن أمَّتي ما حَدَّثَتْ به نفوسُها»[١].

والثالث: الاعتقادُ والحكمُ بالقلبِ بأنه ينبغي أن يفعلَ، فهذا ينبغي أن ينظر فيه، فهذا مُرَدَّدٌ بين أن يكونَ اختياراً أو اضطراراً، فالاختياريُّ منه يُؤاخَذُ به، والاضطراريُّ لا يُؤاخَذُ به.

والرابع: الهمُّ بالفعلِ، وهو مُؤاخَذٌ به؛ لأنَّه إن تَرَكَهُ خوفاً مِنَ الله تعالى وندم على هَمِّهِ كُتِبَتْ له حسنة؛ لأنَّ هَمَّهُ سَيِّئةٌ، وامتناعَهُ ومجاهدتَهُ نفسَهُ حسنةٌ، وإن تَعَوَّقَ الفعلُ بعائقٍ، أو تَرَكَهُ لعذرٍ لا خوفاً مِنَ الله كُتِبَتْ عليه سَيِّئةٌ؛ فإنَّ هَمَّهُ فعلٌ مِنَ القلبِ اختياريٌّ، بدليل قوله ﷺ: «إذا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِما فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النّارِ، قيل: يا رسول الله ﷺ، هذا القاتلُ فما بَالُ المقتولِ؟ قال: لَأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[٢].

هذا هو كشفُ الغطاء عن هذا الالتباسِ، وكلُّ مَنْ يظنُّ أنَّ كلَّ ما يجري على القلبِ يُسمَّى حديثَ النَّفس، ولم يُفرِّقْ بين هذه الأقسامِ فلا بدَّ وأن يغلطَ، وكيف لا يُؤاخَذُ بأعمالِ القلوبِ والكبرُ والعُجْبُ والرِّياءُ والنِّفاقُ والحسدُ وجملةُ الخبائثِ مِنْ أعمالِ القلوب؟

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩).

(٢) رواه البخاري (٣١) ومسلم (٢٨٨٨).

واعلم أنَّ القلبَ لا يزالُ يتردَّدُ بين جنود المَلَكِ وجنودِ الشيطانِ متجاذباً بين الحزبين، فإذا كانت الصِّفاتُ التي في القلبِ الغالبُ عليها الصِّفاتُ الشيطانيةُ غَلَبَ الشيطانُ، ومال القلبُ إلى جنسِهِ مُعرِضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه، ومُساعداً لحزبِ الشيطانِ وأعدائه، وجرى على جوارحِهِ بسابقِ القدرِ ما هو سببٌ لبعدِهِ عن الله تعالى، وإن كان الأغلبُ على القلبِ الصِّفاتِ الملكيّةَ لم يُصْغِ القلبُ إلى إغواءِ الشيطانِ وتحريضِهِ إيّاهُ على العاجلة، ومالَ إلى حزبِ الله وأوليائه، وظَهَرَتْ الطاعةُ بموجبِ ما سَبَقَ مِنَ القضاء على جوارحه.

فقلبُ المؤمنِ بين أُصبعَينِ مِنْ أصابعِ الرحمنِ ـ أي: بين تجاذُبِ هذينِ الحِزبَينِ، وهو الغالبُ أعني: التَّقلُّبَ والانتقالَ مِنْ حزبٍ إلى حزبٍ، أما الثَّباتُ على الدوامِ مع حزبِ الملائكةِ أو حزبِ الشيطانِ فنادرٌ مِنَ الجانبين.

(ش: قال الإمام أبو الحسن الشاذلي قدس الله سره: «البصيرةُ كالبَصَر، أدنى شيءٍ يَقَعُ فيها يُعطِّلُ النَّظَر، وإنْ لَمْ يَنْتَهِ الأمرُ إلى العمى، فالخَطْرَةُ مِنْ صفاتِ الشَّرِّ تُشَوِّشُ نَظَرَ البصيرةِ، وتُكَدِّرُ الفكرَ والإرادةَ، وتَذْهَبُ بالخيرِ رأسا، والعملُ بها يَذْهَبُ بصاحبِهِ عن سهمٍ مِنَ الإسلام، فإنِ استمرَّ على الشَّرِّ تَفَلَّتَ منه الإسلامُ سهمًا سهما، فإذا انتهى إلى الوَقِيعَةِ في العلماءِ والصَّالحِينَ وموالاةِ الظَّالمين؛ حُبًّا للجاهِ والمنزلةِ عندهم فقد تَفَلَّتَ منه الإسلامُ كلُّه، ولا يَغُرَّنَّكَ ما تَوَسَّمَ به ظاهرًا؛ فإنَّه لا روحَ له، فإنَّ روحَ الإسلامِ حُبُّ الله وحُبُّ رسولِهِ ﷺ وحُبُّ الآخرةِ والصَّالحِينَ مِنْ عبادِه»[1]).

وهذه الطاعاتُ والمعاصي تظهرُ مِنْ خزائنِ الغيبِ إلى عالَمِ الشَّهادةِ بواسطةِ

---

(١) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٢٤ ـ ١٢٦).

خزانةِ القلب؛ فإنَّه مِنْ خزائن الملكوت، وهي إذا ظَهَرَتْ كانت علاماتٍ تعرِّفُ أربابَ القلوبِ سابقَ القضاء، فَمَنْ خُلِقَ للجنّةِ تَيَسَّرَتْ له الطاعةُ وأسبابُها، ومَنْ خُلِقَ للنارِ تَيَسَّرَتْ له المعصيةُ وأسبابُها، وكلُّ ذلك بقضاء الله تعالى وقدرِه، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وعرَّفَ الله تعالى خَلْقَهُ بعلاماتِ أهل الجنة وأهل النار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وقال تعالى فيما يروي عنه نبيُّنا ﷺ: «هؤلاءِ فِي الجَنَّةِ وَلا أُبالِي وَهؤلاءِ فِيالنَّارَ وَلا أُبَالِي»[1]، فتعالى الله الملك الحق، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

(ز: ولنختم هذا الكتاب بكلام الإمامِ أبي الحسن الشاذلي رحمه الله فقد قال: إذا كَثُرَتْ عليكَ الخواطرُ والوساوسُ فقل: «سبحانَ المَلِكِ الخلَّاق، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩ - ٢٠]).

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٨٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٣٨).

الكتاب الثاني من ربع المهلكات
في رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

(جاهد تشاهد)
(حَرامٌ على أَهْلِ النُّفُوسِ الدُّخولُ إلى حضرةِ القُدُّوس)

(ش: قال القوم رضي الله عنهم: مَنْ رَكِبَ مَرْكَبَ المُجاهدة حُطَّ بساحلِ المُشاهدة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وعَجزت الأشياخُ أن يُزَحْزِحُوا مُريداً لم يجاهد نفسَهُ.

ولذا كانت المجاهدةُ أحدَ أركانِ الطريقِ الخمسِ التي لا يَصِحُّ السُّلوكُ إلا بها، وهي: الذكر والمذاكرة والمجاهدة والعلم والمحبة، ونظمتُها ـ غفر الله لي ـ فقلت فيها موشَّحاً:

أَيُّهـا الطَّالِـبُ قُرْبـا	إنَّ هــذا لا يَكُــونْ
إلا بِشَـيْخٍ وصُحْبَـهْ	واتِّبــاعٍ لِلمَصُــونْ
إنْ تَـرُمْ قَصْـدَ الكَمَالِ	لِتَنْعَــمَ بِالوِصَــالِ
فَاسْـعَ في خَلْـعِ النِّعالِ	عِنْـدَ ذا الفَتْـحُ يَكُـونْ
اُذْكُــرَنْ رَبَّ الأَنَــامِ	بِالمَحَبَّــهْ والهُيَــامِ
تَحْـظَ بِـكُلِّ المَـرَامِ	فَاصْغَ وَاتْـرُكْ كُلَّ دُونْ
جَاهِـدِ الأَغْيَارَ تَشْـهَدْ	عَنْ سِـواهُ غِبْ لِتَسْـعَدْ

ثُـمَّ بِالعِلْـمِ تَقَيَّـدْ حَـذَارِ ذَارَ الْفُتُـونْ
ذَاكِـرَنْ قَصْـدَ التَّحْقِيـقِ لِلْمُرْشِـدِ وَالرَّفِيـقِ
كُلُّ ذَا أَصْـلُ الطَّرِيـقِ مَنْ صَـدَقْ حَازَ الْفُنُونْ)

اعلم أنَّ بعضَ مَنْ غَلَبَتْ البطالةُ عليه استثقلَ المجاهدةَ والرياضة، والاشتغالَ بتزكية النَّفسِ وتهذيبِ الأخلاق، فلم تسمح نفسُهُ بذلك؛ لقصورِهِ ونقصِهِ، وزعمَ أنَّ الأخلاقَ لا يُتصوَّرُ تغييرُها، وأنَّ الطِّباعَ لا تتغيَّرْ.

ونقولُ: لو كانت الأخلاقُ لا تقبلُ التَّغييرَ لَبطَلَتِ الوصايا والمواعظُ والتأديباتُ، ولَمَا أَمَرَ رسولُ الله ﷺ المؤمنينَ بحسن الخلقِ، وكيف يُنكَرُ هذا في حقِّ الآدميِّ وتغييرُ خُلُقِ البهيمةِ ممكنٌ؛ إذ يُنقلُ البازي مِنَ الاستيحاشِ إلى الأُنسِ، والكلبُ مِنْ شَرَهِ الأكلِ مِنَ الصيدِ إلى التأدُّبِ والإمساكِ والتخليةِ، والفرسُ مِنَ الجماحِ إلى السلاسةِ والانقيادِ، وكلُّ ذلك تغييرٌ للأخلاق؟

واعلم أنَّ أمهاتِ الأخلاقِ وأصولَها أربعةٌ: الحكمةُ، والشجاعةُ، والعِفَّةُ، والعدلُ.

ونعني بالحكمةِ: حالةً للنَّفسِ بها يُدرَكُ الصَّوابُ مِنَ الخطأ في جميع الأفعالِ الاختيارية.

ونعني بالعدلِ: حالةً للنَّفسِ وقوَّةً بها تسوسُ الغضبَ والشهوةَ، وتحملُهُما على مقتضى الحكمةِ، وتضبطُهُما في الاسترسالِ والانقباضِ على حسب مقتضاها.

ونعني بالشجاعةِ: كونَ قوَّةِ الغضبِ منقادةً للعقل في إقدامِها وإحجامِها.

ونعني بالعِفَّةِ: تأدُّبَ قوَّةِ الشهوةِ بتأديبِ العقلِ والشرعِ.

فَمِن اعتدالِ هذه الأصولِ الأربعةِ تصدرُ الأخلاقُ الجميلةُ كلُّها؛ إذ من اعتدالِ قوّةِ العقلِ يصدرُ حسنُ التّدبيرِ، وجودةُ الذّهنِ، وثقابةُ الرأي، وإصابةُ الظّنِّ، والتّفطُّنُ لدقائقِ الأعمالِ وخفايا آفاتِ النفوس.

ومِنْ إفراطِها تصدرُ الجربزةُ[1] والمكرُ والخداعُ والدَّهاءُ.

ومِنْ تفريطِها يصدرُ البَلَهُ والغمارةُ والحمقُ والجنونُ، وأعني بالغمارة: قلةَ التّجربةِ في الأمور مع سلامةِ التّخيُّلِ.

وأما خلقُ الشجاعةِ فيصدرُ منه الكرمُ والنَّجدةُ والشَّهامةُ والاحتمالُ والحلمُ والثباتُ وكظمُ الغيظِ والوقارُ والتُّؤدةُ وأمثالُها، وهي أخلاقٌ محمودةٌ.

وأما إفراطُها ـ وهو التَّهوُّرُ ـ فيصدرُ منه الصَّلَفُ[2] والبَذْخُ والاستشاطةُ والتّكبُّرُ والعجبُ.

وأما تفريطُها فيصدرُ منه المهانةُ والذِّلّةُ والجزعُ والخساسةُ والانقباضُ عن تناولِ الحقِّ الواجبِ.

وأما خلقُ العِفَّةِ فيصدرُ منه السَّخاءُ والحياءُ والصبرُ والمسامحةُ والقناعةُ والورعُ واللَّطافةُ والمساعدةُ والظَّرافةُ وقلةُ الطَّمعِ.

وأما ميلُها إلى الإفراط أو التفريطِ فيصدرُ منه الحرصُ والشَّرَهُ والوقاحةُ والخبثُ والتّبذيرُ والتقتيرُ والرياءُ والهتكةُ والمجانةُ والعبثُ والمَلَقُ والحسدُ والشماتةُ والتّذلُّلُ للأغنياءِ والاستحقارُ للفقراء وغيرُ ذلك.

---

(١) الجربزةُ: الخُبثُ.

(٢) الصَّلَفُ: التّكبُّرُ والعَجرَفةُ.

واعلم أنَّ الغضبَ والشهوةَ لا ينقلعانِ عن الآدميّ بالمجاهدةِ قط، فقد جَرَّبناه بطولِ المجاهدة، فالاشتغالُ به تضييعُ زمانٍ بغير فائدة، ولكن يجب على الشيخِ المرشدِ للمريدِ أن يُقبّحَ عنده الغضبَ رأساً، ويَذُمَّ إمساكَ المالِ رأساً، ولا يُرخِّصَ في شيءٍ منه؛ لأنَّه لو رخَّصَ له في أدنى شيءٍ اتَّخذَ ذلك عذراً في استبقاءِ بُخْلِهِ وغضبِهِ، وظَنَّ أنَّه القَدْرُ المرخَّصُ فيه، فإذا قَصَدَ قلعَ الأصلِ وبالَغَ فيه لم يتيسَّر له إلا كَسْرُ سورتِهِ بحيث يعودُ إلى الاعتدال، فالصوابُ له أن يطلبَ قلعَ الأصلِ حتى يتيسَّرَ له القدرُ المقصودُ، فلا يكشفُ هذا السِّرَّ للمريد؛ فإنَّه موضعُ غرورِ الحمقى.

واعلم أنَّ الشيخَ للمريدِ كالطبيبِ للمريض، فكما أنَّ الطبيبَ لا يُعالِجُ ما لم يعرفِ العِلَّةَ مِنْ حرارةٍ أو برودةٍ، فإن كانت مِنْ حرارةٍ فيعرفُ درجتَها أهيَ ضعيفةٌ أم قويّةٌ، فإذا عَرَفَ ذلك التفتَ إلى أحوالِ البدنِ وأحوالِ الزمان وصناعةِ المريضِ وسِنِّهِ وسائرِ أحوالِهِ، فكذلك الشيخُ المتبوعُ الذي يُطبِّبُ نفوسَ المريدين، ويُعالِجُ قلوبَ المسترشدين، ينبغي أن لا يهجمَ عليهم بالرِّياضةِ والتكاليفِ في فنٍّ مخصوصٍ وطريقٍ مخصوصٍ ما لم يعرف أخلاقَهم وأمراضَهم.

وكما أنَّ الطبيبَ لو عالَجَ جميعَ المرضى بعلاجٍ واحدٍ قتلَ أكثرَهُم، فكذلك الشيخُ لو أشار على المريدين بنمطٍ واحدٍ مِنَ الرياضةِ أهلَكَهُم وأماتَ قلوبَهُم، بل ينبغي أن ينظر في حالِ المريدِ وسِنِّهِ ومِزاجِهِ، وما تَحْتَمِلُهُ بُنيَتُهُ مِنَ الرياضة.

فإن كان المريدُ مُبتدِئاً جاهلاً بحدودِ الشرعِ فيُعلِّمُهُ أوَّلاً الطهارةَ والصلاةَ وظواهرَ العبادات، وإن كان مشغولاً بمالٍ حرامٍ أو مُقارِفاً للمعصيةِ فيأمرُهُ أوَّلاً

بتركِها، فإذا تزيَّنَ ظاهرُهُ بالعباداتِ، وطهَّرَ عن المعاصي الظاهرةِ جوارحَهُ نظرَ بقرائنِ الأحوالِ إلى باطنِهِ؛ ليتفطَّنَ لأخلاقِهِ، وأمراضِ قلبِهِ، فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدرِ ضرورتِهِ أخذَهُ منه وصَرَفَهُ إلى الخيراتِ، وفرَّغَ قلبَهُ منه حتى لا يلتفتَ إليه.

وإن رأى الرُّعونةَ والكبرَ وعزَّةَ النَّفسِ غالبةً عليه يأمرُهُ أن يخرجَ إلى الأسواقِ للكُديةِ [1] والسُّؤالِ؛ فإنَّ عِزَّةَ الرئاسةِ لا ينكسرُ إلا بالذُّلِّ، ولا ذُلَّ أعظمُ مِنْ ذُلِّ السؤال، فيُكلِّفُهُ المواظبةَ على ذلك مُدَّةً حتى ينكسرَ كِبْرُهُ وعزةُ نفسِهِ؛ فإنَّ التَّكبُّرَ مِنَ الأمراضِ المهلكةِ، وكذلك الرُّعونةُ.

وإن رأى الغالبَ عليه النَّظافةَ والطَّراوةَ في البدنِ والثيابِ، ورأى قلبَهُ مائلاً إلى ذلك استخدمَهُ في تعهُّدِ بيتِ الماء وتنظيفِهِ، وكنسِ المواضعِ القذرةِ، وملازمةِ المطبخِ ومواضعِ الدُّخانِ حتى يُشوِّشَ عليه رعونَتَهُ في النظافة، فإنَّ الذين ينظفون ثيابَهم ويُزيِّنونها ويطلبونَ المرقَّعاتِ الرفيعةَ والسَّجاداتِ الملونةَ لا فرقَ بينهم وبين العروسِ التي تُزيِّنُ نفسَها طولَ النهار، فلا فرقَ بين أن يعبدَ الإنسانُ نفسَهُ أو يعبدَ صنماً، فمهما عَبَدَ غيرَ اللهِ فقد حُجِبَ عن الله، ومَنْ راعى في ثوبه شيئاً غيرَ كونِهِ حلالاً وطاهراً مراعاةً يلتفتُ إليها قلبُهُ فهو مشغولٌ بنفسِهِ.

ومِنْ لطائفِ الرياضةِ أنَّ النَّفسَ إذا لم تسمح بتركِ صفةٍ ذميمةٍ فينبغي أن تُنقَلَ مِنَ الخلقِ المذمومِ إلى خلقٍ مذمومٍ آخرَ أخفَّ منه، فَمَنْ لم تسمحْ نفسُهُ

---

(١) الكُديةُ: الإلحاحُ في السؤال.

بتركِ الجاهِ دفعةً فليُنقَلْ إلى جاهٍ أخفَّ ممّا هو فيه، وكذا سائرُ الصّفات.

وإن رأى الغالبَ عليه شَرَهَ الطعامِ ألزمَهُ الصَّومَ وتقليلَ الطعامِ أوّلاً، ثم كلَّفَهُ أن يُهيِّئَ الأطعمةَ اللذيذةَ ويُقدِّمَها إلى غيرِهِ وهو لا يأكلُ منها، حتَّى يُقوِّيَ بذلك نفسه، فيتعوَّدَ الصَّبرَ وينكسرَ شرهُهُ، فلا علاجَ في مبدأِ الإرادةِ أنفعُ مِنَ الجوع.

وإن رأى الغضبَ غالباً عليه ألزمَهُ الحلمَ والسُّكوتَ، وسلَّطَ عليه مَنْ يصحبُهُ مِمَّنْ فيه سوءُ الخلق، حتَّى يُمرِّنَ نفسَهُ على الاحتمال معه، فقد كان بعضُهم يُعوِّدُ نفسَهُ الحلمَ، ويزيلُ عن نفسِهِ شِدّةَ الغضبِ، فكان يستأجرُ مَنْ يَشْتُمُهُ على ملأٍ مِنَ الناس، ويُكلِّفُ نفسَهُ الصَّبرَ، ويكظمُ غيظَهُ، حتى صار الحلمُ عادةً له بحيثُ كان يُضرَبُ به المثل، وعالَجَ بعضُهم حُبَّ المالِ بأن باع جميعَ ما يملكُ، وكان بعضُ الشيوخِ في ابتداء إرادتِهِ يكسلُ عن القيامِ، فألزمَ نفسَهُ القيامَ طولَ الليل، فهذه الأمثلةُ تُعرِّفُكَ طريقَ معالجةِ القلوب، وقد جَمَعَ الله تعالى ذلك كلَّهُ في كلمةٍ واحدةٍ فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

واعلم أنَّ الصبرَ على مخالفةِ الشهواتِ صعبٌ، وهو بمنزلة نزعِ الرُّوح، فإن وجدَ مِنْ نفسِهِ قوَّةَ الصَّبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يُعالِجُهُ؛ فإنَّ الأطباءَ هم العلماء، وقد استولى عليهم المرضُ، فالطبيبُ المريضُ قلَّما يُلتَفَتُ إلى علاجِهِ، فلهذا صار الداءُ عُضالاً، والمرضُ مزمناً، واندرس هذا العلم، وأقبلَ الخلقُ على حبِّ الدنيا، وعلى أعمالٍ ظاهرُها عباداتٌ، وباطنُها عاداتٌ ومراءياتٌ.

[بيان الطريق الذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه]

واعلم أن الله إذا أراد بعبدٍ خيراً بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ، فَمَنْ عرفَ العيوبَ أمكنَهُ العلاجُ، والخلقُ جاهلون بعيوبِ أنفسِهم، يرون القَذى[1] في عينِ غيرِهم ولا يرون الجِذْعَ[2] في عين أنفسِهم.

فمن أراد أن يقفَ على عيوبِ نفسِهِ فله أربعةُ طرقٍ:

الأول: أن يجلسَ بين يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوبِ النَّفسِ، مُطَّلِعٍ على خفايا الآفات، ويُحكِّمَهُ في نفسِهِ، ويتبعَ إشارتَهُ في مجاهدته، وهذا شأنُ المريدِ مع شيخِهِ، والتلميذِ مع أستاذِهِ، وهذا قد عزَّ في هذا الزمانِ وجودُهُ.

الثاني: أن يطلبَ صديقاً صدوقاً بصيراً مُتديِّناً ويَنْصِبَهُ رقيباً على نفسِهِ ليُلاحظَ أحوالَهُ وأفعالَهُ، فما كَرِهَهُ مِنْ أخلاقِهِ وأفعالِهِ وعيوبِهِ الباطنةِ والظاهرةِ يُنبِّهُهُ عليه، وهكذا كان يفعلُ الأكابرُ مِنْ أئمَّةِ الدِّين.

وكان عمرُ رضي الله عنه يقول: (رَحِمَ الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي)[3].

وكان رضي الله عنه يسألُ حذيفةَ رضي الله عنه ويقول له: أنت صاحبُ سِرِّ رسولِ الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى عليَّ شيئاً مِنْ آثار النِّفاق؟ فهو على جلالةِ قدرِهِ وعلوِّ منصبِهِ هكذا كانت تُهمَتُهُ لنفسِهِ رضي الله عنه.

فكل مَنْ كان أوفرَ عقلاً وأعلى منصباً كان أقلَّ إعجاباً وأعظمَ اتِّهاماً لنفسه،

---

(١) القَذَى: جمعُ القَذَاةِ: ما يتكوَّنُ في العين من رَمَصٍ وغَمَصٍ وغيرهما.

(٢) الجِذْع: هو سَاقُ النَّخْلَةِ ونحوها.

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٢١).

إلا أنَّ هذا أيضاً قد عزَّ وجودُهُ، فَقَلَّ في الأصدقاء مَنْ يتركُ المداهنةَ فيُخبِرُ بالعيب، أو يترك الحسدَ فلا يزيدُ على قدر الواجبِ، فلا تخلو في أصدقائك عن حسودٍ أو صاحبِ غرضٍ يرى ما ليس بعيبٍ عيباً، أو عن مداهنٍ يخفي عنك عيوبَك.

وكان داودُ الطائيُّ رحمه الله قد اعتزلَ عن الناسِ فقيل له: لِمَ لا تخالطُ الناسَ؟

قال: ماذا أصنعُ بقومٍ يُخفُون عني عيوبي؟ فقد كان سيرةُ ذوي الدِّين أن ينتبهوا لعيوبهم بسببِ غيرِهم، وقد آل الأمرُ في أمثالنا إلى أنَّ أبغضِ الخلقِ إلينا مَنْ ينصحُنا ويُعرِّفُنا عيوبنا ونقول: أنتَ أيضاً تصنعُ كيتَ وكيتَ، ونشتغل بالعداوة معه عن الانتفاعِ بنصحِهِ.

الثالث: أن يستفيدَ عيوبَ نفسِهِ مِنْ لسانِ أعدائه؛ فإنَّ عينَ السُّخطِ تُبدِي المساوئَ، ولعلَّ انتفاعَ الإنسانِ بعدوٍّ مُشاحِنٍ يُذكِّرُهُ عيوبَهُ أكثرُ مِنِ انتفاعِهِ بصديقٍ مداهنٍ يثني عليه ويمدحُهُ، ويُخفي عنه عيوبَهُ.

الرابع: أن يُخالطَ الناسَ، فكلُّ ما رآه مذموماً فيما بين الخلقِ يُطالِبُ نفسَهُ به وينسبُ ذلك العيبَ إلى نفسه، فإنَّ المؤمنَ مرآةُ المؤمن، فيرى في عيوبِ غيرِهِ عيوبَ نفسِهِ، ويعلمُ أنَّ الطِّباعَ متقاربةٌ في اتِّباع الهوى، فما يَتَّصِفُ به واحدٌ مِنَ الأقرانِ لا ينفكُّ القرينُ الآخرُ عن أصلِهِ أو عن أعظمَ منه أو عن شيء منه، فلو تَرَكَ الناسُ كلُّهم ما يكرهون مِنْ غيرهم لاستغنوا عن المؤدِّب.

قيل لعيسى عليه السلام: مَنْ أدَّبكَ؟ قال: ما أَدَّبَني أحدٌ، لكنْ رأيتُ جهلَ الجاهلين فاجتنبتُهُ.

وهذا كلُّه حِيَلُ مَنْ فَقَدَ شيخاً عارفاً ذكيّاً بصيراً بعيوبِ النفسِ، مُشفِقاً ناصحاً في الدِّين، فارغاً مِنْ تهذيبِ نفسِهِ، فَمَنْ وَجَدَ ذلك فقد وَجَدَ الطبيبَ فلْيلازِمْهُ.

(م و ش: قال الشيخ الهاشمي رحمه الله في شرحه على شطرنج العارفين:

والـمُوفَّقُ ـ ذو الهمّةِ العليّةِ مِنَ المريدين ـ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ للعملِ بجميعِ هذهِ الطُّرقِ السِّتَّةِ على التَّرتيب:

ـ فيكونُ في وقتِ اجتماعِهِ بشيخِهِ دأبُهُ التَّسليمُ والاستماعُ والاتِّباع.

ـ وفي وقتِ مفارقتِهِ للشَّيخِ يُصاحِبُ أخًا صالـحًا.

ـ وفي وقتِ مفارقتِهِ للأخِ الصّالحِ أيضًا يَتَعَرَّفُ عيوبَ نفسِهِ مِنْ أعدائِهِ؛ لِيَتَجَنَّبَها ويتوبَ منها.

ـ وفي وقتِ بُعْدِهِ عن الأعداءِ يَتَعَرَّفُ عيوبَ نفسِهِ مِنْ مخالطتِهِ للنَّاسِ واطِّلاعِهِ على عيوبِهم.

ـ وَلْيَحْضُرْ مجالسَ العلمِ مِنْ تفسيرٍ وحديثٍ وتَصَوُّفٍ مع مَنْ عقيدتُهُ صحيحةٌ سالمةٌ مِنَ الزَّيغِ، وَلْيُكْثِرْ مِنْ مطالعةِ كُتُبِ الكُمَّلِ مِنَ العارفين باللهِ، ككتبِ الـمُحاسبيِّ والغزاليِّ والشَّعرانيِّ وابن عجيبة وغيرهم.

قال العلَّامةُ ابنُ زِكري في «شرح الحكم»[1]: وهذا الطَّريقُ اليوم أنفعُ وأنفذ؛ لأنَّ النُّفوسَ اليوم لا تَنْقَادُ للنُّصحاءِ، ولا تَقْبَلُ نُصحَهُم.

---

(١) ينظر: (شرح الحكم العطائية لمحمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي) الطبعة الحجرية (١/ ١١٨- ١١٩).

ـ وَلْيُكْثِرْ مِنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ على سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ في سائرِ أوقاتِهِ).

واعلم أنَّ الناسَ في الذكرِ على أربعِ مراتبَ:

الأول: رجلٌ استغرقَ ذكرُ اللهِ قلبَهُ، فلا يلتفتُ إلى الدنيا إلا في ضروراتِ المعيشة، فهو مِنَ الصِّدِّيقين، ولا ينتهي إلى هذه الرتبةِ إلا بالرياضةِ الطويلةِ والصَّبرِ عن الشَّهواتِ مُدّةً مديدةً.

الثاني: رجلٌ استغرقَتِ الدُّنيا قلبَهُ، ولم يبقَ لله ذكرٌ في قلبِهِ إلا مِنْ حيثُ حديثُ النَّفسِ، حيث يذكرُهُ باللِّسانِ ولا يُجاوِزُ قلبَهُ، فجميعُ عباداتِهِ عاداتٌ ومراءاةٌ، فهذا مِنَ الهالكين.

والثالث: رجلٌ اشتغلَ بالدنيا والدِّين، ولكنَّ الغالبَ على قلبِهِ هو الدِّين، فهذا لا بُدَّ له مِنْ ورودِ النار، إلا أنَّه ينجو منها سريعاً بقدرِ غلبةِ ذكرِ الله تعالى على قلبِهِ.

والرابع: رجلٌ اشتغلَ بهما، لكنَّ الدنيا أغلبُ على قلبِهِ، فهذا يطولُ مُقامُهُ في النار، ولكنْ يخرجُ منها لا محالةَ بقوةِ ذكرِ الله تعالى في قلبِهِ، وتمكُّنِهِ في صميمِ فؤادِهِ، وإن كان ذكرُ الدُّنيا أغلبَ عليه.

❊ ❊

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أنَّ مَنْ شاهدَ الآخرةَ بقلبِهِ مشاهدةَ يقينٍ أصبحَ بالضرورةِ مريداً حَرْثَ الآخرةِ، مشتاقاً إليها، سالكاً سُبُلَها، مستهيناً بنعيمِ الدُّنيا ولذَّاتها، والمانعُ الحقيقيُّ مِنَ الوصولِ عدمُ السُّلوك، والمانعُ مِنَ السُّلوكِ عدمُ الإرادة، والمانعُ مِنَ الإرادةِ عدمُ الإيمان، وسببُ عدمِ الإيمانِ عدمُ الهدايةِ لسبيله، فالخلقُ غافلون قد انهمكوا في شهواتهم، وليس في علماءِ الدِّينِ مَنْ يُنَبِّهُهُم، فإن تَنَبَّهَ منهم مُتَنَبِّهٌ عَجَزَ عن سلوكِ الطريقِ لجهلِهِ عن السلوك، فإن طلبَ الطريقَ مِنَ العلماءِ وجدَهم مائلين إلى الهوى، عادلِينَ عن نهجِ الطريق، فصار نطقُ العلماءِ بالهوى سبباً لخلوِّ طريقِ الله عن السالكين، ومهما كان المطلوبُ محجوباً، والدليلُ مفقوداً، والهوى غالباً، والطالِبُ غافلاً، امتنعَ الوصول، وتعطَّلَتِ الطرقُ لا محالةَ.

فإن تَنَبَّهَ وانبعثَ له إرادةٌ في حَرْثِ الآخرةِ وتجارتِها، فينبغي أن يعلم أنَّ له شروطاً لا بد مِنْ تقديمِها في بداية الإرادة، وله مُعتصَمٌ لا بُدَّ مِنَ التَّمسُّكِ به، وله حِصْنٌ لا بد مِنَ التَّحصُّنِ إليه؛ ليأمَنَ مِنَ الأعداءِ القُطَّاعِ لطريقه، وله وظائفُ لا بد مِنْ ملازمتِها في وقتِ سلوكِ الطريق.

أما الشروطُ التي لا بد مِنْ تقديمِها في الإرادة، فهي رفعُ السَّدِّ والحجابِ الذي بينَهُ وبينَ الحقِّ، فإنَّ حرمانَ الخلقِ عن الحقِّ سَبَبُهُ تراكُمُ الحجبِ، ووقوعُ

السَّدّ على الطريق، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩].

والسَّدُّ بين المريدِ وبين الحقّ أربعةٌ: المالُ، والجاهُ، والتقليدُ، والمعصيةُ.

وإنَّما يرتفعُ حجابُ المالِ بأن يُفرّقَهُ ويُخرِجَهُ مِنْ ملكِهِ حتى لا يبقى له إلا قدرُ الضرورةِ، فما دام يبقى له درهمٌ يلتفتُ إليه قلبُهُ فهو مُقيَّدٌ به، محجوبٌ عن الله تعالى.

وإنما يرتفعُ حجابُ الجاهِ بالبعد عن موضعِ الجاهِ، وبالتواضعِ وإيثارِ الخمولِ، والهربِ مِنْ أسبابِ الشُّهرةِ، وتعاطي أعمالٍ تُنفِّرُ قلوبَ الخلقِ عنه.

(ز: قال القشيريُّ رضي الله عنه: وإذا خطرَ ببالِ المريدِ أنَّ له في الدُّنيا والآخرةِ قدراً أو قيمةً، أو على بساطِ الأرضِ أحد دونه لم يَصِحَّ له في الإرادة قدمٌ).

وإنما يرتفعُ حجابُ التقليدِ بأن يتركَ التَّعصُّبَ للمذاهبِ المتبوعة، وأن يُصدِّقَ بمعنى قولِهِ: «لا إلهَ إلّا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ»، تصديقَ إيمانٍ، ويحرصَ في تحقيقِ صدقِهِ بأن يرفعَ كلَّ معبودٍ له سوى الله، وأن لا يَتَّخِذَ الهوى معبوداً، وينبغي أن يطلبَ كشفَ اعتقادِهِ الذي تلقَّفه تقليداً مِنَ المجاهدةِ لا مِنَ المجادلة، فإنْ غَلَبَ عليه التَّعصُّبُ لعقيدةٍ مِنَ العقائدِ ولم يبقَ في قلبِهِ مُتَّسَعٌ لغيرِهِ صار ذلك قيداً له وحِجاباً؛ إذ ليس مِنْ شرطِ المريدِ الانتماءُ إلى مذهبٍ عقديٍّ مُعيَّنٍ أصلاً.

وأما المعصيةُ فهي حجابٌ، ولا يرفعُها إلا التوبةُ والخروجُ مِنَ المظالم، وتصميمُ العزمِ على تركِ العودِ، وتحقيقُ النَّدمِ على ما مضى، وردُّ المظالم، وإرضاءُ الخصوم.

فإذا قدَّمَ هذه الشروطَ الأربعةَ كان كَمَنْ تَطَهَّرَ وتوضَّأَ وصار صالحاً للصلاة، فيحتاجُ إلى إمامٍ يقتدي به لا محالةَ؛ ليهتديَ به إلى سواء السبيل؛ فإنَّ سبيلَ الدِّينِ غامضٌ، وسُبُلَ الشَّيطانِ كثيرةٌ ظاهرةٌ، فَمَنْ لم يكن له شيخٌ يهديه قادَهُ الشيطانُ إلى طرقه لا محالةَ.

فَمُعْتَصَمُ المريدِ بعدَ تقديمِ الشروطِ المذكورةِ شيخُهُ، فليتمسَّكْ به تمسُّكَ الأعمى على شاطئِ البحرِ بالقائد، بحيثُ يُفوِّضُ أمرَهُ إليه بالكُلِّيّة، ولا يُخالفُهُ في شيءٍ، وليعلم أنَّ نفعَهُ في خطأِ شيخِهِ ـ لو أخطأ ـ أكثرُ مِنْ نفعِهِ في صوابِ نفسِهِ لو أصابَ.

(ش: «خطأُ الشيخِ أفضلُ مِنْ صوابِ المريد» عبارةٌ مجملةٌ لا بُدَّ مِنْ إيضاحها؛ لالتباسِها على كثيرين، فأقول والله الموفِّقُ: إنَّ الشيخَ والمريدَ مؤمورانِ باتباعِ الشرعِ الشريفِ، وما سَلَكَ المريدُ على يدِ الشَّيخِ إلا ليكشفَ له عن سبلِ الوصولِ وليَدُلَّهُ على الله تعالى، فإذا أمرَ الشيخُ بمعصيةٍ حَرُمَ على المريد الاستجابةُ إليه؛ فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ، بل ينبغي له أن يُذكِّرَ شيخَهُ ويُنبِّهَهُ، فهو كالمقتدي إذا سَها أو أخطأَ إمامُهُ، فإنَّه يُذكِّرُهُ ولا يُتابِعُهُ على خطئِهِ، لذا قال ابن عجيبة رضي الله عنه: «فإن بانَ غَيُّهُ ـ أي: الشيخ ـ تَوَقَّفَ حتَّى يَظْهَرَ أَمْرُهُ»[1].

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في كتابه «أدب المريد»: «إذا عَلِمَ المريدُ الخطأَ على الشيخ فليُنبِّهه، فإن رَجَعَ عن خطئِهِ فذاكَ الأمرُ، وإلا تَرَكَ قولَهُ واتَّبَعَ الشَّرع».

---

(١) ينظر: (شرح المباحث الأصلية) (٢٥٨).

وقال الشيخُ أحمدُ الرفاعي رضي الله عنه: «سَلِّمْ للقوم أحوالَهم ما لم يُخالِفُوا الشرع، فإن خالفوا الشَّرعَ فاتركهم واتَّبِعِ الشَّرعَ»[١].

فالفهم الصَّحيحُ لهذه العبارةِ أن تُحمَلَ على ما إذا أرشدَ الشيخُ المريدَ في علاجِ نفسِهِ إلى دواءٍ من الأدويةِ الشَّرعيّةِ كالصَّمتِ والخمولِ، أو الصَّومِ والصدقةِ والصَّلاةِ على النبي ﷺ، فقد يخطأ الشيخ ويكون الدواءُ النافعُ في غيرِ ما أرشدَ إليه، ويكونُ الدواءُ الحقيقيُّ لهذا المرضِ ما مالَ إليه المريدُ، فههنا يكون خطأُ الشيخِ أفضلَ من صوابِ المريدِ؛ لأنَّ الشيخَ نصحَهُ وهو خالٍ مِنَ الحظوظِ، وأما المريدُ فقد مالَ إلى ذلك بنفسِهِ، والشيخ إذا تبيَّنَ له الخطأُ رجعَ واستغفر، والمريد إذا تبيَّنَ له الصَّوابُ تعاظمَ واستكبر.

ومِنَ الأوجهِ الصَّحيحةِ في فهم هذه العبارةِ أنَّ المعصيةَ إن ظهرَتْ مِنَ الشيخِ فَندِمَ وتابَ، ورجعَ إلى الملكِ الوهاب فإنَّ الله تعالى يتوبُ عليه، بل قد تُبَدَّلُ تلك المعصيةُ إلى طاعةٍ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وأما الطاعةُ الصادرةُ مِنَ المريدِ المحجوبِ بنفسِهِ وهواه فإنَّها تكون له حجاباً عن الله؛ لِمَا حَصَلَ له فيها مِنَ العُجبِ والكبرِ، والرياءِ والسُّمعةِ، وحُبِّ المدحِ والتفاخرِ على الأقران، فقادَتْهُ الطاعةُ الصَّادرةُ عن النَّفسِ والهوى إلى معاصٍ بل إلى كبائرَ لا تُعدُّ ولا تُحصَى، ومِنْ هنا قال سيدي ابنُ عطاء الله السكندري رضي الله عنه: «رُبَّ مَعْصيةٍ أَوْرَثَتْ ذُلاً وانكساراً خيرٌ مِنْ طاعةٍ أورثَتْ عِزّاً واستكباراً»[٢].

---

(١) ينظر: (إتحاف الأكابر في سيرة ومناقب الإمام محيي الدين عبد القادر) (٢٨٣).

(٢) الحكمة (٩٦) من الحكم العطائية.

إذن فليس النظرُ والترجيحُ في خطأ الشيخ وصواب المريد إلى نفس الطاعة والمعصيةِ، بل لما احتفَّ بهما مِنَ القرائنِ، وقد زلَّتْ أقدامُ كثيرٍ مِن السالكين وتعطَّلَ سيرُهُم بما فهموه خطأً من تلك العبارات الموهمة، فصاروا يعتقدون أن نفسَ الذَّنبِ الصادرِ منَ الشيخِ أفضلُ مِنَ الطاعةِ الصادرةِ مِن المريد، وهذا ضلالٌ ليس بعدَه ضلال، وصار المبطلون مِنْ مُدَّعي المشيخةِ يبرّرون أفعالهم الشنيعةَ بهذه المقولةِ، بل يأمرون مريديهم بالمعاصي الظاهرة والباطنة، فالله حسيبُهُم وحسيبُ كُلِّ مخذولٍ ضَلَّلَ عبادَهُ ولَبَّسَ عليهم، وحسيبُ كُلّ مَنْ غيّرَ وبَدَّلَ، حتى رأينا مَنْ يتكلَّم بما يُناقِضُ القرآنَ والسُّنّةَ، ثم ترى أتباعَهُ يبرّرونَ له ويستشهدون بهذه المقولةِ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومِنْ أمثلةِ ذلك ما قالَهُ بعضُهم: إنَّ الأدعيةَ والأذكارَ إذا قرأها المريدون خطأً كما يقرؤُها الشيخُ فإنَّها تكونُ مؤثِّرةً، وإن قرؤوها صحيحةً فلا تكون مؤثِّرةً، إلى غير ذلك مِنَ الضلالات التي لا حصرَ لها، ثَبَّتَنا الله سبحانه على الحقِّ المبينِ بحرمة سيِّدِ المرسلين ﷺ).

ووجبَ على مُعتصَمِهِ أن يدفعَ عنه قواطعَ الطريق، ويَحميَهُ ويَعْصِمَهُ بحصنٍ حصينٍ، وذلك بأربعةِ أمورٍ وهي: الخلوةُ، والصمتُ، والجوعُ، والسَّهرُ، وهي أركانُ الولايةِ وخِصالُ الأبدالِ.

أما الجوعُ، فإنَّه يُنقِصُ دمَ القلبِ ويُبيِّضُهُ، وفي بياضِهِ نورُهُ، ويذيبُ شحمَ الفؤادِ، وفي ذوبانِهِ رِقّتُهُ، ورِقَّتُهُ مفتاحُ المكاشفةِ.

وأما السهرُ، فإنَّه يجلو القلبَ، ويصفيه ويُنوِّرُهُ، فَينضافُ إلى الصفاءِ الذي حصلَ مِنَ الجوعِ، فيصيرُ القلبُ كالكوكبِ الدُّرِّيِّ، والمرآةِ المجلوَّةِ، فيلوحُ

فيه جمالُ الحقِّ، ويُشاهِدُ فيه رفيعَ الدرجاتِ في الآخرة، وحقارةَ الدنيا وآفاتِها.

والسهرُ نتيجةُ الجوعِ؛ فإنَّ السَّهرَ مع الشبعِ غيرُ ممكنٍ، والنَّومُ يُقسِّي القلبَ ويميتُهُ إلا إذا كان بقدرِ الضَّرورةِ، فيكونُ سببَ المكاشفةِ لأسرارِ الغيب، فقد قيل في صفةِ الأبدالِ: (إنَّ أكلَهم فاقةٌ، ونومَهُم غلبةٌ، وكلامَهم ضرورةٌ)[١].

وأما الصمتُ، فإنَّه تُسهِّلُهُ العزلةُ، والصَّمتُ يُلقِّحُ العقلَ، ويجلبُ الورعَ، ويُعلِّمُ التقوى.

[مطلب في الخلوة وشروطها وآدابها]

وأما الخلوةُ، ففائدتُها دفعُ الشواغلِ، وضبطُ السَّمعِ والبصرِ؛ فإنَّهما دِهليزُ القلبِ، والقلبُ في حُكْمِ حوضٍ تنصبُّ إليه مياهٌ كدرةٌ قذرةٌ مِنْ أنهارِ الحواسِّ، ومقصودُ الرياضةِ تفريغُ الحوضِ مِنْ تلك المياه؛ لينفجرَ أصلُ الحوضِ، فيخرجَ منه الماءُ النظيفُ الطاهرُ، وليس ذلك إلا بالخلوةِ في مكانٍ مُظلِمٍ، فإن لم يكن مكانٌ مُظلِمٌ فليلفَّ رأسَهُ في جيبه، أو يَتَدَثَّرَ بكساءٍ أو إزارٍ، ففي مثل هذه الحالةِ يسمعُ نداءَ الحقِّ، ويُشاهِدُ جلالَ الحضرةِ الرُّبوبية، ألا ترى أنَّ نداءَ رسولِ الله ﷺ بَلَغَهُ وهو على هذه الصِّفةِ، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

فهذه الأربعةُ جُنَّةٌ وحِصْنٌ بها تُدفَعُ عنه القواطعُ، فإذا فَعَلَ ذلك اشتغلَ بعدَهُ بسلوكِ الطريق، وإنما سلوكُهُ بقطعِ العقباتِ، ولا عقبةَ على الطريقِ إلا صفاتُ القلبِ التي سَبَبُها الالتفاتُ إلى الدنيا، وبعضُ تلك العقباتِ أعظمُ مِنْ بعضٍ، والترتيبُ في قطعِها أن يشتغلَ بالأسهلِ فالأسهلِ، وهي آثارُ المالِ، والجاهِ،

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٥٤).

وحبِّ الدنيا، والالتفاتِ إلى الخلقِ، والتَّشوُّفِ إلى المعاصي.

فإذا كُفِيَ ذلك أو ضَعُفَ بالمجاهدةِ ولم يبقَ في قلبِهِ علاقةٌ، يمنعه شيخُهُ عن تكثيرِ الأورادِ الظاهرة، بل يقتصرُ على الفرائضِ والرواتبِ، ويكونُ وردُهُ ورداً واحداً، وهو لبابُ الأورادِ وثمرتُها، أعني: ملازمةَ القلبِ لذكر الله تعالى عن ذكرِ غيرِهِ، ولا يشتغلُ المريدُ بالذكرِ ما دام قلبُهُ مُلتَفِتاً إلى علائقه.

فإن تجرَّدَ قلبُ المريدِ عن الالتفاتِ إلى العلائقِ ألزمَهُ الشيخُ زاويةً يَنْفَرِدُ بها، ويُلَقِّنُهُ بذكرٍ مِنَ الأذكارِ حتى يَشْغَلَ به لسانَهُ وقلبَهُ، فيجلسُ ويقولُ: (الله الله الله)، أو: (سبحان الله، سبحان الله)، أو ما يراه الشيخُ مِنَ الكلمات.

فلا يزالُ يواظِبُ عليه حتى تسقطَ حركةُ لسانِهِ، وتكونَ الكلمةُ كأنَّها جاريةٌ على اللِّسان من غير تحريكٍ، ثم لا يزال يُواظِبُ عليه حتَّى يسقطَ الأثرُ عن اللِّسانِ، وتبقى صورةُ اللفظِ في القلب، ثم لا يزالُ كذلك حتى ينمحيَ عن القلبِ حروفُ اللَّفظِ وصورتُهُ، وتبقى حقيقةُ معناه لازمةً للقلبِ حاضرةً معه غالبةً عليه، لأنَّ القلبَ إذا شُغِلَ بشيءٍ خلا عن غيرِهِ لا محالةَ، فإذا اشتغلَ بذكرِ الله تعالى وهو المقصودُ خلا ـ لا محالةَ ـ عن غيرِهِ، فليجتهدْ في دفعِ الالتفاتِ إلى العلائقِ والوساوسِ منه ولو في لحظة.

ومهما دفعَ الوساوسَ كلَّها وردَّ النَّفسَ إلى هذه الكلمةِ التي لَقَّنَها له شيخُهُ، جاءته الوساوسُ مِنْ هذه الكلمةِ، وأنها ما هي؟ وما معنى قولنا: (الله)؟ ولأيِّ معنىً كان إلهاً وكان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطرُ تَفْتَحُ عليه بابَ الفكر، وربَّما يردُ عليه مِنْ وساوسِ الشيطانِ ما هو كفرٌ وبدعةٌ، ومهما كان كارهاً لذلك، ومُتشمِّراً لإماطتِهِ عن القلبِ لم يَضُرَّهُ ذلك.

وليعلمْ قطعاً أنَّ الله تعالى مُنزَّهٌ عن ذلك، ولكنَّ الشيطانَ يُلقي ذلك في قلبِهِ ويجريه على خاطره، فشرطُهُ أن لا يُباليَ به، ويفزعَ إلى ذكرِ الله تعالى، ويبتهلَ إليه ليدفعَهُ عنه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وكلُّ ما يجدُ في قلبِهِ مِنَ الأحوالِ مِنْ فترةٍ أو نشاطٍ أو التفاتٍ إلى عُلْقةٍ، أو صدقٍ في إرادةٍ فينبغي أن يُظهِرَ ذلك لشيخه، وأن يَسْتُرَهُ عن غيره، فلا يطلعْ عليه أحداً.

ثم إنَّ شيخَهُ ينظر في حالِهِ ويتأمَّلُ في ذكائِهِ وكِياسَتِهِ، فإن عَلِمَ أنَّه لو تَرَكَهُ وأَمَرَهُ بالفكرِ تَنبَّهَ مِنْ نفسِهِ لحقيقةِ الحقِّ فينبغي أن يُحيلَهُ على الفكرِ، ويأمرَهُ بملازمتِهِ، حتى يُقذَفَ في قلبِهِ مِنَ النورِ ما يَكْشِفُ له حقيقتَهُ، وإن عَلِمَ أنَّ ذلك ممّا لا يقوى عليه مثلُهُ رَدَّهُ إلى الاعتقادِ الصحيح بما يَحتمِلُهُ قلبُهُ مِنْ وعظٍ وذكرٍ ودليلٍ قريبٍ مِنْ فهمِهِ.

(م: وفي مثلِ هذه الأحوالِ ينبغي للمريدِ أن يُصبِّرَ نفسَهُ على إرشادِ شيخِهِ، ولا يستعجلِ الفتحَ قبلَ أوانه، قال الشيخُ البوزيدي رحمه الله: ومِنْ أدبِ المريدِ أن لا يشرعَ في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلا بإذن شيخه، والفقيرُ الصادقُ هو الذي يكونُ بين يدي شيخِهِ كالميتِ بين يدي غاسِلِهِ، وكلُّ شيءٍ فَعَلَهُ بغيرِ إذنٍ فلا يجدُ له سِرّاً ولا بركةً؛ لأنَّ السِّرَّ مرموزٌ في الإذنِ، لا في العملِ)[1].

(١) ينظر: (الآداب المرضية) (٢٨).

وينبغي أن يتأنَّقَ الشيخُ ويتلطَّفَ به، فإنَّ هذه مهالكُ الطريقِ ومواقعُ أخطارِها، وكم مِنْ مريدٍ اشتغلَ بالرياضةِ فَغَلَبَ عليه خيالٌ فاسدٌ لم يَقْوَ على كشفِهِ فانقطعَ عليه طريقُهُ، واشتغلَ بالبطالةِ، وسَلَكَ طريقَ الإباحةِ، وذلك هو الهلاكُ العظيمُ.

ومَنْ تجرَّدَ للذكرِ ودَفَعَ العلائقَ الشاغلةَ عن قلبِهِ لم يخلُ عن أمثالِ هذه الأفكارِ، فإنَّه قد رَكِبَ سفينةَ الخطرِ، فإن سَلِمَ كان مِنْ ملوكِ الدِّين، وإن أخطأَ كان مِنَ الهالكين.

ولهذا يجبُ على الشيخِ أن يتفرَّسَ في المريد، فإن لم يكن ذَكِيّاً فَطِناً مُتمكِّناً مِنَ الاعتقادِ الظاهرِ لم يَشْغَلْهُ بالذِّكرِ والفكر، بل يَرُدُّهُ إلى الأعمالِ الظاهرةِ والأورادِ المتواترةِ، أو يشغلُهُ بخدمةِ المتجرِّدين للفكر؛ لتشملَهُ بركتُهُم؛ فإنَّ العاجزَ عن الجهاد في صفِّ القتالِ ينبغي أن يسقيَ القومَ ويتعهَّدَ دوابَّهُم؛ ليُحشَرَ يومَ القيامةِ في زمرتهم، وتَعُمَّهُ بركتُهم، وإنْ كان لا يبلغُ درجتَهم.

ثم المريدُ المتجرِّدُ للذِّكرِ والفكرِ قد يَقْطَعُهُ قواطعُ كثيرةٌ مِنَ العجبِ والرياءِ والفرحِ بما يَنْكَشِفُ له مِنَ الأحوال، وما يبدو مِنْ أوائل الكرامات، ومهما التفتَ إلى شيءٍ مِنْ ذلك وشَغَلَ به نفسَهُ كان ذلك فتوراً في طريقِهِ أو وُقوفاً، بل ينبغي أن يُلازِمَ حالَهُ جملةَ عمرِهِ ملازمةَ العطشانِ الذي لا تُرويهِ البحارُ، ولو أُفيضَتْ عليه، ورأسُ مالِهِ الانقطاعُ عن الخلقِ، والخلوةُ.

قال بعضُ السَّيّاحين: قلتُ لبعضِ الأبدالِ المنقطعين عن الخلق: كيفَ الطريقُ إلى التحقيق؟ فقال: أن تكونَ في الدُّنيا كأنَّكَ عابرُ طريقٍ، وقال مرّةً: قلتُ له دُلَّني على عملٍ أجدُ قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام، فقال لي: لا

تَنْظُرْ إلى الخلقِ؛ فإنَّ النظرَ إليهم ظلمةٌ، قلتُ: لا بد لي مِنْ ذلك، قال: فلا تسمعْ كلامَهم؛ فإنَّ كلامَهم قسوةٌ، قلتُ: لا بد لي مِنْ ذلك، قال: فلا تعامِلْهم؛ فإنَّ معاملتَهُم وحشةٌ، قلت: أنا بين أَظْهُرِهِم، لا بد لي مِنْ معاملتهم، قال: فلا تَسْكُنْ إليهم؛ فإنَّ السكونَ إليهم هلكةٌ، قلتُ: هذه العِلَّةُ، قال: يا هذا أتنظرُ إلى الغافلين، وتسمعُ كلامَ الجاهلين، وتُعامِلُ البَطَّالين، وتريدُ أن تجدَ قلبَكَ مع الله تعالى على الدوام؟ هذا ما لا يكونُ أبداً.

فمنتهى الرياضة أن يجد المريدُ قلبَهُ مع الله تعالى على الدوام، ولا يمكنُ ذلك إلا بأن يخلوَ عن غيره، ولا يخلو عن غيرِهِ إلا بطولِ المجاهدةِ، فإذا حَصَلَ قلبُهُ مع الله تعالى انكشفَ له جلالُ الحضرةِ الربوبية، وتجلَّى له الحقُّ، وظَهَرَ له مِنْ لطائفِ الله تعالى ما لا يجوزُ أن يُوصفَ، بل لا يحيطُ به الوصفُ أصلاً.

(ش: قال الشيخ ابن البنا السرقسطي في مباحثه:

فَعِنْدَمَـا مَالَـتْ إلـى الـزَّوَالِ أُدْخِـلَ فِـي خَلْـوَةِ الإعْتِزَالِ
وقِيْلَ: قُلْ عَلَـى الدَّوامِ: «اللهُ» وَاحْذَرْ كَطَرْفِ العَيْنِ أَنْ تَنْسَـاهُ

فالذكرُ منشورُ الولايةِ الذي مَنْ أعطيه اتصل، ومَنْ مُنِعه عُزِل، وهو قوتُ قلوبِ القوم ومتى فارقَهُ صارت الأجساد قبوراً، وهو عمارةُ ديارهم فمتى تعطَّل صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطّاعَ الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهابَ الحريق، ودواءُ أسقامهم فمتى فارقهم انتكست منهم القلوب.

إذا مرضنـا تداوينـا بذكركـم ونتـرك الذكر أحيانـا فننتكس

وهو السببُ الواصلُ والعلاقةُ التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب، به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم المصيبات، فإذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنَّتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكرُ في ذكره استغراقاً، ازداد المذكور محبَّة إلى لقاءه واشتياقا، وإذا تحقق الذكر في القلب نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كلَّ شيء، وكان له عوضاً من كل شيء، به يزول الوقرُ عن الأسماع، والبكمُ عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

وهو بابُ الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، قال الحسن البصري رحمه الله: تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة والقرآن، فإنْ وجدتم وإلاَّ فاعلموا أنّ الباب مغلق.

والذكر أعظم باب أنت داخله   لله فاجعل له الأنفاس حرَّاسـا

فعليك يا أخي بالمواظبة على ذكر الله عز وجل فإنه لا يُحسب لك من النعيم الأخروي من العمر إلا وقت ذكرك لربك، وما عدا ذلك فهو دون ذكرك لربك.

وقد ذكرَ الشيخُ عبد الوهاب الشعراني شروطَ الخلوةِ وآدابَ الذكرِ فقال ما خلاصته: (اعلم يا أخي أنَّ كلَّ عبادةٍ خَلَتْ عن الأدبِ فهي قليلةُ الجدوى، وأجمعَ الأشياخُ أنَّ العبدَ يصلُ بعبادتِهِ إلى حصولِ الثواب ودخولِ الجنّة، ولا

يَصِلُ إلى حضرةِ ربّه إلا إنْ صَحِبَهُ الأدبُ في تلك العبادة، ومعلومٌ أنَّ مقصود القومِ القربُ مِنْ حضرة الله الخاصّة، ومجالستُهُ فيها مِنْ غير حجاب، قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني» يعني: ذَكَرني على وجهِ الأدب والحضور، والمرادُ بالمجالسة: انكشافُ للعبد أنَّه بين يدي ربّه عزَّ وجلّ، وهو تعالى يراه، فمتى دام على العبد هذا الشهودُ فهو جليسُ الله تعالى، فإن غاب عن ذلك المشهدِ خَرَجَ مِنْ حضرته، فلا يزالُ العبدُ يُكثِرُ مِنَ الذكرِ باللَّفظِ حتى يصيرَ الحقُّ تعالى مشهودَهُ، وهناك صَحَّ الفتحُ؛ لأنَّ الذكرَ لله تعالى حقيقةً هو استصحابُ شهودِ العبدِ أنَّه بين يدي ربِّه، والذكرُ باللسانِ إنما هو وسيلةٌ إليه، وقد عدَّد الأشياخُ للذكرِ آداباً، ويجمعُ هذه الآدابَ كلَّها عشرون أدباً، مَنْ لم يتحقَّقْ بها فبعيدٌ عليه الفتح، فخمسةٌ منها سابقةٌ على الذكر، واثنتا عشرَ حالَ الذكر، وثلاثةٌ بعدَ الفراغِ مِنَ الذكر:

فأمّا الخمسة السابقة:

فأوّلها: التوبة النصوح، وهي أن يتوبَ مِن كلِّ ما لا يعنيه مِنْ قولٍ أو فعلٍ أو إرادة.

الثاني: الغسل أو الوضوء عند إرادة الذكر، وتعطيرُ ثيابه وفمِهِ قبلَ البدء بالذكر.

الثالث: السكونُ والسكوتُ ليحصلَ له الصِّدقُ في الذكر، وذلك أن يشغل قلبه بالله: «الله الله»، بالفكر دونَ اللفظ، حتى لا يبقى خاطر مع «الله الله»، ثم يوافق اللسان القلب، يفعل ذلك كلَّما أراد الذكر.

الرابع: أن يستمدَّ عندَ شروعِهِ في الذكرِ بهمّةِ شيخه.

الخامس: أن يرى استمدادَهُ مِنْ شيخِهِ هو استمداده حقيقةً مِنْ رسول الله ﷺ لأنه واسطةٌ بينه وبينه.

ـ والاثنا عشر التي تكون حال الذكر:

فالأول: الجلوس على مكان طاهر كجلوسه في الصلاة في التشهد الأول.

الثاني: أن يضع راحتيه على فخذيه، متوجهاً في جلوسه نحو القبلة.

الثالث: تطييب مجلس الذكر بالرّائحة الطيبة.

الرابع: أن يكون ملبسه حلالاً.

الخامس: اختيارُ الموضع المُظلِم.

السادس: تغميض العينين، وذلك أنَّ الذاكرَ إذا غمَّضَ عينيه تُسَدُّ عليه طُرُق الحواس الظاهرة شيئاً فشيئاً، وسدُّها يكون سبباً لفتح حواس القلب.

السابع: أن لا يرى المريدُ استغناءً عن مذاكرة شيخه وتلقينه له؛ لأنَّ المريدَ يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

الثامن: الصدق في الذكر بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه.

التاسع: الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب، وبالصدق والإخلاص يصلُ العبد إلى مقام الصدّيقية.

العاشر: أن يختار من صيغ الذكر «لا إله إلّا الله» قبل البدء في الخلوة، فإن لها أثراً عظيماً عند القوم لا يوجد في غيرها من سائر الأذكار، فإذا فنيت شهواته

وأهويته كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة فقط من غير نفي.

الحادي عشر: إحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهد في الذاكرين، بشرط أن يعرض على شيخه كلَّ شيء يرقى إليه من الأذواق؛ ليُعلِّمَهُ طريقَ الأدب فيه.

الثاني عشر: تفرُّغُ القلبِ مِنْ كلِّ موجودٍ حالَ الذكر سوى الله.

وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكرَ بقوَّةٍ تامة بحيث لا يبقى منه متَّسعٌ، ويهتزَّ مِنْ فوق رأسه إلى أصبع قدميه، وهي حالةٌ يستدلون بها على أنه صاحب همَّةٍ، فيُرجى له الفتح عن قريب إن شاء الله تعالى.

قالوا: ويكون الجهرُ في الذكرِ برفقٍ خوفَ أن يتربَّى له فتاقٌ في بطنه، فيتعطَّل جهرُهُ بالكلية.

- وأمّا الثلاثة التي بعد الذكر:

- الأول: أن يسكت بعد سكون وتخشّع، ويحضر مع قلبه مترقِّباً لِوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيعمّر وجوده في تلك اللحظة أكثر مما تعمره المجاهدة والرياضة مدَّة ثلاثين سنة، فربما ورد عليه وارد الزهد فيصير زاهداً، أو وارد تحمّل الأذى من الخلق فيصير صابراً، أو وارد الخوف من الله فيصير خائفاً، وهكذا.

قال الإمام الغزالي: ولهذه السكتة آداب:

أحدها: استحضار العبد أنّ الله تعالى مُطَّلِعٌ عليه، وأنه بين يدي الله تعالى.

ثانيها: جمع الحواس بحيث لا يتحرَّكُ منه شعرة.

ثالثها: نفي الخواطرِ كلِّها، وإجراءُ معنى «الله الله» على القلب.

قال: وهذه الآداب لا تثمرُ للذاكرِ المراقبةَ إلّا بها.

ـ الثاني: أن يكظمَ نَفَسه مراراً بقدرِ ثلاثةِ أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر، حتى يدورَ الواردُ في جميع عوالِمِهِ، فتُنَوَّرُ بصيرتُهُ، وتُقطَعُ عنه خواطرُ النفس والشيطان، وتُكشَفُ عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم.

ـ الثالث: منعُ شربِهِ الماءَ الباردَ عقيبَ الذكر، فإنَّ الذكرَ يُورِثُ حرقةً وهيجاناً وشوقاً إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة.

فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة آداب، فإن نتيجة الذكر إنما تظهر بها.

ومن آداب ذاكر الاسم الأعظم:

ـ تمام الاستقامة ظاهراً وباطناً على الكتاب والسنَّة فلا يحيد عنهما طرفةَ عينٍ.

ـ ثم دوام المراقبة لخواطره وأنفاسه حتى لا ترد ولا تصدر إلا مِنَ الله وبه وإليه تعالى.

ـ ثم ملازمة الخشية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، كلُّ هذا مع الصدق والإخلاص والفرارِ مِنَ الدعوى، وتذكُّرِ خطابِ الحقِّ عزَّ وجلَّ لأفضل أحبابه وهو: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وذلك بالوقوفِ على قدمِ محضِ العبودية ومحوِ النَّفْسِ دائماً أبداً.

ومن أركان الأدب دوام التعظيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا

مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾، ومن ثمرات هذا التعظيمِ الزيادةُ في العلم بالله تعالى. قال جلَّت عظمته: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وينبغي لمن يذكر الله تعالى باسم الجلالة (الله) أن يُحقِّقَ الهمزةَ ويُسكِّنَ الهاءَ بالمدِّ، وأن يكون بدونِ حرفِ النداءِ (يا)، وبإعطاء كلِّ حرفٍ حقَّه من التلفظ الصحيح.

وأوّلُ مبادئ السالكِ أن يُكثِرَ الذكرَ بقلبِهِ ولسانِهِ بقوّةٍ حتّى يسريَ الذِّكرُ في أعضائِهِ وعروقِهِ، وينتقلَ الذكرُ إلى قلبه، فحينئذٍ يسكتُ لسانُهُ ويبقى قلبُهُ ذاكراً يقول: (الله الله) باطناً مع عدمِ رؤيتِهِ لذكره، ثم يسكنُ قلبُهُ ويبقى مُلاحِظاً لمطلوبه، مستغرقاً به، عاكفاً عليه، مشغوفاً إليه، مشاهداً له؛ ثم يغيب عن نفسه بمشاهدته؛ ثم يفنى عن كُلِّيتِهِ بكليته حتّى كأنه في حضرةِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فحينئذٍ يتجلّى الحقُّ على قلبه، فيضطرب عند ذلك ويندهش، ويغلب عليه السكرُ وحالةُ الحضور والإجلال والتعظيم، فلا يبقى فيه مطمعٌ لغير مطلوبِهِ الأعظم كما قيل: فلا حاجة لأهل الحضور غير شهود عيانه.

والهدفُ الأكبرُ للخلوةِ: هو الامتثالُ لأمرِ الله تعالى في أمرِهِ بالانقطاعِ إلى ذكرِ اسمِهِ عبوديةً محضةً ومحبَّةً خالصةً لذاته العلية، والاقتداءُ برسوله ﷺ الذي سَنَّ الاعتكاف، وكان قبلَ بعثته يختلي بغار حراء أياما وليالي، وعلى ذلك النَّهجِ سَلَكَ كلُّ الأنبياء والصالحين كما أخبر الحق تعالى عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ومن أهداف الخلوة: الإكثارُ مِنْ ذكرِ الله تعالى ليكونَ العبدُ جليساً لربّه؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني» إلى أن تنطبع أنوارُ الاسمِ الأعظم في قلب ذاكرِهِ، فيصبح حينئذٍ كلُّ الكونِ خلوةً ومسجدًا في نظرِهِ؛ تحقُّقاً بقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقد غَلِطَ في طريقِ الخلوةِ قومٌ فدخلوا بلا إخلاصٍ، وسمعوا أنَّ المشايخَ كانت لهم خلواتٌ فَكُوشِفُوا بغرائب وعجائب، فدخلوا الخلوةَ لطلب ذلك، وهذا عينُ الاعتلال ومحضُ الضلال، وإنما اختار القومُ الخلوةَ والوحدةَ لسلامةِ الدِّين، وتفقُّدِ أحوالِ النفسِ، وإخلاصِ العمل لله تعالى.

فَمَنِ اختارَ الخلوةَ ينبغي أن يكون خالياً مِنْ جميع الأفكارِ إلّا ذكرَ ربه عزَّ وجلَّ، وخالياً مِنْ جميع المرادات إلّا مرادَ ربِّه، وخالياً مِنْ مطالبة النفسِ مِنْ جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإنَّ خلوتَهُ تُوقِعُهُ في فتنةٍ وبليّةٍ.

ومَنْ دخلَ الخلوةَ معتلًّا في دخوله دَخَلَ عليه الشيطان وامتلأ مِنَ الغرور، وقد دَخَلَتِ الفتنةُ على قومٍ دخلوا الخلوةَ بغيرِ شروطها، وأقبلوا على ذكرٍ مِنَ الأذكار، فأنتج لهم ذلك أحوالاً وخوارقَ ركنوا إليها الرّكونَ التامَّ، وظنُّوا أنهم فازوا بالمقصودِ مِنَ الخلوة، ولكنهم رجعوا بعد ذلك القهقرى، وساءت أحوالهم، كل ذلك لعدم الاعتناء بشروط الخلوة وآدابها، وكما قيل: إنما حرموا الوصول لتركهم الأصول.

بعض شروط الخلوة

- مِنْ شرطِ المريدِ إذا كان يذكر الله تعالى في خلوة وظهر له شيءٌ مِنَ الصُّوَرِ أن يذكرَ ذلك لشيخه، لا سيما إن قال له: (أنا الله لا إله إلّا أنا) أو (سبحاني) أو نحو

ذلك، وليحذرْ أن يَكْتُمَهُ عن شيخه ويميل إليه، فإنه يهلك في ذمّته، وليقل: «آمنتُ بالله، سبحان من ليس كمثله شيء»، ثم يتغافلُ عن شهودِ تلك الصورة ويتلهّى عنها بالذكرِ ما أمكن، حتى يتجلّى له سرٌّ مِنْ أسرار مذكوره، فيفنيه عن الذكرِ به.

- ومِنْ شرطِهِ أن لا يُعلِّقَ هِمَّته ما دام في الخلوة بحصولِ كرامة، ولا يستندَ في خلوته أبداً إلى جدار ولا غيره، بل يذكر ربَّه امتثالاً لأمرِهِ مُطرِقًا رأسَهُ، مُغمِضاً عينيه مِنْ حين يفتح المجلس إلى أن يفرغ منه، مُلاحِظًا لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني».

- ومِنْ شرطِهِ أن يثبتَ إذا ترادفت عليه الخواطرُ الرديئة، وليحذَرْ مِنْ قوله في نفسه: «ما كان لي حاجة بهذه الطريق ولا بهذه الخلوة»، فإنه لا بدَّ للسالك مِنْ ترادُفِ الخواطر الرديئة عليه أوائلَ دخولِهِ الطريق وفي الخلوة، لكونِ إبليسَ يُجيِّشُ عليه ويركبُ عليه ليُحاربه بِخَيْلِهِ ورَجْلِهِ، لكونه رآه عازمًا على أن يكونَ مِنْ جلساءِ الحقِّ جلَّ وعلا، وهو حسودٌ لكلِّ مَنْ رأى عنده طلبَ تقريبٍ مِنْ حضرة الحق تعالى، فهو يَحْرِصُ على أن يُغيِّرَ نيَّته ويردَّه ناكصًا على عقبيه، فلا يحبّ لنا خيراً قط.

- ومِنْ شرطِهِ أنْ يُعوِّدَ نفسَه قلةَ الكلامِ وقلةَ الأكلِ قبل دخولِهِ؛ لِيُحِبَّ العزلةَ ويقلَّ كلامُهُ ويكثرَ سَهَرُهُ.

- ومِنْ شرطِهِ أن يُخلِصَ النِّيّةَ في دخولِهِ الخلوةَ بإذن الشيخ، ولا يجوزُ له دخولُها بنيَّة غيرِ صالحة ولا بغير إذنٍ مِنَ الشيخ.

وينبغي له أن يقصدَ بها تهذيبَ أخلاقِهِ؛ ليستريحَ الناسُ مِنْ شَرِّهِ.

- ومِنْ شرطِهِ أن يدخلَ الخلوةَ بالهيبةِ كما يدخل المسجد من حيث إنَّه

حضرةُ الله الخاصَّة، ويستعيذ بالله مِنْ شَرِّ نفسِهِ كلَّما دَخَلَها، وينقطع عمَّا سواهُ من زوجة وأولاد ومال، فلا يكاد يخطرُ على باله شيءٌ مِنْ ذلك، لأنَّ خطورَ ذلك مِنْ علامات الالتفاتِ إلى وراء، وقد أجمعوا أنَّه لا يصلُ إلى مطلوبه مَنْ كان عنده التفاتٌ إلى ورائه.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن لا يلتفتَ إلى ما يقع له مِنَ الكرامات، بل يقبلُ ذلك أدبًا مع الله تعالى ليشكره عليه من غيرِ وقوفٍ معه، فَمَنْ وقفَ مع شيءٍ مِنْ ذلك فاتَهُ خيرُ الدنيا والآخرة، وكذلك الكراماتُ للرجال بمثابة الحيضِ للنساء، ومَنْ قَوِيَ يقينه بالله لا يحتاج إلى كرامةٍ تُثَبِّتُهُ في دينه.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن يكونَ دائمَ المراقبةِ لِنَظَرِ الله تعالى إليه، فلا يغفلُ عن هذا المشهدِ لحظةً، فَمَنْ غفلَ عن ربِّه كذلك ردَّتْهُ الغفلةُ إلى أَنقصَ مِنْ حاله الذي كان له قبل الخلوة.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن يكون صائماً مدَّةَ الخلوةِ إن استطاع، وذلك لأنّ الجوع يُحلِّلَ مِنَ الأجزاء الترابية والمائية بقدر ما يكون فيصفو القلب.

ـ ومِنْ شرطِهِ دوامُ الطهارةِ، فلا يمكثُ لحظةً واحدةً محدثًا، بل يُبادِرُ للطهارة كلَّما أحدثَ، وذلك لتتلألأ الأنوارُ في قلبه.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن لا يتكلَّمَ إلّا بكلامٍ مشروعٍ، ويسد بابَ كلامِ اللغو جملةً، فإنَّ الأنوارَ الربانية تخرجُ من قلب العبدِ إذا تكلَّم بلغوٍ، ويصير قلبُهُ مُظلِمًا خاليًا مِنَ النور الحاصل بالخلوة، ولا يضره الكلامُ مع شيخِهِ في وقائعه ولا خادمِهِ الذي جعله الشيخُ خادماً له مدَّة الخلوة، لكنْ يكون ذلك بقدر الضرورة.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن تكونَ الخلوةُ التي يمكثُ فيها بعيدةً عن سماع كلام الناس،

لأنَّ سماعَ كلام الناس يُؤثِّرُ في القلب ظلمةً، بخلاف الكلام المشروع كما مرّ.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن لا يُصلّيَ منفردًا بل في جماعة، فقد قالوا: ما حَصَلَ لأحدٍ خبلٌ في عقله إذا اختلى إلَّا مِنْ تركه الصَّلاةَ في جماعة.

ـ وليحذر مِنَ الشّبَعِ وكثرةِ شرب الماء، فإنَّ ذلك يقسي القلب ويورث الحجاب ويظلم القلب ويورث الكسل والبطالة وجلبَ النوم.

ـ ومِنْ شرطِهِ السهرُ الدائم، فإنَّ ذلك يذيب الأركان الأربعة ويحللها وهي الماء والتراب والهواء والنار، وهناك ينظر إلى عالم الملكوت، فيشتاق إلى مرضاة ربه، ويتخلَّصُ مِنْ كلِّ شيء يُغضِبُ ربَّه.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن لا يفتح باب خلوته لأحدٍ غيرِ شيخه، ولمّا اختلى ـ ﷺ ـ في غار حراء كان لا يصحبُ أحداً معه.

ـ ومِنْ شرطِهِ عدمُ الغفلةِ عن الذكر الذي أمره به شيخه؛ لأنه مرسوم الولاية.

ـ ومِنْ شرطِهِ أن لا يُعيِّنَ للخلوة مدَّة إذا بَلَغَها خرج، فَمَنْ عَيَّنَ أربعين يوماً مثلاً وحدَّث نفسَهُ بالخروج إذا مضت، خَرَجَ مِنَ الخلوةِ في أوّل يومٍ بهذا الخاطر، لأنّه يُورِثُ الشَّتاتَ والتفرقةَ للقلب مدَّة الخلوة، فيجب على المختلي أن يجعلَ الخلوةَ قبرَهُ، لا يخرج منها إلى يوم القيامة.

انتهى ما ذكرته باختصارٍ من شروط الخلوة وآدابها، ولنرجع إلى كلام الإمام الغزالي رضي الله عنه).

* * *

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أنَّ الطريقَ في رياضةِ الصِّبيانِ مِنْ أهمِّ الأمورِ وأوكدِها، والصَّبيُّ أمانةٌ عند والديه، وقلبُهُ الطاهرُ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ، خاليةٌ عن كلِّ نقشٍ وصورةٍ، وهو قابلٌ لكلِّ نقشٍ، ومائلٌ إلى كلِّ ما يُمالُ به إليه، فإن عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ نَشَأَ عليه، وسَعِدَ في الدنيا والآخرةِ، وشاركَهُ في ثوابِهِ أبواهُ، وكلُّ معلِّمٍ له ومُؤدِّبٍ، وإن عُوِّدَ الشَّرَّ وأُهمِلَ إهمالَ البهائمِ شَقِيَ وهَلَكَ، وكان الوِزْرُ في رقبةِ القَيِّمِ عليه والوالي له، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

ومهما كان الأبُ يصونُهُ عن نارِ الدنيا فَبِأَنْ يصونَهُ عن نار الآخرةِ أولى، وصيانتُهُ بأن يُؤدِّبَهُ ويُهذِّبَهُ ويُعلِّمَهُ محاسنَ الأخلاق، ويحفظَهُ مِنَ القرناءِ السُّوءِ، ولا يُعوِّدَهُ التَّنَعُّمَ، ولا يُحبِّبَ إليه الزِّينةَ والرَّفاهيةَ، فيُضيِّعَ عمرَهُ في طَلَبِها إذا كَبُرَ، فيهلكَ هلاكَ الأبدِ، بل ينبغي أن يُراقِبَهُ مِنْ أوَّلِ أمرِهِ، فلا يستعملُ في حضانتِهِ وإرضاعِهِ إلا امرأةً صالحةً مُتديِّنةً تأكلُ الحلالَ؛ فإنَّ اللَّبنَ الحاصلَ مِنَ الحرامِ لا بركةَ فيه، فإذا وَقَعَ عليه نشوءُ الصَّبيِّ انعجنَتْ طينتُهُ مِنَ الخبث، فيميلُ طبعُهُ إلى ما يُناسِبُ الخبائثَ.

ومهما رأى فيه مخايلَ التَّمييزِ فينبغي أن يُحسِنَ مراقبتَهُ، وأوَّلُ ذلك ظهورُ

أوائلِ الحياء، فإنَّه إذا كان يحتشمُ ويستحي ويتركُ بعضَ الأفعال فليس ذلك إلا لإشراقِ نورِ العقلِ عليه، حتى يرى بعضَ الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض، فصار يستحي مِنْ شيءٍ دون شيء، وهذه هديَّةٌ من الله تعالى إليه وبشارةٌ تدلُّ على اعتدال الأخلاقِ وصفاءِ القلبِ، وهو مُبشِّرٌ بكمالِ العقلِ عند البلوغ.

فالصَّبيُّ المستحي لا ينبغي أن يُهمَلَ، بل يُستعانُ على تأديبه بحيائه أو تمييزِهِ، وأوَّلُ ما يغلبُ عليه مِنَ الصِّفاتِ شَرَهُ الطَّعامِ فينبغي أن يُؤدَّب فيه، مثل أن لا يأخذَ الطَّعامَ إلا بيمينه، وأن يقولَ عليه: «بسم الله» عند أخذِهِ، وأن يأكل ممَّا يليه، وأن لا يُبادِرَ إلى الطعامِ قبلَ غيرِهِ، وأن لا يُحدِقَ النَّظرَ إليه، ولا إلى مَنْ يأكلُ، وأن لا يُسرِعَ في الأكلِ، وأن يُجيدَ المضغَ، وأن لا يُواليَ بين اللُّقَمِ، ولا يُلطِّخَ يَدَهُ ولا ثوبَهُ، وأن يُعوَّدَ الخبزَ فقط في بعضِ الأوقاتِ، حتى لا يصيرَ بحيث يرى الأُدْمَ حتماً.

ويُقبِّحُ عنده كثرةَ الأكلِ، بأن يُشبِّهَ كلَّ مَنْ يُكثِرُ الأكلَ بالبهائم، وبأن يذمَّ بين يديه الصَّبيَّ الذي يُكثِرُ الأكلَ، ويَمْدَحَ عنده الصَّبيَّ المتأدِّبَ القليلَ الأكلِ، وأن يُحبِّبَ إليه الإيثارَ بالطعام، وقلةَ المبالاةِ به، والقناعةَ بالطعام الخشنِ أيَّ طعامٍ كان.

ويُحفَظُ الصَّبيُّ عن الصِّبيانِ الذين عُوِّدوا التَّنَعُّمَ والرَّفاهيةَ ولُبْسَ الثِّيابِ الفاخرة، وعن مخالطةِ كلِّ مَنْ يُسْمِعُهُ ما يُرغِّبُهُ فيه؛ فإنَّ الصَّبيَّ مهما أُهمِلَ في ابتداءِ نشوئِهِ خَرَجَ في الأغلبِ رديءَ الأخلاقِ، كذَّاباً، حسوداً، سروقاً، نَمَّاماً، لجُوجاً، ذا فضولٍ وضحكٍ، وكياد ومَجانةٍ، وإنَّما يُحفَظُ عن جميعِ ذلك بحسنِ التأديب.

ثم يُرسَلُ إلى الكُتَّابِ، فيتعلَّمَ القرآنَ وأحاديثَ الأخبارِ وحكاياتِ الأبرارِ وأحوالَهم؛ لِيَنْغَرِسَ في نفسِهِ حُبُّ الصالحين، ويُحفَظَ مِنَ الأشعارِ التي فيها ذِكْرُ العشقِ وأهلِهِ، ويُحفَظَ مِنْ مخالطةِ الأدباءِ الذين يزعمون أنَّ ذلك مِنَ الظَّرْفِ ورِقَّةِ الطَّبعِ؛ فإنَّ ذلك يغرسُ في قلوبِ الصِّبيانِ بذرَ الفساد.

ثم مهما ظهرَ مِنَ الصَّبيِّ خلقٌ جميلٌ وفعلٌ محمودٌ، فينبغي أن يُكرَمَ عليه، ويُجازى عليه بما يفرحُ به، ويُمدَحَ بين أظهرِ الناس، فإن خالفَ ذلك في بعض الأحوالِ مرَّةً واحدةً فينبغي أن يُتغافَلَ عنه، ولا يُهتَكَ سترُهُ ولا يُكاشفَ، ولا يُظهَرَ له أنَّه يُتصوَّرُ أن يتجاسرَ أحدٌ على مثله، ولا سيَّما إذا سترَهُ الصَّبيُّ واجتهدَ في إخفائه؛ فإنَّ إظهارَ ذلك عليه ربَّما يُفيدُهُ جسارةً حتَّى لا يُباليَ بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يُعاتَبَ سِرّاً، ويُعظَّمَ الأمرُ فيه، ويُقالُ له: «إيَّاك أن تعودَ بعد ذلك لمثلِ هذا، فإنَّك تُفتَضَحُ بين الناس».

ولا يُكثَرُ القولُ عليه بالعتابِ في كل حينٍ؛ فإنَّه يُهوِّنُ عليه سماعَ الملامةِ، وركوبَ القبائح، ويُسقِطُ وقعَ الكلامِ مِنْ قلبه.

وليكنِ الأبُ حافظاً هيبةَ الكلامِ معه، فلا يُوبِّخُهُ إلا أحياناً، وينبغي للأمِّ أن تُخوِّفَهُ بالأبِ وتزجرَهُ عن القبائح، وينبغي أن يُمنَعَ مِنْ كلِّ ما يفعله في خفيةٍ، فإنَّه لا يخفيه إلا وهو يعتقدُ أنَّه قبيحٌ، فإذا تُرِكَ تعوَّدَ فعلَ القبيح.

ويُعوَّدُ في بعض النَّهارِ المشيَ والحركةَ والرياضةَ؛ حتَّى لا يَغْلِبَ عليه الكسلُ، ويُمنَعُ مِنْ أن يَفْتَخِرَ على أقرانِهِ بشيءٍ مما يَمْلِكُهُ والداهُ، أو بشيءٍ مِنْ مطاعمِهِ وملابسِهِ، أو لوحِهِ ودُواتِهِ، بل يُعوَّدُ التواضعَ والإكرامَ لكلِّ مَنْ عاشرَهُ، والتَّلطُّفَ في الكلام معهم.

ويُقبَّحُ إلى الصبيانِ حُبُّ الذهبِ والفضةِ، والطمعُ فيهما، ويُحذَّرُ منهما أكثرُ ممَّا يُحذَّرُ مِنَ الحيَّاتِ والعقاربِ؛ فإنَّ آفةَ حبِّ الذهبِ والفضةِ والطَّمعِ فيهما أضرُّ مِنْ آفةِ السُّمومِ على الصبيان، بل على الأكابر أيضاً.

ويُعلَّمُ كيفيّةَ الجلوسِ، ويُمنَعُ كثرةَ الكلامِ، ويُبيَّنُ له أنَّ ذلك يدلُّ على الوقاحةِ، وأنَّه فعلُ أبناءِ اللِّئام، ويُمنَعُ اليمينَ رأساً، صادقاً كان أو كاذباً؛ حتَّى لا يعتادَ ذلك في الصِّغَرِ.

ويُعوَّدُ أن لا يتكلَّمَ إلا جواباً وبقدرِ السُّؤال، وأن يُحسِنَ الاستماعَ مهما تكلَّمَ غيرُهُ ممَّنْ هو أكبرُ منه سِنّاً، وأن يقومَ لِمَنْ فوقَهُ، ويُوسِّعَ له المكان، ويجلسَ بين يديه.

ويُمنَعُ مِنْ لغوِ الكلامِ وفُحْشِهِ، ومِنَ اللَّعْنِ والسَّبِّ، ومِنْ مخالطةِ مَنْ يجري على لسانِهِ شيءٌ مِنْ ذلك، فإنَّ ذلك يسري لا محالةَ مِنَ القُرناءِ السُّوء، وأصلُ تأديبِ الصِّبيانِ الحفظُ مِنْ قرناءِ السُّوءِ.

وينبغي أن يُؤذَنَ له بعدَ الانصرافِ مِنَ الكُتَّاب أن يلعبَ لَعِباً جميلاً، يستريحُ إليه مِنْ تعبِهِ، بحيثُ لا يتعبُ في اللَّعبِ، فإنَّ منعَ الصَّبيِّ مِنَ اللَّعِبِ وإرهاقَهُ إلى التَّعلُّمِ دائماً يميتُ قلبَهُ، ويبطِلُ ذكاءَهُ، ويُنغِّصُ عليه العيشَ، حتَّى يطلبَ الحيلةَ في الخلاصِ منه رأساً.

وينبغي أن يُعلَّمَ طاعةَ والديه ومُعلِّمِهِ ومؤدِّبِهِ، وكلِّ مَنْ هو أكبرُ منه سِناً مِنْ قريبٍ وأجنبيٍّ، وأن ينظر إليهم بعينِ الجلالةِ والتَّعظيم، وأن يتركَ اللَّعِبَ بين أيديهم.

ومهما بَلَغَ سِنَّ التَّمييز فينبغي أن لا يُسامَحَ في تركِ الطَّهارةِ والصَّلاةِ، ويُؤمَرُ بالصَّومِ في بعضِ أيّامِ رمضانَ، ويُجنَّبُ لُبْسَ الدِّيباجِ والحريرِ والذَّهبِ، ويُعلَّمُ كلَّ ما يحتاجُ إليه مِنْ حدودِ الشرعِ، ويُخوَّفُ مِنَ السَّرقةِ وأكلِ الحرامِ، ومِنَ الخيانةِ والكذبِ والفُحْشِ، وكلِّ ما يغلبُ على الصبيان.

وإذا قارَبَ البلوغَ يُذكَرُ له أنَّ الأطعمةَ أدويةٌ، وإنَّما المقصودُ منها أن يقوى الإنسانُ بها على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ الدُّنيا كلَّها لا أصلَ لها؛ إذ لا بقاءَ لها، وأنَّ الموتَ يقطعُ نعيمَها، وأنَّها دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرٍّ، وأنَّ الآخرةَ دارُ مقرٍّ لا دارُ ممرٍّ، وأنَّ الموتَ مُنتظَرٌ في كلِّ ساعة، وأنَّ الكَيِّسَ العاقلَ مَنْ تَزَوَّدَ مِنَ الدُّنيا للآخرة، حتَّى تَعْظُمَ درجتُهُ عند الله تعالى، ويَتَّسِعَ نعيمُهُ في الجنان، فإذا كان النُّشوءُ صالحاً كان هذا الكلامُ عند البلوغِ واقعاً مُؤثِّراً ناجِعاً، يثبتُ في قلبِهِ كما يثبتُ النَّقشُ في الحجر؛ فإنَّ الصَّبيَّ بجوهرِهِ خُلِقَ قابلاً للخيرِ والشَّرِّ جميعاً، وإنَّما أبواهُ يميلان به إلى أحدِ الجانبين، قال ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإِنَّما أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1].

قال سهلُ بنُ عبدِ الله التُّستَرِيُّ ﵀: كنتُ وأنا ابنُ ثلاثِ سنين أقومُ بالليل، فأنظرُ إلى صلاةِ خالي محمد بن سوارٍ، فقال لي يوماً: ألا تذكرُ اللهَ الذي خلَقَكَ؟ فقلتُ: كيف أذكرُهُ؟ قال: قُلْ بقلبِكَ عند تقلُّبِكَ في ثيابِكَ ثلاثَ مراتٍ مِنْ غيرِ أن تُحرِّكَ به لسانَكَ: «الله معي، الله ناظرٌ إليَّ، الله شاهدي»، فقلتُ ذلك ليالِيَ، ثم أعلمتُهُ فقال: قل في كلِّ ليلةٍ سبعَ مراتٍ، فقلتُ ذلك، ثم أعلمتُهُ، فقال: قل ذلك كلَّ ليلةٍ إحدى عشرةَ مرّةً، فقلتُهُ، فَوَقَعَ في قلبي حلاوتُهُ، فلمَّا

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

كان بعد سنةٍ قال لي خالي: احفظْ ما عَلَّمْتُكَ، ودُمْ عليه إلى أن تدخلَ القبرَ؛ فإنَّه ينفعُكَ في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدتُ لذلك حلاوةً في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهلُ، مَنْ كان الله معه وناظراً إليه وشاهدَهُ أَيَعْصِيهِ؟! إيَّاكَ والمعصيةَ.

❊ ❊ ❊

الكتاب الثالث من ربع المهلكات
في كسر الشهوتين

(حرامٌ على مَنِ استكثرَ مِنَ الشهواتِ أن تُفتَحَ له أبوابُ الغُيُوب)(١)

(ش: لا يمكنُ لعبدٍ أن يرتقيَ مِنْ حضيضِ الشهواتِ إلى جنّاتِ القربات إلا برياضةِ تقليلِ الأكلِ والشُّرب، وذلك لأنَّ المعدةَ ينبوعُ الشهوات؛ إذ منها تنبعث شهوةُ الفرجِ، ثم إذا غَلَبَتْ تنبعثُ شهوةُ المال، ثم إذا غَلَبَتْ تنبعثُ شهوةُ الجاه، ثم بحصول الجاهِ والمالِ تنصبُّ جميعُ الآفاتِ كالكبرِ والرياءِ والحسدِ والعداوة، ولذا قيل: لا يدخلُ ملكوتَ السماواتِ مَنْ ملأ بَطْنَهُ.

وفوائدُ الجوعِ كثيرةٌ، ولكنْ يرجعُ أصولُها إلى سبعٍ:

إحداها: صفاءُ القلبِ ونفاذ البصيرة، فإنَّ الشِّبعَ يُورِثُ البلادةَ ويُعمِي القلبَ؛ ولا يخفى أنَّ مفتاحَ السعادةِ المعرفةُ، ولا تُنالُ إلا بصفاء القلب، فلذلك كان الجوعُ قَرْعَ بابِ الجنة.

الثانية: رِقّةُ القلبِ؛ حتى يُدرِكَ به لذّةَ المناجاة، ويتأثَّرَ بالذكرِ والعبادةِ؛ قال الجنيد: «يجعلُ أحدُكم بينه وبين قلبه مِخلاةً مِنَ الطعام، ويريدُ أن يجدَ حلاوةَ المناجاة!».

ولا يخفى عليك أنَّ أحوالَ القلبِ مِنَ الخشية والخوفِ والرقةِ والمناجاةِ

---

(١) الحكمة (٥٣) من الحكم العطائية الصغرى.

والانكسارِ والهيبةِ مِنْ مفاتيح أبواب الجنة، والجوعُ قرعٌ لهذا الباب.

الثالثة: ذُلُّ النَّفسِ، وزوالُ البطرِ والطغيانِ منها؛ فلا تُكسَرُ النَّفسُ بشيءٍ كالجوع.

الرابعة: أنَّ البلاءَ مِنْ أبواب الجنة؛ لأنَّ فيه مشاهدةَ طعمِ العذاب، وبه يعظمُ الخوفُ مِنْ عذاب الآخرة، ولا يقدرُ الإنسانُ على أن يُعذِّبَ نفسَهُ بشيءٍ كالجوع، فإنه لا يحتاج فيه إلى تكلُّفٍ.

الخامسة ـ وهي مِن كبارِ الفوائدِ: كسرُ شهواتِ المعاصي، والاستيلاءُ على النَّفسِ الأمّارةِ بالسوء، وكسرُ سائرِ الشهواتِ التي هي منابعُ المعاصي؛ قال عليٌّ رضي الله عنه: «ما شَبِعْتُ قطُّ إلا عصيتُ أو هَمَمْتُ بالمعصيةِ».

السادسة: خِفّةُ البدنِ للتهجُّدِ والعبادةِ وزوالِ النومِ المانعِ مِنَ العبادة؛ فإنَّ رأسَ مالِ السَّعادةِ العمر، والنومُ يُنقِصُ العمرَ؛ إذ يمنعُ مِنَ العبادة، وأصلُهُ كثرةُ الأكل.

قال أبو سليمان الداراني: مَنْ شَبِعَ دَخَلَ عليه كثيرٌ مِنَ الآفات، فمنها: فقدُ حلاوةِ العبادة، وتعذُّرُ حفظِ الحكمة، وحرمانُ الشفقةِ على الخلق؛ لأنَّه إذا شَبِعَ ظنَّ أنَّ الخلقَ كلَّهم شباعاً، وثِقَلُ العبادةِ، وزيادةُ الشهوات.

السابعة: خِفّةُ المئونةِ، وإمكانُ القناعةِ بقليلٍ مِنَ الدنيا، وإمكانُ إيثارِ الفقر، فإنَّ مَنْ تخلَّصَ مِنْ شَرَهِ بطنِهِ لم يفتقرْ إلى مالٍ كثير، فيسقطُ عنه أكثرُ همومِ الدنيا).

قال صلى الله عليه وسلم: «ما مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ

صُلْبَهُ وَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلاً فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»(١).

وقال ﷺ: «المُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالمُنَافِقُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»(٢)، أي: يأكلُ سبعةَ أضعافِ ما يأكلُ المؤمنُ، أو تكونُ شهوتُهُ سبعةَ أضعافِ شهوتِهِ.

وذكرُ المعاءِ كنايةٌ عن الشهوةِ؛ لأنَّ الشَّهوةَ هي التي تقبلُ الطعامَ وتأخذُهُ كما يأخذُه المِعَى، وليس المعنى زيادةُ عددِ مِعَى المنافقِ على مِعَى المؤمنِ.

وقال لقمانُ لابنِهِ: (يا بُنيَّ، إذا امتلأتِ المعدةُ نامَتِ الفكرةُ، وخرِسَتِ الحكمةُ، وقَعَدَتِ الأعضاءُ عن العبادةِ)(٣).

(ش: ولذا قيل: «البِطْنة تُذْهِبُ الفِطْنة»).

وكان فتحُ الموصليُّ رحمه الله إذا اشتدَّ مرضُهُ وجوعُهُ يقول: (إلهي ابتليتني بالمرضِ والجوعِ، وكذلك تفعلُ بأوليائك، فبأيِّ عملٍ أُؤَدِّي شكرَ ما أنعمتَ به عليَّ؟).

وقال سهلُ بنُ عبد الله رحمه الله: (اعلموا أنَّ هذا زمانٌ لا ينالُ أحدٌ فيه النَّجاةَ إلا بذبحِ نفسِهِ وقتلِها بالجوعِ والسَّهرِ)(٤).

وقال أبو سليمان رحمه الله: (لَأَنْ أتركَ لقمةً مِنْ عشائي أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ إلى الصُّبحِ)(٥).

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٣).

(٣) أورده أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة (٤٨٨).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠١).

(٥) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٩٢٢).

وكان يقول: (أحلى ما تكونُ العبادةُ إليَّ إذا التصقَ ظهري ببطني)[١].

واعلم أنَّ المريدَ لا يجوزُ له أن يأكلَ إلا حلالاً، فالعبادةُ مع أكلِ الحرامِ كالبناءِ على أمواجِ البحار.

وكان السلفُ رضي الله عنهم يأكلونَ في كلِّ يومٍ أكلة[٢]، وقال ﷺ لعائشةَ رضي الله عنها: «إِيَّاكِ وَالسَّرَفَ، فَإِنَّ أَكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ مِنَ السَّرَفِ»[٣].

وينبغي للصائم إذا رأى الالتفاتَ بعد المغربِ إلى الطعام، وكان يشغلُهُ عن حضورِ القلبِ في التهجد، أن يَقْسِمَ طعامَهُ نصفين للفطر وللسحر؛ لِتَسْكُنَ نفسُهُ، ويَخِفَّ عند التهجدِ بدنُهُ، ولا يشتدَّ بالنهار جوعُهُ.

ومَنْ أراد أن يُقلِّلَ الطعامَ فَلْيَتَدَرَّجْ، فَمَنْ كان يأكلُ رغيفين مثلاً وأراد أن يَرُدَّ نفسَهُ إلى واحدٍ فليُنْقِصْ في كلِّ يومٍ ربعَ سبعِ رغيف، وهو أن يُنقِصَ منه جزءاً مِنْ ثمانيةٍ وعشرين جزءاً، أو جزءاً مِنْ ثلاثين جزءاً، فيرجع إلى رغيف في شهرٍ، ولا يستضرُّ به، ولا يظهرُ أثرُهُ.

وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول: طعامي في كلِّ جمعةٍ صاعٌ مِنْ شعيرٍ على عهدِ رسولِ الله ﷺ، لا أزيدُ عليه شيئاً حتى ألقاه، فإنِّي سمعتُهُ ﷺ يقول: «أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيامَةِ وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ مَنْ مَاتَ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ اليَوْمَ»[٤].

وكان يقولُ في إنكارِهِ على بعضِ الصحابة رضي الله عنهم: (قد غَيَّرتُم، يُنخَلُ لكم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٦٨).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٥٢٧٧).

(٤) رواه أحمد في المسند (٥/ ١٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦١).

الشَّعيرُ ولم يكنْ يُنْخَلُ، وخَبَزْتُمُ المرقَّقَ، وجَمَعْتُم بين إدامين، واختلف عليكم بألوانِ الطَّعام، وغدا أحدُكُم في ثوبٍ وراحَ في آخرَ، ولم تكونوا هكذا على عهدِ رسولِ الله ﷺ)[١].

ومَنْ أراد أن يطويَ يومين إلى ثلاثةِ أيامٍ عن الطعام فليس ذلك خارجاً عن العادة، بل هو قريبٌ يُمكِنُ الوصولُ إليه بالجدِّ والمجاهدةِ ومراعاةِ التدريجِ بالوجه الذي ذُكِرَ آنفاً.

فقد روي أنَّ الثوريَّ رحمه الله وإبراهيمَ بنَ أدهم رحمه الله كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً، وقد كان أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه يطوي ستةَ أيام، وكان عبد الله بنُ الزبيرِ رضي الله عنه يطوي سبعةَ أيام، وكان بعضُ المريدين يطوي أكثرَ مِنْ ذلك، حتى انتهى بعضُهم إلى ثلاثين أو أربعين يوماً، وانتهى إليه جماعةٌ مِنَ العلماء[٢].

وقال بعضُ العلماء: (مَنْ طوى لله أربعينَ يوماً ظَهَرَتْ له قدرةٌ مِنَ الملكوت)، أي: كُوشِفَ له ببعضِ الأسرار الإلهيةِ[٣].

وعادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ الامتناعُ مِنَ الإدامِ على الدوام، بل الامتناعُ عن الشهوات، فإنَّ أكلَ اللذيذِ على الدوامِ يقتضي بَطَراً في نفسِهِ، وقسوةً في قلبِهِ، وأُنْساً بلذَّاتِ الدُّنيا، حتَّى يألفَها ويَكرَهَ الموتَ ولقاءَ الله تعالى، وإذا مَنَعَ نفسَهُ عن شهواتِها، وضَيَّقَ عليها، وحَرَمَها لَذَّاتِها صارتِ الدُّنيا سِجناً عليه، فتشتهي نفسُهُ الإفلاتَ منها، فيكونُ الموتُ إطلاقَها، وإليه الإشارةُ بقولِ يحيى بنِ معاذ

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٦٧).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٦٥ . ١٦٦).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٦٦).

رضي الله عنه حيث قال: (معاشرَ الصِّدِّيقين؛ جوِّعوا أنفسَكم لوليمةِ الفردوس؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ على قدرِ تجويعِ النَّفسِ)[1].

فلذلك يعظمُ الثَّوابُ في تركِ الشَّهواتِ مِنَ المباحات، ويعظمُ الخطرُ في تناولها، حتى رُوِيَ في الأثر: «شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ، وإنَّما هِمَّتُهُم ألوانُ الطَّعامِ وأنواعُ اللِّباسِ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ»[2]، ففيه تنبيهٌ على أنَّ تيسيرَ أسبابِ الشهواتِ ليس مِنْ علاماتِ الخير، بل ولا عبادةَ أعظمُ مِنْ مخالفةِ الشَّهواتِ وتركِ اللَّذَّات، ولذلك قال أبو سليمانُ رضي الله عنه: (تركُ شهوةٍ مِنَ الشهواتِ أنفعُ للقلبِ مِنْ صيامِ سنةٍ وقيامِها)[3].

ومما ينبغي للمريدِ أن لا يُواظِبَ على أكلِ اللَّحمِ.

قال علي رضي الله عنه: (مَنْ تَرَكَ اللَّحمَ أربعين يوماً ساءَ خُلُقُهُ، ومَنْ داومَ عليه أربعينَ يوماً قَسا قلبُهُ)[4].

ويُستحبُّ أن لا ينامَ على الشِّبعِ، فيجمعَ بين غفلتين، فيعتادَ الفتورَ ويقسوَ قلبُهُ، ولكن ليُصلِّ، أو لِيَجْلِسْ فيذكرَ الله تعالى؛ فإنَّه أقربُ إلى الشُّكرِ، وفي الحديث: «أَذِيبُوا طَعَامَكُمْ بِالذِّكْرِ وَالصَّلاةِ وَلا تَنَامُوا عَلَيْهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ»[5]، وأقلُّ ذلك أن يُصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ، أو يُسبِّحَ مائةَ تسبيحةٍ، أو يقرأَ جُزءاً مِنَ القرآنِ عقيبَ كلِّ أكلةٍ.

---

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٦٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (١٥٠)، وابن عدي في الكامل (٥/ ٣١٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٠).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٧٣).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٧٢)، وبنحوه رواه البيهقي في الشعب (٥٥٠٩).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٤٩٤٩)، وابن عدي في الكامل (١/ ٤٠٥).

ولْيَخْشَ الرياءَ في تركِهِ لشهوة الطعامِ، فالعارفون قد يبتلون بالشهواتِ بل بالمعاصي، ولا يبتلون بالرياء والغش، بل مِنْ كمالِ العارفِ أن يتركَ الشَّهواتِ لله، ويُظهِرَ مِنْ نفسِهِ الشَّهوةَ إسقاطاً لمنزلتِهِ مِنْ قلوبِ الخلقِ، فنهايةُ الزهدِ الزُّهدُ في الزُّهدِ، وذلك بإظهارِ ضِدِّهِ، وهذا عملُ الصِّدِّيقين.

وبالجملةِ مَنْ تركَ شهوةَ الطعامِ وَوَقَعَ في شهوةِ الرياءِ كان كَمَنْ هَرَبَ مِنْ عقربٍ وفَزِعَ إلى حيّةٍ؛ لأنَّ شهوةَ الرياءِ أضرُّ كثيراً مِنْ شهوةِ الطعام.

القول في شهوة الفرج

اعلم أنَّ شهوةَ الوقاعِ سُلِّطَتْ على الإنسانِ لفائدتين:

إحداهما: أن يُدرِكَ لذَّتَهُ فيقيسَ به لذّاتِ الآخرةِ، والترغيبُ والترهيبُ يسوقُ الناس إلى سعادتِهم، وليس ذلك إلا بألمٍ محسوسٍ ولذةٍ محسوسةٍ مدركةٍ؛ فإنَّ ما لا يُدرَكُ بالذوقِ لا يعظمُ إليهِ الشوقُ.

الثانية: بقاءُ النَّسلِ، ودوامُ الوجودِ، فهذه فائدتها، ولكنْ فيها مِنَ الآفاتِ ما يُهلِكُ الدينَ والدُّنيا إن لم تضبط ولم تُقهر ولم تُردَّ إلى حدِّ الاعتدالِ.

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلم أنَّ المريدَ في ابتداءِ أمرِهِ ينبغي أن لا يشغلَ قلبَهُ ونفسَهُ بالتزويجِ؛ فإنَّ ذلك شغلٌ شاغلٌ يمنعُهُ مِنَ السلوكِ، ويَستجرُّهُ إلى الأُنسِ بالزَّوجةِ، ومَنْ أَنِسَ بغيرِ الله شُغِلَ عن الله.

ولا يَغُرَّنَّهُ كثرةُ نكاحِ رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّه كان لا يَشْغَلُ قلبَهُ جميعُ ما في

الدنيا عن الله تعالى، فلا تُقاسُ الملائكةُ بالحدَّادين، ولذلك قال أبو سليمانَ الداراني رحمه الله: (مَنْ تَزَوَّجَ فقد رَكَنَ إلى الدُّنيا)[١]، وقال: (ما رأيتُ مُريداً تَزَوَّجَ فَثَبَتَ على حالِهِ الأوَّل).

فشرطُ المريدِ العزوبةُ في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفةِ، هذا إذا لم تَغْلِبْهُ الشَّهوةُ، فإن غَلَبَتْهُ الشَّهوةُ فليكسِرْها بالجوعِ الطويلِ، والصَّومِ الدائم، فإن لم تَنْقَمِعِ الشهوةُ بذلك، وكان بحيثُ لا يقدرُ على حفظِ العينِ مثلاً، وإنْ قَدَرَ على حفظِ الفرجِ فالنِّكاحُ له أولى؛ لتسكنَ الشَّهوةُ، وإلا فمهما لم يحفظ عينَهُ لم يحفظْ فكرَهُ، وتتفرَّقُ همَّتُهُ، وربَّما وقعَ في بليّةٍ لا يطيقُها، وزنا العينِ مِنْ كبائرِ الصغائرِ، وهو يُؤدِّي إلى زنى الفرجِ، ومَنْ لم يَقْدِرْ على غَضِّ بصرِهِ لم يَقْدِرْ على حفظِ دينِهِ، ومهما احتاجَ إلى النِّكاح فلا ينبغي أن يتركَ شرطَ الإرادةِ في ابتداءِ النِّكاح ودوامِهِ، أما في ابتدائِهِ فبالنيَّةِ الحسنةِ، وفي دوامِهِ بحسنِ الخُلُقِ، وسَدادِ السيرةِ، والقيامِ بالحقوق.

وتزوَّجَ بعضُهم امرأةً ذاتَ جمالٍ، فلمّا قَرُبَ زفافها أصابَها الجُدَرِيُّ فاشتدَّ حُزنُ أهلِها لذلك؛ خوفاً مِنْ أن يستقبِحَها، فأراهم الرجلُ أنَّه قد أصابه رَمَدٌ، ثم أراهم أنَّ بصرَهُ قد ذهبَ حتَّى زُفَّتْ إليه فزالَ عنهم الحزن، فبقيتْ عنده عشرينَ سنةً، ثم تُوفِّيَتْ ففتحَ عينيه حينَ ذلك، فقيلَ له في ذلك، فقال: تَعَمَّدْتُهُ لأجلِ أهلِها حتى لا يحزنوا، فقيل له: قد سبقتَ إخوانَكَ بهذا الخلقِ.

وتزوَّجَ بعضُ الصوفيةِ امرأةً سيئةَ الخُلُقِ فكان يصبرُ عليها، فقيل له: لِمَ لا تُطَلِّقُها؟ فقال: أخشى أن يتزوَّجَها مَنْ لا يصبرُ عليها فيتأذَّى بها.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٣٥).

وأمارةُ صدقِ إرادتِهِ أن يَنْكِحَ فقيرةً مُتديِّنةً، ولا يطلبَ الغنيّةَ.

قال بعضُهم: (مَنْ تزوَّجَ غنيّةً كان له منها خمسُ خصالٍ: مغالاةُ الصَّداقِ، وتسويفُ الزَّفافِ، وفوتُ الخدمةِ، وكثرةُ النَّفقةِ، وإذا أراد طلاقَها لم يَقْدِرْ؛ خوفاً مِنْ ذهابِ مالِها، والفقيرةُ بخلافِ ذلك)[١].

وقال بعضُهم: (ينبغي أن تكونَ المرأةُ دون الرجلِ بأربعٍ، وإلا استحقرته: بالسِّنِّ، والطُّولِ، والمالِ، والحسبِ، وأن تكون فوقَهُ بأربعٍ: بالجمالِ، والأدبِ، والورعِ، والخُلُقِ)[٢].

*

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٦٣٨).

(٢) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٦٣٥).

الكتاب الرابع من ربع المهلكات
في آفات اللسان

(الصمت سلامة)، (الصمت لغة الحكماء)

اعلم أنَّ خطرَ اللّسانِ عظيمٌ، ولا نجاةَ مِنْ خطرِهِ إلا بالصَّمت، فلذلك مَدَحَ صاحبُ الشَّرعِ الصَّمتَ وحَثَّ عليه، فقال ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجا»(١).

وقال عقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: قلتُ: يا رسولَ الله ﷺ ما النجاة؟ قال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»(٢).

وقال معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه: قلتُ: يا رسولَ الله ﷺ أَنُؤاخَذُ بما نقول؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا ابْنَ جَبَلٍ! وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»(٣).

(ش: ولذا أنشد أبو العتاهية:

الصَّمتُ زينٌ والسُّكوتُ سلامةٌ ... فإذا نَطَقْتَ فلا تكُنْ مِكْثارا
فإذا نَدِمْتَ على سكوتِكَ مَرّةً ... فَلَتَنْدَمَنَّ على الكلامِ مِرارا(٤)

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٦).

(٣) رواه الترمذي (٢٦١٦).

(٤) ينظر: (العقد الفريد) لابن عبد ربه (٢/ ٤٧٢) بتصرُّفٍ يسيرٍ.

ولذا قال سليمان بن داود عليهما السلام: «إذا كان الكلامُ مِنْ فِضّة فالسُّكوتُ مِنْ ذَهَبٍ»[١]).

(م: ومِنْ ثَمَّ قال صاحبُ الرَّوضِ رضي الله عنه:

حمـداً لِمَنْ طَـوَى لنا السَّـلامهْ   في الصَّمْتِ وَهْوَ أَصْلُ الاِسْتِقامهْ)

وقال أبو هريرةَ رضي الله عنه: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ»[٢].

ورُوِيَ عنه ﷺ: «الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ»[٣]، أي: هو حكمةٌ وحَزْمٌ.

وقال عيسى عليه السلام: (العِبادةُ عشرةُ أجزاءٍ، تسعةٌ منها في الصَّمتِ، وجزءٌ في الفِرارِ مِنَ الناس)[٤].

وقال وهبُ بنُ مُنبِّه رضي الله عنه: في حكمةِ آلِ داودَ: (حقٌّ على العاقلِ أن يكونَ عارفاً بزمانِهِ، حافِظاً لِلِسانِهِ، مُقبلاً على شأنِهِ)[٥].

وقال الأوزاعيُّ رضي الله عنه: كتب إلينا عمرُ بنُ عبدِ العزيز رضي الله عنه: (أما بعدُ: فإنَّه مَنْ أكثرَ ذكرَ الموتِ رَضِيَ مِنَ الدنيا باليسير، ومَنْ عَدَّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ قلَّ كلامُهُ فيما لا ينفعه)[٦].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨).

(٣) رواه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٦٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٤٠)، والبيهقي في الشعب (٤٦٧٢).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٤٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (١٢٧).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣١).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٥).

واعلم أنَّ رأسَ مالِ العبدِ أوقاتُهُ، ومهما صَرَفَها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضَيَّعَ رأسَ مالِهِ، ولهذا قال ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ»[١].

ومَنْ قدرَ على أن يأخذَ كنزاً مِنَ الكنوزِ فأخذَ مكانَهُ مَدَرةً لا يُنتفَعُ بها كان خاسراً خُسراناً مبيناً، ومُستبدِلاً للذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ.

[مطلب في بيانِ الخوضِ في الباطلِ]

واعلم أنَّ مَنْ يُكثِرُ القولَ في ما لا يعنيه لا يُؤمَنُ عليه الخوضُ في الباطلِ، وهو الكلامُ في المعاصي؛ كحكايات أحوالِ النِّساء، ومجالسِ الخمرِ، ومقاماتِ الفُسَّاقِ، وتَنَعُّمِ الأغنياء، وتَجَبُّرِ الملوكِ ومراسِمِهم المذمومةِ، وأحوالِهم المكروهةِ، فإنَّ كلَّ ذلك مِمّا لا يَحِلُّ الخوضُ فيه.

وأنواعُ الباطلِ لا يُمكِنُ حصرُها؛ لكثرتِها وتَفَنُّنِها، فلذلك لا مخلصَ منها إلا بالاقتصارِ على ما يَعْنِي مِنْ مُهِمّاتِ الدِّين والدُّنيا، وفي هذا الجنسِ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ تقعُ كلماتٌ يهلِكُ بها صاحبُها وهو مُستحقِرٌ لها، وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَنْزِلُ بِهَا في النارِ أَبْعَدَ ما بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ»[٢].

ورُوِيَ عنه ﷺ: «أَعْظَمُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِي البَاطِلِ»[٣]،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧) ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٧٤).

وإليه الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وبقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال ابنُ سيرين رحمه الله: (كان رجلٌ مِنَ الأنصار يَمُرُّ بمجلسٍ لهم فيقول: تَوَضَّؤا؛ فإنَّ بعضَ ما تقولون شَرٌّ مِنَ الحدثِ)[١].

ويدخلُ فيه أيضاً الخوضُ في حكايةِ البدَعِ والمذاهبِ الفاسدةِ، وحكايةِ ما جرى مِنْ قتالِ الصَّحابةِ على وجهٍ يُوهِمُ الطَّعنَ في بعضِهم، وكلُّ ذلك باطلٌ، والخوضُ فيه خوضٌ في الباطل.

[مطلب في بيانِ المِراءِ والجِدال]

ومِنَ الكلامِ المنهيِّ عنه المِراءُ والمجادلةُ، فقد قال النبيُّ ﷺ: «لا تُمَارِ أَخَاكَ وَلا تُمَازِحْهُ، وَلا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ»[٢].

وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ»[٣].

وقال ﷺ: «ما ضَلَّ قومٌ بَعْدَ هُدًى كانوا عليهِ إلَّا أُوتوا الجدَلَ»[٤].

وقال ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ»[٥].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٠٥).

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٥).

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٣)، ورَبَضُ الشيء: نواحيه، أو أدناه وأسفله.

(٤) رواه الترمذي (٣٢٥٣).

(٥) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

ورُوِيَ أنَّ أبا حنيفةَ رحمه الله قال لداودَ الطائيِّ رحمه الله: لم آثرتَ الانزواء؟ قال: لأجاهدَ نفسي بتركِ الجدالِ، فقال: احضرِ المجالسَ واسمعْ ما يُقالُ ولا تتكلَّمْ، قال: ففعلتُ فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها، وهو كما قال؛ لأنَّ مَنْ سَمِعَ الخطأَ مِنْ غيرِهِ وهو قادرٌ على كشفِهِ يَعْسُرُ عليه الصَّبرُ عند ذلك جداً، وأكثرُ ما يغلبُ ذلك في المذاهب والعقائد؛ فإنَّ المراءَ طبعٌ، فإذا ظَنَّ أنَّ له عليه ثواباً اشتدَّ عليه حِرْصُهُ، وتعاوَنَ الطَّبعُ والشَّرعُ عليه، وذلك خطأٌ محضٌ، بل ينبغي للإنسان أن يَكُفَّ لسانَهُ عن أهل القبلة، وإذا رأى مُبتدِعاً تلطَّفَ في نُصحِهِ في خلوةٍ لا بطريقِ المجادلة، فإذا عرفَ أنَّ النُّصحَ لا ينفعُ اشتغلَ بنفسِهِ وتَرَكَهُ، فَرَحِمَ الله مَنْ كَفَّ لسانَهُ عن أهلِ القبلةِ إلا بأحسنِ ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ.

وكلُّ مَنِ اعتادَ المجادلةَ مدةً، وأثنى الناسُ عليه، وَوَجَدَ لنفسِهِ بِسَبَبِهِ عِزّاً وقَبولاً قَوِيَتْ فيه هذه المهلكاتُ، فلا يستطيعُ عنها نُزُوعاً إذا اجتمعَ عليه سلطانُ الكِبرِ والغضبِ والرياءِ وحُبِّ الجاهِ والتَّعزُّزِ بالفضلِ، وآحادُ هذه الصفاتِ يَشِقُّ مجاهدتُها، فكيف بمجموعها؟

[مطلب في بيانِ الفُحشِ والسَّبِّ وبذاءةَ اللِّسانِ]

واعلم أنَّ الفُحْشَ والسَّبَّ وبذاءةَ اللِّسانِ كلَّهُ مذمومٌ ومنهيٌّ عنه، فقد قال النبي ﷺ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلا الفَاحِشِ وَلا البَذِيِّ»(١).

وقال الأحنفُ بنُ قيسٍ رحمه الله: (ألا أُخبرُكُم بِأَدْوَإِ الدَّاءِ؟ اللسانُ البذيءُ، والخُلُقُ الدَّنيء)(٢).

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٤١).

وحَدُّ الفُحْشِ وحقيقتُهُ: هو التَّعبيرُ عن الأمورِ المستقبحةِ بالعبارات الصَّريحةِ، ويجري أكثرُ ذلك في ألفاظِ الوِقاعِ وما يتعلَّقُ به، فإنَّ لأهلِ الفسادِ عباراتٍ صريحةً فاحشةً يستعملونَها فيه، وأما أهلُ الصَّلاحِ فيتحاشون عن التَّعرُّضِ لها، ويدلُّونَ عليها بالرُّموزِ، فيذكرون ما يُقارِبُها ويتعلَّقُ بها.

وليس يختصُّ هذا بالوقاع، بل الكنايةُ بقضاء الحاجةِ عن البولِ والتَّغوُّطِ أولى مِنْ لفظِ التَّغوُّطِ والخراءةِ وغيرِهما، فإنَّ هذا مما يُخفَى، ويُستحيَى منه، فلا ينبغي أن تُذكَرَ ألفاظُهُ الصريحةُ؛ فإنَّه فحشٌ.

وكذلك يُستحسَنُ في العادةِ الكنايةُ عن النِّساء، فلا يُقالُ: قالت زوجتُكَ كذا، بل يُقالُ: قيل في الحُجْرة، أو قيل مِنْ وراء السترِ، أو قالَتْ أمُّ الأولاد.

وكذلك مَنْ به عيوبٌ يستحيي منها فلا ينبغي أن يُعبَّرَ عنها بصريحِ لفظِها كالبَرَصِ والقَرَعِ والبواسير، بل يُقالُ: العارضُ الذي يشكوهُ وما يجري مَجراهُ.

والباعثُ على الفُحشِ إما قصدُ الإيذاءِ، وإما الاعتيادُ الحاصلُ مِنْ مخالطةِ الفُسّاقِ وأهلِ الخُبْثِ واللُّؤم.

[مطلب في بيان اللَّعن]

واعلم أنَّ الصِّفاتِ المقتضيةَ لِلَّعْنِ ثلاثةٌ: الكفرُ، والبدعةُ، والفسقُ، ولِلَّعْنِ في كلِّ واحدةٍ ثلاثةُ مراتبَ:

الأولى: اللَّعنُ بالوصفِ الأعمِّ؛ كقولك: لعنةُ الله على الكافرين بالنظرِ إلى الكفرِ، والمبتدعين بالنظرِ إلى البدعةِ، والفسقةِ بالنظرِ إلى الفسق.

الثانية: اللَّعنُ بأوصافٍ أخصَّ منه؛ كقولِهِ: لعنةُ الله على اليهودِ والنَّصارى

والمجوسِ، وعلى القدريّةِ والخوارجِ والروافضِ، أو على الزُّناةِ والظَّلَمةِ وآكلي الربا.

وكلُّ ذلك جائزٌ، ولكنْ في لَعْنِ أوصافِ المبتدعةِ خطراً؛ لأنَّ معرفةَ البدعةِ غامضٌ، ولم يَرِدْ فيه لفظٌ مأثورٌ، فينبغي أن يُمنَعَ منه العوامُّ؛ لأنَّ ذلك يستدعي المعارضةَ بمثلِهِ، ويثيرُ نِزاعاً بين الناس.

الثالثة: اللَّعنُ للشَّخصِ المُعيَّنِ؛ كقولِهِ: أبو جهلٍ لَعَنَهُ الله، فتجوزُ لعنتُهُ؛ لأنَّه قد ثبتَ موتُهُ على الكفر، وعُرِفَ ذلك شرعاً.

وأما الشخصُ المُعيَّنُ في زماننا؛ كقولِ القائل: زيدٌ لَعَنَهُ الله، وهو يهوديٌّ مثلاً فهذا فيه خطرٌ؛ لأنَّه رُبَّما يُسلِمُ فيموتُ مُقرَّباً عند الله، فكيف يُحكَمُ بكونِهِ ملعوناً؟

(ز: قال ابنُ حجرٍ الهيتميُّ رحمه الله: وهذا هو الأليقُ بقواعدِ أئمَّتنا؛ فإنَّهم صرَّحوا بأنَّه لا يجوزُ لعنُ شخصٍ بخصوصِهِ، إلا إن عُلِمَ موتُهُ على الكفرِ؛ كأبي جهلٍ وأبي لهبٍ، وأمَّا مَنْ لم يُعلَمْ منه ذلك فلا يجوزُ لَعْنُهُ[١]).

فإن قيل: يُلعَنُ لكونِهِ كافراً في الحال، كما يُقالُ للمسلم: «رحمه الله»، لكونِهِ مُسلِماً في الحال، وإن كان يُتصوَّرُ أن يرتد؟

فاعلم أنَّ معنى قولِنا: «رحمه الله» أي: ثَبَّتَهُ الله على الإسلامِ الذي هو سببُ الرحمة، ولا يُمكِنُ أن يقال: ثَبَّتَ الله الكافرَ على ما هو سَبَبُ اللَّعنة؛ لأنَّ هذا سؤالٌ للكفر، وهو في نفسه كفرٌ، بل الجائزُ أن يُقالَ: لَعَنَهُ اللهُ إن ماتَ على

(١) ينظر: (الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة) (٢/ ٦٣٧).

الكفر، ولا لَعَنَهُ اللهُ إن ماتَ على الإسلام، وذلك غيبٌ لا يدرى، ففيه خطرٌ، وليس في تركِ اللَّعنِ خطرٌ، وإذا عرفتَ هذا في الكافر فهو في زيدٍ الفاسقِ أو زيدٍ المُبتدِعِ أَوْلى.

[مطلب في بيان المزاح]

واعلم أنَّ المزاحَ مذمومٌ منهيٌّ عنه إلا قدراً يسيراً يُستثنى منه، قال رسول الله ﷺ: «لا تُمَارِ أَخَاكَ وَلا تُمَازِحْهُ»(١).

والمزاحُ يُورِثُ كثرةَ الضَّحك، وكثرةُ الضحكِ تميتُ القلب، وتُورِثُ الضَّغينةَ في بعض الأحوال، وتُسقِطُ المهابةَ والوقار، ولأنَّ الضَّحكَ يدلُّ على الغفلةِ عن الآخرة، قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً»(٢).

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنِّي لأَمْزَحُ وَلا أَقُولُ إلا حَقّاً»(٣)، إلا أنَّ مثلَهُ يقدرُ على أن يمزحَ ولا يقولَ إلا حقاً، وأما غيرُهُ إذا فُتِحَ له بابُ المزاح كان غرضُهُ أن يُضحِكَ الناسَ كيفما كان، وقد روي عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِها جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بها فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا»(٤).

وقال عمرُ رضي الله عنه: (مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هيبتُهُ، ومَنْ مَزَحَ استُخِفَّ به، ومَنْ

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥).

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٠).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٩٤٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٧١)، وقد جاء بنحوه عند البخاري (٦٤٧٧).

أكثَرَ مِنْ شيءٍ عُرِفَ به، ومَنْ كَثُرَ كلامُهُ كَثُرَ سقطُهُ، ومَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ قلَّ حياؤُهُ، ومَنْ قلَّ حياؤُهُ قلَّ ورعُهُ، ومَنْ قلَّ ورعُهُ مات قلبُهُ)[١].

والمحمودُ مِنَ الضَّحكِ التَّبسُّمُ الذي ينكشفُ فيه السِّنُّ، ولا يُسمَعُ له صوت، وكذلك كان ضحكُ رسولِ الله ﷺ[٢].

وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: أتدرونَ لِمَ سُمِّي المزاحُ مزاحاً؟ قالوا: لا، قال: لأنَّه زاح عن الحق[٣].

[مطلب في بيان السخرية والاستهزاء]

واعلم أنَّ السُّخريةَ والاستهزاءَ كلٌّ منهما محرَّمٌ مهما كان مؤذياً، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى السخرية: الاستحقارُ والاستهانةُ والتَّنبيهُ على العُيوبِ والنَّقائصِ على وجهٍ يُضحَكُ منه.

وقد يكونُ ذلك بالمحاكاةِ في الفعلِ والقولِ، وقد يكونُ بالإشارةِ والإيماء.

وقد قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، (الصَّغيرة: التَّبسُّمُ بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرةُ: القهقهةُ بذلك)[٤].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٢٢٨٠).

(٢) رواه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٩٩).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٩٢).

وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الضحكَ على الناسِ مِنْ جملةِ الذُّنوبِ والكبائر.

وقد قال ﷺ: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بذنبٍ لمْ يَمُتْ حتى يَعْمَلَهُ»[١].

[مطلب في بيان خُلْفِ الوعدِ]

واعلم أنَّ خلفَ الوعدِ مِنْ أماراتِ النِّفاق، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]).

وكان ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه لا يَعِدُ وعداً إلا ويقولُ: «إن شاء الله تعالى»[٢] وهو الأَوْلى، ثم إذا فُهِمَ مِنْ ذلك الجزمُ في الوعدِ فلا بدَّ مِنَ الوفاءِ إلا أن يتعذَّرَ، فإن كان عند الوعدِ عازماً على أن لا يَفِيَ فهذا هو النِّفاقُ.

قال أبو هريرةَ رضي الله عنه: قال النبيُّ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذا ائْتُمِنَ خَانَ»[٣].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنَافِقاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خَاصَمَ فَجَرَ»[٤].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٥).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٦٧).

(٣) رواه البخاري (٣٣).

(٤) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

وهذا إذا كان عزمُهُ على الخُلْفِ، وأما مَنْ عَزَمَ على الوفاءِ ثم حَدَثَ له عذرٌ مَنَعَهُ مِنَ الوفاء لم يكن منافقاً، وإنْ جرى عليه ما هو صورةُ النِّفاق.

وينبغي أن يحترزَ مِن صورةِ النِّفاقِ أيضاً كما يحترزُ مِنْ حقيقتِهِ، ولا ينبغي أن يجعلَ نفسَهُ معذوراً مِنْ غير ضرورةٍ حاضرةٍ، قال النبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الخُلْفُ أَنْ يَعِدَ الرَّجُلَ الرَّجُلَ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ»(١).

[مطلب في بيان الغيبةِ]

واعلم أنَّ الغيبةَ حرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ الآية [الحجرات: ١٢].

وقال أنسٌ: قال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ بِأَظَافِيرِهِمْ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَولاءِ؟ قَالَ: هَولاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(٢).

وقد روي عنه ﷺ: «الغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَى»(٣).

وهي ذكرُ الغيرِ بما يكرهَهُ؛ لقوله ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟ قالوا: الله ورسولُهُ أعلمُ، قال: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ، قيل: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(٤).

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٥٣٦٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٧٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (١٦٤).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٩).

والغيبةُ لا تقتصرُ على اللّسان، بل التّعريضُ فيه كالتّصريح، والفعلُ فيه كالقولِ، والإشارةُ والغمزُ والرّمزُ وكلُّ ما يُفهِمُ المقصودَ فهو داخلٌ في الغيبة، ويكون الغيبةُ كذلك بالكتابة؛ فإنَّ القلمَ أحدُ اللّسانين.

وأما قولُهُ: قال قومٌ كذا فليس بغيبةٍ، إنّما الغيبةُ التّعرُّضُ لشخصٍ مُعيَّنٍ إما حيٍ أو ميت.

وكان رسولُ الله ﷺ إذا كَرِهَ مِنْ إنسانٍ شيئاً قال: «ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا وكذا»[1]، فكان لا يُعيّن.

وأخبثُ أنواعِ الغيبةِ غيبةُ القُرّاءِ المرائين؛ فإنّهم يُفهِمونَ المقصودَ على صيغةِ أهلِ الصَّلاحِ؛ ليُظْهِروا مِنْ أنفسِهم التّعفُّفَ عن الغيبةِ، ويُفهمون المقصودَ، ولا يدرونَ بجهلِهم أنَّهم جَمَعُوا بين فاحشتَينِ الرّياءِ والغيبةِ.

وذلك مثلُ أن يُذكَر عنده إنسانٌ، فيقولُ: «الحمدُ لله الذي لم يَبْتَلِنا بالدُّخولِ على السُّلطان، والتّذلُّلِ في طلب الحطام»، أو يقول: «نعوذُ بالله مِنْ قلّةِ الحياء، نسألُ اللهَ أن يَعصِمَنا منه»، وإنّما قصدُهُ أن يُفهِمَ عيبَ الغيرِ، فيذكرَهُ بصيغةِ الدعاء.

وكذلك قد يُقدِّمُ مدحَ مَنْ يريدُ غيبتَهُ فيقول: «ما أحسنَ أحوالَ فلان، ما كانَ يُقصِّرُ في العبادات، ولكنْ قد اعتراه فتورٌ، وابتليَ بما يُبتَلَى به كُلُّنا، وهو قِلّةُ الصّبر»، فيذكرُ نفسَهُ، ومقصودُهُ أن يَذُمَّ غيرَهُ، فيكون مغتاباً ومرائياً ومُزكّياً نفسه، فيجمع بين ثلاثِ فواحش، وهو يظنُّ بجهلِهِ أنَّه مِنَ الصالحين المتعفّفين عن الغيبة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٨).

وكذلك يلعبُ الشيطانُ بأهلِ الجهلِ إذا اشتغلوا بالعبادةِ منْ غيرِ علمٍ، فإنَّه يُتبعِهُم ويُحبِطُ بمكائدِهِ عَمَلَهم، ويَضْحَكُ عليهم، ويسْخرُ منهم.

واعلم أنَّ المُستمِعَ للغيبةِ مُغتابٌ؛ لقولِهِ ﷺ: «المُسْتَمِعُ أَحَدُ المُغْتَابِين»[1]، ولا يخرجُ مِنْ إثمِ الغيبةِ إلا بأن يُنكِرَ بلسانِهِ، فإن خافَ فبقلبِهِ، وإن قدرَ على القيامِ أو قطعِ الكلامِ بكلامٍ آخرَ لَزِمَهُ، وإن قال بلسانِهِ: «اسكت»، وهو مُشْتَهٍ لذلك بقلبِهِ فذلك نفاقٌ.

ولا يكفي في ذلك أن يشيرَ باليدِ، أي: «اسكت»، أو يشيرَ بحاجبِهِ وجبينِهِ، فإنَّ ذلك استحقارٌ للمذكورِ، بل ينبغي أن يُعظِّمَ ذلك فيذبَّ عنه صريحاً إذا قَدَرَ؛ لقولِهِ ﷺ: «مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ أَذَلَّهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ»[2].

[مطلب في المواضع التي تباح فيها الغيبة]

واعلم أنَّ المرخِّصَ للغيبة سِتّةُ أمورٍ:

الأوَّلُ: التَّظلُّم مِنَ الظالم، قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال ﷺ: «إِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً»[3].

الثاني: الاستعانةُ على تغييرِ المنكرِ، ورَدِّ العاصي إلى منهج الصلاحِ، وإنما تكونُ الرخصةُ إذا كان القصدُ صحيحاً، فإن لم يكن فلا.

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/ ٣١٢٢).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الغيبة والنميمة (١٠٣)، ورواه الترمذي (١٩٣١) بلفظ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(٣) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).

الثالث: الاستفتاءُ، كما يقول للمفتي: قد ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي، فكيف طريقُ الخلاصِ؟

والأسلمُ التَّعريضُ، بأن يقولَ: ما تقولُ في رجلٍ ظَلَمَهُ أبوه أو زوجتُهُ؟ ولكنَّ التَّعيينَ مباحٌ بهذا القدرِ؛ لِمَا روي عن هند رضي الله عنها أنَّها قالت للنبيِّ ﷺ: إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخُذُ مِنْ غيرِ علمِهِ؟ فقال ﷺ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ»[1]، فَذَكَرَتِ الشُّحَّ والظُّلمَ لها ولولدِها، ولم يزجُرْها رسولُ الله ﷺ؛ إذ كان قصدُها الاستفتاءَ.

الرابع: تحذيرُ المسلمين مِنَ الشَّرِّ، فإذا رأيت مُتفقِّهاً يتردَّدُ إلى مُبتدِعٍ أو فاسقٍ، وخِفْتَ أن تَتَعَدَّ إليه بدعتُهُ فلك أن تَكْشِفَ له بدعتَهُ وفسقَهُ، مهما كان الباعثُ لك الخوفَ عليه مِنْ سرايةِ البدعةِ والفسقِ لا غير، وذلك موضعُ الغرور؛ إذ قد يكونُ الحسدُ هو الباعثَ، وقد يُلبِّسُ إبليسُ ذلك بإظهار الشفقةِ على الخلق.

وكذلك مَنِ اشترى مملوكاً وقد عرفْتَ المملوكَ بالسرقةِ أو بالفسقِ أو بعيبٍ آخرَ فلك أن تذكرَ ذلك؛ فإنَّ في سكوتِكَ ضررَ المشتري، وفي ذكرِكَ ضررَ العبد، والمشتري أولى بمراعاةِ جانبِهِ.

وكذلك المزكِّي إذا سُئِلَ عن الشاهدِ فله الطَّعْنُ فيه، وكذلك المستشارُ في التزويجِ وإيداعِ الأمانةِ له أن يَذْكُرَ ما يعرفه على قصد النُّصحِ للمستشير، لا على قصدِ الوقيعة.

الخامس: أن يكونَ الإنسانُ معروفاً بلقبٍ، كالأعمى والأعرج، فلا إثمَ

---

(١) رواه البخاري (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤).

على مَنْ يقولُ: روى أبو الزّنادِ عن الأعرجِ، وسليمانْ عن الأعمش، وما يجري مجراه؛ فقد فَعَلَ العلماءُ ذلك لضرورةِ التعريف، ولو أمكنه التّعريفُ بعبارةٍ أخرى فهو أولى، ولذلك يُقال للأعمى: البصير، عدولاً عن اسمِ النّقصِ.

السادس: أن يكونَ مُجاهِراً بالفسقِ، كالمخنَّثِ والمجاهرِ بشربِ الخمرِ ومصادرةِ الناسِ.

قال الحسنُ رضي الله عنه: (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهم: صاحبُ الهوى، والفاسقُ المُعلِنُ بفسقه، والإمامُ الجائر)[1].

وهؤلاء الثلاثةُ يتظاهرون به، وربَّما يتفاخرون به، فكيفَ يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهارَهُ؟ لكنْ لو ذَكَرَهُم بغير ما يتظاهرون به أَثِمَ.

[مطلب في بيان كفارة الغيبة]

واعلم أنَّ الواجبَ على المغتابِ أن يندمَ ويتوبَ ويتأسَّفَ على ما فعلَ؛ ليخرجَ به مِنْ حقِّ الله تعالى، ثم يَستحِلَّ المغتابَ ليُحلَّهُ فيخرجَ مِنْ مظلمتِهِ، قال ﷺ: «مَنْ كانَتْ لأخيهِ عندَهُ مَظْلَمةٌ في عِرْضٍ أو مالٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه مِنْ قبلِ أن يأتيَ يومٌ ليسَ هناكَ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ، إنَّما يُؤخَذُ مِنْ حَسَناتِهِ، فإن لم يَكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ صاحبِهِ فَزِيدَتْ على سَيِّئاتِهِ»[2].

ومَنِ استحلَّ وهو غيرُ نادمٍ ليُظهِرَ مِنْ نفسِهِ الورعَ فيكون قد قارَفَ معصيةً أخرى.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٩).

وقال الحسنُ رحمه الله: يكفيه الاستغفارُ دونَ الاستحلال.

وإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يُكثِرَ الاستغفارَ له والدُّعاء.

فإن قيل: ما معنى قولِ رسولِ الله ﷺ: «ينبغي أن يستحلَّهُ»، وتحليلُ ما حرَّمَهُ الله تعالى غيرُ ممكنٍ؟

فنقولُ: المرادُ به العفوُ عن المظلمةِ، لا أن ينقلبَ الحرامُ حلالاً.

[مطلب في بيان النميمة]

واعلم أنَّ النَّميمةَ حرامٌ، قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١ - ١٣].

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «الزَّنيمُ: ولدُ الزنى الذي لا يكتمُ الحديثَ»، وأشار به إلى أنَّ كلَّ مَنْ لم يكتمِ الحديثَ ومشى بالنَّميمة أنَّه ولدُ زناً؛ استنباطاً مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، والزَّنيم: هو الدَّعِيُّ.

وقال الله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠].

قيل: كانت امرأةُ لوطٍ تُخبِرُ بالضِّيفانِ، وامرأةُ نوحٍ كانت تُخبِرُ أنَّه مجنونٌ.

وقال ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ»(١).

ويُقالُ: إنَّ ثلثَ عذابِ القبرِ مِنَ النَّميمةِ.

واعلم أنَّ اسمَ النَّميمةِ إنَّما يُطلَقُ في الأكثرِ على مَنْ يَنُمُّ قولَ الغيرِ إلى

---

(١) رواه مسلم (١٠٥).

المنقولِ فيه، كما تقولُ: فلانٌ كان يتكلَّمُ فيك بكذا وكذا، وليستْ النّميمةُ مختصّةً به، بل حدُّها كشفُ ما يُكرَهُ كشفُهُ، سواءٌ كَرِهَهُ المنقولُ عنه أو المنقولُ إليه، أو كَرِهَهُ ثالثٌ، وسواءٌ كان الكشفُ بالقولِ أو بالكتابةِ أو بالرّمزِ أو بالإيماءِ، وسواءٌ كان المنقولُ مِنَ الأعمالِ أو مِنَ الأقوالِ، وسواءٌ كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقولِ عنه أو لم يكن، بل حقيقةُ النَّميمةِ: إفشاءُ السِّرِّ، وهتْكُ السّتْرِ عمّا يُكرَهُ كشفُهُ، بل كلُّ ما رآه الإنسانُ مِنْ أحوالِ الناسِ ممّا يُكرَهُ فينبغي أن يسكتَ عنه إلا ما في حكايتِهِ فائدةٌ لِمسلمٍ أو دفعٌ لمعصيةٍ.

وقال بعضُهم: النميمةُ مبنيّةٌ على الكذبِ والحسدِ والنّفاقِ.

* * *

الكتاب الخامس من ربع المهلكات
في ذم الغضب والحقد والحسد

(ثلاثةٌ مِنْ أخلاقِ الأولياء: سلامةُ الصَّدرِ، وسخاوةُ النَّفسِ، وحسنُ الظَّنِّ بعباد الله)(١)

[فصلٌ في ذم الغضب]

رُوِيَ عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما أنه سألَ رسولَ الله ﷺ: ماذا يُنقِذُني مِنْ غضبِ الله؟ قال: «لا تَغْضَبْ»(٢).

وعن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «لَيسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»(٣).

ورأى عمرُ رضي الله عنه سكرانَ، فأراد أن يأخذَهُ ويُعزِّرَهُ، فَشَتَمَهُ السَّكرانُ، فَرَجَعَ عمرُ، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين؛ لمّا شَتَمَكَ تركتَهُ؟ قال: لأنَّه أغضبني، ولو عَزَّرْتُهُ لكانَ ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحبَّ أن أضربَ مُسلِماً حَمِيّةً لنفسي.

وقال عمرُ بنُ عبد العزيزِ رحمه الله لرجلٍ أغضبَهُ: لولا أنَّكَ أغضبتني لعاقبتُكَ.

---

(١) الحكمة (٤٢) من الحكم العطائية الصغرى.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢/ ١٧٥)، والبيهقي في الشعب (٧٩٢٩).

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

[درجات الناس في الغضب]

واعلم أنَّ الناسَ في قوةِ الغضبِ على درجاتٍ ثلاثٍ في أول الفطرةِ مِنَ التفريطِ والإفراطِ والاعتدالِ:

أما التفريطُ: فبفقدِ هذه القوّةِ أو ضعفِها، وذلك مذمومٌ، وهو الذي يُقالُ فيه: «إنَّه لا حميّةَ له»، ولذل قال الشَّافعيُّ رضي الله عنه: (مَنِ استُغْضِبَ ولم يَغْضَبْ فهو حمارٌ، ومَنِ استُرضِيَ ولم يَرْضَ فهو شيطانٌ)[1].

وقد وَصَفَ الله تعالى أصحابَ النَّبيِّ ﷺ بالشِّدّةِ والحميّةِ فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، مَدَحَهُم لأجلِ وضعِهم الشَّيءَ في محلِّه.

وقال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وإنَّما الغلظةُ والشِّدّةُ مِنْ آثارِ قوةِ الحميّةِ، وهو الغضبُ.

وقال ﷺ: «خيرُ أُمَّتي أَحِدَّاؤُها»[2]، يعني: في الدِّين.

وأما الإفراطُ: فهو أن تغلبَ هذه الصِّفةُ حتى تُخرِجَ عن سياسةِ العقلِ والدِّينِ وطاعتِهِ، ولا يبقى للمرءِ معها بصيرةٌ ولا نظرٌ ولا فكرٌ ولا اختيارٌ، بل يصيرُ في صورةِ المضطرِّ.

فالمحمودُ حفظُهُ على حدِّ الاعتدالِ، فينبعثُ حيث تجبُ الحميّةُ، وينطفئُ حيث يَحْسُنُ الحِلمُ، وهو الوسطُ الذي وَصَفَهُ رسولُ الله ﷺ حيث قال: «خَيْرُ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٤٣).

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١٢٧٧)، والبيهقي في الشعب (٧٩٤٨).

الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»(١)، فيقفُ على الوسطِ بين الطرفينِ، فهو الصِّراطُ المستقيم، وهو أرقُّ مِنَ الشعرةِ وأحدُّ مِنَ السيفِ.

[القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق]

اعلم أنَّ الغضبَ إذا لَزِمَ كظمُهُ وذلك بكفِّه وحبسِهِ لعجزٍ عن التَّشفِّي بالمغضوبِ عليه في الحالِ رَجَعَ إلى الباطنِ واحتقنَ فيه، فصار حقداً.

ومعنى الحقد: أن يلزمَ قلبَهُ استثقالُهُ والبغضةُ له والنِّفارُ عنه، وأن يدومَ ذلك ويبقى، فالحقدُ ثمرةُ الغضبِ.

[مطلب في نتائج الحقد]

والحقدُ يُثمِرُ ثمانيةَ أمورٍ:

الأول: الحسدُ، وهو أن يَحمِلَكَ الحقدُ على أن تتمنَّى زوالَ النِّعمةِ عنه، فتغتمَّ بنعمةٍ إن أصابَها، وتُسرَّ بمصيبةٍ إن نَزَلَتْ به، وهذا مِنْ فعلِ المنافقين.

الثاني: أن تزيدَ على إضمارِ الحسدِ في الباطن، فتشمَتَ بما أصابَهُ مِنَ البلاء.

الثالث: أن تهجرَهُ وتصارِمَهُ وتنقطعَ عنه وإنْ طَلَبَكَ وأقبلَ عليك.

الرابع: وهو أن تُعرِضَ عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلَّم فيه بما لا يَحِلُّ مِنْ كذبٍ وغيبةٍ وإفشاءِ سِرٍّ وهتكِ سترٍ وغيرِهِ.

---

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/ ٣١٧٠).

السادس: أن تُحاكِيَهُ استهزاءً به وسُخريةً منه.

السابع: إيذاؤه بالضَّربِ وما يُؤلِمُ بَدَنَهُ.

الثامن: أن تَمْنَعَهُ حقَّه مِنْ قضاءِ دينٍ، أو صلةِ رحمٍ، أو ردِّ مظلمةٍ، وكلُّ ذلك حرامٌ.

[أحوال المحقود]

وأما المحقودُ فله ثلاثةُ أحوالٍ عند القدرة:

أحدُها: أن يستوفيَ حقَّه الذي يستحقُّهُ مِنْ غير زيادةٍ أو نقصانٍ، وهو العدل.

الثاني: أن يُحسِنَ إليه بالعفوِ والصِّلةِ، وذلك هو الفضلُ.

الثالث: أن يَظْلِمَهُ بما لا يَستحِقُّهُ، وذلك هو الجَوْرُ، وهو اختيارُ الأراذلِ، والثاني هو اختيارُ الصِّدِّيقين، والأوَّلُ هو منتهى درجاتِ الصَّالحين.

ولنذكر الآن فضيلةَ العفوِ والإحسانِ:

قال ﷺ: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[1].

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله مُنْتَصِراً مِنْ مَظْلَمَةٍ ظَلَمَهَا قَطُّ مَا لَمْ يُنْتَهَكْ مِنْ مَحَارِمِ الله، فَإِذَا انْتُهِكَ مِنْ مَحَارِمِ الله شَيءٌ كَانَ أَشَدَّهُمْ فِي ذلِكَ غَضَباً، وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) رواه الترمذي في الشمائل المحمدية (٣٤٩).

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدْ انْتَصَرَ»[١].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا بَعَثَ الله الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ: يَا مَعْشَرَ المُوَحِّدِينَ إِنَّ الله قَدْ عَفَا عَنْكُمْ فَلْيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ»[٢].

[فصل في ذم الحسد]

قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ»[٣].

وقال زكريّا عليه السلام: (يقول الله تعالى: الحاسدُ عدوٌّ لنعمتي، مُتَسَخِّطٌ لقضائي، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمتُ بين عبادي)[٤].

وحدُّ الحسدِ: كراهةُ النِّعمةِ، وحُبُّ زوالِها عن المُنعَمِ عليه.

والغِبطةُ: أن لا تُحِبَّ زوالَها، ولا تكرهَ وجودَها ودوامَها، ولكنْ تشتهي لنفسِكَ مثلَها.

فالأوَّلُ حرامٌ إلا نعمةً أصابَها فاجرٌ أو كافرٌ يستعينُ بها على تهييجِ الفتنةِ، وإفسادِ ذاتِ البَينِ، وإيذاءِ الخلق، فلا يضرُّكَ كراهتُكَ لها، ومحبَّتُكَ لزوالِها؛ فإنَّك لا تُحِبُّ زوالَها مِنْ حيث إنَّها نعمةٌ، بل مِنْ حيثُ هي آلةُ الفسادِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٥٢).

(٢) رواه الطبراني (١٣٥٨).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠٣).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٦٢١٣).

[أحوال الحاسد]

وللحاسدِ في الحسد ثلاثةُ أحوالٍ:

أحدُها: أن يُحِبَّ مساءةَ المحسودين بطبعِهِ، ولكنْ يكرهُ حُبَّهُ لذلك وميلَ قلبِهِ إليه بعقله، ويَوَدُّ لو كانت له حيلةٌ في إزالة ذلك الميلِ منه، وهذا معفوٌّ عنه قطعاً؛ لأنَّ أكثرَهُ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ.

الثانية: أن يُحِبَّ ذلك، ويُظهِرَ الفرحَ بمساءتِهِ وغَمِّهِ، إما بلسانِهِ وذلك بالقدحِ والشَّتمِ ونحوهما، أو بجوارحه، فهذا هو الحسدُ المحظورُ قطعاً.

الثالثة: وهي بينَ الطرفين، أن يحسدَ بالقلبِ مِنْ غيرِ مقتِهِ لنفسِهِ على حسدِهِ، ومِنْ غيرِ إنكارٍ منه على قلبِهِ، ولكنْ يحفظُ جوارحَهُ عن طاعةِ الحسدِ في مقتضاها، وهذا محلُّ الخلافِ، فمنهم مَنْ ذَهَبَ إلى أنَّه لا يأثمُ، ومنهم مَنْ قال بإثمِهِ، والظاهرُ أنَّه لا يخلو عن إثمٍ بقدرِ قوّةِ ذلك الحبِّ وضعفِهِ.

واعلم أنَّ المحاسدةَ لا تكونُ بين علماءِ الآخرةِ؛ لأنَّ مقصدَهم تحصيلُ معرفةِ الله ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ، وعجائبِ ملكوتِ السماوات والأرض، وهي بحرٌ واسعٌ لا ضيقَ فيه، فإنَّ أصلَ العداوةِ المزاحمةُ على غرضٍ واحدٍ، ولذلك ترى العابدَ يحسدُ العابدَ دونَ العالم، والعالِمَ يحسدُ العالِمَ دونَ العابد، والتاجرَ يحسدُ التاجرَ، والشُّجاعَ يحسدُ الشجاعَ ولا يحسدُ العالِمَ؛ لأنَّ مقصدَهُ أن يُذكَرَ بالشَّجاعةِ، ويشتهرَ بها، وينفردَ بهذه الخصلة، ولا يُزاحِمُهُ العالِمُ على هذا الغرض.

ومنشأ جميعِ ذلك حبُّ الدُّنيا؛ فإنَّ الدُّنيا هي التي تضيقُ على المتزاحمين، أما الآخرةُ فلا ضيقَ فيها، فَمَنْ عوَّدَ نفسَهُ الفكرَ في جلالِ الله وعظمتِهِ وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ صار ذلك ألذَّ عنده مِنْ كلِّ نعيمٍ، ولم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكونُ في قلبِهِ حسدٌ لأحدٍ مِنَ الخلق؛ لأنَّ غيرَهُ لو عَرَفَ مثلَ معرفتِهِ لم ينقصْ مِنْ لذَّتِهِ، بل زادت لذَّتُهُ بمؤانسة هؤلاء.

نعم، إذا قَصَدَ العلماءُ بالعلمِ المالَ والجاهَ تحاسدوا لا محالة؛ لأنَّ المالَ أعيانٌ وأجسامٌ إذا وَقَعَتْ في يدِ واحدٍ خَلَتْ عنها يدُ الآخر، ومعنى الجاهِ مِلْكُ القلوب، ومهما امتلأ قلبُ شخصٍ بتعظيمِ عالِمٍ انصرفَ عن تعظيمِ الآخَرِ، أو نَقَصَ عنه لا محالة؛ فيكون سبباً للمحاسدة.

فعليكَ إن كنتَ بصيراً، وعلى نفسِكَ مُشفِقاً، أن تطلبَ نعيماً لا زحمةَ فيه، ولذَّةً لا مُكدِّرَ لها، ولا يُوجَدُ ذلك في الدُّنيا إلا في معرفةِ الله ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ وعجائبِ ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ.

فإن كنتَ لا تشتاقُ إلى معرفةِ الله تعالى، ولم تَجِدْ لذَّتها، وفَتَرَ عنها رأيُكَ، وضَعُفَتْ فيها رغبتُكَ فأنتَ في ذلك معذورٌ، فالعِنِّينُ لا يَشتاقُ إلى لذَّةِ الوِقاع، والصَّبيُّ لا يشتاقُ إلى لذَّةِ الملك؛ فإنَّ هذه لذاتٌ يختصُّ بإدراكِها الرِّجالُ دونَ الصِّبيان والمخنَّثين، فكذلك لذَّةُ المعرفةِ يختصُّ بإدراكِها الرِّجالُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]؛ لأنَّ الشَّوقَ بعد الذَّوق، ومَنْ لم يذق لم يَعْرِفْ، ومَنْ لم يَعْرِفْ لم يَشْتَقْ، ومَنْ لم يَشْتَقْ لم يَطْلُبْ، ومَنْ لم يَطْلُبْ لم يُدرِكْ، ومَنْ لم يُدرِكْ بَقِيَ مع المحرومين في أسفل السافلين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

الكتاب السادس من ربع المهلكات
في ذم الدنيا
(حقيقة بلاي ميل قلبك إلى سواي)[١]

(ش: قيل: «الدُّنيا حرامٌ على أهل الآخرة، والآخرةُ حرامٌ على أهلِ الدنيا، والدُّنيا والآخرةُ حرامٌ على أهل الله».

فإن قال قائل: فما الدليل على أنَّ المقربين لا يلتفتون إلى جنة ولا نار، بل همُّهم الوحيد هو المولى عز وجل؟

فالجواب ـ وبالله التوفيق: أن الله تعالى قال في حقِّ المقربين: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[٢].

---

(١) الحكمة (١٢) من الحكم العطائية الصغرى.

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

وأعظمُ النعيمِ النظرُ إلى وجه الله الكريم في جنات النعيم، يقول ابن الأثير: «رؤيةُ الله هي الغايةُ القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة».

وقال ﷺ قال: «إذا دخلَ أَهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ نادى مُنادٍ: إنَّ لَكُم عندَ اللهِ موعدًا، قالوا: أَلَم يبيِّضْ وجوهَنا وينجِّنا منَ النَّارِ ويدخِلْنا الجنَّةَ؟ قالوا: بلى، فيُكْشفُ الحجابُ، قالَ: فواللهِ ما أعطاهُم شيئًا أحبَّ إليهِم منَ النَّظرِ إليهِ»[١].

اعلم أنَّه إذا عَظُمَتْ غوائلُ الدُّنيا وشرورُها فلا بد أوَّلاً مِنْ معرفةِ حقيقةِ الدنيا ما هي؟ وما الحكمةُ في خَلْقِها مع عداوتها؟ وما مداخِلُ غرورِها وشرورِها؟ فإنَّ مَنْ لا يَعْرِفُ الشَّرَّ لا يَتَّقيه، ويُوشِكُ أن يقعَ فيه.

واعلم أنَّ أكثرَ القرآنِ مُشتمِلٌ على ذمِّ الدنيا، وصَرْفِ الخلقِ عنها، ودعوتِهِم إلى الآخرة، بل هو مقصودُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، ولم يُبعَثُوا إلا لذلك، فلا حاجةَ إلى الاستشهادِ بآياتِ القرآنِ لظهورِها، وإنَّما نُوردُ بعضَ الأخبارِ الواردةِ فيها.

فقد رُوِيَ أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ على شاةٍ ميتةٍ فقال: «أترونَ هذه الشاةَ هيِّنةً على أهلِها؟» قالوا: مِنْ هوانِها أَلْقَوْها، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ للدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هذِهِ الشَّاةِ عَلَى أَهْلِها وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كَافِراً مِنْهَا شُرْبَةَ مَاءٍ»[٢].

وقال ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجَنَّةُ الكافِرِ»[٣].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٥٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وابن ماجه (٤١١١).

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٦).

وقال ﷺ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلاَّ ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»(١).

وقال ﷺ: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، ولها يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ»(٢).

(م: وقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»(٣)).

ورُوِيَ في الأثر: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»(٤).

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (إنَّ اللهَ جعلَ الدنيا ثلاثةَ أجزاءٍ: جزءٌ للمؤمنِ، وجزءٌ للمنافق، وجزءٌ للكافر، فالمؤمِنُ يتزوَّدُ، والمنافِقُ يتزيَّنُ، والكافرُ يتمتَّعُ)(٥).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (مِنْ هوانِ الدُّنيا على الله أنَّهُ لا يُعصَى إلا فيها، ولا يُنالُ ما عندَهُ إلا بتركِها).

وقيل لإبراهيمَ بنِ أدهمَ رضي الله عنه: كيف أنت؟ فقال:

نُرَقِّعُ دُنْيانا بِتَمْزِيقِ دِينِنا ... فَلا دِينُنا يَبْقَى ولا مَا نُرَقِّعُ
فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ ... وجَادَ بِدُنياهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ

وقد رُوِيَ أنَّ الله سبحانه وتعالى قال لموسى عليه السلام: (إذا رأيتَ الغِنى

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجه (٤١١٢).
(٢) رواه أحمد في المسند (٦/ ٧١).
(٣) رواه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٧).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٩).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٨/ ٩٣).

مُقبِلاً فَقُلْ: ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ، وإذا رأيتَ الفَقْرَ مُقبِلاً فَقُلْ: مَرْحَباً بِشِعارِ الصَّالحين)[1].

ولما ذُكِرَتِ الدُّنيا عندَ الحسنِ البصريِّ رحمه الله أنشدَ وقال:

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائلٍ　　إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ

وقال عيسى عليه السلام: (بحقٍّ أقولُ لكم، كما ينظر المريضُ إلى الطعامِ فلا يلتذُّ مِنْ شِدَّةِ الوجع، كذلك صاحبُ الدُّنيا لا يلتذُّ بالعبادةِ ولا يجدُ حلاوتَها مع ما يجدُ مِنْ حُبِّ الدُّنيا)[2].

وقال عليه السلام: (الدُّنيا قَنْطَرةٌ، فاعْبُرُوها ولا تَعْمُرُوها)[3].

(ش: قال الشيخ علوان الحموي رضي الله عنه في ذم الدنيا:

تَبًّا لِدَارٍ بِهَا الْأَوْصَابُ قَاطِنَةٌ　　وَالْخَلْقُ قَاطِبَةً فِيهَا إِلَى الْعَدَمِ
فَلَا تَرَى أَبَدًا فِي ظِلِّ سَاحَتِهَا　　إِلَّا هُمُومًا وَأَنْوَاعًا مِنَ الْغَمَمِ
دَارٌ بِهَا تُرْفَعُ الْفُسَّاقُ مَرْتَبَةً　　وَيُخْفَضُ الْمَرْءُ مَعْ تَقْوَاهُ وَالْكَرَمِ

وقال الإمام الشعراني قدس سره: وقد كان وهبُ بنُ مُنَبِّه ـ رحمه الله ـ يقولُ لأصحابه: تَعالَوا بنا نتوبُ مِنَ الذنبِ الذي تَرَكَ الناسُ التوبةَ منه، فيقولون: وما هو؟ فيقول: حُبُّ الدنيا، وسوفَ يُحِبُّ الدُّنيا رجالٌ حتى يعبدوها ويعبدوا أهلَها.

وكان الحسنُ البصريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مَنْ لم يَجْعَلْ حُبَّ الدُّنيا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (٥٠).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٩٠).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٣).

مِنَ الكبائرِ فقد أخطأَ الطَّريقَ، وذلك لأنَّ الكفرَ ينبني على الرغبة في الدنيا.

وكان يقول: مَنْ وَسَّعَ الله عليه في الدُّنيا، ولم يَخَفْ أن يكونَ ذلك مكراً به، فقد أَمِنَ مَكْرَ اللهِ تعالى[(١)].

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: القلبُ إذا كان فيه حُبُّ الدُّنيا لم تَنْجَحْ فيه الموعظة، وبقدرِ ما تحزنُ للدّنيا يخرجُ هَمُّ الآخرةِ مِنْ قلبِكَ، وبقدرِ ما تحزنُ للآخرة يخرجُ هَمُّ الدُّنيا مِنْ قلبك، ولذلك يروى: «ما زُوِيَتِ الدُّنيا عَنْ أحدٍ إلّا كانَ خيرًا له»[(٢)].

حكاية: قال الشيخ الأكبر قدس سره الأنور: جاء رجلٌ إلى الشيخِ أبي مدين التلمساني رضي الله عنه فقال: يا سيِّدَنا، إنَّ الشيطانَ يُؤذيني، فعسى أن تَدْفَعَهُ عني، فقال له الشيخُ: قد شكى إليَّ إبليسُ منكَ قبلك، فقال لي: يا شيخُ، تَعْلَمُ أنَّ الدُّنيا خَلَقَها لي ربِّي وجَعَلَها حِبالي وشركي ومَلَّكَنيها، فجاء فلانٌ فتَعَدَّى عليَّ وأخذ لي منها، فعَدَوْتُ وراءَهُ أطلبُ حَقِّي منه، وأنا لا أتركُ حقِّي منه، وواللهِ ما قصدتُ منهم إنساناً، ولا طَلَبْتُ منهم أحداً، ولا بَرِحْتُ مِنْ مكاني أحفظُ عليَّ بستاني ومالي، فَمَنْ أَخَذَ لي منه شيئاً تَبِعْتُهُ أطلبُ حقِّي، وأنا لا أتركُ منه حقِّي، وأسلبُه ما أقدرُ عليه مِنْ دينِهِ، أو يَرُدُّ إليَّ متاعي كما فَعَلَ الزُّهادُ والموفَّقون، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥]، فما لي حُجّةٌ ولا حقٌّ، فإنَّهم تركوا مالي وهذا تعدَّى عليَّ وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فقال الشيخ

(١) ينظر: (تنبيه المغترين) (١٢٠- ١٢٦).
(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٦٨).

للرجل السائل: فَمَنِ الظالِمُ؟ فقال الرجلُ: أنا، فقال له الشيخُ: ردَّ إليه دُنياه يَرُدُّ إليك آخرتَكَ)[١].

واعلم أنَّ سالكَ طريقِ الآخرةِ هو المواظبُ على ثلاثة أشياء، وهي الذِّكرُ والفكرُ والعملُ الذي يَفْطِمُهُ عن شهواتِ الدُّنيا ويُبغِّضُ إليه ملاذَّها، وكلُّ ذلك لا يمكنُ إلا بصحةِ البدنِ، وصِحةُ البدنِ لا تُنالُ إلا بقوتٍ ومَلْبَسٍ ومَسكَنٍ، ويحتاجُ كلُّ واحدٍ إلى أسباب، فالقدرُ الذي لا بُدَّ منه مِنْ هذه الثلاثةِ إذا أَخَذَهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا للآخرةِ لم يكن مِنْ أبناءِ الدنيا، وكانتِ الدُّنيا في حقِّهِ مزرعةً للآخرة، قال النبي ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلالاً مُكَاثِراً مُفَاخِراً لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ، وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتِعْفافاً عَنِ المَسْأَلَةِ وَصِيانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»[٢].

وإذا أخذَ ذلك لحظِّ النَّفسِ وبقصدِ التَّنعُّمِ صار مِنْ أبناءِ الدنيا، إلا أنَّ الرَّغبةَ في حظوظِ الدنيا تنقسمُ إلى ما يُعرِّضُ صاحبَهُ لعذابِ الآخرةِ، ويُسمَّى ذلك حراماً، وإلى ما يحولُ بينه وبين الدرجاتِ العلى، ويُعرِّضُهُ لطولِ الحساب، ويُسمَّى ذلك حلالاً، فَمَنْ نُوقِشَ في الحسابِ عُذِّبَ.

(ش: ولذا حذَّرَ الناصحون من التوغل في الدنيا زيادةً على قدر الضرورة، بل تيقَّنوا أن الدنيا مهما كثُرت فإنَّ مصيرَها إلى الزوال، كما قال قائلهم:

هَبِ الدُّنيا تُساقُ إِلَيْكَ طُرّاً ... أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انتقالِ

---

(١) ينظر: (روح القدس في محاسبة النفس) (٤٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٢٦٢٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٩)، والبيهقي في الشعب (٩٨٩٠).

وَمَــا دُنْيَــاكَ إِلَّا مِثْــلُ فَــيءٍ أَظَلَّــكَ ثُــمَّ آذَنَ بِالــزَّوَالِ

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدس سره: «خَصلةٌ واحدةٌ إذا فَعَلَها العبدُ صار إمامَ النّاسِ مِنْ أهلِ عصرِه، وهي: الإعراضُ عن الدُّنيا، واحتمالُ الأذى مِنْ أهلِها»[1].

وقال رجلٌ لسيدي أبي الحسن الشاذلي قدس سره: بِمَ فُقْتَ النّاسَ، ولم أَرَ لَكَ كبيرَ عَمَلٍ؟ فقال: بواحدةٍ افْتَرَضَها اللهُ على رسولِهِ الإعراضُ عنكم وعن دُنياكم، قال تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النجم: ٢٩][2].

فلما تحقَّقَ العارفون حقيقةَ الدنيا رموها وأقبلوا على الله تعالى كما قيل:

إِنَّ للهِ عِبَــاداً فُطَنَــا طَلَّقُــوا الدُّنْيَــا وَخَافُــوا الفِتَنَا
نَظَــرُوا فيهــا فَلَمَّــا عَلِمُــوا أَنَّهــا لَيْسَــتْ لِحَــيٍّ وَطَنَــا
جَعَلُوهَــا لُجَّــةً وَاتَّخَــذوا صالِــحَ الأعمالِ فيها سُــفُنَا)

واعلم أنَّ الفكرَ والذِّكرَ والكَفَّ عن الشهواتِ إذا لم يكن عليها باعثٌ سوى أمرِ الله واليومِ الآخرِ فهي لله وليست مِنَ الدُّنيا، وإن كان الغرضُ مِنَ الفكرِ طَلَبَ العلمِ للتَّشرُّفِ به وطلبِ القبولِ بين الخلقِ بإظهارِ المعرفة، أو كان الغرضُ مِنْ تركِ الشَّهوةِ حفظَ المالِ أو الحميةَ لِصحّةِ البدنِ والاشتهارِ بالزهدِ فقد صار هذا مِنَ الدنيا بالمعنى، وإن كان يظنُّ بصورتِهِ أنَّه لله.

(١) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٣١).
(٢) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٢٧).

والأكلُ والنِّكاحُ وكلُّ ما يرتبطُ به بقاؤُهُ وبقاءُ ولدِهِ إن كان القصدُ حظَّ النَّفسِ فهو مِنَ الدنيا، وإن كان القصدُ الاستعانةَ به على التقوى فهو لله بمعناه، وإن كانت صورتُهُ صورةَ الدُّنيا.

(ش: فكلُّ ما وَصَلَكَ بالله فهو محمودٌ ولو كان ظاهرُهُ دنيا، وكلُّ ما شَغَلك عن الله فهو مذمومٌ ولو كان ظاهرُهُ آخرة، وحيثما وَرَدَ ذَمُّ الدُّنيا فالمرادُ به ما شَغَلَكَ عن الله، وليس المرادُ الذَّمَّ مطلقاً كما قد يُتوهَّم.

فليس العملُ في الدنيا هو المذمومَ، فقد كان سيِّدُنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ ﵁ مِنْ أغنياءِ الصَّحابةِ، ولكنْ لم تَمْنَعْهُ الدُّنيا مِنَ القيامِ بحقوقِ الله وحقوقِ عبادِ الله، فلقد تصدَّقَ بشطرِ مالِهِ.

فالدُّنيا المذمومةُ هي الشَّاغلة عن الله، وعلى ذلك تُحمَلُ أحوالُ الصَّحابةِ والسَّلفِ الصّالح، فكلُّ ما دخلوا فيه مِنْ أسبابِ الدُّنيا فهم بذلك إلى الله متقرِّبون، وإلى رضاه منتسبون، لا قاصدون بذلك الدُّنيا وزينتَها، والصَّحابةُ هم القدوةُ والنَّموذجُ الصَّحيحُ في فهم الإسلام، وكانوا يأخذونَ بالأسبابِ في الكسبِ مِنْ تجارةٍ وزراعةٍ وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧].

قال سفيان بن عيينة: «ليس مِنْ حُبِّ الدُّنيا المذمومِ أن تطلُبَ منها ما يُصلِحُك».

وعن سعيد بن المسيّب: «لا خيرَ فيمن لا يطلب الدّنيا يقضي بها دَينَه ويصون بها عرضَه»، ولذلك قال سيِّدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

«نحنُ إذا صَحِبْنا تاجرًا ما نقولُ له: أُتْرُكْ تجارتَكَ وتعالَ، أو صاحبَ صنعةٍ ما نقولُ له: اتركْ صَنعتَكَ وتعالَ، أو طالبَ علمٍ لا نقولُ له: اترك طلبَكَ وتعالَ، ولكنْ نُقِرُّ كلَّ واحدٍ فيما أقامَهُ الله فيه، وما قَسَمَ له على أيدينا فهو واصلٌ إليه، فما قال ﷺ لتاجرٍ: أُتْرُكْ تجارتَكَ، ولا لذي صنعةٍ: أُتْرُكْ صنعتَكَ، بل أَقَرَّهُمْ على أسبابـهم، وأَمَرَهم بتقوى الله فيها»[١]).

(م: والحاصلُ كما قال سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه: «الدُّنيا: عبارةٌ عمّا يَشْغَلُ عن الله تعالى»[٢]).

واعلم أنَّ قدرَ الضرورةِ ما لا بُدَّ منه مِنْ قوتٍ ومسكنٍ وملبسٍ هو لله إن قُصِدَ به وجهُ الله، والاستكثارُ منه تَنَعُّمٌ وهو لغير الله، وبينهما وسائطُ متشابهةٌ، ومَنْ حام حولَ الحمى يُوشِكُ أن يقعَ فيه، والحزمُ في الحذرِ مِنَ الشُّبهات، والتَّقرُّبِ مِنْ حدِّ الضَّرورةِ ما أمكنَ؛ اقتداءً بالأنبياء والأولياء.

واعلم أنَّ أكثرَ ما شَغَلَ الناسَ عن الله هو البطنُ؛ فإنَّ القوتَ ضروريٌّ، ومع ذلك فلا ينبغي أن يشتغلَ المريدُ الصادقُ بتعهُّدِ البدنِ إلا بقدر الضرورة؛ لأنَّ مَنْ كانت هِمَّتُهُ ما يدخلُ في بطنه فقيمتُهُ ما يخرجُ منها.

(م: تنبيه: جميعُ ما سَبَقَ مِنْ ذمِّ الدُّنيا ليس على إطلاقِهِ، بل للدُّنيا ثلاثةُ أوجهٍ كما بين ذلك المحقِّقُ الكبيرُ الشيخُ سعيدٌ النورسيُّ في رسائله المشهورة:

الأولى: هي الدُّنيا المتوجِّهةُ إلى الأسماء الإلهية الحسنى مِنْ حيث إنَّ فيها تجلَّتْ آثارُها ومقتضياتُها، فهي مرآةٌ لها.

---

(١) ينظر: (لطائف المنن) (١٢٥).

(٢) الحكمة (٤٥) من الحكم العطائية الصغرى.

الثانية: هي الدُّنيا المتوجِّهةُ نحوَ الآخرةِ بالأعمال الصالحة والأحوالِ الشريفة، فهي مزرعتُها.

الثالثة: هي الدُّنيا المتوجِّهةُ إلى أرباب الدنيا وأهلِ الضلالة، فهي لعبةُ أهلِ الغفلةِ ولهوهُم.

فلا يتوجَّهُ الذَّمُّ للدنيا إلا على الوجه الأخير، وإلا فهي نورٌ مِنْ أنوار الله، ونفحةٌ مِنْ نفحاتِ الرَّحمن، وفي هذا المعنى يقول الشيخُ محمد ماضي أبو العزائم رضي الله عنه:

آهِ يـا دارَ الفَنـا فيـكِ البَقـا ... ورِضـا اللهِ وفـوزٌ باللِّقـا

فيـكِ نُـورُ اللهِ مُحْكَـمُ آيِـهِ ... وصـراطٌ مُسـتقيمٌ للتُّقَـى

فيك مِنْهاجُ الحبيبِ المصطفى ... سُـلَّمٌ للوصلِ سَـهْلُ المُرتقَى

أنـتِ روضٌ للشُّـهودِ مُجمَّلٌ ... قـد يـراهُ بالصَّفـا مَـنْ يُنتقَى

فيكِ أنـوارُ التَّجلِّي أَشْـرَقَتْ ... والطَّهـورُ بحانِهِ لِمَنِ اسـتقَى

فيـكِ آيـاتٌ وأسـرارٌ بهـا ... حُظـوةُ الزُّلْفَى نعيمٌ لا شـقا)

* *

الكتاب السابع من ربع المهلكات
في ذم البخل وحب المال

(أقبحُ مِنْ كُلِّ قَبِيح صُوفِيٌّ شَحِيح)[1]

(ش: قال عليه الصلاة والسلام: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنْ اللهِ قَرِيبٌ مِنْ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنْ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنْ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنْ اللهِ بَعِيدٌ مِنْ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنْ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنْ النَّارِ، وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «خَصْلَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ: الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ»[3].

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدس سره: «لا تَصْحَبْ إلّا مَنْ تكونُ فيه أربعةُ خِصال: الجودُ مِنَ القِلَّة، والصَّفحُ عن المَظلَمَة، والصَّبرُ على البَلِيّة، والرِّضا بالقضيّة»[4].

وقال قدس سره: «علامةُ خروجِ الدُّنيا مِنَ القلبِ بَذْلُها عندَ الوجود، وَوِجدانُ الرّاحةِ منها عندَ الفقد»[5].

---

(١) من كلام الشيخ أبي عبد الله الروذباري. ينظر: (الرسالة القشيرية) (١٢٦).

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١).

(٣) رواه الترمذي (١٩٦٢).

(٤) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (٩٤).

(٥) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٣٧).

ولذا قال الإمام الشعراني قدس سره: اعلم أنَّ الدُّنيا إذا خرجتْ مِنْ قلبِ مريدٍ لا يُتصوَّرُ وقوعُهُ في البخلِ المذمومِ أبداً بعد ذلك، وإنما يمنعُ بالحكمةِ كما يُعطي بالحكمة؛ تخلُّقاً بأخلاق الله تعالى، فإنَّه تعالى سمّى نفسهُ «المانع»، ولم يُسمِّ نفسَهُ بخيلاً، فافهم.

وقال قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسولِ الله ﷺ أن نتصدَّقَ بما وَجَدْنا، ولا نستقلَّ مِنَ الصَّدقةِ شيئاً، وهذا العهدُ يُخِلُّ به كثيرٌ مِنَ الناس، فيستحيون أن يتصدَّقوا بمثلِ تمرةٍ أو لقمةٍ أو زبيبةٍ، وهو حياءٌ طبيعيٌّ لا شرعيٌّ.

وأُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسولِ الله ﷺ أن نتصدَّقَ بما نُحِبُّ؛ أدباً مع الله تعالى وعملاً بقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وأن نتصدَّقَ بكلِّ ما فضلَ عن حاجتنا، ولا ندَّخِرَ منه شيئاً إلا لضرورةٍ شرعية، سواء كان مالاً أو طعاماً أو ثياباً؛ عملاً بأخلاقِ رسول الله ﷺ، ولا نخلي يوماً واحداً مِنْ صدقةٍ، وذلك أنَّ السالكَ ـ على مصطلح أهلِ الله تعالى ـ طريقةُ الذكر، ومِنْ خاصيَّتِهِ جلاءُ القلبِ مِنْ ظلماتِ الرُّعوناتِ النفسانيةِ، وعلامةُ جلائِهِ أن تَصْغُرَ عنده الدنيا بأسرها، فيصير يُبادِرُ لإنفاقها، ولو منعوه جهراً أنفقَ سِرّاً؛ إذ مِنْ شرطِ الوليِّ السَّخاءُ والكَرَمُ.

واعلم ـ يا أخي ـ أنَّه كلَّما كثُرَ إطعامُكَ للناسِ كُلَّما كَثُرَتْ النِّعمةُ عليك؛ فإنَّ الله تعالى يسوقُ لكلِّ عبدٍ مِنَ الرِّزقِ بقدرِ ما يَعْلَمُ في قلبِهِ مِنَ السَّخاءِ والكرمِ.

وقد أجمعَ الأشياخُ على أنه لا يقدرُ أحدٌ يُعامِلُ الله تعالى للدارِ الآخرةِ حتى يرى الدُّنيا كلَّها في عينيه كالتراب، لا يستكثرُ شيئاً منها يبذلُهُ في مرضاة الله.

وكان الشيخ محمد الشناوي يقول: «جميعُ ما يدخلُ يدي مِنَ الدنيا ليس هو خاصّاً بي، وإنما أراه مشتركاً بيني وبين المحتاجين، فكلُّ مَنْ كان أحوجَ قُدِّمَ مني أو منهم».

ثم قال الشعراني قدس سره: وقد مَنَّ الله تعالى عليَّ بذلك، فلم أرَ لي ـ بحمد الله تعالى ـ شيئاً يَخُصُّني مِنَ المحتاجين به، ووالله إنِّي لأتصدَّقُ في بعضِ الأوقاتِ بالدِّينارِ والقميصِ وأنا أحوجُ إليه مِنَ الآخِذِ له؛ تنشيطاً للإخوان حتَّى يَخْرُجوا عن مَسْكِ اليد، وأرى ذلك مُقدَّماً على نفعِ نفسي[1].

قلتُ: وممَّنْ تخلَّقَ بهذا الخُلُقِ شيخ شيوخنا سيدي العارف بالله تعالى الشيخ محمد الهاشمي قدس سره، فقد حدثنا سيدي الشيخ عبد الرحمن الشاغوري أنَّ الشيخَ عبدَ الوكيلِ الدُّروبيَّ ذهبَ ذات يومٍ وأعطى الشيخَ الهاشميَّ شيئاً مِنَ المالِ؛ ليستعينَ به على القيامِ ببعض شؤونه، وذلك لمعرفةِ الشيخِ عبد الوكيل بفقر الهاشمي وحاجتِهِ، وبعد ذهابِ الشيخ عبد الوكيل دَخَلَ على الشيخ الهاشمي بعضُ إخوانه، يشكو له الفقرَ والحاجةَ، فأعطاه الشيخُ الهاشميُّ كلَّ ما أعطاه إيَّاه الشيخ عبد الوكيل، ثم خرجَ ذلك الأخُ وذَهَبَ إلى الشيخ عبد الوكيل ليزورَهُ، فصار يُثني على الشيخ الهاشمي كيف قضى حاجته وأعطاه المال، فقال له الشيخ عبد الوكيل: والله إنَّ الشيخَ الهاشميَّ أحوجُ منكَ إلى هذا المال، وقد أعطيتُهُ الظرفَ الذي بيدك من المالِ؛ لِمَا أعلمُ مِنْ حاجتِهِ).

اعلم أنَّ فتنَ الدُّنيا كثيرةٌ، وأعظمُ فِتَنِها الأموالُ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢٥٥. ٣٣٧).

أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

قال ﷺ: «يَقُولُ ابنُ آدَم: مَالي مَالي، وَهَل لَكَ يَا ابْنَ آدمَ مِنْ مالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!»[1].

وروي عنه ﷺ: «دَعُوا الدُّنْيَا لأَهْلِها، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ ما يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لا يَشْعُرُ»[2].

وقال ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ»[3].

[مطلب في تفصيل آفات المالِ وفوائده]

وللمال آفاتٌ وفوائدُ، فَمِنْ فوائدِهِ صرفُهُ إلى أبوابِ الخيرِ، لا إلى حظوظِهِ العاجلة.

ومِنْ آفاتِهِ أن يجرَّهُ إلى المعاصي، فإنَّ الشَّهواتِ مُتقاضِيةٌ[4]، والعجزُ قد يحولُ بين المرءِ والمعصيةِ، ومهما كان عاجزاً لم تتحرَّك داعيتُهُ إليها؛ ليأسِهِ منها، والمالُ نوعٌ مِنَ القدرةِ يُحرِّكُ داعيةَ المعاصي وارتكاب الفجور، فإن اقتحمَ ما اشتهاهُ هَلَكَ، وإن صَبَرَ وَقَعَ في شدّةٍ، والصَّبرُ مع القدرةِ أشدُّ، وفتنةُ السَّرَّاءِ أعظمُ مِنْ فتنةِ الضَّراء.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٢) رواه البزار في مسنده (٦٤٤٤). **الحَتْف**: الهلاك.

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٧).

(٤) إذ بعضُها يقتضي وجودَ بعض ويدعو إليه.

وربَّما لا يقدرُ صاحبُ المالِ أن يتناولَ خبزَ الشَّعير، ويلبسَ الثوبَ الخَشِنَ، ويتركَ لذائذَ الأطعمةِ، كما كان يقدرُ عليه سليمانُ عليه السلام في ملكِهِ، فيصيرُ التَّنعُّمُ مألوفاً عنده، ومحبوباً لا يصبرُ عنه، وربَّما لا يقدرُ على التَّوصُّلِ إليه بالكسبِ الحلالِ فيقتحمُ الشُّبهاتِ، ويخوضُ في المراءاةِ والمداهنةِ والكذبِ والنِّفاقِ وسائرِ الأخلاقِ الرديئة؛ ليتيسَّرَ له تنعُّمُهُ، فإنَّ مَنْ كَثُرَ مالُهُ كَثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناس، ومَنِ احتاجَ إلى الناسِ فلا بد وأن يُنافِقَهم، ويعصي الله في طلبِ رضاهم، فإذاً ترياقُ المالِ أخذُ القوتِ منه، وصرفُ الباقي إلى الخيراتِ، وما عداه سمومٌ وآفاتٌ.

(م: قال الشيخ البوزيدي ﷺ: اعلم أنَّ الفقيرَ الصادقَ إذا نظر إلى الدنيا بعينِ قلبِهِ سُلِبَ في الحينِ مِنْ سِرِّ قُربِهِ، ونَاداهُ الهَمُّ والغَمُّ لحربه، وغَطَّتْ أنوارَ قلبِهِ ظلمةُ دائرةِ حِسِّه، وعاد إلى عوائد أبناءِ جنسِهِ، فتقوده الغفلةُ مِنَ النواصي إلى حضرة المعاصي، وهذا جزاءُ القلبِ القاسي.

وإذا تَبِعَها بفكرِهِ تَشَتَّتَ نورُ عقلِهِ، فيحمل أحمالَ التدبيرِ والاختيارِ، فيُرمَى في بحر الأغيار والأكدار، ويُمنَع الراحةَ والقناعةَ، ويتمسَّكُ بأذيالِ الشَّحاحة، يصدقُ عليه قولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٦])[١].

[مطلبٌ في مدحِ القناعة]

واعلم أنَّ الفقرَ محمودٌ، وينبغي أن يكونَ الفقيرُ قانعاً مُنقطِعَ الطمعِ عن الخلق، ليس بحريصٍ على اكتساب المال، ولا يمكنُهُ ذلك إلا بأن يقنعَ بقدرِ

---

(١) ينظر: (الآداب المرضية) (٦٨).

الضَّرورةِ مِنَ المطعمِ والملبس، ويقتصرَ على أقلِّهِ قدراً وأخسِّهِ نوعاً، ويردَّ أملَهُ إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغلَ قلبَهُ بما بعدَ شهرٍ، قال ﷺ: «طُوبَى لِمنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ، وكانَ عَيْشُهُ كفافًا وقَنِعَ بِهِ»[1]، وقال ﷺ: «كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعاً تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً»[2].

[مطلبٌ في فضيلةِ السَّخاء]

واعلم أنَّ المالَ إن كان مفقوداً فينبغي أن يكونَ حالُ العبدِ القناعةَ وقِلَّةَ الحرصِ، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكونَ حالُهُ الإيثارَ والسَّخاءَ واصطناعَ المعروفِ والتباعدَ عن الشُّحِّ والبخلِ، قال ﷺ: «خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا الله عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يُبْغِضُهُمَا الله عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا الله تَعَالَى فَحُسْنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ، وَأَمَّا اللَّذَانِ يُبْغِضُهُمَا الله فَسُوءُ الخُلُقِ وَالبُخْلُ، وَإذا أَرَادَ الله بِعَبْدٍ خَيْراً اسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ»[3]، وقال ﷺ: «السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ فَمَنْ كَانَ سَخِيّاً أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْها فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذلِكَ الغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، والشُّحُ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ فَمَنْ كَانَ شَحِيحاً أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَلَمْ يَتْرُكْهُ ذلِكَ الغُصْنُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ»[4].

وقال الحسنُ رحمه الله: (بذلُ المجهودِ في بذلِ الموجودِ مُنتهى الجود)[5].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢١٧)، والبيهقي في الشعب (٥٣٦٦).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٧٢٥٣).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (١٠٣٧٧).

(٥) أورده الخركوشي في (تهذيب الأسرار) (٤٤٠).

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (الشحُّ أشدُّ مِنَ البخلِ؛ لأنَّ الشَّحيحَ هو الذي يَشِحُّ على ما في يد غيرِهِ حتى يأخذَهُ، ويَشِحُّ بما في يدِهِ فيحبسُهُ، والبخيلُ هو الذي يبخلُ بما في يديه)(١).

واعلم أنَّ أرفعَ درجاتِ السَّخاءِ الإيثارُ، وهو أن يجودَ بالمالِ مع الحاجةِ إليه، وأقصى البخلِ أن يبخلَ على نفسِهِ مع الحاجةِ إليه، فهذا يبخلُ على نفسِهِ مع الحاجةِ إليه، وذلك يُؤثِرُ على نفسِهِ مع الحاجة إليه، فانظر ما بين الرجلين؟ فإنَّ الأخلاقَ عطايا يَضَعُها الله حيث يشاء، وليس بعدَ الإيثار درجةٌ في السخاء، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

[مطلبٌ في علاج البخل]

ومِنْ لطائفِ الحيلِ في علاجِ البخلِ أن يخدعَ نفسَهُ بحسنِ الاسمِ والاشتهارِ بالسَّخاء، فيبذلَ على قصدِ الرياءِ حتَّى تسمحَ نفسُهُ بالبذلِ طَمَعاً في حشمةِ الجود، فيكون قد أزالَ عن نفسِهِ خبثَ البخلِ واكتسبَ بها خبثَ الرياءِ، ولكنْ ينعطفُ بعدَ ذلك على الرِّياءِ ويزيلُهُ بعلاجه، وكذلك الصِّفاتُ الخبيثةُ ينبغي أن يُسلَّطَ بعضُها على بعضٍ، كما تُسلَّطُ الشهوةُ على الغضبِ وتُكسَرُ سورتُهُ بها، ويُسلَّطُ الغضبُ على الشهوةِ وتُكسَرُ رعونتُها به، وقد يقوى البخلُ بحيث يُعمي ويُصِمُّ فيمنعُ تحقُّقَ المعرفةِ بآفاتِهِ، وإذا لم تتحقَّقِ المعرفةُ لم تتحرَّكِ الرَّغبةُ، فلم يتيسَّرِ العملُ، فتبقى العِلّةُ مُزْمِنةً، كالمرضِ الذي يمنعُ معرفةَ الدواءِ؛ فإنَّه لا حيلةَ فيه إلا الصَّبرُ إلى الموت.

---

(١) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٥٩).

واعلم أنَّ المالَ خيرٌ مِنْ وجهٍ وشَرٌّ مِنْ وجهٍ، فهو محمودٌ مِنْ حيث هو خيرٌ، ومذمومٌ مِنْ حيث هو شرٌّ.

(م: فالأمورُ بالمقاصدِ، والأعمالُ بالنِّيات، وحكمُ الوسائلِ منوطٌ بحكم الغايات.

قال الشيخ أبو العزائم رضي الله عنه: لا سَرَفَ في الخيرِ وإنْ كثُر، ولا خيرَ في السَّرَفِ وإنْ قلَّ.

وضابطُ الإسراف: ما كان لمحضِ حظِّ النَّفس، ولَوْ كان ظاهِرُهُ لله، وضابطُ الخير: ما كان فيه نيّةٌ حسنةٌ، ولا يضرُّ استمتاعُ النَّفسِ به مع وجودِ النية، بل إن أدّى ذلك الاستمتاعُ إلى خالصِ الشُّكرِ لا يكون مذموماً، ومِنْ ثَمَّ قال الإمامُ أبو الحسنِ الشاذلي رضي الله عنه: «يا بني بَرِّدِ الماءَ، فإنّكَ إذا شَرِبْتَ الماءَ السَّاخِنَ فقلتَ: «الحمدُ لله» قُلتَها بِكَزازة، وإذا شَرِبْتَ الماءَ الباردَ وقلتَ: «الحمدُ لله» استجابَ كلُّ عضوٍ فيكَ بالحمد لله»(١).

وعليه تُفهَمُ الآيةُ الكريمةُ: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ لأنَّ الأكلَ مِنَ الطَّيِّبات ـ أي: الملذوذات ـ أدعى للشكر، والشُّكرُ مِنْ أقوى بواعثِ العمل).

فينبغي أن تكونَ نِيَّتُكَ في كلِّ ما تحفظُ مِنْ قميصٍ وإزارٍ وفراشٍ نيةَ الإعانةِ على العبادة؛ لأنَّ كلَّ ذلك مما يُحتاجُ إليه في الدِّين، وما فضلَ مِنَ الحاجة ينبغي أن يُقصَدَ به أن ينتفعَ به عبدٌ مِنْ عباد الله، فلا يمنعُهُ منه عند حاجتِهِ.

---

(١) ينظر: (السوانح الكمالية بتعليقات الشيخ عبد الرحمن الشاغوري) (١٢٣ ـ ١٢٤).

قال عليٌّ رضي الله عنه: (لو أنَّ رجلاً أَخَذَ جميعَ ما في الأرض وأراد به وجهَ الله فهو زاهدٌ، ولو تَرَكَ الجميعَ ولم يُرِدْ به وجهَ الله فليس بزاهدٍ).

[مطلبٌ في مدح الفقر وذم الغنى]

واعلم أنَّ الفقرَ أفضلُ مِنَ الغنى على الجملةِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلى تفصيلِ الأحوال، وقد قال المحاسبيُّ رحمه الله ـ في حديثٍ طويلٍ في الردِّ على بعضِ العلماءِ الأغنياء، حيثُ احتجَّ بأغنياءِ الصَّحابة رضي الله عنهم وبكثرةِ مالِ عبدِ الرحمنِ ابنِ عوفٍ رضي الله عنه وشَبَّه نفسَهُ بهم: (بلغنا أنَّ عيسى عليه السلام قال: «يا علماءَ السُّوء، لا تكونوا كالمنخلِ يُخرِجُ منه الدَّقيقُ الطَّيِّبُ وتبقى فيه النُّخالة، كذلكم أنتم تُخرِجون الحِكَمَ مِنْ أفواهِكم ويبقى الغِلُّ في صدورِكُم، يا عبيدَ الدُّنيا كيف يُدرِكُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدُّنيا شهوتُهُ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ؟»).

وقد روي في الأثر: «مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ»[(١)].

ويحكَ! كُنْ على يقينٍ أنَّ جمعَ المالِ لأعمالِ البرِّ مكرٌ مِنَ الشيطانِ لِيُوقِعَكَ بسببِ البِرِّ في اكتسابِ الشُّبهاتِ الممزوجةِ بالسُّحتِ والحرام، وقد بَلَغَنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ رضي الله عنه: «أَمَا إِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أَغْنِياءِ أُمَّتِي وَمَا كِدْتَ أَنْ تَدْخُلَها إِلَّا حَبْواً»[(٢)].

ويحك! أيها المفتون، فما احتجاجُكَ بالمالِ وهذا عبدُ الرحمنِ في فضلِهِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (١٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٧٩).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣١١)، والبيهقي في الشعب (٣٠٦٤).

وتقواهُ وصنائعِهِ المعروفَ وبذلِهِ الأموالَ في سبيل الله مع صحبتِهِ لرسول الله ﷺ وبشراهُ بالجنَّةِ يُوَقَفُ في عرصةِ القيامةِ وأهوالِها بسببِ مالٍ كسبَهُ مِنْ حلالٍ للتعفُّفِ ولصنائعِ المعروف، حتى مُنِعَ مِنَ السَّعيِ إلى الجنّةِ مع الفقراءِ المهاجرين، وصار يحبو في آثارِهم حبواً؟ فما ظنُّكَ بأمثالِنا الغرقى في فتن الدنيا؟!

فالعجبُ كلُّ العجبِ لك يا مفتون تتمرَّغُ في تخاليطِ الشُّبُهاتِ والسُّحتِ، وتتقلَّبُ في الشهواتِ والزينةِ والمباهاةِ، ثم تحتجُّ بعبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ رضي الله عنه!)

(م: وينبغي للمريدِ الصادقِ أن يُميِّزَ بين التقشُّفِ والزُّهدِ في الدُّنيا وبين الاستهانةِ والاستحقارِ بِنِعَمِ الله تعالى والأسبابِ التي وَضَعَها في دار الحكمة؛ فَمَنِ استخفَّ بالأشياءِ استخفَّتْ الأشياءُ به كما قيل.

فالمريدُ الصادقُ ينظر بعينِ التَّعظيمِ إلى كلِّ نعمةٍ أنعمَها اللهُ عليه، قلَّتْ أو جلَّتْ، صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ.

والازدراءُ بنعمِ الله تعالى منهيٌّ عنه، بل هو ضربٌ مِنَ الكفرِ والعياذ بالله، فليحذرِ المريدُ الزاهدُ أو الشيخُ العابدُ مِنْ هذا المزلَقِ، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]).

واعلم أنَّ أخيارَ الصحابةِ رضي الله عنهم كانوا للمسكنةِ مُحبِّين، ومِنْ خوفِ الفقرِ آمنين، وبالله في أرزاقِهم واثقين، وبمقاديرِهِ مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرَّخاءِ شاكرين، وعن حُبِّ العلوِّ والتكاثرِ وَرِعين، ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلتِ الدُّنيا عليهم حَزِنُوا، وقالوا: «ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ»، وإذا رأوا الفقرَ مُقبِلاً قالوا: «مَرْحباً بِشِعارِ الصالحين».

الكتاب الثامن من ربع المهلكات
في ذم الجاه والرياء

(كُلُّكَ شِرْكٌ خَفِيٌّ)

(مَنْ رأى نفسَهُ مِنَ المخلصين كان مِنَ المرائين، ومَنْ رأى نفسَهُ مِنَ المرائين كان مِنَ المخلصين).

قال ﷺ: «إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ»[1].

وقال ﷺ: «إنَّ أدنى الرِّياءِ شِرْكٌ»[2].

والرِّياءُ مِنَ الشَّهوةِ الخفيّةِ التي هي أخفى مِنْ دَبيبِ النَّملةِ السَّوداءِ على الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ في اللَّيلةِ الظَّلْماءِ، ولذلك عَجَزَ عن الوقوفِ على غوائِلِها سماسرةُ العلماءِ، فضلاً عن عامة العُبّادِ والأتقياء، وهو مِنْ أواخرِ غوائلِ النَّفسِ وبواطنِ مكائدِها.

وإنما يُبتَلَى به العلماءُ والعُبّادُ والمُشمّرونَ عن ساقِ الجِدِّ لسلوكِ سبيلِ الآخرةِ؛ لأنهم لـمّا قهروا أنفسَهم وجاهدوها، وفَطَمُوها عن الشهوات، وصانوها عن الشُّبُهات، وحَمَلُوها بالقهرِ على أصنافِ العباداتِ عَجَزَتْ نفوسُهُم عن الطمعِ في المعاصي الظاهرةِ الواقعةِ على الجوارح، فَطَلَبَتِ الاستراحةُ إلى

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١١١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٢٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (٣١٦)، وبنحوه ابن ماجه (٤٢٠٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٦)، وبنحوه ابن ماجه (٣٩٨٩).

النَّظاهُرِ بالخيرِ وإظهارِ العملِ والعلمِ، فَوَجَدَتْ مَخْلَصاً مِنْ مشقَّةِ المجاهدةِ إلى لذَّةِ القبولِ عند الخلقِ، ونظرِهِم إليه بعينِ الوقارِ والتعظيم، فسارعَتْ إلى إظهارِ الطاعةِ، وتوصَّلَتْ إلى اطِّلاعِ الخلقِ، ولم تَقْنَعْ باطِّلاعِ الخالق، وفرِحَتْ بحمدِ الناس، ولم تَقْنَعْ بحمدِ الله وحدَهُ.

(م: قال ابنُ عطاءِ الله رضي الله عنه: «حَظُّ النَّفْسِ في المَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلاجُهُ»)[1].

ولذلك قيل: (آخرُ ما يخرجُ مِنْ رؤوسِ الصِّديقينَ حُبُّ الرِّئاسة).

[مطلبٌ في ذم الشهرة وانتشار الصيت]

اعلم أنَّ أصلَ الجاهِ هو انتشارُ الصِّيتِ والاشتهارِ، وهو مذمومٌ، بل المحمودُ الخمولُ إلا مَنْ أشهرَهُ الله لنشرِ دينِهِ مِنْ غيرِ تكلُّفِ طلبِ الشُّهرةِ منه، فذلك ليس بمذمومٍ، فقد روي في الأثرِ: «حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ»[2]، قال الحسن رضي الله عنه: إنَّما عُنِيَ به المبتدعُ في دينِهِ، والفاسقُ في دنياه.

وقال إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمه الله: (ما صَدَقَ اللهَ مَنْ أَحَبَّ الشُّهرةَ)[3].

وقال الثَّوريُّ رضي الله عنه: (كانوا يكرهونَ الشُّهرةَ مِنَ الثيابِ الجيِّدةِ والثيابِ الرديئةِ؛ إذ الأبصارُ تمتدُّ إليهما جميعاً)[4].

---

(١) الحكمة (١٥٩) من الحكم العطائية.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٣٠)، والبيهقي في الشعب (٦٥٨٠).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١)، والبيهقي في الشعب (٦٥٧٦).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٦٤).

وقال سُليمُ بنُ حنظلةَ ﵁: بينا نحنُ حولَ أُبيِّ بنِ كعبٍ ﵁ نمشي خلفَهُ؛ إذ رآه عمرُ ﵁ فَعَلاهُ بالدِّرَّةِ، فقال: انظرْ يا أميرَ المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إنَّ هذه ذِلّةٌ للتابعِ، وفتنةٌ للمتبوع[1].

وعن أبي العالية ﵁ أنَّه كان إذا جلسَ إليه أكثرُ مِنْ ثلاثةٍ قام[2].

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وكان الفضيلُ بنُ عياض رضي الله عنه يقول: إذا رأيتم العالِمَ أو العابدَ ينشرحُ لذكرِهِ بالعلمِ والصلاحِ في مجالسِ الأمراءِ والأكابرِ فاعلموا أنَّه مُراءٍ يريدُ بعلمِهِ الجاهَ والسُّمعةَ.

وكان سفيانُ بنُ عيينة رضي الله عنه يقول: مِنْ علامةِ الرياء في طلب العلم أن يخطرَ في باله أنَّه خيرٌ مِنَ العوامِّ لأجلِ العلم، ومَنْ فَعَلَ ذلك ماتَ قلبُهُ؛ فإنَّ العلمَ لا يُحيي قلبَ صاحبِهِ إلا إن أخلصَ فيه، وذلك أنَّه إذا تَكَبَّرَ به صار وجهُهُ للدُّنيا وظهرُهُ لحضرةِ الله عز وجل.

وكان يقولُ أيضاً: إذا رأيتم طالبَ العلمِ كلَّما ازداد علماً ازداد جدالاً ورغبةً في الدنيا فلا تُعلِّموهُ.

وكان كعبُ الأحبارِ رضي الله عنه يقول: سيأتي على الناس زمانٌ يتعلَّمُ جُهّالُهم العلم، ويتغايرون به على القُرْبِ مِنَ الأمراء كما يتغايرون على النِّساء، أو كما يتغاير النِّساءُ على الرجال، فذلك حظُّهم مِنْ علمِهم.

وكان صالح المري رضي الله عنه يقول: مِنْ علامةِ إخلاصِ طالبِ العلمِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٥١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٤٧).

أن ينشرحَ صدرُهُ كلَّما وَصَفَهُ الناسُ بالجهلِ والرّياءِ والسُّمعةِ، كما أنَّ مِنْ علامةِ ريائه انقباضُ قلبهِ مِنْ ذلك.

وكان يقولُ: احذروا عالِمَ الدُّنيا أن تُجالِسوهُ خوفاً أن يُفتِنَكُم بزخرفةِ لسانِهِ.

وكان يقول: ربما كان علمُ العالِمِ زادُهُ إلى النارِ، فلا ينبغي لأحدٍ أن يفرحَ بعلمِهِ إلا بعد مجاوزةِ الصراط، وهناك يعلمُ حقيقةَ علمِهِ، هل هو حُجّةٌ له أو عليه؟

وكان الرَّبيعُ يقول: كيف يُرائي العالِمُ بما يعلمُ مع علمِهِ بأنَّ كلَّ ما لا يُبتغى به وجهُ الله يضمحلُّ، وكان إذا دخل عليه أميرٌ على غفلةٍ وهو يُدرِّسُ العلمَ يَغْتَمُّ لذلك.

وكان إذا بَلَغَهُ أنَّ أحداً مِنَ الأمراء عازِمٌ على زيارتِهِ لا يُدرِّسُ؛ خوفاً أن يراه ذلك الأمير وهو في محفلِ درسِهِ العظيم.

وكان يقول: مِنْ علامةِ المخلصِ في علمه أن يَنْقَبِضَ في نفسه إذا مَدَحَهُ الأكابرُ، ويتأثَّرُ كما يتأثَّرُ ممن اطلع عليه وهو يزني.

وكان عبد الله بن المبارك رحمه الله يقول: قد غَلَبَ على القراء في هذا الزمانِ أكلُ الحرامِ والشُّبهاتِ حتى إنهم غرقوا في شهوةِ بطونهم وفرجهم، واتَّخذوا علمَهم شبكةً يصطادون بها الدُّنيا، فإياكم ومجالستهم.

وكان يقول: لولا نقصٌ دَخَلَ على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضلَ الناسِ، ولكنَّهم صاروا يحترفون بعلمِهم ويصطادون به الدنيا، فهانوا في ملكوت السماوات والأرض.

وكان النوويُّ رحمه الله يقول: عليكم بالإخلاص في العلم لينفع الله تعالى به العباد، وقال: مِنَ الدلائل الصريحة على رياء العالم أن يتأذى ممّن يقرأ عليه إذا قَرَأ على غيره.

وكان الشافعي رضي الله عنه يقول: ينبغي للعالم أن يكونَ له خبيئةٌ مِنَ العملِ الصالح فيما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ، ولا يعتمد على العلم فقط؛ فإنّه قليلُ الجدوى في الآخرة[1].

[مطلبٌ في ذم الجاه]

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، جَمَعَ بين إرادةِ الفسادِ والعلوّ، وبيّنَ أنَّ الدارَ الآخرةَ للخالي عن الإرادتين جميعاً.

قال بعضُ المشايخِ: (ما مِنْ إنسانٍ إلا وفي باطنِهِ ما صَرَّحَ به فرعونُ مِنْ قولِهِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ولكنَّه ليس يَجِدُ له مجالاً).

واعلم أنَّ مَنْ طَلَبَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ يضطرُّ إلى النّفاقِ معهم، وإلى التَّظاهُرِ بخصالٍ حميدةٍ هو خالٍ عنها، وذلك هو عينُ النّفاق، فحبُّ الجاهِ مِنَ المهلكات، وكما لا يجوزُ لأحدٍ أن يتملَّكَ مالَ غيرِهِ بتلبيسٍ في عِوَضٍ أو في غيره، فكذلك لا يجوزُ له أن يتملَّكَ قلبَ غيرِهِ بتزويرٍ وخداعٍ، فإنَّ مِلْكَ القلوبِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأموال.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٢٠٤، ٢٠٨).

[مطلبٌ في علاج حب الجاه]

واعلم أنَّ مَنْ غلبَ على قلبِهِ حُبُّ الجاهِ صار مقصورَ الهَمِّ على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودُّدِ إليهم والمراءاةِ لأجلهم، ولا يزال في أقوالِهِ وأفعالِهِ مُلتفِتاً إلى ما يُعظِّمُ منزلتَهُ عندهم، وذلك بذرُ النِّفاقِ وأصلُ الفساد.

وأقوى الطُّرُقِ في قطعِ حبِّ الجاهِ الاعتزالُ عن الناسِ، والهجرةُ إلى موضع الخمول؛ فإنَّ المعتزِلَ في بيتِهِ في البلد الذي هو به مشهورٌ لا يخلو عن حُبِّ المنزلةِ، فرُبَّما يظنُّ أنَّه ليس مُحِبّاً لذلك الجاه، وهو مغرورٌ، وإنَّما سَكَنَتْ نفسُهُ لأنَّها قد ظَفِرَتْ بمقصودها، ولو تغيَّرَ الناسُ عمَّا اعتقدوا فيه فذمُّوه أو نسبوهُ إلى أمرٍ غيرِ لائقٍ به تألَّمَتْ نفسُهُ وجَزِعَتْ.

ووجهُ معالجتِهِ: أن يقطعَ الطمعَ وطلبَ المنزلةِ عند الناس، وأن يعلمَ أنَّ طَلَبَهُ المنزلةَ عندِ الناسِ وفَرَحَهُ به يُسقِطُ منزلتَهُ عند الله، ولا ينبغي أن يطمعَ طالبُ المالِ والجاهِ ومُحِبُّ المدحِ ومُبْغِضُ الذَّمِّ في سلامة دينِهِ؛ فإنَّ ذلك بعيدٌ جِدّاً.

(بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم)

(م: قال سيِّدي ابن عطاء الله رضي الله عنه: «مَتى آلَمَكَ عَدَمُ إقْبالِ النّاسِ عَلَيْكَ، أوْ تَوَجُهُهُمْ بِالذَّمِّ إلَيْكَ، فَارْجِعْ إلى عِلْمِ اللهِ فيكَ، فَإنْ كانَ لا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَناعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الأَذَى مِنْهُمْ»[1]).

اعلم أنَّ للناس أربعةَ أحوالٍ بالإضافة إلى الذَّامِّ والمادِحِ:

---

(١) الحكمة (٢٣٤) من الحكم العطائية.

الحالة الأولى: أن يفرحَ بالمدحِ ويشكرَ المادحَ، ويغضبَ مِنَ الذَّمِّ ويحقدَ على الذامِّ ويُكافِئه، وهذا حالُ أكثرِ الخلق، وهو غايةُ درجاتِ المعصيةِ في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يغضبَ في الباطنِ على الذَّامِّ، ولكنْ يُمسِكُ لسانَهُ وجوارحَهُ عن مكافأتِهِ، ويفرحَ باطنُهُ ويرتاحَ للمادحِ، ولكنْ يحفظُ ظاهرَهُ عن إظهارِ السرور، وهذا مِنَ النُّقصانِ إلا أنَّه بالإضافةِ إلى ما قبلَهُ كمالٌ.

الحالة الثالثة: وهي أوَّلُ درجاتِ الكمال أن يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادِحُهُ، فلا تَغُمُّهُ المذمَّةُ، ولا تسرُّهُ المِدحةُ، وهذا قد يظنُّهُ بعضُ العُبّادِ بنفسِهِ، ويكونُ مغروراً إن لم يمتحن نفسَهُ بعلاماتِهِ، وربَّما يشعرُ العابدُ بميلِ قلبِهِ إلى المادحِ دونَ الذَّامِّ، والشيطانُ يُحسِّنُ له ذلك ويقولُ: الذَّامُّ قد عصى الله بمذمَّتِكَ، والمادحُ قد أطاعَ الله بمدحِكَ، فكيف تُسوِّي بينهما؟ وإنَّما استثقالُكَ للذَّامِّ مِنَ الدِّينِ المحضِ، وهذا محضُ التَّلبيس؛ فإنَّ العابدَ لو تفكَّرَ عَلِمَ أنَّ في الناسِ مَنِ ارتكبَ كبائرَ المعاصي أكثرَ مما ارتكبَهُ الذَّامُّ في مذمَّتِهِ، ثم إنه لا يستثقلُهُم ولا ينفرُ عنهم، ويعلمُ أنَّ المادحَ الذي مَدَحَهُ لا يخلو عن مَذمَّةِ غيرِهِ، ولا يجدُ في نفسِهِ نُفرةً عنه بمذمَّةِ غيرِهِ كما يجدُ لمذمَّةِ نفسِهِ.

الحالة الرابعة ـ وهي الصِّدقُ في العبادة: أن يكرهَ المدحَ ويمقتَ المادحَ؛ إذ يعلمُ أنَّه فتنةٌ عليه قاصمةٌ للظَّهرِ، مضرَّةٌ له في الدِّين، ويحبُّ الذامَّ؛ إذ يعلمُ أنَّه مُهْدٍ إليه عيوبَهُ.

وغايةُ أمثالِنا الطَّمعُ في الحالة الثانيةِ، وهو أن يُضمِرَ الفرحَ على المادحِ والكراهةَ على الذامِّ، ولا يظهرَ ذلك بالقول والعملِ، ومَنْ قَدَرَ على التَّسويةِ

بين الذامّ والمادحِ في ظاهرِ الفعلِ فهو جديرٌ بأن يُتَّخَذَ قدوةً في هذا الزمان إن وجد؛ فإنّه الكبريتُ الأحمرُ يَتحدَّثُ الناسُ به ولا يُرى، فكيف بما بعدَهُ مِنَ المرتبتين؟

واعلم أنَّ أقصى الدرجاتِ في كراهيةِ المدحِ أن يكرَهَ ويظهر الغضبَ على المادحِ وهو صادقٌ فيه، لا أن يُظهِرَ الغضبَ وقلبُهُ مُحِبٌّ له؛ فإنَّ ذلك عينُ النِّفاق؛ لأنّه يريدُ أن يُظهِرَ مِنْ نفسِهِ الإخلاصَ والصِّدقَ، وهو مُفلِسٌ منه، وكذلك بالضِّدّ تتفاوتُ الأحوالُ في حقِّ الذَّامِّ.

ولو جاهدَ المريدُ نفسَهُ طولَ عمرِهِ أن يستويَ عنده ذامُّهُ ومادِحُهُ لكانَ له شغلٌ شاغلٌ فيه لا يتفرَّغُ معه لغيره، وبينه وبين السَّعادةِ عقباتٌ كثيرةٌ، ولا يقطعُ شيئاً منها إلا بالمجاهدةِ الشديدةِ في العمرِ الطَّويل.

الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء

(الخُمولُ نعمةٌ والنُّفوسُ تأباه، والظُّهورُ نقمةٌ والنُّفوسُ تهواه)[١]

اعلم أنَّ الرياءَ حرامٌ، والمرائيَ عند الله ممقوتٌ، قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ﷺ؟ قال: «الرِّياءُ، يقول الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إذا جازى العبادَ بأعمالِهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟»[٢].

وقال ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ، وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَأَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»[٣].

وقال عيسى عليه السلام: (إذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فليدهَنْ رأسَهُ ولحيتَهُ ويمسحْ شفتَيهِ؛ لئلا يرى الناسُ أنَّه صائمٌ، وإذا أعطى بيمينه فليُخْفِ عن شماله، وإذا صلَّى فليُرْخِ سترَ بابِهِ؛ فإنَّ اللهَ يقسمُ الثَّناءَ كما يَقْسِمُ الرِّزقَ)[٤].

ويقال: (إنَّ المرائيَ يُنادى يومَ القيامةِ بأربعةِ أسماء: يا مرائي، يا غادرُ، يا

---

(١) ينظر: (إيقاظ الهمم) (٢٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٨)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣)، والبيهقي في الشعب (٦٤١٢).

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (١٥٠).

خاسرُ، يا فاجرُ، اذهبْ فَخُذْ أجرَكَ ممَّنْ عَمِلْتَ له، فلا أجرَ لكَ عندنا)[١].

وقال الفضيلُ بنْ عياضٍ رحمه الله: (كانوا يُراؤون بما يعملون، وصاروا اليومَ يُراؤونَ بما لا يعملون).

وقال أيضاً رحمه الله: (مَنْ أراد أن ينظر إلى مراءٍ فلينظر إليَّ).

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ لطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها، فحدُّ الرياءِ: هو إرادةُ العبادِ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ، فالمرائي هو العابدُ، والمُراءَى له هم الناسُ المطلوبُ رؤيتُهُم بطلبِ المنزلةِ في قلوبهم، والمُراءى به هي الخصالُ التي قَصَدَ المرائي إظهارَها، وهي كثيرةٌ، وتجمعُهُ خمسةُ أقسامٍ هي مجامعُ ما يتزيَّنُ به العبدُ للناس وهو: البدنُ، والزّيُّ، والقولُ، والعملُ، والأتباعُ والأشياءُ الخارجةُ، وكذلك أهلُ الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسةِ إلا أنَّ طلبَ الجاهِ وقصدَ الرياءِ بأعمالٍ ليستْ مِنْ جملةِ الطاعاتِ أهونُ مِنَ الرياءِ بالطاعات.

[مطلب في أنواع الرياء]

القسم الأوّل: الرياءُ في الدِّين مِنْ جهةِ البدن: وذلك بإظهارِ النُّحولِ والاصفرارِ؛ لِيُوهِمَ بذلكَ شدّةَ الاجتهادِ، وعظمَ الحزنِ على أمرِ الدِّين، وغلبةَ خوفِ الآخرة، وليدلَّ بالنُّحولِ على قلةِ الأكلِ، وبالاصفرار على سهرِ اللَّيل.

وكذلك يرائي بتشعيثِ الشَّعرِ؛ ليدلَّ به على استغراقِ الهَمِّ بالدينِ، وعدمِ

(١) ينظر: (تنبيه الغافلين) لأبي الليث السمرقندي (٣٣).

التفرُّغ لتسريحِ الشعر، وهذه الأسبابُ مهما ظَهَرَتْ استدلَّ الناسُ بها على هذه الأمور، فارتاحَتِ النفسُ إلى إظهارِها لنيلِ تلك الراحة.

القسم الثاني: الرياء بالزي والهيئة: ومنه لبسُ المرقَّعِ والصُّوفِ، وغلظُ الثِّيابِ، وتركُ تنظيفِها، وتركها مخرَّقةً، كلُّ ذلك يرائي به؛ ليُظهِرَ مِنْ نفسِهِ أنَّه مُتَّبِعٌ للسنةِ ومُقتدٍ بالصوفية مع الإفلاسِ مِنْ حقائقِ التَّصوُّفِ في الباطن.

ومنهم مَنْ لو كُلِّفَ أن يلبسَ ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السَّلَفُ يَلْبَسُهُ لكان عنده بمنزلةِ الذَّبحِ؛ لخوفِ أن يقولَ الناسُ قد بدا له في الزهد، ورجعَ عن تلك الطريقةِ ورَغِبَ في الدنيا.

ومنهم مَنْ يطلبُ القبولَ عند أهلِ الصلاحِ وعند أهلِ الدنيا مِنَ الملوكِ والتُّجّار، فلو لَبِسُوا الثيابَ المخرَّقةَ ازدرتهم أعينُ الملوكِ والأغنياء، فيريدون الجمعَ بين القبولِ مِنْ أهلِ الدِّينِ والدنيا، فلذلك يطلبون الأصوافَ الرقيقةَ، والأكسيةَ الرَّفيعةَ، والمرقَّعاتِ المصبوغةَ، ولعلَّ قيمةَ ثوبِهم قيمةُ ثوبِ الأغنياء، ولونُهُ وهيئتُهُ لونُ ثيابِ الصُّلحاء، فيلتمسون القبولَ عند الفريقين.

القسم الثالث: الرياءُ بالقول: ومنه الوعظُ والتذكيرُ، والنُّطقُ بالحكمةِ، وحفظُ الأخبارِ والآثارِ لأجلِ الاستعمالِ في المحاورةِ؛ إظهاراً لغزارةِ العلم، وتحريكُ الشَّفتَينِ بالذِّكرِ في محضرِ الناس، والأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكر بمشهدِ الخلق، وإظهارُ الغضبِ للمنكرات، والرياءُ بالقولِ كثيرٌ، وأنواعُهُ لا تنحصر.

القسم الرابع: الرياءُ بالعمل: كطولِ القيامِ في الصلاة، وتطويلِ السُّجودِ

والركوع، وفعلِ أنواعِ الخيراتِ والأعمال الصالحة التي لا تنحصر، كالصومِ والزكاةِ والحجِّ والغزوِ وغير ذلك.

ومنهم مَنْ كلَّفَ نفسَهُ في الخلوةِ بتحسينِ العملِ حتى إذا رآه الناسُ لم يَفْتَقِرْ إلى التغيير، ويظنُّ أنَّه يتخلَّصُ به مِنَ الرياء، وقد تضاعَفَ به رياؤه، وصار في خلوتِهِ أيضاً مرائياً؛ لتحسينِهِ للناسِ، لا لخوفٍ مِنَ الله وحياءٍ منه.

(م: قال سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه: «رُبَّما دَخَلَ الرِّياءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لا ينظر الخَلْقُ إِلَيْكَ»(١).

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: وذلك لأنَّ الرياءَ راجعٌ لرؤيةِ العاملِ للخلقِ، لا لرؤيتهم إياه).

القسم الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين: كالذي يتكلَّفُ أن يستزيرَ عالِماً مِنَ العلماءِ؛ ليُقالَ: إنَّ فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً مِنَ العُبّادِ؛ ليقال: إنَّ أهلَ الدِّينِ يتبرَّكون بزيارتِهِ ويتردَّدون إليه، أو مَلِكاً مِنَ الملوك، أو عاملاً مِنْ عُمّالِ السُّلطانِ؛ ليقال: إنَّهم يتبركون به لِعِظَمِ رتبتِهِ في الدِّين.

وكالذي يُكثِرُ ذكرَ الشُّيوخِ؛ ليُرى أنَّه لَقِيَ شيوخاً كثيرةً واستفاد منهم، فيباهي بشيوخِهِ، ومباهاتُهُ ومراءاتُهُ تترشَّحُ منه عند مخاصمتِهِ، فيقولُ لغيره: مَنْ لقيتَ مِنَ الشيوخِ؟ وأنا قد لقيتُ فلاناً وفلاناً، ودُرْتُ البلادَ، وخدمتُ الشُّيوخَ، وكم مِنْ عابدٍ اعتزلَ وقطعَ طَمَعَهُ مِنْ أموال الناسِ، ولكنَّه يُحِبُّ مُجرَّدَ الجاهِ، ولم يَقْنَعْ بعلمِ الله فيه.

---

(١) الحكمة (١٦٠) من الحكم العطائية.

وأما أهلُ الدُّنيا فمراءاتُهم بالثيابِ النَّفيسة، والمراكبِ الرفيعة، وأنواعِ التَّوَسُّعِ والتَّجَمُّلِ في الملبسِ والمسكنِ وأثاثِ البيت، وحفظِ الأشعارِ والأمثالِ، والتفاصُحِ في العبارات، وحفظِ النَّحوِ الغريبِ؛ للإغراب على أهل الفضل، وإظهارِ التَّودُّدِ إلى الناس لاستمالةِ القلوب، والتَّبَخْتُرِ والاحتيال.

فهذه مجامعُ ما يرائي به المراؤون، وكلُّهم يطلبون بذلك الجاهَ والمنزلةَ في قلوب العباد.

واعلم أنَّ طلبَ قليلِ الجاهِ بغير العباداتِ محمودٌ، وهو الذي طلبه يوسفُ عليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وهو ما يسلمُ به مِنَ الآفات، ككسبِ قليلٍ مِنَ المال بقدرِ ما يحتاجُ إليه الإنسان، وكما أنَّ المالَ فيه سُمٌّ ناقعٌ وترياقٌ نافعٌ فكذلك الجاهُ.

وأما سعةُ الجاهِ مِنْ غير حرصٍ منك على طلبِهِ، ومِنْ غيرِ اغتمامٍ بزوالِهِ فلا ضررَ فيه، فلا جاهَ أوسعُ مِنْ جاهِ رسولِ الله ﷺ، وجاهِ الخلفاءِ الراشدين، ومَنْ بعدهم مِنْ علماء الدِّين، ولكنَّ انصرافَ الهمِّ إلى طلبِ الجاهِ نقصانٌ في الدِّين، ولا يُوصَفُ بالتَّحريم.

فعلى هذا نقول: تحسينُ الثوبِ الذي يلبسُهُ الإنسانُ عند الخروج إلى الناس مراءاةٌ، وهو ليس بحرام؛ لأنَّه ليس رياءً بالعبادةِ بل بالدنيا، فَقِسْ على هذا كلَّ تجمُّلٍ للناسِ وتزيُّنٍ لهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[1].

---

(١) رواه مسلم (١٦٠).

[درجات الرياء]

واعلم أنَّ أغلظَ الرياءِ هو الرِّياءُ بأصلِ الإيمانِ، وهو النِّفاقُ، وصاحبُهُ مُخلَّدٌ في النار، وهو الذي يُظهِرُ كلمتي الشهادةِ وباطنُهُ مشحونٌ بالتَّكذيبِ، وهو الذي ذَكَرَهُ الله تعالى في كتابِهِ في مواضعَ شتَّى كقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، أي: في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم، وقولِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وكقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

والدرجة الثانية: الرياءُ بفرائضِ العباداتِ مع التَّصديقِ بأصلِ الدين، وهذا أيضاً عظيمٌ عندَ الله تعالى، ولكنَّه دون الأول، كالرِّياءِ بالصلاةِ والزكاةِ وصومِ شهرِ رمضانَ، فصاحِبُهُ يأتي به عند اطِّلاعِ الناسِ، ويتركُهُ في الخلوة للكسل، فتكون منزلتُهُ عند الخلقِ أحبَّ إليه مِنْ منزلتِهِ عند الخالق، وخوفُهُ مِنْ مذمّةِ الناسِ أعظمَ مِنْ خوفِهِ مِنْ عقابِ الله، وهذا غايةُ الجهلِ، وصاحبُهُ أجدرُ بالمقتِ، وإنْ كان غيرَ مُنسَلٍّ عن أصل الإيمانِ مِنْ حيث الاعتقادُ.

والدرجة الثالثة: الرياءُ بالسُّننِ والنوافلِ التي لو تَرَكَها لا يعصي، كحضور الجماعةِ في الصلاة، واتِّباعِ الجنازة، والتَّهجُّدِ بالليلِ، وصومِ عرفةَ وعاشوراءَ ويومِ الاثنين والخميس، فقد يفعلُ المرائي جملةَ ذلك؛ خوفاً مِنَ المذمّةِ، أو طلباً للمحمدة، ويعلمُ الله تعالى منه أنَّه لو خلا بنفسِهِ لَمَا زاد على أداءِ الفرائضِ، فهذا أيضاً عظيمٌ، ولكنَّه دون ما قبلَهُ.

[بيانُ الرياءِ الخفيِّ الذي هو أخفى مِنْ دبيبِ النَّمل]

واعلم أنَّ الرياءَ الخفيَّ الذي هو أخفى مِنْ دبيبِ النملةِ هو ما يُخفِّفُ العملَ الذي أُريدَ به وجهُ الله، كالذي يعتادُ التَّهجُّدَ كلَّ ليلةٍ ويثقلُ عليه، فإذا نَزَلَ عنده ضيفٌ تَنَشَّطَ له وخَفَّ على قلبه.

وأجلى علاماتِهِ: أن يُسَرَّ باطلاعِ الناسِ على طاعته، فَرُبَّ عبدٍ يُخلِصُ في عمله، ولا يعتقدُ الرياءَ بل يكرهُهُ، ولكنْ إذا اطلعَ عليه الناسُ سَرَّهُ ذلك، وارتاح له، ورَوَّحَ ذلك عن قلبه شدّةَ العبادةِ، وهذا السُّرورُ يدلُّ على رياءٍ خفيٍّ منه؛ إذ لولا التفاتُ القلبِ إلى الناس لَما ظَهَرَ سرورُهُ عند اطِّلاعِ الناس، فلقد كان الرِّياءُ مُستكِنّاً في القلبِ استكنانَ النارِ في الحجر، فأظهرَ منه اطلاعُ الخلقِ أثرَ الفرحِ والسرور، ثم إذا استشعرَ لذّةَ السُّرورِ بالاطلاعِ ولم يُقابِلْ ذلك بكراهيةٍ صار ذلك قُوتاً وغذاءً للعِرْقِ الخفيِّ مِنَ الرياء.

وأخفى منه أن يختفيَ بحيثُ لا يريدُ الاطِّلاعَ، ولا يُسرُّ بظهورِ طاعتِهِ، ولكنَّه مع ذلك يُحِبُّ إذا رآه الناسُ أن يَبْدَؤوهُ بالسلامِ، وأن يُقابِلُوهُ بالبشاشةِ والتوقيرِ، وأن يُثْنُوا عليه، وأن يَنْشَطُوا في قضاء حوائجه، وأن يُسامِحُوهُ في البيعِ والشِّراء، وأن يُوسِّعوا له في المكان، فإن قَصَّرَ فيه مُقَصِّرٌ ثَقُلَ ذلك على قلبِهِ، ووجدَ لذلك استبعاداً في نفسه، كأنَّه يتقاضى الاحترامَ على الطاعةِ التي أخفاها مع أنَّه لم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ، ولو لم يكن قد سبقتْ منه تلك الطاعةُ لَما كان يستبعدُ تقصيرَ الناسِ في حقِّهِ، ومهما لم يكن وجودُ العبادةِ كعدمِها في كلِّ ما يتعلَّقُ بالخلقِ لم يكن قد قَنِعَ بعلمِ الله تعالى، ولم يكن خالياً عن شوبٍ خفيٍّ مِنَ الرياءِ أخفى مِنْ دبيبِ النمل، وكلُّ ذلك يُوشِكُ أن يُحبِطَ الأجرَ، ولا يَسْلَمُ منه إلا الصدِّيقون.

وقد روي عن عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: (إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ للقُرّاءِ يومَ القيامة، ألم يكن يُرخَّصْ عليكم السِّعرُ؟ ألم تكونوا تُبتدؤون بالسلام؟ ألم تكن تُقضى لكم الحوائج؟ وقد روي أنَّه يُقالُ لهم: (لا أجْرَ لَكُمْ قَدِ اسْتَوْفَيْتُمْ أُجُورَكُمْ).

ومهما أدركَ العابدُ تفرقةً بين أن يَطَّلِعَ على عبادتِهِ إنسانٌ أو بهيمةٌ ففيه شعبةٌ مِنَ الرياء؛ فإنَّه لو كان مُخلِصاً قانعاً بعلمِ الله تعالى لاستحقرَ اطلاعَ الناسِ عليه كما يستحقرُ اطِّلاعَ البهائمِ.

واعلم أنَّ سرورَ العبدِ حين سترَ الله القبيحَ منه وأظهرَ الجميلَ إذا كان بحسنِ صنعِ الله وجميلِ نظرِهِ له، لا بحمدِ الناسِ وقيامِ المنزلةِ في قلوبهم محمودٌ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، فكأنه ظهرَ له أنَّه عند الله مقبولٌ فَفَرِحَ به، وقد قال ﷺ: «ما سَتَرَ الله على عَبْدٍ ذَنْباً إلا سَتَرَهُ عَلَيْهِ في الآخرةِ»(١).

واعلم أنَّ الدَّواءَ العمليَّ للرياءِ هو أن يُعوِّدَ نفسَهُ إخفاءَ العباداتِ وإغلاقَ الأبوابِ دونها، كما تغلقُ الأبوابُ دون الفواحشِ؛ حتَّى يقنعَ قلبُهُ بعلمِ الله واطِّلاعِهِ على عباداته، فلا دواءَ للرِّياءِ مثلُ الإخفاء، وذلك يشقُّ في بداية المجاهدة، فإذا صَبَرَ عليه مدَّةً هان عليه ذلك بتواصلِ ألطافِ الله، وما يُمِدُّ به عبادَهُ مِنْ حسنِ التَّوفيقِ والتأييد، ولكنَّ ﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فَمِنَ العبدِ المجاهدةُ، ومِنَ الله الهداية، ومِنَ العبدِ قرعُ الباب، ومِنَ الله فتحُ البابِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠).

[مطلب في بيانِ الرخصة
في قصد إظهار الطاعات]

واعلم أنَّ إظهارَ العملِ بالقولِ والفعلِ لا يجوزُ إلا بنيّةِ القدوةِ، قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِها كَانَ لَهُ أَجْرُها وَأَجْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ»[١]، وأما غيرُ المقتدَى به فلا ينبغي له الإظهارُ؛ فإنَّه سببٌ للرياءِ الخفيِّ، فيدعوه إلى الإظهارِ بعذرِ الاقتداء، وإنما شهوتُهُ التَّجمُّلُ بالعملِ وبكونِهِ يقتدى به، وهذا حالُ كلِّ مَنْ يُظهِرُ أعمالَهُ إلا الأقوياءَ المخلصين، وقليلٌ ما هم، فلا يَخدَعِ الضَّعيفُ نفسَهُ بذلك فيهلك، وهو لا يشعرُ.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وسمعتُ سيدي عليّاً الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقولُ: لا ينبغي إظهارُ الأعمالِ إلا للأكابرِ مِنَ العلماءِ والصالحين الغَوَّاصِينَ على دسائسِ النُّفوس، وأما أمثالُنا فرُبَّما يُظهِرُ الواحدُ مِنّا أعمالَهُ رياءً وسمعةً، وتُلَبِّسُ عليه نفسُهُ وتقولُ له: «أنتَ ـ بحمد الله ـ مِنَ المخلصين، وإنما تُظهِرُ هذه العبادةَ ليقتديَ بكَ الناس»، فينبغي لمثلِ هذا أن يمتحنَ نفسَهُ بما لو جاء أحدٌ يفعلُ ذلك الخيرَ وتنقادُ الناسُ له، فإن انشرحَ لذلك فهو مُخلِصٌ، وإن انقبض خاطرُهُ فهو مراءٍ، ولو أنَّه كان مُخلِصاً لَفَرِحَ بذلك أشدَّ الفرحِ، وذلك بأن قَيَّضَ الله تعالى له مَنْ كفاهُ المؤونة، ثم إن قالت له نفسُهُ: إنَّما تشوَّشْتَ لفواتِ الخيرِ العظيمِ الذي كان يحصلُ لك مِنْ حيث هو خيرٌ، فليقُلْ لها: إنِّي مُعتمِدٌ على فضلِ الله لا على الأعمال، فإن دخلتُ الجنّةَ فإنَّما هو برحمةِ الله تعالى لا بعملي.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

فينبغي للعبد أن لا يُصغِيَ لدعوى نفسِهِ في الإخلاصِ، وليمتحِنِ الشيخُ أو المُدرِّسُ نفسَهُ بما إذا فرَّتْ جماعتُهُ كلُّهم منه إلى شخصٍ مِنْ أقرانِهِ، وبَقِيَ وحدَهُ لا يجدُ أحداً يتمشيخُ عليه، فإن انشرحَ لذلك فهو مُخلِصٌ، وإن حَصلَ في نفسِهِ حزازةٌ فالواجبُ عليه أن يَتَّخِذَ له شيخاً يُخرِجُهُ مِنْ ظلمات الرياء، وإلا مات عاصياً، وذهبَ إلى الآخرةِ صِفْرَ اليدين مِنَ الخير؛ لأنَّ الله تعالى لم يقبل له عملاً.

وكان النووي إذا درس في المدرسة الأشرفية بدمشق يوصي الطلبةَ أن لا يجيئوا دفعةً واحدةً؛ خوفاً مِنْ كبرِ الحلقة.

وكان إذا درَّسَ جَلَسَ في عطفةِ المسجدِ، ويقول: إنَّ النَّفسَ تستحلي رؤيةَ الناسِ لها وهي تُدرِّسُ في صحنِ المسجدِ أو صدرِهِ.

وبَلَغَهُ يوماً وهو يُدرِّسُ في جامعِ بني أميَّةَ أنَّ المَلِكَ الظاهرَ عازمٌ على الصلاةِ في الجامع، فَتَرَكَ التَّدريسَ وحضورَ المسجدِ ذلك اليوم.

فإيَّاكَ يا أخي أن تَعْقِدَ لكَ مجلسَ علمٍ أو ذكرِ لله تعالى أو صلاةٍ على رسول الله ﷺ بحيث يراك الناسُ إلا أن تكونَ سالِماً مِنْ هذه العللِ والآفاتِ[١].

ثم قال: وقد بَلَغَنا أنَّ شخصاً صامَ أربعين سنةً لا يشعرُ به أحدٌ، فلم يَزَلْ به إبليسُ حتَّى أوقعَهُ في التحدُّثِ بها، وذلك أنَّ إبليسَ جاء إلى القصَّابِ في هيئةِ فقيرٍ وفي عنقِهِ سُبحةٌ، وعلى كتفِهِ سَجّادةٌ، وصار يقولُ للجَزَّارِ: أعطني هذه القطعةَ المليحةَ مِنَ اللحمِ؛ لأنَّ لي ثلاثةَ أيامٍ صائماً، فلم يزل يُكرِّرُ ذلك حتَّى

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٩٧- ٩٨).

تَحَرَّكَ في قلبِ ذلك العابدِ داعيةٌ إلى إظهارِ صومِهِ، وقال: اكتُمْ صومَكَ أفضلُ لك؛ فإنِّي صائمٌ أربعين سنةً ما شَعَرَ بذلك أحدٌ، فقال له إبليس: أنا إبليسُ، وما لي حاجةٌ باللَّحمِ إلّا أني أريد أن أُوقِعَكَ في إظهارِ صيامِك، ثم قال له إبليس: كيف تقولُ لي اكتُمْ صومَكَ؛ فإنَّه أفضلُ، وتقعُ أنتَ في إظهارِهِ؟ فَنَدِمَ العابدُ[1].

وأما إخفاءُ المعاصي فهو واجبٌ لقولِهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ»[2]، ولئلا يقتدي به أهلُهُ وولدُهُ ومَنْ حولَهُ.

واعلم أنَّ الصَّيحةَ والتَّنَفُّسَ والأنينَ عند قراءةِ القرآنِ والذِّكرِ أو بعضِ مجاري الأحوال تارةً تكونُ مِنَ الصِّدقِ والخوفِ والحزنِ والنَّدَمِ والتأسُّفِ، وتارةً تكونُ لمشاهدةِ حزنِ غيرِهِ وقساوةِ قلبِهِ، فيتكلَّفُ التَّنَفُّسَ والأنينَ ويتحازَنُ، وذلك محمودٌ، وقد يكونُ أصلُ الأنينِ عن الحزنِ، ولكنْ يَمُدُّهُ ويزيدُ في رفعِ الصَّوتِ، فتلك الزيادةُ رياءٌ، وهو محظورٌ، وكذلك ربما حَفِظَ الدَّمعةَ على وجهِهِ حتَّى يُبصِرَها غيرُهُ لأجل الرياء.

[بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه]

واعلم أنَّ أولى ما يُلزِمُ المريدُ قلبَهُ في سائرِ أوقاتِهِ القناعةُ بعلمِ الله في جميعِ طاعاتِهِ، ولا يقنعُ بعلمِ الله إلا مَنْ لا يخافُ إلا الله، ولا يرجو إلا الله.

(م: وهذا هو المعيارُ الصَّحيحُ لنورِ العبدِ وتقواه، قال ابنُ عطاء الله رحمه الله: لا يدلُّ على شعارِ العبدِ كثرةُ عملِهِ، ولا مداومتُهُ على وِرْدِهِ، وإنما يدلُّ على

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢٦٦).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٨٢٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٨٣).

نورِهِ غِناهُ بربِّه، وانحياشُهُ إليه بقلبه، وتحرُّزُهُ مِنْ رقِّ الطمع، وتحلِّيه بحلية الورع، وبذلك تحسنُ الأعمالُ وتزكو الأحوالُ)[1].

وليراقب نفسَهُ عند الطاعاتِ العظيمةِ الشاقةِ التي لا يقدرُ عليها غيرُهُ؛ فإنَّ النفسَ عند ذلك تكادُ تغلي حِرصاً على الإفشاء، وتقول: مثلُ هذا العملِ العظيمِ أو الخوفِ العظيمِ أو البكاءِ العظيمِ لو عَرَفَهُ الخلقُ منكِ لسجدوا لك، فما في الخلقِ مَنْ يقدرُ على مثله، فكيف ترضى بإخفائه فيجهلَ الناسُ محلَّكَ، وينكرون قدرَكَ، ويُحرمون الاقتداءَ بك؟ ففي مثلِ هذا الأمر ينبغي أن يثبتَ قَدَمُهُ، ويتذكَّرَ في مقابلة عظمِ عملِهِ عظمَ ملكِ الآخرةِ ونعيمِ الجنة، ودوامَها أبدَ الآباد، وعظمَ غضبِ الله ومقتِهِ على مَنْ طَلَبَ بطاعتِهِ ثواباً مِنْ عبادِهِ.

ومكائدُ النَّفسِ وخباياها في هذا الفنِّ لا تنحصرُ، ولا يُنجيكَ منها إلا بأن تُخرِجَ ما سوى الله مِنْ قلبِكَ.

---

(١) ينظر: (التنوير في إسقاط التدبير) (١٤٢).

الكتاب التاسع من ربع المهلكات
في ذم الكبر والعجب

(لا ينفعُ مع الكبرِ عملٌ، ولا يضرُّ مع التواضعِ بطالةٌ)[١]
(متى ظَهَرَتْ لكَ حقيقتُكَ صَحَّتْ عبوديتك)[٢]

قال رسول الله ﷺ: يَقُولُ الله تَعَالَى: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ ولا أُبالي»[٣].

وقال ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»[٤].

وجاء في الأثر: «يُحْشَرُ الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى الله تَعَالَى»[٥].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: (إنَّما أَقْبَلُ صلاةَ مَنْ تواضَعَ لِعَظَمَتي، ولم يتعاظَمْ على خَلْقي، وألزمَ قلبَهُ خوفي، وقَطَعَ نهارَهُ بذكري، وكَفَّ نفسَهُ عن الشهواتِ مِنْ أجلي)[٦].

---

(١) من حكم الشيخ أبي مدين الغوث قدس الله سره.

(٢) من حكم الشيخ محمد ماضي أبي العزائم. ينظر: (شراب الأرواح من فضائل الفتاح) (١١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠).

(٤) رواه مسلم (١٤٨)، والترمذي (١٩٩٨).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٢٤).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٨٦).

ويروى أنه خرج يونسُ وأيوبُ والحسنُ رحمهم الله يتذاكرون التواضعَ فقال لهم الحسنُ رحمه الله: (أتدرون ما التواضع؟ التواضعُ: أن تخرجَ مِنْ منزلِكَ ولا تلقى مُسلِماً إلا رأيتَ له عليكَ فضلاً)(١).

وقال الفضيل رحمه الله: (مَنْ أحبَّ الرئاسةَ لم يُفلِحْ أبداً).

وعن الجنيد رحمه الله أنَّه كان يقولُ يومَ الجمعةِ في مجلسِهِ: (لولا أنَّه رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمُ القَوْمِ أَرْذَلُهُمْ»(٢)، ما تكلَّمْتُ عليكم)(٣).

وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: (وَجَدْنا الكرمَ في التَّقوى، والغنى في اليقين، والشَّرَفَ في التواضع)(٤).

[بيان حقيقة الكبر وآفته وعلاجه]

الكبر: رَدُّ الحقِّ، وازدراءُ الناسِ وشَرُّ أنواعِ الكبرِ ما يمنعُ صاحِبَهُ مِن استفادةِ العلمِ وقبولِ الحقِّ والانقيادِ له.

(م: واعلم أنَّ أصلَ الكبرِ مِنْ حيث هو غفلةُ العبدِ عن حقيقته، وغرورُهُ بما أَلْبَسَهُ الله تعالى مِنْ صفاتِ ربوبيَّتِهِ).

ولا يتمُّ الشِّفاءُ إلا بأن يعرفَ نفسَهُ ويعرفَ ربَّه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١١٦).
(٢) رواه الترمذي (٢٢١٠).
(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦٣).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١١٥).

الكبر، فإنَّه مهما عَرَفَ نفسَهُ حقَّ المعرفةِ عَلِمَ أنَّه أذلُّ مِنْ كلِّ ذليلٍ، وأقلُّ مِنْ كلِّ قليلٍ، وأنَّه لا يليقُ به إلا التواضعُ والذِّلَّةُ والمهانةُ، وإذا عَرَفَ ربَّه عَلِمَ أنَّه لا تليقُ العظمةُ والكبرياءُ إلا بالله، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢].

(ش: والعلاجُ الأمثلُ للكبرِ ـ بل ولسائر أمراضِ القلوب ـ أن يشتغلَ بذكرِ الله عزَّ وجلَّ حتَّى يَرِقَّ حجابُ بشريَّتِهِ، ويدخلَ حضرةَ الإحسانِ التي يعبدُ الله تعالى فيها كأنَّه يراه، وهناك يشهدُ العملَ كلَّهُ خَلْقاً لله عز وجل، ليس للعبدِ فيه مدخلٌ إلا كونه مَحَلاً لِبُرُوزِ ذلك العملِ لا غير، وهناك يذهبُ مِنَ العبدِ الرِّياءُ والكبرُ والعجبُ وسائرُ الآفاتِ؛ لأنَّ هذه الآفاتِ إنَّما تجيءُ للعبدِ مِنْ شهودِ كونِهِ فاعلاً لذلك العملِ مع غفلتِهِ عن شهودِ الخالقِ له، فمَنْ لم يَصِلْ إلى دخولِ حضرة الإحسان ويَشْهَدْ أعمالَهُ كلَّها خَلْقاً لله تعالى كشفاً فهو مُعرَّضٌ للوقوعِ في سائر الكبائر).

يروى أنَّ مالكَ بنَ دينارٍ رأى المهلَّبَ وهو يتبخترُ في جُبَّةِ خَزٍّ، فقال: يا عبدَ الله؛ هذه مشيةٌ يُبغِضُها الله ورسولهﷺ، فقال له المهلَّبُ: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفُكَ، أوَّلُكَ نطفةٌ مَذِرةٌ، وآخرتُكَ جيفةٌ قذرةٌ، وأنتَ بين ذلك تحملُ العَذِرة، فمضى المهلَّبُ وتَرَكَ مشيتَهُ تلك[1].

واعلم أنَّ الكبرَ ينقسمُ إلى باطنٍ وظاهرٍ:

فالباطنُ: هو خلقٌ في النفس، والظاهرُ: هو أعمالٌ تصدرُ عن الجوارح.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٤).

واسمُ الكبرِ بالخُلُقِ الباطنِ أحقُّ، وأما الأعمالُ فإنَّها ثمراتٌ لذلك الخُلُق، فإذا ظَهَرَ على الجوارحِ يُقال: تكبَّرَ، وإذا لم يظهر يُقالُ: في نفسِهِ كبرٌ، وهو الاسترواحُ والركونُ إلى رؤيةِ النَّفسِ فوقَ المتكبَّرِ عليه، وبه ينفصلُ الكبرُ عن العجبِ؛ فإنَّ العجبَ لا يستدعي غيرَ المعجبِ، بل لو لم يخلق الإنسانُ إلا وحده تُصُوِّرَ أن يكونَ مُعجَباً، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ مُتكبِّراً إلا مع الغير، وهو أن يرى نفسَهُ فوق ذلك الغيرِ في صفات الكمال.

ولا يكفي أن يستعظمَ نفسَهُ ليكون مُتكبِّراً، فإنَّه قد يستعظمُ نفسَهُ ولكنْ يرى غيرَهُ أعظمَ مِنْ نفسِهِ أو مثلَ نفسِهِ فلا يتكبَّرُ عليه.

ولا يكفي أن يستحقرَ غيرَهُ فإنَّه مع ذلك لو رأى نفسَهُ أحقرَ لم يتكبَّر، ولو رأى غيرَهُ مثلَ نفسِهِ لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسِهِ مرتبةً ولغيرِهِ مرتبةً، ثم يرى مرتبةَ نفسِهِ فوقَ مرتبةِ غيرِهِ، فعند ذلك الاعتقادِ يحصلُ فيه خُلُقُ الكبرِ، وهذه العقيدةُ تنفخُ فيه، فيحصلُ في قلبِهِ هِزّةٌ وفرحٌ، فتلك الهِزّةُ خلقُ الكبر، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الكِبْرِياءِ»(١).

واعلم أنَّه مهما عَظَّمَ عبدٌ قدرَهُ بالإضافةِ إلى غيرِهِ حَقَرَ مَنْ دونَهُ وازدراه، وترفَّعَ عن مجالستِهِ ومؤاكلتِهِ، ورأى أنَّ حقَّه أن يقومَ ماثلاً بين يديه إن اشتدَّ كبرُهُ، فإن كان أشدَّ مِنْ ذلك استنكفَ عن استخدامِهِ ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه، ولا لخدمةِ عتبتِهِ، وإن كان دونَ ذلك فيأنَفُ عَنْ مساواتِهِ، وتقدَّمَ عليه في

---

(١) رواه أبو داود (٧٦٤)، ولفظه: (أعوذ بالله مِن الشيطان مِنْ نفخِهِ ونفثِهِ وهمزه)، قال عمرو بن مرة، أحد الرواة: ونفثه الشعر، ونفخه الكبر، وهمزُهُ الصَّرَعُ أو الجنون، وعند الحاكم في المستدرك (١/ ٢٠٧): (ونفخُهُ الكبرياء).

مضايقِ الطرقِ، وارتفعَ عليه في المحافل، وانتظر أن يبدأهُ بالسلام، واستبعدَ تقصيرَهُ في قضاءِ حوائجِهِ، وتعجَّبَ منه، وإن حاجَّ أو ناظَرَ أَنِفَ أن يُردَّ عليه، وإن وُعِظَ استنكفَ عن القبول، وإن وَعَظَ عنَّفَ في النُّصح، وإن رُدَّ عليه شيءٌ مِنْ قولِهِ غَضِبَ، وإن علَّمَ لم يَرْفِقْ بالمتعلّمين، واستذلَّهُم وانتهرَهُم، وامتنَّ عليهم واستخدمَهم، وينظر إلى العامّةِ كأنَّه ينظر إلى الحميرِ؛ استجهالاً لهم واستحقاراً.

والأعمالُ الصادرةُ عن خلقِ الكبرِ كثيرةٌ، وهي أكثرُ مِنْ أن تُحصَى، وقلَّما يَنفَكُّ عنها العُبّادُ والزُّهّادُ والعلماءُ، فضلاً عن عوامِّ الناس.

وإنما صار الكبرُ حجاباً دونَ الجنةِ؛ لأنَّه يحولُ بين العبدِ وبين أخلاقِ المؤمنين التي هي أبوابُ الجنة، لأنَّه لا يقدرُ على أن يُحبَّ للمؤمنين ما يُحبُّ لنفسِهِ، ولا على التواضعِ الذي هو رأسُ أخلاقِ المتقين، ولا على تركِ الحقدِ والحسدِ والغضبِ، فما مِنْ خُلُقٍ ذميمٍ إلا وصاحبُ العزِّ والكبرِ مضطرٌّ إليه؛ ليحفظَ بها عزَّهُ، وما مِنْ خُلُقٍ محمودٍ إلا وهو عاجزٌ عنه؛ خوفاً مِنْ أن يفوتَهُ عِزُّهُ، فعلى هذا لم يدخلِ الجنّةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ حَبّةٍ منه.

واعلم أنَّ أفحشَ أنواعِ الكبرِ التَّكبُّرُ على الله، وهو أن يدَّعي الرُّبوبيّةَ كفرعون، وأنَّ الخلقَ كلَّهم عبادُ الله، فَمَنْ تَكَبَّرَ على عبدٍ مِنْ عبادِ الله فقد نازعَ الله تعالى.

واعلم أنَّ المتكبّرَ إذا سمعَ الحقَّ مِنْ غيرِهِ استنكفَ عن قبولِهِ، وتشمَّرَ لجحدِهِ، ولذلك ترى المناظرين في مسائلِ الدِّينِ يزعمون أنَّهم يتباحثون عن أسرارِ الدِّين، ثم إنَّهم يتجاحدون تجاحدَ المتكبّرين، ومهما اتَّضحَ الحقُّ على

لسانِ واحدٍ منهم أَنِفَ الآخرُ مِنْ قبولِهِ، واحتالَ لدفعِهِ بما يقدرُ عليه مِنَ التلبيس؛ وذلك مِنْ أخلاقِ الكافرين والمنافقين.

ومِنَ التكبُّرِ أن يرى نفسَهُ عند الله أعلى وأفضلَ مِنْ غيره، فَيَخافُ عليهم أكثرَ ممّا يَخافُ على نفسه، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممّا يرجو لهم، وهذا بأنْ يُسمَّى جاهلاً أولى مِنْ أن يُسمَّى عالِماً، بل العلمُ الحقيقيُّ هو الذي يعرفُ الإنسانُ به نفسَهُ وربَّهُ وخَطَرَ الخاتمةِ وحُجّةَ الله عليه، وهذا يورثُ الخشيةَ والتواضعَ دونَ الكبرِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

واعلم أنَّ العملَ والعبادةَ لا يخلو أكثرُ الناسِ فيهما عن رذيلةِ العزِّ والكبرِ، واستمالةِ قلوبِ الناس، لأنَّهم يرون غيرَهم بزيارتهم أَوْلَى مِنْ أنفسِهِم بزيارةِ غيرِهم، ويتوقَّعونَ قيامَ الناسِ بقضاء حوائجِهم وتوقيرهم، والتوسيعِ لهم في المجالس، وذكرِهم بالورع والتقوى، وتقديمِهم على سائرِ الناسِ في الحظوظِ، وكأنَّهم يرون عبادتَهم منّةً على الخلقِ.

ومنهم مَنْ يرى نفسَهُ ناجياً والناسَ هالكين، وهو الهالكُ تحقيقاً مهما رأى ذلك، قال ﷺ: «إذا سَمِعْتُم الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»[١]، وهذا القولُ يدلُّ على أنَّه مُزدَرٍ بخلقِ الله، مغترٌّ بالله، آمِنٌ مِنْ مكرِهِ، غيرُ خائفٍ مِنْ سطوتِهِ، وكيف لا يخافُ ويكفيه شرّاً احتقارُهُ لغيره، قال ﷺ: «كَفَى بِالمَرْءِ شَرّاً أَنْ يَحْقِرَ أَخَاه المُسْلِم»[٢].

رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيل كان يُقالُ له: «خليعُ بني إسرائيل» لكثرةِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

فسادِهِ مَرَّ برجلٍ آخرَ يُقالُ له: «عابد بني إسرائيل»، وكان على رأس العابدِ غمامةٌ تُظِلُّهُ، فلمّا مَرَّ الخليعُ به قال الخليعُ في نفسه: أنا خليعُ بني إسرائيل وهذا عابدُ بني إسرائيل، فلو جلستُ إليه لعلَّ الله يرحمُني، فجلسَ إليه، فقال العابدُ: أنا عابدُ بني إسرائيل وهذا خليعُ بني إسرائيل، فكيفَ يجلسُ إليَّ؟! فَأَنِفَ منه، وقال له: قُمْ عنِّي، فأوحى الله إلى نبيِّ ذلك الزمانِ: مُرْهُما فليستأنفا العملَ؛ فقد غَفَرْتُ للخليع، وأحبطتُ عملَ العابدِ، وفي روايةٍ: فتحوَّلَتِ الغمامةُ إلى رأس الخليع[1].

فهذا يُعرِّفُكَ أنَّ الله تعالى إنَّما يريدُ مِنَ العبيدِ قلوبَهم، فالجاهلُ العاصي إذا تواضَعَ وذلَّ نفسَهُ هيبةً لله وخوفاً منه فقد أطاعَ الله بقلبه، فهو أطوعُ لله مِنَ العالِمِ المتكبِّرِ والعابدِ المُعجَبِ.

[علامات المتكبِّر]

فَمِنْ علاماتِ التَّكبُّرِ: التَّرفُّعُ في المجالسِ، والتَّقدُّمُ على الأقران، وإظهارُ الإنكارِ على مَنْ يُقصِّرُ في حقِّه، وأدنى ذلك في العالِمِ أن يُصعِّرَ خَدَّهُ للناس[2]؛ كأنَّه مُعرِضٌ عنهم، وفي العابد أنْ يَعْبِسَ وجهَهُ ويُقطِّبَ جبينَهُ كأنَّه مُنزَّهٌ عن الناس، وليس يعلمُ المسكينُ أنَّ الورعَ ليس في الجبهةِ حتَّى تُقطَّبَ، ولا في الوجهِ حتَّى يُعبَسَ، ولا في الخدِّ حتى يُصعَّرَ، ولا في الرقبةِ حتى تُطأطَأَ؛ إنَّما الورعُ في القلوبِ، قال ﷺ: «التَّقْوى ههُنا» وأشار إلى صدرِهِ[3].

---

(١) ينظر: (الرعاية) (٣٨٨)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٢٦).

(٢) صَعَّرَ خَدَّهُ: أمالَهُ عُجْباً وكِبْراً.

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

وقد يظهرُ التَّكبُّرُ في مشيهِ وتبختُرِهِ، وقيامِهِ وجلوسِهِ، وسائرِ تقلُّباتِهِ في أحوالِهِ وأقواله، ومِنَ المتكبّرينَ مَنْ يجمعُ ذلك كلَّهُ، ومنهم مَنْ يتكبَّرُ في بعضٍ ويتواضعُ في بعضٍ.

ومنها: أن يُحبَّ قيامَ الناسِ له أو بينَ يديه، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: (مَنْ أراد أن ينظر إلى رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ فلينظر إلى رجلٍ قاعدٍ وبين يديه قومٌ قيامٌ).

وقال أنسٌ رضي الله عنه: (لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم مِنْ رسولِ الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لِما يعلمون مِنْ كراهتِهِ لذلك)[1].

ومنها: أن لا يمشيَ إلا ومعه غيرُهُ يمشي خلفَهُ، وقد كان رسولُ الله ﷺ في بعض الأوقاتِ يمشي مع الأصحابِ، فيأمرُهُم بالتقدُّمِ ويمشي في غمارهم[2].

ومنها: أن لا يزورَ غيرَهُ وإنْ كان يحصلُ مِنْ زيارتِهِ خيرٌ.

ومنها: أن يستنكفَ مِنْ جلوسِ غيرِهِ بالقربِ منه إلا أن يجلسَ بين يديه.

ومنها: أن يتوقَّى مجالسةَ المرضى والمعلولينَ، ويتحاشى عنهم.

ومنها: أن لا يتعاطى بيدِهِ شغلاً في بيته.

ومنها: أن لا يأخذَ متاعَهُ ويحملَهُ إلى بيته، وكان أبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ رضي الله عنه وهو أميرٌ يحملُ سَطْلاً له مِنْ خشبٍ إلى الحمام، وقال ثابتُ بنُ أبي مالك رضي الله عنه: رأيتُ أبا هريرةَ رضي الله عنه أقبلَ مِنَ السُّوقِ يحملُ حزمةَ حطبٍ، وهو يومئذٍ خليفةٌ لمروان، وقال بعضُهم: رأيتُ عليّاً رضي الله عنه قد اشترى تمراً فَحَمَلَهُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٥٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٥).

في مِلْحَفَتِهِ، فقلتُ له: أحملُ عنك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، أبو العيالِ أحقُّ أن يحملَ.

ومنها: التفاخرُ في اللِّباس، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «البَذَاذَةُ مِنَ الإيمانِ»[١]، ومعنى البذاذة: الدُّونُ مِنَ اللباس.

وقال زيدُ بنُ وهبٍ رضي الله عنه: (رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه خَرَجَ إلى السُّوقِ وعليه إزارٌ فيه أربعَ عشرةَ رقعةً)[٢].

وقال عيسى عليه السلام: (جودةُ الثِّيابِ خيلاءُ القلب)[٣].

وقد سئل نبيُّنا ﷺ عن الجمالِ في الثياب هل هو مِنَ الكبرِ فقال: «لَا، وَلَكِنْ مَنْ سَفِهَ الحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ»[٤].

واعلم أنَّ الثوبَ الجديدَ ليس مِنْ ضرورتِهِ أن يكونَ مِنَ التَّكبُّرِ في حقِّ كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ؛ فإنَّ الأحوالَ تختلفُ في مثل هذا، والمحبوبُ الوسطُ مِنَ اللباس الذي لا يوجبُ شهرةً بالجودة ولا بالرداءة.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: اعلم يا أخي أنَّ التواضعَ حقيقةً إنَّما هو في النَّفسِ لا في الثياب، وربما يَلْبَسُ الإنسانُ العباءَةَ والخيشَ، وعنده مِنَ الكبرِ ما ليس عند أهل اللُّبسِ الرفيع، فليتفقَّدِ الإنسانُ نفسَهُ عند لبسِ الخيشِ والخَلَقِ، فرُبَّما يكونُ يرى نفسه بذلك على أصحابِ اللباسِ الرَّفيعِ فيمقته الله

(١) رواه أبو داود (٤١٦١).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٣٠).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٤٥).
(٤) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨).

وهو لا يشعرُ، وما رَقَّعَ السلفُ الصالحُ ثيابَهم إلا لقلَّةِ الحلالِ في زمانهم بالنظرِ لمقامِهم[1]).

[التواضعُ خُلُق رسول الله ﷺ]

واعلم أنَّ التواضعَ هو سيرةُ رسولِ الله ﷺ، فقد حدَّثَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه عن أخلاقِهِ ﷺ فقال: كان يقمُّ البيتَ، ويحلبُ الشاةَ، ويخصفُ النَّعلَ، ويرقعُ الثوبَ، ويأكلُ مع خادمِهِ، ويطحنُ عنه إذا أعيا، ويشتري الشيءَ مِنَ السوق، ولا يمنعُهُ الحياءُ أن يُعلِّقَهُ بيده، أو يجعلَهُ في طرفِ ثوبِهِ، ويصافحُ الغنيَّ والفقيرَ، والصَّغيرَ والكبيرَ، ويُسلِّمُ مُبتدئاً على كلِّ مَنِ استقبلَهُ مِنْ صغيرٍ أو كبير، حرٍّ أو عبدٍ، ليس له حُلّةٌ لمدخلِهِ وحُلّةٌ لمخرجِهِ، لا يستحيي مِن أن يجيبَ إذا دُعِيَ وإنْ كان أشعثَ أغبرَ، ولا يستحقرُ ما دُعِيَ إليه وإنْ لم يجد إلا الخلَّ، وكان هَيِّنَ المؤنةِ، لَيِّنَ الخُلُقِ، كريمَ الطبيعةِ، جميلَ المعاشرةِ، طليقَ الوجهِ، بَسّاماً غيرَ ضحاكٍ، محزوناً مِنْ غير عبوسٍ، متواضعاً في غير مذلّةٍ، جواداً مِنْ غيرِ سرفٍ، رحيماً بكلِّ أحدٍ، رقيقَ القلبِ، دائمَ الإطراقِ، لم يتجشَّأْ قطُّ مِنْ شبعٍ، ولا يمدُّ يدَهُ مِنْ طمعٍ.

فلمّا سمعتْ عائشةُ رضي الله عنها مقالَهُ صدَّقَتْهُ وزادت: ولم يمتلىء قطُّ شبعاً، ولم يبثَّ إلى أحدٍ شكوى، وكانت الفاقةُ أحبَّ إليه مِنَ اليسارِ والغنى، وإن كان ليظلُّ جائعاً يلتوي ليلتَهُ حتَّى يصبحَ، فما يمنعُهُ ذلك عن صيامِ يومِهِ، ولو شاء أن يسألَ ربَّه فيُؤتى بكنوزِ الأرضِ وثمارِها ورغدِ عيشِها مِنْ مشارقِ الأرضِ ومغاربِها لَفَعَلَ.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٥٢٥).

فَمَنْ طلبَ التواضعَ فليقتدِ به ﷺ، ومَنْ لم يرض لنفسِهِ بما رضي هو به فما أشدَّ جهلَهُ، فلقد كان أعظمَ خلقِ الله مَنْصِباً في الدُّنيا والدِّين، فلا عزَّ ولا رفعةَ إلا في الاقتداءِ به، ولذلك قال عمرُ رضي الله عنه: (إنَّا قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فلا نطلبُ العِزَّ في غيره)، وذلك لَمّا عُوتِبَ في بذاذةِ هيئتِهِ عند دخولِهِ الشامَ[1].

[كيف يُعرَفُ المتكبِّرُ من المتواضع]

واعلم أنَّ مَنِ ادَّعى البراءةَ مِنَ الكبرِ فليُجرِّبْ أفعالَ المتواضعين في مواقعِ هيجانِ الكبرِ في النفس، والامتحاناتُ كثيرةٌ:

فمنها: قبولُ الحقِّ مِنَ الأقران، فإن ثَقُلَ عليه قبولُهُ والاعترافُ به والشُّكرُ له على تنبيهِهِ وتعريفِهِ فذلك يدلُّ على أنَّ فيه كبراً دفيناً، فليتقِ اللهَ وليشتغلْ بعلاجه.

وعلاجُهُ: الاعترافُ بالحقِّ والإقرارُ بالعجز، وإطلاقُ الثناءِ والدُّعاءِ له بأن يقولَ له: جزاك الله خيراً عمَّا نَبَّهتني له؛ فالحكمةُ ضالّةُ المؤمن، وإذا وجدها ينبغي أن يشكرَ مَنْ دَلَّهُ عليها، فإذا واظبَ على ذلك مراتٍ متواليةً صار ذلك له طبعاً، وسقطَ ثِقَلُ قبولِهِ، وإن ثَقُلَ عليه قبولُهُ في الملأ والخلوةِ ففيه كبرٌ ورياءٌ، وإن ثَقُلَ في الملأ دونَ الخلوةِ ففيه رياءٌ وليس فيه كبرٌ، فليُعالجِ الرياءَ بما ذكرناه مِنْ قطعِ الطمعِ عن الناس.

ومنها: أن يجتمعَ مع الأقرانِ والأمثالِ في المحافلِ، ويُقدِّمَهم على نفسِهِ، فإن ثَقُلَ عليه ذلك فهو متكبِّرٌ، فليواظِبْ عليه تكلُّفاً حتى يسقطَ عنه ثِقَلُهُ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦١).

وههنا للشيطان مكيدةٌ، وهو أن يجلس في صفّ النّعال، أو يجعل بينه وبين الأقرانِ بعض الأراذلِ فيظنُّ أنّ ذلك تواضعٌ وهو عينُ الكبر؛ فإنّ ذلك يخفّ على نفوسِ المتكبرين؛ إذ يوهمون أنّهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضّل، فيكون قد تكبّرَ، وتكبّرَ بإظهارِ التواضعِ أيضاً، بل ينبغي أن يُقدّم أقرانهُ ويجلس بجنبهم، ولا ينحطّ عنهم إلى صفّ النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبرِ من الباطن.

ومنها: إجابةُ دعوةِ الفقير، والمرورُ في السُّوق للقيامِ بحاجة الرفقاء والأقارب، ويحملُ حاجةَ نفسِهِ وحاجةَ أهلِهِ إلى البيت، فإن أَبَتْ نفسُهُ ذلك فهو كبرٌ أو رياءٌ، فإن ثَقُلَ عليه مع خلوّ الطريقِ فهو كبرٌ، وإن كان الثّقَلُ عند مشاهدةِ الناس فهو رياءٌ.

ومنها: أن يلبسَ ثياباً بَذلةً؛ فإنَّ نفورَ النَّفسِ عن ذلك في الملأ رياءٌ، وفي الخلوةِ كبرٌ.

واعلم أنَّ مَنْ لا يَعْرِفُ الشَّرَّ لا يتقيه، ومَنْ لا يُدرِكُ المرضَ لا يُداويه.

[بيان غاية الرياضة في خلق التواضع]

اعلم أنَّ هذا الخلقَ كسائرِ الأخلاقِ، له طرفانِ وواسطةٌ: فَطَرَفُهُ الذي يميلُ إلى الزيادةِ يُسمَّى تكبُّراً، وطرفُهُ الذي يميلُ إلى النُّقصانِ يُسمَّى تخاسُساً ومَذلّةً، والوسطُ يُسمَّى تواضعاً.

والمحمودُ أن يتواضعَ مِنْ غيرِ مذلّةٍ وتخاسُسٍ، فكلا طرفي الأمورِ ذميمٌ، وأحبُّ الأمورِ إلى الله تعالى أوساطُها، فَمَنْ يتقدَّمُ على أمثالِهِ فهو متكبّرٌ، ومَنْ يتأخرُ عنهم فهو متواضعٌ، أي: وَضَعَ شيئاً مِنْ قدرِهِ الذي يستحقُّهُ.

والعالِمُ إذا دخلَ عليه إسكافٌ فَتَنَحَّى له عن مجلسِهِ وأجلسَهُ فيه، ثم تقدَّمَ وسوَّى له نعلَهُ وغدا إلى بابِ الدار خلفَهُ فقد تخاسَسَ وتذلَّلَ، وهذا أيضاً غيرُ محمودٍ، بل المحمودُ عند الله العدلُ، وهو أن يُعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فينبغي أن يتواضعَ بمثلِ هذا لأمثالِهِ ولِمَنْ يقربُ مِنْ درجتِهِ، وأمّا تواضعُهُ للسُّوقيِّ فبالقيامِ، والبشرِ في الكلام، والرِّفقِ في السؤال، وإجابةِ دعوتِهِ، والسَّعي في حاجتِهِ، وأمثالِ ذلك، وأن لا يرى نفسَهُ خيراً منه، بل يكون على نفسِهِ أخوفَ منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره؛ فهو لا يعرفُ خاتمةَ أمرِهِ.

فإذاً سبيلُهُ في اكتسابِ التواضع أن يتواضعَ للأقرانِ ولِمَنْ دونَهم حتَّى يخفَّ عليه التواضعُ المحمودُ، فإن ثَقُلَ عليه فهو متكلِّفٌ لا متواضعٌ، وإن خفَّ عليه وصَدَرَ عنه الفعلُ بسهولةٍ فهو متواضع.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نتواضعَ لإخوانِنا المسلمين، بمعنى أننا نرى نفسَنا دونَهم في المقام، وقد تحقَّقنا به ـ بحمد الله تعالى ـ على يد سيدي علي الخواص، فلستُ أرى لي مقاماً على أحدٍ مِنَ المسلمين، ولَوْ بَلَغَ في الفسقِ ما بَلَغَ، فالحمد لله رب العالمين.

وينبغي لكلِّ إنسانٍ أن يتحرَّى في نفسِهِ التواضع فربما يقولُ بلسانه: «نحن مِنْ أقلِّ الناس»، «نحن تراب»، وإذا احتقرَهُ إنسانٌ أو نقَّصه تضيقُ عليه الدُّنيا بما رحبت، فأينَ قولُهُ: «نحن مِنْ أقلِّ الناس»؟ ولو أنَّه كان صادقاً لرأى أنَّ جميعَ ما نقصه المُنقِّصون دونَ ما يعرفه هو مِنْ صفاتِ نفسِهِ الخبيثة[1].

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ١٩).

ثم قال رضي الله عنه: ومَنْ تحقَّقَ بهذا العهد صار الوجودُ كلُّهُ في مرتبةِ الشيخِ له، إذ مَنْ رأى الكمالَ في كلِّ شيء استمدَّ مِنْ كلِّ شيءٍ سواء كان ناطقاً أو صامتاً، فلا تحصى أشياخه؛ إذ ما مِنْ شيءٍ في الوجود إلا وقد جعل الحق فيه خصيصةً لم تكن في غيره من سائر الوجودِ.

فعُلِمَ أنَّ كلَّ مَنْ تحقَّقَ بهذا المقام يستمدُّ مِنْ كلِّ جليس، ومَنْ رأى نفسَهُ فوقَ جليسِهِ أو مساوياً له حُرِمَ مددَهُ، وذلك أنَّ المددَ كالماء لا ينحدرُ إلا في السُّفليات)[1].

*

(١) ينظر: (البحر المورود في المواثيق والعهود) (٤٠) بتصرُّفٍ يسير.

الشطر الثاني في ذم العجب وآفاته

(لا تُفرِحْكَ الطَّاعَةُ لأَنَّها بَرَزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لأَنَّها بَرَزَتْ مِنَ الله إليكَ)[١]

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، قال ابنُ جريج رحمه الله : معناه: إذا عملتَ خيراً فلا تقل: عملتُ.

وقال النبي ﷺ: «ثَلاثٌ مُهْلِكاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»[٢].

وقيل لعائشةَ رضي الله عنها: متى يكونُ الرجلُ مسيئاً؟ قالت: إذا ظَنَّ أنَّه مُحسِنٌ[٣].

وقال مطرفٌ رحمه الله : (لَأَنْ أبيتَ نائماً وأُصبِحَ نادماً أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أبيتَ قائماً وأُصبِحَ مُعجَباً)[٤].

ومِنْ أعظمِ آفاتِ العجبِ أنَّه يغترُّ في السعي لظنِّه أنَّه قد فاز وأنَّه قد استغنى، وهو الهلاكُ الصريحُ الذي لا شبهة فيه.

---

(١) الحكمة (٥٨) من الحكم العطائية.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥٤٤٨).

(٣) أورده المحاسبي في (الرعاية) (٣٣٧).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٠).

والعجبُ: استعظامُ النِّعمةِ، والركونُ إليها مع نسيانِ إضافتِها إلى المنعِمِ.

وحقيقةُ العجبِ: تكبُّرٌ يحصلُ في الباطن بتخيُّلِ كمالٍ مِنْ علمٍ وعملٍ، فإن كان خائفاً على زوالِهِ فهو غيرُ مُعجَبٍ، وإن كان يفرحُ بكونِهِ نعمةً مِنَ الله فليس بمعجبٍ أيضاً، بل هو مسرورٌ بفضلِ الله تعالى، وإن كان ناظراً إليه مِنْ حيثُ صفتُهُ، غيرَ ملتفتٍ إلى إمكان الزوالِ، وغيرَ منتبهٍ أنَّه عطيّةٌ مِنَ الله تعالى فهذا هو المعجبُ.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: وسمعتُ سيدي عليّاً الخواص يقول: مِن أين يكونُ لمثلي أن يقفَ بين يدي الله عزَّ وجلَّ، واللهِ إني لأكادُ أذوبُ خجلاً وحياءً مِنَ الله؛ لِما أتعاطاه مِنْ سوءِ الأدبِ معه حالَ خطابه في الصلاة، فإنَّ أمّهاتِ آدابِ خطابِهِ تعالى مائةُ ألفِ أدب، ما أظنُّ أنني عَمِلْتُ منها بعشرةِ آداب، فأنا إذا وقفتُ بين يديه في صلاةٍ أو غيرها مِنَ العبادات كانت إلى العقوبةِ أقربَ، فكيف أطلبُ الثواب؟

وسمعتُهُ مرّةً أخرى يقولُ: يجبُ على العبدِ أن يستقلَّ عبادتَهُ في جانبِ الرُّبوبية، ولَوْ عَبَدَ ربَّه عبادةَ الثقلين، بل ولَوْ عَبَدَهُ هذه العبادةَ على الجمرِ مِنِ ابتداءِ الدنيا إلى انتهائها ما أدّى شكرَ نعمةِ إذنِهِ له بالوقوفِ بين يديه في الصلاةِ لحظةً ولَوْ غافلاً، وكذلك ينبغي له إذا قلَّتْ طاعاتُهُ أن يرى أنَّ مثلَهُ لا يستحقُّ ذلك القليل، ومَنْ شَهِدَ هذا المشهدَ حُفِظَ مِنَ العجبِ في أعمالِهِ، وحُفِظَ مِنَ القنوطِ مِنْ رحمة الله تعالى.

وسمعتُ أخي أفضل الدين يقول: واللهِ إني لأقومُ أصلِّي بالليل فأرى نفسي بين يدي الله كالمجرمِ الذي قَتَلَ النَّفسَ وفعلَ سائرَ الفواحش، وأرى الجميلةَ

لله تعالى الذي أَذِنَ لي في الوقوفِ بين يديه ولم يطردني في جملة واحدةٍ كما طَرَدَ التاركين للصلاة.

وسمعتُهُ مرَّةً أخرى يقول: مِنْ شرطِ الكاملِ في الطريقِ أنه يكاد يذوبُ حياءً مِنَ الله تعالى.

وكان سيدي أبو المواهب الشاذلي يقول: حرامٌ على أهلِ النُّفوس الدخولُ إلى حضرةِ القُدُّوس)[1].

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٣٠١، ٣٠٢).

الكتاب العاشر من ربع المهلكات
في ذم الغرور

(ما قادَكَ شيءٌ مثلُ الوَهْمِ)[١]

اعلم أنَّ مفتاحَ السعادةِ التَّيَقُّظُ والتَّنَبُّهُ، ومنبعَ الشقاوةِ الغرورُ والغفلةُ، فالموفَّقُ مَنْ عَرَفَ مداخلَ الآفاتِ والفسادِ، فأخذَ منها حذرَهُ، وبنى على الحزمِ والبصيرةِ أمرَهُ.

واعلم أنَّ المغرورَ بالدنيا إذا أقبلتِ عليه ظنَّ أنَّها كرامةٌ مِنَ الله، وإذا صُرِفَتْ عنه ظنَّ أنَّه هوانٌ، كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧] أي: ليس كما قال، إنما هو ابتلاءٌ، فبيَّنَ أنَّ ذلك غرورٌ.

قال الحسنُ رضي الله عنه: كذَّبَهما جميعاً بقوله: ﴿كَلَّا﴾، يقول: ليس هذا بإكرامي، ولا هذا بهواني، ولكنَّ الكريمَ مَنْ أكرمتُهُ بطاعتي غنياً كان أو فقيراً.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] أنَّهم كُلَّما أحدثوا ذنباً أحدثَ الله لهم نعمةً ليزيدَ غرورهم.

وأما أربابُ البصائر، إذا أقبلت عليهم الدُّنيا حَزِنوا وقالوا: ذنبٌ عُجِّلَتْ

---

(١) الحكمة (٦١) من الحكم العطائية.

عقوبته، ورأوا ذلك أمارة المقت والإهمال؛ وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين.

واعلم أنَّ منشأ هذا الغرورِ الجهلُ بالله وبصفاته؛ فإنَّ مَنْ عرفه لا يأمَنْ مكرهُ، وينظر إلى قارون وغيره كيف أحسن الله إليهم ابتداءً ثم دمّرهم تدميراً، وقد حذّر الله مكرهُ واستدراجهُ فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

واعلم أنَّ قولَ العصاةِ والفُجّارِ: «إن الله كريم، وإنا نرجو مغفرتَهُ ورحمتَهُ» قولٌ صحيحٌ مقبولٌ، لكنْ فيه غرورُ الشيطان، فإنَّ الشيطانَ لا يغوي الإنسانَ إلا بكلامٍ مقبول الظاهرِ مردودِ الباطن، ولولا حسنُ ظاهرِهِ لَمَا انخدعت به القلوبُ، وقد كشف النبيُّ ﷺ عن ذلك وقال: «الكَيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1]، وهذا هو التمني على الله تعالى، غيّرَ الشيطانُ اسمَهُ فسمّاهُ رجاءً؛ حتّى خَدَعَ به الجُهّالَ.

وقد شَرَحَ الله الرجاءَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فإنَّ مَنْ رجا شيئاً طَلَبَهُ، ومَنْ خاف شيئاً هَرَبَ منه، والخوفُ والرجاءُ قائدانِ وسائقانِ يبعثانِ الناسَ على العمل، فما لا يبعثُ على العملِ فهو تَمَنٍّ وغرورٌ، ورجاءُ كافّةِ الخلقِ هو سببُ فتورِهم وسببُ إقبالِهم على الدُّنيا وإعراضِهم عن الله تعالى وإهمالِهم السَّعيَ للآخرة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

[غرور أهل العلم]

قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: كفى بخشيةِ الله عِلماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

واستُفْتِيَ الحسنُ عن مسألةٍ فأجاب، فقيل له: إنَّ فقهاءَنا لا يقولون ذلك.

فقال الحسنُ: وهل رأيتَ فقيهاً قطُّ؟ الفقيهُ: القائمُ ليلَهُ، الصائمُ نهارَهُ، الزاهدُ في الدنيا[1].

واعلم أنَّ مَنْ رَغِبَ في طلبِ الدُّنيا وأقبلَ على الرياسةِ وأعرضَ عن الآخرةِ فهو دجّالُ الدِّين، وقوّامُ مذهبِ الشياطين، لا إمامُ الدين؛ إذ الإمامُ هو الذي يُقتدَى به في الإعراضِ عن الدنيا والإقبالِ على الله، كالأنبياء والصحابة وعلماء السلف، والدَّجالُ: هو الذي يُقتدَى به في الإعراضِ عن الله والإقبالِ على الدنيا، فلعلَّ موتَ هذا أنفعُ للمسلمين مِنْ حياته، ومثلُهُ كما قال المسيحُ عليه السلام: (العالِمُ السُّوءُ كصخرةٍ وَقَعَتْ في فمِ الوادي، فلا هي تشربُ الماءَ، ولا هي تتركُ الماءَ يخلُصُ إلى الزَّرعِ).

وأصنافُ غرورِ أهلِ العلمِ في هذه الأعصارِ المتأخِّرةِ خارجةٌ عن الحصر.

واعلم أنَّه مَنْ ظَنَّ بنفسه أنَّه موصوفٌ بالصِّفاتِ المحمودةِ فليُجرِّبْ نفسَهُ على طريق الامتحان، وهو أن يدعي حُبَّ الله مثلاً، فما الذي تركه مِنْ محابِّ الدنيا لأجله؟ ويدَّعي الخوفَ، فما الذي امتنعَ منه بالخوف؟ ويدعي الزهدَ، فما الذي تركه مع القدرةِ عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعي الأنسَ بالله، فمتى طابَتْ له

---

(١) ينظر: (الرعاية) (٤٤٧).

الخلوةُ؟ ومتى استوحشَ مِنْ مشاهدة الخلق؟ فالأكياسُ يمتحنون أنفسَهم بهذه الصفات، ويطالبونها بالحقيقةِ ولا يقنعون منها بالتزويق، والمغترون يُحسّنون بأنفسِهم الظنون، وإذا كُشِفَ لهم الغطاءُ في الآخرة يفتضحون.

واعلم أنَّ أهلَ السلوك إذا انفتحت لهم أبوابُ المعرفة، وتَشَمَّموا مِنْ مبادىء المعرفةِ رائحةً تعجَّبوا منها، وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتُها، فتقيَّدَتْ قلوبُهم بالالتفافِ إليها والتفكرِ فيها، وفي كيفيةِ انفتاحِ بابها عليهم، وانسدادِهِ على غيرهم، وكلُّ ذلك غرورٌ؛ لأنَّ عجائبَ طريقِ الله ليس لها نهاية، فلو وَقَفَ مع كلِّ أعجوبةٍ وتقيَّدَ بها قَصُرَتْ خُطاه، وحُرِمَ عن الوصول إلى المقصد.

وأنواعُ الغرورِ في طريقِ السلوكِ إلى الله لا تُحصَى في مجلدات، ولا تُستقْصَى إلا بعدَ شرحِ جميعِ علوم المكاشفة، وذلك مما لا رخصةَ في ذكره، وبالجملةِ متى استقامَ القلبُ تنبَّهَ لمداخلِ الغرور، فلا يبقى منه شيء إلا وقد وُفِّقَ لقمعِهِ، ولا يكون ذلك إلا لِمَنْ صَدَقَتْ إرادتُهُ، وقَوِيَتْ هِمَّتُهُ.

[مطلب في ذكر مواطن الغرور وتلبيسات إبليس في مظاهر الوجود]

(ش: قال الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس الله سره: اعلم أنَّ إبليس له في الوجود تسعة وتسعون مظهراً، على عدد أسماء الله تعالى الحسنى، وله تنوّعات في تلك المظاهر لا يُحصى عددها، ويطول علينا استيفاء شرح مظاهره جميعها، فلنكتف منها على سبع مظاهر هي أمّهات جميع تلك المظاهر.

الأول: الدُّنيا وما بُنِيَتْ عليه، كالكواكبِ والعناصر، فظهورُ إبليسَ على أهل الشّركِ ـ في الدُّنيا وما بُنِيَتْ عليه كالعناصرِ والأفلاكِ ـ بهذه المظاهرِ، فيُغويهم أوّلاً بزينةِ الدُّنيا وزخارفِها حتّى يَذْهَبَ بعقولِهم ويُعمِي على قلوبِهم، ثمَّ يَدُلُّهم على أسرارِ الكواكبِ وأصولِ العناصرِ وأمثالِ ذلك، فيقول لهم: هؤلاء الفَعّالونَ في الوجود، فيعبدونَ الأفلاكَ لِمَا يَرَونَهُ مِنْ صحَّةِ أحكامِ الكواكب، ولِمَا يشهدونَهُ مِنْ تربيةِ الشَّمسِ بحرارتِها لأجسامِ الوجود، ولِمَا يَنْظُرونَهُ مِنْ نزولِ المطرِ على حسابِ الطّوالِعِ والغوارب، فلا يَخْتَلِجُ لهم خاطرٌ في ربوبيّةِ الكواكب، فإذا أَحْكَمَ فيهم هذه الأصولَ تَرَكَهُم كالبهائمِ لا يَسْعَوْنَ إلّا للمآكل والمشارب، ولا يؤمنون بقيامة ولا غيرِها، فَيَقْتُلُ بعضُهم بعضاً ويَنْهَبُ بعضُهم بعضاً، قد غرقوا في بحارِ ظلمةِ الطّبائع، فلا خلاصَ لهم منها أبداً. وكذلك يفعلُ بأهلِ العناصرِ فيقولُ لهم: ألا ترونَ أنَّ الجسمَ مُرَكَّبٌ مِنَ الجوهر، والجوهرُ مُرَكَّبٌ مِنْ حرارةٍ وبرودةٍ ورطوبةٍ ويُبُوسةٍ، فهؤلاءِ الآلهةُ التي تَرَتَّبَ الوجودُ عليهم، وهم الفَعّالون في العالَم، ثمَّ يفعلُ بهم ما فَعَلَ بالأوّل. وكذلك عبدَةُ النّارِ فإنّه يقولُ لهم: ألا ترونَ أنَّ الوجودَ مُنقَسِمٌ بينَ الظُّلمةِ والنُّور، فالظُّلمةُ إلهٌ يُسمَّى «أهرمن»، والنُّورُ إلهٌ يُسمَّى «يزدان»، والنّارُ أصلُ النُّورِ فيعبدونَها، ثمَّ يفعلُ بهم ما فَعَلَ بالأوّل، وهكذا فِعلُهُ بجميع المشركين.

الثاني: الشَّهواتُ واللَّذّات، فَيَظْهَرُ إبليسُ فيها للمسلمينَ العوامّ، فيُغويهم أوّلاً بمحبّةِ الأمورِ الشّهوانيّة، والرّغبةِ إلى اللّذّاتِ الحيوانيّةِ مِمّا اقْتَضَتْهُ الطَّبيعةُ الظُّلمانيّة حتّى يُعميَهم، فعند ذلك يَظْهَرُ لهم في الدُّنيا ويُخبِرُهُم بأنَّ هذه الأمورَ المطلوبةَ لا تَحصُلُ لهم إلّا بالدُّنيا، فَيَنْهَمِكُونَ في حبِّها ويستمرُّونَ في طلبِها، فإذا فَعَلَ بهم هذا تَرَكَهُم، فإنّه لا يحتاجُ معهم بعدَ هذا إلى علاج، فإذا صاروا

أتباعَهُ فلا يَعْصُونَهُ في شيءٍ يأمرُهُم به؛ لمقارنةِ الجهلِ بحبِّ الدُّنيا، فلو أَمَرَهُم بالكفرِ لَكَفَرُوا، فحينئذٍ يَدْخُلُ عليهم بالشَّكِّ والوسواسِ في الأمورِ المُغيَّبةِ التي أخبرَ اللهُ عنها، فيُوقِعُهُم في الإلحاد.

الثالث: العُجْبُ والغُرُور في الأحوال، فَيَظْهَرُ إبليسُ في أعمالِ الصَّالحين، فَيُزَيِّنُ لهم ما يصنعونَهُ؛ لِيُدْخِلَ عليهم العُجب، فإذا أَدْخَلَ عليهم العُجْبَ بنفوسِهِم وأعمالِهِم غَرَّهُم بما هم عليه، فلا يقبلونَ مِنْ عالِمٍ نصيحةً، فإذا صاروا عندَهُ بهذهِ المثابةِ قال لهم: يكفي لو عَمِلَ غيرُكُم عُشْرَ مِعشارِ ما تَعْمَلُونَهُ لَنَجا، فَقَلَّلُوا في الأعمال، وأَخَذُوا في الاستراحات، واستعظَمُوا أنفسَهُم، واستخَفُّوا بالنّاس، ثمَّ إذا أَكْسَبَهُم هذهِ الأشياءَ مع بؤسِ ما كانوا عليه مِنْ سوءِ الخُلُقِ وسوءِ الظَّنِّ بالغيرِ انتقلوا إلى الغيبة، ورُبّما يُدْخِلُ عليهم المعاصيَ واحدةً بعدَ واحدة، ويقولُ لهم: افعلوا ما شئتم فإنّ اللهَ غفورٌ رحيم، واللهُ ما يُعذِّبُ أحداً، إنَّ اللهَ يستحيي مِنْ ذي شيبةٍ، إنَّ اللهَ كريم، حاشا الكريمُ أن يُطالِبَ بحقِّهِ، حتَّى يَنْقُلَهُم عمَّا كانوا عليه مِنَ الصَّلاحِ إلى الفسق.

الرابع: النِّيّاتُ والتّفاضُلُ بالأعمال، فَيَظْهَرُ إبليسُ في النِّيّاتِ والتَّفاضُلِ بالأعمال على الشُّهداء، فيُفْسِدَ نِيّاتِهم لِتَفْسُدَ أعمالُهُم، فبينما أنَّ العاملَ منهم يَعْمَلُ للهِ تعالى، يَدُسُّ عليه شيطاناً في خاطرِهِ يقولُ له: أَحْسِنْ أعمالَكَ فالنَّاسُ يَرَوْنَكَ لعلَّهم يقتدونَ بك، هذا إذا لم يَقْدِرْ أنْ يجعلَهُ رياءً وسُمعةً ليقالَ: فلانٌ كذا وكذا، فإنَّه يَدْخُلُ عليه مِنْ حيثُ الخير.

ثمَّ يأتي إليه وهو في عملٍ مثلاً كقراءةِ قرآنٍ يقولُ له: هَلَّا تَحُجُّ إلى بيتِ اللهِ الحرام وتقرأُ في طريقِكَ ما شئت، فَتَجْمَعُ بين أَجْرَيْ الحَجِّ والقراءة، حتّى

يُخرِجَهُ إلى الطَّريقِ، فيقولُ له: كُنْ مِثْلَ النَّاسِ أنتَ الآن مسافرٌ ما عليكَ قراءة، فَيَتْرُكُ القراءَةَ، ويشؤمِهِ ذلك قد تَفُوتُهُ الفرائضُ المفروضةُ المكتوبة، وقد لا يَبْلُغُ الحجَّ، وقد يَشْغَلُهُ عن جميعِ مناسكِهِ بِطَلَبِ القوت، وقد يُورِثُهُ بذلك البُخلَ وسوءَ الخُلُقِ وضيقَ الصَّدر، وأمثالُ ذلك مِنْ هذا كثير، فإنَّه مَنْ لا يَقْدِرُ أن يُفسِدَ عليه عَمَلَهُ يُدْخِلُ عليه عَمَلاً أفضلَ مِمّا هو عليه حتّى يُخرِجَهُ مِنَ العملِ الأوّل، ولا يَتْرُكَهُ في الثّاني.

الخامس: العلمُ، فَيَظْهَرُ إبليسُ في العلمِ للعلماء، وأسهلُ ما على إبليسَ أنْ يُغوِيَهم بالعلم، قيلَ إنَّه يقول: «واللهِ لَألْفُ عالِمٍ عندي أسهلُ مِنْ أُمِّيٍّ قَوِيِّ الإيمان»، فإنَّه يَتَحَيَّرُ في إغوائه، بخلافِ العالِم، فإنَّه يقولُ له ويَسْتَدِلُّ عليه بما يَعْلَمُهُ العالِمُ أنَّه حقٌّ فَيَتَّبِعُهُ فَيَغْوَى بذلك، مثلاً يأتي إليه بالعلمِ في محلِّ شهوتِهِ فيقولُ له: اِعْقِدْ بهذهِ المرأةِ على مذهبِ داودَ وهو حنفيٌّ، أو على مذهبِ أبي حنيفةَ بغيرِ وليٍّ وهو شافعيٌّ، حتّى إذا فَعَلَ ذلك وطَالَبَتْهُ الزَّوجةُ بالمهرِ والنَّفقةِ والكِسوة، قال له: اِحْلِفْ أنَّكَ تُعطِيها كيتَ وكيت، وتفعلُ لها ما هو كذا وكذا ولَوْ كنتَ لن تفعل؛ فإنَّه يجوزُ للرَّجلِ أنْ يَحْلِفَ لامرأتِهِ حتّى يُرضيَها ولَوْ كَذِبًا، فإذا طالت المُدَّةُ ورَفَعَتْهُ إلى الحاكمِ يقولُ له: أَنْكِرْ أنّها زوجتُكَ، فإنَّ هذا العقدَ فاسدٌ غيرُ جائزٍ في مذهبِكَ، فليستْ لَكَ بزوجةٍ، فلا تحتاجُ إلى نفقةٍ ولا إلى غيرِها، فَيَحْلِفُ ويمضي، وأنواعُ ذلك كثيرةٌ جدًّا.

السادس: الرُّكونُ للعادات وطَلَبُ الرّاحات، فَيَظْهَرُ إبليسُ في العاداتِ وطَلَبِ الرَّاحاتِ على المريدين الصّادقين، فَيَأْخُذُهم إلى ظلمةِ الطَّبعِ مِنْ حيثُ العادةُ وطَلَبُ الرّاحة، حتّى يَسْلُبَهُم قوّةَ الهِمَمِ في الطّلب وشِدَّةَ الرَّغبةِ في العبادة، فإذا عُدِمُوا ذلك رَجَعُوا إلى نفوسِهم، فَصَنَعَ بهم ما هو صانعٌ بغيرِهم

مِمَّن ليست له إرادة، فلا يُخشَى على المريدين مِنْ شيءٍ أعظم مِمّا يُخشى عليهم مِنْ طلبِ الرّاحاتِ والرّكونِ إلى العادات.

السابع: المعارفُ الإلهيّة، وهذا النَّوعُ مِنْ أكبرِ أبوابِ الالتباسِ، فإنَّ النّفس تُلَبِّسُ الأمرَ على الأولياءِ والعارفِينَ إلّا مَنْ حَفِظَهُ اللهُ تعالى منهم، فتدّعي الحقيقةَ الإلهيّةَ فتقول: أَلَيْسَ اللهُ حقيقةَ الوجودِ جميعِهِ، وأنتم مِنْ جملةِ الوجودِ، والحقُّ حقيقتُكُم، فلماذا تُتعِبُونَ أنفسَكُم بهذِهِ الأعمالِ التي يعملُها هؤلاءِ المُقلِّدة؟ فيتركونَ الأعمالَ الصّالحة، فإذا تَرَكُوا الأعمالَ قال لهم: افعلُوا ما شئتم؛ لأنَّ اللهَ تعالى حقيقتُكُم، فأنتم هو، وهو لا يُسأَلُ عمّا يفعل، فَيَزْنُونَ ويَسْرِقُونَ ويشربونَ الخمرَ، حتَّى يؤولَ بهم ذلك إلى أنْ يَخْلَعُوا ربقةَ الإسلام.

فمنهم مَنْ يقولُ بالاتِّحاد، ومنهم مَنْ يَدَّعِي في ذلك الإفراد. ثُمَّ إذا طُولِبُوا بالقصاصِ وسُئِلوا عن منكراتِهم التي فَعَلُوها يقولُ لهم: أَنْكِرُوا ولا تُمَكِّنوا مِنْ أنفسِكم، فإنّكُم ما فَعَلْتُمْ شيئاً، وما كان الفاعلُ إلَّا الله، وأنتم ما هو على اعتقادِ النّاس، واليمينُ على نيّةِ المُستحلِف، فَيَحْلِفُونَ أنّهم لم يَصْنَعُوا شيئاً.

وقد يُناجيهم في لباسِ الحقِّ فيقولُ لأحدِهم: «إنِي أنا الله، وقد أَبَحْتُ لكَ المُحرَّماتِ فَاصْنَعْ ما شئت»، أو: «فَاصْنَعْ كذا وكذا مِنَ المُحرَّماتِ فلا إثمَ عليك»، ويتركونَ الأعمالَ المفروضةَ والمسنونةَ ويقولون: «نحنُ نُراقِبُ الحقَّ في كلِّ آن، وقد أتانا اليقين وَوَصَلْنا إلى درجةِ التَّمكين، ولَسْنَا مُطالَبِينَ بفروعِ أحكامِ الدِّين»، والحالُ أنّهم قد خَلَعُوا رِبْقَةَ الإسلامِ والإيمان من أعناقِهم بالزندقة والإلحاد)[1].

---

(١) ينظر: (الإنسان الكامل) (٤٤١. ٤٤٤) للشيخ عبد الكريم الجيلي قدس سره بتحقيقنا وتعليقات شيخنا العارف بالله عبد الباقي مفتاح.



الربع الرابع
ربع المنجيات



(٤)

ربع المنجيات

عمرك نفس واحد فاحرص أن يكون لك لا عليك

وفيه عشرة كتب:

١ . كتاب التوبة

٢ . كتاب الصبر والشكر

٣ . كتاب الرجاء والخوف

٤ . كتاب الفقر والزهد

٥ . كتاب التوحيد والتوكل

٦ . كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

٧ . كتاب النية والإخلاص والصدق

٨ . كتاب المحاسبة والمراقبة

٩ . كتاب التفكر

١٠ . كتاب ذكر الموت وما بعده



الكتاب الأول من ربع المنجيات
في التوبة

(وردُ الخواص دوام التوبة)
(التوبةُ لازمةٌ على العبد حتَّى يصلَ إلى اللَّحد)

اعلم أنَّ التوبةَ مِنَ الذنوبِ بالرجوعِ إلى سَتَّارِ العيوبِ وعلاَّمِ الغُيُوبِ مبدأُ طريقِ السالكين، ورأسُ مالِ الفائزين، وأوّلُ إقدامِ المريدين، ومفتاحُ استقامةِ المائلين، ومطلعُ الاصطفاءِ والاجتباءِ للمُقرَّبين، وهي روحُ المقامات وسببُ الولايات، وهي واجبةٌ بالأخبار والآيات، فقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذا أمرٌ على العموم.

(م: فالتوبةُ مطلوبةٌ على الدوام مِنْ كلِّ رسولٍ ونبيّ، وصِدِّيقٍ ووليّ، وبارٍّ وتقيّ، وفاجرٍ وغوي، لم يجعل الحقُّ سبحانه وتعالى رتبةً دونَها إلا الظلم فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]).

(ش: وقد قلتُ في هذا المعنى ـ غفر الله لي ـ:

فَتُــبْ إِلَــى رَبِّــكَ كُلَّ لَحْظَــهْ   بَــلْ بَعْــدَ كُلِّ خَطْــرَةٍ وَلَفْظَهْ

فَمَنْ دامَ في التوبةِ على مقتضى الحزمِ والعزم فهو الصادقُ الصِّدِّيق، البالغُ بسيره مقاصدَ الطريق، ومَن لم تحصل له التوبةُ حقيقةً، لم يتطهَّرْ عند أصحابِ الطَّريقة، فإياك ثم إياك أن تزعمَ أنه حَصَلَ لك مقامُ التوبةِ، وأنتَ باقٍ على

شهواتك، مستغرقُ الأوقاتِ في عاداتك، وإياك أن تتوبَ في الظاهر وأنتَ مُصِرٌ على قبائحك في الباطن؛ فتكونَ كالمنافقين الذين قَنِعوا برضا المخلوقين، وأسخطوا عليهم ربَّ العالمين.

ثم اعلم أنَّ التوبةَ على ثلاثِ مقامات: توبةُ العوام مِنَ الزلّات والأوزار، وتوبةُ الخواصِّ مِنَ العادات والأفكار، وتوبةُ خواصِّ الخواصِّ مِنَ السّوى والأغيار، والرُّكونِ إلى المقاماتِ والأنوار.

قال الإمام الشعراني ـ قدس سره ـ: ولا يخفى أنَّ التوبةَ مِنْ جملةِ المقاماتِ المستصحبةِ للعبد إلى الممات؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فلا يستغني عنها مؤمنٌ، ولو ارتفعَتْ درجتُهُ حتى يدخلَ الجنة[١].

وقال ـ قدس سره ـ في شأن المريد الصادق: ومِنْ شأنه أن لا يدخلَ في عهدِ شيخٍ حتى يتوبَ مِنْ سائرِ الذنوبِ الظاهرةِ والباطنةِ، كما أنه ينبغي له أن يُرضِيَ سائرَ الخصومِ في العِرْضِ والمال؛ فإنَّ حضرةَ الطريقِ هي حضرةُ الله عزَّ وجلَّ، ومَنْ لم يتطهَّر مِنْ سائرِ الذُّنوبِ باطناً وظاهراً لا يصحُّ له دخولُها، ولو كان شيخُهُ مِنْ أكبرِ الأولياءِ لا يقدرُ يسيرُ به في طريقِ أهلِ الله خطوةً إلا إن طهَّرَهُ قبلَ ذلك.

وهذا البابُ قد أغفلَهُ غالبُ الناسِ فيأخذونَ العهدَ على المريد وعليه الذُّنوبُ الظاهرةُ والباطنةُ فضلاً عن حقوق العبادِ في المالِ والعرض، فلا يصحُّ له نتاجٌ في الطريق.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢١٦، ٢١٧).

وسمعتُ سيِّدي عليّاً الخواصَ ـ رحمه الله ـ يقولُ: طريقُ أهلِ الله تعالى كدخول الجنة، فكما لا يصحُّ لأحدٍ مِنْ أهلِ الجنةِ دخولُها وعليه حقٌّ لآدميٍّ فكذلك دخولُ طريقِ الله عزَّ وجلَّ. انتهى.

واعلم أنَّ مَنْ كان مُصِرّاً على ارتكابِ المخالفاتِ وأكلِ الشهواتِ وملازمةِ المحرَّماتِ فبينَهُ وبينَ الطريقِ كما بين السماءِ والأرض، ثم لا يخفى أنَّ النفسَ مِنْ شأنِها الدَّعاوى الكاذبة، فربَّما ادَّعَتِ الصِّدقَ في التوبةِ وهي كاذبةٌ، فلا يُقبَلُ في ذلك إلا بشهادةِ شيخِهِ له بالصِّدقِ في كلِّ مقامٍ ادَّعاه في التوبة، حتى يصلَ إلى مقامٍ يتوبُ كلَّما غفلَ عن شهودِ ربِّه طرفةَ عينٍ، ثم يترقَّى في مقاماتِ التعظيم لله تعالى أبد الآبدين ودهر الداهرين لا يقفُ في التعظيمِ على مقام ولا قرار، وهذا غايةُ ما قالوه في التوبة.

فالمطلوبُ مِنَ المريدِ التوبةُ عن الكبائرِ ثم الصغائرِ ثم المكروهاتِ ثم مِنْ خلافِ الأولى ثم مِنْ رؤيةِ الحسنات، ثم مِنْ رؤيةِ أنه صار معدوداً مِنْ فقراءِ الزمان[1].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، ومعنى النصوح: الخالصُ لله تعالى الخالي عن الشوائب.

والتوبةُ واجبةٌ على الفور، ويدلُّ على فضلِها قولُهُ ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»[2].

وأما بيانُ وجوبِها على الدوام وفي كلِّ حالٍ فهو أنَّ كلَّ بشرٍ لا يخلو عن

---

(١) ينظر: (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية) (١/ ٣٤ ـ ٣٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠).

معصيةٍ بجوارحِهِ، فإن خلا في بعض الأحوالِ عن معصيةِ الجوارحِ فلا يخلو عن الهَمِّ بالذُّنوبِ بالقلب، فإن خلا في بعض الأحوالِ عن الهَمِّ فلا يخلو عن وساوسِ الشيطانِ بإيرادِ الخواطرِ المتفرِّقةِ المذهلةِ عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلةٍ وقصورٍ في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكلُّ ذلك نقصٌ، ولا يُتصوَّرُ الخلوُّ في حقِّ الآدمي عن هذا النقص، وإنَّما يتفاوتون في المقادير، قال ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١].

(م: واعلم أنَّ التوبةَ النَّصوحَ لها أركانٌ وشروطٌ لِصِحَّتِها وقبولِها، ولها آدابٌ لكمالِها وجَدْواها، فلنفصِّل كلَّ واحدٍ منها على حدةٍ).

أما الأركان فهي تركُ المعاصي في الحال، والعزمُ على عدم العَوْدِ في الاستقبال، وتداركُ ما سَبَقَ مِنَ التقصير في سابق الأحوال.

قال سهلٌ التُّستَريُّ رضي الله عنه: (التوبةُ: تبديلُ الحركاتِ المذمومةِ بالحركات المحمودة، ولا يَتِمُّ ذلك إلا بالخلوةِ والصَّمتِ وأكلِ الحلال)[٢].

وأما التَّنَدُّمُ على ما سَبَقَ والتَّحزُّنُ عليه فواجبٌ، وهو روحُ التوبةِ.

(م: وأما الآدابُ فكثيرةٌ، وكلَّما اقتربَ العبدُ إلى ربِّه طُولِبَ بالمزيدِ منها، ولنذكرْ أربعةً منها:

١. الطاعةُ في محلِّ المعصيةِ: قال الشيخُ الأكبرُ رضي الله عنه في وصاياه: «إذا عصيتَ اللهَ تعالى بموضعٍ، فلا تَبْرَحْ مِنْ ذلك الموضعِ حتَّى تعملَ فيه طاعةً،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٩).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٨١).

وتُقيمَ فيه عبادةً؛ فكما يشهدُ عليك إن استُشْهِدَ يشهدُ لكَ، وكذلك ثوبُكَ إن عصيتَ اللهَ فيه فاعبُدِ اللهَ فيه، وأقلُّ عبادةٍ تقدرُ عليها عند هذا كلّه أن تدعوَ الله في أن يتوبَ عليك، وكلما ذكرتَ خطيئةً أتيتَها فتُبْ عنها عقيبَ ذِكْرِكَ إيّاها، واستغفرِ الله منها، واذكرِ اللهَ عندَها بحسبِ ما كانت تلك المعصية؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تَمْحُها»(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]»(٢).

٢. صلاةُ ركعتي التوبة: فقد ثبتَ في السُّنّةِ الشريفةِ أنَّه ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]»(٣).

٣. شكرُ الله على التوبة: إذ لو لا أنَّه تابَ عليكَ ما تُبْتَ أنتَ إليه، ولو شاء لَتَرَكَكَ مع المخذولين، وطَرَدَكَ مع المطرودين، أو عاقَبَكَ بسلبِ إيمانِكَ وإثباتِ كفرانِكَ، أو خَتَمَ على قلبِكَ وسمعِكَ، وجازاكَ على قبيحِ فعلِكَ، فاشهد مِنّةَ الله تعالى عليك، وكُنْ مِنَ الشاكرين، وقد نَصَّ الفقهاءُ على استحبابِ ركعتَينِ شكراً لله تعالى بعدَ الفراغِ مِنْ صلاةِ التوبةِ نظراً لهذا المعنى.

٤. التوبةُ مِنْ رؤيةِ التوبة: قال الأميرُ عبدُ القادر رحمه الله في معنى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]: «التوبةُ أنواعٌ باعتبارِ ما منه

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٦)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٥).

(٢) ينظر: (الفتوحات المكية) (١٢/ ٤١٧. ٤١٨).

(٣) رواه أبو داود (١٥٢١).

المتاب، فطائفةٌ تتوبُ مِنَ المعاصي، وطائفةٌ تتوبُ مِنَ الطاعات، أي: مِنْ نسبتِها إليهم مع فعلِها، وطائفةٌ تتوبُ مِنَ التوبةِ، قال ابن العريف رضي الله عنه:

قد تــابَ قــومٌ كثيرٌ وما تــابَ مِنَ التوبــةِ إلا أنا

فالتائبون عامٌّ وخاصٌّ، وخاصّةُ الخاصة، ولفظُ التوبةِ يعمُّ الجميعَ لغةً، ولكنَّ إشارةَ الآيةِ الكريمةِ فرَّقَتْ بين توبةِ العمومِ وسَمَّتْها تطهيراً، وبينَ توبةِ الخصوصِ وسَمَّتْها توبةً؛ إذ ليست أدناسَ مخالفات وأوضارَ نسب طاعات، فالمحبوبون الأوَّلون المقدَّمونَ في الذِّكر هم الخاصةُ، وخاصةُ الخاصةِ التائبون مِنَ التوبة؛ فإنَّ التوبةَ فعلُهُ سبحانه، وما تاب أحدٌ ولا تطهَّرَ إلا بعدَ توبةِ اللهِ تعالى عليه كما قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا﴾ [التوبة: ١١٨]، فتوبتُهُم إليه فرعُ توبتِهِ عليهم»[١].

فهذه أربعةُ آدابٍ، مَنْ تحقَّقَ بها فهو الجديرُ بأن يُعافيَهُ اللهُ مِنَ النَّقضِ في توبتِهِ والرُّجوعِ إلى غفلتِهِ، ويرفعَهُ بها إلى درجةِ المحبين المحبوبين).

واعلم أنَّ الصَّغيرةَ تكبرُ بالإصرارِ والمواظبةِ، ولذلك قيل: «لا صغيرةَ مع إصرار، ولا كبيرةَ مع استغفار»[٢].

(م: قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: «مثالُ العبدِ إذا فَعَلَ معصيةً كالقِدْرِ الجديد، يُوقِدُ تحتَها النارَ ساعةً فتسودُّ، فإن بادرتَ إلى غسلِها انغسلَتْ مِنْ ذلك السَّواد، وإن تركتَها وطبختَ فيها مرةً بعد مرةٍ ثَبَتَ السَّوادُ فيها حتى تنكسِرَ ولا يفيد غسلُها شيئاً.

---

(١) ينظر: (المواقف للأمير عبد القادر الجزائري) (٢/ ٤٠٢).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٧٣).

فالتوبةُ هي التي تغسلُ سوادَ القلب، فتبرزُ الأعمالُ وعليها رائحةُ القبول، فاطلُبْ مِنَ الله تعالى التوبةَ دائماً، فإن ظَفِرْتَ بها فقد أحبَّكَ الله؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]»[١]).

واعلم أنَّ العبدَ المخلصَ لا ينظر إلى معصيتِهِ مِنْ حيث إنَّها كبيرةٌ أو صغيرةٌ، بل يرى ذنوبَهُ كلَّها كبيرةً باعتبار عِظَمِ قدرِ الذي عصاه.

وفي الخبر: «إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ»[٢].

وقال بعض الصحابة للتابعين: (إنَّكم لتعملونَ أعمالاً هي أَدَقُّ في أعينِكم مِنَ الشَّعر، كُنَّا نَعُدُّها على عهدِ رسولِ الله ﷺ مِنَ الموبقاتِ)[٣].

وأما الندمُ فهو توجُّعُ القلبِ عند شعورِهِ بفواتِ المحبوب، وعلامتُهُ: طولُ الحسرةِ والحزنِ، وانسكابُ الدَّمعِ، وطولُ البكاء، وكلَّما كان الندمُ أشدَّ كان تكفيرُ الذنوبِ به أرجى، والندمُ توبةٌ كما في الحديث، وفي الخبر: «جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً»[٤].

ومِنْ علامتِهِ: أن تتمكَّنَ مرارةُ تلكَ الذنوبِ في قلبِهِ بدلاً مِنْ حلاوتِها، فيستبدلُ بالميل كراهيةً، وبالرغبةِ نفرةً.

وقد قيل: إنَّ الله سبحانه وتعالى قال لبعضِ أنبيائه وقد سألَهُ قبولَ توبةِ عبدٍ

---

(١) ينظر: (تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس) (٤٩ـ ٥٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨).

(٣) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٦٠٦).

بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال: وعِزَّتي وجلالي؛ لو شَفِعَ فيه أهلُ السمواتِ والأرضِ ما قبلتُ توبتَهُ وحلاوةُ ذلك الذنبِ الذي تابَ منه في قلبِهِ[١].

وشرطُ صِحَّتِها فيما يتعلق بالماضي: تداركُ ما قصَّرَ مِنْ أوَّلِ بلوغِهِ، فينظر إلى الطاعات ما الذي قَصَّرَ فيها، وإلى المعاصي ما الذي قارفَهُ منها، فيقضي ما فاته مِنَ الصلاة، فإن شَكَّ في عدد ما فاتَهُ تَرَكَ القدرَ الذي يستيقنُ أنَّه أدَّاهُ، ويقضي الباقي، وله أن يأخذَ فيه بغالبِ الظَّنِّ على سبيل التحري والاجتهاد، وكذا سائرُ الفرائضِ مِنَ الزكاة الصوم والحج، فإن مات قبل القضاء كان عاصياً.

وأما المعاصي فينبغي أن يُفتِّشَ مِنْ أوَّلِ بلوغِهِ عن سمعِهِ وبصرِهِ ولسانِهِ ويدِهِ ورجلِهِ وفرجِهِ وبطنِهِ وسائرِ جوارحِهِ، حتى يطلعَ على جميعِها، صغائرِها وكبائرِها، ثم ينظر فيها فما كان مِنْ ذلك بينَهُ وبينَ الله تعالى مِنْ حيثُ لا يتعلَّقُ بمظلمةِ العبادِ؛ كنظرٍ إلى غيرِ مَحْرَمٍ، وقعودٍ في المسجد مع الجنابةِ، ومسِّ مصحفٍ بغيرِ وضوء، واعتقادِ بدعةٍ، وشربِ خمرٍ، وسماعِ ملاهٍ، وغيرِ ذلك مما لا يتعلَّقُ بمظالِمِ العباد، فالتوبةُ عنها بالنَّدَمِ والتَّحَسُّرِ عليها، ويطلبُ لكلِّ معصيةٍ منها حسنةً تُناسِبُها، فيأتي مِنَ الحسناتِ بمقدارِ تلك السَّيِّئاتِ، أخذاً مِنْ قولِهِ ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُ ما كُنْتَ، وَأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[٢]، بل مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

فيُكفِّرُ سماعَ الملاهي بسماعِ القرآنِ وبمجالسِ الذِّكر، ويُكفِّرُ القعودَ في

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٨١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٦)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٥).

المسجدِ جُنُباً بالاعتكافِ فيه مع الاشتغالِ بالعبادة، ويُكفِّرُ مسَّ المصحفِ مُحدِثاً بإكرامِ المصحفِ، وكثرةِ قراءةِ القرآنِ منه، وكثرةِ تقبيلِهِ.

وعدُّ جميعِ المعاصي غيرُ ممكنٍ، وإنَّما المقصودُ سلوكُ الطريقِ المضادّةِ، فكلُّ ظلمةٍ ارتفعت إلى القلبِ بمعصيةٍ فلا يمحوها إلا نورٌ يرتفعُ إليها بحسنةٍ تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن يمحوَ كلَّ سيئةٍ بحسنةٍ مِنْ جنسِها لكنْ تضادُّها، والرجاءُ في المحو بهذا الطريق أصدقُ، والثقةُ به أكثرُ مِنْ أن يواظبَ على نوع واحد من العبادات، وإنْ كان ذلك أيضاً مؤثِّراً في المحو.

فقد جاء في الآثار ما يدل على أنَّ الذنبَ إذا أُتبِعَ بثمانيةِ أعمالٍ كان العفوُ عنه مرجُوّاً؛ أربعةٌ مِنْ أعمال القلوب، وهي: التوبةُ أو العزمُ على التوبة، وحبُّ الإقلاعِ عن الذنب، وتخوُّفُ العقابِ عليه، ورجاءُ المغفرةِ له، وأربعةٌ مِنْ أعمالِ الجوارح، وهي: أن تُصلِّيَ عقيبَ الذَّنب ركعتين، ثم تستغفر الله بعدهما سبعين مرة، وتقول: «سبحان الله العظيم وبحمده» مئةَ مرة، ثم تتصدَّق بصدقة، ثم تصوم يوماً.

وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: «إذا كثُرَت ذنوبُ العبدِ ولم تكن له أعمالٌ تُكفِّرُها أدخلَ الله تعالى عليه الهمومَ، فتكون كفّارةً لذنوبِهِ»[1].

وقال ﷺ: «مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لا يُكَفِّرُها إلّا الهُمُومُ»، وفي لفظٍ آخرَ: «إلاَّ الهَمُّ بِطَلَبِ المَعِيشَةِ»[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦/ ١٥٧).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٣٥).

فإن قلتَ: همُّ الإنسانِ غالباً بمالِهِ وولدِهِ وجاهِهِ، وهو خطيئةٌ، فكيف يكون كفارةً؟

فاعلم أنَّ الحُبَّ له خطيئةٌ، والحرمانَ عنه كفّارةٌ، ولو تَمَتَّعَ به لتمَّتِ الخطيئةُ، فقد رُوِيَ أنَّ جبريلَ عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن، فقال له: كيف تركتَ الشيخَ الكئيبَ؟ فقال: قد حزنَ عليك حزنَ مئةِ ثكلى، قال: فما له عند الله؟ قال: أجرُ مئةِ شهيدٍ[1]، فإذاً الهمومُ أيضاً مُكفِّراتٌ حقوقَ الله تعالى، فهذا حكمُ ما بينَه وبينَ الله تعالى.

وأما مظالِمُ العبادِ ففيها أيضاً معصيةٌ وجنايةٌ على حقِّ الله تعالى، فإنَّ الله تعالى نهى عن ظلمِ العبادِ أيضاً، فما يتعلَّقُ منه بحقِّ الله تعالى تداركَهُ بالنَّدمِ والتَّحَسُّرِ، وتركِ مثلِهِ في المستقبل، والإتيانِ بالحسناتِ التي هي أضدادُها، فيقابلُ إيذاءَهُ للناسِ بالإحسانِ إليهم، ويُكفِّرُ غصبَ أموالِهم بالتَّصَدُّقِ بملكِهِ الحلال، ويُكفِّرُ تناولَ أعراضِهم بالغيبةِ والقَدْحِ فيهم بالثناءِ على أهل الدِّين، وإظهارِ ما يعرفُ مِنْ خصالِ الخيرِ مِنْ أقرانِهِ وأمثالِهِ، ويُكفِّرُ قتلَ النُّفوسِ بإعتاقِ الرقاب.

ثم إذا فَعَلَ ذلك كلَّهُ لم يُنْجِهِ ولم يَكْفِهِ ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالِمُ العبادِ إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب، أعني: به الإيذاءَ المحض.

أما في النفوس، فإن جرى عليه قتلُ خطأٍ فتوبتُهُ بتسليمِ الدِّيةِ ووصولِها إلى المستحقِّ، وإن كان عمداً مُوجِباً للقصاصِ فبالقصاص، فلا يجوزُ له الإخفاءُ، بل

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٨٦)، وبنحوه رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٦٠).

يعترفُ عندَ وليِّ الدَّمِ، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتَلَهُ، ولا تسقطُ عهدتُهُ إلا بهذا.

وليس هذا كما لو زنى، أو شرب، أو سَرَقَ، أو قطعَ الطريقَ، أو باشرَ ما يوجبُ حدّاً لله، فإنَّه لا يلزمُهُ في التوبةِ أن يفضحَ نفسَهُ ويَهْتِكَ سِتْرَهُ، بل عليه أن يتستَّرَ بسترِ الله، ويقيمَ حدَّ الله على نفسِهِ بأنواعِ المجاهدةِ والتَّعذيب، فالعفو في محضِ حقوقِ الله قريبٌ مِنَ التائبين النادمين.

فإن رُفِعَ أمرُهُ إلى الوالي حتى أقام عليه الحدَّ وَقَعَ مَوْقِعَهُ، وتكونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً عند الله تعالى؛ بدليل قصةِ ماعزِ بنِ مالكٍ، قال رسولُ الله ﷺ في حقِّهِ: «لقد تابَ توبةً لو قُسِّمَتْ بينَ أمةٍ لَوَسِعَتْهُم»[1]، وقصةِ الغامديّةِ لَمّا سمعَ رسولُ الله ﷺ سَبَّ خالدِ بنِ الوليدِ إيّاها قال له ﷺ: «مَهْلاً يا خَالِدُ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»[2].

وإن كان المتناوَلُ مالاً تناولَهُ بغصبٍ أو خيانةٍ في معاملةٍ بنوعِ تلبيسٍ كترويجِ زائفٍ، أو سترِ عيبٍ مِنَ المبيع، أو نقصِ أجرةِ أجيرٍ، فكلُّ ذلك يجب أن يُفتِّشَ عنه لا مِنْ حَدِّ بلوغِهِ، بل مِنْ أوَّلِ مدّةِ وجودِهِ؛ إذ يستوي في الحقوقِ الماليّةِ الصَّبيُّ والبالغُ.

وليحاسِبْ نفسَهُ على الحبّاتِ والدَّوانقِ مِنْ أوَّلِ يومِ حياتِهِ إلى يوم توبتِهِ قبل أن يُحاسَبَ في القيامة، وليناقِشْ قبل أن يُناقَشَ؛ فَمَنْ لم يُحاسِبْ نفسَهُ في الدنيا طال في الآخرة حسابُهُ، فليرد حقَّ المالكِ ما دام يعرفُ له مالكاً مُعيَّناً، وما لا يَعْرِفُ له مالكاً فعليه أن يتصدَّقَ به.

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥) متابعة للحديث السابق.

وأما الجنايةُ على القلوبِ بمشافهةِ الناسِ بما يسوءُهُم أو يعيبهم في الغيبةِ فليطلب كلَّ مَنْ تَعَرَّضَ له بلسانِهِ أو آذى قلبَهُ بفعلٍ مِنْ أفعالِهِ فليستحلَّ واحداً واحداً منهم، ومَنْ مات أو غاب فقد فات أمرُهُ، ولا تدارُكَ إلا بتكثيرِ الحسناتِ؛ لتُؤخَذَ عوضاً في القيامة، وعليه أن يُعرِّفَهُ قدرَ جنايتِهِ وتعرُّضَهُ له وقتَ الاستحلال، فالاستحلالُ المُبهَمُ لا يكفي، فإن كانت الجنايةُ ما لو ذَكَرَهُ وعَرَّفَهُ لتأذَّى بمعرفتِهِ كزناهُ بجاريته أو أهلِهِ، أو نسبتِهِ باللسانِ إلى عيبٍ مِنْ خفايا عيوبِهِ فقد انسدَّ طريقُ الاستحلال، وليس له إلا أن يستحلَّ مبهماً، ثم تبقى له مظلمةٌ فليجبرها بالحسناتِ كما يجبرُ مظلمةَ الميتِ والغائبِ.

وليس عليه أن يُعرِّفَهُ؛ فإنَّه سيئةٌ جديدةٌ يجبُ الاستحلالُ منها، ومهما ذكرَ الجاني جنايتَهُ على المجني عليه وعرَّفَهُ فلم تَسْمَحْ نفسُهُ بالاستحلالِ بقيت المظلمةُ عليه؛ فإنَّ هذا حقُّهُ، فعليه أن يتلطَّفَ به ويسعى في مهمَّاتِهِ وأغراضِهِ، ويُظهِرَ مِنْ حُبِّهِ والشَّفقةِ عليه ما يستميلُ به قلبَهُ؛ فإنَّ القلوبَ جُبِلَتْ على حُبِّ مَنْ أحسنَ إليها، والإنسانُ عبدُ الإحسان.

وينبغي للتائبِ أن يعقدَ مع الله عقداً مؤكَّداً، ويعاهِدَهُ بعهدٍ وثيقٍ أن لا يعودَ إلى تلك الذنوب؛ فيعزمَ عزماً جازماً في الحال، وإن كان يُتصوَّرُ أن تَغْلِبَهُ الشَّهوةُ في ثاني الحال، ولكنْ لا يكون تائباً ما لم يتأكَّدْ عزمُهُ في الحال، ولا يتمُّ ذلك للتائبِ في أوَّلِ أمرِهِ إلا بالعزلةِ والصَّمتِ وقلّةِ الأكلِ والنَّومِ وإحرازِ قوتٍ حلال، فإنَّ رأسَ المعاصي أكلُ الحرام، فكيف يكونُ تائباً مع الإصرار عليه؟! ومَنْ لا يقدرُ على تركِ الشهواتِ في المأكولات والملبوسات لا يكتفي بالحلالِ وتركِ الشبهات.

قال بعضهم: (مَنْ صَدَقَ في تركِ شهوتِهِ وجاهدَ نفسَهُ لله سبعَ مرّاتٍ لم يُبْتَلَ بها)[1].

وقال آخرُ: (مَنْ تاب مِنْ ذنبٍ واستقامَ سبعَ سنين لم يَعُدْ إليه أبداً)[2].

* *

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٨٨).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٨٨).

الكتاب الثاني من ربع المنجيات
في الصبر والشكر
(الصبر مرآة اليقين وشعار الصالحين)

قال عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فما مِنْ قُربةٍ إلا وأجرُها بتقديرٍ وحسابٍ إلا الصبرَ.

ووعدَ سبحانه الصابرين بأنَّه معهم فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وعلَّقَ النَّصرَ على الصبر فقال: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وجَمَعَ للصابرين بين أمورٍ لم يجمعها لغيرِهم فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فالهدى والرحمةُ والصلواتُ مجموعةٌ للصابرين.

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أنَّ الصبرَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدين، ومنزلٌ مِنْ منازل السالكين، وجميعُ مقاماتِ الدين إنَّما تنتظمُ مِنْ ثلاثة أمورٍ: معارفُ وأحوالٌ وأعمالٌ، فالمعارفُ

هي الأصول، وهي التي تُورِثُ الأحوالَ، والأحوالُ تُثمِرُ الأعمالَ، فالمعارفُ كالأشجار، والأحوالُ كالأغصان، والأعمالُ كالثمار، وهذا مطردٌ في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى.

قال بعض العارفين: (أهلُ الصبرِ على ثلاث مقامات:

أوَّلها: تركُ الشهوة، وهذه درجةُ التائبين.

والثانيةُ: الرِّضا بالمقدور، وهذه درجةُ الزاهدين.

وثالثها: المحبَّةُ لِما يصنعُ به مولاه، وهذه درجةُ الصِّدِّيقين)[١].

(م: قال سيدي ابن عجيبة رضي الله عنه: «حقيقةُ الصبرِ: حبسُ القلبِ على حكمِ الرَّبِّ مِنْ غير جزعٍ ولا شكوى، ومواطنُهُ أربعةٌ: الطاعة، والمعصية، والنعمة، والبلية.

فالصبرُ على الطاعةِ بالمبادرة إليها، وعن المعصية بتركها، وعلى النِّعمةِ بشكرِها وأداءِ حقِّ الله فيها، وعلى البلية بالرضا وعدمِ الشكوى بها.

وأقسامُ الصَّبرِ ستة: صبرٌ في الله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله، وصبرٌ بالله، وصبرٌ على الله، وصبرٌ عن الله.

أما الصبرُ في الله، فهو الصبرُ في طلبِ الوصول إلى الله تعالى، وذلك بارتكابِ مشاقِّ المجاهدات والرياضات؛ وهو صبرُ الطالبين والسائرين.

وأما الصبرُ لله، فهو الصبرُ على مشاقِّ الطاعاتِ وتركِ المنهيات ونزول

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٩٩).

البليات، كلُّ ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله، لا لطلبِ أجرٍ ولا لِنَيلِ حظٍّ، وهو صبرُ المخلصين.

وأما الصبرُ مع الله، فهو الصبرُ على حضورِ القلبِ مع الله على سبيل الدوام، مراقبةً ومشاهدةً، فالأولُ صبرُ المحبين، والثاني صبرُ المحبوبين.

وأما الصبر بالله، فهو الصبرُ على ما ينزلُ به مِنَ المقادير، لكنَّه بالله لا بنفسه؛ وهو صبرُ أهلِ الفناء مِنَ العارفين المجذوبين السالكين.

وأما الصبرُ على الله، فهو الصبرُ على كتمانِ أسرارِ الربوبيةِ عن غير أهلِها، أو الصبرُ على دوامِ شهودِ الله.

وأما الصبرُ عن الله، فهو الصبرُ على الوقوفِ بالبابِ عند جفاءِ الأحباب، فإذا كان العبدُ في مقامِ القربِ واجداً لحلاوةِ الأنس، مشاهداً لأسرار المعاني، ثم فَقَدَ ذلك مِنْ قلبِهِ وأحسَّ بالبعدِ والطردِ ـ والعياذ بالله ـ فليصبر، وليَلزَمِ البابَ حتى يَمُنَّ عليه الكريمُ الوهابُ ولا يتزلزل، وهو أشدُّ الصبرِ وأصعبُهُ؛ لأنَّ الحبيبَ لا يصبرُ عن حبيبه.

رُوِيَ أنَّ رجلاً دخل على الشِّبليّ رحمه الله فقال: أيُّ الصَّبرِ أشدُّ؟ فقال له الشبلي: الصبرُ في الله، قال: لا، قال: الصبر لله، قال: لا، قال الصبر مع الله، قال: لا، فقال له: وأيُّ شيءٍ هو؟ فقال: الصبر عن الله، فصاح الشبليّ رحمه الله صيحةً عظيمةً كادت تتلفُ فيها روحُهُ»[1]).

---

(١) ينظر: (البحر المديد) (٤/ ٧٠- ٧١) و(اللمع) (٧٦)، وقد ذكر الإمام الغزالي قصة الشبلي رحمه الله. ينظر: (إحياء علوم الدين) (٧/ ٢٧٠- ٢٧١).

واعلم أنَّ الصبرَ أيضاً ينقسمُ باعتبارِ حكمِهِ إلى فرضٍ ونفلٍ ومكروهٍ ومحرَّمٍ.

فالصبرُ عن المحظوراتِ فرضٌ، وعلى المكارهِ نفلٌ، وعلى الأذى المحظورِ محظورٌ، كَمَنْ تقطعُ يدُهُ أو يدُ ولدِهِ ظلماً وهو يصبرُ عليه ساكتاً، وكَمَنْ يقصدُ حريمَهُ بشهوةٍ محظورةٍ فتهيجُ غيرتُهُ، فيصبرُ عن إظهارِ الغيرةِ ويسكتُ على ما يجري على أهله، فهذا الصَّبرُ مُحرَّمٌ، والصَّبرُ المكروهُ: هو الصبرُ على أذىً يَنالُهُ بجهةٍ مكروهةٍ في الشرع، فلا يُخيَّلُ إليك أنَّ جميعَهُ محمودٌ، بل المرادُ به أنواعٌ مِنَ الصبرِ مخصوصةٌ.

(ز: وقال القطبُ الجيلانيُّ رضي الله عنه: «لا بُدَّ للعبدِ في سائرِ أحوالِهِ مِنْ ثلاثةِ أشياء: أمرٌ يمتثله، ونهيٌ يجتنبه، وقدرٌ يصبر عليه»؛ وهذه الثلاثةُ قد وقعتِ الإشارةُ إليها بآية: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]).

قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: الصَّبرُ في القرآن على ثلاثة أوجه: صبرٌ على أداء الفرائض، وله ثلاثمئة درجة، وصبرٌ عن محارم اللهِ تعالى، وله ستمئة درجة، وصبرٌ على المصائبِ عندَ الصَّدمةِ الأولى، وله تسعمئة درجة؛ وذلك لشدَّتِهِ على النفس، وعدمِ التَّمكُّنِ منه إلّا بمزيدِ اليقين، ولذلك قال ﷺ: «أسألُكَ مِنَ اليقينِ ما تُهوِّنُ به عليَّ مصائبَ الدُّنيا»(١).

وكان بعضُهم إذا قرأَ هذه الآيَةَ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٤٤]

---

(١) ينظر: (روح المعاني) (٢٩/ ١٢٠) و(قوت القلوب) (١/ ١٩٨).

بكى، وقال: (واعجباهُ! أعطى وأثنى)، أي: هو المعطي للصبر وهو المثني.

وقال داود لسليمانَ عليهما السلام: (يُستدلُّ على تقوى المؤمنِ بثلاث: حسنُ التوكلِ فيما لم ينل، وحسنُ الرِّضا فيما قد نال، وحسنُ الصبرِ فيما قد فات)(١).

ويُقالُ: إنَّ امرأةَ فتحٍ الموصلي عَثَرَتْ فانقطعَ ظفرُها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدينَ الوجعَ؟ فقالت: إنَّ لذَّةَ ثوابِهِ أزالت عن قلبي مرارةَ وجعِهِ.

(ش: قال الإمام أبو الحسن الشاذلي في الصبر: مَنْ تَرَكَ المعاصي وصَبَرَ على ما ابتلاهُ اللهُ وأَيْقَنَ بوعدِ اللهِ ووعيدِهِ فهو الإمامُ وإنْ قَلَّتْ أَتْبَاعُهُ.

وقال: لا تَصْحَبْ إلّا مَنْ تكونُ فيه أربعةُ خِصال: الجودُ مِنَ القِلَّة، والصَّفحُ عن المَظلَمَة، والصَّبرُ على البَلِيّة، والرِّضا بالقضيّة.

وقال: إذا ضَيَّقَ عليكَ المَعِيشةَ فهو يُريدُ أَنْ يُوالِيَكَ، فاصْبِرْ ولا تَضْجَرْ.

وقد قال الحقُّ تعالى لرسولِهِ ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، فإذا وَقَعَ العبدُ في شيءٍ مِنَ الجلاليات فليستعِنْ بالله وليلتجِئْ إليه.

وقد قال الشَّيخُ الأكبرُ ـ قدَّس اللهُ سِرَّه ـ: إيّاكَ أن تشكوَ إلى أحدٍ مِنَ الخلقِ، وأمَّا له تعالى فإيَّاكَ أن تَتَصَّبرَ ولا تدعوه، بل ارفعْ له شكواكَ وأَظْهِرْ له ضعفَكَ، فَمِنَ الأولياءِ أيضًا الصّابرون والصّابراتُ رضي الله عنهم، تَوَلّاهم اللهُ بالصَّبرِ وهم الذين حَبَسُوا أنفسَهم مع الله على طاعتِهِ مِنْ غيرِ توقيتٍ، فَجَعَلَ اللهُ جزاءَهم على

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٩٦٦).

ذلك مِنْ غيرِ توقيتٍ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فما وَقَّتَ لهم؛ فإنَّهم لم يُوقِّتُوا، فَعَمَّ صبرُهُم جميعَ المواطنِ التي يَطْلُبُها الصَّبرُ، فكما حَبَسُوا نفوسَهم على الفعلِ بما أُمِرُوا به، حَبَسُوها أيضًا على تركِ ما نُهُوا عن فعلِهِ، فلم يُوقِّتُوا فلم يُوَقَّتْ لهم الأجرُ، وهم الذين أيضًا حَبَسُوا نفوسَهم عندَ وقوعِ البلايا والرَّزايا بهم عن سؤالِ ما سوى اللهِ في رفعِها عنهم بدعاءِ الغيرِ أو شفاعةٍ أو طِبٍّ إن كان مِنَ البلاءِ الموقوفِ إزالتُهُ على الطِّبِّ، ولا يَقْدَحُ في صبرهم شكواهم إلى اللهِ في رفعِ ذلك البلاءِ عنهم، ألا ترى «أيوبَ» سَأَلَ ربَّه رَفْعَ البلاءِ عنه بقولِهِ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، أي: أصاب مني، فَشَكَا ذلك إلى ربِّه وقال له: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ففي هذه الكلمةِ إثباتُ وضعِ الأسبابِ، وعَرَّضَ فيها لربِّهِ برفعِ البلاءِ عنه، فاستجابَ له ربُّهُ وكَشَفَ ما به مِنَ الضُّرِّ، فأثبتَ بقولِهِ تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٤] أنَّ دعاءَه كان في رفعِ البلاءِ، فَكَشَفَ ما به مِنْ ضُرٍّ، ومع هذا أثنى عليه بالصَّبرِ وشَهِدَ له به فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، أي: رجّاعٌ إلينا فيما ابتليناه به، وأثنى عليه بالعبوديّة، فلو كان الدُّعاءُ إلى اللهِ في رفعِ الضُّرِّ ورفعِ البلاءِ يُناقِضُ الصَّبرَ المشروعَ المطلوبَ في هذا الطريقِ لم يُثْنِ اللهُ على أيوبَ بالصَّبرِ، وقد أثنى عليه به، بل عندنا مِنْ سوءِ الأدبِ مع اللهِ أن لا يسألَ العبدُ رَفْعَ البلاءِ عنه؛ لأنَّ فيه رائحةً مِنْ مقاومةِ القهرِ الإلهيِّ بما يَجِدُهُ مِنَ الصَّبرِ وقوَّتِهِ، قال العارف: «إنَّما جوَّعَنِي لأبكي»، فالعارفُ وإنْ وَجَدَ القوّةَ الصَّبريّةَ فَلْيَفِرَّ إلى موطنِ الضَّعفِ والعبوديَّةِ وحُسنِ الأدبِ، فإنَّ القوَّةَ للهِ جميعا، فيسألُ ربَّهُ رفعَ البلاءِ عنه أو عصمتَهُ منه إن تَوَهَّمَ

وقوعَهُ، وهذا لا يُناقِضُ الرِّضاءَ بالقضاء، فإنَّ البلاءَ إنَّـما هو عينُ الـمقضيِّ لا القضاءِ، فيرضى بالقضاءِ ويسألُ اللهَ في رفعِ الـمقضيِّ عنه، فيكونُ راضيًا صابرًا، فهؤلاء أيضًا هم الصّابرون الذين أثنى اللهُ عليهم[1].

❊ ❊

(١) ينظر: (الفتوحات المكية) (٣/ ٣٣٨، ٣٣٩).

الشطر الثاني في الشكر

(فتح باب عطائي شكرك لنعمائي)

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

(ز: فَقَرَنَ سبحانه الشكرَ بالإيمانِ، ورفعَ بوجودِهما العذاب).

(م: وقال القشيريُّ ﷺ: الشكرُ: شهودُ النِّعمةِ مِنَ الله، والإيمانُ: رؤيةُ الله في النِّعمة)(١).

وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ولعلوِّ رتبةِ الشكرِ طَعَنَ اللَّعينُ في الخلقِ فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد قطعَ الله تعالى بالمزيدِ مع الشكرِ ولم يستثنِ فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، واستثنى في خمسةِ أشياءَ: في الإغناءِ والإجابةِ والرزقِ والمغفرةِ والتوبةِ، فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[التوبة: ١٥].

(١) ينظر: (لطائف الإشارات) (١/ ٢٣٥).

وقد جَعَلَ الله تعالى الشكرَ مفتاحَ كلامِ أهلِ الجنة، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أنَّ الشكرَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكين، وهو أيضاً ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ، فالعلمُ هو الأصلُ، فيورثُ الحالَ، والحالُ يُورِثُ العملَ.

أما العلمُ: فهو معرفةُ أنَّ النّعمةَ مِنَ المنعِمِ وحدَهُ سبحانه، (م: وأنَّ كلَّ ما دونَهُ وسائلُ تحتَ سطوتِهِ ونفوذِ قدرتِهِ).

والحالُ: هو الفرحُ الحاصلُ بإنعامِهِ، (م: حيثُ يرى العبدُ عدمَ أهليَّتِهِ، وذلك لدوامِ غفلتِهِ وعظيمِ تقصيرِهِ في حقوقِ نعمتِهِ).

والعملُ: هو القيامُ بما هو محبوبُ المنعِمِ ومقصودُهُ، (م: فالشكر: صرفُ النِّعَمِ فيما خُلِقَتْ له)، ويتعلَّقُ ذلك العملُ بالقلب وبالجوارح وباللسان.

أما بالقلب: فقصدُ الخيرِ والصلاحِ، وإضمارُهُ لكافةِ الخلق، وأما باللسان: فإظهارُ الشكرِ لله تعالى بالحمدِ له، وأما بالجوارح: فاستعمالُ نعمِ الله تعالى في طاعتِهِ، والتوقي مِنَ الاستعانةِ بها على معصيته.

فشكرُ العينين: أن تسترَ كلَّ عيبٍ تراهُ لمسلمٍ، وشكرُ الأذنين: أن تسترَ كلَّ عيبٍ تسمعُهُ، والشكرُ باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى، وهو مأمورٌ به، وكذا سائرُ الأعضاءِ تُستعملُ بما يليقُ بها.

(ش: قال الإمام الشعراني ـ قدس سره ـ: وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول: يجبُ على العبد أن يستقلّ عبادتَهُ في جانب الربوبية، ولَوْ عَبَدَ ربَّه عبادةَ الثقلين، بل ولو عَبَدَهُ هذه العبادةَ على الجمرِ مِنِ ابتداء الدُّنيا إلى انتهائها ما أدّى شكرَ نعمةِ إذنِهِ له بالوقوفِ بين يديه في الصلاةِ لحظةً[1]).

وسائرُ المقاماتِ أيضاً تنتظمُ مِنْ علومٍ وأحوالٍ وأعمالٍ، فَلاحَ للناظرين في الظواهرِ أنَّ العلومَ تُرادُ للأحوال، والأحوالَ تُرادُ للأعمال، فالأعمالُ هي الأفضلُ.

وأما أربابُ البصائرِ فالأمرُ عندهم بالعكس؛ فإنَّ الأعمالَ عندهم تُرادُ للأحوالِ، والأحوالَ تُرادُ للعلوم؛ فالأفضلُ العلومُ ثم الأحوالُ ثم الأعمالُ.

وآحادُ الأعمالِ تتفاوتُ إذا أضيفَ بعضُها إلى بعض، وكذا آحادُ الأحوالِ وآحادُ المعارفِ، وأفضلُ المعارفِ علومُ المكاشفةِ وهي أرفعُ مِنْ علومِ المعاملة، بل علومُ المعاملةِ دون المعاملة؛ لأنَّها تُرادُ للمعاملة؛ ففائدتُها إصلاحُ العملِ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمُهُ ممّا يَعُمُّ نفعُهُ، فيكون بالإضافة إلى عملٍ خاصٍّ أفضل؛ وإلا فالعالِمُ المقصِّرُ عن العملِ ليس بأفضلَ مِنَ العابد، فنقول: فائدةُ إصلاحِ العملِ إصلاحُ حالِ القلبِ، وفائدةُ إصلاحِ حالِ القلبِ أن ينكشفَ له جلالُ الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله.

فأرفعُ علومِ المكاشفةِ معرفةُ الله سبحانه وتعالى، فإنَّ السعادةَ تنالُ بها، بل هي عينُ السعادة، وإنما يشعرُ بها في الآخرة، وكلُّ ما عداها مِنَ المعارفِ عبيدٌ وخَدَمٌ بالإضافة إليها؛ فإنَّها إنَّما تُرادُ لأجلِها.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٣٠١).

وأما الأحوالُ فنعني بها تصفيةَ القلبِ وتطهيرَهُ عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طَهُرَ وصفا اتَّضَحَ له حقيقةُ الحق.

وأما الأعمالُ فإنَّ تأثيرَها في تأكيدِ صفاءِ القلبِ وجلبِ الأحوالِ إليه بكلّ عملٍ صالحٍ يستنيرُ القلبُ بفعلِهِ.

واعلم أنَّ الصبرَ والشكرَ درجات، وأقلُّ درجاتِ الصبرِ: تركُ الشكوى مع الكراهية، ووراءَها الرِّضا، وهو مقامٌ وراءَ الصبر، ووراءَهُ الشكرُ على البلاء، وهو وراءُ الرضا؛ إذ الصَّبرُ مع التألُّمِ والرّضا يمكن بما لا أَلَمَ فيه ولا فرح، والشكرُ لا يمكنُ إلا على محبوبٍ مفروحٍ به.

(م: قال ابنُ عجيبة ﵀: «الشكرُ أفضلُ المقاماتِ وأحسنُ الطاعات، مِنْ حيثُ إنَّه مُتضمِّنٌ للفرح بالله، ومُوجِبٌ لمحبّةِ الله، ولا شكَّ أنَّ مقامَ الشُّكرِ أعلى مِنْ مقام الصبر؛ لأنَّ الشاكرَ يرى المِنَنَ في طيِّ المحن، فيتلقَّى المهالكَ بوجهٍ ضاحك؛ لأنَّه لا يكون شاكراً حقيقةً حتَّى يشكرَ في السَّرّاءِ والضَّرّاء، ولا يشكرُ في الضَّرّاءِ حتى يراها سَرّاء، باعتبارِ ما يُواجه به في حالِ الضَّرّاءِ مِنَ الفتوحاتِ القلبيّةِ والمواهبِ اللَّدُنِّيّة، فتنقلبُ النِّقمةُ نعمةً، بخلاف مقامِ الصبر، صاحبُهُ يتجرَّعُ مرارةَ الصَّبر؛ لأنَّه لم يترقَّ إلى شهودِ الـمُبلِي في حال بلائه، ولو ترقَّى إلى الشهودِ لَلَذَّتْ لديه البلايا، كما قال الشيخ الجيليُّ في العينيّة:

تَلَــذُّ لِيَ الآلامُ إنْ كُنْتَ مُسْــقِمِي ... وَإنْ تَخْتَبِرْني فَهْيَ عِنْدِي صَنائِعُ»[1])

---

(١) ينظر: (البحر المديد) (٣/ ٣٥٧).

ودرجاتُ الشكرِ كثيرة، مِنْ جملتِها: حياءُ العبدِ مِنْ تَتابُعِ نعمِ الله عليه، فإنَّها شكرٌ، ومعرفةُ تقصيرِهِ عن الشكرِ شكرٌ، والاعتذارُ مِنْ قِلَّةِ الشُّكرِ شكرٌ، والمعرفةُ بعظيمِ حلمِ الله وكَنَفِ سترِهِ شكرٌ، والاعترافُ بأنَّ النِّعمَ ابتداءً مِنَ الله تعالى مِنْ غيرِ استحقاقٍ شكرٌ، والعلمُ بأنَّ الشكرَ نعمةٌ مِنْ نِعَمِ الله ومَوْهِبةٌ منه شكرٌ، وحسنُ التواضعِ بالنِّعمِ والتَّذَلُّلُ فيها شكرٌ، وتَلَقِّي النِّعمِ بحسنِ القبولِ واستعظامُ صغيرِ النِّعمِ شكرٌ، وشكرُ الوسائطِ شكرٌ؛ إذ قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ»[1].

(ش: قال الإمام الشعراني ـ قدس سره ـ: اعلم أنَّ كفرانَ النِّعمِ للوسائطِ ممّا يُحوِّلُها، وإذا حُوِّلَتْ فلا يقدرُ مَنْ كفرتَ نعمتَهُ أن تجريَ لكَ نعمةٌ على يديه: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥]؛ لأنَّ كفرانَ النِّعمةِ يقطعُ طريقَها، فبتقدير أنَّ مَنْ كفرتَ نعمتَهُ لا يؤاخذك، فأنت لا تستحق تلك النِّعمة.

وقد كَثُرَ كفرانُ النِّعمِ في هذا الزمان مِنَ الزوجةِ والأولادِ والمريدين، وبذلك تعسَّرَتْ عليهم الأرزاق، وكلَّما تأخَّرَ الزمانُ زاد على الناس الأمرُ في تعسير الأرزاقِ وفي تحويلها عنهم بالكلية؛ لقلّةِ الشكرِ بالعملِ مِنْ قيامِ الليل وغيره، فإنَّ الشكرَ بالقولِ ما بَقِيَ يكفي لغالبِ النِّعمِ في هذا الزمان، وقد قال تعالى في حقِّ آل داود: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، ولم يقل: قولوا آل داود شكراً، وهذه الأمة المحمدية أولى بأن يشكروا بالعمل؛ لأنهم أعظمُ نعمةً بنبيهم وشريعتهم، وما وَرَدَ مِن الاكتفاء بالشُّكرِ بالقول إنما هو رخصةٌ للضُّعفاء، فليتنبَّه مَنْ كان غافلاً عن ذلك ليدومَ الماءُ في مجاريه[2].

(١) رواه أبو داود (٤٨١١).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٢٩١).

وكان سيدي عليٌّ الخواصُ يقول: مَنْ أراد تخليدَ النِّعمِ عليه فليتلقّاها بالشكرِ والاعترافِ بالذنب، فإنَّ مَنْ تلقَّاها مع الغفلةِ فقد حَلَّ عِقالها وعرَّضَها للزوال، وهذا شأنُ غالبِ الناس اليوم، فيتلقَّون النِّعمَ وهم غائبونَ عن الشكر كالبهائم السارحة، ولذلك تفلَّتَتْ منهم النِّعمُ، وربما أخذُوها مع الاستهانة بها، فكان ذلك سبباً في زوالها[1].

وسمعتُهُ يقول: مَنْ طَلَبَ مِنَ الحقِّ فوقَ الضَّرورة في هذه الدار فهو أعمى البصيرة، وإذا كان لا يقدرُ على القيام بالشكرِ لله على الضروريات فكيف يقدرُ على شكرِهِ على الشهوات.

وسمعتُهُ مرّةً أخرى يقول: مَنْ رَضِيَ عن الله بالقليل مِنَ الدنيا رَضِيَ الحقُّ منه بالقليل مِنَ العمل.

وقد أجمعَ أشياخُ الطريقِ على أنَّ كلَّ مريدٍ وَجَدَ الخبزَ فقال: «آكلُ خبزي بإيش؟» لا يجيءُ منه شيءٌ في الطريق.

ويحتاج مَنْ يريدُ العملَ بحقيقةِ الشكرِ إلى شيخٍ يسلكُ به إلى الحضراتِ التي يعلمُ منها العبدُ ما لله تعالى عليه مِنَ الحقوقِ، حتى يصيرَ يرى لله المنةَ عليه الذي لم يخسف به الأرض، فضلاً عن تسخير الأرزاقِ التي تهواها نفسُهُ[2].

وأعلى درجاتِ الشكرِ أن لا يفرحَ العبدُ بنعمةِ الله إلا مِنْ حيثُ إنَّه يقدرُ بها على التوصُّلِ إلى القربِ منه تعالى، والنزولِ في جوارِهِ، والنظرِ إلى وجهِهِ على الدَّوام، فهذا هو الرتبةُ العُليا.

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٥١٩).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٥٤٤).

وأمارتُهُ: أن لا يفرحَ بالدُّنيا إلا بما هو مزرعةٌ للآخرةِ ويُعينُهُ عليها، ويحزن بكلِّ نعمةٍ تُلْهِيهِ عن ذكرِ الله تعالى وتَصَدُّهُ عن سبيله، ولذلك قال الشبليُّ رحمه الله: (الشكرُ: رؤيةُ الـمُنعِمِ، لا رؤيةُ النِّعمة)[1].

وهذه رتبةٌ لا يُدرِكُها كلُّ مَنِ انحصرَتْ عندَهُ اللَّذّاتُ في البطنِ والفرجِ ومُدرَكاتِ الحواسِّ مِنَ الألوانِ والأصوات، وخلا عن لذّةِ القلب؛ فإنَّ القلبَ لا يلتذُّ في حالِ الصِّحةِ إلا بذكرِ الله تعالى ومعرفتِهِ ولقائِهِ.

وقال إبراهيمُ الخوّاص رحمه الله: (شكرُ العامةِ على المَطْعَمِ والمَلْبَسِ، وشكرُ الخاصَّةِ على وارداتِ القلوب)[2].

فَكَمْ مِنْ فرقٍ بين مَنْ يريدُ اللهَ ليُنعِمَ عليه، وبينَ مَنْ يريدُ نِعَمَ الله ليصلَ بها إليه.

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٣١٢).

(٢) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٣١٢).

الكتاب الثالث من ربع المنجيات
في الرجاء والخوف

(إذا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الرَّجاءِ فاشْهَدْ ما مِنْهُ إلَيْكَ)[1]

اعلم أنَّ الرجاءَ والخوفَ جناحانِ بهما يطيرُ المقرَّبون إلى كلِّ مقامٍ محمود، ومطيَّتانِ بهما يُقطَعُ مِنْ طرقِ الآخرةِ كلُّ عقبةٍ كؤود، فلا يقودُ إلى قربِ الرحمنِ وروحِ الجِنان مع كونِهِ بعيدَ الأرجاءِ ثقيلَ الأعباءِ محفوفاً بمكارهِ القلوبِ ومشاقِّ الجوارحِ والأعضاءِ إلّا أزمّةُ الرجاء، ولا يصدُّ عن نار الجحيمِ والعذابِ الأليمِ مع كونِهِ محفوفاً بلطائفِ الشهواتِ وعجائبِ اللَّذّاتِ إلا سياطُ التخويفِ وسطواتُ التَّعنيف، فلا بُدَّ إذن مِنْ بيان حقيقتِهِما وفضيلتِهِما، وسبيلِ التوصُّلِ إلى الجمعِ بينهما مع تضادهما وتعاندهما، ونحن نجمعُ ذكرَهُما في كتابٍ واحدٍ يشتملُ على شطرين: الشطر الأوّل في الرجاء، والشطر الثاني في الخوف.

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أنَّ الرجاءَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكين وأحوالِ الطالبين، وإنَّما يُسمَّى الوصفُ مقاماً إذا ثَبَتَ وأقامَ، وإنَّما يُسمَّى حالاً إذا كان عارضاً سريعَ الزَّوال.

---

(١) الحكمة (١٤٩) من الحكم العطائية.

والرجاءُ: هو ارتياحُ القلبِ لانتظارِ ما هو محبوبٌ عنده، وإنما يصدقُ على انتظارِ محبوبٍ تمهَّدَتْ جميعُ أسبابِهِ الداخلةِ تحتَ اختيارِ العبد، فالعبدُ إذا بَثَّ بذرَ الإيمانِ، وسقاه بماء الطاعات، وطهَّرَ القلبَ عن شوكِ الأخلاق الرديئة، وانتظر مِنْ فضلِ الله حسنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلى المغفرة كان انتظارُهُ رجاءً حقيقيّاً محموداً، باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت.

وإن قَطَعَ عن بذرِ الإيمانِ تعهُّده بماء الطاعات، وتركَ القلبَ مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لَذَّاتِ الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظارُهُ حمقٌ وغرورٌ، قال ﷺ: «الأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1].

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن يكونَ رجاؤنا وظنُّنا في الله تعالى حسناً بطريقه الشرعي، وذلك بأن نأتي بجميع المأمورات الشرعية، ثم نرجو فضلَ ربِّنا ونعوِّلَ على فضلِهِ لا على تلك الأعمال، فإنَّه لو آخَذَنا بما في طاعاتنا مِنْ سوءِ الأدبِ معه لعذَّبَنا أبدَ الآبدين.

وهذا الرَّجاءُ والظَّنُّ بالله تعالى مُتعيِّنٌ على الإنسانِ في كلِّ نَفَسٍ، ومَنْ قال: إنَّ ترجيحَ حُسْنِ الظَّنِّ لا يكونُ إلا عند الموت، قلنا له: والموتُ حاضرٌ عندنا في كلِّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاس، ليس لنا عهدٌ مِنَ الله تعالى برجوعِ نَفَسٍ واحدٍ إذا خرج.

فيحتاجُ المؤمنُ إلى عينين: عين ينظر بها إلى حضرةِ الانتقامِ فيخاف مِنَ الله

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠).

تعالى، وعين ينظر بها حضرةَ الرحمةِ والمغفرةِ فيرجو فضلَ الله تعالى ورحمته، فالعينان في آنٍ واحدٍ لا أنَّهما يتعاقبان، فافهم.

وقد حَثَّنا الله تعالى على حسنِ الظَّنِّ به بقوله: «أنا عندَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِي، فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً»[1]، فَمَنْ لم يَظُنَّ بالله خيراً فقد عصى أمرَ الله تعالى.

فَعُلِمَ أنَّ حُسْنَ الظَّنِّ ليس في يد العبد، وإنما هو مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: استصحبوا صفات الإسلام دائماً، ولا تتركوها نفساً واحداً، فكلُّ وقتٍ جاءكم الموتُ وجدَكم مسلمين[2]).

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: (مِنْ أعظمِ الاغترارِ عندي: التَّمادي في الذنوبِ على رجاءِ العفوِ مِنْ غير ندامةٍ، وتوقُّعُ القربِ مِنَ الله عزَّ وجلَّ مِنْ غير طاعةٍ، وانتظارُ زرعِ الجنَّة ببذرِ النار، وطلبُ دار المطيعين بالمعاصي، وانتظارُ الجزاءِ بغيرِ عمل، والتَّمنِّي على الله مع الإفراطِ في الأمل).

وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه: (إنَّما العالِمُ الذي لا يُقنِّطُ الناسَ مِنْ رحمةِ الله تعالى، ولا يُؤَمِّنُهم مِنْ مكرِ الله)[3].

واعلم أنَّ هذا الزمانَ زمانٌ لا ينبغي أن يُستعمَلَ فيه مع الخلقِ أسبابُ الرجاء، بل المبالغةُ في التخويفِ أيضاً تكادُ أن لا تردَّهم إلى جادَّةِ الحق وسَنَنِ الصَّواب، فَذِكْرُ أسبابِ الرجاءِ يُهلِكُهم ويُرديهم بالكلية إلا في حقِّ الآيسِ أو فِيمَنْ غَلَبَ عليه الخوفُ، فذكرُها في حقِّهم نافع.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٠١٦)، وابن حبان (٦٤١).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ١١٠).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٧).

وليستعمل الواعظ أسباب الخوف والرجاء بحسب الحاجة استعمالَ الطبيبِ الحاذقِ، لا استعمال الأخرق الذي يظنُّ أنَّ كلَّ شيءٍ من الأدويةِ صالحٌ لكلِّ مريضٍ كيفما كان.

وأسبابُ الرجاءِ مِن الآياتِ والأخبارِ والآثارِ خارجٌ عن الحصر، فمنها قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وكان أبو جعفر محمد بن علي رضي الله عنه يقول: أنتم أهل العراق تقولون أرجى آيةٍ في كتاب الله عز وجل قولُهُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، الآيةَ، ونحن أهلَ البيتِ نقولُ: أرجى آيةٍ في كتابِ الله قولُهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وجاء في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لا أَرْضَى وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ»[١].

وصَحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «للهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا»[٢].

وقال علي رضي الله عنه: (مَنْ أذنبَ ذنباً فسترهُ اللهُ عليه في الدُّنيا فاللهُ أكرمُ مِنْ أن يَكشِفَ سترَهُ في الآخرة، ومَنْ أذنبَ ذنباً فعُوقِبَ عليه في الدُّنيا فاللهُ تعالى أعدلُ مِنْ أن يُثنِّيَ عقوبتَهُ على عبدِهِ في الآخرة)[٣].

---

(١) رواه الخطيب في تلخيص المتشابه (١/ ١٧٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٧١٧٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٢٦) وابن ماجه (٢٦٠٤).

الشطر الثاني في الخوف

(وَإذا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الخَوفِ فاشْهَدْ ما مِنْكَ إلَيْهِ)[1]

اعلم أنَّ الخوفَ عبارةٌ عن تألُّمِ القلبِ واحتراقِهِ وانزعاجِهِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبال.

ومَنْ أَنِسَ بالله ومَلَكَ الحقُّ قلبَهُ بأن لَمْ يَبْقَ فيه سواهُ، وصار ابنَ وقتِهِ مُشاهِداً لجمالِ الحقِّ على الدوامِ لم يبقَ له التفاتٌ إلى المستقبلِ، فلم يكن له خوفٌ ولا رجاءٌ، بل صار حالُهُ أعلى مِنَ الخوفِ والرجاء؛ فإنَّهما زمامانِ يمنعانِ النَّفسَ عن الخروجِ إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطيُّ رحمه الله حيث قال: (الخوفُ حجابٌ بينَ الله وبينَ العبدِ)[2]، فَعَدَّ التَّطلُّعَ لوقتٍ ثانٍ حجاباً وهفوةً.

وقال أيضاً: (إذا ظَهَرَ الحقُّ على السرائرِ لا يبقى فيها فضلةٌ لرجاءٍ ولا لخوفٍ)[3]، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وبالجملةِ، فالمحبُّ إذا شَغَلَ قلبَهُ في مشاهدةِ المحبوبِ بخوفِ الفراقِ كان ذلك نقصاً في الشهود، وإنَّما دوامُ الشُّهودِ غايةُ المقامات.

---

(١) الحكمة (١٤٩) من الحكم العطائية.

(٢) رواه الأزدي في طبقات الصوفية (٢٣٣)، وينظر: (الرسالة القشيرية) (٢٣٧).

(٣) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٢٣٩).

واعلم أنّ أسباب الخوفِ كثيرةٌ، فمنها: خوفُ الموت قبل التوبة، أو خوفُ نقض التوبة ونكث العهد، أو خوفُ الميل عن الاستقامة، أو خوفُ الاستدراج بتواتر النعم، أو خوفُ انكشافِ غوائل طاعاتِهِ حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، أو خوفُ تبعات الناسِ عنده في الغيبةِ والخيانة والغشّ وإضمارِ السوء، أو خوفُ البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوفُ الاشتغال عن الله بغير الله، أو خوفُ الخاتمة، أو خوفُ السابقةِ التي سبقت له في الأزل، فهذه كلُّها مخاوفُ العارفين، ولكلٍّ واحدةٍ خصوصيّةٌ وفائدةٌ.

وأغلبُ هذه المخاوف على المتقين خوفُ الخاتمة؛ فإنّ الأمرَ فيه خطرٌ، وأعلى الأقسام وأدلُّها على كمالِ المعرفة خوفُ السابقة؛ لأنّ الخاتمةَ تتبعُ السابقة، فالخاتمةُ تُظْهِرُ ما سبق به القضاءُ في أمّ الكتاب، وهذا كانقسام الخائفين إلى مَنْ يخافُ معصيتَهُ وجنايتَهُ، وإلى مَنْ يخافُ الله تعالى نفسَهُ لصفتِهِ وجلالِهِ وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفُهُ ويدوم، وإنْ كان في طاعة الصدّيقين.

وقال الفضيل رحمه الله: إذا قيلَ لك: هل تخافُ الله فاسكت، فإنَّك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، كذبتَ. فأشار به إلى أنّ الخوفَ هو الذي يكفُّ الجوارح عن المعاصي ويُقيّدُها بالطاعات، وما لم يؤثّر في الجوارح فهو حديثُ نفسٍ لا يستحقُّ أن يُسمّى خوفاً، فالخوفُ مِنَ المعصيةِ خوفُ الصالحين، والخوفُ مِنَ الله خوفُ الموحّدين والصدّيقين، وهو ثمرةُ المعرفة بالله تعالى، وكلُّ مَنْ عَرفَهُ وعَرَفَ صفاتِهِ عَلِمَ مِنْ صفاتِهِ ما هو جديرٌ بأن يخاف مِنْ غير جناية، (م: ومِنْ ثمّ قال إمامُ العارفين أبو مدين الغوث رحمه الله: «مَنْ

عَرَفَ الله استعاذَ منه في اليقظة والمنام»)، بل لو عَرَفَ العاصي ربَّهُ حقَّ المعرفةِ لخافَهُ ولم يخف مِنْ معصيته، (م: ومِنْ ثمَّ قالَ إمامُ العُصاةِ والمجرمين وأشقى الخلقِ إبليسُ لعنه الله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]).

وقد جاء في الخبرِ: (إنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ: «يا دَاوُدُ خَفْنِي كما تَخَافُ السَّبُعَ الضَّارِي»)(١).

ومنها: خوفُ سكراتِ الموتِ وشِدَّتِهِ، أو سؤال منكرٍ ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوفُ من الصراط وحِدَّتِهِ، وكيفية العبور عليه، أو الخوفُ مِنَ النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوفُ مِنَ الحرمانِ عن الجنة دار النعيم والملك المقيم، أو الخوفُ من الحجاب عن الله تعالى.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نخافَ مِن سطواتِ ربِّنا وغضبِهِ علينا ليلاً ونهاراً، ولا نأمنَ مكرَ الله علينا في ساعةٍ مِنْ ليلٍ أو نهار.

واعلم يا أخي أنَّ أحداً لا يستغني عن الخوفِ ولا يسقطُ عنه ولَوْ بَلَغَ الغايةَ ما دام في هذه الدار، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم، وأما ما عداهم فَمِنْ حقِّه الخوفُ حتى يضعَ قدمَهُ في الجنة.

وقد كان السلفُ الصالحُ كلُّهم على قدمِ الخوفِ حتى ماتوا؛ لعلوِّ مقامِهم

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ٢٤١).

وقربهم مِن ربهم، وخَلَفَهُم أقوامٌ ليس عندهم مِنَ الخوفِ إلا الاسم؛ فإنَّ أعمالَهم تُكذِّبُ أقوالَهم.

وطَلَبَ جماعةٌ مِنْ سيدي عبد العزيز الديريني كرامةً، وقالوا: مرادُنا شيءٌ يُقوِّي يقينَنا واعتقادَنا فيك حتى نأخذَ عنك الطريق، فقال: يا أولادي وهل ثَمَّ كرامةٌ مِنَ الله لعبد العزيز أعظمُ مِنْ أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به، وقد استحقَّ الخسفَ به مِن سنين؟ فقال له شخص: إنَّ الخسفَ لا يكون إلا للكفار وأنتم مِن المؤمنين، فقال: قد خَسَفَ الله تعالى بشخصٍ لَبِسَ حُلَّةً وتبخترَ فيها في مكة، كما في البخاري عن ابن عباس، وكم لعبد العزيز مِنْ ذنبٍ أعظمَ مِنَ التبختر.

وإذا كان الإمامُ أبو بكر الصديق صاحبُ سيِّدِ الأولين والآخرين ﷺ يقول: والله لَوَدِدْتُ أن أكونَ شجرةً تُعضَد، فكيف بأمثالنا؟[١].

وقد دَرَجَ الأكابرُ كلُّهم على قدمِ الخوفِ مع عملِهم بالشريعة على الكمال، فكيف يليقُ بغيرهم عدمُ الخوف؟[٢].

وانظرْ يا أخي إلى ما كان عليه السلف الصالح مِنَ الخوف، حتى كأنَّ النارَ ما خُلِقَتْ إلا لهم، واسلُكْ طريقَهم[٣].

فهذه مخاوفُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماء والصالحين، ونحنُ أجدرُ بالخوف منهم، لكنْ ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاءِ القلوبِ وكمالِ المعرفة، وإلا

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ١٠٤. ١٠٧).

(٢) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ١٩٠).

(٣) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٥٧٢).

فليس أمنُنا لقلّةِ ذنوبنا وكثرةِ طاعاتنا، بل قادتَنا شهوتُنا وغلبَتْ علينا شقوتُنا وصَدَّتْنا عن ملاحظةِ أحوالِنا غفلتُنا وقسوتُنا، فلا قربُ الرَّحيلِ يُنبّهنا، ولا كثرةُ الذُّنوبِ تُحرِّكُنا، ولا مشاهدةُ أحوالِ الخائفين تُخوِّفنا، ولا خطرُ الخاتمةِ يزعجُنا؛ فنسألُ الله تعالى أن يتداركَ بفضله وجودِهِ أحوالَنا فيصلحنا، إن كان تحريكُ اللِّسانِ بمجرَّدِ السؤال دونَ الاستعداد ينفعنا.

وتختلفُ أحوالُ الخائفين مِنَ العابدين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، وأعلاها رتبةً هو خوفُ الفراقِ والحجابِ عن الله تعالى، وهو خوفُ العارفين، ومَنْ لم تكمل معرفتُهُ ولم تَنْفَتِحْ بصيرتُهُ لم يشعر بألمِ البعدِ والفراقِ، ولا بلذّةِ القربِ والوصال، وإذا ذُكِرَ له أنَّ العارفَ لا يخافُ النارَ وإنَّما يخافُ الحجابَ وجدَ ذلك في باطنه مُنكَراً، وتعجَّبَ منه في نفسه، وربَّما أنكرَ لذَّةَ النَّظرِ إلى وجه الله الكريم لولا منعُ الشرعِ إيَّاهُ مِنْ إنكاره، فيكونُ اعترافُهُ به باللسانِ عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنُهُ لا يُصدِّقُ به؛ لأنَّه لا يعرفُ إلا لذّةَ البطنِ والفرجِ والعينِ بالنَّظرِ إلى الألوان والوجوهِ الحِسان، وبالجملةِ، كلُّ لذة تشارِكُهُ فيها البهائم، وأمَّا لذَّةُ العارفين فلا يُدرِكُها غيرُهُم، وتفصيلُ ذلك وشرحُهُ حرامٌ مع مَنْ ليس أهلاً له، ومَنْ كان أهلاً له استبصرَ بنفسِهِ واستغنى عن أن يَشرَحَهُ له غيرُهُ.

واعلم أنَّه لا سعادةَ للعبدِ إلا في لقاءِ مولاهُ والقربِ منه، فكلُّ ما أعانَ عليه فله فضيلةٌ، ولا وصولَ إلى سعادةِ لقاءِ الله في الآخرةِ إلا بتحصيلِ محبَّتِهِ والأنسِ به في الدنيا، ولا تحصلُ المحبّةُ إلا بالمعرفة، ولا تحصلُ المعرفةُ إلا بدوامِ الفكرِ والذِّكرِ، ولا تتيسَّرُ المواظبةُ على الذكرِ والفكرِ إلا بانقلاعِ حُبِّ

الدُّنيا مِنَ القلب، ولا ينقلعُ ذلك إلا بتركِ لذّاتِ الدُّنيا وشهواتِها، ولا تنقمعُ الشَّهوةُ بشيءٍ كما تقمعُ بنارِ الخوف، فالخوفُ هو النارُ الـمُحرِقةُ للشهوات؛ فإنَّ فضيلتَهُ بقدرِ ما يحرقُ مِنَ الشهوات، وبقدر ما يكفُّ عن المعاصي ويحثُّ على الطاعات، قال الفضيل رحمه الله: (مَنْ خافَ الله دلَّهُ الخوفُ على كلِّ خيرٍ)[1].

وقد قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»[2].

وقيل: كان الخليلُ ـ عليه السلام ـ إذا ذَكَرَ خطيئتَهُ يُغشَى عليه، ويُسمَعُ اضطرابُ قلبِهِ ميلاً في ميل، فيأتيه جبريلُ فيقول له: ربُّكَ يُقرِئك السَّلامَ ويقول: هل رأيتَ خليلاً يخافُ خليلَهُ؟ فيقول: يا جبريلُ؛ إنِّي إذا ذكرتُ خطيئتي نسيتُ خلَّتي[3].

وقال النبي ﷺ: «إِذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُها»[4].

وقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلّا ظِلُّهُ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: رَجُلاً ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[5].

وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: (لَأَنْ أَدْمَعَ دمعةً مِنْ خشيةِ الله أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَتصدَّقَ بألفِ دينار)[6].

---

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٢٦).

(٢) رواه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الخائفين. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٩/ ٢٤٩).

(٤) رواه البزار في مسنده (١٣٢٢).

(٥) رواه البخاري (٦٦٠).

(٦) رواه البيهقي في الشعب (٨١٦).

الكتاب الرابع من ربع المنجيات
في الفقر والزهد

(إن أَرَدْتَ وُرُودَ المَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحِ الفَقْرَ والفاقَةَ لَدَيْكَ؛ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾)[1]

اعلم أنَّه لا مطمعَ في النجاةِ إلا بالانقطاعِ عن الدُّنيا والبعدِ منها، والانقطاعُ إما أن يكونَ بانزوائِها عن العبدِ، ويسمَّى ذلك فقراً، وإما بانزواءِ العبدِ عنها، ويُسمَّى ذلك زهداً، ولكلٍّ واحدٍ منهما درجةٌ في نيل السعادات.

بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقير

اعلم أنّ الفقرَ عبارةٌ عن فقدِ ما هو محتاجٌ إليه، ولهذا المعنى يُسمَّى فاقدُ المالِ فقيراً، وإذا فهمتَ هذا لم تشكَّ في أنَّ كلَّ موجودٍ سوى الله تعالى فهو فقيرٌ؛ لأنَّه مُحتاجٌ إلى دوامِ الوجودِ في ثاني الحال، ودوامُ وُجُودِهِ مستفادٌ مِنْ فضلِ الله تعالى وَجُودِهِ، فإن كان في الوجودِ موجودٌ ليس وجودُهُ مستفاداً له مِنْ غيرِهِ فهو الغنيُّ المطلق، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ مثلُ هذا الموجودِ إلا واحداً، فليس في الوجودِ إلا غنيٌّ واحدٌ، وكلُّ مَنْ عداه فإنَّهم محتاجون إليه ليمدَّ وجودَهُم بالدوام، وإلى هذا الحصرِ الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

---

(١) الحكمة (١٧٧) من الحكم العطائية.

هذا معنى الفقرِ مطلقاً، ولكنَّا لسنا نقصدُ بيانَ الفقر المطلق، بل الفقر مِنَ المالِ على الخصوص، وإلا ففقرُ العبدِ بالإضافةِ إلى أصناف حاجاته لا ينحصرُ، وله عند الفقدِ أحوالٌ:

الحالة الأولى ـ وهي العليا ـ: أن يكونَ بحيثُ لو أتاهُ المالُ لَكرِههُ وتأذَّى به، وهَرَبَ مِنْ أخذِهِ مُبغِضاً له، ومُحترِزاً مِنْ شَرِّهِ وشُغْلِهِ، وهو الزُّهدُ، واسمُ صاحبِهِ الزاهدُ.

الثانية: أن يكونَ بحيثُ لا يرغبُ فيه رغبةً يفرحُ بحصوله، ولا يكرهُهُ كراهةً يتأذَّى بها، ويزهدُ فيه لو أتاه، وصاحبُ هذه الحالةِ يُسمَّى راضياً.

الثالثة: أن يكونَ وجودُ المالِ أحبَّ إليه مِنْ عدمِهِ؛ لرغبةٍ له فيه، ولكنْ لم يبلغ مِنْ رغبتِهِ أن ينهضَ لِطَلَبِهِ، بل إن أتاه صَفْواً عَفْواً أخذَهُ وفَرِحَ به، وإن افتقرَ إلى تعبٍ في طلبِهِ لم يشتغلْ به، وصاحبُ هذه الحالةِ نُسمِّيه قانعاً.

الرابعة: أن يكونَ تركُهُ لعجزِهِ، وإلا فهو راغبٌ فيه رغبةً لو وَجَدَ سبيلاً إلى طلبِهِ ولَوْ بالتَّعَبِ لَطَلَبَهُ، أو هو مشغولٌ بالطلبِ، وصاحبُ هذه الحالةِ نُسَمِّيهِ حريصاً.

ووراء هذه الأحوالِ حالةٌ هي أعلى مِنَ الزُّهدِ، وهي أن يستويَ عندَهُ وجودُ المالِ وفقدُهُ؛ فإن وجدَ لم يفرح به ولم يتأذَّ، وإن فَقَدَهُ فكذلك، فَمَنْ هذا حالُهُ لو كانتِ الدُّنيا بحذافيرِها في يدِهِ وخزائنِهِ لم تضرَّه؛ إذ هو يرى الأموالَ في خزانةِ الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يُفرِّقُ بين أن تكونَ في يدِهِ أو في يدِ غيرِهِ، وينبغي أن يُسمَّى صاحبُ هذه الحالةِ المستغنيَ لا الغني، لأنَّه غنيٌّ عن فقدِ المالِ ووجودِهِ جميعاً.

[بيانُ فضيلةِ الفقرِ]

ورد في الأثر: «يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيامَةِ فَيَعْتَذِرَ اللهُ تَعالَى إِلَيْهِ كَما يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ما زَوَيْتُ الدُّنْيا عَنْكَ لِهَوَانِكَ عَلَيَّ وَلكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الكَرَامَةِ وَالفَضِيلَةِ، اخْرُجْ يا عَبْدِي إِلَى هذِهِ الصُّفُوفِ، فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيّ بِذَلِكَ يُرِيدُ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَينظر مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ»[١].

وقال ﷺ: «دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذا بِلالٌ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلاَهَا فَإِذا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلاَدُهُمْ، وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذا فِيهِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ؛ فَقلْتُ: يا رَبِّ ما شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهِنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالحَرِيرُ، وَأَمّا الأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الحِسَابِ، وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَم أَرَ عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ عَوْفٍ، ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا خَلَّفَكَ عَنِّي؟ قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاللهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ المُشَيِّبات وَظَنَنْتُ أَنِّي لا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي»[٢].

وفي الخبر: «آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِما السَّلامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ، وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولاً الجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ لأَجْلِ غِنَاهُ»[٣].

---

(١) قال الحافظ العراقي: (رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب بسند ضعيف). ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (٩/ ٢٧٨).

(٢) رواه أحمد بنحوه في المسند (٥/ ٢٥٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٦)، والبيهقي في الزهد الكبير (٤٤٥).

(٣) رواه الطبراني بنحوه في الأوسط (٤١٢٥)، وبنحوه البزار في المسند (٧٠٠٣).

وأوصى رسولُ الله ﷺ عائشةَ رضي الله عنها خاصّةً وقال: «إنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الفُقَرَاءِ، وإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَنْزِعِي ثَوْباً حَتَّى تَرْقَعِيهِ»[1].

وقال الحسنُ رضي الله عنه: (لَعَنَ اللهُ أقواماً أَقْسَمَ لهم اللهُ تعالى ثُمَّ لم يُصدِّقوه، ثم قرأ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ - ٢٣])[2].

وقال أبو سليمانُ الدارانيُّ رضي الله عنه: (تَنَفُّسُ فقيرٍ دونَ شهوةٍ لا يقدرُ عليها أفضلُ مِنْ عبادةِ غنيٍّ ألفَ عامٍ)[3].

وقال رجلٌ لبشر بن الحارث رضي الله عنه: ادعُ اللهَ لي، فقد أضرَّ بي العيالُ، فقال: إذا قال لك عيالُكَ ليس عندنا دقيقٌ ولا خبزٌ فادعُ الله لي في ذلك الوقت، فإنَّ دعاءَك أفضلُ مِنْ دعائي[4].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: (ما أحسنَ تواضعَ الغنيِّ للفقيرِ رغبةً في ثواب الله تعالى، وأحسنُ منه تيهُ الفقيرِ على الغنيِّ ثقةً بالله عزَّ وجلَّ)[5]، فهذه رتبةٌ، وأقلُّ منها: أن لا يخالطَ الأغنياءَ ولا يرغبَ في مجالستهم؛ لأنَّ ذلك مِنْ مبادىء الطمع، قال الثوريُّ رحمه الله: (إذا خالطَ الفقيرُ الأغنياءَ فاعلم أنَّه مُراءٍ، وإذا خالطَ السُّلطانَ فاعلم أنه لِصٌّ)[6].

---

(١) رواه الترمذي (١٧٨٠).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٥٣).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٩٢).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (١٩٢).

(٥) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٨١).

(٦) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٩٦).

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخذ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نُحِبَّ الفقرَ وقلّةَ ذاتِ اليد، وأن نُحِبَّ مَنْ كان بهذه الصفة أيضاً من الفقراء والمساكين والمستضعفين، ونحبّ مجالستهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وذلك لأنَّ رحمةَ الله تعالى لا تُفارقُهم، فنحبهم ونحب مجالستَهم لمحبة الله تعالى لهم، وكذلك نُحِبُّ الفقرَ لِما فيه مِنْ كثرة سؤالِنا للحقِّ وتوجُّهِنا إليه لا لعلَّةٍ أخرى.

وإيضاحُ ذلك: أنَّ حاجةَ العبدِ تُذكّره بالله تعالى وعَدَمُ حاجتِهِ تُنسيه الحق، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ومِنْ هنا قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قُوتاً وكفافاً»[1]، أي: لا يفضل عنهم من غَدائهم ولا عشائهم شيء، وذلك ليصيروا متوجِّهين إلى الله تعالى كلَّ حينٍ لا ينسونه.

فانظر ما أشدَّ شفقتَهُ ﷺ على أهل بيته، ويُقاسُ بأهل بيتِهِ غيرُهم، فوالله لو عَلِمَ الإنسانُ قدرَ مقامِ الفقرِ لتمنّاهُ ليلاً ونهاراً.

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما فَزِعَتْ نفسي مِنَ الفقرِ قط، أي: بل تنشرحُ له إذا أقبلَ وتنقبضُ إذا أدبر، هذا مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه فما بالُ المقلِّدين له لا يفرحون بما كان يفرح به، ولا ينقبضون مما كان ينقبض له؟ وهذه أوّلُ درجاتِ أهلِ الطريق، فَمِنْ شدَّةِ محبّةِ المريدِ للطريقِ أوّلَ دخولِهِ لها أنَّه يصيرُ يكرهُ الدُّنيا بالطبع، وينقبضُ لدخولها في يدِهِ؛ لعلمِهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٠).

بأنه ليس له قدرةٌ على نيةٍ صالحةٍ في إمساكِها ولا إنفاقها، ثم إذا مَنَّ الله تعالى عليه بالكمالِ في الطريق وصارت الدُّنيا في يده لا في قلبِهِ يتمنَّى دخولَها في يدِهِ، وينقبضُ إذا أدبرت عنه؛ لأنَّ مِنْ كمالِ الداعي إلى الله تعالى مِنَ الأمة أن تكونَ الدُّنيا فائضةً عليه ليُطعِمَ منها أتباعه ويُنفِقَ عليهم منها[1]).

[آدابُ الفقير في فقرِهِ]

فأدبُ الفقيرِ أن لا يكون فيه كراهةٌ لما ابتلاه الله تعالى به مِنَ الفقر، وأن يُظهِرَ التَّعفُّفَ، ويبتعدَ عن الشَّكوى، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وأن لا يتواضع لغنيٍّ لأجلِ غِناهُ، وأن لا يُخالِطَ الأغنياءَ.

قال بعضُ العارفين: (إذا خالَطَ الفقيرُ الأغنياءَ انحلَّتْ عروتُهُ، فإذا طَمِعَ فيهم انقطعَتْ عصمتُهُ، فإذا سَكَنَ إليهم ضَلَّ)[2].

وينبغي أن لا يسكتَ عن ذكرِ الحقِّ مداهنةً للأغنياء وطَمَعاً في العطاء.

وينبغي للفقيرِ أن لا يمنعَ بذلَ قليلِ ما يَفْضُلُ عنه؛ فإنَّ ذلك جهدُ المُقِلِّ، وفضلُهُ أكثرُ مِنْ أموالٍ كثيرةٍ تُبذَلُ عن ظهرِ غنًى، فَعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مئةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ»[3].

وللفقير في الادِّخارِ ثلاثُ درجاتٍ:

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٦٤).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٩٦).

(٣) رواه النسائي (٥/ ٥٩).

إحداها: أن لا يَدَّخِرَ إلا ليومِهِ وليلتِهِ، وهي درجةُ الصِّدِّيقين.

والثانية: أن يدَّخِرَ لأربعين يوماً، فإنَّ ما زاد عليه داخلٌ في طول الأمل، وقد فَهِمَ العلماءُ ذلك مِنْ ميعادِ الله تعالى لموسى عليه السلام، فَفَهِمُوا منه الرُّخصةَ في أملِ الحياةِ أربعين يوماً، وهذه درجةُ المتقين.

والثالثة: أن يَدَّخِرَ لِسَنَتِهِ، وهي أقصى المراتب، وهي رتبةُ الصالحين، ومَنْ زاد في الادِّخارِ على هذا فهو واقعٌ في غمارِ العموم، خارجٌ عن حيِّزِ الخُصُوصِ بالكلية، فغنى الصالحِ الضَّعيفِ في طمأنينةِ قلبِهِ في قوتِ سَنَتِهِ، وغنى الخصوصِ في أربعينَ يوماً، وغنى خصوصِ الخصوصِ في يومٍ وليلةٍ، وقد قسمَ النَّبيُّ ﷺ لنسائه على مثل هذه الأقسام.

واعلم أنَّ إعطاءَ المعطي لا يخلو إما أن يكونَ لتطييبِ قلبِ المعطى له، وطلبِ محبَّتِهِ، وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، أو للرياء والسمعة.

أما الأوّل، وهو الهدية: فلا بأسَ بقبولها؛ فإنَّ قبولَها سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ، ولكن ينبغي ألاَّ يكون فيها مِنَّةٌ، فإن كان فيها مِنَّةٌ فالأولى تركُها.

وكان ﷺ يقبلُ مِنْ بعضِ الناسِ ويردُّ على بعض.

وجاءت إلى فتح الموصلي رحمه الله صُرّةٌ فيها خمسون درهماً فقال: حدَّثنا عطاءٌ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّما يَرُدُّهُ عَلَى اللهِ»[١]، ثم فَتَحَ الصُّرَّةَ فأخذَ منها درهماً ورَدَّ سائرَها[٢].

---

(١) رواه بنحوه البخاري (١٤٧٣).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٩٩).

والثاني: أن يكونَ للثوابِ المجرَّدِ، وذلك صدقةٌ أو زكاةٌ، فعليه أن ينظر في صفاتِ نفسِهِ أنَّه هل هو مُستحِقٌّ للزكاة؟ فإن اشتبهَ عليه فهو محلُّ شبهةٍ، وإن كانت صدقةً وكان يعطيه لدينِهِ فلينظر إلى باطنه، فإن كان مُقارِفاً لمعصيةٍ في السِّرِّ يعلمُ أنَّ المعطيَ لو عَلِمَ ذلك لَنَفَرَ طبعُهُ، ولَمَا تقرَّبَ إلى الله بالتَّصدُّقِ عليه، فهذا حرامٌ أخذُهُ، كما لو أعطاهُ لِظَنِّهِ أنَّه عالِمٌ أو علويٌّ ولم يكن، فإنَّ أخذَهُ حرامٌ محضٌ لا شبهةَ فيه.

والثالث: أن يكونَ غرضُهُ الشُّهرةَ والرياءَ والسُّمعةَ، فينبغي أن يردَّ عليه قصدَهُ الفاسدَ ولا يقبلَهُ؛ إذ يكونُ مُعيناً له على غرضِهِ الفاسد.

وكان سفيانُ الثوريُّ رحمه الله يردُّ ما يُعطَى ويقول: لو علمتُ أنَّهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لَأَخْذْتُ[1].

وينبغي للآخِذِ إذا كان محتاجاً إليه وقد سَلِمَ مِنَ الشبهةِ والآفات التي ذكرناها أن لا يَرُدَّ، لقولِهِ ﷺ: «مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هذا المَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ»، وفي لفظٍ آخرَ: «فلا يَرُدَّهُ»[2].

وقال بعض العلماء: يُخافُ في الرَّدِّ مع الحاجةِ عقوبةٌ مِنِ ابتلاءٍ بطمعٍ، أو دخولٍ في شبهةٍ أو غيرِهِ.

واعلم أنَّ الزيادةَ في المالِ على قدر الحاجةِ إنَّما تأتيكَ ابتلاءً وفتنةً؛ لينظر الله إليك ماذا تعملُ فيه، وقدرُ الحاجةِ يأتيكَ رفقاً بك، فلا تغفلْ عن الفَرْقِ بين الرِّفقِ والابتلاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٠٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٩٢).

وقد قال ﷺ: «لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلّا في ثَلاثٍ: طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ، وَثَوْبٍ يَوَارِي عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ»[١]. فإن أخذتَ الزيادةَ وصرفتَها إلى محتاجٍ فهو غايةُ الزُّهدِ، ولا يقدرُ عليه إلا الصِّدِّيقون.

وأما إذا كانت حالُكَ السَّخاءَ والبذلَ، والتَّكفُّلَ بحقوقِ الفقراءِ، وتعهُّدَ جماعةٍ مِنَ الصُّلحاء فَخُذْ ما زاد على حاجتِكَ، فإنَّه غيرُ زائدٍ على حاجةِ الفقراء، وبادِرْ به إلى الصَّرْفِ إليهم، ولا تَدَّخِرْهُ، فإنَّ إمساكَهُ ـ ولو ليلةً واحدةً ـ فيه فتنةٌ، وقد تصدَّى لخدمةِ الفقراءِ جماعةٌ اتَّخذُوها وسيلةً إلى التوسُّعِ في المال، والتَّنَعُّمِ في المطعمِ والمشربِ، وذلك هو الهلاكُ.

وقال موسى عليه السلام: يا ربِّ؛ جعلتَ رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل، يُغدِّيني هذا يوماً، ويُعشيني هذا ليلة، فأوحى الله تعالى إليه: هكذا أصنعُ بأوليائي، أُجري أرزاقَهم على أيدي البطَّالين مِنْ عبادي ليُؤجَروا فيهم[٢]، فلا ينبغي أن يرى المعطيَ إلا مِنْ حيثُ إنَّه مُسخَّرٌ مأجورٌ مِنَ الله تعالى.

[بيان تحريم السؤال من غير ضرورة؛ وآداب الفقير المضطر فيه]

واعلم أنَّ السُّؤالَ حرامٌ، وإنَّما يُباحُ لضرورةٍ أو حاجةٍ مُهِمَّةٍ قريبةٍ مِنَ الضَّرورة.

وإنَّما قُلنا: إنَّ الأصلَ فيه التَّحريمُ؛ لأنَّه لا ينفكُّ عن ثلاثةِ أمورٍ محرَّمةٍ:

---

(١) رواه الترمذي بنحوه (٢٣٤١)، وينظر: (قوت القلوب) (٢/ ١٩٨).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٠٠).

الأول: لأنّ فيه إظهار الشّكوى من الله تعالى؛ إذ السؤالُ إظهارٌ للفقر، وذكرٌ لقصورِ نعمةِ الله تعالى عنه، وهو عينُ الشكوى.

الثاني: لأنّ فيه إذلالَ السّائل نفسهُ لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يُذلَّ نفسَهُ إلا لمولاه.

الثالث: لأنّه لا ينفكُّ عن إيذاء المسؤول غالباً، ولأنّه ربّما لا تسمحُ نفسُهُ بالبذلِ عن طيب القلب، فإن بَذل حياءً من السائلِ أو رياءً فهو حرامٌ على الآخذ، وإن مَنَعَ ربّما استحيا وتأذّى في نفسه بالمنع؛ إذ يرى نفسهُ في صورة البخلاء.

* * *

الشطر الثاني في الزهد

(ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ زاهِدٍ، وما كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبِ رَاغِبٍ)[١]

اعلم أنَّ الزهدَ عبارةٌ عن الرَّغبةِ عن الدُّنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله عدولاً إلى الله تعالى، وهي الدرجةُ العُليا، والزهدُ يُوجِبُ تركَ المزهودِ فيه بالكُلِّيَّةِ، وهي الدُّنيا بأسرِها مع أسبابِها ومُقدِّماتِها وعلائقِها؛ فيخرجُ مِنَ القلبِ حبُّها، ويدخلُ حبُّ الطاعات، ويخرجُ مِنَ العينِ واليدِ ما أخرجَهُ مِنَ القلب، ويُوظِّفُ على اليدِ والعينِ وسائرِ الجوارحِ وظائفَ الطاعات.

قال ﷺ: «إن أردت أن يُحِبَّك الله فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا»[٢]، فَجَعَلَ الزهدَ سبباً للمحبة، فَمَنْ أحبَّه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكونَ الزُّهدُ في الدنيا مِنْ أفضلِ المقامات.

وقال ﷺ: «إذا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرّاً أَهْلَكَ مَالَهُ فِي المَاء وَالطِّينِ»[٣].

وجاء في تفسير قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، إنَّه الرِّئاسةُ والتَّطاوُلُ في البُنيان.

---

(١) الحكمة (٤٥) من الحكم العطائية.

(٢) رواه ابن ماجه بنحوه (٤١٠٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٨٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٥).

ونَظَرَ عمرُ رضي الله عنه في طريقِ الشامِ إلى صرحٍ قد بُنِيَ بجصٍّ وآجُرٍّ، فَكَبَّر وقال: (ما كنتُ أَظُنُّ أن يكونَ في هذه الأمةِ مَنْ يبني بُنيانَ هامانَ لفرعونَ)[١]، يعني: قولَ فرعون: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، يعني به الآجرَّ.

ويقال: إنَّ فرعونَ هو أوَّلُ مَنْ بُنِيَ له بالجِصِّ والآجُرِّ، وأوَّلُ مَنْ عَمِلَهُ هامان، ثم تَبِعَهُما الجبابرةُ.

ونهى سفيان رحمه الله عن النظرِ إلى بناءٍ مشيدٍ وقال: لولا نظرُ الناسِ لَمَا شيَّدوا، فالنظرُ إليه معينٌ عليه[٢].

قال أبو سليمانُ الداراني رحمه الله: (كلُّ ما شَغَلَكَ عن الله مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهو عليكَ مشؤومٌ)[٣].

وقال الجنيدُ رحمه الله: (أُحِبُّ للمريدِ المبتدىءِ أن لا يشغلَ قلبَهُ بثلاثٍ، وإلاَّ تغيَّرَ حالُهُ: التَّكَسُّبُ، وطَلَبُ الحديثِ والتَّزوُّجُ)[٤].

واعلم أنَّ التَّزَوُّجَ إذا كان شاغلاً عن ذكرِ الله فتركُ ذلك مِنَ الزهد، وإن لم يكن شاغلاً ولكنْ تَرَكَ ذلك احترازاً مِنْ لذَّةِ النَّظرِ والمضاجعةِ والمواقعةِ فليس هذا مِنَ الزُّهدِ أصلاً؛ فإنَّ الولدَ مقصودٌ لبقاءِ نسلِهِ، وتكثيرُ أُمَّةِ رسولِ الله ﷺ مِنَ القربات، واللَّذّةُ التي تلحقُ الإنسانَ فيما هو مِنْ ضرورةِ الوجودِ لا تَضُرُّهُ، وهو كَمَنْ تَرَكَ أكلَ الخبزِ وشَرِبَ الماءَ احترازاً مِنْ لذَّةِ الأكلِ والشُّربِ، فليس

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٠).

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣/ ٣٦٢).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٧).

ذلك مِنَ الزهدِ في شيء؛ لأنَّ في تركِهِ فواتَ بدنِهِ، فكذلك في تركِ النكاحِ انقطاعُ نسلِهِ.

قال أبو سليمان رحمه الله: (الزهدُ في النِّساءِ أن يختارَ المرأةَ الدُّون، أو اليتيمةَ على المرأةِ الجميلةِ والشريفةِ)(١).

وبالجملةِ، كلُّ ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يُجاوِزَ حدَّ الضرورة، وقدرُ الضرورةِ مِنَ الدُّنيا آلةُ الدِّينِ ووسيلتُهُ، وما جاوَزَ ذلك فهو مضادٌّ للدِّين، فَمَنْ ردَّ نفسَهُ إلى مضيقِ الضَّرورةِ فهو الآخِذُ بالحزم، وهو مِنَ الفرقةِ الناجيةِ لا محالة، والمقتصرُ على قدرِ الضَّرورةِ لا يجوزُ أن يُنسَبَ إلى الدُّنيا، بل ذلك القدرُ مِنَ الدنيا هو عينُ الدِّين؛ لأنَّه شرطُ الدِّين، والشرطُ مِنْ جملةِ المشروط.

(ش: قال الشيخ الأكبر قدس سره: «وأما الطهارةُ المندوبُ إليها فهي تركُ ما في اليدِ مِنَ الدنيا مما هو مباحٌ له إمساكُهُ، فَنَدَبَهُ الشرعُ إلى إخراجِهِ عن يدِهِ رغبةً فيما عند الله، وذلك هو الزهدُ وهي تجارة؛ فإنَّ لها عوضاً عند الله على ما تركته، والتركُ أعلى مِنَ الإمساك، وهذه مسألةُ إجماعٍ في كلِّ مِلَّةٍ ونِحلةٍ شرعاً وعقلاً؛ فإنَّ الناسَ مُجمِعون على أنَّ الزهدَ في الدنيا وتركَ جمعِ حُطامِها والخروجَ عمّا بيده منها أولى عندَ كلِّ عاقل»(٢).

والزهدُ حقيقةٌ مِن أعمالِ القلوب، وله آثارٌ على الجوارح، وكثيراً ما يلتبس على الناس، فينسبون إلى الزهدِ مَنْ لا مالَ ولا جاهَ له في الظاهر ولو كان عنده الطمعُ فيهما، وينفون الزهدَ عمَّن أمسكَ مِن دنياه ولو شيئاً يسيراً، ولا يكون

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: (الفتوحات المكية) (٢/ ٢٧٥).

الزهدُ إلا فيما هو حلالٌ خالصٌ، وأما تركُ ما فيه شبهةٌ فلا يُسمَّى زهداً وإنَّما هو تورُّعٌ.

فعُلِمَ أنَّه لا ينفعُ التزهُّدُ في الظاهرِ مع انشغالِ القلبِ بالدنيا، ولذا قيل:

مـا فَقْـدُ مـالٍ تَبْتَغِيـهِ الزُّهْـدُ ... لَكِـنْ فَـرَاغُ القلـبِ منـه الزُّهْـدُ
هـذا سُـلَيْمَانُ بـنُ داودَ النَّبـي ... يُدْعَى مِـنَ الزُّهَّادِ مَعْ مـا قَدْ حُبِي

والزهدُ الكاملُ عند الأكابرِ تركُ ما سوى الله بالكلية، قال الشيخ علوان الحموي رضي الله عنه:

أَمَّا الْـخَوَاصُ فَفِي كُلِّ السِّوَى زَهِدُوا ... لَيْسَـتْ لَـهُمْ رَغْبَـةٌ إِلَّا بِرَبِّـهِمِ
إِذْ يَصْعَدُونَ فَـلَا يَلْوُوا عَلَى أَحَدٍ ... مِنَ الْعَوَالِـمِ يَا طُوبَـى لِـحِزْبِـهِمِ)

* *

الكتاب الخامس من ربع المنجيات
في التوحيد والتوكل

(الأَكْوانُ ثابتةٌ بِإِثْبَاتِهِ، مَمْحُوّةٌ بِأَحَدِيّةِ ذَاتِهِ)[1]

[مطلب في بيان مراتب التوحيد]

اعلم أنَّ للتوحيدِ أربعَ مراتب:

الأولى: أن يقولَ الإنسانُ بلسانِهِ: «لا إله إلا الله»، وقلبُهُ غافلٌ عنه، أو مُنْكِرٌ له، كتوحيدِ المنافقين.

والثانية: أن يُصَدِّقَ بمعنى اللفظِ قلبُهُ، كما صَدَّقَ به عمومُ المسلمين، وهو اعتقادُ العوام.

والثالثة: أن يُشاهِدَ ذلك بطريقِ الكشفِ بواسطةِ فيضانِ نورِ الحقِّ في قلبِهِ، وهو مقامُ المقرَّبين، وذلك بأن يرى أشياءَ كثيرةً، ولكنْ يراها على كثرتِها صادرةً عن الواحدِ القَهّار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجودِ في سائر مراتبِهِ إلا واحداً، وهي مشاهدةُ الصِّدِّيقين، وتُسمِّيه الصُّوفيّةُ الفناءَ في التوحيد؛ لأنَّه لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسَهُ أيضاً، وإذا لم يَرَ نفسَهُ لكونِهِ مُستغرِقاً في الواحد كان فانياً عن نفسه في توحيدِهِ، بمعنى أنَّه فَنِيَ عن رؤيةِ نفسِهِ والخلقِ.

---

(١) الحكمة (١٤١) من الحكم العطائية.

فالأوَّلُ: مُوحِّدٌ بمجرَّدِ اللِّسان، ويعصمُ ذلك صاحبَهُ في الدنيا عن السَّيفِ والسِّنان.

والثاني: مُوحِّدٌ بمعنى أنَّه مُعتقِدٌ بقلبِهِ مفهومَ لفظِهِ، وقلبُهُ خالٍ عن التكذيبِ بما انعقدَ عليه قلبُهُ، وهو عقدةٌ على القلب، ليس فيه انشراحٌ ولا انفساحٌ، ولكنَّه يحفظُ صاحبَهُ مِنَ العذابِ في الآخرة إن تُوُفِّي عليه، ولم تضعف بالمعاصي عقدتُهُ.

والثالث: مُوحِّدٌ بمعنى أنَّه لم يُشاهِدْ إلا فاعلاً واحداً؛ (م: وهو ما يُسمَّى بالفناء في الأفعال) إذ قد انكشفَ له الحقُّ كما هو عليه، فلا يرى فاعلاً بالحقيقةِ إلا واحداً، وقد انكشفتْ له الحقيقةُ كما هي عليه.

والرابع: مُوحِّدٌ بمعنى أنَّه لم يحضُرْ في شهودِهِ غيرُ الواحدِ (م: وهو ما يُسمَّى بالفناء في الذات)، فلا يرى الكُلَّ مِنْ حيثُ إنَّه كثيرٌ، بل مِنْ حيثُ إنَّه واحدٌ، (ز: فتضمحلُّ الكثرةُ في جنبِ الوحدةِ)، وهذه هي الغايةُ القُصوى في التوحيد، (ز: وليس بعدَهُ مقامٌ للسالكِ ينتهي إليه).

فالأوَّلُ كالقشرةِ العُلْيا مِنَ الجوزِ، والثاني كالقشرةِ السُّفلى، والثالثُ كاللُّبِّ، والرابعُ كالدُّهنِ المستخرَجَ مِنَ اللُّبِّ، وهو خلاصةُ الخلاصةِ.

(تحقيق): فإن قلتَ: كيفَ يُتصوَّرُ أن لا يُشاهِدَ إلا واحداً وهو يشاهدُ السماءَ والأرضَ وسائرَ الأجسامِ المحسوسةِ وهي كثيرة؟ فكيف يكون الكثيرُ واحداً؟

فاعلم أنَّ هذا غايةُ علومِ المكاشفات، وأسرارُها لا يجوزُ أن تُسطَرَ في كتابٍ، (ز: فيطلع عليها مَنْ ليسَ بأهلٍ فيقع في وحلةٍ لا يكادُ يتخلَّصُ منها)، وقد قال العارفون: (إفشاءُ سِرِّ الرُّبوبيّةِ كفرٌ)[1]، (م: أي يُؤدِّي إلى كفرِ السَّامعِ لا المُخبِرِ؛ لعدمِ فهمِهِ لمصطلحِ القومِ أوّلاً، ثم لكونِهِ أسيرَ حِسِّهِ وخيالِ عقلِهِ ثانياً، ومِنْ ثمَّ نهى الشارعُ ﷺ أن يُحدَّثَ الناسُ بما لم تَبْلُغْهُ عقولُهم).

وهذه المشاهدةُ التي لا يظهرُ فيها إلا الواحدُ الحقُّ تارةً تدومُ، وتارةً تطرأُ كالبرقِ الخاطفِ، وهو الأكثرُ، والدوامُ نادرٌ عزيزٌ؛ وإلى هذا أشار الحسينُ بنُ منصورٍ الحلاجُ حيث رأى الخوَّاصَ يدورُ في الأسفارِ فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدورُ في الأسفارِ لِأُصَحِّحَ حالي في التوكل ـ وقد كان مِنَ المتوكلين، فقال الحسين: قد أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ، فأين الفناءُ في التوحيد؟ فكأنَّ الخوَّاصَ كان في تصحيحِ المقامِ الثالثِ في التوحيد، فَطَالَبَهُ بالمقامِ الرابع، فهذه مقاماتُ الموحِّدين في التَّوحيدِ على سبيلِ الإجمالِ.

(ش: قد اختصرَ القومُ ذلك المعنى بقولِهم: «الله واجبُ الوجود وما سواه مفقود».

هذا الوُجُـودُ وَإِنْ تَعَدَّدَ ظَاهِراً   وَحَيَاتِكُـمْ مَـا فِيْـهِ إِلَّا أَنْتُـمُ

ويرحمُ الله سلطان العاشقين ذا المدد الفائض سيدي عمر بن الفارض حيث قال:

وكلَّ الَّذي شَاهَدْتُهُ فِعْلُ وَاحِدٍ   بِمُفْرَدِهِ، لَكِـنْ بِحُجْبِ الأَكِنَّةِ

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٩٠).

وقلتُ غفرَ اللهُ لي:

تَنَزَّهِ السِّرَّ عَنِ الغَيرِ تَفُزْ — بِشُهُودِ الوَاحِدِ الحَقِّ الأَحَدْ
فَهُوَ المَوْجُودُ حَقًّا لا سِوَاهُ — قَدْ أُمِرْنَا قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ

وترجم هذا المعنى سيدي أبو مدين الغوث بقوله:

الله قُلْ، وَذَرِ الوُجُودَ وَما حَوى — إِنْ كُنْتَ مُرْتَادًا بُلُوغَ كَمالِ
فَالكُلُّ دُونَ اللهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ — عَدَمٌ عَلى التَّفْصِيلِ وَالإِجْمال
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالعَوالِمَ كُلَّها — لَوْلاهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلالِ
مَنْ لا وُجُودَ لِذاتِهِ مِنْ ذاتِهِ — فَوُجُودُهُ لَوْلاهُ عَيْنُ مُحالِ
فَالعارِفُونَ فَنَوا وَلَمّا يَشْهَدُوا — شَيْئًا سِوى المُتَكَبِّرِ المُتَعالِ
وَرَأَوْا سِواهُ عَلى الحَقِيقَةِ هالِكًا — فِي الحالِ وَالماضِي وَالاِسْتِقْبالِ
فَالْمَحْ بِعَقْلِكَ أَوْ بِطَرْفِكَ: هَلْ تَرى — شَيْئًا سِوى فِعْلٍ مِنَ الأَفْعالِ؟
وَانْظُرْ إِلى عُلْوِ الوُجُودِ وَسُفْلِهِ — نَظَرًا تُؤَيِّدُهُ بِالاِسْتِدْلالِ
تَجِدِ الجَمِيعَ يُشِيرُ نَحْوَ جَلالِهِ — بِلِسانِ حالٍ أَوْ لِسانِ مَقالِ
هُوَ مُمْسِكُ الأَشْياءِ مِنْ عُلْوٍ إِلى — سُفْلٍ وَمُبْدِعُها بِغَيْرِ مِثالِ

وقد استحسنا أن نُلْحِقَ هنا طرفاً مِنْ رسالتنا «فيض الله الودود في بيان معنى وحدة الوجود» فقلنا مستعينين بالملك المعبود:

تعريف وحدة الوجود

قال العلامة أحمد نكري في كتابه «دستور العلماء»:

معنى وحدة الوجود عند المُحقِّقين: أنَّ الوجودَ الموجودَ في الخارج واحدٌ بالشخص، قائمٌ بذاتِهِ غيرُ عارضٍ لشيءٍ مِنَ الممكنات، ولا حالًّا فيه ولا مَحَلًّا له، وعلى هذا لا معنى لوجودِ الممكنِ إلَّا أنَّ له تعلُّقاً ونسبةً خاصّةً مجهولةَ الكنهِ بذلك الوجودِ القائمِ بذاته، ويعبر عنها بنسبة القيوميّة والمعيّة والمبدئيّة وإشراقِ نورِ الوجود، وليست نسبةَ الحلولِ والعُرُوضِ والاتِّصالِ والانفصالِ[1].

اعلم أن التوحيد على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: «توحيد الأفعال»: وذلك بأن لا يرى فاعلاً حقيقيّاً إلا الله.

المرتبة الثانية: «توحيد الصفات»: وذلك بأن لا يرى مُتَّصفاً بصفاتِ الكمالِ حقيقةً إلا الله.

المرتبة الثالثة: «توحيد الذات»: وذلك بأن لا يرى وجوداً حقيقيّاً إلا لله تعالى، وهذا معنى وحدة الوجود.

قال إمام عقائد أهل السنة والجماعة العلامة الشيخ أحمد الدردير رضي الله عنه:

---

(١) ينظر (دستور العلماء) (٣٠٨).

المرتبة الثالثة: توحيدُ الذات، وهو أن لا يشهدَ مع الحقّ سواه، بأن لا يرى العبدُ الخصوصي سوى ذاتٍ واحدة، لا أبسطَ مِنْ وحدتِها، قائمةٍ بذاتِها، لا تقبلُ الكثرةَ بوجهٍ، مقوِّمة لتعيُّناتِها وشؤونِها التي لا تتناهى، وأنْ لا يَرى أنَّ تلك التَّعيُّنات هي عينُ العينِ المُعيِّنةِ لها ولا غيرها؛ بل تلك التَّعيُّناتُ قائمةٌ بقيامِ الحقِّ تعالى لا بنفسِها، فهي كالظِّلِّ الذي لا وجودَ له إلَّا بوجودِ الشَّخصِ القائم؛ فالوجودُ الحَقِّيُّ إنما هو للذات الواحدِ الذي ظهرت آثارُهُ في تعيُّناته في الفيء أي: الظِّل، وهذه الوحدةُ بهذا الاعتبارِ هي المُسمّاة بـ«وحدة الوجود»؛ إذما سواها شؤونٌ ومظاهرُ وتعيُّناتٌ لذات الواجب الوجود؛ حتى كان وجودُها بالنسبة إليه تعالى عدماً وهباءً؛ فلم يكن في الحقيقة وجودٌ إلا للواحد(١).

تبسيط وتوضيح هذا التعريف
في ضوء في القرآن والسنة والعقائد الإسلامية

وحدة الوجود: هي إقرارُ العبد بأنَّ الوجودَ الحقَّ ينفردُ به اللهُ تعالى وحده، فلا قائم بذاته إلا هو، وأنَّ ما عداه قائمٌ به سبحانه لا وجودَ له مِنْ حيث هو، ومِنْ ثَمَّ جاء الاصطلاحُ الشرعيُّ على تسمية واجبِ الوجودِ بـ«الحق»، وتسميةِ ما عداه عند المقارنةِ به بـ«الباطل» و«الهالك» و«الفاني».

ولا بد مِنْ ملاحظةِ الفرقِ بين الحكمِ اصطلاحاً على الممكنات الموجودةِ المُثبتةِ على حدة، والحكمِ عليها عند المقارنة. فهالكيَّتُها وبطلانُها إنما ورد في النصوص الشرعية وكلامِ العارفين عند المقارنة بالوجود الحق، وأما مِنْ حيثُ تحقُّقها في نفسِها لإثباتِ الشرائعِ فهي حقائقُ ثابتةٌ لا تُنكَر؛ إذ هي مخلوقةٌ

---

(١) ينظر (مشكاة الأسرار لعارف الوقت أبي الأنوار) (٢١- ٢٧).

بالحق كما في نصِّ القرآن، ومَنْ أنكرَ حَقِّيَّتَها بهذا الاعتبار كفر؛ إذ هو مُنكِرٌ للقدرة ومُعطِّلٌ للحكمة.

وجملةُ هذه المعاني وما يتفرَّعُ منها مِنْ مسائلَ اصطُلِحَ عليها بلفظ وحدةِ الوجود، ولكنْ لمّا كان هذا المصطلحُ قد سَبَقَ استعمالُهُ في معانٍ غيرِ شرعيّةٍ وأباطيلَ فلسفيّةٍ على نحو الحلولِ والاتِّحادِ اختلطَ الأمرُ على غير المُدقِّق، والْتَبَسَتِ الحقائقُ على غير المُحقِّق.

التأصيل العقدي لوحدة الوجود

لا يخفى على مبتدئ في العقائد أنَّ صفاتِ الله تعالى يُنفَى عنها الكمُّ المتصلُ والمنفصل، وعلى كلا التقديرين ـ إما بعدِّ الوجود عينَ الذات أو صفةً ـ فلا بُدَّ مِنْ حيثُ نفيُ الكمِّ المنفصلِ المُثبتِ لغيرِ الله تعالى صفةَ الوجودِ كما هو مقتضى سلبِ المماثلةِ في الذات والصفات والأفعال، فكما أنَّ علماءَ أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ ينفون الكمَّ المُنفصِلَ في القدرة والإرادة مثلاً، ويعنون بذلك نفيَ وجودِ القدرة مثلاً لغير ذاتِ الله تعالى، كلُّ ذلك مع إثباتِهم أنَّ للمخلوقات قدرةً وإرادةً وسمعاً وبصراً، ويتخلَّصون مِنْ ظاهرةِ التناقضِ بين ما أثبتوه وما قد نفوه، إما بالقول بالاشتراكِ اللفظيِّ أو المعنوي، ولا يختلف الوجودُ على أيِّ تقديرٍ في تصوُّرِ حقيقتِهِ عن هذه الصِّفات، فإما أن يُقال: اللهُ تعالى ينفردُ بالوجود وما نُسمِّيه نحن وجوداً في حقِّنا يختلفُ مِنْ حيثُ الحقيقةُ فيكون مُشتَرَكاً لفظيّاً، أو ينفردُ الحقُّ سبحانه وتعالى بتمامِ حقيقةِ معنى الوجودِ الذي هو التُّحقُّقُ الخارجي، وإن كان للممكنات نصيبٌ مِنْ ذلك ضعيفٌ مُؤقَّتٌ قائمٌ بالغير مستفادٌ منه سبحانه، فيكون مُشتَرَكاً معنوياً، وعلى كلا التقديرين فيكون الله تعالى هو المُنفردَ بالوجود الحق، وهذا عين معنى وحدة الوجود.

قال شيخنا الشيخ عبد الباقي مفتاح الجزائري رضي الله عنه:

فإن قيل: ما معنى وحدة الوجود عند العارفين بالله تعالى ؟

فالجواب: معناها التحقق بقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] أي: التحقق بتوحيد الأفعال والأسماء والذات.

ـ فتوحيد الأفعال في التحقق بآياته الخاصة به، كقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦].

ـ وتوحيد الأسماء والصفات في التحقق بآياته الخاصة به، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقولِه في الحديث القدسي المشهور عن المتقرب إلى الله بالنوافل: «كُنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها.

ـ وتوحيد الذات في التحقق بآياته الخاصة به، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]؛ وقوله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه»، وقوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

تنبيه: فإن قلت: هذا المعنى المذكور مُسلَّمٌ عند كل عاقل، ولكنَّ الصوفيَّةَ يعتزُّونَ بوحدة الوجود ويجعلونها غايةَ المقصود، فأيُّ مزيّةٍ اختصَّت بهم دون غيرهم.

قلنا: ليس الخَبَر كالعِيان، ولا يمتاز الصوفيّ بعقائدَ زائدةٍ، وإنما يزدادُ على غيره بالذوق والشهود المشار إليه بقوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه»، ولذا يُعرِّفون التصوف بأنه علمٌ صار عَيناً.

ولأجل ذلك قال الشيخ مصطفى البكري قدس سره:

وَمِنْهُـمُ الأَوْتَـادُ لِلْوُجُـوْدِ ... مَنْ كُوْشِـفُوا بِوَحْـدَةِ الوُجُوْدِ
وَرُبَّمَـا يُسْـمَوْنَ بِالجِبَـالِ ... فَإِنَّهُـمْ كَمِثْلِهَـا فِـيْ الحَـالِ

[اتفاق علماء الظاهر وعلماء الباطن على اعتقاد وحدة الوجود بالمعنى الصحيح]

والجديرُ بالذِّكرِ أنَّ المعنى المشارَ إليه آنفاً هو محلُّ اتِّفاقٍ بين علماءِ الظاهرِ وعلماءِ الباطن، كما أشار إليه الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه بقوله: (اعلم أنه ليس المرادُ بـ«وحدة الوجود» خلافَ ما عليه أئمّةُ الإسلام، بل المراد بذلك ما اتفق عليه جميع الخاص والعام، وما هو معلوم من الدين بالضرورة من غير إنكار أصلاً مِنْ مؤمنٍ ولا كافرٍ، ولا يُتصوَّرُ فيه إنكارٌ عند العقلاءِ مِنَ الأنام، وأنَّ جميعَ العوالِمِ كلِّها على اختلافِ أجناسِها وأنواعِها وأشخاصِها موجودةٌ مِنَ العدمِ بوجودِ الله تعالى لا بنفسها، محفوظٌ عليها الوجودُ في كلِّ لمحةٍ بوجودِ الله تعالى لا بنفسها، وإذا كانت كذلك فوجودُها الذي هي به موجودة في كلِّ لمحةٍ هو وجودُ الله تعالى لا وجودٌ آخرُ غيرَ وجودِ الله تعالى، فالعوالِمُ كلُّها مِنْ جهةِ نفسِها معدومةٌ بعدمِها الأصليّ، وأما مِنْ جهةِ وجودِ الله تعالى فهي موجودةٌ بوجودِهِ تعالى، ووجودُها الذي هي موجودةٌ به وجودٌ

واحدٌ هو وجودُ اللهِ تعالى فقط، وهي لا وجودَ لها مِنْ جهة نفسها أصلاً، وليس المرادُ بوجودِها الذي هو وجودُ الله تعالى عينَ ذاتِها وصورها، بل المرادُ ما به ذواتُها وصورُها ثابتةٌ في أعيانها، وما ذلك إلا وجودُ الله تعالى بإجماع العقلاء، وأما ذواتها وصورها من حيث هي في نفسها مع قطع النظر عن إيجاد الله تعالى لها بوجوده سبحانه فلا وجود لأعيانها أصلاً.

والحاصل: أنَّ جميعَ علماءِ الظاهرِ لا حقَّ معهم في الطعن على القائلين بوحدةِ الوجودِ مِنَ المُحقِّقين العارفين، القائلين بذلك على وجه الحقِّ والصَّواب كما ذكرنا.

ولذا نقل العارف المحقق الشيخ أحمد القشاشي المدني في رسالة في وحدة الوجود عن العلامة ابن كمال باشا رحمه الله تعالى ـ ومِنْ خطِّه نَقَلَ كما صَرَّحَ بذلك ـ: «إنه يجبُ على وليِّ الأمرِ أن يَحمِلَ الناسَ على القول بوحدة الوجود».

وتقديره: أن يحمل الناس على القول بالتوحيد الخالي من الشرك الخفي الذي أشار إليه الشيخ العارف أرسلان رضي الله عنه في أوّل رسالتِهِ بقوله: «كُلُّكَ شِرْكٌ خفيٌّ، ولا يبينُ لك توحيدُك إلا إن خرجت عنك»)[١].

* * *

---

(١) ينظر (إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود).

[اتفاق العارفين مع علماء الظاهر على إنكار وحدة الوجود بالمعنى الفلسفي الباطل]

قال الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه: (أما القائلون بوحدة الوجود مِنَ الجهلةِ الغافلين والزنادقة الملحدين، الزاعمين بأنَّ وجودَهم المفروضَ المُقدَّرَ هو بعينِهِ وجودُ الله تعالى، وذواتَهم المفروضةَ المقدَّرةَ هي بعينِها ذاتُ الله تعالى، وصفاتِهم المفروضةَ المقدَّرةَ هي بعينِها صفاتُ الله تعالى، الذين يحتالون بذلك على إسقاطِ الأحكامِ الشرعية عنهم، وإبطالِ المِلّة المحمدية، وإزالةِ التكاليفِ عن نفوسِهم، فالطعنُ عليهم بسبب القول بوحدة الوجود على هذا المعنى الفاسد طعنٌ صحيحٌ، وعلماءُ الظاهرِ مُثابون بذلك كمالَ الثوابِ مِنَ المَلِكِ الوهّاب، والعارفون المُحقّقون معهم في هذا الطَّعنِ مِنْ غيرِ خلافٍ)[١].

مطلب في ذكر أدلة وحدة الوجود

استند القائلون بوحدة الوجود إلى نصوص كثيرة من الكتاب والسنة وهذه بعضها:

الآيات الدالة على وحدة الوجود:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

---

(١) ينظر (إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود) (١٧).

- ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

- ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

- ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

- ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

- ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

- ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

الأحاديث الدالة على وحدة الوجود:

- (كان الله ولم يكن شيء غيره). رواه البخاري.

- (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَها الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلٌ) رواه البخاري.

- (وَمَا يَزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إلى بالنَّوافِل حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ بِهِ، وبَصره الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ الَّتي يَبْطِش بِهَا، ورِجلَهُ الَّتِي يمْشِي بِهَا). رواه البخاري.

- (يا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ كيفَ أعُودُكَ؟ وأَنْتَ رَبُّ

العالمين، قال: أما علمت أنَّ عبدي فلانًا مرِض فلم تعُده، أما علِمْتَ أنَّك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده؟) رواه مسلم.

ـ (والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لَوْ أنَّكُمْ دلَّيْتُمْ أحدَكُمْ بحبْلٍ إلى الأرضِ السَّابعةِ لهبطَ على اللهِ عزَّ وجلَّ» ثُمَّ قرأ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]) رواه الترمذي.

ـ «إذا قامَ أحدُكُمْ إلى الصَّلاةِ فإنَّما يستقبلُ ربَّهُ، فاللهُ يُقْبلُ عليهِ بوجْهِهِ ما لَمْ يَصْرِفْ وجْهَهُ عنْهُ».

ـ «إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ بالصَّلاةِ فإذا صلَّيْتُمْ فلا تلْتفِتُوا، فإنَّ اللهَ ينْصِبُ وجْهَهُ لِوجْهِ عبْدِهِ في صلاتِهِ ما لمْ يلْتفِتْ» روَاهُ ابْنُ حِبَّانَ والتِّرْمِذيُّ.

ـ «إذا صلَّى أحدُكُمْ فلا يتنخَّمَنَّ تُجاهَ وجْهِ الرَّحْمَنِ».

ـ «إنَّ العبْدَ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ فإنَّهُ بيْنَ عيْنَي الرَّحْمَنِ، فإذا الْتفَتَ قالَ لهُ: ابنَ آدمَ إلى مَنْ تلْتفِتُ؟ إلى خيْرٍ لكَ منِّي تلْتفِتُ؟».

[أهمية وحدة الوجود]

قال الشيخ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني رضي الله عنه: (وقد ذكر العلامة الملا إبراهيم أنه رأى في كلام العارف بالله عبد الجليل بن موسى القصري مؤلف «شعب الإيمان» ما يشير إلى أن مَنْ لم يُصدِّق بوحدةِ الوجودِ ووحدةِ الصفات لم يَقْدِرْ على فهمِ شيءٍ مِنْ أقوال العارفين خصوصاً في المعتقدات، نقله أبو سالم العياشي في «رحلته»)[1].

---

(١) ينظر (جلاء القلوب من الأصداء الغينية) (١/ ٤١٢- ٤١٣).

[إجماع العارفين على اعتقاد وحدة الوجود]

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن السويدي قدس سره في شرحه على «التحفة المرسلة» للهندي: (وأما الإجماعُ فدلَّت عليه أقوالُ العارفين بالله الدالة تلك الأقوال على إجماعِهم على القول بوحدة الوجود)[1].

وقال العلامة أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة في بيان أنَّ ما سوى الله عدمٌ محضٌ مِنْ حيثُ ذاتُهُ: (وقد اتفقت مقالاتُ العارفين وإشاراتُهم ومواجيدُهم على أنَّ ما سوى الله عدمٌ محضٌ مِنْ حيثُ ذاتُهُ، لا يُوصَفُ بوجودٍ مع الله سبحانه وتعالى؛ إذ لو وُصِفَ به لكان ذلك شِرْكةً واثنينيّةً، وهو مناقضٌ لإخلاصِ التوحيد؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

قال بعض العارفين ـ أي: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ: «أبى المُحقِّقون أن يشهدوا غيرَ الله تعالى لِما حقَّقهم به مِنْ شهودِ القيّوميّة وإحاطة الديمومية»، انتهى.

وإنما لم تكن الأكوانُ موجودةً معه؛ لأنَّ الوجودَ المعيّ يُوهِمُ الاستقلالَ والمشاركةَ في الوجود الذاتي)[2].

* *

(١) ينظر (شروح التحفة المرسلة) (٦٢).
(٢) ينظر (تقريب الأصول لتسهيل الوصول) (٤٣٩).

أهم الشبهات والإيرادات على وحدة الوجود والجواب عنها

الإيراد الأول: الوجود مفهومٌ كُلِّي لا وجودَ له في الخارجِ إلَّا في جزئيّاته، فيلزمُ مِنَ القول بوحدة الوجودِ حلولُ الحقِّ تعالى في مخلوقاته.

والجواب: ما قاله العلامة الشيخ حسن العطار رضي الله عنه في حاشيته على مقولات البُليدي:

ولمّا وَجَبَ أن يكونَ الواجبُ جزئيّاً حقيقيّاً قائماً بذاته، ويكون تعيُّنُهُ بذاته لا بأمرٍ زائدٍ على ذاته، وَجَبَ أن يكونَ الوجودُ أيضاً كذلك؛ إذ هو عينُهُ فلا يكون الوجودُ مفهوماً كُلِّيّاً يمكن أن يكون له أفراد، بل هو في حدِّ ذاتِهِ جزئيٌّ حقيقيٌّ ليس فيه إمكانُ تعدُّدٍ ولا انقسامٍ، وقائمٌ بذاتِهِ مُنزَّهٌ عن كونه عارضاً لغيره، فيكون الواجبُ هو الوجودَ المطلقَ، أي: المُعرَّى عن التقيد بغيره والانضمامِ إليه، وعلى هذا لا يُتصوَّرُ عروضُ الوجودِ للماهيّةِ الممكنةِ، فليس معنى كونِها موجودةً إلا أنَّ لها نسبةً مخصوصةً إلى حضرةِ الوجودِ القائمِ بذاته، وتلك النسبةُ على وجوهٍ مختلفةٍ وأنحاء شتَّى، يتعذَّرُ الاطِّلاعُ على ماهيَّتِها، فالموجودُ كُلِّيٌّ وإن كان الوجودُ جزئيّاً حقيقيةً. هذا مُلخَّصُ ما قرَّره بعضُ المحقِّقين مِنْ مشايخنا، قال: ولا يعلمُهُ إلَّا الراسخون في العلم.

ثم قال: فإن قلتَ: ماذا تقولُ فيمن يرى أنَّ الوجودَ مع كونه عينَ الواجبِ

وغيرَ قابلٍ للتجزؤ والانقسامِ قد انبسطَ على هياكل الموجوداتِ وظَهَرَ فيها، فلا يخلو عنه شيءٌ مِنَ الأشياء، بل هو حقيقتُها وعينُها، وإنما امتازت وتعدَّدت بتقييداتٍ وتعيُّنات اعتباراتٍ، ويُمثَّلُ ذلك بالبحر وظهورِهِ في صور الأمواجِ المُتكثِّرةِ مع أنه ليس هناك إلا حقيقة البحر فقط؟

قلت: قد سلف منا كلام في أنَّ هذا طَوْرٌ وراءَ طورِ العقلِ لا يُتوصَّلُ إليه إلا بالمشاهداتِ الكشفيّةِ دونَ المناظرات العقليّة.

وللمُحقِّقِ العلامة عبد الرحمن الجامي رسالةٌ مُؤلَّفةٌ في هذا الشأنِ قال فيها: (لا شكَّ أنَّ مبدأَ الوجودِ موجودٌ، فلا يخلو إما أن يكون حقيقةَ الوجودِ أو غيرَهُ، لا جائز أن يكون غيرَهُ ضرورةَ احتياجِ غيرِ الوجودِ في وجودِهِ إلى غيره، والوجودُ والاحتياجُ يُنافِ الوجوب، فتعيَّنَ أن يكونَ حقيقةَ الوجود، فإن كان مطلقاً ثَبتَ المطلوب، وإن كان متعيّناً فيمتنع أن يكونَ التعيُّنُ داخلاً فيه وإلا لَتَرَكَّبَ الواجبُ، فتعيَّنَ أن يكونَ خارجاً. فالواجبُ محضُ ما هو الوجودُ، والتَّعيُّنُ صفةٌ عارضةٌ). اهـ.

أقول: هذا بعينه «وحدةُ الوجودِ» التي قالت بها الصوفية، وأشار إليها الجلال الدواني في «الزوراء»، ولنحو ما تقدم أشار بعض العارفين بقوله:

لـــو تجلـــت عنهـــم ظلـــمٌ وانمحـــوا عـــن عالَـــمِ الصُّوَرِ
شـــاهدوا معنـــاكَ مُنبســـطاً ســـارياً فـــي ســـائر الفِطَـــرِ
ودروا أنَّ الحجـــاب هُـــمُ عـــن جامـــل المنظـــرِ النَّضِـــرِ
وقَضَـــى يعقـــوبُ حاجتَـــهُ وقضـــى زيـــد إلـــى الوطـــر

وقال سيدي علي وفا:

قالوا ظَهَرْتَ وكُلُّ شيءٍ مظهرٌ لَكْ قُلْتُ كيفَ وليس ثَمَّ مشاركْ
ما ثَمَّ في التحقيق غيرُكَ سيدي أنتَ الوجودُ وكلُّ شـيءٍ هالك

الإيراد الثاني: مذهب وحدة الوجود هو عين مذهب السوفسطائية المتفق على بطلانه عند أهل السنة حيث أنكروا حقائق الأشياء.

الجواب: أبطل العلامة العطار هذه الشبهة بقوله: فإن قلتَ: ما الفرقُ حينئذٍ بين مذهبِ السوفسطائية المنكرين لحقائق الأشياء وبين مذهب الصوفيةِ القائلين بوحدة الوجود؟

قلت: إنَّ السوفسطائيّةَ ينكرون حقائقَ الأشياءِ رأساً، بل واجبَ الوجودِ، وأما الصوفيّةُ فيُنكرون استقلالَ الحقائقِ بنفسِها، وعَدَمَ استغنائها لا أنّها ليست ثابتةً كما تقول السوفسطائية، ويشيرُ لمذهب الصوفية قولُ الله جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وهو معنى قيوم السماوات والأرض، فالحقائقُ لا استقلالَ لها بالوجود، ولولا استنادُها لوجودِ الحقِّ لَمَا كانت شيئاً كما قال بعضُ العارفين ـ وهو الشيخ أبو مدين الغوث ـ:

وَاعْلَـمْ بِأَنَّكَ والحـوادثَ كلَّها لـولاهُ في محـوٍ وفـي اضمحلالِ
مَـنْ لا وجـودَ لذاتِـهِ مِـنْ ذاتِهِ فَوُجـودُهُ لـولاهُ عيـنُ مُحـالِ

وقد آنَ أن نُمسِكَ عنانَ القلمِ عن الجري في هذا الميدان؛ فإنَّ فيما ذكرناه تبصرةً لِمَن رام الخوضَ في هذا الشأن[1].

---

(١) ينظر (حاشية الشيخ حسن العطار على مقولات البليدي) (٣٣٧- ٣٣٩).

ونحوه ما ذكره العلامة البخيت المطيعي في حاشيته على «الخريدة البهية» وأصله للفاضل الكلنبوي على شرح الجلال الدَّوَّاني على «العضدية»:

والفرقُ بين هذا المذهب وبين مذهبِ السُّوفسطائيِّ بوجهين:

الأول: أنَّ السوفسطائيَّ يُنكِرُ مُطلَقَ الوجود، سواء كان وجودَ الواجبِ أو وجودَ الممكن. والمُتصوِّفةُ لا يُنكرون وجودَ الواجبِ، بل يحصرون الوجودَ فيه.

الثاني: أنَّ المُتصوِّقةَ إنَّمايُنكرون وجودَ الممكناتِ باعتبار قياسِهِ إلى ذواتِها، لا باعتبار قياسِهِ إلى الواجبِ ضرورةَ أنَّهم لا يقولون أَنْ ليس هناك شيءٌ موجودٌ، وإنَّما يقولون: إنَّ وجودَ ذلك الممكنِ الموجودِ ليس في نفسه، بل هو وجودُ موجودٍ آخرَ ظَهَرَ فيه.

والسوفسطائيُّ يُنكِرُه بكلِّ اعتبار.

فاعلم أنَّ هذا المذهبَ مذهبٌ وراءَ طورِ العقل، وهم صرَّحوا بذلك، وبأنَّه لا طريقَ للوصول إليه إلا الكشفُ الذي نِسبتُهُ إلى العقلِ كنسبةِ العقلِ إلى الوهم.

وقد أشار الإمامُ مالكٌ إلى ذلك حيثُ جَعَلَ العلمَ الظاهرَ كمكانٍ وضيعٍ لا يُرى منه شيءٌ بعيدٌ عن أطوار العقل، بل لا يُرى مِنْ أواسطِ علم الباطن، وإنَّما يُرَى مِنْ ذِروتِهِ وأعلاه، فقد شَبَّهَ حالَ العارفين بحالِ مَنْ يترقَّى بأنواعِ تعبٍ إلى رأسِ جبلٍ شامخٍ ليرى الشيءَ البعيدَ غايةَ البعدِ ويُميِّزَهُ كمالَ التميز.

ويُسمَّى علمُ الظاهرِ بالمجاز؛ فإنَّ أهلَهُ يُطلِقون «الموجود» على الممكنات

مع أنَّ إطلاقَ «الموجود» عليها مجازٌ بعلاقةِ المظهرية، وإنْ لم يعرفوا، بخلافِ أهلِ علمِ الباطن.

فعلى هذا المذهبِ يكونُ «الهالك» بمعنى المعدومِ حقيقةً لا مجازَ فيه أصلاً، ومع ذلك لا يقتضي وقوعَ العدمِ الطارىء بانقطاعِ التَّعلُّقِ الحاصلِ بالتجلِّي.

وبهذا يندفع ما قيل: كيف يُتصوَّرُ العدمُ الطارىءُ على ما ذَهَبَ إليه أربابُ علمِ الحقيقة ؟

وهنا مذهبٌ آخرُ في حدود أطوارِ العقلِ مُختارٌ عند صاحب «المقاصد»، وهو أنَّ الوجودَ كثيرٌ كالموجودِ إلا أنَّ السالكَ إذا انتهى إلى بعض المراتبِ يضمحلُّ عنده وجودُ الممكناتِ، بل وجودُ نفسِهِ[1].

الإيراد الثالث: إنَّ قولَ الصُّوفيّةِ بالمظهريّة بناءً على وحدة الوجود كذلك يلزمُ منه الحلول والاتحاد.

الجواب: ما قاله العلامة البخيت المطيعي في حاشيته على «الخريدة البهية» وأصله للفاضل الكلنبوي على شرح الجلال الدَّوّاني على «العضدية»:

قوله: (وهي مشاهدتُهُ تعالى في كلِّ شيءٍ مِنْ غيرِ حُلُولٍ) هذا إشارةٌ إلى «وحدة الوجود» الذي هو مذهب الصوفية، وحاصله على الوجه الحق: أنَّ الموجودَ إنَّما يُطلَقُ حقيقةً على ما قام به الوجودُ في الذهن، إما بأن يكون ذلك

---

(١) ينظر (حاشية العلامة البخيت المطيعي على شرح الخريدة البهية) (١٨٦- ١٩٠)، و (حاشية الكلنبوي على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية) (٢٧٦- ٢٧٨).

الوجودُ عينَه؛ بأن يكون مُتزعاً مِنْ ذاتِهِ، كما ذهب إليه الحكماءُ في الواجب والأشعريُّ في الكلِّ، أو غيرَهُ؛ بأن يكون مُتزعاً مِنْ وصفٍ زائدٍ على ذاته، كما ذهب إليه جمهورُ المتكلِّمين في الكلِّ.

والمرتقون مِنْ حضيضِ المجازِ إلى ذروة الحقيقةِ ـ وهم الصوفية ـ شاهدوا بطريق البداهةِ لا بطريق النظر الغيرِ الخالي عن الشكوك والشبهات أَنْ ليس الموجودُ الحقيقيُّ بهذا المعنى إلا الله تعالى، وإطلاقُ «الموجود» على الممكنات مجازٌ بعلاقةِ المظهريّة؛ إذ ليس هناك وجوداتٌ متعدِّدةٌ يقومُ بعضُها بالواجب تعالى، وبعضُها بالممكنات، بل وجودٌ واحدٌ هو ذاتُ الواجبِ تعالى، وليس معنى كونِ الممكنات موجودةً أن يقومَ بها الوجود، بل معناه انتسابها بنوعِ تعلُّقٍ إلى الوجودِ الحقيقيِّ الذي هو ذاتُ الواجبِ تعالى القائمِ بذاتِهِ، وحَصَلَ ذلك التعلُّقُ عند تجلِّيه تعالى على الأعيانِ الثابتةِ التي هي الصُّوَرُ العلميّةُ له تعالى المُتخالفةُ بالاستعداد بمقتضى الأسماء الإلهيّةِ المتقابلةِ؛ كالقابضِ والباسطِ والرحيمِ والقاهرِ.

وكيفيّةُ التجلِّي المذكورِ مجهولةٌ لا يعلمُها إلا هو، فتلك الأعيانُ الثابتةُ اللازمةُ لذاتِ الواجبِ تعالى المُتخالفةُ بالاستعدادِ مظاهرُ تَجَلَّى عليها الواجبُ تعالى، فَظَهَرَ وجودُهُ تعالى وصفاتُهُ فيها على حسب ما يقتضيه استعدادُها، فصارت موجوداتٍ متخالفةً؛ لِتَخَالُفِ الاستعدادات، فالتكثُّرُ إنَّما نَشَأَ مِنْ تكثُّرِ الاستعدادات؛ كالمرايا المُتعدِّدةِ التي يتجلَّى فيها شخصٌ ويُرَى فيها بِصُوَرٍ مختلفةٍ مُعْوَجّاً ومستوىً طويلاً وعريضاً صغيراً وكبيراً على حسبِ ما يقتضيه استعداداتُ المرايا مع عراءِ ذلك الشِّخصِ عن جميعِ هذه الأوصاف.

فالوجودُ الحقيقيُّ واحدٌ، ومع ذلك مُنبسِطٌ على جميعِ الممكناتِ الموجودةِ بالظهورِ فيها عند التجلِّي، لا باختلاطِها والحلولِ فيها، فما دامَ ذلك التعلُّقُ باقياً يُطلَقُ عليه اسمُ «الموجود» مجازاً بعلاقةِ المظهريّة، وإذا انقطع التعلُّقُ المذكورُ لا يُطلَقُ عليه اسمُ «الموجود» لا حقيقةً ولا مجازاً.

فالممكناتُ الموجودةُ عبارةٌ عن الأعيانِ الثابتةِ بشرط المظهريّة، وعلى كلِّ حالٍ ليس لها وجودٌ قائمٌ بها، فلا يُطلَقُ عليها «الموجودُ» حقيقةً، فتكون معدومةً أزلاً وأبداً في الحقيقة. ولذا قالوا: «الأعيانُ الثابتةُ ما شَمَّتْ رائحةَ الوجود»[1].

الإيراد الرابع: لو كان قولُ الصُّوفيّةِ المتأخرين بوحدة الوجودِ حقّاً فَلِمَ لَمْ يظهر بين المتقدمين كالجنيد ورجال الرسالة القشيرية؟

الجواب: أنَّ عبارات الإمامِ الجنيد ورجال الرسالة القشيرية كثيرة في إثبات وحدة الوجود تصريحاً أو تلميحاً، وهذه بعضها:

١. قال الجنيد رضي الله عنه مُبيِّناً حقيقةَ التوحيد: «أن يكونَ [العبدُ] كما كان قبل أن يكون».

٢. وقال موضِّحاً غايةَ حقيقةِ التوحيد: «أن يكونَ العبدُ كما لم يكن، ويبقى الله كما لم يزل».

٣. وَوَصَفَ رضي الله عنه أهل التوحيدِ الخاصِّ بقوله: «كانوا بلا كون، وبانوا بلا لون».

---

(١) ينظر (حاشية العلامة البخيت المطيعي على شرح الخريدة البهية) (١٨٦- ١٩٠)، و (حاشية الكلنبوي على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية) (٢٧٦- ٢٧٨).

فلا فرق بين المتقدمين والمتأخرين في حقيقة المعاني، وإنما الفرق في القبض والبسط في الألفاظ والمباني.

والداعي إلى الاختصار القريب لحدّ الإلغازِ والرمزِ هو ما عاناه الجنيد وأصحابه من فتنة قضائية واتهامات عقدية أودت بهم إلى القتل أو ما قاربه، ولذا قال الجنيدُ رضي الله عنه: «لا يبلغْ أحدٌ دَرَجَ الحقيقةِ حتَّى يشهدَ فيه ألفُ صِدِّيقٍ أنَّه زِنديق».

واقتصرنا على بعض نصوص الجنيد رضي الله عنه لسببين:

١ . كونُهُ إمامَ الطائفةِ المتفق عليه عند كُلِّ من انتسب للتصوف السني.

٢ . كونُهُ مُتمكّناً في مقام الصّحوِ والبقاء، فلا يُحملُ كلامُهُ في بيانِ التوحيدِ على الشَّطحِ والحالِ الغالبِ.

✲ ✲ ✲

تقرير الإمام الغزالي لمعنى وحدة الوجود

وهذا المعنى المُتقدِّمُ لوحدة الوجود وإنْ لم يُصرِّح بلفظه الإمامُ الغزالي بسبب عدمِ وجودِ المصطلح في زمانه، إلَّا أنَّ جُلَّ كتبِهِ المتأخِّرة ـ أي: بعد خلوته ـ طافحةٌ بمعناها وبأدقِّ تفاصيلها، بل كرَّرَ وقرَّرَ هذا المفهومَ في مَظِنَّتِهِ مِنْ أبواب الإحياء كما في باب التوحيد والتوكل، كما أفاده العلامة المرتضى الزبيدي، وفي غير مَظِنَّتِهِ مهما لاح له أدنى مناسبة لذكره كما صنع في مقدمة «المستصفى في أصول الفقه» وكتاب «مشكاة الأنوار» كما صرَّح به الفاضلُ الكلنبوي على بعض نصوصه.

ولا يبعد أن يُقال: إنَّ كتابَ «مشكاة الأنوار» قد وضع لبيان هذا المفهوم.

[نصوص وحدة الوجود
عند الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين]

فمن تلك النصوص ما قاله الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب آداب تلاوة القرآن في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٠٠- ٣٠١):

فَمَنْ عَرَفَ الحقَّ رآهُ في كلِّ شيء؛ إذ كلُّ شيءٍ فهو منه وإليه، وبه وله، فهو الكلُّ على التَّحقيق، ومَنْ لا يراه في كلِّ ما يراه فكأنَّه ما عَرَفَه، ومَنْ عَرَفَهُ عَرَفَ أنَّ كُلَّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ، لا أنه سيبطلُ في

ثاني الحال، بل هو الآن باطلٌ إن اعتُبر ذاتُه مِنْ حيثُ هو، إلا أن يُعتبر وجودُه مِنْ حيثُ إنّه موجودٌ بالله عزّ وجلّ وبقدرته، فيكونُ له بطريق التبعية ثباتٌ، وبطريقِ الاستقلال بُطلانٌ محضٌ، وهذا مبدأٌ مِنْ مبادىء علم المكاشفة.

وقال في كتاب الشكر في «إحياء علوم الدين» (٧/ ٢٩٠- ٢٩٣):

ونقول ههنا نظران:

النظر الأول: نظرٌ بعينِ التوحيدِ المحضِ: وهذا النَّظرُ يُعرِّفُكَ قطعاً أنَّه الشاكرُ وأنَّه المشكورُ، وأنَّه المحبُّ وأنَّه المحبوبُ، وهذا نظرُ مَنْ عرفَ أن ليس في الوجود غيرُهُ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ، وأنَّ ذلك صدقٌ في كلِّ حالٍ أزلاً وأبداً؛ لأنَّ الغير هو الذي يُتصوَّرُ أن يكونَ له بنفسه قوامٌ، ومثل هذا الغيرِ لا وجودَ له، بل هو محالٌ أن يُوجدَ؛ إذ الموجودُ المحقَّقُ هو القائمُ بنفسِهِ، وما ليس له بنفسِهِ قوامٌ فليس له بنفسِهِ وجودٌ، بل هو قائمٌ بغيره، فهو موجودٌ بغيرِهِ، فإن اعتُبِرَ ذاتُهُ ولم يُلتَفَتْ إلى غيره لم يكن له وجودٌ البتة، وإنَّما الموجودُ هو القائمُ بنفسِهِ، والقائمُ بنفسِهِ هو الذي لو قُدِّرَ عدمُ غيرِهِ بَقِيَ موجوداً، فإن كان مع قيامِهِ بنفسِهِ يقومُ بوجودِهِ وجودُ غيرِهِ، فهو قيومٌ، ولا قيومَ إلا واحدٌ، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ غيرُ ذلك، فإذن ليس في الوجودِ غيرُ الحيِّ القيومِ، وهو الواحدُ الصمدُ.

فإذا نظرتَ مِنْ هذا المقامِ عرفتَ أنَّ الكُلَّ منه مصدرُهُ وإليه مرجعُهُ، فهو الشاكرُ وهو المشكورُ، وهو المحبُّ وهو المحبوب، ومِنْ ههنا نظرَ حبيبُ بنُ أبي حبيب حيث قرأ ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فقال: (واعجباه! أعطى وأثنى)، أشار إلى أنَّه إذا أثنى على عطائِه فعلى نفسِهِ أثنى، فهو المثني وهو المثنى عليه.

ومِنْ هَهنا نظر الشيخ أبو سعيد المهيني حيث قُرِئَ بين يديه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فقال: (لعمري يُحبُّهم وَدَعْهُ يُحبُّهم، فبحقٍّ يُحبُّهم؛ لأنَّه إنما يُحِبُّ نفسَهُ) أشار به إلى أنَّه المحبُّ وأنَّه المحبوب، وهذه رتبةٌ عاليةٌ لا تفهمُها إلا بمثالٍ على حدِّ عقلِكَ، ولا يخفى عليكَ أنَّ المصنِّفَ إذا أحبَّ تصنيفَهُ فقد أحبَّ نفسَهُ، والصانعُ إذا أحبَّ صنعتَهُ فقد أحبَّ نفسَهُ، والوالدُ إذا أحبَّ ولدَهُ مِنْ حيث إنَّه ولدُهُ فقد أحبَّ نفسَهُ، وكل ما في الوجودِ سوى الله تعالى فهو تصنيفُ الله تعالى وصنعتُهُ، فإن أحبَّه فما أحبَّ إلا نفسَهُ، وإذا لم يُحِبَّ إلا نفسَهُ فبحقٍّ أحبَّ ما أحبَّ.

وهذا كلُّه نظرٌ بعينِ التوحيدِ، وتعبِّرُ الصوفيةُ عن هذه الحالةِ بفناء النَّفسِ، أي: فَنِيَ عن نفسِهِ وعن غير الله، فلم يرَ إلا الله تعالى، فَمَنْ لم يفهم هذا يُنْكِرُ عليهم ويقول: كيف فَنِيَ وطولُ ظِلِّهِ أربعةُ أذرعٍ، ولعلَّه يأكلُ في كلِّ يومٍ أرطالاً مِنَ الخبزِ، فيضحكُ عليهم الجُهّالُ؛ لجهلِهم بمعاني كلامِهِم، وضرورةُ قولِ العارفين أن يكونوا ضُحكةً للجاهلين، وإليه الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٣]، ثم بيَّنَ أنَّ ضَحِكَ العارفين عليهم غداً أعظمُ؛ إذ قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤ - ٣٥]، وكذلك أمةُ نوحٍ عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغالِهِ بعملِ السفينةِ، ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] فهذا أحدُ النَّظرين.

النظرُ الثاني: نظرُ مَنْ لم يبلغ إلى مقامِ الفناءِ عن نفسه:

وهؤلاء قسمانِ:

١. قسمٌ لم يُثبتُوا إلا وجودَ أنفسِهم، وأنكروا أن يكونَ لهم ربٌّ يُعبَدُ، وهؤلاء هم العُميانُ المنكوسونَ، وعماهُمْ في كلتا العَينينِ؛ لأَنَّهم نَفَوا ما هو الثابتُ تحقيقاً، وهو القيومُ الذي هو قائمٌ بنفسِهِ، وقائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ، وكلُّ قائمٍ فقائمٌ به، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسَهم، ولو عرفوا العلموا أَنَّهم مِنْ حيث هم هم لا ثباتَ لهم ولا وجودَ لهم، وإنَّما وجودُهم مِنْ حيث أُوجِدُوا لا مِنْ حيث وُجِدُوا، وفرقٌ بين الموجودِ وبين المُوجَدِ، وليس في الوجودِ إلا موجودٌ واحدٌ ومُوجَدٌ، فالموجودُ حقٌّ والمُوجَدُ باطلٌ مِنْ حيث هو هو، والموجودُ قائمٌ وقيُّومٌ، والمُوجَدُ هالكٌ وفانٍ، وإذا كان كُلُّ مَنْ عليها فانياً فلا يبقى إلا وجهُ ربِّكَ ذو الجلال والإكرام.

٢. الفريق الثاني ليس بهم عمًى، ولكنْ بهم عَوَرٌ؛ لأَنَّهم يُبصِرونَ بإحدى العينين وجودَ الموجودِ الحقِّ فلا ينكرونه، والعينُ الأخرى إن تَمَّ عَماها لم يُبصَرْ بها فناءُ غيرِ الموجودِ الحقِّ، فأثبتَ موجوداً آخرَ مع الله تعالى، وهذا مُشرِكٌ تحقيقاً، كما أنَّ الذي قبلَهُ جاحدٌ تحقيقاً، فإن جاوَزَ حدَّ العمى إلى العَمَشِ أدركَ تفاوتاً بين الموجودَينِ، فأثبتَ عبداً وربّاً، فبهذا القدرِ مِنْ إثبات التفاوتِ والنَّقصِ مِنَ الموجودِ الآخرِ دَخَلَ في حدِّ التوحيد، ثم إن كَحَّلَ بصرَهُ بما يزيدُ في أنوارِهِ فيقل عمشُهُ، وبقدرِ ما يزيدُ في بصره يظهرُ له نقصانُ ما أثبتَهُ سوى الله تعالى، فإن بَقِيَ في سلوكِهِ كذلك فلا يزالُ يفضي به النُّقصانُ إلى المحو، فينمحي عن رؤيةِ ما سوى الله، فلا يرى إلا الله؛ ليكون قد بَلَغَ

كمالَ التوحيد، وحيث أدركَ نقصاً في وجودِ ما سوى الله تعالى دَخَلَ في أوائل التوحيد، وبينهما درجاتٌ لا تحصى، فبهذا تتفاوتُ درجاتُ الموحّدين.

وكتبُ اللهِ المنزَّلةُ على ألسنةِ رسلِهِ هي الكحلُ الذي به يحصلُ أنوارُ الأبصار، والأنبياءُ هم الكَحَّالون، وقد جاؤوا داعين إلى التوحيدِ المحضِ، وترجمتُهُ قولُ: «لا إله إلا الله»، ومعناه: أن لا يرى إلا الواحدَ الحقَّ.

وقال في باب التوحيد في «إحياء علوم الدين» (٨/ ٢٠٢- ٢٠٤):

اعلم أنَّ للتوحيدِ أربعَ مراتب:

الأولى: أن يقولَ الإنسانُ بلسانِهِ: «لا إله إلا الله»، وقلبُهُ غافلٌ عنه، أو مُنْكِرٌ له، كتوحيدِ المنافقين.

والثانية: أن يُصَدِّقَ بمعنى اللفظِ قلبُهُ، كما صَدَّقَ به عمومُ المسلمين، وهو اعتقادُ العوام.

والثالثة: أن يُشاهِدَ ذلك بطريقِ الكشفِ بواسطةِ فيضانِ نورِ الحقِّ في قلبِهِ، وهو مقامُ المقرَّبين، وذلك بأن يرى أشياءَ كثيرةً، ولكنْ يراها على كثرتِها صادرةً عن الواحدِ القَهّار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجودِ في سائر مراتبِهِ إلا واحداً، وهي مشاهدةُ الصِّدِّيقين، وتُسمِّيه الصُّوفيّةُ الفناءَ في التوحيد؛ لأنَّه لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسَهُ أيضاً، وإذا لم يَرَ نفسَهُ لكونِهِ مُستغرِقاً في الواحد كان فانياً عن نفسه في توحيدِهِ، بمعنى أنَّه فَنِيَ عن رؤيةِ نفسِهِ والخلقِ.

فالأوَّلُ: مُوحِّدٌ بمجرَّدِ اللِّسان، ويعصمُ ذلك صاحبَهُ في الدنيا عن السَّيفِ والسِّنان.

والثاني: مُوحِّدٌ بمعنى أنَّه مُعتقِدٌ بقلبِهِ مفهومَ لفظِهِ، وقلبُهُ خالٍ عن التكذيبِ بما انعقدَ عليه قلبُهُ، وهو عقدةٌ على القلب، ليس فيه انشراحٌ ولا انفساحٌ، ولكنَّه يحفظُ صاحبَهُ مِنَ العذابِ في الآخرة إن تُوُفِّي عليه، ولم تضعف بالمعاصي عقدتُهُ.

والثالث: مُوحِّدٌ بمعنى أنَّه لم يُشاهِدْ إلا فاعلاً واحداً؛ [وهو ما يُسمَّى بالفناء في الأفعال] إذ قد انكشفَ له الحقُّ كما هو عليه، فلا يرى فاعلاً بالحقيقةِ إلا واحداً، وقد انكشفتْ له الحقيقةُ كما هي عليه.

والرابع: مُوحِّدٌ بمعنى أنَّه لم يحضُرْ في شهودِهِ غيرُ الواحدِ [وهو ما يُسمَّى بالفناء في الذات]، فلا يرى الكُلَّ مِنْ حيثُ إنَّه كثيرٌ، بل مِنْ حيثُ إنَّه واحدٌ، [فتضمحلُّ الكثرةُ في جنبِ الوحدةِ]، وهذه هي الغايةُ القُصوى في التوحيد.

وقال في باب المحبة في «إحياء علوم الدين» (٨/ ٤٥١- ٤٥٢):

وأمَّا مَنْ قَوِيَتْ بصيرتُهُ ولم تَضْعُفْ مُنَّتُهُ، وغَلَبَتْ رُوحانيَّتُهُ على جُثمانيَّتِهِ فإنَّه لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرفُ غيرَهُ، ويعلمُ أنَّه ليس في الوجودِ إلا اللهُ تعالى، وأفعالُهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ، فهي تابعةٌ له، فلا وجودَ لها بالحقيقةِ دونَهُ، وإنَّما الوجودُ للواحدِ الحقِّ الذي به وجودُ الأفعالِ كلِّها، ومَنْ هذه حالُهُ فلا ينظرُ في شيءٍ مِنَ الأفعالِ إلا ويرى فيه الفاعلَ، ويَذْهَلُ عن الفعلِ مِنْ حيثُ إنَّه سماءٌ وأرضٌ وحيوانٌ وشجرٌ، بل ينظرُ فيه مِنْ حيث إنَّه صنعُ الواحدِ الحقِّ، فلا يكونُ نظرُهُ مُجاوِزاً له إلى غيره، كَمَنْ نَظَرَ في شعرِ إنسانٍ أو خَطِّهِ أو تصنيفِهِ ورأى فيها الشاعرَ والمصنِّفَ، ورأى آثارَهُ مِنْ حيثُ إنَّه أثرُهُ، لا مِنْ حيثُ إنَّه

حبرٌ وعفْصٌ وزاجٌ مرقومٌ على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنِّف، وكلُّ العالم تصنيفُ الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعلُ الله، وعرفه من حيث إنه فعلُ الله، وأحبَّه من حيث إنه فعلُ الله لم يكن ناظراً إلا في الله، ولا عارفاً إلا بالله، ولا محبّاً إلا له، وكان هو الموحِّد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظرُ إلى نفسه من حيث نفسُه، بل من حيث إنه عبدُ الله، فهذا الذي يقال فيه: إنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه.

وقال في باب المحبة في «إحياء علوم الدين» (٨/ ٤٧٢):

وقال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله لمّا قُرِئ عليه قولُه تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]: (بحقٍّ يُحبُّهم فإنه ليس يُحبُّ إلاّ نفسَهُ) على معنى أنّه الكلُّ، وأنْ ليس في الوجود غيرُهُ؛ إذ ليس في الوجودِ إلا ذاتُهُ وأفعالُهُ.

[نصوص وحدة الوجود
عند الإمام الغزالي في مشكاة الأنوار]

وقال في «مشكاة الأنوار» (٥٥- ٥٦): والوجودُ ينقسمُ إلى ما للشيء مِنْ ذاتِهِ وإلى ما له مِنْ غيرِهِ. وما له الوجودُ مِنْ غيره فوجودُهُ مستعارٌ لا قوامَ له بنفسِهِ، بل اعتُبِرَ ذاتُهُ مِنْ حيثُ ذاتُهُ، فهو عدمٌ محضٌ، وإنَّما هو موجودٌ مِنْ حيث نسبتُهُ إلى غيره، وذلك ليس بوجودٍ حقيقيٍّ كما عرفتَ في مثال استعارةِ الثوبِ والغِنَى. فالموجودُ الحقُّ هو الله تعالى، كما أنَّ النُّورَ الحقَّ هو الله تعالى.

حقيقة الحقائق: مِنْ هنا ترقَّى العارفون مِنْ حضيض المجازِ إلى يفاع الحقيقة، واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أنَّ ليس في الوجودِ إلا الله تعالى، وأنَّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] لا أنَّه يصير هالكاً في

وقتٍ مِنَ الأوقات؛ بل هو هالكٌ أزلاً وأبداً، لا يتصور إلا كذلك؛ فإن كلَّ شيءٍ سواه إذا اعتُبِرَ ذاتُهُ مِنْ حيث ذاتُهُ فهو عدمٌ محضٌ؛ وإذا اعتُبِرَ مِنَ الوجهِ الذي سرى إليه الوجودُ مِنَ الأوَّل الحق رأى موجوداً لا في ذاته، لكنْ مِنَ الوجهِ الذي يلي موجده، فيكون الموجودُ وجهَ الله تعالى فقط.

فلكل شيء وجهان: وجهٌ إلى نفسه ووجهٌ إلى ربه؛ فهو باعتبار وجهِ نفسِهِ عدمٌ، وباعتبار وجهِ الله تعالى موجودٌ، فإذن لا موجودَ إلا الله تعالى ووجهه، فإذن كل شيء هالكٌ إلا وجهه أزلاً وأبداً، ولم يفتقر هؤلاء إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء البارى تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، بل هذا النّداءُ لا يُفارِقُ سمعَهم أبداً، ولم يفهموا مِنْ معنى قولِه: «الله أكبر» أنه أكبرُ مِنْ غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجودِ معَهُ غيره حتى يكونَ أكبر منه؛ بل ليس لغيره رتبةُ المعيّة، بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجودٌ إلا مِنَ الوجه الذي يليه، فالموجودُ وجهُهُ فقط. ومحالٌ أن يُقالَ: إنَّه أكبرُ مِنْ وجهه، بل معناها أنه أكبرُ مِنْ أن يُقالَ له أكبرُ بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر مِنْ أن يُدرِكَ غيرُهُ كُنْهَ كبريائه، نبّياً كان أو مَلَكاً، بل لا يَعْرِفُ اللهَ كنهَ معرفتِهِ إلا الله.

[نصوص وحدة الوجود
عند الإمام الغزالي في المقصد الأسنى]

وقال في كتاب «المقصد الأسنى» (١١٠ - ١١١):

فإذاً قد عرفتَ كيفَ يتفاوتُ الخلقُ في بحار معرفة الله عز وجل، وأنَّ ذلك لا نهايةَ له، وعرفتَ أنَّ من قال: لا يعرفُ اللهَ غيرُ الله فقد صدق، وأنَّ مَنْ قال: لا أعرفُ إلا الله فقد صدقَ أيضاً؛ فإنه ليس في الوجودِ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ وأفعالُهُ،

فإذا نَظَرَ إلى أفعالِهِ مِنْ حيثُ هي أفعالُهُ وكان مقصورَ النظرِ عليه ولم يره مِنْ حيث هو سماءٌ وأرضٌ وشجرٌ، بل مِنْ حيثُ إنَّه صُنْعُهُ، فلم يجاوز معرفتُهُ حضرةَ الربوبية، فيمكنه أن يقول: ما أعرفُ إلا الله، وما أرى إلا الله عز وجل.

وكما أنَّ الشمسَ ينبوعُ النورِ الفائضِ على كل مستنيرٍ فكذلك المعنى الذي قصرت العبارةُ عنه فعُبِّرَ عنه بالقدرة الأزلية للضرورة، وهو ينبوع الوجودِ الفائضِ على كلِّ موجود، فليس في الوجودِ إلا الله عز وجل، فيجوز أن يقول العارف: «لا أعرف إلا الله».

وقال فيه أيضاً أثناء الكلام على الاسم «الله» (١١٨- ١٢٠):

فأما قولُهُ «الله» فهو اسمٌ للموجودِ الحقِّ الجامع لصفات الإلهية، المنعوتِ بنعوتِ الرُّبوبية، المتفرِّدِ بالوجودِ الحقيقي، فإنَّ كلَّ موجودٍ سواهُ غيرُ مُستحِقِّ الوجودِ بذاتِهِ، وإنما استفادَ الوجودَ منه فهو مِنْ حيث ذاتُهُ هالك، ومِنَ الجهة التي تليه موجودٌ، فكلُّ موجودٍ هالِكٌ إلا وجهَه.

تنبيه: ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم «الله» التألُّه، وأعني به أن يكونَ مُستغرِقَ القلبِ والهِمّةِ بالله عز وجل، لا يرى غيرَهُ، ولا يلتفتُ إلى سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه، وكيف لا يكون كذلك وقد فَهِمَ مِن هذا الاسم أنَّه الموجودُ الحقيقيُّ الحقُّ، وكلُّ ما سواه فانٍ وهالكٌ وباطلٌ إلا به، فيرى أوّلاً نفسَهُ أولاً هالكاً وباطلاً كما رآه رسول الله ﷺ حيث قال: أصدق بيت قالته العرب قول لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

وقال فيه أيضاً أثناء الكلام على الاسم «الحق» (٢٤٧- ٢٥١):

الحق هُوَ في مُقابلة الباطِل، والأشياءُ تُستبانُ بأضدادها، وكلُّ ما يُخبَرُ عنه

فإمَّا بَاطِل مُطلقًا، وإمّا حقٌّ مُطلقًا، وإمّا حقٌّ مِنْ وَجهٍ باطِلٌ مِن وَجهٍ، فالممتنعُ بِذاتِهِ هو الباطِلُ مُطلقًا، والواجِبُ بِذاتِهِ هو الحقُّ مُطلقًا، والمُمْكِنُ بِذاتِهِ الوَاجِبُ بِغَيْرِهِ هو حقٌّ مِنْ وَجهٍ بَاطِلٌ مِن وَجهٍ، فَهُوَ مِن حَيْثُ ذَاتُهُ لا وجودَ لَهُ، فَهُوَ بَاطِلٌ، وهو مِنْ جِهةِ غَيرِهِ مُستفيدٌ للوجود، فهو مِن هذا الوجهِ الَّذي يَلِي مُفِيد الوُجُود مَوْجُودٌ، فهو مِن ذلك الوجهِ حقٌّ، ومِن جهةِ نَفسِهِ بَاطِلٌ، فَلذَلِكَ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وهو كذلك أزلاً وأبداً ليسَ ذَلِكَ في حالٍ دونَ حال، لأنَّ كُلَّ شيءٍ سواهُ أزلاً وأبداً مِن حيثُ ذاتُهُ لا يَستَحِقُّ الوُجُودَ، ومِنْ جِهَتِهِ يَستَحِقُّ، فَهُوَ بَاطِل بِذاتِهِ حَقٌّ بِغَيْرِهِ، وعندَ هذا تعرفُ أنَّ الحقَّ المُطلقَ هو الموجُودُ الحَقِيقِيُّ بِذَاتِهِ، الَّذِي مِنْهُ يَأخُذُ كلُّ حَقٍّ حَقِيقَتَهُ.

وحَظُّ العبدِ مِن هذا الاسمِ أن يرى نفسَهُ بَاطِلاً، ولا يرى غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ حَقًّا، والعبدُ إن كانَ حَقًّا فَلَيْسَ حَقًّا بِنَفسِهِ، بل هو حقٌّ بالله عزَّ وجَلَّ، فإنَّهُ موجُودٌ بِهِ لا بِذَاتِهِ، بل هو بِذاتِهِ باطِلٌ لولا إيجادُ الحقِّ لَهُ، فقد أَخْطَأَ مَنْ قَالَ: «أَنا الحقُّ» إِلَّا بأحدِ التَّأويلَيْنِ:

أَحدُهُما: أن يَعْنِيَ أنَّه بالحَقِّ، وهذا التَّأويلُ بعيدٌ، لأنَّ اللَّفظَ لا يُنبىءُ عَنهُ، ولأنَّ ذلك لا يَخُصُّهُ، بل كُلُّ شَيءٍ سوى الحقِّ فهو بالحَقِّ.

التَّأويلُ الثَّاني: أن يكونَ مُسْتَغْرِقاً بِالحَقِّ حتَّى لا يكونَ فِيهِ مُتَّسَعٌ لغيرِهِ، وما أَخذَ كُلِّيَّةَ الشَّيءِ واستغرقَهُ فقد يُقَالُ: «إِنَّه هُوَ» كما يَقُولُ الشَّاعِر: «أَنا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنا»، ويَعْنِي به الاِستغراقَ، وأهلُ التَّصوُّفِ لمَا كانَ الغالِبُ عَلَيْهِم رُؤْيَةَ فنَاءِ أنفسِهم مِن حَيْثُ ذاتُهم كانَ الجاري على لسانِهم ـ مِنْ أسماء الله تَعالى وفي أكثرِ الأَقْوالِ والأَحوالِ ـ هُوَ الحقُّ، لأنَّهم يلحظونَ الذَّاتَ الحَقِيقِيَّةَ

دونَ ما هو هالِكٌ في نَفْسِهِ، وأهلُ الكلامِ لمَّا كانُوا أبعدَ في مقام الِاسْتِدْلالِ بالأفعالِ كانَ الجاري على لسانهم ـ في الأكثر ـ اسمَ «الباريء» الَّذِي هو بِمَعْنى الخَالِق، وأكثرُ الخلقِ يرَوْنَ كلَّ شَيءٍ سواهُ، فيستشهدون عَلَيْهِ بما يرونَهُ، وهم المخاطبونَ بقولِهِ تَعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وَالصِّدِّيقُونَ لا يرَوْنَ شَيْئاً سواهُ، فيستشهدون بِهِ عَلَيْهِ، وهم المُخاطَبونَ بقولِهِ تَعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

[نصوص وحدة الوجود عند الإمام الغزالي في المستصفى في علم الأصول]

وقال في كتاب «المستصفى في علم الأصول» (١/ ٦٨):

(وهذا المثالُ يفهمكَ حقيقةَ العلمِ، فحقائقُ المعقولات إذا انطبعَ بها النفسُ العاقلةُ تُسمَّى علماً، وكما أنَّ السماءَ والأرضَ والأشجارَ والأنهارَ يُتصوَّرُ أن تُرَى في المرآة حتى كأنَّها موجودةٌ في المرآة، وكأنَّ المرآةَ حاويةٌ لجميعها فكذلك الحضرةُ الإلهيّةُ بجملتِها يُتصوَّرُ أن تنطبعَ بها نَفْسُ الآدميِّ، والحضرةُ الإلهيّةُ عبارةٌ عن جملةِ الموجودات، فكلُّها مِنَ الحضرة الإلهية؛ إذ ليس في الوجودِ إلا الله تعالى وأفعاله، فإذا انطبعت بها صارت كأنَّها كلُّ العالَمِ لإحاطتها به تصوُّراً وانطباعاً، وعند ذلك ربَّما ظنَّ مَنْ لا يدري الحلول، فيكون كَمَنْ ظَنَّ أنَّ الصُّورةَ حالّةٌ في المرآة، وهو غَلَطٌ؛ لأَنَّها ليستْ في المرآةِ، ولكنْ كأنَّها في المرآةِ).

أشهرُ الرَّسائلِ المُؤلَّفةِ لِبيانِ وتوضيحِ وحدةِ الوجود

١. رسالة في بيان معنى وحدة الوجود: العلامة ابن كمال باشا.

٢. إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود: العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي.

٣. مطلع الجود بتحقيق التنزيه في وحدة الوجود: الشيخ برهان الدين بن حسن الكوراني.

٤. المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود: الشيخ مصطفى بن كمال البكري.

٥. نفحة الجود في وحدة الوجود: للشيخ عطاء الله بن أحمد بن عطاء الله الأزهري.

٦. فيض الحق الودود ببيان عقائد الخلق في وحدة الوجود: لشاه يوسف القادري النقشبندي النيلوري.

٧. مسألة وحدة الوجود: للشيخ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني الفاسي.

٨. لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود: للشيخ عبد الرحمن العيدروس.

❊

إنَّما وحدةُ الوجودِ لَدَيْنا

للعارف بالله تعالى الشيخ عبد الغني النابلسي

إِنَّمَــا وَحــدةُ الوُجُــودِ لَدَيْنــا   وَحدةُ الحَقِّ فافْهَمُــوا ما نَقُولُ
وَحــدةُ اللهِ وَحــدةٌ لا سِــواها   شَــهِدَتْها مِنّــا الكِبــارُ الفُحُولُ
وَسَــواءٌ قُلْنا الوُجُودَ أَوِ الحَقْ   قَ فَــلا فــرقَ عِنْدَنا يــا جَهُولُ
لا تَظُــنَّ الوُجُودَ حَيْــثُ ذَكَرْنا   هُ هُــوَ الخَلْــقُ عِنْدَنــا المَبْذُولُ
هُــوَ حَقٌّ بَعْــدَ الفَنا عَنْ سِــواهُ   يَتَجَلَّــى فَتَضْمَحِــلُّ العُقُــولُ

نصوص القوم المفيدة بعدم إدراك الذات الإلهية

أجمع القوم على أنَّ الحقَّ هو صاحبُ الوجودِ الحقيقي، وأنَّ ذات الله تعالى لا يمكنُ أن تُتَصَوَّرَ فضلاً مِنْ أن يُحكَمَ عليها، ولذا حذَّرنا الله تعالى عن الخوضِ في ذاتِهِ كما قال العلامة ملا جامي قدس سره أول شرحه على نقش الفصوص (٢٨-٢٩): ولمّا كان الحقُّ سبحانه مِنْ حيثُ حقيقتُهُ في حجابِ عزَّتِهِ لا نسبةَ بينه وبين ما سواه كان الخوضُ فيه مِنْ هذا الوجهِ والتَّشوُّفُ إلى طلبِهِ تضييعاً للوقتِ، وطَلَباً لِمَا لا يُمكِنُ تحصيلُهُ ولا الظَّفَرُ به إلَّا بوجهٍ جُمليٍّ، وهو أنَّ وراءَ ما تَعَيَّنَ أمرٌ به ظَهَرَ كلُّ مُتعيِّنٍ؛ لذلك قال تعالى بلسان الرحمة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

انتهى ما أردنا نقله من رسالتنا فيض الله الودود في بيان وحدة الوجود.

الشطر الثاني في التوكل

(التَّوكُّلُ تَوَكُّلٌ بالمَضْمُونِ، واسْتِبْدَالُ الحَرَكَةِ بِالسُّكُونِ)

اعلم أنَّ التوكلَ مشتقٌّ مِنَ الوكالة، يقال: وَكَّلَ أمرَهُ إلى فلان، أي: فَوَّضَهُ إليه، واعتمدَ عليه فيه، ويُسمَّى الموكولُ إليه وكيلاً، ويُسمَّى المفوِّضُ إليه مُتوكِّلاً عليه مهما اطمأنَّتْ إليه نفسُهُ وَوَثِقَ به، ولم يَتَّهِمْهُ فيه بتقصيرٍ، ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً، فالتوكُّلُ عبارةٌ عن اعتمادِ القلبِ على الوكيل وحدَهُ، ولا يَتِمُّ التوكُّلُ إلا بقوَّةِ القلبِ وقوَّةِ اليقين جميعاً، إذ بهما يحصلُ سكونُ القلبِ وطُمأنينَتُهُ.

والتوكُّلُ ثلاثُ درجات:

الأولى: أن يكونَ حالُهُ في حقِّ الله تعالى الثِّقةَ بكفالتِهِ وعنايتِهِ كثقتِهِ بالوكيل.

الثانية: أن يكونَ حالُهُ مع الله تعالى كحالِ الطِّفلِ مع أمِّه؛ فإنَّه لا يعرفُ غيرَها، ولا يفزعُ إلى أحدٍ سواها، ولا يعتمدُ إلا إياها؛ فإذا رآها تعلَّقَ بذيلِها، وإن نابَهُ أمرٌ في غيبتِها كان أوَّلُ سابقٍ إلى لسانِهِ: «يا أُمَّاه»، فَمَنْ كان تَأَلُّهُهُ إلى الله ونظرُهُ إليه واعتمادُهُ عليه كَلِفَ به كما يكلَفُ الصَّبيُّ بأمِّهِ، فيكون مُتوكِّلاً حقاً.

وهذا قد فَنِيَ في توكُّلِهِ عن توكُّلِهِ إلى المتوكَّلِ عليه فقط؛ إذ ليس يلتفتُ قلبُهُ إلى التوكل وحقيقتِهِ، وأما الأوَّلُ فمتوكِّلٌ بالتكلُّفِ والكسبِ، وليس فانياً عن توكُّلِهِ.

الثالثة: أن يكونَ بين يدي الله تعالى في حركاتِهِ وسكناتِهِ مثلَ الميتِ بين يدي الغاسل، لا يُفارِقُهُ إلا في أنَّه يرى نفسَهُ ميتاً تُحرِّكُهُ القدرةُ الأزليّةُ كما تُحرِّكُ يدُ الغاسلِ الميتَ.

وقال أبو عليٍّ الدقاقُ رحمه الله: التوكُّلُ ثلاثُ درجات: التوكلُ ثم التسليمُ ثم التفويضُ، فالمتوكِّلُ يسكنُ إلى وعدِهِ، والمسلِّمُ يكتفي بعلمِهِ، وصاحبُ التفويضِ يرضى بحكمِهِ.

وقال أبو موسى الديلي رحمه الله: قلتُ لأبي يزيد رحمه الله: ما التوكل؟ فقال: ما تقولُ أنتَ؟ قلتُ: إنَّ أصحابَنا يقولون: لو أنَّ السِّباعَ والأفاعي عن يمينِكَ ويسارِكَ ما تُحرِّكُ لذلك سِرَّكَ.

فقال أبو يزيد: نعم، هذا قريبٌ، ولكنْ لو أنَّ أهل الجنةِ في الجنة يتنعَّمون، وأهلَ النار في النار يُعذَّبون، ثم وقعَ بكَ تمييزٌ بينهما بأن اخترت لنفسك شيئاً خرجتَ مِنْ جملة التوكل.

واعلم أنَّ مفارقةَ الأمصارِ والقوافلِ والمسافرةَ في البوادي التي لا يطرقُها الناسُ إلا نادراً، والسَّفَرَ مِنْ غير زادٍ ليس شرطاً في التوكل؛ بل استصحابُ الزادِ في البوادي سُنّةُ الأوَّلين، ولا يزولُ التوكُّلُ به بعد أنَ يكونَ الاعتمادُ على فضلِ الله تعالى لا على الزاد؛ لأنَّ التباعدَ عن الأسبابِ كلِّها مراغمةٌ للحكمةِ وجهلٌ بسنة الله تعالى، والعملُ بموجبِ سنةِ الله تعالى مع الاتّكالِ على الله عزَّ وجلَّ دون الأسبابِ لا يُناقِضُ التَوَكُّلَ، ولكنَّ الأسبابَ تنقسمُ إلى ظاهرةٍ (م: كالتكسُّبِ بأنواعِ الحِرَفِ) وإلى خفيّةٍ (م: كالإيمانِ والتَّقوى والابتهالِ إلى المولى)، فمعنى التوكلِ الاكتفاءُ بالأسبابِ الخفية عن الأسباب الظاهرة، مع

سكونِ النفس إلى المسبِّبِ لا إلى السببِ (م: ظاهرًا كان أو خفياً)، ولو انحازَ مُدَّعي التوكل إلى شعب مِنْ شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقُهُ طارقٌ فيه وجَلَسَ متوكِّلاً فهو آثمٌ به، وساعٍ في إهلاكِ نفسِهِ، (م: وقد أساء الأدبَ مع ربِّهِ).

واعلم أنَّ مَنْ له عيالٌ فحكمُهُ يُفارِقُ المنفردَ المتجرِّدَ؛ لأنَّ المنفردَ لا يصحُّ توكُّلُهُ إلا بأمرين:

أحدُهما: قدرتُهُ على الجوعِ أسبوعاً مِنْ غير استشرافٍ وضيقِ نَفْسٍ.

والآخَرُ: أبوابٌ مِنَ الإيمانِ، مِنْ جملتِها: أن يطيبَ نفساً بالموتِ إن لم يأتِهِ رزقُهُ، علماً بأنَّ رزقَهُ الموتُ والجوعُ، وهو وإنْ كان نقصاناً في الدُّنيا فهو زيادةٌ في الآخرة، فيرى أنَّه سيقَ إليه خيرُ الرِّزقين، وهو رزقُ الآخرة، ويكونُ راضياً بذلك، وهذا بخلافِ المُعيلِ؛ إذ لا يجوزُ تكليفُ العيالِ الصَّبرَ على الجوع، ولا يمكنُ أن يُقرِّرَ عندهم الإيمانَ بالتوحيد، وأنَّ الموتَ على الجوعِ رزقٌ مغبوطٌ عليه في نفسه إن اتفقَ ذلك نادراً، وكذا سائرُ أبوابِ الإيمان، فإذاً لا يُمكِنُهُ في حقِّهم إلا توكُّلُ المكتسِبِ، وهو المقامُ الثالث، كتوكُّلِ أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إذ خَرَجَ للكسبِ بعدما وَلِيَ الخلافةَ.

فأمَّا دخولُ البوادي وتركُ العيالِ توكُّلاً في حقِّهم، أو القعودُ عن الاهتمامِ بأمرِهِم توكُّلاً في حقِّهم فهذا حرامٌ، وقد يفضي إلى هلاكِهِم، ويكونُ هو مؤاخَذاً بهم؛ إذ كلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّتِهِ.

بل التَّحقيقُ أنَّه لا فرقَ بينه وبين عيالِهِ، فإنَّه إن ساعدَهُ العيالُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً وعلى الاعتدادِ بالموتِ على الجوعِ رزقاً وغنيمةً في الآخرة،

فله أن يتوكَّلَ في حقِّهم، ونفسُهُ أيضاً عيالٌ عنده، ولا يجوزُ له أن يُضيّعَها إلا أن تُساعِدَهُ على الصبرِ على الجوعِ مدّةً.

فإن كان لا يُطيقُهُ، ويضطربُ عليه قلبُهُ، وتتشوَّشُ عليه عبادتُهُ لم يجز له التوكلُ، ولذلك رُوِيَ أنَّ أبا ترابِ النَّخشبيَّ رحمه الله نَظَرَ إلى صوفيٍّ مَدَّ يده إلى قشرِ بطيخٍ ليأكلَهُ بعدَ ثلاثةِ أيام، فقال له: (لا يصلحُ لك التَّصوُّفُ، الزمِ السُّوقَ)[1]، أي: لا تصوُّفَ إلا مع التوكُّلِ، ولا يصحُّ التَّوكُّلُ إلا لِمَنْ يصبرُ عن الطعامِ أكثرَ مِنْ ثلاثةِ أيّامٍ.

وقال أبو عليٍّ الروذباري رحمه الله: (إذا قال الفقيرُ بعدَ خمسةِ أيامٍ: «أنا جائعٌ» فألزِمُوهُ السُّوقَ، ومُرُوهُ بالكسبِ)[2].

واعلم أنَّ مَنْ كان يتفرَّغُ بتركِ الكسبِ لفكرٍ وذكرٍ وإخلاصٍ واستغراقِ وقتٍ بالعبادة، وكان الكسبُ يُشوّشُ عليه، وهو مع هذا لا تستشرفُ نفسُهُ إلى الناسِ في انتظارِ مَنْ يدخلُ فَيَحْمِلُ إليه شيئاً، بل يكونُ قويَّ القلبِ في الصبرِ والاتّكالِ على الله تعالى، فالقعودُ له أولى، وإن كان يضطربُ قلبُهُ في البيت، ويستشرفُ إلى الناس فالكسبُ أولى؛ لأنَّ استشرافَ القلبِ إلى الناس سؤالٌ بالقلب، وتركُهُ أهمُّ مِنْ تركِ الكسب، وما كان المتوكّلون يأخذون ما تستشرفُ إليه نفوسُهم.

واعلم أنَّ التوكُّلَ مقامٌ مِنْ مقامات الدين يُستعانُ به على التَّفرُّغِ لله، فما للبطال والتوكل؟ فإن اشتغلتَ أيُّها المريدُ بالتقوى والتوكُّلِ شاهدتَ بالتجربةِ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٩)، ينظر: (الرسالة القشيرية) (٧٤).

(٢) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٢٦١).

مصداق قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣]، الآية. فالاهتمامُ بالرِّزق قبيحٌ بذوي الدين، وهو بالعلماء أقبحُ؛ لأنَّ شرطَهم القناعةُ، ولقد أحسن الشاعر حيث قال[1]:

جَـرَى قَلَمُ القضـاءِ بما يكونُ فَسِـيَّانِ التَّحـرُّكُ والسُّـكونُ
جُنُـونٌ مِنْكَ أنْ تَسْـعَى لِرِزْقٍ ويُرْزَقُ فـي غِشَـاوَتِهِ الجَنِينُ

إلا إذا أراد العالِمُ أن لا يأخذَ مِنْ أيدي الناسِ، بل أراد أن يأكلَ مِنْ كسبِهِ، فذلك وجهٌ لائقٌ بالعالِمِ العاملِ الذي سلوكُهُ بظاهرِ العلمِ والعملِ، ولم يكن له سيرٌ بالباطنِ؛ فإنَّ الكسب يمنعُ مِنَ السيرِ بالفكرِ الباطنِ، فاشتغالُهُ بالسُّلوكِ مع الأخذِ مِنْ يدِ مَنْ يتقرّبُ إلى الله بما يعطيه أولى؛ لأنّه تَفرَّغَ لله عزَّ وجلَّ، وكان له بذلك إعانة للمعطي على نيل الثواب.

واعلم أنّ تركَ الادِّخارِ لا يجوزُ إلا لِمَنْ لا ينزعجُ قلبُهُ بتركِ الادِّخار، ولا تستشرفُ نفسُهُ إلى أيدي الخلق، بل لا يلتفتُ قلبُهُ إلا إلى الوكيلِ الحقِّ، فإن كان يستشعرُ في نفسه اضطراباً يشغلُ قلبَهُ عن العبادةِ والذكرِ والفكرِ فالادِّخارُ له أولى؛ لأنَّ المقصودَ إصلاحُ القلبِ؛ ليتجرَّدَ لذكرِ الله، فربَّ شخصٍ يشغلُهُ وجودُ المالِ، وربَّ شخصٍ يشغلُهُ عدمُهُ.

فالمحظورُ ما يشغلُ عن ذكرِ الله، وإلا فالدُّنيا في عينِها غيرُ محظورةٍ، لا وجودُها ولا عدمُها، ولذلك بُعِثَ رسولُ الله ﷺ إلى أصنافِ الخلقِ وفيهم التجار والمحترفون، فلم يأمر التاجرَ بتركِ تجارتِهِ، ولا المُحترفَ بترك حِرْفَتِهِ،

(١) ينظر: البيتان في (تتمة يتيمة الدهر) (٥/ ١٦٣) لأبي الفرج بن هندو، و(مرآة الجنان) (٣/ ٣٨١) لأبي الخير الواسطي.

ولا أَمَرَ التاركَ لهما بالاشتغالِ بهما، بل دعا الكلَّ إلى الله تعالى، وأرشدَهم إلى أنَّ فوزَهم ونجاتَهم في انصرافِ قلوبِهم عن الدنيا إلى الله تعالى، وعمدةُ الاشتغالِ بالله القلبُ، فصوابُ الضَّعيفِ ادِّخارُ قدرِ حاجته، كما أنَّ صوابَ القويِّ تركُ الادخار.

وهذا حكمُ المنفردِ، فأما المعيلُ فلا يخرجُ عن حدِّ التَّوكُّلِ بادِّخارِ قوتِ سنةٍ لعياله؛ تسكيناً لقلوبهم، وأكثرُ مِنْ ذلك مُبطِلٌ للتَّوكُّلِ.

وقد ادَّخرَ رسولُ الله ﷺ لعيالِهِ قوتَ سنةٍ[1]، ونهى بلالاً رضي الله عنه عن الادِّخار في كسرةِ خبزٍ ادَّخرَها لِيُفْطِرَ عليها، فقال: «أَنْفِقْ بِلالُ، ولا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إقلالاً»[2].

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن لا نتوكَّلَ توكُّلَ العوام، فنتركَ التكسُّبَ بالتجارةِ والزراعةِ والصناعةِ ونحوِ ذلك، ونصيرَ نسأل الوُلاةَ والأغنياءَ تصريحاً أو تعريضاً؛ فإنَّ ذلك جهلٌ بمقامِ التوكُّل، كما هو شأنُ مَنْ يطلب الوظائفَ والأنظارَ بالوسائطِ ثم يَدَّعي التوكُّلَ بعد ذلك، وربَّما يحتجُّ بأنَّ التكسُّبَ يُعطِّلُهُ عن الاشتغالِ بالعلم، وذلك حُجَّةٌ لا تنهضُ إلا إذا لم يكن في بلده أو إقليمه مَنْ يقومُ بحفظِ الشريعة، أما إذا كان في بلدِهِ مَنْ يقومُ مقامَهُ في الإفتاءِ والتدريسِ فالأدبُ اشتغالُهُ بالتكسُّبِ إلا أن يَمُنَّ اللهُ عليه بما يأكلُ وما يشربُ مِنْ حيث لا يحتسب، أو من إرصاد على العلماء ونحوهم كالأوقاف المرصدة، فإن ذلك لا ينافيه.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٠٤) ومسلم (١٧٥٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٣٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٨٠).

فإياك يا أخي وسؤالَ الناسِ بلا ضرورة، وقد كثُرَ وقوعُهُ مِنْ غالبِ حَمَلةِ القرآنِ مع قدرتِهم على الكسبِ بالحِرَفِ والصَّنائعِ وغيرِهما، وإذا أَمَرَهُ أحدٌ بالتكسُّبِ يحتجُّ بأنَّه مُشتغِلٌ بالعلمِ، والحالُ بخلافِ ذلك؛ فإنَّ مِنْ شرطِ مَنْ يجوزُ له أكلُ الصدقةِ أن تكونَ له علاماتٌ ظاهرةٌ عليه مِنْ حفظِهِ للمتون، والإكبابِ على الاشتغالِ بالعلم ليلاً ونهاراً، بحيث لو اشتغل بالتكسُّبِ لتعطَّلَ مع حاجةِ الناس إلى علمِهِ مع الإخلاصِ فيه)[1].

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (٢/ ٢٨٩ـ ٢٩٠).

الكتاب السادس من ربع المنجيات
في المحبة والشوق والأنس والرضا

(قَوْمٌ أَقامَهُمُ الحَقُّ لِخِدْمَتِهِ وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ)(١)

اعلم أنَّ المحبةَ لله تعالى هي الغايةُ القصوى مِنَ المقامات، والذروةُ العليا مِنَ الدرجات، فما بعدَ إدراكِ المحبّةِ لله مقامٌ إلا وهو ثمرةٌ مِنْ ثمارِها، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبلَ المحبّةِ مقامٌ إلا وهو مقدّمةٌ مِنْ مُقدّماتها، كالتوبةِ والصبرِ والزهدِ وغيرِها، (ز: فهي ميراثُ التوحيدِ والمعرفة، وبه يظهرُ سِرُّ تأخيرِ المصنِّفِ إيَّاها بعدَ التوحيد).

وأنكرَ بعضُ العلماءِ إمكانَها، وقال: (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقةُ المحبةِ فمحالٌ إلا مع الجنسِ والمثلِ).

ولَمّا أنكروا حقيقةَ المحبّةِ أنكروا ثمراتِها مثل الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ولا بدَّ مِنْ كشفِ الغطاءِ عن هذا الأمر.

[بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى]

اعلم ـ هداك الله تعالى ـ أنَّ الأمةَ مُجمِعةٌ على أنَّ الحبَّ لله ولرسولِهِ ﷺ فرضٌ، وكيف يُفرَضُ ما لا وجودَ له؟ وكيف يُفسَّرُ الحبُّ بالطاعةِ والطاعةُ تَبَعُ

(١) الحكمة (٦٨) من الحكم العطائية.

الحبّ وثمرتُهُ؟ فلا بدَّ أن يتقدَّمَ الحبُّ ثم بعد ذلك يطيعُ مَنْ أحبَّ.

ويدلُّ على إثباتِ الحُبِّ لله تعالى قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهو دليلٌ على إثباتِ الحبِّ وإثباتِ التَّفاوتِ فيه.

وقد جعَلَ رسولُ الله ﷺ الحبَّ لله مِنْ شرطِ الإيمانِ في أخبار كثيرة؛ إذ قال أبو رزينٍ العُقيليُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله ﷺ ما الإيمانُ؟ قال: «أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا»(١).

وفي حديثٍ آخرَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»(٢).

وفي حديثٍ آخرَ: «لا يُؤْمِنُ العَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، وفي رواية: «وَمِنْ نَفْسِهِ»(٣).

كيف وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤] إلى قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] الآيةَ، وإنما أجرى ذلك في معرضِ التهديدِ والإنكارِ.

وفي بعضِ الكتب المنزلة: (عبدي، أنا ـ وحقِّكَ ـ لَكَ مُحِبٌّ، فَبِحَقِّي عليكَ كُنْ لي مُحِباً)(٤).

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٢٠٧).

(٣) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له.

(٤) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٩٩).

ومَرَّ عيسى ـ عليه السلام ـ على طائفةٍ مِنَ العبادِ وقد نحلوا، فقالوا: نخافُ النارَ ونرجو الجنةَ، فقال لهم: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم، ومَرَّ بقومٍ آخرين كذلك فقالوا: نعبدُهُ حُبّاً له وتعظيماً لجلاله، فقال: أنتم أولياءُ الله حقاً، معكم أُمِرْتُ أن أقيم[١].

وفي الزبور: (مَنْ أظلمُ مِمَّنْ عَبَدني لِجَنّةٍ أو نار، لو لم أَخْلُقْ جنّةً ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أُطاع؟!)[٢].

[بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى]

واعلم أنَّ أسعدَ الخلقِ حالاً في الآخرة أقواهم حُبّاً لله تعالى؛ فإنَّ الآخرةَ معناها القدومُ على الله تعالى ودَرْكُ سعادةِ لقائِهِ، وما أعظمَ نعيمَ المُحِبِّ إذا قَدِمَ على محبوبه بعدَ طولِ شوقِهِ، وتَمَكَّنَ مِنْ دوامِ مشاهدتِهِ أبدَ الآبادِ مِنْ غيرِ مُنَغِّصٍ ومُكدِّرٍ، ومِنْ غير رقيبٍ ومُزاحِمٍ، ومِنْ غير خوفِ انقطاعٍ، إلا أنَّ هذا النَّعيمَ على قدرِ قوَّةِ الحبّ، فكلَّما ازدادت المحبّةُ ازدادتِ اللّذّةُ، وإنَّما يكتسبُ العبدُ حبَّ الله تعالى في الدنيا.

وأصلُ الحبِّ لا ينفكُّ عنه مؤمنٌ؛ لأنَّه لا ينفكُّ عن أصلِ المعرفة، وأما قوَّةُ الحبِّ واستيلاؤُهُ حتى ينتهيَ إلى الاستهتارِ الذي يُسمَّى عِشقاً فذلك ينفكُّ عنه الأكثرون، وإنَّما يحصلُ ذلك بسببين:

أحدُهما: قطعُ علائقِ الدُّنيا وإخراجُ حبِّ غيرِ الله مِنَ القلب؛ فإنَّ القلبَ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٨)، ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٥٦).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٥٦).

مثلُ الإناءِ، لا يَتَّسِعُ للخلِّ ما لم يخرج منه الماءُ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

وكمالُ الحبِّ في أن يُحِبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبِهِ، وما دامَ يلتفتُ إلى غيرِهِ فزاويةٌ مِنْ قلبِهِ مشغولةٌ بغيرِهِ، فبقدرِ ما يشتغلُ بغيرِ الله ينقصُ منه حبُّ الله تعالى، وبقدرِ ما يبقى مِنَ الماءِ في الإناءِ ينقصُ مِنَ الخلِّ المصبوبِ فيه.

وإلى هذا التفريدِ والتجريدِ الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، وبقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، بل هو معنى قولِكَ: لا إله إلا الله، أي: لا معبودَ ولا محبوبَ سواه، فكلُّ محبوبٍ فإنَّه معبودٌ، فإنَّ العبدَ هو المُقيَّدُ، والمعبودُ هو المقيَّدُ به، وكلُّ مُحِبٍّ فهو مُقيَّدٌ بما يُحِبُّهُ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال ﷺ: «أَبْغَضُ إلهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ الهَوَى»(١)، ولذلك قال ﷺ: «مَنْ قَالَ لا إله إلاَّ اللهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الجَنَّةَ»(٢).

ومعنى الإخلاص: أن يُخلِصَ قلبَهُ لله، فلا يبقى فيه شِركةٌ لغيرِ الله، فيكونُ اللهُ محبوبَ قلبِهِ، ومقصودَ قلبِهِ فقط.

ومَنْ هذا حالُهُ فالدُّنيا سجنُهُ؛ لأنَّها مانعةٌ له مِنْ مشاهدةِ محبوبِهِ، وموتُهُ خلاصٌ مِنَ السِّجن، وقدومٌ على المحبوب.

فبقدرِ ما أَنِسَ بالدنيا فينقصُ أُنْسُهُ بالله، ولا يؤتى أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا وينقصُ بقدرِهِ مِنَ الآخرةِ بالضرورة، كما أنَّه لا يقربُ الإنسانُ مِنَ المشرقِ إلا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٠٣).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٢٥٧).

ويبعدُ بالضرورةِ مِنَ المغرب بقدرِهِ، ولا يطيبُ قلبُ امرأتِه إلا ويضيقُ به قلبُ ضَرَّتِها، فالدُّنيا والآخرةُ ضَرَّتَانِ، وهما كالمشرق والمغرب.

والسببُ الثاني لقوَّةِ المحبّةِ: قُوَّةُ معرفةِ الله تعالى واتّساعُها، واستيلاؤها على القلبِ، وذلك بعدَ تطهيرِ القلبِ مِنْ جميعِ شواغِلِ الدُّنيا وعلائقِها يجري مَجرى وضعِ البذرِ في الأرض بعد تنقيتِها مِنَ الحشيش، ثم يتولَّدُ مِنْ هذا البذرِ شجرةُ المحبّةِ والمعرفة، وهي الكلمةُ الطيّبةُ التي ضَرَبَ اللهُ بها مثلاً حيث قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

(ز: فَعَرَفْنا أنَّ لها أصلاً ثابتاً في القلوب بما أمدَّها به مِنَ النَّظرِ والاعتبار، وعَرَفْنا أنَّ لها فروعاً تنشأُ منها هي مواجيدُ القلوبِ بسببِ ما جَبَلَها عليه مِنْ محبّةِ سعادتِها وكمالِها).

وإليها الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، أي: المعرفة، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، فالعملُ الصالحُ كالحمَّالِ لهذه المعرفة وكالخادم، وإنَّما العملُ الصالحُ كلُّه في تطهيرِ القلبِ أوّلاً مِنَ الدُّنيا، ثم في إدامةِ طهارتِهِ، فلا يراد العملُ إلا لهذه المعرفة.

وأما العلمُ بكيفيّةِ العملِ فيُرادُ للعملِ، فالعلمُ هو الأوّلُ وهو الآخرُ، والمحبَّةُ تَبَعُ المعرفةِ بالضرورة، ولا يُوصلُ إلى هذه المعرفةِ بعدَ انقطاعِ شواغلِ الدُّنيا مِنَ القلبِ إلا بالفكر الصافي، والذكرِ الدائمِ، والجِدِّ البالغِ في الطلب، والنَّظرِ المستمرِّ في الله تعالى وفي صفاته، وفي ملكوتِ سمواتِهِ وسائرِ مخلوقاتِهِ.

والواصلون إلى هذه الرتبةِ ينقسمون إلى:

أ ـ الأقوياء، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيرهُ.

ب ـ وإلى الضُّعفاءِ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهم بالأفعال، ثم يترقَّونَ منها إلى الفاعل.

وإلى الأوَّلِ الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، وبقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، ومنه نَظَرَ بعضُهم حيثُ قيلَ له: بِمَ عَرَفْتَ ربَّكَ؟ قال: عرفتُ ربِّي بربِّي، ولولا ربِّي لَمَا عَرَفْتُ ربِّي[1].

وإلى الثاني الإشارةُ بقولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وبقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وإليه أكثرُ دعوةِ القرآن، وهذا الطريقُ هو الأسهلُ على الأكثرين، فإن كنتَ طالباً سعادةَ لقاءِ الله تعالى فانبُذْ الدُّنيا وراءَ ظهرك، واستغرقِ العمرَ في الذكرِ الدَّائمِ والفكرِ اللازمِ؛ فعساكَ تحظى منها بقدرٍ يسيرٍ، ولكنْ تنالُ بذلك اليسيرِ مُلْكاً عظيماً لا آخرَ له.

[بيان السبب في تفاوت الناس في الحب]

اعلم أنَّ المؤمنين مشتركون في أصلِ الحبِّ؛ لاشتراكِهم في أصلِ المعرفةِ (م: الفطريَّةِ)، ولكنَّهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفةِ (م: الذَّوقيَّةِ المُكتسَبةِ

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٥١٤).

بأنواعِ السُّلوكِ والمجاهداتِ، أو الموهوبةِ بكرائمِ الاجتباءِ والجَذَبات).

وأكثرُ الناسِ ليس لهم مِنَ الله تعالى إلا الصفاتُ والأسماءُ التي قَرَعَتْ سَمْعَهم فتلقَّنوها وحَفِظُوها، وربَّما تخيَّلوا لها معانيَ يتعالى عنها ربُّ الأربابِ، وربَّما لم يطلعوا على حقيقتِها، ولا تخيَّلوا لها معنىً فاسداً، بل آمنوا بها إيمانَ تسليمٍ وتصديقٍ، واشتغلوا بالعملِ وتركوا البحثَ، وهؤلاءِ هم أهلُ السلامةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ والمتخيِّلونَ هم الضالون، والعارفونَ بالحقائقِ هم المقرَّبون.

وقد ذَكَرَ الله تعالى حالَ الأصنافِ الثلاثةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، الآية.

واعلم أنَّ عقولَنا ضعيفةٌ، وجمال الحضرةِ الإلهيةِ في نهايةِ الإشراقِ والاستنارة، وفي غاية الاستغراقِ والشمولِ، حتى لم يشذَّ عن ظهورِهِ ذرَّةٌ مِنْ ملكوتِ السمواتِ والأرضِ، فصار ظهورُهُ سببَ خفائِهِ،كما أنَّ الخفّاشَ يُبصِرُ بالليل ولا يُبصِرُ بالنهار، لا لخفاءِ النهار واستتارِهِ، ولكنْ لشدَّةِ ظهورِهِ؛ فإنَّ بصرَ الخفَّاشِ ضعيفٌ يُبْهِرُهُ نورُ الشمسُ إذا أشرقت، فتكونُ قوَّةُ ظهورِهِ مع ضعفِ بصرِهِ سبباً لامتناعِ إبصارِهِ، فسبحانَ مَنِ احتَجَبَ بإشراقِ نورِهِ، واختفى عن البصائرِ والأبصارِ بظهورِهِ.

فالناسُ في طَلَبِهم معرفةَ اللهِ كالمدهوشِ الذي يُضربُ به المثلُ إذا كان راكباً لحمارِهِ وهو يطلبُ حمارَهُ، والجليَّاتُ إذا صارت مطلوبةً صارت مُعتاصةً، فهذا سرُّ هذا الأمرِ، فليُحقَّق. ولذلك قيلَ:

فَقَدْ ظَهَـرْتَ فَمَا تَخفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَـى أَكْمَـهٍ لَا يَعْـرِفُ القَمَرا
لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَـا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً فَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالعُرْفِ قَدْ سُـتِرا

ولا يُتعجَّبُ مِنِ اختفاءِ ذلك بسببِ الظهور، فإنَّ الأشياءَ تُستبانُ بأضدادِها وما عَمَّ وجودُهُ حتَّى إنَّه لا ضِدَّ له عسُرَ إدراكُهُ.

ومثالُهُ: نورُ الشمسِ المشرقِ على الأرض، فإنَّا نعلمُ أنَّه عرضٌ مِنَ الأعراضِ يحدثُ في الأرضِ، ويزولُ عندَ غيبةِ الشمسِ، فلو كانتِ الشمسُ دائمةَ الإشراقِ لا غروبَ لها لَكُنّا نظنُّ أنَّه لا هيئةَ في الأجسامِ إلا ألوانُها، وهي السَّوادُ والبياضُ وغيرُهما، فإنَّا لا نشاهدُ في الأسودِ إلا السوادَ، وفي الأبيضِ إلا البياضَ، فأمَّا الضوءُ فلا نُدرِكُهُ وحدَهُ، ولكنْ لَمّا غابتِ الشَّمسُ وأظلمَتِ المواضعُ أدركنا تفرقةً بين الحالين، فَعَلِمْنا أنَّ الأجسامَ كانت قد استضاءَتْ بضوءٍ، واتَّصفَتْ بصفةٍ فارقَتْها عند الغروب، فعرفنا وجودَ النُّورِ بعدمِهِ، وما كنّا نطلعُ عليه لولا عدمُهُ إلا بعسرٍ شديدٍ، هذا مع أنَّ النورَ أظهرُ المحسوسات.

فالله تعالى هو أظهرُ الأمورِ وبه ظَهَرَتْ الأشياءُ كلُّها، ولو كان له عدمٌ أو غيبةٌ أو تغيُّرٌ لانهدَّتِ السمواتُ والأرضُ، وبَطَلَ الملكُ والملكوتُ، ولَأُدْرِكَتْ بذلك التَّفرقةُ بين الحالين، ولو كان بعضُ الأشياءِ موجوداً به وبعضُها موجوداً بغيره لَأُدرِكَتَ التَّفرقةُ بين الشيئين في الدلالة، ولكنْ دلالتُهُ عامّةٌ في الأشياء على نسقٍ واحدٍ، ووجودُهُ دائمٌ في الأحوال يستحيلُ خلافُهُ، فلا جرمَ أورثَتْ شِدَّةُ الظهورِ خفاءً، فهذا هو السَّبَبُ في قصورِ الأفهام.

وأمَّا مَنْ قَوِيَتْ بصيرتُهُ ولم تضْعُفْ مُنَّتُهُ، وغَلَبَتْ رُوحانيَّتُهُ على جُثمانيَّتِهِ فإنَّه لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرفُ غيرَهُ، ويعلمُ أنَّه ليس في الوجودِ إلا اللهُ

تعالى، وأفعالُهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ، فهي تابعةٌ له، فلا وجودَ لها بالحقيقةِ دونَهُ، وإنَّما الوجودُ للواحدِ الحقِّ الذي به وجودُ الأفعالِ كلِّها، ومَنْ هذه حالُهُ فلا ينظر في شيءٍ مِنَ الأفعالِ إلا ويرى فيه الفاعلَ، ويَذْهَلُ عن الفعلِ مِنْ حيثُ إنَّه سماءٌ وأرضٌ وحيوانٌ وشجرٌ، بل ينظر فيه مِنْ حيث إنَّه صنعُ الواحدِ الحقِّ، فلا يكونُ نظرُهُ مُجاوِزاً له إلى غيره، كَمَنْ نَظَرَ في شعرِ إنسانٍ أو خَطِّهِ أو تصنيفِهِ ورأى فيها الشاعرَ والمصنِّفَ، ورأى آثارَهُ مِنْ حيثُ إنَّه أثرُهُ، لا مِنْ حيثُ إنَّه حبرٌ وعَفْصٌ وزاجٌ مرقومٌ على بياض، فلا يكونُ قد نَظَرَ إلى غير المصنِّف، وكلُّ العالَمِ تصنيفُ الله تعالى، فَمَنْ نَظَرَ إليه مِنْ حيثُ إنَّه فعلُ الله، وعَرَفَهُ مِنْ حيثُ إنَّه فعلُ الله، وأحبَّهُ مِنْ حيثُ إنَّه فعلُ الله لم يكن ناظراً إلا في الله، ولا عارفاً إلا بالله، ولا مُحِبّاً إلا له، وكان هو الموحِّدَ الحقَّ الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسِهِ من حيثُ نفسُهُ، بل مِنْ حيثُ إنَّه عبدُ الله، فهذا الذي يقال فيه: إنَّه فَنِيَ في التوحيد، وإنَّه فَنِيَ عن نفسِهِ.

وما اتَّضَحَ للعارفين مِنَ الأمورِ الإلهيَّةِ وإنْ كان في غايةِ الوضوحِ فكأنَّه مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ، فلا يكونُ مُتَّضِحاً غايةَ الاتضاح، لأنَّ كمالَ الوضوحِ بالمشاهدةِ وتمامَ إشراقِ التَّجلِّي لا يكونُ إلا في الآخرةِ.

والأمورُ الإلهيةُ لا نهايةَ لها، وإنَّما ينكشفُ لكلِّ عبدٍ مِنَ العبادِ بعضُها، وتبقى أمورٌ لا نهايةَ لها غامضة، والعارفُ يعلمُ وجودَها، وكونَها معلومةً لله تعالى، ويعلمُ أنَّ ما غابَ عن علمِهِ مِنَ المعلوماتِ أكثرُ ممّا حَضَرَ، فلا يزالُ متشوِّقاً إلى أن يحصلَ له أصلُ المعرفةِ فيما لم يحصل ممَّا بَقِيَ مِنَ المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، ولذلك قال بعضُهم: إني أقولُ: (يا ربُّ يا الله، فأجدُ ذلك

على قلبي أثقلَ مِنَ الجبال؛ لأنَّ النداءَ يكونُ مِنْ وراءِ حجابٍ، وهل رأيتَ جليساً ينادي جليسَهُ؟)، وقال: (إذا بَلَغَ الرَّجلُ في هذا العلمِ الغايةَ رماهُ الخلقُ بالحجارة)، أي: يخرجُ كلامُهُ عن حدِّ عقولِهم، فيرونَ ما يقولُهُ جُنوناً أو كُفراً.

فمقصدُ العارفين كلِّهم وصلُهُ ولقاؤُهُ فقط، فهي قُرَّةُ العينِ التي لا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم منها، فَمَنْ عَرَفَ الله عَرَفَ أنَّ اللذاتِ المتفرِّقةَ بالشهوات المختلفة كلَّها تنطوي تحتَ هذه اللذة، كما قال بعضُهم[(١)]:

كَانَتْ لِقَلْبِيَ أَهْواءٌ مُفَرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ العَيْنُ أَهْوَائِي

فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلَائِي

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ ودِيْنَهُمُ ... شُغْلاً بِذِكْرِكَ يَا دِيْنِي ودُنْيائِي

ولذلك قال بعضُهم[(٢)]:

وهَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ ... وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهْ

واعلم أنَّ الله تعالى إذا أَحَبَّ عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذنبٌ؛ لأنَّه إذا أحبَّهُ تابَ عليه قبلَ الموتِ، فلم تضرَّهُ الذُّنوبُ الماضيةُ وإنْ كثرت، كما لا يضرُّ الكفرُ الماضي بعدَ الإسلامِ، وقد اشترط الله تعالى للمحبَّة غفرانَ الذَّنبِ فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال زيدُ بنُ أسلمَ: (إنَّ الله لَيُحِبُّ العَبْدَ حتَّى يَبْلُغَ مِنْ حُبِّهِ لَهُ أَنْ يَقُولَ: اِعْمَلْ ما شِئْتَ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ)[(٣)].

---

(١) الأبيات لمحمد بن داود الأصفهاني في ديوانه (٣٢)، وهي مما نسب إلى الحلاج في ديوانه (٨٣).

(٢) ينظر: (شرح نهج البلاغة) (١٠/ ١٥٧).

(٣) أصله عند البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨). ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٥٠).

وقال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله لَمّا قُرِئَ عليه قولُهُ تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]: (بحقٍّ يُحِبُّهم فإنَّه ليس يُحِبُّ إلّا نفسَهُ) على معنى أنّه الكلُّ، وأنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ؛ إذ ليس في الوجودِ إلا ذاتُهُ وأفعالُهُ.

وأما الفعلُ الدالُّ على كونِهِ محبوباً فهو أن يتولَّى الله تعالى أمرَهُ ظاهرَهُ وباطنَهُ، سِرَّهُ وجهرَهُ، فيكون هو المشيرَ عليه والمدبّرَ لأمرِهِ، والمزيّنَ لأخلاقِهِ، والمستعملَ لجوارحِهِ، والمسدّدَ لظاهرِهِ وباطنِهِ، والجاعلَ همومَهُ هَمّاً واحداً، والمُبغِضَ للدّنيا في قلبه، والمُوحِشَ له مِنْ غيره، والمؤنِسَ له بلذَّةِ المناجاة في خلواتِهِ، والكاشفَ له عن الحجبِ بينه وبين معرفتِهِ، فهذا وأمثالُهُ هو علامةُ حُبِّ الله للعبد.

واعلم أنَّ مَنْ بَقِيَ مستقرّاً على متابعةِ الهوى فمحبوبُهُ ما يهواهُ، بل ينبغي أن يتركَ المحبُّ هوى نفسِهِ لهوى محبوبِهِ كما قيل[١]:

أُريدُ وِصَالَهُ ويُرِيدُ هَجْرِي ... فَأَتْرُكُ ما أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

بل الحبُّ إذا غَلَبَ قَمَعَ الهوى، فلم يَبْقَ له تَنَعُّمٌ بغيرِ المحبوبِ، قال موسى عليه السلام: يا ربِّ؛ أينَ أنتَ فأقصدَكَ؟ فقال: إذا قَصَدْتَ فقد وَصَلْتَ[٢].

وأوحى الله تعالى إلى داود ـ عليه السلام: (قد كذبَ مَنِ ادَّعى محبَّتي إذا جنَّه الليلُ نامَ عني، أليسَ كلُّ مُحِبٍّ يحبُّ لقاءَ حبيبِهِ، فها أنا ذا موجودٌ لِمَنْ طَلَبني)[٣].

---

(١) البيت لابن المنجم الواعظ. ينظر: (الوافي بالوفيات) (١٨/ ٢٦٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣١١).

(٣) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٦٠).

قال الجنيد رحمه الله: (حَرَّمَ الله تعالى المحبَّةَ على صاحبِ العلاقةِ)[1].

وقال بعضُهم: (المحبَّةُ معنىً مِنَ المحبوب قاهرٌ للقلوب، تعجزُ القلوبُ عن إدراكِهِ، وتمتنعُ الألسنُ عن عبارته)[2].

وقال ذو النون رحمه الله: (قُلْ لِمَنْ أظهرَ حُبَّ الله: اِحْذَرْ أَنْ تَذِلَّ لغيرِ الله)[3].

وقيل: (معاملةُ المُحِبِّ على أربعِ منازلَ: على المحبةِ والهيبةِ والحياءِ والتَّعظيم، وأفضلُها التعظيمُ والمحبَّةُ؛ لأنَّ هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنةِ في الجنة، ويرفع عنهم غيرهما)[4].

وأوحى الله تعالى إلى داود: (لو يَعْلَمِ المُدْبِرُونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لَمَاتوا شوقاً إليَّ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُم مِنْ محبَّتي، يا داود هذه إرادتي في المُدْبِرِينَ عنِّي، فكيف إرادتي في المُقْبِلِينَ عليَّ)[5].

ومِنْ علاماتِ المحبة: الشَّفقةُ على جميعِ عبادِ الله، والرَّحمةُ عليهم، والشِّدَّةُ على أعداء الله، وعلى كلِّ مَنْ يُقارِفُ شيئاً مما يكرهُهُ كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فلا تأخذُهُ لومةُ لائمٍ، ولا يَصْرِفُهُ عن الغضبِ لله صارفٌ.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٧٤).

(٢) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٨٩).

(٣) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٩١).

(٤) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (١٠١).

(٥) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (١٠٨).

واعلم أنَّ الحبَّ مِنْ أسرار الله، فينبغي للمُحِبِّ أن يَكْتُمَهُ، ويجتنبَ الدَّعوى وإظهارَ الوجدِ والمحبّةِ تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبةً منه، وغيرةً على سرِّهِ، إلا إذا غَلَبَ سكرُ الحبِّ فانطلقَ اللِّسانُ واضطربتِ الأعضاء، فلا يلامُ فيه صاحبُهُ.

فصل في بيان الرضا

(أَقْرَبُهُمْ إلى اللهِ تعالى أَفْهَمُهُمْ عَنْهُ، وأَفْهَمُهُمْ عَنْهُ أَشَدُّهُمُ اسْتِسْلَاماً لَهُ)[١]

اعلم أنَّ الرضا ثمرةٌ مِنْ ثمارِ المحبّةِ، وهو مِنْ أعلى مقاماتِ المقرَّبين، وحقيقَتُهُ غامضةٌ على الأكثرين، وما يدخلُ عليه مِنَ التَّشابُهِ والإيهامِ غيرُ مُنكشِفٍ إلا لِمَنْ عَلَّمَهُ الله تعالى التأويلَ، وفَهَّمَهُ وفَقَّهَهُ في الدِّين.

ورُوِيَ في الأثر: «إذا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْداً ابْتَلَاهُ، فإنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ»[٢].

ورُوِيَ أيضاً: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللهَ تَعَالَى مِنْهُ بِالقَلِيلِ مِنَ العَمَلِ»[٣].

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلإِسْلامِ، وكَانَ رِزْقُهُ كفافاً ورَضِيَ بِهِ»[٤].

(م: اعلم أنَّ حقيقةَ الابتلاءِ مختلطةٌ إلا على أربابِ البصيرة، فليس كلُّ ما

---

(١) الحكمة (٣٥) من الحكم العطائية الصغرى.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٩٧١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (١)، والبيهقي في الشعب (٩٥٣١).

(٤) رواه مسلم (١٠٥٤) بلفظ: (وقَنِعَ به).

يبتلي الله به عبدَهُ يريدُ به عقوبتَهُ، وقد يكون نفسُ الابتلاءِ إكراماً لعبدٍ، وعذاباً لآخَرَ؛ نظراً لحالِ العبدِ في تلقّي المصائب كما مَيّزَهُ الأكابرُ.

قال الشيخ عبدُ القادرِ الجيلاني رحمه الله: علامةُ الابتلاءِ على وجهِ المقابلةِ والعقوباتِ: عدمُ الصّبرِ عندَ وجودِها، والجزعُ والشّكوى إلى الخليقةِ والبريّات.

وعلامةُ الابتلاءِ تكفيراً وتمحيصاً للخطيّاتِ: وجودُ الصّبرِ الجميلِ مِنْ غيرِ شكوى وإظهارِ الجزعِ إلى الأصدقاء والجيران، والتّضجُّرِ بأداءِ الأوامر والطاعات.

وعلامةُ الابتلاء لارتفاع الدّرجات: وجودُ الرّضا والموافقة، وطمأنينةُ النّفس، والسّكونُ بفعلِ إلهِ الأرضِ والسّموات، والفناءُ فيها إلى حينِ الانكشافِ بمرورِ الأيام والساعات[1].

ولا يتمُّ له شيءٌ مِنَ الرّضا ما دام العبدُ ينظر إلى نفسه بعينِ التّعظيمِ والمنزلةِ، فيتلقّى ما تبرزه القدرةُ بالشكوك والاعتراضات) والواجب على المريد أن يكونَ عند نفسِهِ أخسَّ منزلةً مِنْ أن يرى جميعَ أنواعِ الذُّلِّ ذُلاً في حقِّه، بل يرى نفسَهُ دون ذلك، حتى صار التواضعُ بالطبعِ صفةَ ذاتِهِ.

روي أنَّ عيسى ـ عليه السلام ـ قال لبني إسرائيل: أينَ ينبتُ الزرع؟ قالوا: في التراب، فقال: بحقٍّ أقولُ لكم لا تنبتُ الحكمةُ إلا في قلبِ مثلِ الترابِ[2].

---

(١) ينظر: (فتوح الغيب) (٧٢).

(٢) ينظر: (قوت القلوب) (٢/ ٧٤).

ويروى: «المَعْرِفَةُ رَأس مَالِي وَالعَقْلُ أَصْلُ دِيني وَالحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسي وَالثِّقَةَ كَنْزِي وَالحُزْن رَفِيقي وَالعِلْمُ سِلاَحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالعَجْزُ فَخْرِي وَالزهْدُ حِرْفَتِي وَاليَقِين قُوتِي وَالصِّدْقُ شَفِيعي وَالطَّاعَةَ حُبِّي وَالجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»[1].

*

(۱) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (١١٢).

الكتاب السابع من ربع المنجيات
في النية والإخلاص والصدق

(الأَعْمَالُ صُوَرٌ قائِمةٌ، وأَرْوَاحُها وُجُودُ سِرِّ الإخلاصِ فيها)[١]

اعلم أنه قد انكشفَ لأربابِ القلوبِ ببصيرةِ الإيمانِ وأنوارِ القرآنِ أن لا وصولَ إلى السعادةِ إلا بالعلم والعبادة، فالناسُ كلُّهم هلكى إلا العالِمون؛ والعالِمون كلُّهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلُّهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصونَ على خطر عظيم.

فالعملُ بغير نِيَّةٍ عناء، والنِّيَّةُ بغير إخلاصٍ رياء، وهو للنِّفاقِ كِفاء[٢]، ومع العصيان سواء، والإخلاصُ مِنْ غير صدقٍ وتحقيقٍ هباء، وقد قال الله تعالى في كلِّ عملٍ كان بإرادةِ غيرِ الله مشوباً مغموراً، ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وليت شعري كيف يُصحِّحُ نِيَّتَهُ مَنْ لا يعرفُ حقيقةَ النِّية؟ أو كيف يُخلِصُ مَنْ صَحَّحَ النِّيَّةَ إذا لم يعرف حقيقةَ الإخلاص؟ أو كيف تُطالِبُ المخلصَ نفسُهُ بالصِّدقِ إذا لم يتحقَّق معناه؟

فالوظيفةُ الأولى على كل عبدٍ أراد طاعةَ الله تعالى أن يتعلَّمَ النيةَ أوّلاً

(١) الحكمة (١٠) من الحكم العطائية.

(٢) أي: نظيرٌ ومثيلٌ.

لتحصلَ المعرفة، ثم يُصحِّحَها بالعمل بعد فهمِ حقيقةِ الصدقِ والإخلاص، اللذين هما وسيلتا العبدِ إلى النَّجاةِ والخلاص.

واعلم أنَّ النيةَ والإرادةَ والقصدَ عباراتٌ متواردةٌ على معنىً واحدٍ، وهو حالةٌ وصفةٌ للقلب يكتنفُها أمران: علمٌ وعملٌ، العلمُ يتقدَّمُهُ؛ لأنَّه أصلُهُ وشرطُهُ، والعملُ يتبعُهُ؛ لأنَّه ثمرتُهُ وفرعُهُ، وذلك لأنَّ كلَّ عملٍ - أعني: كلَّ حركةٍ وسكونٍ - اختياريٍّ فإنَّه لا يتمُّ إلا بثلاثةِ أمورٍ: علمٍ، وإرادةٍ، وقدرةٍ؛ لأنَّه لا يريدُ الإنسانُ ما لا يعلمُهُ، فلا بدَّ وأن يعلم، ولا يعملُ ما لم يُرِدْ، فلا بُدَّ مِنْ إرادةٍ، ومعنى الإرادة: انبعاثُ القلبِ إلى ما يراه موافقاً للغرض؛ إما في الحالِ أو في المآل، فالعملُ مُفتقِرٌ إلى النية؛ ليصيرَ بها خيراً، والنيةُ في نفسِها خيرٌ وإنْ تعذَّرَ العملُ لعائقٍ.

وفي حديثِ ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً فَهُوَ لَهُ، فَهاجَرَ رَجُلٌ فَتَزَوَّجَ امرأةً مِنّا، فَكَانَ يُسمَّى مُهَاجِرَ أُمِّ قيسٍ»[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: «نِيَّةُ المُؤْمنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»[2]، فمعناه نيةُ المؤمنِ مِنْ جملةِ طاعتِهِ خيرٌ مِنَ عملِهِ الذي هو مِنْ جملةِ طاعتِهِ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهما أثراً في المقصود، وأثرُ النيةِ أكثرُ مِنْ أثرِ العملِ.

واعلم أنَّه ما مِنْ شيءٍ مِنَ المباحاتِ إلا ويحتملُ نيّةً أو نياتٍ يصيرُ بها مِنْ محاسنِ القربات، وينالُ بها معالي الدرجات، فما أعظمَ خسرانَ مَنْ يغفلُ عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملةِ عن سهوٍ وغفلةٍ.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٣).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ١٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥)، والبيهقي في الشعب (٦٤٤٥).

ولا ينبغي أن يستحقرَ العبدُ شيئاً مِنَ الخطراتِ والخطواتِ واللَّحظاتِ؛ فكلُّ ذلك يُسألُ عنه يوم القيامة أنَّه لِمَ فعلَهُ؟ وما الذي قَصَدَ به؟ رُوِيَ أنَّه «مَنْ تَطَيَّبَ للهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ»[1].

فاستعمالُ الطيبِ مباحٌ، ولكنْ لا بُدَّ فيه مِنْ نيةٍ.

فالتطيُّبُ لله: أن ينويَ اتباعَ سنةِ رسولِ الله ﷺ يومَ الجمعة، وأن ينويَ به تعظيمَ بيتِ الله، فلا يرى أن يدخلَهُ زائراً لله إلا طيِّبَ الرائحة، وأن يقصدَ به دفعَ الروائحِ الكريهةِ عن نفسه التي تؤدِّي إلى إيذاءِ مخالطيه، وأن يقصدَ حسمَ بابِ الغيبةِ عن المغتابين بالروائح الكريهة، فَمَنْ تَعَرَّضَ لمعصيةٍ وهو قادرٌ على الاحترازِ منها فهو شريكٌ في تلك المعصيةِ، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، أشار به إلى أنَّ التَّسَبُّبَ إلى الشَّرِّ شَرٌّ.

والتَّطيُّبُ لغيرِ الله تعالى: هو أن يقصدَ به إظهارَ التَّفاخُرِ بكثرةِ المالِ؛ ليحسدَهُ الأقران، أو يقصدَ به رياءَ الخلقِ؛ ليقومَ له الجاهُ في قلوبهم، ويُذكَرَ بطيبِ الرائحة، ولأمورٍ أخرى لا تحصى، وكلُّ هذا يجعلُ التَّطيُّبَ معصيةً، فبذلك يكونُ أنتنَ مِنَ الجيفةِ في القيامة.

وأما قصدُ التَّنعُّمِ والتلذُّذِ فإنَّه مباحٌ، ولا يكونُ ذلك معصيةً إلا أنَّه يُسألُ عنه، ومَنْ نُوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ، ومَنْ أتى شيئاً مِنْ مباحِ الدنيا لم يُعذَّبْ عليه في

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٣١٩).

الآخرة، ولكنْ يُنْقَصُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ له بقدره، وناهيكَ خُسراناً بأن يستعجلَ ما يفنى ويخسرَ زيادةَ نعيمٍ لا يفنى.

وكان علماءُ الدِّينِ لا يرونَ أن يعملوا عملاً إلا بنيّةٍ؛ لعلمِهم بأنَّ النّيةَ روحُ العمل، وأنَّ العملَ بغير نيّةٍ صادقةٍ رياءٌ وتكلُّفٌ، وهو سببُ مقتٍ لا سببُ قربٍ، وعلموا أنَّ النّيةَ ليست هي قولُ القائلِ بلسانِهِ: نويتُ، كقول الشبعانِ: نويتُ أن أشتهيَ الطعامَ وأميلَ إليه، أو قولُ الفارغ: نويتُ أن أعشقَ فلاناً وأحبَّهُ، بل النِّيَّةُ انبعاثُ القلبِ يجري مجرى الفتوحِ مِنَ الله تعالى، قد تتيسَّرُ في بعض الأوقات وقد تتعذَّرُ، نعم مَنْ كان الغالبُ على قلبه أمرَ الدِّين يتيسَّرُ عليه في أكثر الأحوال إحضارُ النيةِ للخيرات؛ فإنَّ قلبَهُ مائلٌ بالجملةِ إلى أصلِ الخيرات، فينبعث إلى التفاصيل غالباً، ومَنْ مالَ قلبُهُ إلى الدنيا وغَلَبَتْ عليه لم يتيسَّرْ له ذلك، بل لا يتيسَّرُ له في الفرائضِ إلا بجهدٍ جهيدٍ، فربَّما تنبعثُ له داعيةٌ ضعيفةٌ، فيكونُ ثوابُهُ بقدرِ رغبتِهِ ونيَّتِهِ.

ونيّاتُ الناسِ في الطاعة أقسامٌ: فمنهم مَنْ يعملُ خوفاً مِنَ العذاب، ومنهم مَنْ يعملُ رغبةً في الجنة، والعاملُ لأجلِ الجنّةِ عاملٌ لبطنِهِ وفرجِهِ، ودرجتُهُ درجةُ البُلْهِ، وأما عبادةُ ذوي الألباب فإنَّها لا تُجاوِزُ ذكرَ الله تعالى والفكرَ فيه حُبّاً لجماله وجلاله.

حُكِيَ أنَّ أحمدَ بن خضرويه رأى ربَّه عزَّ وجلَّ في المنام، فقال له: كلُّ الناسِ يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيدَ، فإنَّه يطلبني[1].

ورؤي الشبليُّ رحمه الله بعدَ موتِهِ في المنام، فقيل له: ما فَعَلَ اللهُ بك؟ فقال:

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٦٠٨).

لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قولٍ واحدٍ، قلتُ يوماً: أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسران الجنة؟ فقال: أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ لقائي[1].

ورأى أبو يزيدَ رحمه الله ربّه في المنام، فقال: يا ربِّ؛ كيفَ الطريقُ إليك؟ فقال: اترُكْ نفسَكَ وتعالَ إليَّ[2].

واعلم أنَّ الإخلاصَ تخليصُ العملِ عن الشوائب كلِّها ـ قليلِها وكثيرِها ـ فالخالصُ هو الذي لا باعثَ فيه إلا طلبُ القربِ مِنَ الله تعالى، وهذا لا يُتصوَّرُ إلا مِنْ مُحِبٍّ لله، مُستهترٍ بالله، مُستغرِقِ الهمِّ بالآخرة، بحيث لم يبقَ لحبِّ الدنيا في قلبه قرارٌ، حتى الأكل والشرب أيضاً، بل تكونُ رغبتُهُ فيه كرغبتِهِ في قضاء الحاجةِ مِنْ حيث إنَّه ضرورةُ الجِبِلّة، ويقويه على عبادةِ الله تعالى، ويتمنَّى أن لو كُفِيَ شرَّ الجوعِ فلا يكونُ له همٌّ إلا الله تعالى.

فمثلُ هذا الشخصِ لو أكلَ أو شَرِبَ أو قضى حاجته كان خالصَ العملِ صحيحَ النِّيّةِ في جميعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ، فلو نام مثلاً لِيُريحَ نفسَهُ فيتقوَّى على العبادة بعدَهُ كان نومُهُ عبادةً، وكان له درجةُ المخلصين فيه، والذي يغلبُ على نفسِهِ حبُّ الدنيا والعلوُّ والرياسةُ فلا تسلمُ له عبادتُهُ وصومُهُ وصلاتُهُ إلا نادراً.

فعلاجُ الإخلاصِ كسرُ حظوظِ النفس، وقطعُ الطمعِ عن الدنيا، والتَّجرُّدُ للآخرةِ بحيثُ يغلبُ ذلك على القلب، فحينئذٍ يتيسَّرُ له الإخلاص، وكم مِنْ أعمالٍ يتعبُ الإنسانُ فيها ويظنُّ أنَّها خالصةٌ لوجه الله، ويكونُ فيها مغروراً، ولا يدري وجهَ الآفةِ فيها، كما حُكِيَ عن بعضِهم أنَّه قال: قضيتُ صلاةَ ثلاثين سنةً

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٦١٠).

(٢) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٦٠٨).

كنتُ صَلَّيْتُها في المسجدِ في الصَّفِّ الأوَّلِ؛ لأني تأخرتُ يوماً لعذرٍ فصلَّيتُ في الصف الثاني، فاعترتني خجلةٌ مِنَ الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفتُ أنَّ نظرَ الناس إليَّ في الصَّفِّ الأوَّلِ كان مسرَّتي وسببَ استراحةِ قلبي مِنْ حيث لا أشعر.

وهذا دقيقٌ غامضٌ قلَّما تسلمُ الأعمالُ مِنْ أمثالِهِ، والغافلون عنه يرونَ حسناتهم كلَّها في الآخرة سيئات، وهم المرادون بقولِهِ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٤٧ - ٤٨]، وبقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

وأشدُّ الخلقِ تعرُّضاً لهذه الفتنةِ العلماءُ؛ فإنَّ الباعثَ للأكثرين على نشرِ العلمِ لذَّةُ الاستيلاءِ، والفرحُ بالاستتباع، والاستبشارُ بالحمدِ والثَّناءِ.

قال السوسيُّ رحمه الله: (الإخلاصُ: فَقْدُ رؤيةِ الإخلاص؛ فإنَّ مَنْ شاهَدَ في إخلاصِهِ الإخلاصَ فقد احتاجَ إخلاصُهُ إلى إخلاصٍ)[1]، وما ذَكَرَهُ إشارةٌ إلى تصفيةِ العملِ عن العجب.

وقال سهلٌ رحمه الله: (الإخلاصُ: أن يكونَ سكونُ العبدِ وحركاتُهُ لله تعالى خاصَّةً)[2]، وهذه كلمةٌ جامعةٌ محيطةٌ بالغرض.

وقال رويمٌ رحمه الله: (الإخلاصُ في العمل: هو أن لا يريدَ صاحبُهُ عليه عوضاً

---

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٨٠).

(٢) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٨٠).

في الدارين)[١]، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ حظوظَ النفسِ آفةٌ آجلًا وعاجلًا، فالعابدُ لأجلِ التَّنَعُّمِ بالشهوات في الجنةِ معلولٌ، بل الحقيقةُ أن لا يُرادَ بالعملِ إلا وجهُ الله تعالى، وهو إشارةٌ إلى إخلاصِ الصِّدِّيقين، وهو الإخلاصُ المطلق، فأمّا مَنْ يعملُ لرجاءِ الجنَّةِ وخوفِ النارِ فهو مخلصٌ بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرجِ.

وقول القائل: لا يتحرَّكُ الإنسانُ إلا لحظٍّ، والبراءةُ مِنَ الحظوظِ صفةُ الإلهية، ومَنِ ادَّعى ذلك فهو كافرٌ، وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفيرِ مَنْ يدَّعي البراءةَ مِنَ الحظوظ، وقال: (هذا مِنْ صفاتِ الإلهية).

وما ذَكَرَهُ حقٌّ، ولكنَّ القومَ إنَّما أرادوا به البراءةَ عمّا يُسمِّيه الناسُ حظوظاً، وهو الشهواتُ الموصوفةُ في الجنة فقط، فأمَّا التَّلَذُّذُ بمجرَّدِ المعرفةِ والمناجاةِ والنظرِ إلى وجه الله تعالى فهذا حظُّ هؤلاء، وهذا لا يَعُدُّهُ الناسُ حَظّاً، بل يتعجَّبون منه، وقد سُئِلَ سيِّدُ الأوَّلين والآخرين ﷺ عن الإخلاصِ فقال: «أن تقولَ: ربِّيَ الله، ثم تستقيم كما أُمِرْتَ»[٢]، أي: لا تعبدُ هواكَ ونفسَكَ، ولا تعبدُ إلا ربَّك، وتستقيمُ في عبادتِهِ كما أمرتَ، وهذه إشارةٌ إلى قطعِ كلِّ ما سوى الله عن مجرى النظرِ، وهو الإخلاصُ حقّاً.

(ش: قال الإمام الشعراني قدس سره: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِنْ رسول الله ﷺ أن نُخْلِصَ النِّيَّةَ لله تعالى في عِلْمِنا وعَمَلِنا وسائرِ أحوالِنا، ونُخْلِصَ سائرَ أعمالِنا مِنْ سائر الشوائب، حتَّى مِنْ شهودِ الإخلاصِ، ومِنْ حضورِ استحقاقِنا

---

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٨١).

(٢) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٨٥)، وروى الترمذي (٢٤١٠).

ثواباً على ذلك، وإن خَطَرَ لنا طَلَبُ ثوابٍ شَهِدْناهُ مِنْ بابِ المنّةِ والفضلِ.

ومَنْ أرادَ الإخلاصَ في أعماله فعليه أن يشتغلَ بذكرِ الله عزَّ وجلَّ حتَّى يَرِقَّ حجابُ بشريَّتِهِ، ويدخلَ حضرةَ الإحسانِ التي يعبدُ الله تعالى فيها كأنَّه يراه، وهناك يشهدُ العملَ كلَّهُ خَلْقاً لله عز وجل، ليس للعبدِ فيه مدخلٌ إلا كونه مَحَلاً لِبُرُوزِ ذلك العملِ لا غير، وهناك يذهبُ مِنَ العبدِ الرِّياءُ والكبرُ والعجبُ وسائرُ الآفاتِ؛ لأنَّ هذه الآفاتِ إنَّما تجيءُ للعبدِ مِنْ شهودِ كونِهِ فاعلاً لذلك العملِ مع غفلتِهِ عن شهودِ الخالقِ له، فَعُلِمَ أنَّ مَنْ لم يَصِلْ إلى دخولِ حضرة الإحسان ويَشْهَدْ أعمالَهُ كلَّها خَلْقاً لله تعالى كشفاً ويقيناً ـ لا ظَنّاً ولا تخميناً ـ فهو مُعرَّضٌ للوقوعِ في الرِّياءِ، ولَوْ حَفِظَ ألفي كتاب.

وقد أجمعَ أشياخُ الطريقِ كلهم على أنَّ مَنْ أَكَلَ الحرامَ والشُّبُهاتِ لا يصحُّ له إخلاصٌ في عملٍ؛ لأنَّه لا يُخلِصُ إلا إن دَخَلَ في حضرةِ الإحسان، ولا يدخلُ حضرةَ الإحسانِ إلا المُطَهَّرُ مِنْ سائر النجاساتِ الباطنة والظاهرة؛ لأنَّ مجموعَ أهلِ هذه الحضرةِ أنبياء وملائكة وأولياء، وهؤلاء مِنْ شروطِهم العصمةُ والحفظُ مِنْ تناولِ الحرامِ والشُّبهات.

وسمعتُ سيدي عليّاً الخوَّاصَ ـ رحمه الله ـ يقول: إذا راءى العبدُ بعلمِهِ وعملِهِ حَبِطَ عملُهُ بنصِّ الكتابِ والسُّنّة، وإذا حَبِطَ عملُهُ فكأنَّه لم يعمل شيئاً قطُّ، فكيف يرى نفسَهُ بذلك على الناس مع توعُّدِهِ بعدَ الإحباطِ بالعذاب الأليم، فلينتبَّهْ طالبُ العلمِ لِمِثْلِ ذلك.

قلتُ: وكذلك ينبغي للفقير المنقطعِ في كهفٍ أو زاويةٍ أن يتفقَّدَ نفسَهُ في دعواها الإخلاصَ والانقطاعَ إلى الله تعالى، فإن رآها تَستوحِشُ مِنْ تركِ تودُّدِ

الناسِ إليها وغفلتِهم عنها فهو كاذبٌ في دعواه الانقطاعَ إلى الله تعالى؛ فإنَّ الصادقَ يفرحُ إذا غفلَ عنه الناسُ ونسوه، فلم يفتقدوه بهديّةٍ ولا سلامٍ، ويفرحُ إذا انقلبَ أصحابُهُ كلُّهم عنه، واجتمعوا بشيخٍ آخرَ مرشدٍ. فقد بانَ لك أن مَنْ لم يُخلِصْ في عملِهِ وعلمِهِ فهو مِنَ الأخسرين أعمالاً.

واعلم أنَّ جميعَ ما وَرَدَ في فضلِ العلمِ والعملِ إنَّما هو في حقِّ المخلصين فيه، فإيّاكَ يا أخي والغلطَ؛ فإنَّ الناقدَ بصير، وقد كثُرَ في هذا الزمانِ أقوامٌ لا يعملون بعلمهم، وإذا نازعَهم إنسانٌ في دعواهم في قولِهم: «نحن من أهل العلم» استدلُّوا بما جاء في فضل طلب العلم مطلقاً مِنْ غير شرطِ إخلاص، فيُقالُ لمثلِ هؤلاءِ: فأينَ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ الواردةُ في حقِّ مَنْ لم يعمل بعلمِهِ ولم يُخلِصْ؟ فلا تُغالِطْ يا أخي وتدَّعي الإخلاصَ في علمِكَ وعَمَلِكَ مِنْ غيرِ تفتيشٍ؛ فإنَّه غِشٌّ.

وقد سمعتُ سيِّدي عليّاً الخوّاصَ ـ رحمه الله ـ يقولُ في معنى حديثِ «إنَّ الله تعالى لِيُؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرجلِ الفاجر»: هذا الرجلُ يتعلَّمُ العلمَ رياءً وسمعةً، فيُعلِّمُ الناسَ أمورَ دينِهم ويُفقِّهُهُم ويحرسُهم وينصرُ الدِّينَ إذا ضَعُفَ جانبُهُ، ثم يُدخِلُهُ الله تعالى بعد ذلك النارَ لِعَدَمِ إخلاصِهِ[1].

---

(١) ينظر: (العهود المحمدية) (١/ ٨٥. ٩٠).

[بيانُ درجاتِ الشوائبِ والآفاتِ المُكدِّرةِ للإخلاص]

اعلم أنَّ الآفاتِ المشوِّشةَ للإخلاصِ بعضُها جليٌّ وبعضُها خفيٌّ، ولا يُفهمُ اختلافُ درجاتِها في الخفاء والجلاء إلا بمثالٍ، وأظهرُ مُشوِّشاتِ الإخلاص الرياءُ، فلنذكر منه مثالاً فنقول: الشيطانُ يُدخِلُ الآفةَ على المصلِّي مهما كان مخلصاً في صلاته، ثم نظرَ إليه جماعةٌ أو دَخَلَ عليه داخلٌ، فيقولُ الشيطان له: حَسِّنْ صلاتَك حتى ينظر إليك هذا الحاضرُ بعين الوقارِ والصلاحِ، ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحُهُ، وتسكن أطرافُهُ، وتحسن صلاتُهُ، وهذا هو الرياءُ الظاهرُ.

فإذا لم يلتفت المصلِّي إليه واستمرَّ في صلاتِهِ كما كان، فيأتيه اللَّعينُ في معرضِ الخير، ويقول: أنتَ متبوعٌ ومقتدىً بك، فَلَكَ ثوابُ أعمالِهم إن أحسنتَ، وعليك الوزرُ إن أسأتَ، فَأَحْسِنْ عملَكَ بين يديه، فعساهُ يقتدي بك في الخشوعِ وتحسينِ العبادة، وهذا أغمضُ مِنَ الأوّل، وقد ينخدعُ به مَنْ لا ينخدعُ بالأوَّل، وهو أيضاً عينُ الرياءِ ومُبطِلٌ للإخلاص، فإنَّه إن كان يرى ذلك خيراً لا يرضى لغيرِهِ تركَهُ فَلِمَ لَمْ يرتضِ لنفسِهِ ذلك في الخلوة، ولا يمكنُ أن تكونَ نفسُ غيرِهِ أعزَّ عليه مِنْ نفسِهِ؟ بل المقتدى به هو الذي استقامَ في نفسِهِ واستنار قلبُهُ، فانتشرَ نورُهُ إلى غيرِهِ، فيكون له ثوابٌ عليه، فأما هذا فمحضُ النِّفاقِ والتَّلبيس، فَمَنِ اقتدى به أُثيبَ عليه، وأما هو فيُطالبُ بتلبيسِهِ، ويُعاقَبُ على إظهارِهِ مِنْ نفسِهِ ما ليس مُتَّصِفاً به.

ولو أحسنَ صلاتَهُ في الخلوةِ لَحَسُنَتْ في الملأ بين أَظْهُرِ الناس فهذا أيضاً مِنَ الرياءِ الغامضِ؛ لأنَّه مشغولُ الهمِّ بالخلقِ في الخلوة والملأ جميعاً، والإخلاص: أن تكونَ مشاهدةُ البهائمِ لصلاتِهِ ومشاهدةُ الخلقِ على وتيرةٍ واحدةٍ.

واعلم أنَّ الإخلاصَ قلَّما يستيقنُهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ، وإنْ بَالَغَ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكونَ أبداً بعدَ كمالِ الاجتهادِ مُتردِّداً بين الرَّدِّ والقبولِ، خائفاً أن تكونَ في عبادتِهِ آفةٌ يكونُ وبالُها أكثرَ مِنْ ثوابها، وهكذا كان الخائفون مِنْ ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكونَ كلُّ ذي بصيرة، ومع هذا لا ينبغي أن يتركَ العملَ عند خوفِ الآفة والرياء؛ فإنَّ ذلك منتهى بغيةِ الشيطانِ منه؛ إذ المقصودُ أن لا يفوتَ الإخلاص، ومهما تركَ العملَ فقد ضيَّعَ العملَ والإخلاصَ جميعاً، ولذا قال الفضيل رضي الله عنه: (تركُ العملِ بسبب الخلقِ رياءٌ، وفعلُهُ لأجل الخلقِ شركٌ)[1].

وقال عبد العزيز بن أبي رواد رضي الله عنه: (جاورتُ هذا البيتَ ستين سنة، وحججتُ ستين حجّةً، فما دخلتُ في شيءٍ مِنْ أعمالِ الله إلا وحاسبتُ نفسي فوجدتُ نصيبَ الشيطانِ أوفى مِنْ نصيب الله، ليتَهُ لا لي ولا عليَّ)[2].

❊

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٨٥)، ينظر: (الرسالة القشيرية) (٣٦٢).
(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٥/ ٢٩١).

فصلٌ في الصِّدق

(مَطْلَبُ العَارِفِينَ مِنَ اللهِ الصِّدْقُ في العُبُودِيَّةِ، والقِيامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ)(١)

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال النبي ﷺ: «إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَالبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَالفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً»(٢).

ويكفي في فضيلةِ الصِّدقِ أنَّ الصِّدِّيقَ مشتقٌّ منه، والله تعالى وصفَ الأنبياءَ به في معرضِ المدحِ والثناءِ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

[بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه]

اعلم أنَّ لفظَ الصِّدقِ يُستعمَلُ في ستةِ معانٍ: في القولِ، والنيةِ والإرادةِ، والعزمِ، والوفاءِ بالعزمِ، والعملِ، وتحقيقِ مقاماتِ الدِّينِ كلِّها، فَمَنِ اتَّصفَ بالصدقِ في جميع ذلك فهو صدِّيقٌ، ومَنْ كان له حظٌّ في الصِّدقِ في شيءٍ مِنَ الجملةِ فهو صادقٌ بالإضافةِ إلى ما فيه صدقُهُ.

---

(١) الحكمة (٧٩) من الحكم العطائية.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

الأول: صدقُ اللسانِ: وذلك لا يكونُ إلا في الإخبارِ، أو فيما يتضمَّنُ الإخبارَ ويُنبِّهُ عليه، والخبرُ إمَّا أن يتعلَّقَ بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخلُ الوفاءُ بالوعدِ والخلفُ فيه، وحقٌّ على كلِّ عبدٍ أن يحفظَ ألفاظَهُ، فلا يتكلَّمَ إلا بالصِّدقِ، وهذا هو أشهرُ أنواعِ الصدقِ وأظهرُها.

ولكنْ لهذا الصِّدقِ كمالان:

أحدهما: الاحترازُ عن المعاريض؛ فقد قيل: «في المعاريضِ مَنْدُوحةٌ عَنِ الكذبِ»(١)، وذلك لأنَّها تقومُ مقامَ الكذبِ؛ إذ المحذورُ مِنَ الكذبِ تفهيمُ الشيءِ على خلافِ ما هو عليه في نفسه، إلا أنَّ ذلك مما تَمَسُّ إليه الحاجةُ، وتقتضيه المصلحةُ في بعض الأحوال، وكان رسول الله ﷺ إذا توجَّهَ إلى سفرٍ وَرَّى بغيره، وذلك كي لا ينتهيَ الخبرُ إلى الأعداء، فليس هذا مِنَ الكذبِ في شيءٍ، قال ﷺ: «لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ أَوْ نَمَى خَيْراً»(٢).

ورُخِّصَ في ثلاثة مواضع: مَنْ أصلحَ بين اثنين، ومَنْ كان له زوجتان، ومَنْ كان في مصالح الحرب.

والصِّدقُ ههنا يتحوَّلُ إلى النية، فلا يُراعى فيه إلا صدقُ النيةِ وإرادةُ الخير، فمهما صحَّ قصدُهُ وصدقَتْ نيَّتُهُ وتجرَّدت للخيرِ إرادتُهُ كان صادقاً وصدِّيقاً كيفما كان لفظُهُ.

ثم التَّعريضُ فيه أولى، وطريقُهُ ما حُكِيَ عن بعضِهم أنه كان يطلبُهُ بعضُ

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

الظلمةِ وهو في دارِه، فقال لزوجتِهِ: خُطِّي بأصبعِكِ دائرةً وضعي الأصبعَ على الدائرة، وقولي: ليس هو ههنا.

فالكمالُ الأوَّلُ في اللفظِ أن يحترزَ عن صريح اللفظِ وعن المعاريضِ أيضاً إلا عند الضرورةِ.

والكمالُ الثاني: أن يراعيَ معنى الصدقِ في ألفاظِهِ التي يُناجِي بها ربَّه، كقولِهِ: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فإن كان قلبُهُ مُنصرِفاً عن الله، مشغولاً بأمانيِّ الدنيا وشهواتها فهو كاذبٌ، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، فإنه إذا لم يتصف بحقيقةِ العبوديةِ وكان له مطلبٌ سوى الله لم يكن كلامُهُ صِدقاً، فإنَّه إن كان عبداً لنفسِهِ أو عبداً لشهواتِهِ لم يكن صادقاً في قولِهِ.

وكلُّ ما تقيَّدَ العبدُ به فهو عبدٌ له، كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيدَ الدنيا، وقال نبيُّنا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الحُلَّةِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ»[1]، فسمَّى كلَّ مَنْ تقيَّدَ قلبُهُ بشيءٍ عبداً له.

وإنَّما العبدُ الحقُّ لله عزَّ وجلَّ مَنْ عَتَقَ أوّلاً عن غير الله تعالى فصار حُرّاً مطلقاً، فإذا صار القلبُ فارغاً حَلَّتْ فيه العبوديةُ لله تعالى، فتشغلُهُ بالله وبمحبَّتِهِ، وتُقيِّدُ باطنَهُ وظاهرَهُ بطاعته، فلا يكونُ له مرادٌ إلا الله تعالى.

ثم قد يجاوزُ هذا إلى مقامٍ آخرَ أسنى منه يُسمَّى الحُرِّيّة، وهو أن يَعْتِقَ أيضاً عن إرادته لله مِنْ حيث هو، بل يقنعُ بما يريدُ الله له مِنْ تقريبٍ أو إبعادٍ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٥).

فتفنى إرادتُهُ في إرادة الله تعالى، وهذا عبدٌ عَتَقَ عن غير الله فصار حُرّاً، ثم عاد وعَتَقَ عن نفسِهِ فصار حرّاً، وصار مفقوداً لنفسِهِ موجوداً لسيّده ومولاه، إن حرّكهُ تحرَّكَ وإن سَكَّنَهُ سَكَنَ وإن ابتلاهُ رَضِيَ، لم يبقَ فيه اعتراضٌ، بل هو بين يدي الله كالميتِ بين يدي الغاسل، وهذا منتهى الصدقِ في العبودية، فالعبدُ الحقُّ هو الذي وجودُهُ لِمولاهُ لا لنفسِهِ، وهذه درجةُ الصِّدّيقين، وأما الحرّيةُ عن غير الله فدرجاتُ الصادقين فحسب.

الصدقُ الثاني: في النية والإرادة: ويرجعُ ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكونَ له باعثٌ في الحركاتِ والسكناتِ إلا الله تعالى، فإنْ مازجَهُ شوبٌ مِنْ حظوظِ النَّفسِ بَطَلَ صدقُ النيةِ.

الصدقُ الثالث: صدقُ العزمِ: فإنَّ الإنسانَ قد يُقدِّمُ العزمَ على العملِ فيقولُ في نفسِهِ: إن رزقني الله مالاً تصدَّقْتُ بجميعه، أو بشطرِهِ، أو عَزَمَ في نفسِهِ إن لقيتُ عدوّاً قاتلتُ في سبيل الله ولم أبالِ وإنْ قُتِلْتُ، فهذه العزيمةُ، وكان الصدقُ ههنا عبارةً عن التمامِ والقوّة، كما يقال: لفلانٍ شهوةٌ صادقةٌ، فقد يُطلَقُ الصدقُ ويرادُ به هذا المعنى، والصِّدِّيقُ هو الذي تُصادِفُ عزيمتهُ في الخيرات كلِّها قوّةً تامةً ليس فيها تردُّدٌ، وهو كما قال عمرُ رضي الله عنه: (لَأَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ على قومٍ فيهم أبو بكرٍ رضي الله عنه)[1]، فإنه قد وَجَدَ مِنْ نفسِهِ العزمَ الجازمَ والمحبة الصادقةَ بأنْ لا يتأمَّر مع وجودِ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه.

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم: فإنَّ النفسَ قد تسخو بالعزمِ في الحال؛ إذ لا مشقَّةَ في الوعد والعزم، فإذا حَقَّتِ الحقائقُ وحَصَلَ التمكُّنُ، وهاجتِ

---

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠).

الشَّهواتُ انحلَّتِ العزيمةُ، وغَلَبَتِ الشهواتُ، ولم يتفقِ الوفاءُ بالعزم، وهذا يضادُّ الصِّدقَ فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال أبو سعيد الخرّاز رحمه الله: (رأيتُ في المنامِ كأنَّ مَلَكَينِ نزلا مِنَ السماءِ فقالا لي: ما الصِّدقُ؟ قلتُ: الوفاءُ بالعهدِ، فقالا لي: صدقتَ، وعَرَجا إلى السَّماء)[1].

الصدق الخامس: **في الأعمال**: وهو أن يجتهدَ حتى لا تدلَّ أعمالُهُ الظاهرةُ على أمرٍ في باطنِهِ لا يتصفُ هو به، لا بأن يتركَ الأعمالَ، ولكن بأن يستجرَّ الباطنَ إلى تصديقِ الظاهر، وهذا يُخالِفُ ما ذكرناه مِنْ تركِ الرياء؛ لأنَّ المرائيَ هو الذي يقصدُ ذلك لأجل الخلق، ورُبَّ واقفٍ على هيئةِ الخشوعِ في صلاتِهِ ليس يقصدُ به مشاهدةَ غيرِهِ، ولكنْ قلبُهُ غافلٌ عن الصلاة، فَمَنْ ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى، وهو بالباطنِ قائمٌ بين يدي شهوةٍ مِنْ شهواتِهِ.

وكذلك قد يمشي الرجلُ على هيئةِ السكونِ والوقارِ وليس باطنُهُ موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غيرُ صادقٍ في عملِهِ وإنْ لم يكنْ ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إيَّاهم، ولا ينجو مِنْ هذا إلا باستواءِ السريرةِ والعلانيةِ بأن يكونَ باطنُهُ مثلَ ظاهرِهِ أو خيراً مِنْ ظاهرِهِ.

ومِنْ خيفةِ ذلك اختار بعضُهم تشويشَ الظاهرِ، ولبسَ ثيابِ الأشرار؛ كيلا يُظنَّ به الخيرُ بسببِ ظاهرِهِ، فيكونَ كاذباً في دلالةِ الظاهرِ على الباطن.

---

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٢٩٣).

فإذاً مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ إن كانت عن قصدٍ سُمّيت رياءً ويفوتُ بها الإخلاصُ، وإن كانت عن غير قصدٍ فيفوتُ بها الصّدقُ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «اللهُمَّ اجْعَل سَرِيرَتِي خَيْراً مِنْ عَلانِيَتِي وَاجْعَل عَلانِيَتِي صَالِحَةً»(١).

وقال عقبةُ بن عبد الغافر رحمه الله: (إذا وافقَتْ سريرةُ المؤمنِ علانيتَهُ باهى الله به الملائكةَ، يقولُ: هذا عبدي حقاً)(٢).

وقال عبد الواحدُ بنُ زيد رحمه الله: (كان الحسنُ رحمه الله إذا أَمَرَ بشيءٍ كان مِنْ أعملِ الناسِ به، وإذا نهى عن شيءٍ كان مِنْ أتركِ الناسِ له، ولم أر أحداً قطُّ أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ منه)(٣).

الصدق السادس ـ وهو أعلى الدرجات وأعزُّها ـ وهو الصدقُ في مقامات الدين: كالصدقِ في الخوفِ والرجاءِ والتعظيمِ والزهدِ والرضا والتوكلِ والحبِّ وسائرِ هذه الأمور؛ فإنَّ هذه الأمورَ لها مبادٍ ينطلقُ الاسمُ بظهورها، ثم لها غاياتٌ وحقائقُ، والصادقُ المُحقِّقُ مَنْ نال حقيقتَها، وإذا غَلبَ الشيءُ وتَمّتْ حقيقتُهُ سُمّيَ صاحبُهُ صادقاً فيه، كما يُقال: هذا هو الخوفُ الصادقُ.

ولنضربْ للخوفِ مثلاً: فما مِنْ عبدٍ يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخرِ إلا وهو خائفٌ مِنَ الله خوفاً ينطلقُ عليه الاسمُ، ولكنَّه خوفٌ غيرُ صادقٍ، أي: غيرُ بالغٍ درجةَ الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطعَ طريقٍ في سفرِهِ كيفَ يصفرُّ لونُهُ، وترتعدُ فرائصُهُ، ويتنغَّصُ عليه عيشُهُ، ويتعذَّرُ عليه أكلُهُ ونومُهُ، وينقسمُ عليه

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٦).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٦١)، والبيهقي في الشعب (٦٥٥١).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٧).

فكرُهُ، حتى لا ينتفعَ به أهلُهُ وولدُهُ، وقد ينزعجُ عن الوطنِ فيستبدلُ بالأنس الوحشةَ، وبالراحةِ التعبَ والمشقَّةَ والتعرُّضَ للأخطار، كلُّ ذلك خوفاً مِنْ دركِ المحذور، ثم إنَّه يخافُ النارَ ولا يظهرُ عليه شيءٌ مِنْ ذلك عند جريانِ معصيةٍ عليه، ولذلك قال ﷺ: «لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلا مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا»(١).

فالتحقيقُ في هذه الأمورِ عزيزٌ جداً، ولا غايةَ لهذه المقاماتِ حتى ينال تمامَها، ولكنْ لكلِّ عبدٍ منه حظٌّ بحسبِ حالِهِ، إما ضعيفٌ وإما قويٌّ، فإذا قَوِيَ سُمِّي صادقاً فيه، فمعرفةُ الله تعالى وتعظيمُهُ والخوفُ منه لا نهايةَ لها، وقد يكونُ للعبد صدقٌ في بعض الأمورِ دونَ بعض، فإن كان صادقاً في الجميعِ فهو الصِّدِّيقُ حقّاً.

(م: واعلم أنَّ أصلَ جميعِ مقاماتِ الصِّدقِ مِنْ أوَّلها إلى آخرها هو الصِّدقُ في تمييز الخواطرِ ورَدِّها أو قبولِها؛ وهذا التَّمييزُ هو أصلُ الحكمةِ التي يؤتيها الله مَنْ يشاء، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ فإنَّ الله عز وجل لم يذر أيَّ إنسانٍ لِيَضِلَّ عن سبيله حتَّى يُنَبِّهَهُ أوّلاً بواردٍ ملكيٍّ يُنبِّئُهُ ويُذكِّرُهُ بقبحِ ذلك الفعلِ الذي به ضلالُهُ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وهذا البيانُ مِنَ الحقِّ عز وجل الأصلُ فيه ما ذكرنا مِنَ التَّنبيه بالوارد المَلَكيِّ، ولا يخلو منه مؤمنٌ ولا كافرٌ، وإنَّما يُعرِضُ الناسُ عن هذا الواردِ ويُقبِلُونَ على الوارداتِ النفسانية والشيطانية لقلَّةِ صدقِهِم مع أنفسهم، وفي هذا المعنى يقولُ أبو مدين رضي الله عنه: مَنْ لم يَجِدْ في قلبِهِ زاجراً فهو خرابٌ، ومَنْ أدمنَ الإعراضَ عن الحقِّ في نفسِهِ ماتَ قلبُهُ وطَبَعَ الله عليه، فلا تنفعُهُ الموعظةُ، نسأل الله السلامةَ).

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٠١).

الكتاب الثامن من ربع المنجيات
في المراقبة والمحاسبة

(مَنْ تَحَقَّقَ بالعُبُودِيَّةِ نَظَرَ أَفْعَالَهُ بِعَيْنِ الرِّياءِ، وأَحوَالَهُ بِعَيْنِ الدَّعْوَى، وأَقْوَالَهُ بِعَيْنِ الافْتِراءِ)(١)

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ فَعَرَفَ أربابُ البصائرِ مِنْ جملةِ العبادِ أنَّ الله تعالى لهم بالمرصادِ، وأنَّهم سيُناقشون في الحساب، ويُطالَبون بمثاقيلِ الذَّرِّ مِنَ الخطراتِ واللَّحظات، وتحقَّقوا أنَّه لا يُنجيهم مِنْ هذه الأخطارِ إلا لزومُ المحاسبةِ وصدقُ المراقبة، ومطالبةُ النَّفسِ في الأنفاس والحركات، ومحاسبتُها في الخطراتِ واللَّحظات، فَمَنْ حاسَبَ نفسَهُ قبلَ أن يُحاسَبَ خَفَّ في القيامةِ حسابُهُ، وحَضَرَ عند السؤالِ جوابُهُ، وحَسُنَ مُنقَلَبُهُ ومآبُهُ، ومَنْ لم يُحاسِبْ نفسَهُ دامَتْ حسراتُهُ، وطالَتْ في عرصاتِ القيامةِ وقفاتُهُ، وقادَتْهُ إلى الخزي والمقتِ سيئاتُهُ.

فلما انكشفَ لهم ذلك علموا أنَّه لا ينجيهم منه إلا طاعةُ الله، وقد أمرَهم بالصبرِ والمرابطةِ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسَهم أوّلاً بالمشارطةِ، ثم بالمراقبةِ، ثم بالمحاسبةِ، ثم بالمعاقبةِ، ثم بالمجاهدةِ، ثم بالمعاتبة، فكانت لهم في المرابطةِ ستُّ مقاماتٍ:

---

(١)مِن حكم الشيخ أبي مدين الغوث قدس الله سره.

المرابطة الأولى: المشارطة

اعلم أنَّ العقلَ هو التاجرُ في طريقِ الآخرة، وإنَّما مطلبُهُ وربحُهُ تزكيةُ النَّفسِ؛ لأنَّ بذلك فلاحَها كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، وإنَّما فلاحُها بالأعمال الصالحة، والعقلُ يستعينُ بالنفسِ في هذه التجارة، فيحتاجُ إلى مشارطةِ النَّفسِ أوَّلاً؛ فيُوظِّفُ عليها الوظائفَ، ويشترطُ عليها الشروطَ، ويُرشِدُها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفلُ عن مراقبتِها لحظةً؛ فإنَّه لو أهملَها لم ير منها إلا الخيانةَ وتضييعَ رأسِ المال؛ كالعبدِ الخائنِ إذا خلا له الجوُّ وانفردَ بالمال.

ثم بعدَ الفراغِ ينبغي أن يُحاسِبَها ويُطالِبَها بالوفاءِ بما شَرَطَ عليها، فإنَّ هذه تجارةٌ ربحُها الفردوسُ الأعلى، وبلوغُ سدرةِ المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيقُ الحسابِ في هذا مع النَّفسِ أهمُّ كثيراً مِنْ تدقيقِهِ في أرباح الدنيا.

فلا يغفلُ عن محاسبةِ نفسِهِ والتَّضييقِ عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها؛ فإنَّ كلَّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا عوضَ لها، فانقضاؤها ضائعةً أو مصروفةً إلى ما يجلبُ الهلاكَ خسرانٌ عظيمٌ.

فإذا أصبحَ العبدُ وفرغَ مِنْ فريضةِ الصُّبحِ ينبغي أن يُفرِّغَ قلبَهُ ساعةً لمشارطةِ النَّفس، فيقولُ للنَّفس: ما لي بضاعةٌ إلا العمر، وهذا اليومُ الجديدُ قد أمهلني الله تعالى فيه، ولو توفَّاني لكنتُ أتمنَّى أن يُرجِعَني إلى الدُّنيا يوماً واحداً حتى أعملَ فيه صالحاً، فاحسبي أنَّكِ قد تُوفِّيتِ ثم قد رُدِدْتِ، فإياكِ ثم إياكِ أن تُضيِّعي هذا اليوم.

قال بعضُهم: (هَبْ أنَّ المسيءَ قد عُفِيَ عنه؛ أليسَ قد فاتَهُ ثوابُ

المحسنين؟)[1]، أشار به إلى الغبنِ والحسرةِ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

ثم ليستأنف لها وصيّةً في أعضائِهِ السبعةِ وهي العينُ والأذنُ واللّسانُ والبطنُ والفرجُ واليدُ والرِّجلُ، وإنَّ لجهنّمَ سبعةَ أبوابٍ، لكلّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ، وإنَّما تتعيَّنُ تلك الأبوابُ لِمَنْ عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فَيعِظُها كما يُوعَظُ العبدُ الآبقُ المتمرّدُ؛ فإنَّ النفسَ بالطبعِ متمرّدةٌ عن الطاعات.

فهذا وما يجري مجراه أوّلُ مقامٍ مِنْ مقاماتِ المرابطةِ مع النّفس، وهي محاسبةٌ قبلَ العمل، والمحاسبةُ تارةً تكونُ بعدَ العملِ، وتارةً قبلَهُ للتّحذير.

وقال عمرُ رضي الله عنه: (حاسِبُوا أنفسَكُم قبلَ أن تُحاسَبُوا، وزنُوها قبلَ أن تُوزَنُوا، وتَهَيَّؤُوا للعرضِ الأكبرِ)[2].

وقال ﷺ: «الكَيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[3]. و«دانَ نفسَهُ» أي: حاسَبَها.

المرابطة الثانية: المراقبة

اعلم أنَّ حقيقةَ المراقبةِ هي ملاحظةُ الرقيب، وانصرافُ الهمّ إليه، ونعني بهذه المراقبةِ حالةً للقلب يثمرُها نوعٌ مِنَ المعرفةِ، وتثمرُ تلك الحالةُ أعمالاً في الجوارحِ وفي القلب.

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٠٦).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

أما الحالةُ فهي مراعاةُ القلبِ للرقيب، واشتغالُهُ به والتفاتُهُ إليه، وملاحظتُهُ إيَّاهُ وانصرافُهُ إليه.

وأما المعرفةُ التي تثمرُ هذه الحالةَ فهو العلمُ بأنَّ الله مُطَّلِعٌ على الضمائرِ عالِمٌ بالسرائر، رقيبٌ على أعمالِ العباد، قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، وأنَّ سِرَّ القلبِ في حقِّهِ مكشوفٌ، كما أنَّ ظاهرَ البشرةِ للخلقِ مكشوفٌ بل أشدُّ مِنْ ذلك.

والموقنون بهذه المعرفةِ هم المقرَّبون، ومراقبتُهُم التَّعظيمُ والإجلال، وهو أن يصيرَ القلبُ مستغرقاً بملاحظةِ ذلك الجلالِ، ومُنكسِراً تحتَ الهيبةِ، فلا يبقى فيه مُتَّسَعٌ للالتفاتِ إلى الغير أصلاً، وهذا هو الذي صار همُّهُ هَمّاً واحداً فكفاهُ الله سائرَ الهمومِ، ومَنْ نال هذه الدرجةَ فقد يغفلُ عن الخلقِ حتَّى لا يبصرَ مَنْ يحضرُ عنده، وهو فاتحٌ عينيه، ولا يسمعُ ما يقال له مع أنَّه لا صَمَمَ به، وصارت جوارحُهُ مستعملةً جاريةً على السَّدادِ والاستقامةِ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ.

فإذا أوصى الإنسانُ نفسَهُ وشَرَطَ عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوضِ في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكالئة، فإنَّها إن تُرِكَتْ طَغَتْ وفَسَدَتْ.

وقد قال ﷺ: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقال ابنُ عطاء رضي الله عنه: (أفضلُ الطاعاتِ مراقبةُ الحقِّ على دوام الأوقات).

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

فهذه درجةُ المراقبين الذين غَلَبَ على قلوبهم الإجلالُ والتعظيمُ، فلم يبق فيهم مُتَّسَعٌ لغير ذلك.

وأما مراقبةُ الورعين مِنَ أصحاب اليمين، فهم قومٌ غَلَبَ يقينُ اطّلاعِ الله على ظاهرِهِم وباطِنِهم وعلى قلوبهم، ولكنْ لم تُدْهِشْهُمْ ملاحظةُ الجلال، بل بقيتْ قلوبُهُم على حدِّ الاعتدال، متسعةً للتلفُّتِ إلى الأحوال والأعمال، وإنَّهم يرونَ الله في الدُّنيا مُطَّلِعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة، وتعرفُ اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فيحتاجُ أن يراقبَ جميعَ حركاتِهِ وسكناتِهِ وخطراتِهِ ولحظاتِهِ وجميعَ اختياراتِهِ.

وقال الحسنُ رحمه الله: (رَحِمَ الله تعالى عبداً وَقَفَ عندَ همِّهِ، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخَّرَ)، وقد روي: «إنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَل عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتِّهِ الطِّينَ بِأَصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ»[1].

فعلى العبدِ أن يُراقِبَ نفسَهُ عند همِّهِ بالفعلِ وسعيِهِ بالجارحة، فيتوقَّفُ عند الهمِّ والسَّعيِ حتى ينكشفَ له بنورِ العلمِ أنَّه لله تعالى فيمضيه، أو هو لهوى النَّفسِ فيتقيه؛ فإنَّ الخطرةَ الأولى في الباطل إذا لم تُدفَعْ أورثَتْ الرغبةَ، والرغبةُ تُورِثُ الهَمَّ، والهَمُّ يُورِثُ العزمَ، والعزمُ يُورِثُ القصدَ، والقصدُ يُورِثُ الفعلَ، والفعلُ يُورِثُ البوارَ والمقتَ، فينبغي أن تُحسَمَ مادَّةُ الشَّرِّ مِنْ مَنْبَعِهِ الأوَّل، وهو الخاطرُ؛ فإنَّ جميعَ ما وراءَهُ يتبعُهُ.

ومهما أشكلَ على العبدِ ذلك وأظلمَتِ الواقعةُ وعجزَ عن الاجتهادِ والفكرِ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١).

بنفسِهِ فعليه أن يستضيءَ بنور علماءِ الدين، وليفرَّ مِنَ العلماءِ المُضلّين المقبلين على الدنيا فرارَهُ مِنَ الشيطانِ بل أشدَّ، فقد أوحى الله إلى داودَ عليه السلام: (لا تَسْأَلْ عنِّي عالماً أَسْكَرَهُ حُبُّ الدُّنيا فيقطعَكَ عن محبَّتي، أولئك قُطَّاعُ الطريقِ على عبادي)[١].

فالقلوبُ المُظلِمةُ بحبِّ الدنيا وشدَّةِ الشَّرَهِ والتَّكالبِ عليها محجوبةٌ عن نور الله تعالى، فإنَّ مستضاءَ أنوارِ القلوب حضرةُ الربوبية، فكيف يستضيءُ بها مَنِ استدبرها، وأقبلَ على عدوِّها، وعَشِقَ بغيضَها ومقيتَها وهي شهواتُ الدُّنيا؟

فلتكنْ هِمَّةُ المريدِ أوّلاً في إحكامِ العلم، أو في طلبِ عالِمٍ مُعرِضٍ عن الدنيا، أو ضعيفِ الرَّغبةِ فيها إن لم يَجِدْ مَنْ هو عديمُ الرغبةِ فيها.

ومعرفةُ آفاتِ الأعمالِ قد اندرسَتْ في هذه الأعصار، فإنَّ الناسَ كلَّهم قد هَجَرُوا هذه العلوم، واشتغلوا بالتوسط بين الخلقِ في الخصومات الثائرة في اتِّباعِ الشهواتِ، وقالوا: هذا هو الفقه، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقهُ الدِّينِ عن جملة العلومِ، وتجرَّدوا لفقهِ الدنيا الذي ما قُصِدَ به إلا دفعُ الشواغلِ عن القلوب ليُتفرَّغَ لفقهِ الدين، فكان فقهُ الدُّنيا مِنَ الدينِ بواسطةِ هذا الفقه.

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وهذه إشارةٌ إلى المحاسبةِ على ما مضى مِنَ الأعمال.

وقال الحسنُ رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]:

---

(١) ينظر: (قوت القلوب) (١/ ١٤١).

(المؤمنُ لا تراه إلا يلومُ نفسَهُ؛ ماذا أردتُ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بحديث نفسي؟ والفاجرُ يمضي قدماً لا يُعاتِبُ نفسَهُ)[١].

واعلم أنَّ العبدَ كما يكونُ له وقتٌ في أوَّلِ النهارِ يُشارِطُ فيه نفسَهُ على سبيل التوصيةِ بالحقِّ فينبغي أن يكونَ له في آخر النهارِ ساعةٌ يُطالِبُ فيها النَّفسَ ويحاسبُها على جميعِ حركاتِها وسكناتِها، كما يفعلُ التُّجارُ في الدنيا مع الشركاءِ في آخرِ كُلِّ سنةٍ أو شهرٍ أو يومٍ؛ حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً مِنْ أن يفوتَهم منها، ولو حَصَلَ ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسبُ العاقلُ نفسَهُ بما يتعلَّقُ به خطرُ الشَّقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلةُ إلا عن الغفلةِ والخذلانِ وقلَّةِ التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

بل ينبغي أن يُحاسِبَ نفسَهُ على الأنفاس، وعلى معصيتِهِ بالقلب والجوارحِ في كلِّ ساعة؛ ولو رمى العبدُ بكلِّ معصيةٍ حجراً في دارِهِ لامتلأتْ دارُهُ في مدّةٍ يسيرةٍ قريبةٍ مِنْ عمرِهِ، ولكنَّه يتساهلُ في حفظ المعاصي، والمَلَكان يحفظانِ عليه ذلك، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسَبَ المرءُ نفسَهُ، فلم تسلم عن مقارفةِ معصيةٍ، وارتكابِ تقصيرٍ في حقِّ الله تعالى فلا ينبغي أن يُهْمِلَها، فإنَّه إن أَهْمَلَها سَهُلَ عليه مقارفةُ المعاصي، وأنِسَتْ بها نفسُهُ، وعَسُرَ عليه فطامُها، وكان ذلك سببَ هلاكِها، بل ينبغي أن يعاقِبَها، فإذا أكلَ لقمةَ شبهةٍ بشهوةِ نفسٍ ينبغي أن يُعاقِبَ البطنَ بالجوع، وإذا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٤).

نَظَرَ إلى غيرِ مَحْرَمٍ ينبغي أن يُعاقِبَ العينَ بمنع النظر، وكذلك يُعاقِبُ كلَّ طرفٍ مِنْ أطرافِ بدنِهِ بمنعِهِ عن شهواتِهِ، هكذا كانت عادةُ سالكي طريقِ الآخرة.

وقال حذيفةُ بنُ قتادة رضي الله عنه: قيل لرجلٍ: كيف تصنعُ بنفسِكَ في شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرضِ نفسٌ أبغضُ إليَّ منها، فكيف أعطيها شهواتها؟[١]

ودَخَلَ ابنُ السماك رضي الله عنه على داود الطائي حين مات، وهو في بيته على التراب، فقال: يا داود سجنتَ نفسَكَ قبل أن تسجن، وعذَّبتَ نفسَك قبل أن تُعذَّب، فاليوم ترى ثوابَ مَنْ كنتَ تعملُ له[٢].

المرابطة الخامسة: المجاهدة

وهو أنَّه إذا حاسَبَ نفسَهُ فرآها قد قارفَتْ معصيةً فينبغي أن يُعاقِبَها بالعقوباتِ التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكمِ الكسلِ في شيءٍ مِنَ الفضائل أو وردٍ مِنَ الأوراد، فينبغي أن يُؤدِّبَها بتثقيلِ الأورادِ عليها، ويلزمَها فنوناً مِنَ الوظائفِ جَبراً لِمَا فاتَ منه، وتداركاً لِمَا فرَّط؛ فهكذا كان يعملُ عُمّالُ اللهِ تعالى، فقد عاقَبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه نفسَه حين فاتته صلاةُ العصرِ في جماعةٍ بأن تصدَّقَ بأرضٍ كانت له قيمتُها مائتا ألفِ درهمٍ.

وكان ابنُ عمر رضي الله عنه إذا فاتته صلاةٌ في جماعةٍ أحيا تلك الليلة[٣]، وأخَّرَ ليلةً صلاةَ المغربِ حتى طَلَعَ كوكبان فأعتقَ رقبتين[٤].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٥٩).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٣).

(٤) ينظر: (قوت القلوب) (٣/ ٥٧).

وكان بعضُهم يجعلُ على نفسِهِ صومَ سنةٍ أو الحجَّ ماشياً أو التَّصدُّقَ بجميع ماله، وكلُّ ذلك مرابطةً للنفس ومؤاخذةً لها بما فيه نجاتها.

وينبغي أن يطلبَ صحبةَ عبدٍ مِنْ عباد الله مجتهدٍ في العبادة، فيلاحظَ أقوالَهُ ويقتدي به، إلا أنَّ هذا قد تعذَّرَ إذ قد فُقِدَ في هذا الزمانِ مَنْ يجتهدُ في العبادة اجتهادَ الأولين، فينبغي أن يُعدَلَ مِنَ المشاهدة إلى السَّماعِ، فلا شيءَ أنفعُ مِنْ سماعِ أحوالهم، ومطالعةِ أخبارهم، وقد انقضى تعبُهم وبقي ثوابُهم ونعيمُهم أبدَ الآباد لا ينقطع.

دخل رجلٌ على داودَ الطائي رضي الله عنه يوماً فقال: إنَّ في سقفِ بيتِكَ جذعاً مكسوراً فقال: يا ابنَ أخي إنَّ لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرتُ إلى السقف، وكانوا يكرهون فضولَ النظرِ كما يكرهون فضولَ الكلام.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: (سيما الصالحين: صفرةُ الألوانِ مِنَ السَّهر، وعمشُ العيونِ مِنَ البكاء، وذبولُ الشِّفاهِ مِنَ الصوم، عليهم غبرةُ الخاشعين)[1].

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أنَّ أعدى عدوِّكَ نفسُكَ التي بين جنبيك، وقد خُلِقَتْ أمَّارةً بالسوءِ، ميَّالةً إلى الشَّرِّ، فرَّارةً مِنَ الخير، وأُمِرْتَ بتزكيتِها وتقويمها وقودِها بسلاسلِ القهرِ إلى عبادةِ ربِّها وخالقِها، ومنعِها عن شهواتِها، وفطامِها عن لذَّاتِها، فإن أهملتَها جَمَحَتْ وشردَتْ، ولم تظفَرْ بها بعدَ ذلك، وإن لازمتَها بالتوبيخِ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٨٦).

والمعاتبةِ والعذلِ والملامةِ كانت نفسُكَ هي النَّفسَ اللوَّامةَ التي أقسمَ الله تعالى بها، ورجوتَ أن تصيرَ النَّفسَ المطمئنةَ، المدعوّةَ إلى أن تدخلَ في زمرةِ عبادِ الله راضيةً مرضيةً، فلا تغفلنَّ ساعةً عن معاتبتِها، ولا تشتغلنَّ بوعظِ غيرِكَ ما لم تشتغل أوّلاً بوعظِ نفسِكَ.

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: (يا ابن مريم؛ عِظْ نفسَكَ، فإن اتَّعظْتَ فَعِظِ الناسَ، وإلا فاستحيِ مني)[1].

وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وسبيلُكَ أن تُقبِلَ عليها فتقرِّرَ عندها جهلَها وغباوتَها، وأنَّها أبداً تتعزَّزُ بفطنتِها وهدايتِها، ويشتدُّ أنفُها واستنكافُها إذا نُسِبَتْ إلى الحمقِ، فتقولُ لها: يا نفسُ ما أعظمَ جهلَكِ! تدَّعينَ الحكمةَ والذكاءَ والفطنةَ وأنتِ أشدُّ الناسِ غباوةً وحمقاً! أما تعرفينَ ما بين يديكِ مِنَ الجنةِ والنارِ، وأنَّكِ صائرةٌ إلى إحداهما على القرب؟ فما لكِ تفرحينَ وتضحكينَ وتشتغلينَ باللهوِ وأنتِ مطلوبةٌ لهذا الخطبِ الجسيمِ، وعساكِ اليومَ تختطفينَ أو غداً، فأراكِ ترينَ الموتَ بعيداً، ويراه الله قريباً؟ أما تعلمينَ أنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وأنَّ البعيدَ ما ليس بآتٍ؟ أما تعلمينَ أنَّ الموتَ يأتي بغتةً مِنْ غير تقديمِ رسولٍ، ومِنْ غير مواعدةٍ ومواطأةٍ، وأنَّه لا يأتي في شيءٍ دونَ شيءٍ، ولا في شتاءٍ دون صيفٍ، ولا في صيفٍ دون شتاءٍ، ولا في نهارٍ دون ليلٍ، ولا في ليلٍ دون نهارٍ، ولا يأتي في الصِّبا دون الشبابِ، ولا في الشبابِ دون الصبا، بل كلُّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ يمكنُ أن يكونَ فيه الموتُ فجأةً، فما لكِ لا تستعدِّينَ للموتِ، وهو أقربُ إليكِ مِنْ كلِّ قريبٍ؟ أما تتدبَّرينَ

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٣٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٢).

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٢].

ويحكِ يا نفسُ! إن كانت جراءتُكِ على معصية الله لاعتقادِكِ أنَّ الله لا يراكِ فما أعظمَ كفرَكِ! وإن كان مع علمِكِ باطِّلاعه عليكِ فما أشدَّ وقاحتَكِ وأقلَّ حياءَكِ!

ويحكِ يا نفسُ! لو واجهَكِ عبدٌ مِنْ عبيدِكِ بل أخٌ مِنْ إخوانِكِ بما تكرهينه كيفَ كان غضبُكِ عليه ومقتُكِ له؟ فبأيِّ جسارةٍ تتعرَّضينَ لمقتِ الله وغضبِهِ وشديدِ عقابِهِ؟! أفتظنِّينَ أنَّكِ تطيقين عذابه؟ هيهاتَ هيهاتَ! جَرِّبي نفسَكِ إن ألهاكِ البطرُ عن أليمِ عذابه، فاحتبسي ساعةً في الشمسِ، أو قَرِّبي أصبعَكِ مِنَ النار؛ ليتبيَّنَ لكِ قدرُ طاقتِكِ؟

أم تغترِّينَ بكرمِ الله وفضلِهِ واستغنائِهِ عن طاعتِكِ وعبادتِكِ، فما لكِ لا تعوِّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك؟ فإذا قَصَدَكِ عدوٌّ فَلِمَ تستنبطين الحيلَ في دفعِهِ، ولا تكلينه إلى كرمِ الله تعالى، وإذا أرهقتْكِ حاجةٌ إلى شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ممّا لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فما لكِ تنزعينَ الرُّوحَ في طلبها وتحصيلِها مِنْ وجوهِ الحيل؟! فلا تعوِّلين على كرم الله تعالى؟ أفتحسبين أنَّ الله كريمٌ في الآخرةِ دون الدنيا وقد عرفتِ أنَّ سُنَّةَ الله لا تبديلَ لها، وأنَّ ربَّ الآخرةِ والدُّنيا واحدٌ، وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سعى؟!

فهذه طرقُ القومِ في معاتبةِ نفوسِهم، وإنما مطلبُهم مِنَ المعاتبةِ التنبيهُ والاسترعاء، فَمَنْ أهملَ المعاتبةَ لم يكن لنفسِهِ مراعياً، ويُوشِكُ أن لا يكونَ الله تعالى عنه راضياً والسلام.

الكتاب التاسع من ربع المنجيات
في التفكر

(ما نَفَعَ القَلْبَ شيءٌ مِثْلُ عُزْلةٍ يَدْخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرةٍ)[1]

(الفِكْرةُ سِراجُ القَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ)[2]

اعلم أنَّ التفكُّرَ والتدبُّرَ والتأمُّلَ عباراتٌ مترادفةٌ على معنىً واحدٍ، ليس تحتَها معانٍ مختلفة، (م: إلا أنَّ التَّفكُّرَ نفسَهُ مراتبُ، وفي كلِّ مرتبةٍ مواهبُ).

ولا يخفى أنَّ الفكرَ هو مفتاحُ الأنوارِ ومبدأُ الاستبصار، وهو شبكةُ العلومِ ومصيدةُ المعارفِ والفهوم.

وقد أمرَ الله تعالى بالتفكُّرِ والتدبُّرِ في كتابه العزيزِ في مواضعَ، وأثنى على المتفكِّرين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ قوماً تفكَّروا في الله عزَّ وجلَّ فقال النبيُّ ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدرُوا قَدْرَهُ»[3].

---

(١) الحكمة (١٢) من الحكم العطائية.

(٢) الحكمة (٢٦٣) من الحكم العطائية.

(٣) أورده الخركوشي بسنده في تهذيب الأسرار (٦٩٣)، ورواه أبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٧١)، ورواه من حديث عبد الله بن سلام أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٦).

وقال الفضيلُ رحمه الله: (الفكرُ مرآةٌ تُريكَ حسناتِكَ وسيئاتك)[١].

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: (الفكرةُ في نعمِ الله عزَّ وجلَّ مِنْ أفضلِ العبادة)[٢].

(م: وقال الكمشخانويُّ رحمه الله: الفكرُ على خمسة أقسام:

١. فكرٌ في آيات الله، وتتولَّدُ منه المعرفة.

٢. وفكرٌ في نعم الله ومِنَّتِهِ، وتتولَّدُ منه المحبة.

٣. وفكرٌ في وعدِ الله وثوابِهِ، وتتولَّدُ منه الرغبة.

٤. وفكرٌ في وعيد الله وعقابِهِ، وتتولَّدُ منه الرهبة.

٥. وفكرٌ في تفريط الإنسان في جنبِ الله، ويتولَّدُ منه الحياءُ والنَّدامةُ)[٣].

فصل في بيان حقيقة التفكر

(م: اعلم أنَّ الفكرَ عند القومِ لفظٌ مشتركٌ، فتارةً يُطلَقُ على جولانِ العقلِ في عالَمِ الملك، وهو عالَمُ الحِسِّ وميدانُ الكائنات؛ وتارةً يُطلَقُ على جولانِ القلبِ في عالَمِ الملكوت، وهو عالَمُ المعاني ومَسْرَحُ التَّجلِّيات؛ وتارةً يُطلَقُ على انغماسِ الرُّوحِ في عالم الجبروتِ، حيثُ تغيبُ المعاني والصِّفاتُ في ظهورِ شمسِ الذات.

فالمعنى الأول هو ما أشارَ إليه ابن عطاء الله رحمه الله في حكمِهِ فقال: «الفكرةُ

---

(١) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٦٩٥).

(٢) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٦٩٦).

(٣) ينظر: (جامع الأصول في الأولياء) (٣٨٧)

سيرُ القلبِ في ميادينِ الأغيارِ»[١]، وهو فكرُ مقامِ الإسلامِ، والمعنى الثاني والثالث ذَكَرَهما بعدَ ذلك فقال: «الفكرةُ فكرتان، فكرةُ تصديقٍ وإيمان، وفكرةُ شهودٍ وعيانٍ، فالأولى لأربابِ الاعتبارِ، والثانيةُ لأهلِ الشُّهودِ والاستبصار»[٢].

فجولانُ القلبِ في عالَمِ الملكوتِ يُورِثُ التَّصديقَ ويُرسِّخُ الإيمان، وهو لأربابِ الاعتبار؛ لأنَّ أصلَ الاعتبار هو اجتيازٌ مِنْ عالَمِ الملكِ إلى عالَمِ الملكوت، كما يعبرُ الإنسانُ مِنْ طرفٍ إلى آخرَ مِنْ نحوِ نهرٍ أو ما شاكَلَهُ مِنْ عالَمِ الحِسِّ، وهذه الفكرةُ لأهلِ مقامِ الإيمانِ كما أشار إلى ذلك في الحكمةِ نفسِها.

وأما انغماسُ الرُّوحِ في عالَمِ الجبروتِ فليس هو مِنَ التَّفكُّرِ المعهودِ في شيء، وإنما هو شهودٌ وعِيانٌ كما قال، وهي لأهلِ الشُّهودِ والاستبصارِ وهو مقامُ الإحسان، أي: أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، نسأل الله الذوق والتحقيق).

فصل في بيان ثمرات التفكر

واعلم أنَّ ثمرةَ الفكرِ هي العلومُ والأحوالُ والأعمالُ، ولكنَّ ثمرتَهُ الخاصَّةَ العلمُ لا غير، نعم إذا حَصَلَ العلمُ في القلبِ تغيَّرَ حالُ القلب، وإذا تغيَّرَ حالُ القلبِ تغيَّرَتْ أعمالُ الجوارح، فالعملُ تابعُ الحال، والحالُ تابعُ العلم، والعلمُ تابعُ الفكر، فالفكرُ إذاً هو المبدأُ والمفتاحُ للخيرات كلِّها، وهذا هو الذي يكشفُ لكَ عن فضيلةِ التَّفكُّر، وأنَّه خيرٌ مِنَ الذكر؛ لأنَّ الفكرَ ذكرٌ وزيادةٌ، وذكرُ القلبِ

---

(١) الحكمة (٢٦٢) من الحكم العطائية.

(٢) الحكمة (٢٦٤) من الحكم العطائية.

خيرٌ مِنْ عملِ الجوارح، فإذاً التَّفكُّرُ أفضلُ مِنْ جملة الأعمال، ولذلك قيل: (تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ ستين سنةٍ)[1].

وإذا أردت أن تفهمَ كيفيّةَ تغيُّرِ الحالِ بالفكر، فاعلم أنَّ بالفكر يعرف أنَّ الآخرةَ أولى بالإيثار لأنَّها أبقى، فإذا رسخت هذه المعرفةُ يقيناً في القلوبِ تغيَّرَتِ القلوبُ إلى الرغبةِ في الآخرةِ والزهدِ في الدنيا، وهذا ما عنيناه بالحال، إذ كان حالُ القلبِ قبلَ هذه المعرفةِ حبَّ العاجلةِ والميلَ إليها، والنُّفرةَ عن الآخرةِ وقلّةَ الرَّغبةِ فيها.

وبهذه المعرفةِ تغيَّرَ الحالُ وتبدَّلَتْ إرادتُهُ ورغبتُهُ، ثم أثمرَ تغيُّرُ الإرادةِ أعمالَ الجوارحِ في اطِّراحِ الدنيا، والإقبالِ على أعمالِ الآخرة.

فإذا أراد أن يكتسبَ لنفسِهِ أحوالَ التوبةِ والنَّدمِ فليُفتِّشْ ذنوبَهُ أوَّلاً، وليتفكَّرْ فيها، ثم لينظر في الوعيد الذي وَرَدَ فيها، وليتحقَّقْ عند نفسِهِ أنَّه مُتعرِّضٌ لمقتِ الله تعالى، حتى ينبعثَ له حالُ الندم.

وإذا أراد أن يستثيرَ مِنْ قلبِهِ حالَ الشكرِ فلينظر في إحسان الله تعالى إليه وأياديه عليه، وفي إرسالِهِ جميلَ سترِهِ عليه.

وإذا أراد حالَ الخوفِ فلينظر في ذنوبه الظاهرةِ والباطنة، ثم في الموت وسكراتِهِ.

وإذا أراد أن يستجلبَ حالَ الرجاءِ فلينظر إلى الجنةِ ونعيمِها وأشجارِها وأنهارِها وحُورِها وولدانِها ونعيمِها المقيم ومُلْكِها الدائم.

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٤٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٢٣٩٧).

وإذا أراد حالَ المحبَّةِ والشوقِ فليتفكَّرْ في جلال الله وجماله وعظمتِهِ وكبريائه، وذلك بالنظرِ في عجائبِ حكمتِهِ وبدائعِ صُنعِهِ.

والمبتدئُ ينبغي أن يكونَ مستغرقَ الوقتِ في هذه الأفكار حتَّى يعمرَ قلبه بالأخلاق المحمودة والمقاماتِ الشريفة، ويُنزِّهَ باطنَهُ وظاهِرَهُ عن المكاره.

وليعلم أنَّ هذا مع أنَّه أفضلُ مِنْ سائر العبادات فليس هو غايةَ المطلبِ، بل المشغولُ به محجوبٌ عن مطلبِ الصِّدِّيقين، وهو التَّنَعُّمُ بالفكرِ في جلالِ الله وجمالِهِ، واستغراقُ القلبِ بحيث يفنى عن نفسه، أي: ينسى نفسَهُ وأحوالَهُ ومقاماتِهِ وصفاتِهِ، فيكونُ مستغرقَ الهمِّ بالمحبوب. (م: وهذا هو الانغماسُ الكُلِّيُّ في عالَمِ الجبروت كما ذكرنا، وهو مقامُ أهلِ الإحسان).

ولا يتمُّ ذلك إلا بعدَ الانفكاكِ مِنْ جميعِ المهلكاتِ والاتِّصافِ بجميع المنجيات، وإن ظَهَرَ شيءٌ منه قبلَ ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطفِ لا يثبتُ ولا يدومُ، فإنَّ الصِّفاتِ المذمومةَ مشوِّشاتٌ له.

واعلم أنَّ ما ذكرناه هو تفكُّرٌ في عمارةِ الباطنِ؛ ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميعَ عمرِهِ في إصلاح نفسه فمتى يتنعَّمُ بالقرب، ولذلك كان الخوَّاصُ يدورُ في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أُصلِحُ حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ، فأين الفناء في التوحيد؟[1] فالفناءُ في الواحدِ الحقِّ هو غايةُ مقصدِ

---

(١) ينظر: (الرسالة القشيرية) (٢٩٧).

الطالبين، ومنتهى نعيم الصدّيقين، وأمّا التنزّهُ عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح، وأما الاتّصافُ بالصفات المنجياتِ وسائرِ الطاعاتِ فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها، وتنظيفها وجهها، ومشطها شعرها؛ لتصلح بذلك لِلقاءِ زوجِها، فإن استغرقتْ جميع عمرها في تزيينِ الوجهِ كان ذلك حجاباً لها عن لقاءِ المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريقَ الدين إن كنتَ مِنْ أهل المجالسة، وإن كنتَ كالعبد السوء لا يتحرّكُ إلا خوفاً من الضّربِ وطَمَعاً في الأجرة فدونكَ وإتعابَ البدنِ بالأعمال الظاهرة، فإنّ بينك وبين القلبِ حجاباً كثيفاً، فإذا قضيتَ حقَّ الأعمالِ كنتَ مِنْ أهلِ الجنّة، ولكنْ للمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ.

واعلم أنَّ الأفعالَ الإلهيَّةَ كثيرةٌ، والأرضُ وما عليها بالإضافةِ إلى الملائكةِ وملكوتِ السَّمواتِ أقلُّ المخلوقات، فإنَّكَ إن نظرتَ فيها مِنْ حيثُ الجسمُ فالشمسُ على ما ترى مِنْ صغرِ حجمِها هي مثلُ الأرضِ مئةً ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى صغرِ الأرضِ بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغرِ الشَّمسِ بالإضافةِ إلى فلكِها الذي هي مركوزةٌ فيه، فإنَّه لا نسبةَ لها إليه وهي في السماء الرابعة، وهي صغيرةٌ بالإضافة إلى ما فوقَها مِنَ السموات السبع، ثم السموات السبعُ في الكرسيّ كحلقةٍ في فلاة، والكرسيُّ في العرش كذلك، فما أحقرَ الأرضَ بالإضافة إليها، بل ما أصغرَ الأرضَ بالإضافة إلى البحار، ثم الكواكبُ التي تراها، أصغرُها مثلُ الأرضِ ثماني مرات، وأكبرُها ينتهي إلى قريبٍ مِنْ مئةٍ وعشرين مرّةً مثل الأرض، فكلَّما استكثرتَ مِنْ معرفةِ عجائبِ صنعِ الله تعالى كانت معرفتُكَ بجلاله وعظمتِهِ أتمَّ.

(م: قال ابنُ عجيبة ﵀: تفكُّرُ الاعتبارِ يشدُّ عروة الإيمان، وفكرةُ الاستبصار تشدُّ عروةَ الإحسان، ومرجعُ الاعتبارِ إلى خمسة أمور:

الأول: التفكُّرُ في سرعة انصرامِ الدنيا وانقراضِها وذهابِ أهلِها، قرناً فقرناً، وجيلاً فجيلاً، فيوجبُ ذلك الزهدَ في الدنيا، والإعراضَ عن زخارفها الغرّارة، والتأهُّبَ للدار الباقية.

الثاني: التفكُّرُ في الدار الباقية، ودوامِ نعيمِها أو عذابِها، وذلك مرتَّبٌ على السعي في هذه الدار، فيوجبُ ذلك انتهازَ الفرصةِ في الأعمال، واغتنامَ الأوقاتِ والساعاتِ قبل الفوات.

الثالث: التفكُّرُ في النِّعمِ التي أنعمَ الحقُّ تعالى بها على الإنسان؛ إما الظاهرة كالعافية في البدن والرِّزقِ الحلالِ وما يتبعُ ذلك مما لا يحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ وإما الباطنة كنعمة الإسلام والإيمان وصحيحِ العرفانِ والاستقامةِ في الدين، ولا سيَّما إن رَزَقَهُ الله مَنْ يأخذُ بيدِهِ مِنْ شيخٍ عارفٍ، فهذه نعمةٌ عظمى قلَّ مَنْ يسقطُ عليها، فيوجبُ له ذلك الشكرُ الذي هو أعلى المقامات، ومتكفل بالزيادات، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولا يعرفُ العبدُ ما عليه مِنَ النِّعمِ إلا بالتفكُّرِ في أضدادِها، والنظرِ إلى أهل البلاء.

الرابع: التفكُّرُ في عيوبِهِ ومساوئه، لعلَّه يسعى في تطهيرِها أو يشتغلُ بها عن عيوبِ غيره.

الخامس: التفكُّرُ فيما أظهرَ الله تعالى مِنْ أنواعِ المكوَّنات وضروبِ

المصنوعات، فيعرف بذلك جلالةَ الصانع وعظيمَ قدرته، وإحاطةَ علمِهِ وحكمتِهِ، فإن اتَّصَلَ بشيخٍ عارفٍ غَيَّبَهُ عنها بشهودِ مُكوِّنها)[١].

(١) ينظر: (البحر المديد) (٣/ ٣١٧).

الكتاب العاشر من ربع المنجيات
في ذكر الموت وما بعده

(المَوْتُ كَرامةٌ، والفَوْتُ حَسْرةٌ ونَدامةٌ، المَوْتُ انقطاعٌ عَنِ الخَلْقِ، والفَوْتُ انقطاعٌ عَنِ الحَقِّ)[١]

الحمدُ لله الذي قَصَمَ بالموتِ رقابَ الجبابرة، وكَسَرَ به ظهورَ الأكاسرة، وقَصَرَ به آمالَ القياصرة، الذين لم تزل قلوبُهُم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعدُ بالحق فأرداهم في الحافرة، فنُقِلوا مِنَ القصور إلى القبور، ومِنْ ضياءِ المُهُود إلى ظلمةِ اللُّحود، ومِنْ ملاعبةِ الجواري والغلمانِ إلى مقاساةِ الهوامِّ والدِّيدان، ومِنَ التَّنَعُّمِ بالطعامِ والشرابِ إلى التَّمرُّغِ في التراب، ومِنْ أُنْسِ العشرةِ إلى وحشةِ الوحدة، فانظُر هل وجدوا مِنَ الموتِ حِصناً وعِزّاً، أو اتَّخذوا مِنْ دونِهِ حِجاباً وحِرْزاً، وانظرْ ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: ٩٨].

فسبحان مَنِ انفردَ بالقهرِ والاستيلاء، واستأثَرَ باستحقاقِ البقاء، وأذلَّ أصنافَ الخلقِ بما كتبَ عليهم مِنَ الفناء، ثم جَعَلَ الموتَ مَخلَصاً للأتقياء، وموعداً في حقِّهم لِلِّقاء، وجَعَلَ القبرَ سِجْناً للأشقياء، وحبساً ضيِّقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعامُ بالنِّعمِ المتظاهرة، وله الانتقامُ بالنِّقمِ القاهرة،

---

(١) مِن حكم الشيخ أبي مدين الغوث قدس الله سره.

وله الشكرُ في السموات والأرض، وله الحمدُ في الأولى والآخرة، والصلاةُ على محمَّدٍ ذي المعجزاتِ الظاهرةِ والآياتِ الباهرة، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ: فجديرٌ بِمَنِ الموتُ مصرعُهُ، والترابُ مضجعُهُ، والدُّودُ أنيسُهُ، ومنكرٌ ونكيرٌ جليسُهُ، والقبرُ مقرُّهُ، وبطنُ الأرضِ مُستقرُّهُ، والقيامةُ موعدُهُ، والجنةُ أو النارُ موردُهُ أن لا يكون له فكرٌ إلا في الموتِ، ولا ذكرٌ إلا له، ولا استعدادٌ إلا لأجلِهِ، ولا تدبيرٌ إلا فيه، ولا تطلُّعٌ إلا إليه، ولا تعريجٌ إلا عليه، ولا اهتمامٌ إلا به، ولا حومٌ إلا حولَهُ، ولا انتظارٌ وتربُّصٌ إلا له، وحقيقٌ بأن يُعِدَّ نفسَهُ مِنَ الموتى، ويراها في أصحابِ القبور، فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، والبعيدُ ما ليس بآتٍ، وقد قال رسول الله: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»[1].

ولن يتيسَّرَ الاستعدادُ للشيء إلا عندَ تجدُّدِ ذكرِهِ على القلب، ولا يتجدَّدُ ذكرُهُ إلا عندَ التذكُّرِ بالإصغاء إلى المذكِّراتِ له، والنَّظرِ في المنبِّهات عليه، ونحن نذكرُ مِنْ أمرِ الموتِ ومُقدِّماتِهِ ولواحقِهِ وأحوالِ الآخرةِ والقيامةِ والجنَّةِ والنارِ ما لا بُدَّ للعبدِ مِنْ تَذْكارِهِ على التكرار، وملازمتِهِ بالافتكار والاستبصار، ليكونَ ذلك مُستحثّاً على الاستعدادِ، فقد قَرُبَ لما بعدَ الموتِ الرحيلُ، فما بَقِيَ مِنَ العمرِ إلا القليل، والخلقُ عنه غافلون، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١].

*

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩).

[فصلٌ في ذكرِ الموتِ والترغيبِ في الإكثارِ مِنْ ذكرِهِ]

اعلم أنَّ المنهمكَ في الدُّنيا، المُكِبَّ على غرورِها، المُحِبَّ لشهواتِها يغفلُ قلبُهُ لا محالةَ عن ذكرِ الموتِ فلا يذكرُهُ، وإذا ذُكِّرَ به كَرِهَهُ ونَفَرَ منه، أولئك هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ثم الناسُ إما مُنهمِكٌ، وإما تائبٌ مبتدئٌ، أو عارفٌ مُنْتَهٍ.

أما المنهمكُ: فلا يذكرُ الموتَ، وإن ذَكَرَهُ فيذكرُهُ للتأسُّفِ على دنياه، ويشتغلُ بمذمَّتِهِ، وهذا يزيدُهُ ذكرُ الموتِ مِنَ الله بعداً.

وأما التائبُ: فإنَّه يُكثِرُ مِنْ ذكرِ الموتِ؛ لينبعثَ به مِنْ قلبِهِ الخوفُ والخشيةُ، فيفيَ بتمامِ التوبةِ، وربَّما يكرهُ الموتَ خيفةً مِنْ أن يختطفَهُ قبلَ تمامِ التوبةِ وقبلَ إصلاحِ الزاد، وهو معذورٌ في كراهةِ الموت، ولا يدخلُ هذا تحتَ قولِهِ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهِ»[1]؛ فإنَّ هذا ليس يكرهُ الموتَ ولقاءَ الله، وإنَّما يخافُ فوتَ لقاءِ الله لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخَّرُ عن لقاءِ الحبيبِ مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجهٍ يرضاه، فلا يُعَدُّ كارهاً للقائه، وعلامةُ هذا: أن يكونَ دائمَ الاستعدادِ له، لا شغلَ له سواه، وإلا التحقَ بالمنهمك في الدنيا.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

وأما العارفُ: فإنَّه يذكرُ الموتَ دائماً؛ لأنَّه موعدُ لقائه بحبيبه، والمحبُّ لا ينسى قطُّ موعدَ لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىءُ الموتَ ويحبُّ مجيئه؛ ليتخلَّصَ مِنْ دار العاصين، وينتقلَ إلى جوار ربِّ العالمين.

فإذا التائبُ معذورٌ في كراهة الموتِ، وهذا معذورٌ في حبِّ الموتِ وتمنِّيه، وأعلى منهما رتبةً مَنْ فوَّضَ أمرَهُ إلى الله تعالى، فصارَ لا يختارُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً، بل يكونُ أحبُّ الأشياءِ إليه أحبَّها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرطِ الحبِّ والولاءِ إلى مقامِ التَّسليمِ والرِّضا، وهو الغايةُ والمنتهى.

وعلى كلِّ حالٍ ففي ذكرِ الموتِ ثوابٌ وفضلٌ؛ فإنَّ المنهمكَ أيضاً يستفيدُ بذكرِ الموتِ التجافيَ عن الدنيا؛ إذ يَتنَغَّصُ عليه نعيمُهُ، ويتكدَّرُ عليه صفوُ لذَّتِهِ، وكلُّ ما يُكدِّرُ على الإنسانِ اللذاتِ والشهواتِ فهو مِنْ أسبابِ النَّجاة، قال أبو سعيد بن عبد الرحمن رضي الله عنه: إنَّما عُمِّرَتِ الدُّنيا بقلَّةِ عقولِ أهلِها.

[بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره]

اعلم أنَّ الخلقَ في الأملِ يتفاوتون:

فمنهم مَنْ يأملُ البقاءَ ويشتهي ذلك أبداً، قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

ومنهم مَنْ يأملُ البقاءَ إلى الهرمِ وهو أقصى العمر.

ومنهم مَنْ يأملُ إلى سنةٍ، فلا يشتغلُ بتدبير ما وراءَها.

ومنهم مَنْ يرجعُ أملُهُ إلى يومٍ وليلةٍ، فلا يستعدُّ إلا لنهارِهِ، قال عيسى عليه السلام: (لا تهتمُّوا برزقِ غدٍ، فإن يكن غدٌ مِنْ آجالكم فستأتي فيه أرزاقُكم مع آجالكم، وإن لم يكن مِنْ آجالكم فلا تهتمُّوا لآجالِ غيركم).

ومنهم مَنْ لا يُجاوِزُ أملُهُ ساعةً كما قال نبيُّنا ﷺ: «يا عَبْدَ اللهِ إذا أَصْبَحْتَ فلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالمَسَاءِ، وَإذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَحدثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ»[1].

ومنهم مَنْ يكونُ الموتُ نصبَ عينيه كأنَّه واقعٌ به، فهو ينتظره، وهذا الإنسانُ هو الذي يُصلِّي صلاةَ مُودِّعٍ.

فهذه مراتبُ الناسِ، ولكلٍّ درجاتٌ عند الله، ويظهرُ أثرُ قصرِ الأملِ في المبادرة إلى العمل.

---

(١) رواه بهذا اللفظ الروياني في مسنده (١٣٨١)، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦).

[فصل في سكرات الموت وشدته، وما يستحب من الأحوال عنده]

قالت عائشةُ رضي الله عنها: (لا أغبطُ أحداً يهونُ عليه الموتُ بعدَ الذي رأيتُ مِنْ شدَّةِ موتِ رسولِ الله ﷺ)(١).

وروي أنه ﷺ كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ المَوْتِ»(٢).

فهذه سكراتُ الموتِ على أولياءِ الله وأحبابه، فما حالُنا ونحن المنهمكون في المعاصي، وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقيَّةُ الدواهي؛ فإنَّ دواهيَ الموت ثلاثةٌ:

الأولى: شدَّةُ النزعِ كما ذكرناه.

الداهيةُ الثانيةُ: مشاهدةُ صورةِ ملكِ الموتِ، ودخولُ الرَّوعِ والخوفِ منه على القلب؛ فلو رأى صورتَهُ التي يقبضُ عليها روحَ العبدِ المذنبِ أعظمُ الرِّجالِ قوّةً لم يُطِقْ رؤيتَهُ.

الداهية الثالثة: مشاهدةُ العصاةِ مواضعَهم مِنَ النار، وخوفُهم قبلَ المشاهدة؛ فإنَّهم في حالِ السكراتِ قد تخاذلَتْ قواهم، واستسلمت للخروج أرواحُهم، ولن تخرجَ أرواحُهم ما لم يسمعوا نغمةَ ملكِ الموتِ بأحد البشريين: إما أَبْشِرْ يا عدوَّ الله بالنار، أو أَبْشِرْ يا وليَّ الله بالجنة، وعن هذا كان خوفُ أربابِ الألباب،

---

(١) رواه الترمذي (٩٧٩)، والبخاري (٤٤٤٦) بنحوه.

(٢) رواه ().

وقد قال النبي ﷺ: «لنْ يخرُجَ أحدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وحتَّى يَرَى مَقْعَدهُ مِن الجنَّة أوِ النار»[١].

واعلم أنَّ المحبوب عند الموتِ منْ صورةِ المحتضرِ هو الهدوءُ والسُّكونُ، ومِنْ لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومِنْ قلبِهِ أن يكونَ حَسَنَ الظَّنِّ بالله تعالى راجياً غفرانه، فقد روي: «ارْقُبوا الميِّتَ عنْد ثلاثٍ: إذا رشح جبينُهُ ودمَعتْ عَيْنَاهُ ويبستْ شفتاهُ فهي منْ رحْمةِ اللهِ قدْ نزلَتْ به، وإذا غطَّ غطِيطَ المخْنُوقِ واحْمرَّ لوْنُهُ وَأَزْبدَتْ شفتاهُ فهوَ منْ عذابِ اللهِ قدْ نَزَلَ بهِ»[٢].

ودخل رسول الله ﷺ على شابٍّ وهو يموتُ، فقال:كيف تجدك؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا المَوْطِنِ إلّا أعْطاهُ اللهُ الّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الّذِي يَخَافُ»[٣].

[بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به]

اعلم أنَّ زيارةَ القبورِ مُستحبّةٌ على الجملةِ للتذكُّرِ والاعتبار، وزيارةُ قبورِ الصالحين مستحبةٌ لأجلِ التبرك مع الاعتبار، وقد كان رسولُ الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثُمَّ أَذِنَ في ذلك بعدُ، فقد روى عليٌّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمْ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لا تَقُولُوا هُجْراً»[٤].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الموت. ينظر: (إتحاف السادة المتقين) (١٠/ ٢٦٦).

(٢) رواه الحكيم الترمذي (١٢٥).

(٣) رواه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١).

(٤) رواه مسلم (٩٧٧).

وقال ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدِهِما فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرّاً»(١).

وعن ابن سيرين رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالداهُ وَهُوَ عاقٌّ لَهُما فَيَدْعُو اللهَ لَهُما مِنْ بَعْدِهِما فَيَكْتُبُهُ اللهُ تعالى مِنَ البَارِّينَ»(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي»(٣).

والمستحبُّ في زيارة القبورِ أن يَقِفَ مستدبرَ القبلةِ مُستقبِلاً بوجهه الميت، وأن يُسلِّمَ ولا يمسحَ القبرَ ولا يَمَسَّهُ ولا يُقبِّلَه؛ فإنَّ ذلك مِنْ عادةِ النصارى.

وكان محمدُ بنُ واسعٍ رضي الله عنه يزورُ يومَ الجمعةِ، فقيل: لو أخَّرت إلى يوم الاثنين؟ قال: بلغني أنَّ الموتى يعلمون بزوَّراهم يومَ الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده(٤).

ويقولُ مَنْ يُلقِّنُ الميتَ فيما روي: (يا فلان ابن فلان اذكرْ ما خرجتَ عليه مِنَ الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ، وأنَّك رضيتَ بالله ربّاً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً؛ فإنَّ منكراً ونكيراً يتأخَّرُ كلُّ واحدٍ منهما، فيقول: انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا، وقد لُقِّنَ حُجَّتَهُ، ويكونُ الله عزَّ وجلَّ حجيجَهُ دونَهما، وإن لم يعرف اسمَ أمِّه فَلْيَنْسُبْهُ إلى حَوَّاءَ)(٥).

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦١١٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٣٨٥٩).

(٣) رواه الدارقطني (٢/ ٢٧٨)، والبيهقي في الشعب (٣٨٦٢).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٨٨٦٢).

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٤٩).

وقال أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: مرَّتْ جنازةٌ على رسولِ الله ﷺ فأثنوا عليها شرّاً فقال ﷺ: «وَجَبتْ»، ومرُّوا بأخرى فأثنوا عليها خيراً فقال رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ»، فسأله عمرُ رضي الله عنه عن ذلك، فقال ﷺ: «إنَّ هذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهذا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْضِ»(١).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ القَوْمُ الثناءَ يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِملائِكَتِهِ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبيدي عَلَى عَبْدِي، وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي»(٢).

ولمّا قُتِلَ صناديدُ قريشٍ يومَ بدرٍ ناداهم رسولُ الله ﷺ فقال: «يا فلان يا فُلان يا فُلان، قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً»، فقيل: يا رسولَ الله ﷺ أتناديهم وهم أموات؟ فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لأَسْمَعَ لِهذا الكَلامِ مِنْكُمْ إلّا أَنَّهُمْ لا يَقْدرُونَ عَلَى الجَوَابِ»(٣)، فهذا نصٌّ في روحِ الشَّقيِّ وبقاءِ إدراكِها ومعرفتِها، (م: فما بالُكَ بأرواح المؤمنين، أو بأرواح أولياء الله المتقين، أو بروحِ سيِّد الأنبياء والمرسلين ﷺ).

***

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٨٤).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٥).

[بيان ضغطة القبر وسؤال منكر ونكير وصورتهما وبقية القول في عذاب القبر]

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْها أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ ابْنُ مُعَاذٍ»(١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: توفيت زينبُ بنتُ رسولِ الله ﷺ وكانت امرأةً مسقامةً، فتبعها رسولُ الله ﷺ فساءَنا حالُهُ، فلما انتهينا إلى القبرِ فدخلَهُ التمعَ وجهُهُ صفرةً، فلما خَرَجَ أسفرَ وجهُهُ، فقلنا: يا رسولَ الله ﷺ رأينا منكَ شأناً فممَّ ذلك؟ قال: «ذكرتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ القَبْرِ، فَأَتَيْتُ فَأُخْبِرتُ أَنَّ اللهَ خَفَّفَ عَنْها، وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا ما بَيْنَ الخَافِقَيْنِ»(٢)، فقد رأى رسولُ الله ﷺ ضغطةَ القبرِ في حقِّ سعدِ بن معاذ، وفي حقِّ زينبَ ابنتِهِ، ومثلُ هذه المشاهدةِ لا مطمعَ فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقربُ درجتُهم منهم، وإنَّما الممكنُ مِنْ أمثالنا المشاهدةُ في المنام وهي أيضاً مِنْ أنوارِ النُّبوّة، كما قال ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»(٣)، فلذلك لا يُوثَقُ إلا برؤيا الرجلِ الصالحِ الصادق، ومَنْ كَثُرَ كذبُهُ لم تَصْدُقْ رؤياه.

---

(١) رواه ابن حبان (٣١١٢)، وأحمد في المسند (٦/ ٥٥).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٥٧)، ومسقامة: كثيرة الأمراض.

(٣) رواه البخاري (٦٩٨٩)، ومسلم (٢٢٦٤).

وقال أبو جعفرُ الصيدلاني رحمه الله: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في النومِ وحولَهُ جماعةٌ مِنَ الفقراء، فبينما نحن كذلك إذ انشقتِ السماءُ فنزلَ ملكانِ أحدُهما: بيده طشت، وبيد الآخرِ: إبريق، فوُضِعَ الطشتُ بين يدي رسول الله ﷺ فغسلَ يدَهُ ثم أمر حتَّى غسلوا، ثم وضع الطشتَ بين يدي، فقال أحدُهما للآخر: لا تصبَّ على يده، فإنه ليس منهم، فقلت: يا رسول الله ﷺ أليسَ قد روي عنك أنَّك قلتَ: المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ؟ قال: بلى، قلت: يا رسول الله ﷺ فإني أحبُّكَ وأحبُّ هؤلاءِ الفقراءِ فقال: «صُبَّ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»[1].

ورُئِيَ مجنونُ بني عامر بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعلَ الله بك؟ قال: غفَرَ لي، وجعلني حُجَّةً على المحبين.

[الشطر الثاني في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار]

قد عرفتَ فيما سبقَ تأثيرَ أحوالِ الميتِ في سكراتِ الموتِ وخطرَهُ في خوفِ العاقبةِ، ثم مقاساتِهِ لظلمةِ القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذابِ القبر وخطرِهِ إن كان مغضوباً عليه، وأعظمُ مِنْ ذلك كلّه الأخطارُ التي بين يديه، كنفخةِ الصورِ والبعثِ يومَ النشورِ، والعرضِ على الجبار، والسؤالِ عن الكثير والقليل، ونصبِ الميزانِ لمعرفةِ المقادير، ثم جوازِ الصراطِ مع دقَّتِهِ وحِدَّتِهِ، ثم انتظارِ النداء عن فصلِ القضاءِ إما بالإسعاد وإما بالإشقاء، فهذه أحوالٌ وأهوالٌ لا بدَّ لكَ مِنْ معرفتِها، ثم الإيمانِ بها على سبيل الجزم

---

(١) اورده الخركوشي في تهذيب الأسرار (٨٤٦)، والحديث المذكور رواه البخاري (٦١٦٨).

والتصديق، ثم تطويلِ الفكرِ فيها؛ لينبعثَ مِنْ قلبِكَ دواعي الاستعداد لها، وأكثرُ الناسِ لم يدخلِ الإيمانُ باليوم الآخر صميمَ قلوبِهم، ويدلُّ على ذلك شدَّةُ تشمُّرِهم واستعدادِهم لحرِّ الصيفِ وبردِ الشتاء، وتهاونُهُم بحرِّ جهنَّمَ وزمهريرِها.

نعم إذا سُئِلُوا عن اليومِ الآخرِ نَطَقَتْ به ألسنتُهم ثم غفلَتْ عنه قلوبُهم، ومَنْ أُخبرَ بأنَّ ما بين يديه مِنَ الطعامِ مسمومٌ فقال لصاحبِهِ الذي أخبرَهُ: صدقتَ، ثم مدَّ يديه لتناولِهِ كان مُصدِّقاً بلسانِهِ ومُكذِّباً بعملِهِ، وتكذيبُ العملِ أبلغُ مِنْ تكذيبِ اللسان.

فتفكَّرْ في الخلائقِ وذلِّهم وانكسارِهم واستكانتِهم عندَ الانبعاثِ وأنتَ فيما بينهم منكسرٌ كانكسارِهِم مُتحيِّرٌ كتحيُّرِهم، بل إن كنتَ في الدنيا مِنَ المتنعِّمين فملوكُ الأرضِ في ذلك اليومِ هم أذلُّ أهلِ أرضِ الجمعِ وأصغرُهُم وأحقرُهُم، يُوطَؤُون بالأقدامِ مثلَ الذَّرِّ.

ثم انظر كيفَ يساقُ الناسُ بعد البعث والنشور وهم حفاةٌ عراةٌ إلى أرض المحشر، أرضٍ بيضاءَ، قاعٍ صفصفٍ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ترى عليها ربوةً يختفي الإنسان وراءَها، قال ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرصِ النَّقِي لَيْسَ فِيها مَعْلَمٌ لأَحَدٍ»[1].

قال الراوي: و(العفرة): بياضٌ ليس بالناصع. و(النقي): هو النقيُّ عن القشر والنخالة. و(معلم): أي لا بناءَ يسترُ، ولا تظنَّنَّ أنَّ تلك الأرض مثلُ أرضِ الدنيا، بل لا تساويها إلا في الاسمِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢١).

ثم تفكَّرْ في ازدحامِ الخلائقِ واجتماعِهم، حتى ازدحم على الموقف أهلُ السموات السبع والأرضين السبع من ملكٍ وجنٍّ وشيطانٍ ووحشٍ وسبعٍ وطيرٍ، فأشرقَتْ عليهم الشمس وقد تضاعَفَ حرُّها، وتبدَّلَتْ عمَّا كانت عليه مِنْ خِفَّةِ أمرِها، ثم أُدنِيَتْ مِنْ رؤوسِ العالمين كقاب قوسين، فلم يبقَ على الأرض ظِلٌّ إلا ظلُّ عرشِ ربِّ العالمين، ولم يُمكَّنْ مِنَ الاستظلالِ به إلا المقرّبون، قال عقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ العَرَقُ ـ وضرب بيده على رأسه هكذا»[1].

فتأمَّلْ يا مسكينُ في عرقِ أهلِ المحشرِ وشدَّةِ كربِهم، وفيهم مَنْ ينادي فيقول: يا ربِّ أَرِحْني مِنْ هذا الكربِ والانتظارِ ولَوْ إلى النار، وكلُّ ذلك ولم يلقَوا بعدُ حساباً ولا عقاباً؛ فإنَّكَ واحدٌ منهم، ولا تدري إلى أين يبلغُ بك العَرَقُ.

وهو يومٌ تقفُ فيه الخلائقُ شاخصةً أبصارُهم، منفطرةً قلوبُهم، لا يُكلَّمون ولا ينظر في أمورهم، يقفونَ ثلاثمئة عامٍ لا يأكلونَ فيه أكلةً ولا يشربونَ فيه شربةً، ولا يجدونَ فيه روحَ نسيم، قال كعب وقتادة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، قال: يقومون مقدارَ ثلاثمئةِ عامٍ، بل قال عبدُ الله بن عمر رضي الله عنه: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «كَيْفَ بِكُمْ إنْ جَمَعَكُم اللهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَلا ينظر إِلَيْكُمْ»[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٥٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٧١).

(ش: وقد قيل: «لِلعبدِ بينَ يَدَيِ اللهِ مَوْقِفانِ: موقفٌ بينَ يديهِ في الصَّلاةِ، وموقفٌ بينَ يديهِ يومَ لقائِهِ، فَمَنْ قامَ بِحَقِّ الموقفِ الأوَّلِ هُوِّنَ عليهِ الموقفُ الآخَر، وَمَنِ استهانَ بِهذا الموقفِ وَلَمْ يُوَفِّهِ حقَّهُ شُدِّدَ عليهِ ذلكَ الموقفُ»).

فتأمَّلْ في طولِ هذا اليومِ وشدَّةِ الانتظارِ فيه حتى يخفَّ عليكَ انتظارُ الصَّبرِ عن المعاصي في عمرِك المختصر.

وقال ﷺ لَمّا سئل عن طولِ ذلك اليوم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى المُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ يُصَلِّيها فِي الدُّنْيا»[1].

فاجتهدْ أن تكونَ مِنْ أولئك المؤمنين، فما دامَ يبقى لك نَفَسٌ مِنْ عمرِكَ فالأمرُ إليك والاستعدادُ بيديك، فاعمل في أيّامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ تربحْ ربحاً لا منتهى لسروره، واستحقِرْ عمرَكَ بل عمرَ الدنيا وهو سبعةُ آلافِ سنةٍ، فإنَّكَ لو صبرتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ مثلاً لِتَتَخَلَّصَ مِنْ يوم مقداره خمسون ألفاً لكانَ ربحُكَ كثيراً وتعبُكَ يسيراً.

فاستعدَّ يا مسكينُ لهذا اليوم العظيمِ شأنُهُ، المديدِ زمانُهُ، القاهرِ سلطانُهُ، القريبِ أوانُهُ، يوم ترى السماءَ فيه قد انفطرت، والكواكبَ مِنْ هولِهِ قد انتثرت، والنجومَ الزواهرَ قد انكدرت، والشمسَ قد كُوِّرَتْ، والجبالَ قد سُيِّرَتْ، والعشارَ قد عُطِّلَتْ، والوحوشَ قد حُشِرَتْ، والبحارَ قد سُجِّرَتْ، والنفوسَ إلى الأبدان قد زُوِّجَتْ، والجحيمَ قد سُعِّرَتْ، والجنةَ قد أُزْلِفَتْ، والجبالَ قد نُسِفَتْ، والأرضَ قد مُدَّتْ، يوم ترى الأرضَ قد زُلزلَتْ فيه زلزالها، وأخرجتِ الأرضُ أثقالَها، يومئذٍ يصدرُ الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، يوم حُمِلَتْ الأرضُ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ٧٥).

والجبالُ فدكَّتا دكةً واحدة، فيومئذٍ وقعتِ الواقعة، وانشقَّتِ السماءُ فهي يومئذ واهية، والمَلَكُ على أرجائها ويحملُ عرشَ ربّكَ فوقَهم يومئذ ثمانية، يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

يوم تُسيَّرُ فيه الجبالُ وترى الأرضَ بارزة، يوم ترجُّ الأرضُ فيه رَجّاً، وتبسُّ الجبالُ بساً فكانت هباء مُنبثّاً، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهلُ فيه كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعت، وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد، يوم تبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسفُ فيه الجبالُ نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يوم ترى الجبالَ تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب، يوم تنشقُّ فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يُمنَعُ فيه العاصي من الكلام، ولا يسألُ فيه عن الإجرام، بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملت مِنْ خيرٍ محضراً، وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً، يوم تعلمُ فيه كلُّ نفسٍ ما أحضرت، وتشهد ما قدَّمَتْ وأَخَّرَتْ، يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح.

يوم شَيَّبَ ذكرُهُ سيِّدَ المرسلين ﷺ؛ إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه: أراكَ قد شِبْتَ يا رسول الله ﷺ قال: «شَيَبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُها»[١]، وهي الواقعةُ والمرسلاتُ وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت.

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٩٧).

فيا أيُّها القارئُ العاجزُ إنما حظُّكَ مِنْ قراءتِكَ أن تمجمجَ القرآنَ وتحرِّكَ به اللسان، ولو كنتَ مُتفكِّراً فيما تقرؤه لكنتَ جديراً بأن تنشقَّ مرارتُك مما شابَ منه شعرُ سيِّدِ المرسلين، وإذا قنعتَ بحركةِ اللِّسانِ فقد حُرِمْتَ ثمرةَ القرآن، فالقيامةُ أحدُ ما ذُكِرَ فيه.

وقد وصفَ الله بعضَ دواهيها وأكثرَ أساميها؛ لِتَقِفَ بكثرةِ أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصودُ بكثرة الأسامي تكريرَ الأسامي والألقاب، بل الغرضُ تنبيهُ أولي الألباب، فتحتَ كلِّ اسمٍ مِنْ أسماء القيامةِ سِرٌّ، وفي كلِّ نعتٍ مِنْ نعوتِها معنى، فاحرصْ على معرفةِ معانيها.

ونحن الآنَ نجمعُ لكَ أساميها، وهي: يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم المنافسة، ويوم الزلزلة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزي، ويوم عظيم، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرجة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم

الفزع، ويوم المنتهى، ويوم الجزع، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويومٌ لا ريبَ فيه، ويومٌ تُبلَى فيه السرائر، ويومٌ لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ويومٌ تَشْخَصُ فيه الأبصار، ويومٌ لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً، ويومٌ لا تَمْلِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً، ويومٌ يدعُّونَ إلى نار جهنَّمَ دعّاً، ويومٌ يُسحبون في النار على وجوههم، ويومٌ تقلَّبُ وجوهُهم في النار، ويومٌ لا يجزي والدٌ عن ولدِهِ، ويومٌ يفرُّ المرءُ مِنْ أخيه وأمه وأبيه، ويومٌ لا ينطقون ولا يُؤذَنُ لهم فيعتذرون، ويومٌ لا مردَّ له مِنَ الله، ويومٌ هم بارزون، ويومٌ هم على النار يُفتنون، ويومٌ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، ويومٌ لا ينفعُ الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، ويومٌ تُرَدُّ فيه المعاذير وتبلى فيه السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار، ويومٌ تخشعُ فيه الأبصار، وتسكنُ الأصوات ويقل فيه الالتفات، وتبرزُ الخفيَّات، وتظهرُ الخطيئات، يومٌ يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيبُ الصغير ويسكرُ الكبير، فيومئذٍ وضعت الموازين ونشرت الدواوين، وبرزت الجحيم وأغلي الحميم، وزفرت النار ويئس الكفار، وسُعِّرَتِ النيران وتغيَّرتِ الألوان، وخَرِسَ اللِّسان ونَطَقَتْ جوارحُ الإنسان.

فيا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريم، حيثُ أُغلِقَتِ الأبوابُ وأُرخيَتِ السُّتور، واستترتَ عن الخلائق فقارفتَ الفجور، فماذا تفعل وقد شَهِدَتْ عليك جوارحك؟ فالويلُ كلُّ الويلِ لنا معشرَ الغافلين، يرسل لنا سيد المرسلين وينزل

عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصِّفاتِ مِنْ نعوت يوم الدين، ثم يُعرِّفنا غفلتَنا ويقول: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۞ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۞ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١- ٣]، ثم يُعرِّفُنا قربَ القيامة فيقول: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦ - ٧] ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ثم يكونُ أحسنُ أحوالِنا أن نتَّخِذَ دراسةَ هذا القرآنِ عملاً، فلا نتدبَّرُ معانيَهُ، ولا ننظرَ في كثرةِ أوصافِ هذا اليوم وأساميه، ولا نستعدُّ للتخلُّصِ مِنْ دواهيه، فنعوذُ بالله مِنْ هذه الغفلةِ إن لم يتداركنا الله بواسع رحمته.

ثم تفكَّرْ يا مسكينُ بعدَ هذه الأحوالِ فيما يتوجَّهُ عليكَ مِنَ السؤالِ شِفاهاً مِنْ غير ترجمان، فتُسأَلُ عن القليل والكثير والنَّقيرِ والقِطمير، فبينا أنتَ في كرب القيامةِ وعَرَقِها وشدَّةِ عظائمها؛ إذ نزلت ملائكةٌ مِنْ أرجاء السَّماءِ بأجسامٍ عظامٍ وأشخاصٍ ضِخامٍ غلاظٍ شدادٍ أُمِرُوا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى مواقف العرضِ على الجبار.

وقبلَ الابتداءِ بالسؤالِ يظهرُ نورُ العرش: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، وأيقنَ قلبُ كلِّ عبدٍ بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظنَّ كلُّ واحدٍ أنَّه ما يراه أحدٌ سواه، وأنَّه المقصودُ بالأخذِ والسُّؤالِ دونَ مَنْ عداه.

فما ظنُّكَ بنفسِكَ إذا شاهدتَ مثلَ هؤلاء الملائكة، أرسلوا إليك ليأخذوكَ إلى مقام العرض، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدَّةِ اليوم، مستشعرين مما بدا مِنْ غضبِ الجبَّارِ على عباده.

ويبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ

إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]. وهم في ذلك الوقت صادقون؛ إذ طارتْ منهم العقول، وانمحت العلوم إلى أن يقوِّيَهم الله تعالى، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت، فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا مِنْ نذير، ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقولُ الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] فيبقى متشحطاً تحتَ هيبة هذا السؤال سنين.

ثم ينادي الملائكةُ واحداً واحداً «يا فلان بن فلانة» هلُمَّ إلى موقف العرض، فعند ذلك ترتعدُ الفرائصُ، وتضطربُ الجوارحُ وتبهت العقول، ولونُكَ متغيِّرٌ، والعالَمُ عليك مِنْ شدَّةِ الهولِ مظلمٌ، فتوهَّمْ نفسَكَ في أيدي الموكَّلين بك حتى انتهوا بكَ إلى عرشِ الرحمن فرَمَوكَ مِنْ أيديهم، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدمَ؛ ادنُ مني، فدنوتَ بقلبٍ خافقٍ محزونٍ وَجِلٍ، وطرفٍ خاشعٍ ذليلٍ وفؤادٍ مُنكسِرٍ، وأُعطيتَ كتابكَ الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، فكم مِنْ فاحشةٍ نسيتَها فتذكرتها؟ وكم مِنْ طاعةٍ غَفِلْتَ عن آفاتها فانكشفَ لك عن مساوئها؟

فليتَ شعري بأيِّ قدمٍ تقفُ بين يديه، وبأيِّ لسانٍ تجيبُ، وبأيِّ قلبٍ تعقلُ ما تقول؟ قال الله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦ - ٧]. وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: (يُؤتَى بابنِ آدمَ يومَ القيامةِ حتَّى يُوقَفَ بين كفتي الميزان، ويُوكَّلَ به مَلَكٌ، فإنْ ثَقُلَ ميزانُهُ نادى الملكُ بصوتٍ يسمعُ الخلائقُ:

سَعِدَ فلانٌ سعادةً لا يشقى بعدَها أبداً، وإن خَفَّ ميزانُهُ نادى بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعدُ بعدها أبداً)[١].

وعند خِفَّةِ كفَّةِ الحسناتِ تُقْبِلُ الزبانيةُ وبأيديهم مقامعُ مِنْ حديدٍ، عليهم ثيابٌ مِنْ نارٍ، فيأخذونَ نصيبَ النارِ إلى النار.

قال أنسٌ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ عُرَاةً غُبراً بهْماً»، قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيءٌ، ثم يناديهم ربُّهم تعالى بصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أنا الملكُ، أنا الدَّيّان، لا ينبغي لأحدٍ مِنْ أهلِ الجنةِ أن يدخلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ النارِ عليه مظلمةٌ حتَّى أقتصَّهُ منه، ولا لأحدٍ مِنْ أهلِ النار أن يدخلَ النارَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ عنده مظلمةٌ حتَّى أقتصَّهُ منه حتى اللَّطمةُ»، قلنا: وكيفَ وإنَّما نأتي الله عزَّ وجلَّ عُراةً غُبراً بُهماً؟ فقال: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيئَاتِ»[٢].

فاتقوا الله عبادَ الله، ومظالِمَ العبادِ بأخذِ أموالهم، والتَّعرُّضِ لأعراضِهم، وتضييقِ قلوبِهم، وإساءةِ الخلق في معاشرتهم؛ فإنَّ ما بين العبدِ وبين الله خاصّةً فالمغفرةُ إليه أسرعُ.

ثم تفكَّرْ بعد هذه الأهوالِ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٦]، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٣ - ٢٤].

---

(١) رواه البزار في مسنده (٦٩٤٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٤٩٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٧٤).

فالناسُ بعدَ هذه الأهوالِ يُساقون إلى الصراط، وهو جسرٌ ممدودٌ على متنِ النارِ، أحدُّ مِنَ السيفِ، وأدقُّ مِنَ الشعر، فَمَنِ استقامَ في هذا العالَمِ على الصراطِ المستقيمِ خَفَّ على صراطِ الآخرةِ ونجا، ومَنْ عَدَلَ عن الاستقامةِ في الدنيا وأثقلَ ظهرَهُ بالأوزار تَعَثَّرَ في أوَّلِ قدمٍ مِنَ الصراطِ وتَرَدَّى.

فَتَفَكَّرِ الآنَ فيما يحلُّ مِنَ الفزعِ بفؤادكَ إذا رأيتَ الصراطَ ودِقَّتَهُ، ثم وقعَ بصرُكَ على سوادِ جهنَّم مِنْ تحته، ثم قَرَعَ سمعَكَ شهيقُ النارِ وتغيُّظُها، وقد كُلِّفْتَ أن تمشيَ على الصراطِ مع ضعفِ حالِكَ واضطرابِ قلبِكَ وتزلزلِ قدمِكَ وثقلِ ظهرِكَ بالأوزارِ المانعةِ لكَ عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدَّةِ الصراط، فكيفَ بِكَ إذا وضعتَ عليه إحدى رجليك فأحسستَ بحدَّتِهِ، واضطررت إلى أن ترفعَ القدمَ الثانيةَ والخلائقُ بين يديك يزلُّونَ ويتعثَّرون، وتتناولهم زبانيةُ النارِ بالخطاطيف والكلاليب.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ: «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكلاليبُ وَخَطاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يميناً وشِمالاً وعلى جَنْبَتَيْهِ ملائكةٌ يقولونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ اللهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ البَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ المُجْرى، ومنهم مَنْ يسعى سَعياً، ومنهم مَنْ يمشي مَشْياً، ومنهم مَنْ يَحْبُو حَبْواً، ومنهم مَنْ يزحف زحفاً، فأمَّا أهلُ النارِ الذينَ هُمْ أَهْلُها فلا يموتون ولا يَحْيَونَ، وأمّا ناسٌ فَيُؤْخَذُونَ بِذنوبٍ وخطايا فَيَحْتَرِقُونَ فيكونونَ فَحْماً ثُمَّ يُؤْذَنُ في الشَّفَاعَةِ...»[1] الحديث.

واعلم أنَّه إذا حقَّ دخولُ النارِ على طوائفَ مِنَ المؤمنين فإنَّ الله تعالى

---

(١) رواه ابن حبان (٧٣٧٩).

بفضلِهِ يقبلُ فيهم شفاعةَ الأنبياءِ والصِّدّيقين، وكلُّ مَنْ له عندَ الله جاهٌ بحسنِ معاملةٍ فإنَّ له شفاعةً في أهلِهِ وقرابتِهِ وأصدقائِهِ ومعارفِهِ، فكنْ حريصاً على أن تكتسبَ لنفسِكَ عندهم رتبةَ الشفاعة، وذلك بأن لا تحقِرَ آدمياً أصلاً؛ فإنَّ الله تعالى خبَّأَ ولايتَهُ في عبادِهِ، فلعلَّ الذي تزدريهِ عينُكَ هو وليُّ الله، ولا تستصغرْ معصيةً أصلاً؛ فإنَّ الله تعالى خبَّأَ غضبَهُ في معاصيه، فلعلَّ مقتَ الله فيه، ولا تستحقرْ طاعةً أصلاً؛ فإنَّ الله تعالى خبَّأَ رضاه في طاعتِهِ، فلعلَّ رضاهُ فيه، ولو الكلمةَ الطيبةَ أو النِّيَّةَ الحسنةَ أو ما يجري مجراه.

روى عمرو بنُ العاصِ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ تلا قولَ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، ثم رفع يديه وقال: «أمتي أمتي» ثم بكى، فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريلُ؛ اذهبْ إلى محمدٍ فَسَلْهُ ما يُبكيك، فأتاه جبريلُ فَسَأَلَهُ فأخبرَهُ والله أعلمُ به، فقال: يا جبريلُ؛ اذهبْ إلى محمدٍ ﷺ فقل له: إنا سَنُرْضِيكَ في أمَّتِكَ ولا نَسُوءُكَ»[١].

واعلم أنَّ الحوضَ مكرمةٌ عظيمةٌ خصَّ الله بها نبيَّنا ﷺ، وقد اشتملَتِ الأخبارُ على وصفه، فَمِنْ صفاتِهِ أنَّ مَنْ شَرِبَ منه لم يظمأ أبداً، وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «بَيْنَما أَنا أسيرُ في الجَنَّةِ إذا بنهرٍ حافَتَاهُ قِبابُ اللؤلؤ المجوفِ، قلت: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكَوْثَرُ الذي أعطاكَ رَبكَ، فضربَ الملك بيدِهِ فإذا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٨١).

وروى ابنُ عمرَ رضي الله عنه: أنه لَمّا نزلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، قال رسولُ الله ﷺ: «هُوَ نَهرٌ فِي الجَنَّةِ حافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وأحْلَى مِنَ العَسَلِ وأطيبُ رِيحاً مِنَ المِسْكِ يَجْرِي على جَنَادِلِ اللؤلؤ وَالمَرْجَانِ»[١].

ثم اصرفِ الفكرَ إلى موردكَ؛ فإنَّك أُخبرْتَ بأنَّ النارَ موردٌ للجميع؛ إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢]، فأنتَ مِنَ الوُرُودِ على يقينٍ، ومِنَ النجاةِ في شكٍّ، فاستشعرْ في قلبِكَ هولَ ذلك المورد، فعساكَ تستعدُّ للنجاةِ بالتشمُّرِ لأعمالها، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عذاباً يومَ القيامةِ ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نَار يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ»[٢].

وقال ﷺ في وصفِ نارِ جهنم: «أمَرَ اللهُ تعالى أنْ يُوقَدَ على النَّارِ ألفَ عامٍ حتى احمرتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهِا ألفَ عام حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثم أوقد عليها ألفَ عامٍ حتَّى اسودَّتْ، فهي سوداءُ مُظْلِمة»[٣].

وقال ﷺ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّها فقالت: يا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بعْضاً فَأَذِنْ لها في نَفَسَيْنِ نَفَس فِي الشِّتاء وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ ما تَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّها، وَأَشَد ما تَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِها»[٤].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ١١٢)، والترمذي (٣٣٦١) بنحوه.

(٢) رواه مسلم (٢١١).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٩١).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧).

وقال أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: (يُؤتَى بأنعمِ النَّاسِ في الدنيا مِنَ الكفار، فيقال: اغمسوه في النارِ غمسةً، ثم يُقالُ له: هل رأيتَ نعيماً قط؟ فيقول: لا، ويُؤتَى بأشدِّ الناسِ ضراً في الدنيا فيقال: اغمسوه في الجنةِ غمسةً، ثم يُقالُ له: هل رأيتَ ضرّاً قط؟ فيقول: لا)(١).

وقال رسولُ الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وغِلظُ جِلْدِهِ مسِيرَةُ ثَلاثٍ»(٢)، وقال ﷺ: «شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وجْهَهُ»(٣).

وقال مالكُ بنُ أنسٍ رضي الله عنه: قال زيدُ بنُ أسلمَ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، قال: صبروا مئةَ سنة، ثم جزعوا مئة سنة، ثم صبروا مئة سنة، ثم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾(٤).

وقال ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كأنه كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُذْبَحُ بينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ويقالُ يا أهلَ الجَنَّةِ خلودٌ بلا مَوْتٍ ويا أهل النَّارِ خلودٌ بلا مَوْتٍ»(٥).

ثم تأمَّلْ في درجاتِ أهلِ الجنةِ وكرامتهم، فقد سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، قال: «قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ سبعونَ داراً مِنْ ياقوتٍ أحْمَرَ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتاً من زُمُرُّدٍ أخْضَرَ،

---

(١) رواه بهذا اللفظ موقوفاً ابن المبارك في الزهد (٦١١)، وأصله عند مسلم (٢٨٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥١).

(٣) رواه الترمذي (٣١٧٦).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢٣).

(٥) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) بنحوه.

في كلِّ بيت سَرير، على كلِّ سريرٍ سبعونَ فِراشاً مِنْ كلِّ لَوْنٍ، على كُلِّ فِرَاشٍ زوجةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً. على كُلِّ مائدةٍ سبعونَ لوناً مِنَ الطَّعَامِ، فِي كلِّ بيتٍ سبعونَ وَصِيفَةً، وَيُعْطَى المُؤْمِنُ في كُلِّ غَدَاةٍ - يعني مِنَ القوَّةِ - ما يأتي على ذلِكَ أَجْمَعَ»[١].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ حَائِطَ الجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُها مِسْكٌ»[٢].

وقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، قال: «إِنَّ عَلَيْهِم التِّيجَانَ وإنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيء ما بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»[٣].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]، قال: «ما بين الفراشين كما بين السماءِ والأرضِ»[٤].

وقال زيد بن أرقم رضي الله عنه: جاء رجلٌ مِنَ اليهودِ إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم؛ ألستَ تزعمُ أنَّ أهلَ الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرَّ لي بها خصمته، فقال رسول الله ﷺ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي المَطْعَم وَالمَشْرَب وَالجِمَاع»، فقال اليهودي: فإنَّ الذي يأكلُ ويشربُ يكون له الحاجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ المِسْكِ فإذا البَطْنُ قَدْ طهرَ»[٥].

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور (٢٤٥).

(٢) رواه البيهقي في البعث والنشور (٢٤٧)، والترمذي (٢٥٢٥) بنحوه.

(٣) رواه الترمذي (٢٥٦٢).

(٤) رواه الترمذي (٢٥٤٠).

(٥) رواه النسائي في الكبرى (١١٤١٤).

(م: ثم اعلم ـ هداكَ الله سبيلَ محبَّتِهِ ـ أنَّ غايةَ الحسنى ونهايةَ النُّعمى في الدار الآخرة هي النَّظرُ إلى وجهِ الله الكريم)، وأما سائرُ نعيمِ الجنةِ فإنَّه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبةَ لشيءٍ مِنْ لذاتِ الجنةِ إلى لذة اللقاء، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وهذه الزيادةُ هي النظرُ إلى وجه الله تعالى، وهي اللَّذَّةُ الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة.

روى مسلم في الصحيح عن صهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: «إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نادَى مُنادٍ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يريدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ؟ قالوا: ما هذا المَوْعِدُ؟ ألم يُثْقِلْ مَوَازِينَنا وَيُبَيِّضْ وَجُوهَنا وَيُدْخِلنا الجَنَّةَ وَيُجرنَا مَنِ النَّارِ؟ قال: فَيُرْفَعُ الحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إلى وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فما أُعْطُوا شيئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»(١).

[فصل في بيان سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل]

نختمُ الكتابَ ببابٍ في سعةِ رحمةِ الله تعالى على سبيلِ التفاؤل؛ فقد كان رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ الفألَ، وليس لنا مِنَ الأعمالِ ما نرجو به المغفرةَ، فنقتدي برسول الله في التفاؤل، ونرجو أن يختمَ عاقبتَنا بالخير في الدنيا والآخرة كما خَتَمْنا الكتابَ بذكر رحمة الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟

(١) رواه مسلم (١٨١).

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ونحن نستغفرُ الله تعالى مِنْ كلِّ ما زَلَّتْ به القَدَمُ، أو طغى به القلمُ، ونستغفره مِنْ كلِّ علمٍ وعملٍ لم يُقصَدْ به وجهُهُ الكريم؛ فإنَّه لا سبيلَ لنا إليه إلا فضلُهُ العميم، فقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ تَعالَى مِئةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْها رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالبَهَائِمِ وَالهَوَامِّ فيها يَتَعاطَفُونَ وَبِها يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِها عِبادَهُ يَوْمَ القِيامَةِ»(١).

وقال ﷺ: «يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يومَ القِيامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْماً أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ»(٢).

وقال ﷺ: «للهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشفِيقَةِ بِوَلَدِها»(٣).

وقال جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه: (مَنْ زادَتْ حسناتُهُ على سيئاته يومَ القيامة فذلك الذي يدخلُ الجنةَ بغير حساب، ومَنِ استوتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ فذلك الذي يُحاسَبُ حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وإنَّما شفاعةُ رسول الله ﷺ لِمَنْ أوبقَ نفسَهُ وأثقلَ ظهرَهُ)(٤).

وقال عبدُ الله بنِ عمرو بن العاص رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله

---

(١) رواه مسلم (٦٤٦٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٩٤).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٤١٣).

يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلاً كُلُّ سجل مِنْها مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أتنكرُ مِنْ هذا شيئاً أظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فيقولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا، يا رَبِّ. فيقولُ: بَلَى إنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً وَإنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَيُخْرِجُ بطاقَةً فيها: أَشْهَدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وَأَشْهَد أنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ، فيقولُ: يا رَبِّ ما هذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فيقولُ: إنَّكَ لا تُظْلَمُ، قال: فَتُوضَعُ السِّجلاَّتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قال: فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[1].

وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبِهِ وسلَّم.

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠).

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

(١) ربع العبادات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٢) ربع العادات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

(٣) ربع المهلكات

مَنْ لم يتغلغل في عِلْمِنا هذا ماتَ مُصِرّاً على الكبائر

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

(٤) ربع المنجيات

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

❊